الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة الحاج الاخضر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

- بـاتـنـة –

فـن الرحـلة فـي الأدب المـغـربي الـقـديـم

أطـروحة دكتوراه دولـة

في

الأدب الـقـديـم

الطـالب: إسمـاعيل زردومي

إشراف: الأستاذ الدكتور عبد ا العشي

السـنـة الـجـامـعـيـة 1426هـ/ 2005م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي **كلية الآداب والعلوم الإنسانية**

جامعة -باتنة-   قسم اللغة العربية وآدابها



فن الرحلة في الأدب المغربي القديم

رسالة دكتوراه دولة

إعداد الطالب:
إسماعيل زردومي

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد ا العشي

أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور:	علي خذري	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيســـا
الدكتور:	عبد ا العشي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مشرفا ومقررا
الدكتور:	محمد منصوري	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضــوا
الدكتور:	آمنة بلعلي	أستاذ محاضر	جامعة تيزي وزو	عضــوا
الدكتور:	عز الدين بوبيش	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي خنشلة	عضــوا

السنة الجامعية:

1424-1425هـ/2004-2005م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والصلاة والسلام على سيدنا

محمد الأمين

" أو لم يسيروا في الأرض فينظروا

كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا

أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها

أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم

بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن

كانوا أنفسهم يظلمون "

(الروم:9)

المـقدمة

الرحلة سلوك ملازم للإنسان منذ أن وجد رغم تباين الدوافع وتعدد الحاجات التي يمكن إرجاعها إلى الرغبة في اكتشاف المجهول والتعامل معه بما تيسر من وسائل، مع التطلع المستمر إلى امتلاك القدرة على التواصل والانتقال، وهذا ما يثير تأججا داخليا يؤدي إلى الحركة والانتقال قصد إشباع حاجات النفس والعقل والروح والبدن.

لقد لاحظت وأنا أدرس الأدب الأندلسي أن جل العلماء والأدباء يرتحلون إلى المشرق لأهداف تعبدية أو علمية أو سياسية، نظرا لعلاقات المغرب بالمشرق، وتبين لي أن جل رحلاتهم اقتصرت على النقل ولم تتحول إلى نصوص أو تركوا نصوصا توثيقية في مجالات المعرفة أو نصوصا لأخبار الشيوخ والعلماء الذين تلقوا عنهم.

ولما تجاذبت الحديث مع الأستاذ الفاضل الدكتور- عبد الله العشي- بادرني باقتراح دراسة الرحلة المغربية كموضوع لرسالة الدكتوراه، فصادف ذلك هوى سابقا فتمكن، وبعد ذلك شرعت ألتمس المصادر في مظانها في المكتبات العامة والخاصة، في الوطن وخارجه، واستغرق ذلك مني مدة طويلة، فكانت النتيجة أن جمعت ما يقارب ثلاثين رحلة، وتبين لي أن هذا العدد لا يمثل إلا القليل من الإبداع المغربي في الرحلة، وهذا ما شجعني أكثر للمضي في الاختيار.

ثم تبين أن الذين تصدوا لهذا التراث بالدراسة والبحث معدودون، رغم كثرة المهتمين بالسرديات العربية القديمة بحثا عن التأصيل أو عن مجال لتطبيق النظريات المعاصرة أو نتيجة لقناعة تفعيل التراث، فقررت أن أنضم إلى هؤلاء الذين يسعون إلى إدراج هذا التراكم الإبداعي ضمن المشروع الحضاري الهادف إلى إحلال السرد العربي مكانته اللائقة به، وسواء تعلق الأمر بالبحث عن تجنيس التراث أو إحكام التأليف أو البحث عن تناغم العناصر وانسجامها أو مدى حضورها في الإبداع المعاصر فإننا سنستعير من المناهج ما يتناسب مع النصوص المقترحة للدراسة.

ولكون الرحلات عملا سرديا فمن الأفضل مساءلتها ضمن ما تقتضيه السردية المعاصرة ووفق إجراءاتها المنهجية، للكشف عن الخصائص الأدبية فيها.

إنـنا نستعمل بعض وسائل البحث التي تمكننا من التنقيب في عصور الذاكرا المغاربية مـن خلال الرحلات لنتبين ما تحويه هذه الجواهر المنسية التي تتجاذبها مجالات مختلفة من تاريخ وجغرافية واجتماع وأدب وغيرها، وسنسعى أن نكون مرنين في تطبيق المنهج بحـيث لا نستنسـخ النظـريات الغربية ولا نتعسف في تطبيقها على النصوص الرحلية بالإخضـاع والإكـراه، ولكـن سنسـتفيد مـن بعض إجراءاتها التي تقربنا من الدراسة الموضـوعية وتبعدنا عن الانطباعية والأحكام الجاهزا مع السعي الحثيث إلى الإجابة عن الإشـكالية المطروحة ضمن طبيعة العلوم الإنسانية والخصائص المميزا لشكل أدبي حي أقـرب مـا يكـون مـن مجمع ثقافي أبدعه مبدع ما يسعى باستمرار إلى احتواء الثقافة الموسوعية. وهذا ما يجعلنا نطرح الإشكالية من خلال الأسئلة التالية:

- هل الرحلة نص أدبي؟
- هل هي مرتبطة بالطموح الفردي أو الجماعي؟

وهما سؤالان في تحديد الجنس.

- هل العناصر المكونة للرحلة ملتحمة، وما علاقة السابق باللاحق واللاحق بالسابق؟

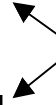
وهو سؤال في التركيب والتأليف.

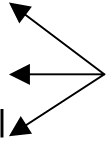
- وما هي الغاية التي كانت تؤديها؟ وهو سؤال في الوظيفة.
- وكيف ندرسها؟
- وهل يستجيب هذا الشكل الرحلي للدراسة المعاصرا؟
- وكيف وظفت مكونات السرد، من زمان ومكان وسارد وشخصية؟
- وهل بإمكاننا أن نتعرض للمضامين من خلال دراسة الشكل؟

وهي أسئلة في المنهج.

- وهل عينة الدراسة التي تغطي الفترا الزمنية الممتدا من القرن السابع الهجري إلى نهاية القرن الثاني عشر من الهجرة، كافية لتجسيد الرحلة المغاربية القديمة؟
- وهل تطبيق الدراسة على كل رحلة يستطيع أن يكشف عن خصوصيات النصوص و فـرادتها؟ فالتحليل التطبيقي لا يخلو من نتائج مفيدة، كما لا يخلو من صعوبات أيضا.

ولما كان موضوع البحث يتناول الرحلة والرحالة فقد خصصت للرحالة فصلين وللرحلة ثلاثة فصول كما يلي:





فعلت ذلك لأنني أعتبر الرحلة قصة وخطابا وهذه بعض عناصرهما. هذه الخلفية هي التي جعلتني أقسم البحث إلى تمهيد وخمسة فصول.

ففي التمهيد تناولت ما يتعلق بهوية الرحلة وجنسها وتطورها وتنوعها واتضح أن الرحلة: تخضع لبنية نمطية مطردة وبنية فرعية متنوعة.

ومن حيث منهج التدوين اعتمدت الرحلة المغربية على المزج بين الترتيب المكاني والزماني ولم تغفل الموضوعات، أما من حيث طرق التدوين فمنها ما كتب أثناء الترحل ومنها ما كتب بعد تجميع المسودات والمذكرات واستشارة المراجع، ومنها ما ابتدعته الذات في المناسبة، ويخضع الكل لتأليف لاحق تناول البنية الكلية بالتنسيق والتفصيل.

تخضع أشكال الرحلة لهيكل أساسه الحركة والتنقل من نقطة ما سعيا لبلوغ هدف ما، ثم العودة إلى نقطة البدء. أما دواعيها فمتنوعة تنوع النوازع البشرية، ويمكن إجمالها في الدواعي العلمية والروحية والسياسية، وقد راعينا في العينة المختارة أن تكون ممثلة لبنية الرحلات المفتوحة والمغلقة، أي أن تكون ممثلة للرحلات المحلية والخارجية، كما راعينا أن تكون ممثلة لأقطار المغرب الإسلامي ما أمكن ذلك.

وفي الفصل الأول: تناولت بنية الرحلات، وهي بنية تسرد لنا حكاية سفر ذي بداية ونهاية، وما بينهما ليس كله حكيا، ففيه الوصف والخبر وسرد أقوال الآخرين من شعر ونثر وتراجم، إلى جانب الإبداعات الخاصة، ويخضع الكل لعلاقات سببية أو زمنية أو مكانية، والسارد له دراية كاملة بعلاقات السابق واللاحق وما يتطلبه التأليف من صنعة.

ورغم تشابه الرحلات في البنية النمطية الهيكلية، فإن البنية الفرعية متنوعة ومتغيرة حسب ظروف الزمان والمكان والرحالة والاتجاه.

تتناول الرحلǨ المنتقاƧ للدراسة موضوعاǨ متقاربةǛ وبخاǧة الحجازية منهاǛ وتحمل خǧوǧـياǨ تجسد زمانها وساردها ومǐلǨهاǛ مما جعلنا نلتجƐ إلǠ التحليل الجزئي بدل التحلـيل الكلـيǛ ولكـون هذه الرحلǨ تتعرƽ أحيانا لǖماكن نǨسها اعتبرناها نƫراǨ تعكƩ الضوƇ وتلون السرد حسب رǗية الرحالة واهتماماتهمǛ ورƷم ما يبدو علǠ وحداǨ الـرحلة مـن تǨكـƧ أحيانا فǘنها مرتبطة بعǚقاǨ متينةǛ أما الوحداǨ الǧغرǎ فتنǨتƠ بالحلول في المكان وتنغلƼ بالرحيل عنǾ استعدادا لǨتƠ وحدا أخرǎǛ وأما وحداǨ الطريƼ الممتدǛ فغالبا ما تكون مهملة خاوية يكتǨي السارد بمجرد ذكرهاǛ أǅ أن الاتǧال بالمكان عتبة نلǰ من خǚلها إلǠ سرد متنوƱǛ وبعد الامتǚƇ والإشباƱǛ تغلƼ الوحدا بالانǨǧال عن المكانǛ والإيماƇ إلǠ بدƇ وحدا أخرǎ بعناǧر متشابهة من حيƮ الهيكلǛ مختلǨة من حيƮ الخطاب.

وفـي الǨǧل الثاني: تناولǨ بنية الشخǧيةǛ والشخǧية في الرحلة فردية تمǮل ǧاحبها الذǅ يتمتƲ بسيرا ذاتية خارج النƫ و تنتمي إلǠ المرجƲ ولها اهتماماتها الخاǧة المتعلقة بوعـي التـراƮ والقـيم والمـبادƏ كما تتجلǠ في الخطاب المنتقǠǛ وليسǨ نمطية ذاǨ خǧـائƫ إنسانية كما في المتخيل.وقد حاولنا محاورتها وفƼ نƫرية العواملǛ مما يساعد علǠ اكتشاف اهتماماتها وأبعادها الدينية والاجتماعية والإنسانية.

ومـن خǚل محاورا الرحلǨ وفƼ هذه النƫرية تبين لنا استجابتها لǚجراƇاǨ أ حياناǛ وتǨبـǠ الانǧياƱ أحيانا أخرǎǛ مما جعلنا نتعامل معها بمرونةǛ حسب ما يتيحǾ الخطاب مـن إمكاناǨǛ ذلƧ أن الرƷبة الناتجة عن الحافز في الرحلة متعلقة بنقطة الوǧول ƷالباǛ فتـبدو الشخǧية كǖنها عديمة الحوافز الǨرعية مما يقلل من البنياǨ العاملية إلا فيما يتعلƼ بالبنية الهيكليةǛ وحينما تتجدد الرƷباǨ تتنوƱ البنياǨ العاملية.

ومـن خـǚل التحليل أيضا تبين ضعف الǧراƱ في الرحلة مما أضعف حبكتهاǛ بسبب كـون المناوئـين لا يحمـون مشـروعا مضاداǛ وإنما هم مناوئون آنيونǛ يخطǨون أو يتلǧـǧون ويǨرون وهذا لا ينǨي وجود عوائƼ حقيقية أحياناǛ تǐزم السرد والشخǧيةǛ مما يقربها من القǧƫ الواقعيǛ ويبعدها عن الخبر الجاف.

وخطـاب الرحلة مستويان: مستوى متعلق بالذات فيما تفعله أو تقوله أو تعتقده باعتبار هـذه الـذات شخصـية تحمل مشاعر معينة، ومستوى آخر يتعلق بتاريخ المكان الذي يـتحول باستمرار إلى مشروع سردي يتم فيه الحفر عن الأفعال المتراكمة للإنسان عبر الأزمـان، فـهذا المكـان مسـرحا لعرض ما مر من السكان والأحداث والأقوال، والكل يستعرض أمام القارئ عن طريق الحكي المتعاقب للشخصيات الفاعلة والمنفعلة.

وعلاقة الشخصية بالمكان تتراوح بين الشوق إلى درجة الهيام والنفور وبين الألم الشديد على المآل السيئ إلى الإعجاب والانبهار.

وفي الفصل الثالث: درست بنية المكان باعتباره نواة السرد يستقطبه بالحفر في ماضيه وحاضـره وفي الأحداث التي مرت به، وتشكيله المتجلي في المكان الطبيعي والمصنوع والأمـاكن التاريخية والحضرية الآهلة والخاوية، مما يساعد على تصور فضاء الرحلة عبر الأزمان والتطورات التي حدثت. ولا شك أن للخصائص التصويرية للكلمة دورا في تجسـيد الوصـف المـرتبط بأمـاكن حقيقية تتحول بعد تشكيلها اللغوي إلى وثيقة أثرية محفوظة في النص الواصف.

والأمـاكن في الرحلة متعددة، فمنها الصحراء القاحلة والواحات الخضراء، والحقول الشاسـعة والجـبال الشـاهقة، والوديان العميقة، والمدن الآهلة، والقرى الخاوية، والآثار القائمـة، والطـرقات الضـيقة والمعبدة، هذه الأماكن هي المحفز للشخصية بأن تتحرك وتسـرد أو تصـف، عن طريق الرؤية غالبا، و حينما يمزج المكان بالتاريخ، تبدو عليه ملامـح الوصـف التعبيـري، وقد يبلغ قمة من الموضوعية حين يقف السارد أمام أفعال الإنسـان الهندسـية فـي الآثار وبقايا الديار، وأما طرق الوصف فمتعددة، منها الوصف الانتقائـي المعـتمد على مميزات المكان والوصف الاستقصائي المهتم بالعناصر، وتبدو الأمـاكن الموصوفة ساكنة، وقد تعج بالحركة والحيوية، إلى جانب المناظر الشاملة للمدن والآفاق، التي تقدم فيها العناصر بسرعة وكأن السارد ينظر إلى المكان من عل.

أمـا وظائـف المكان فمتنوعة، منها التعبدية والتعليمية والأثرية والتجارية... والسارد يقـيم الأمـاكن باسـتمرار ويتفاعل معها ويستخلص العبرة بالنظر إلى السكان استئناسا ونفـورا، مدحا وذما. وخصوصية المكان الفنية تتجلى في الماضي المندمج مع الحاضر،

والمشـكل للعنصـر الحيوي الدائم لنماء الرحلة وسيرها نحو الاكتمال، وكثيرا ما يترك المكـان، ويـتحدث السارد عما ينجز فيه من أعمال، فبجانب وصف المكان يهتم السارد بتاريخه، وفي هذا العنصر يتعالق الزمان والمكان وفعل الإنسان.

وفـي الفصل الرابع: تناولت الزمان في علاقته بالرحال وبالنص، فبينت إدراك الرحال للـزمن الطبيعي في الرحلات حيث تقترب بعض الرحلات من المذكرات والتقارير، ويغفله الآخـرون حتـى تكاد المعالم تختفي. وفي علاقته بالنص من حيث التشكيل حيث استعنا بمقولات الزمنية القائمة بين القصة والخطاب، في الترتيب والديمومة والتواتر.

ورغم ما يبدو على الرحلات من تفكك عند ذوي النظرات العجلى فإنها تستجيب للدراسة الزمنية، مما يكشف بنيتين أساسيتين:

-البنية الأفقية الممتدة من بدء الرحلة إلى تاريخ انتهائها، وهي بنية رتيبة تخضع لحركة الرحال الفعلية وتنقله نحو غاياته، والترتيب فيها أفقي خال من أي تقديم أو تأخير.

- والبنـية الثانية هي الخاصة بالوحدات السردية داخل المكان المرحول إليه وفيها يتم السرد عن طريق التزامن والاسترجاع والاستباق وقد تبلغ حدا من التداخل يصعب فكه.

أمـا الحـركة الإيقاعـية فتتـباطأ حتـى تثقل أحيانا عن طريق الاستطراد وتعتدل أثناء الخلاصـات المعتدلة التي تجعل الزمن الطبيعي يتجسد بواسطة حكي الحدث المكتمل ببـطء شـديد ولا تسـريع عال. أما حركات التساوي الممثلة في المشاهد فنادرا إذ يحول الحوار إلى خطاب مسرد عن طريق حكاية الأقوال .

إن الحضـر في الماضي بواسطة الاسترجاع المندمج مع الخلاصات والحذوف، والسير بالخطاب إلى الحاضر أو قبله بقليل هو ما يميز البنية الزمنية، وتختلف وظائف كل حركة حسب سياقها فمنها ما يتعلق بالمكان ومنها ما يتعلق بالأحداث ومنها ما يتعلق بشخصيات لعبت دورا مهما اختصت ومنها ما يتعلق بموضوعات الاهتمام.

وفـي الفصـل الخامس: تناولت السارد ووظائفه المختلفة في تنظيم الخطاب باعتباره وسيلة فنية تقوم بأدوار مختلفة ويسند خطابه إلى ضمير المتكلم المفرد والجمع مما يجعله راويـا مشاركا يتماهى مع الشخصية ويتماهيان معا مع المؤلف، والفرق بينهما أن السارد دوره فنـي خالص والشخصية تكشف عن ذات حقيقية لها اهتماماتها وأحلامها وغاياتها،

ولها امتداد خارج النص بينما السارد ينتهي بانتهاء السرد. ودراسة الشخصية تكشف عن ميول الذات وتجسد المضامين العميقة للرحلة في حين يكشف السارد في استراتيجيته عن وظائف متعلقة بالخطاب ومتنوعة زيادة عن الوظيفة السردية التنسيقية كمهمتين أساسيتين فالسـارد حـين يـتحدث عـن أناه فهو في الوظيفة التعبيرية الانطباعية وقد تجلت في نصـوص كثيرة ولكنها لا تتسع المجال للعواطف الجياشة والانفعالات الشديدة إلا قليلا وحين يتحدث عن الغير فإنه يتحدث باعتباره شخصية ذات اهتمامات بمن حل في المكان من الشعراء والفقهاء والمؤرخين والعلماء وإبداعات الجميع ومن هنا كان إيراده لخطابات الآخرين من شعر ونثر...وحين يتحدث عن العالم من حوله فهو سارد يحمل رؤية خاصة فـي الحياة والوجود في الأحداث الجارية والتي جرت يحال أوضاع الأمة من حيث العلم والجهـل والفقر والغنى والانتظام والفوضى فيبرز ذلك من خلال التوجيه والتعليق والنقد والتوجـيه و الحرص على التبليغ والمنفعة. ومن خلال ذلك تبرز الوظيفة الإبداعية التي يمارسـها معظـم السـاردين الـذين ينشـدون أشعارهم وأشعار غيرهم ويتحاورون مع الإبـداعات البشـرية لتذوقها وإبراز ما فيها من جمال أو قبح ويتخذ السارد ذلك مجالا ليدلـي بمعـرفته العلمية وقدرته على التصرف فيها كما يتعامل مع الآراء والأفكار في موضوعية واعتدال.

وللقـارئ المـتوقع وجـود في استراتيجية السارد على جميع الأصعدة فقد يوجه إليه الخطـاب مباشـرة أو ضمنيا وقد يناقشه في رأي أو يبلغه خبرا أو يبوح له بلطيفة أو غـريبة أو نادرة إنه المرسل إليه الذي لا يغيب عن ذهن المرسل على مدى السرد لكون الوظيفة التعليمية والتربوية لا تغيب عن المشروع السردي مهما طال و في كل ما يقدم.

ثم أتبعت الفصول الخمسة بخاتمة أجملت فيها بعض ما تقرر من نتائج وآراء أزعم لها كثيرا من الصواب بعد الدراسة والتحليل.

ثم أردفتها بفهارس المصادر والمراجع التي كانت سندي المباشر الذي لا يبرح غرفتي أدلـيت ببعضها لأنها تبقى التخفي وسكت عن أخرى لامتزاجها معي حتى صعب تمييزها عن كياني.

وإذا كان لكل بحث صعوباته فصعوبات هذا البحث تجلت في الجهد المضني للحصول على المصادر التي تتسم بالندرة في معظمها كما تجلت أيضا في صعوبة توظيف المنهج لتحليل هذه النصوص القريبة من التاريخ والتي لا تستجيب أحيانا للإجراءات التي تهم من خلال النصوص المتخيلة.

هذا ما جعل جهدي يتوزع على محور جمع النصوص الرحلية والمصادر النظرية للسردية وتطبيقاتها على النصوص التراثية والمعاصرة بغرض استيعاب الكل .

وبعون من الله ثم بمساعدة قسم اللغة العربية وآدابها قمت بثلاث رحلات إلى الخارج اطلعت فيها على بعض الرسائل الجامعية في المجال وجمعت الكثير من مراجع الدارسة بتوجيه من الأستاذ المشرف الذي دلني على عيونها وفتح لي مكتبته العامرة زيادة علي رعايته لهذا البحث المتواضع منذ نشأته كنواة حتى استوى قائما. فإليه أوجه خالص شكري وتقديري الصادقين ومن بعده أوجه الشكر إلى كل من أعانني على جمع المصادر والمراجع أو دلني على أماكن وجودها.وأشكر أيضا أولئك الذين تعبوا كثير في كتابة البحث ومراجعته وتنسيقه حتى استوى على ماهو عليه.

أخيرا أعلم أني أتحدث عن موضوع كثير الاستعمال عسير جدا في الوقت نفسه ذلك أن الطريق ليس ممهدا كل التمهيد وحين أقول إن هذا الموضوع المتواضع لم يدرس بهذه الكيفية – فيما أعلم- فليس من المبالغة في شيء لذلك قد يجد القارئ فيه كثيرا من الثغرات وجهدي قاصر على سدها وإني في انتظار ملاحظات أساتذتي الكرام لأستعين بها على تدارك ما فاتني.

ولعل أقلاما أبرع مما عندي وعقولا أذكى مما أمتلكه تتولى هذه الرحلات مستقبلا بمزيد من البحث لتزداد جلاء ونصاعة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على النبي المرشد إلى كل الخيرات وعلى آله وصحبه والمقتدين بهديه ما دامت الحياة.

التمهيد

تمهيد

الرحلة قديمة قدم حياة الإنسان، مرتبطة بغريزة حب المعرفة لديه، وحتى في تلك الفترات الأولى التي كان فيها مستهلكا دون إنتاج، كانت الرحلة حيلته، وهي التي كانت تحقق له أغراضه، لذا فإن جميع الأمم قد عرفت الرحلة في بعض أشكالها، لكونها مرتبطة بالنشاطات الإنسانية، ولم تفقد الرحلة مهامها المتعددة إلى الآن ومازالت تتطلع إلى ما لم تطمئن إليه قبل في استكشاف الأعماق والآفاق. فدورها ريادي حالم منذ فجر الإنسانية، وحتى وقتنا لم يكف البشر عن الارتحال، وسواء كانت الرحلة لل[illegible]يد، أم

للـتجارة، أم للاستكشـاف، وسـواء كانت برية، أم بحرية، أم في عالم المجهول المحاط بالأسـاطير، فتنهـا أعانت الإنسان على الشعور بوجوده في التعامل مع بيئته و وفرت له كثيـرا من حاجاته بوسائل متعددة، بل تعددت لاجتهادات البشرية في إبداع هذه الوسائل، وما زالت في تطور مطرد.

ولقـد بـدت الـرحلات الأولـى و كأنها تخدم الجغرافيا (بمعنى التعرف على المكان) وتغرقها في عالم الأسطورة، ثم رشـدت البشر إلى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية على الأرض في كل مكان.[1]

ولكـون الحاجات البشرية متعددة ويستحيل إيجادها مجتمعة، نشأت الرحلات الجماعية للمجمـوعات البشـرية التي يتحدث عنها المؤرخون، ولما كان الناس ليسوا على استعداد للـرحيل كلهـم، فقد نشأ ناس مغامرون لهم القدرة على تحمل الاغتراب والمشاق، ولهم القـدرة علـى المخاطـرة بالأنفس وسط الأمواج العاتية، والأدغال الموحشة والصحارى الجرداء، كما لهم القدرة على الصبر مع أمثالهم من المغامرين الآخرين، ومع الحيوانات الضارية، مما ولد القصص الجغرافية المشحونة بالخيال المخيف أحيانا ليروعوا منافسيهم ويحافظوا على الدور الريادي الممتاز الذي يوطد مكانتهم الاجتماعية.[2]

والعرب كغيرهم من الأمم قد عرفوا مثل هذه الرحلات وإن لم يسجلوها، وهي غالبا ما تدور داخل الجزيرة العربية في إقليم واحد أو بين أقاليم متقاربة ألفتها العشيرة.

وعـرف عـرب الجـنوب مغامرات أوسع لهذا فليس بغريب أن يزدهر هذا الفن في التـراث العربي مبكرا لكنه لم يبق منه إلا لفتات في أشعار الجاهليين، أما الرحلات النثرية فلم يصلنا منها شيء، ولما انتقلت الأمة من المرحلة الشفوية إلى مرحلة "القراءة" ازدهـرت الكتابة الفنية من رسائل وتآليف مختلفة، واتسعت الرقعة الجغرافية اتساعا لا يكـاد الخيال البسيط أن يتصوره حينئذ، و امتدت الأطراف امتدادا والكل مرتبط بمركزين أساسـيين: مركـز ديني في مكة والمدينة، ومركز سياسي في دمشق أو بغداد ومصر و

---

[1] - انظر صلاح الدين الشامي، الرحلة العربية في المحيط الهندي، ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد13، ع4، مارس1983م. ص: 14.

[2] - نفسه، ص: 19.

على ذوي الطموح أن يبلغوا إليه التماسا لمآربهم، وليس كل زائر بمقيم، وإنما زائر المركز يين يصبح راويا للمشاهدات و الأخبار وواصفا للمسالك والمياه والبلاد وغيرها. ومن هنا اتسع مجال السرد في الرحلات.

تاريخ الرحلة

لعل أول الرحلات في التراث الإنساني المكتوب هي ملحمة "جلجامش" وهي رحلة في عالم الخلود، ثم تلتها الرحلات الإغريقية المسجلة بعنوان "الأوديسا"، والتي انبنت عليها التصورات الغربية للإنسان ونشاطاته البشرية، فلا نستغرب أن تكون الرحلات من المصادر الأولى للإنسان في سروده الواقعية والخيالية، ومنها انبثقت الفنون الأخرى بنسب متفاوتة قربا وبعدا.

ويمكن القول: أن الصور الأولى للارتحال هي المصدر" لسائر الصور الذهنية البشرية وأنها موجودة في ثنايا معظم الأساطير..."[1]

ولقد أتيح للعرب والمسلمين أن ينتجوا رحلات كثيرا فيما بين القرن الثالث والتاسع الهجري، فكانت رحلات رائدة، ثم استمر الإنتاج بصورة وأثراً أقل، ولم يصلنا هذا التراث جميعه، ثم إن المدون من هذه الرحلات فقد منه الكثير، وأدمج بعضه في كتب أخرى، ولم يكتب في رحلات مستقلة، مما جعل التقصي لطور النشأة والنمو أمرا عسيرا في حاجة إلى توالي الجهود العلمية المختصة.

وحين نتابع هذا التراث نجد مصطلحات كثيرا متداولة بين الدارسين؛ لكون الرحلات مفتوحة يتسع صدرها لاحتضان شتى المعارف، وكل دارس يجد بعض ما يريد فيها، والباحث في هذا الموضوع اختار التقسيم التالي:

1- <u>الرحلات الجغرافية</u>: ويغلب عليها الوصف الجغرافي العلمي، الهادف إلى توصيل المعلومات مباشرة بلغة متداولة، لا تراعى فيها النواحي الجمالية، ويطلق عليها " ما يعرف بعلم المسالك والممالك، وقد يتخذ شكلا أكثر فيذكر المراحل التي يقطعها المسافر، فيطلق عليه علم البرود..."[1]، وأشهر كتب هذا القسم "المسالك والممالك" لابن حوقل

---

(1) - ميشيل رتشاردسون، أدب الرحلات والسريالية، وعلم الإنسان، تر: أسامة عبد الحليم زكي، مجلة ديوجين "منبر الفكر" المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية، م اليونسكو، ع 96، 152 (د.ت) ص: 30.

(1) - أغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر صلاح الدين عثمان، لجنة التأليف

(4هـ) و"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي(4هـ)، و"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي (6هـ) وغيرها.

ومما هو باق في الرحلات الأدبية من كتب المسالك والممالك الاهتمام بالطرق والمراحل، وذكر الآبار، وموارد المياه، والجبال والمدن والقرى، وعناصر السكان عند بعض الرحالين، ولكون هذه العناصر مشتركة بين أقسام الرحلات، استلزم البحث اللجوء إلى مقياس أكثر دقة، وهو اللغة في تفاعلها مع الموضوع والذات، " فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية أو ندرت، تصنف النصوص على أنها جغرافية وصفية، وإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات، فهو أدب جغرافي، أما إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية، فعملية يصنف على أنه أدب رحلة..."[2]، والجغرافيا الوصفية قدمت خدمات جليلة للدولة الإسلامية ولعلم الجغرافيا، وعلوم أخرى، ذلك أن ما " كتبه الرحالة المسلمون من وصافين وجغرافيين كنز لا ينضب معينه، يضم الوثائق العلمية الثمينة في تاريخ الإنسانية، وفي استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق، ومختلف ضروب المعرفة مطمئنا إلى نتائج بحثه، إذا أقبل على دراسة هذه الوثائق بتبصر يرافقه، وبشيء من الحذر الذي يتطلبه النقد العلمي..."[3]

وهذا ما جعل الرحلة في مكانة مرموقة بين التراث، من غير تمييز بين أنواعها لكونها تتقاطع في نقاط وتتكامل في أخرى، وحتى الكتب الخاصة بالمسالك والممالك لم تكن جغرافية خالصة، بل فيها ملاحظات ذات علاقة بالعلوم الأخرى، بالإضافة إلى كونها تخدم الهدف الجغرافي، ولبت تطلعات الناس إلى ذلك الحين، كما لبت حاجة الدولة في أداء وظائف الاتصال والتخطيط و الأمن.

وبلغت الجغرافيا الوصفية أوجها في الغرب الإسلامي، على يد الإدريسي في" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وابن حوقل في كتابه " صورة الأرض"، أما كتاب "تحفة

والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، ط3، سنة: 1963م. ج1، ص: 20.

[2] – د. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص/ أدب الرحلات(1)، دار النشر للجامعات المصرية مكتبة الوفاء، ط1، 1415هـ/1995م، ص: 35.

[3]–زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، ط، 1401هـ/1981، ص 179

الألباب" ونخبة الإعجاب للغرناطي ففيه كثير من الغرائب والعجائب التي تدخل في قسم آخر، وإن كانت طريقة عرضه تمتاز بالحيوية والتفنن.

2- [illegible]:

وفي هذا القسم يحدث شيء من التوازن بين النهج العلمي الخالص والنهج الأدبي، إلا أن الأدب يتقدم باعتباره الغالب على المؤلف، فالموضوع جغرافي، لكن التناول أدبي، تعرض فيه وجهة نظر الرحالة ومكوناته الثقافية، وهو أدب يشكل عنصرا ضخما و أساسيا في الموروث العربي يتخذ صورا متنوعة، فهو أحيانا ذو طابع رسمي، وأحيانا ذو طابع شعبي، وأحيانا أخرى يكسو جلبابا من الخيال الأسطوري، ولا يتعامل هذا النوع من الأدب مع المحيط العربي الإسلامي فقط، بل يتجاوزه إلى البلاد التي بلغها العرب، مما يجعله مادا متعددا الجوانب "لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب"[1]

إنه ذلك الأدب الذي يروي لنا الكثير من مغامرات البحر كقصة السند باد البحري، أو قصص عجائب المخلوقات، وهي كتب ألفت لجمهور القراء، لم يقصد بها مؤلفوها " جمع الخرافات، بل إلى التحدث بغرائب الموجودات، تبعا لطريقة كل منهم في النظر إلى هذه الغرائب، وفهمها ومقدار ما له من العلم بها..."[2]

وهذه الكتب متفاوتة من حيث الحقائق العلمية، والخيال، والمهاترات، ولكنها جميعا لا تخلو من بعض هذه العناصر، فالأدب الجغرافي أدب يحرز على إعجاب كثير من غير العرب، لطابعه الفني الذي يمزج الحقيقة بالخيال، والحلم بالواقع، فيه يجد المعدم كل مفقود، حتى وإن كنا ننظر إلى مثل قصص السند باد أنها للتسلية، فإننا حين نقف أمامها متأملين نستنتج أن هذه الرحلات التي فيها كثير من الخيال أو هي خيال كلها، تقوم على " التعاون التطوعي للقارئ الذي استهوته مهارة المؤلف وفقدانه حس الزمان والمكان، وبهرجة الألوان، وغرابة المخلوقات، وسحر المغامرات، فيصبح وعلى نحو تلقائي شريكا للمؤلف... فيقوم ذهنيا بترجمة أو إيضاح ما يقدم له من خلال شفرات شفافة، وواضحة برغم أنها تبدو مغلقة نوعا ما، لكن يكون امتنان من القارئ عندما يستطيع حلها

---

[1] - كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، ص: 25.

[2] - حسين فوزي، حديث السندباد القديم، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ط2، سنة1977م، ص 34.

الشـعرا ..."[1] لأن " الحضـارات المتحـية كانت دائما مصدر الرحلات الخيالية ..."[2] وهناك حقيقة أخرى، فحواها أن كتاب الرحلات من هذا النوع كانوا يعتقدون أنهم يكتبون فـي الأدب بمعناه الواسع، وهو الأخذ من كل فن بطرف، فإذا أضفنا إلى ذلك كل عجيب وغـريب تبـين لـنا سر إعجاب الناس بها وبخاصة العامة منهم، ولعلها بذلك أيضا هي بعد عن التهميش، فبقي خاضعا للمقاييس الفطرية التي يعتمد عليها المفكرون بعيدا عن تناول النقاد والمنظرين.

ورغـم صـعوبة الفصل بين أنواع الرحلات، فإن أحد الدارسين قال: " إن الجغرافي عندما يدرس مكانا يعتبره -غالبا- جمادا، أو مادة بحث منفصلة عنه، بينما يعتبره الرحال كائـنا حيا ينفعل به، ويتفاعل معه... يربط المكان وما عليه بنفسه ثم بالزمان ليخرج لنا موقفا أو تجربة تستحق الوصف."[3]

فالـرحالة جمـيعا استطاعوا أن يطوعوا النثر العربي للتعبير عن مجالات كثيرة بلغة خالـية من التكلف الذي تتسم به الرسائل وأنواع الكتابة الأخرى، وفي الوقت نفسه تحمل سـمات عصـرها مـن حيث المصطلح المستعمل المألوف أو الغريب، وتحمل كثيرا من هموم الناس وأحلامهم و طرق تفكيرهم و معاشهم.

إن الأبعـاد الأسـلوبية واللغـوية في الرحلات تشكل نموذجا خاصا نستنبطه من كتب الأخبار، والسير، والرحلات، وهو أسلوب ذو مزايا خاصة، ما زالت لم تتناول بالدراسة الموضوعية رغم وجود دراسات كثيرة ولكنها تعتمد النقد الانطباعي أساسا.

3- أدب الرحلة:

يمـثل الأدب نقطة الارتكاز في هذا النوع من الرحلات، وإن كانت الجوانب الأخرى موجـودة أيضـا، وقد ألف الكتاب والدارسون استعمال مصطلح "أدب الرحلات" في كل كـتابات الرحالين العرب والمسلمين التي يصفون فيها البلدان والسكان، ويضمنونها كثيرا مـن الأحـداث التي شاركوا فيها برا أو بحرا، ويسجلون انطباعاتهم الشخصية حول تلك

(1) - جورج ماي، طريق واحد ذو اتجاهين، الآراء و الاعتبارات الخاصة بالرحلات الخيالية، تر: سمية سعد الدين الوليلي، ديوجين "مصباح الفكر"، ع96/ 152، ص: 5

(2) - نفسه، ص: 4.

(3) - د. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي... ص: 36.

الأحداث، وقد يصدرون أحكاما تتوافق ورؤاهم الفكرية، والعلمية، ومعتقداتهم الدينية أو المذهبية، وإذا كان السبق للمشرق في الجغرافية الوصفية، فإن أدب الرحلة قد نضج وازدهر بالمغرب في أواخر القرن السادس الهجري، "حيث امتزجت المرئيات المحسوسة بالانطباعات الشخصية الوجدانية، والوصف الدقيق لليوميات مع مشاق الطريق وأحوال السفر، وهي التي تمثل أدب الرحلة لدى العرب أصدق تمثيل وتجسد الكثير من خصائص هذا الأدب."[1]

ولا شك أن الرحلة الواقعية التي يقوم بها الشخص فعلا هي الأصل في أدب الرحلة، التي ينبغي أن يتوفر فيها شرطان "... أولا: أن يكون من يكتب عن الرحلة رحالا بطبعه محبا للرحلة، ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة و الرغبة التي تتملكه للقيام بها "[2]، أي أنه ينبغي توفر شروط حول الموضوع وأخرى حول الذات، ورغم وجاهة هذين الشرطين إلا أنهما لا يتوفران في كل الرحلات، فابن جبير كتب رحلته وابن بطوطة أملى رحلته، وابن الحاج النميري تركها أضابير متفرقة، لهذا لا نعتقد أن شرط الكتابة يصدق على الرحلة الأدبية العربية لخصوصية الشفوية في حضارة العرب، أما الأسلوب فلا يخلو هو الآخر من بعض التحفظات، ذلك أن كثيرا من الرحلات المتأخرة تتعامل مع الواقع تعاملا كما هو وتفتقر "... للنص أفق انتظار يتموقع فيه السرد بين التعبير البياني والتعبير الوظيفي، بين اللغة الأدبية واللغة التواصلية بين النص والمرجع. "[1]

ورغم هذه التحفظات الخاصة بتاريخ الرحلة العربية، يمكن القول أن أدب الرحلة مرتبط بالتجربة المنجزة من قبل شخص راغب، له من الإمكانات ما يجعله يستفيد من تجارب الآخرين المسموعة و المشاهدة، مع القدرة على ابتكار ما يميز ذات الرحال أثناء

---

[1] - محمد رداوي، الرحلات المغربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر (دراسة نصوص) مكتبة المعارف، مطابع الفرزدق، الرياض، ط1، سنة1995م، ص: 19-20.

[2] - انجيل بطرس، الرحلة في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، دار الهلال – مصر. عدد يوليو1975م، ص: 52. (عدد خاص بالرحلات)

[1] - عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، سنة1417هـ/1996م، ص: 71-72.

تتفاعل فيه الحدث والزمان والمكان على أن يتوج ذلك بلغة تحمل القواسم المشتركة في عصرها لتؤدي الوظائف المرتقبة من نص أدبي.

ولكـون الرحلة قائمة على بنية السفر الحقيقي أو المتخيل، المادي أو المعنوي، نجد أبا حامـد الغزالـي يجعـل السـفر سـفرين: "سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصـحاري والفلوات، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السماوات..."[2]، وبـذلك يفـتح المجال للرحلات التأملية الخيالية، وكلا السفرين ممتع ومثمر، فمن السفر الخيالي التأملي رسالة الغفران، والتوابع والزوابع، ورغم اتسامها بالخيال فإنها تعتمد على المحسـوس فـيما تحكيه، وما يؤسس لهذا النوع هو -خبر الإسراء والمعراج- وما درج عليه الصوفية من ذكر رحلات البحث عن الحقيقة كرسالة الإسراء إلى مقام الأسرى لابن عربـي، وغيـرها، علـى أن الرحلة كمصطلح متداول تبقى مرتبطة بالواقع، وتستعمل مجازا في مجالات أخرى.

أدبية الرحلة

نـؤكد أن مـا يعنيـنا هو القسم الثالث المنضوي تحت أدب الرحلات لكنه هو الآخر تـتجاذبه حقول متعددة كالتاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا والقصة والسيرة والمذكرات، ممـا يجعـل السؤال عن انتماء الرحلة مشروعا، فالرحلة عامل تحفيز على الحكي القائم علـى الانـتقال من مكان إلى آخر، ومن شخصية إلى أخرى، ومن زمان إلى آخر، ولها خاصـية التقاطع مع أشكال الكتابة المتعددة، ورغم ما تحويه من أجناس أدبية في كنفها، فهـي سـردية واصـفة انطباعـية ذاتية في أجزاء، وموضوعية في أخرى. ولما كانت الدراسات القديمة تصنف الرحلات تصنيفا عاما بإضافتها إلى الأدب " أدب الرحلات " بلا تفكير في بنيتها الفنية المتداخلة، وبلا إقامة الحدود الفاصلة داخل بنية الكتابة[1]، فإن بعض المعاصرين قد وقف طويلا عند أدبية الرحلة، قصد تجنيسها، فاستخلص جملة من السمات التـي ينبغي توفرها في الرحلة لتصبح أدبية، من ذلك توفر القصدية – أي قصدية السفر

---

(2) - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار القلم، بيروت، ج2، ص: 244.

(1) – كمال عبد اللطيف، صور المغرب وأوروبا في أدب الرحلات المغربية، مجلة فكر ونقد، الرباط، السنة 2، ع2، سنة1997م، ص 147.

والكتابة عنه. ثم خضوعها لقانون الخطاب الشائع من مرسل ومرسل إليه ورسالة (سارد، سرد، مسرود له) إلى جانب إخضاعها لتقاليد الكتابة والتأليف، والافتتاح والاختتام." [2]

ويخلص الباحث نفسه إلى أن كون الرحلة جنسا مهجنا تتفاعل فيه الأنظمة اللغوية، واللهجية، والصوتية بحوارية النصوص سواء كانت الحوارية مع نصوص سابقة أو أنماط خطابية أخرى، معارضة أو اقتباسا أو تضمينا أو تحويلا.[3] ومن المهم جدا أن تكون الرحلة ذات طبيعة لغوية متعددة تمثل الفئات الاجتماعية والاستعمالات الجارية.[4]، ولكنها للأسف الشديد ليست كذلك باستمرار.

ويمكن أن نتساءل عن نظام كتابة اللغة في الرحلات أنثر أم شعر ؟ وما هي الأجناس النثرية القريبة منها ؟

يرى أحد الباحثين أن الأشكال الخالصة في السرد العربي هي: المقامة، والسيرة، والحكاية الشعبية، والرحلات، أما الأشكال الهجينة فيدخل ضمنها الخبر، والمحكيات الصغرى المتفرقة، والتراجم، وأخبار الشعراء وما إلى ذلك، فالأشكال الهجينة لا تقوم بذاتها في حين تنصهر الأشكال الخالصة، وتتمتع بخواص مشتركة بينها فضلا عن خصائصها النوعية التي يمكن إيجازها في اللغة والأسلوب، وهيمنة السرد البطل، وخطاب المتخيل الذي يصدر عن تجذر الحكي و السرد في الأدب العربي.[5]

وبهذا تصبح الرحلة منتسبة "... إلى التراث النثري بشكل عام، باعتباره سردا ووصفا يعمدان إلى صياغة مشاهد رؤيوية أو مروية، أو حلمية تنحدر من ذاكرة - في بعض الحالات - ذات جذور في الواقع المادي."[1]

وإذا جاز للدارسين أن يقولوا " الموروث في الشكل وليس في المحتوى"[2]، فإنه بالإمكان القول أن موروثنا النثري السردي القصصي، يتكون من مقامات، وسير، وحكايات شعبية، ورحلات.

---

[2] - عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، ص 29 ـ 30.

[3] - نفسه، ص 27.

[4] -ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر:محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص 101

[5] - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، دار البيضاء، المغرب، ط2 ، سنة2003م، ص 20-21.

[1] - المرجع السابق، ص 31.

فشكل الرحلة المتعدد بتعدد الموضوعات لقي رواجا كبيرا منذ عهد مبكر من عمر الدول العربية الإسلامية، وبخاصة في المغرب، وهو شكل منفتح على أجناس أدبية أخرى، أوجدتها هذه الحضارات ذات الصدر الرحب في احتواء جميع الأجناس والتعايش مع جميع الأديان والمذاهب، وذات الثقافة الموسوعية، التي لا تقصي المعارف، بل تحتضنها وتسعى إلى الإحاطة بالإبداع الإنساني في مختلف أنشطته، فالرحلة من هذا الجانب لا تلغي الحدود بين أجناس الخطاب، ولا تجعلها عوائق في الانتظام ضمن شكل أوسع.

فالرحلة تريد الهيمنة على الكل ولا تمانع من إقامة كيانات خاصة ما دامت تحت لوائها، وتسعى لإقامة رابطة الطاعة و تقديم ثمن الولاء و الشرعية، وإذا كان لكل عمل فني بناء معين فإن للرحلة بناءها الهيكلي، إذ لا تخلو من افتتاحية وسير فعلي يتغير معه المسرود بتغير المكان الذي يتم فيه الاستعراض الثقافي الموسوعي المهتم بعلوم العصر استقصاء وتحقيقا وتعميقا حسب ميول الرحالين، ويتم ذلك في زمن محدد، وينتهي بخاتمة تشعر بانتهاء المسرود و وصول السارد إلى غايته.

ويوظف الرحالون تقنية الراوي الذي تسند إليه الوظائف و المهام في السرود الرحلية التي يمكن النظر إلى بنيتها كالتالي:

أ- البنية الخطية: وهي الهيكل الأساس في الرحلة، بها تندفع الأحداث إلى الأمام، وعليها يدور كل ما يكتب، وهي مرتبطة بمجالات متعددة:

1. ارتباطها بالأحداث الماضية والحاضرة يجعل لها علاقة بالتاريخ.
2. ارتباطها بالمكان يجعل لها علاقة بالجغرافيا، والدراسات البيئية.
3. ارتباطها بذكريات الشخص وحياة الآخرين يجعل لها علاقة بالسيرة، وما تفرع عنها من تراجم و مذكرات...
4. ارتباطها بالصياغة وجماليات اللغة يجعلها ذات علاقة بالأدب.

ب- البنية الفرعية: و يتولد عن بنية السير والانتقال بنيات فرعية يمكن النظر إليها:

---

(2) - ستانلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، تر إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط، سنة، (جزآن في مجلد) ص 229

1. من حيث الصياغة والأسلوب فنجد: البنية الشعرية التي تتنوع خطاباتها حسب مقولة الأغراض، وتتعدد تجاربها بتعدد المبدعين، ثم البنية النثرية التي نجد فيها الرسالة، والخطبة، والخبر، والموعظة، والحلم، والدعاء، والسيرة، والحكاية...

2. ومن حيث العناصر الموضوعية يمكن تفريعها إلى:

أ- البنية الاجتماعية المتعلقة بأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم...

ب- البنية الفكرية التي ترصد فيها العقائد والأديان والمذاهب.

ج- البنية الاقتصادية: وما تشمله من عملة ورخص وبيع وشراء، وتجارة، وفلاحة.

3. أما من حيث العناصر الذاتية فتتجلى في المشاعر والوجدان والمواقف من الآخرين، ومن الطبيعة، وفي التفاعل الذاتي مع الأحداث والاستجابة لها فنيا.

هذه البنيات يمكن ربطها جميعا بالوعي الاجتماعي، والفردي، وبالزمن المخصص مما يكون صورا تقريبية للفترة الخاصة. وبهذا تكون الرحلة نصا مفتوحا لا يمكن تجنيسه بصفة " تضيق من تحرره واتساعه وانتشاره، وهجومه الضروري على حقول أخرى لهذا فالقول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحلة، وعلى خطاباتها المستندا على طرفي الذات والآخر، وجسور التعبيرات المختلفة عنهما و حولهما "[1]

وإذا كانت الرحلة بهذه الضخامة من حيث التراكم التأليفي، والتجارب الواقعية، وتعدد الحقول المتقاطعة، فإنها من حيث المفهوم تظل جامدا لا تتعدى السفر المستعين بالراحلة، أو " كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى"[2]

ولما لم يتبين المفهوم،ولم يتوله النقاد بالمتابعة والتبيان، ظلت الرحلة بلا هوية، تتقاذفها الأهواء بين راغب فيها ومرتاب في انتمائها لكون الدارسين لم يحددوها كمفهوم، ولم يحددوها كجنس، فهم ينظرون إلى مجال واحد من المجالات التي تشتمل عليها ويعرفونها، حتى أننا و في نهاية القرن العشرين نجد من يرى أن كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي، ورحلة ابن جبير وابن بطوطة كتب في السيرة الذاتية وبخاصة أن الرحلتين سيقتا في شكل مذكرات "[1]

---

[1] - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 31.

[2] - المعجم الوسيط مادة رحل.

واعترف بعضهم بأن الرحلة فن قائم بذاته ولكنه لم يحدد خصائصه، وإنما اكتفى بـ الإقرار في عمومية قال:" وقد بلغ هذا الفن الأدبي ذروته من البراعة الفنية والصياغة الأدبية على يد رحالة أندلسي آخر، قام برحلة إلى المشرق بعد رحلة ابن العربي بنصف قرن تقريبا، وهو أبو الحسن محمد بن جبير الكناني."[2]

وتنبه باحث آخر لهذا الخلط فقال:" ونفس الشيء نجده مع الرحلة التي يراها البعض سيرا ذاتية، والآخر قصة، والآخر تاريخا أو جغرافيا...، ويكمن هذا الاختلاف في كونها تضم مقومات جنسين مختلفين(الحديث والخبر) أو مكونات أنواع مختلفة."[3]

والإشكال في هذا التجاذب هو أن دارس السيرة الذاتية حينما يود أن يؤصل لدراسته يستشهد بالرحلة، ودارس القصة حينما يود أن يبرهن على اشتمال الأدب العربي على القصة يستشهد بالمقامة أو بالرحلة، ولم يتفطن هؤلاء إلى أن الرحلة جنس قائم بذاته، يتقاطع مع غيره كشكل أدبي مستقل كان عليه في زمنه أن يحمل كل الألوان الزاهية والقاتمة الجادة والهازلة ليستقطب القراء، ومن هنا كانت إحدى خصائص الرحلات، وهي انفتاحها على نصوص أخرى، تحضر و تغيب، تكثر و تقل معتمدا في ذلك على عنصر التشويق لاستقطاب القراء حين غاب التوجيه والاسترشاد، مما ولد الصعوبة المنهجية في تحديد مفهوم الرحلة.

الرحلة اصطلاحا: الرحلة هي ذلك اللون من التأليف الذي يجمع بين الدافع الوجداني العميق والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات و الظواهر بفنية ودقة، والبحث عن الأسباب والنتائج ببصيرة واعية[4]، يقول محمد الفاسي معرفا أدب الرحلات، ردا على من يتهم الأدب العربي بخلوه من الميولات الشخصية: "...أساس هذا النوع هو شخص المؤلف وإنيته، ووصف ما يعرض له في سفره، وذكر الإحساسات التي يشعر بها أمام المناظر التي يمر بها، مع إطلاعنا على أحوال البلاد التي يزورها وعلى عوائد أهلها وأخلاقهم

---

(1) – عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، سنة1992، ص 54

(2) - عثمان موافي، لون من أدب الرحلات(دراسة نقدية) مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط2، س1973، ص 10.

(3)- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت ط1، سنة1997م، ص 197

(4)- عبد الباسط بدر، قراءات في أدب الرحلة، الأدب الذي أنبته الإسلام، مجلة الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، مطابع مؤسسة الرسالة، بيروت، المجلد الأول، العدد3، ص 12، يمتد المقال ص (12-20)

وأفكـارهم وهو في كل هذا يعبر عن نفسه وعن عواطفه وعن وجهة نظره الخاصة في كل مسألة."[1]

هـذا التعـريف رد على تهمة لذلك كان محصورا فيما يتعلق بالذات ومظاهرها داخل الرحلة وهو مبني على الوصف الخارجي رغم وجاهة ما قدم فيه.

وفـي إطـار ربط الرحلة بالذات يرى آخرون أنها تعبر "...عن رغبة عميقة في التغيير الداخلـي تنشـأ مـتوازية مع الحاجة إلى تجارب جديدا أكثر من تعبيرها في الواقع عن تغيير مكاني."[2] ويظهر أن هذا الطرح تفسير للرحلة في علاقتها بالرحال وما ترمز إليه مـن منظور التحليل النفسي وهو يركز على الحافز ونوع الاستجابة وهذا التفسير وإن كـان مشروعا لكنه ينبغي أن ينبع من خلال تحليل الرحلة باعتبارها تمثل جنسا سرديا ذا خصائص متنامية.

ولعـل أجـرأ الدراسات المتناولة للرحلة في مكوناتها الأساسية هي التي قام بها بعض المغاربـة مـثل عبد الرحيم مودن الذي قدم أطروحة بعنوان مستويات السرد في الرحلة المغـربية خلال القرن التاسع عشر.[3] وأنجز أيضا كتابا مستقلا عن أدبية الرحلة ثم يليه أبو شعيب حليفي في أطروحته " الرحلة في الأدب العربي"[4]

ويمكن القول أن الدراسات الأدبية للرحلة باستثناء هذين العملين وبعض المقـالات الأخرى لم ترق بعد إلى المستوى الذي يدخلها في دائرة الدراسات السردية الأدبية.

وهـنا إحساس قوي لدى بعض الدارسين بأنه لا بد من مواجهة الإقصاء الذي مورس علـى الـرحلات عبـر العصور من أجل تحديد الهوية فلا تبقى مائعة. والحق أن نفس الـرحلات المعاصـرة لـيس كـنفس الرحلات القديمة والعناصر التكوينية متفاوتة في

---

(1) - محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق و تعليق محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ط، سنة1965م، ص أ (من المقدمة)

(2)- نادية محمد عبد الله، الرحلة بين الواقع و الخيال في أدب اندريه جيد، عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد:13، العدد:4، مارس1983م، ص :97.

(3)– عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية في ق19، أطروحة دكتوراه الدولة بإشراف أحمد الطريس أعراب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس(1994- 1995).

(4) – بوشعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، أطروحة دكتوراه الدولة، بإشراف د.عبد الله علوي مدغري، ود.ادريس بلمليح، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، جامعة الحسن الثاني – المغرب- 1919-1420 هـ /1998-1999.



الاقتراب من الأجناس الأدبية، ورغم ذلك فإنهم اقتحم الدارسون المخاطر، وتناولوا النصوص القديمة بما تناولوا به النصوص الحديثة فتحوا نوافذ جديدة وفعالة في فهم التراث وتفعيله في الحياة المعاصرة، ذلك أن "كل تراث لا يؤكد استمراريته في حركية التاريخ لا يعتبر أصيلا"[1]

لقد أدت الرحلة وظيفتها التعليمية والتبليغية والتعبيرية في أزمان كتابتها و إلى عهد قريب، حيث كانت الوعاء الذي صب فيه كثير من الرحالين مشاهداتهم للبلاد التي مروا بها، حتى إذا استوت الرواية العربية كجنس وافد، ونضج الإبداع القصصي قل دور الرحلة في قسمها الواقعي، بينما بقي السفر الذهني نشيطا يلعب دورا رائدا في الإبداع السردي، لهذا لا نعدم بعض الصواب إن قلنا: الرحلة تنتمي إلى العالم السردي، بما فيه من تناوب سرد أفعال ووصف أحوال، وشخص رحال ينجز تلك الأفعال أو يحكيها، وراو يسند إليه الكاتب الدور التقني في استحضار الأقوال والأفعال، التي تنجز من قبل فاعلين في أزمنة معينة، وأمكنة متعددة، وفي شكل منتظم يتسع للتجارب الواقعية والمتخيلة، الماضية والحاضرة والمستقبلية، ورغم تنوع الأشكال، فإنها تخضع – غالبا- لهيكل يكاد يكون ثابتا، قوامه الحركة والانتقال، من نقطة البداية إلى نقطة الهدف، ثم العودة إلى نقطة البداية، وقد تحدث بعض الانعراجات، التي لا تجعل السير أفقيا.

تصاغ الرحلة شعرا على قلة[2] أو نثرا وهو الصياغة السائدة وتستوعب الأساليب المباشرة وغير المباشرة في تنوع كبير، فهي بهذا بحث في المعرفة، وعن المعرفة، وصياغة للمعرفة، ومازالت الرحلة تقود إلى المعرفة، لكن المسافر الآن يبحث عن نفسه وأعماقه، وعن وضعه ومكانته و قد يكون بحث المعرفة عن طريق شخص آخر شبيه بالمسافر، وهنا فرق بين ما يبحث عنه المعاصر، والرجل في القرون الماضية "[1]، لهذا كان الرحال قديما يضمن كتابته مجموعة من المسرودات المختلفة التي تشمل على

---

(1)- محمد طه رمضاني، توظيف التراث وإشكالية التأصيل في المسرح العربي، عالم الفكر، الكويت، م17، ع4، 1987، ص 79.

(2) - نظم الشيخ أبو يعقوب الوارجلاني (550/570هـ) قصيدة نظم فيها رحلته إلى الحجاز، وتقع في 360 بيتا جمع فيها كثيرا من فنون العلم [علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الإباضية في الجزائر] مكتبة وهبة، القاهرة، ط1 1399هـ/ 1979م، ص 239.

(1)- هدى حبشة، رحلات في القصص الحديث (مقال) المجلة، القاهرة، السنة 4، العدد 44، أوت 1960/ صفر 1480هـ، ص 81-82

حكايات وأخبار ورسائل، مما لا علاقة له بخط سير الرحلة، ولا علاقة بمحور المعرفة، أو المكان أو الزمان... إذ كلما دخل الرحالة في محيط جديد بدأ في التقاط ما هو غريب أو نادر أو عجيب أو مفيد.

فالرحلات تزخر بمظاهر يستغربها الرحال أو يتعجب منها، في حين يراها المنتمي للمكان عادية، ذلك أن الألفة قد تحجب مظاهر الغربة كما تحجب مظاهر الجمال، وهذا ما يفسر عدم اهتمام الرحالين بما يحدث في موطنهم الأصلي كالعبدري الذي لم يسجل عن المغرب الأقصى إلا قليلا بالقياس إلى ما سجله عن البلدان الأخرى الواقعة على خط سيره الممتد من جنوب المغرب الأقصى إلى الحجاز، فالشام، فالعودة إلى بلاده برا.

وهكذا نصل إلى تبني بعض التعريفات لكونها تقربنا من التحديد المتوخى في هذه الدراسة. تقول إحدى الباحثات: "إن الرحلة مادة حكائية تجري في الزمن المسجل بدقة من قبل الكاتب تحكي أحداثا وقعت في الماضي في أمكنة معينة... ولا يمكن الفصل بين زمان الرحلة ومكانها إلا نظريا؛ لأن المكان يمتلك زمنه بالضرورة، ويتحرك كاتب الرحلة للتنقل من مكان إلى آخر عبر الاسترجاع الذي تمارسه الذاكرة..."[2]

وبغض النظر عن العناصر التي أشارت إليها الباحثة صراحة، فإن الجديد في تعريفها هو الفصل بين زمن الرحلة الفعلي، وزمن كتابتها، إذ تعتبر كتابة الرحلة استرجاعا للارتحال عن طريق الذاكرة التي يحفزها فعل الكتابة، وهذا يؤدي بنا إلى مفهوم جديد للرحلة، في كونها تجربة شخصية تنتقل إلى الكتابة بعد الاختمار في مطهر الذات، وتعكس رؤية الكاتب وتصوره لما حدث بعد أن وقع وانتهى.

ويعرفها آخر بكونها "... تشكيل لنص ذاتي شخصي بخصوص الأنا و الآخر، يتبنين متكيفا في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة، انطلاقا من خطاب مفصح عنه في البداية أو مضمر في تضاعيف السرد، والوصف والتعليقات."[1] فهذا التعريف يكاد يكون جامعا، إذ يبرز خصوصية النص الرحلي، في علاقته مع الذات والآخر، ويبين مرونته، كما يبرز نوع الخطاب باعتباره مكتوبا أو شفويا، ثم إن هذه العناصر ينظمها السرد حينا،

---

[2] - أم سلمى، صورة الغرب في الرحلة المغربية- رحلة الصفار نموذجا- "مقال" مجلة المنعطف وجدة العدد 6/7، سنة 1414هـ/1393م، ص: 132.

والوصف حينا آخر، بالإضافة إلى التعليقات التي يصدرها السارد، ففي الرحلات سعة ومرونة قد لا تتوفران لغيرها من الأشكال الإبداعية بل للرحال "أن يختار معمارا، ولا بد في أن يكون مبتكرا ذا معالم واضحة، يكفل تحقيق الترابط بين أجزاء العمل من لدن البداية وحتى النهاية"[2]، إنها دعوا للابتكار والمرونة والتنوع بشرط توفير الانتظام والترابط بين العناصر التي استجابت لمطالب العصر القديم، المهتم بالثقافة الموسوعة، وليس بالثقافة المتخصصة، وفي زمننا يقرر الدارسون أن الرواية أكثر الأجناس استقطابا للقراء، وهي في الوقت نفسه "...أكثر الأنواع الخبرية قبولا لتحقيق هذا التداخل والاختلاط باعتبارها النوع الأكثر اتصالا بواقع العصر المعقد والمتغير باستمرار"[3]

ويمكن القول: إن الرحلة شكل أدبي قائم بذاته له مقوماته الخاصة، و تنسجم فيه كثير من الأجناس الأدبية، وبهذا التجانس المنسجم استجابت الرحلات لمطالب القراء في العهود القديمة. ونحن ندرك أن أمورا انتظمت داخل الرحلة و تبدو غير متجانسة للوهلة الأولى فالشعر والنثر، والطب والتفسير، والفقه والحديث، والتصوف، كل ذلك يصعب أن ينتظم في خيط سميك يسعها، ولكن يبدو أن الرحلة كفيلة بضم الكل في شكل خاص له بداية ونهاية، وزمن ومكان، وشخصية متنقلة في الزمان والمكان ومتفاعلة مع الأحداث وفاعلة لها.

دوافع الرحلة: الدوافع الكامنة وراء سفر الرحالين و انتقالهم تنقسم إلى دوافع مباشرا وغير مباشرا.

1. **الدوافع الدينية:** منها ما هو مرتبط بالمنظومة الثقافية، ومنها ما هو متعلق بالبيئة نفسها، فالإسلام قد شجع معتنقيه على الرحلة في آيات كثيرا و لأغراض شتى، ولقد أشار القرآن الكريم بنوع من الامتنان على قريش " إيلافهم رحلة الشتاء والصيف"[4]، وذكر إسراء الرسول (صلعم) إلى بيت المقدس " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى..."[1]، وأباح للمؤمنين أن يهاجروا ولا يرضخوا

---

[1]- شعيب حليفي الرحلة في الأدب العربي، ص 32.

[2] - ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، في نهاية القرن الرابع هجري، ص : 40.

[3] - سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص: 197.

[4] – سورة قريش، الآية:2.

[1] – سورة الإسراء من الآية:1.

للذل والهوان " ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا..."[2] كما شجع على العلم و طلبه وحث عليه قائلاً: " فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون..."[3]

أما الحج فجعله الله فرضا قطعيا بشرط الاستطاعة " الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج..."[4]، وهناك أمر عام بالرحلة والسير قصد التأمل والدراسة " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق..."[5]، وبهذه التشريعات التي تدعو إلى الحركة والتنقل، توفرت في المنظومة الثقافية والمعرفية للمسلمين دوافع قبول الرحلة، فإذا أضفنا إليها ما يتعلق بالدولة الإسلامية التي اتسعت أطرافها، واحتاجت إلى ضبطها بواسطة الإداريين، والقادة العسكريين ومنظمي الزكاة والخراج والمخبرين، وربط ذلك بمركز الخلافة (العاصمة) تبينت لنا حاجة المسلمين للرحلة ، مما أوجد تسهيلات في الإقامة، وفي التواصل اللغوي ، وفي التبادل التجاري والاختلاط الاجتماعي وأوجد نوعا من الألفة بين معتنقي الإسلام، فتيسر لهم أن يسافروا بأمان، ويتعاملوا بثقة، فتعددت فرص العمل، وانفتحت أبواب الدعوة والتعليم، بل لقد عملت الدولة على تشجيع الرحالين ، إذ يذكر أن أولى الرحلات الرسمية كانت في عهد الواثق بالله العباسي، الذي كلف سلام الترجمان بالسير إلى جبال القوقاز بسبب رؤية رآها[6]حول يأجوج ومأجوج، فاختار من أجله الخبراء والكتاب من أجل إنجاز المهمة.

2- الدوافع الخاصة (الذاتية): ترتبط الدوافع الذاتية - غالبا - بالدوافع العامة، التي يستمد منها الأفراد المبررات الكافية للانطلاق والاغتراب، وأكثر الضرورات تأثيرا ما ارتبط بالذات وحاجاتها. "...التي تدفع الإنسان للرحيل، رغم أنها قد تكون مضادة لرغباته أو منافية لتوجهاته العقلية، ومخالفة لاستحسان الآخرين..."[1]

---

[2] – سورة النساء من الآية:97

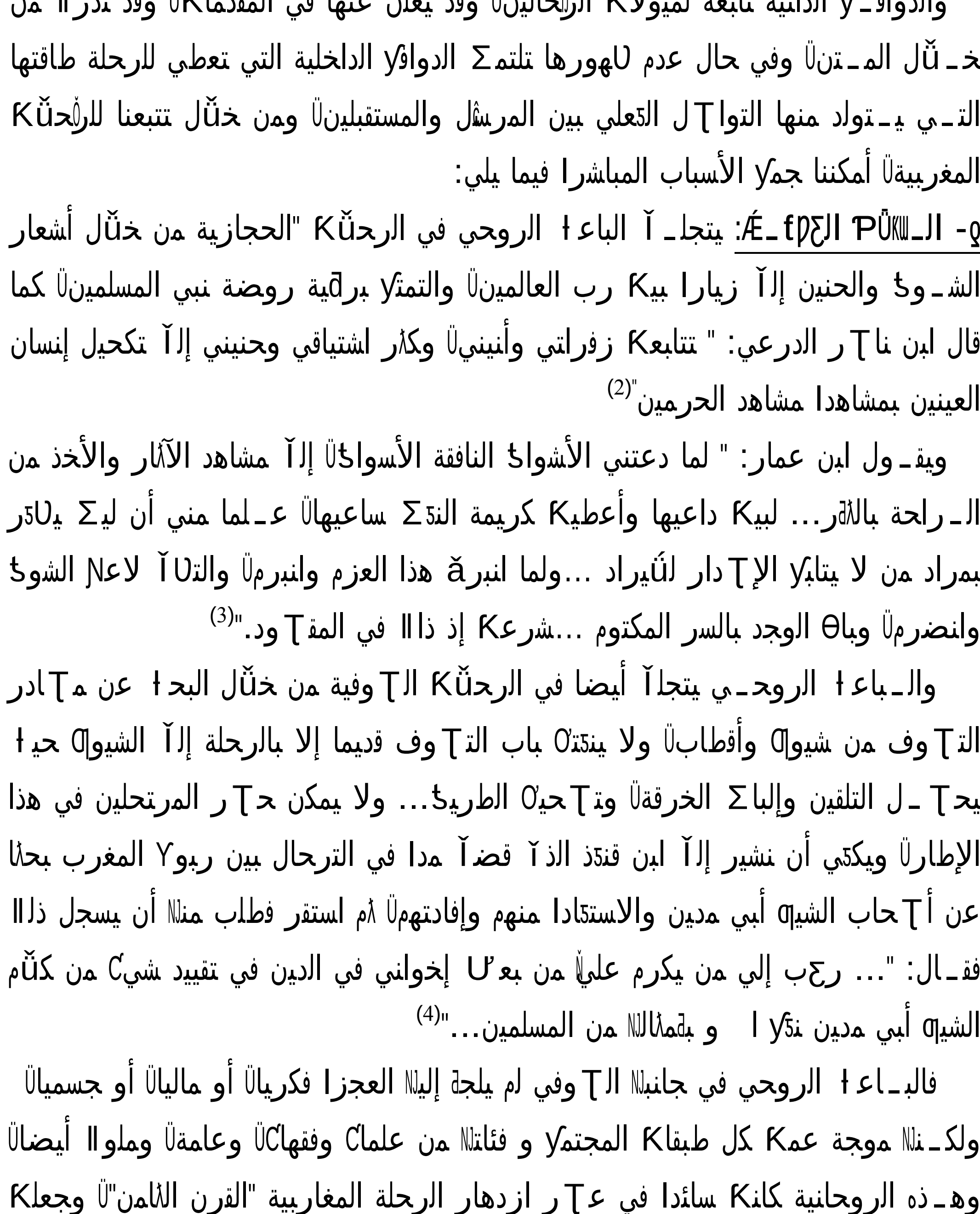
[3] – سورة التوبة من الآية:122

[4] – سورة البقرة من الآية:197

[5] – سورة العنكبوت من الآية:20

[6] -أنظر حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1409/1989م، ص 90-91

[1] – ناصر الدين عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي... ص :27.



والدوافع الذاتية تابعة لميولات الرحالين، وقد يعلن عنها في المقدمات، وقد تدرك من خلال المتن، وفي حال عدم ظهورها تلتمس الدوافع الداخلية التي تعطي للرحلة طاقتها التي يتولد منها التواصل التفاعلي بين المرسل والمستقبلين، ومن خلال تتبعنا للرحلات المغربية، أمكننا جمع الأسباب المباشرة فيما يلي:

- الدافع الروحي: يتجلى الباعث الروحي في الرحلات "الحجازية من خلال أشعار الشوق والحنين إلى زيارة بيت رب العالمين، والتمتع برؤية روضة نبي المسلمين، كما قال ابن ناصر الدرعي: " تتابعت زفراتي وأنيني، وكثر اشتياقي وحنيني إلى تكحيل إنسان العينين بمشاهدة مشاهد الحرمين"[2]

ويقول ابن عمار: " لما دعتني الأشواق النافقة الأسواق، إلى مشاهد الآثار والأخذ من الراحة بالأسفار... لبيت داعيها وأعطيت كريمة النفس ساعيها، علما مني أن ليس يظفر بمراد من لا يتابع الإصدار للإيراد ...ولما انبرمت هذا العزم وانبرم، والتهب لاعج الشوق واضطرم، وباح الوجد بالسر المكتوم ...شرعت إذ ذاك في المقصود."[3]

والباعث الروحي يتجلى أيضا في الرحلات الصوفية من خلال البحث عن مصادر التصوف من شيوخ وأقطاب، ولا ينفتح باب التصوف قديما إلا بالرحلة إلى الشيوخ حيث يحصل التلقين وإلباس الخرقة، وتصحيح الطريق... ولا يمكن حصر المرتحلين في هذا الإطار، ويكفي أن نشير إلى ابن قنفذ الذي قضى مدة في الترحال بين ربوع المغرب بحثا عن أصحاب الشيخ أبي مدين والاستفادة منهم وإفادتهم، ثم استقر فطلب منه أن يسجل ذلك فقال: "... رغب إلي من يكرم علي من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين نفع الله به وبأمثاله من المسلمين..."[4]

فالباعث الروحي في جانبه الصوفي لم يلجئ إليه العجز فكريا، أو ماليا، أو جسميا، ولكنه موجة عمت كل طبقات المجتمع و فئاته من علماء وفقهاء، وعامة، وملوك أيضا، وهذه الروحانية كانت سائدة في عصر ازدهار الرحلة المغاربية "القرن الثامن"، وجعلت

(2) أحمد ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، خزانة كلية الآداب، الرباط، ط حجرية رقم م.ج.13 056 913/ درس، ص: 4- 5.

(3) - أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانا- الجزائر- سنة: 1320هـ/1920م، ص: 3.

(4)- ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، تصحيح محمد الفاسي وأدولف، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، سنة 1965، ص 1

الـرحالين لا يـبالون بما يواجهونه من مشاق الطريق، وقد وجدنا ابن اللحياني في رحلة التجاني يعزم على الحج رغم نصح الناس حين باستحالة الحج مما جعله ينتظر أكثر من عام بعيدا عن العاصمة "تونس" انتظارا للركب الآمن إلى بلاد المشرق.[1]

إن لـواعج الشـوق إلى الحرمين قد تصل إلى الحد الذي لا يقاوم، لذا نجد كثيرا من الرحالة يحجون أكثر من مرة.

ومهمـا يكن فإن الحج من أغنى الينابيع التي زودت المسلمين بالمعلومات، إذ يصطحب عودا الحجاج إلى بلادهم كثير من القصص والأخبار التي سمعوها في طريقهم، كما يدون الحجاج واسعو الثقافة ذلك لينتفع بتجاربهم سائر المسلمين، ومن ثم زخرت كتبهم بأحوال سكان البلاد الإسلامية، وطبيعة مزاجهم وأسس اقتصادهم، وينابيع ثروتهم.[2]

وإلـى جانب الشوق إلى البقاع المقدسة يبرز الشوق إلى المقامات التي بالشام، فلقد هام المغاربة بالمسجد الأقصى، وجاور الكثير منهم بقربه حتى كونوا ما يعرف بحي المغاربة.

ب- الـرحلة العلمية: منذ عهد مبكر ارتحل المغاربة إلى المشرق لأهداف تعليمية، كما كـان المشارقة الأوائل يرتحلون لجمع العربية والحديث والأخبار وتقييدها، فكانت الرحلة لطالـب العلم أمرا مستفيضا بين أرباب كل التخصصات، وتعويضا لنقص انتشار الكتب.

وأهـل المغـرب ينتهزون فرصة الحج للتعلم أيضا، فبدا أثر التحقيق العلمي واضحا في رحلاتهـم، حتـى صارت الرحلة لملاقاة الشيوخ أشبه بالشرط الذي لا يقوم العلم إلا به، حرصـا منهم على الإسناد العالي، يقول ابن خلدون: "...الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتسـاب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال..."[3]، وهكذا تتحول الرحلة إلى بحـث ميدانـي حقيقـي لتثبيت المكتسب، واكتساب الجديد بالإقامة في المدن الكبرى ومجالسة العلماء، وحضور دروسهم ومناظراتهم، والتماس إجازاتهم، وتقـييـد آرائهم وتلخيص مؤلفاتهم، مما يكون هيكل كتب قريبة من الرحلات تسمى مختلفة "كالمشيخة"،

---

(1) – أبو محمد عبد الله التجاني، الرحلة، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1377هـ/1958م، ص: 191.

(2)- د. إبراهيم أحمد العدوي، ابن بطوطة في العالم الإسلامي [سلسلة اقرأ]، دار المعارف بمصر، ط3، 1983م، ص: 8.

(3)- ابن خلدون، المقدمة، إحياء التراث العربي، بيروت، ط: د، سنة: د، ص: 541.

"والفهرسة" و"الثبت" و"البرنامج" وغيرها، وهذا النوع من الرحلات ضعيف الصلة بالأدب و إن كان قائما على بنية السفر. وهكذا تتعدد غايات الرحلات العلمية، فهناك الرحلة في طلب الحديث، والرحلة لمعرفة الأقاليم الجغرافية، والرحلة التاريخية، والرحلة الصوفية، إذ كل العلوم يرحل إلي مصادرها مما جعل الرحلة أمرا شائعا، وعدد المغاربة الراحلين للمشرق بهدف التحصيل العلمي يفوق الإحصاء، على أن الرحلة المتوجهة إلى البلاد العربية تحولت بعد تغلب العثمانيين إلى استنبول، عاصمة الخلافة كما فعل الزياني وغيره. والرحلات كانت وما تزال من أسباب تثقيف العقل والنبوغ في العلم متى كان الرحال مجدا، وعن طريقها يتم تلاقح الأفكار، وتبادل المعارف، وقد تحدث الرحلات بعد قراءتها نوعا من الصدمات المفاجئة للمجتمعات المتخلفة، فتنهض من سباتها.

وتعتبر الرحلات وعاء معرفيا يحدد دور التواصل بين الأفراد والجماعات، وبين الأقطار المختلفة، فالرحال يتواصل مع الغير منذ خطوا الخروج من عتبة المنزل، فالرفاق، والطريق، والقرى، والمدن، والعلماء وقطاع الطرق، والأولياء والسلاطين والأسواق والمساجد... كل ذلك مجال للتواصل وإثراء للمعارف، وتعميق للمفاهيم، وإدراك لما يجري في المجتمعات من تنوع واختلاف، ومن وحدة وائتلاف، وهذا ما تتيحه مسافة الطريق في اتجاهها الأفقي، وهناك تواصل آخر عبر الأجيال يتم بالوقوف على الآثار والديار، وعلى الروايات الشفوية والمكتوبة، وعلى الأضرحة ومظاهر العمران والاطلاع على العادات والتقاليد، وكل ما يميز وحدة اجتماعية عن أخرى، في التعامل مع القيم والدين، ومع الأرض وكل المسخرات، بناء وزرعا وصناعة وتجارة.

ثم هناك تواصل أعلى عن طريق تجرد الذات من العناصر المعيقة على أداء الشعائر والشوق إلى الحضرة المحمدية، ارتقاء إلى الحضرة الربانية، وهذا هاجس لدى الرحالة الذين اتخذوا التصوف سبيلا للمجاهدة والارتقاء إلى المقامات العليا أملا في إدراك الحقائق بواسطة الكشف، وهو اتجاه جاد وشاق يطبع الرحلات التي ندرسها لكون مؤلفيها أخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة الجد، فلا نستغرب حين لا يسردون في هذه المتون الضخمة إلا الجاد. وحتى الحكايات التي يوردونها لا تحمل طابع الإضحاك، ولا الإسفاف، إنما طابع التعليم، وفي أحيان قليلة تحمل طابع الغرابة والإعجاب، ذلك أن

الـرحلات تخضع للنسق الثقافي المتواضع عليه اجتماعيا ودينيا وجماليا، والممثل للوضع العـام الـذي يخضـع له المؤلف وجمهوره[1]، لذلك يصعب الاعتماد على الخصائص الداخلية فقط، فلا بد من الإشارة إلى الصدى الذي تحدثه " في سياق ثقافي معين" [2]

3- الرحلات الرسمية:

الرحلات التي تكمن السياسة وراءها أنواع منها: الإدارية، والسفارية، والأمنية.

فالإدارية هي التي ينجزها الرحالون بتكليف من الدولة خدمة لمصالحها الإدارية وتتعلق بالطـرق ونظـام البـريد ممـا أنتج كتب "المسالك والممالك..." وهذا النوع ليس فيه إلا المعلومات العلمية ولا يدخل منه تحت أدب الرحلات إلا بعض الأخبار والحكايات، ويمكن إدراج نوع آخر من الرحلات ضمن هذا الباب وهو "الحركة " التي ينجزها السلطان أو مـن يقـوم مقامه لتفقد الأقاليم، والإشراف على استتباب الأمن و القضاء على التمرد، ومـن ذلـك ما قام به السلطان أبو عنان إلى قسنطينة والزاب، وكان ابن الحاج النميري مصاحبا له، فسجل رحلته " فيض العباب..."

ورحلـة أحمـد بـن هطال التلمساني المصاحب لمحمد بن عثمان الكردي باي الغرب الجزائري مندرجة في هذا الإطار، قام بها الباي المذكور وابتدأها يوم الخميس 9 ربيع الأول 1199هـ، وأنهاهـا يـوم الأربعاء 28 ربيع الثاني 1199هـ، وذكر فيها الأعمال والمراحل، والساعات والمناهل، والقبائل، التي طوعت.[3]

ومـن هذا النوع الرحلات السفارية وهي وليدة "... التقدم الحضاري، ونشوء الدول التي كانت ترسل مندوبين رسميين نيابة عنها، من أجل التفاوض فيما بينها، وكان هذا التفاوض يطـول مجـالات شـتى..."[4] وأقدم رحلة سفارية " هي التي لخصها ابن دحية في كتابه المطـرب مـن أشـعار أهل المغرب، وتتضمن سفر يحيى الغزال موفدا من قبل الخليفة

---

(1) - عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ترعبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ط1، سنة1993م، ص: 8.

(2) - نفسه، ص: 41.

(3) -أحمد بن هطال رحلة محمد الكبير(باي الغرب الجزائري) إلى الجنوب الجزائري، عالم الكتب، القاهرة، ط1، سنة1969م.

(4) - د. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص: 33.

الأمـوي عبد الرحمن بن الحكم إلى ملك المجوس أي ملك النورمانديين، وذلك سنة208 هـ (824م). [1]

ومـن الـرحلات السياسـية التعليمية، رحلة ابن فضلان، إذ أرسل ملك الصقالبة إلى الخليفة العباسي المقتدر(ت: 320هـ) يسأله أن يرسل إليه من " يفقهه في الدين ويعرفه شـرائع الإسـلام ويبني له مسجدا... فكان السفير نذير الحرمي فندبت أنا لقراءة الكتاب علـيه وتسليم ما أهدي إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين..."[2]، ولا شك أن هذه السـفارات كثيـرا بـين الخلافة الإسلامية، و الدول المجاورة أو بين الإمارات المستقلة وغيـرها. ومـن هذه الرحلات رحلة الوزير في افتكاك الأسير، لمحمد بن عبد الوهاب الغساني التي كانت سنة1102هـ (1690م-1691م)، يقول في مقدمته: " وكنت ممن أمن الله علـيه لخدمـة بابه، وتفضل عليه بالانحياز لجنابه، ووجهني أدام الله علاه لبلاد الروم لآتـيه بمن هنالك من أسارى المسلمين، وأبحث في الخزائن الأندلسية عما أبقاه المسلمون هنالك، من كتب الأحكام ليكون لي معه دام مجده كفل من الثواب" [3]

ثم تليه رحلة محمد بن عثمان المكناسي:(الإكسير في فكاك الأسير، 1193هـ/1779م)، وهـو مـبعوث من قبل سيدي محمد بن عبد الله سلطان المغرب إلى كارلوس الثالث، قال المكناسـي:" وكـنت ممن تفضل الله عليه في الانتظام في سلك خدمته...فبعثني... للبلاد الإصبنيولية وإلي عظيمها وأصحبني...عشرا آلاف مثقال من سكته ليأخذ كل أسير حظه مـن صلته...ولآتيه بما تيسير لنا من أسارى المسلمين، فتوجهت راجيا من الله تعالى أن يكون لنا خير معين إنه ولي ذلك، و المانح لما هنالك..."[4]

وأحمد بن المهدي الغزال قام برحلته للغرض نفسه وذلك في عهد مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب إلى ملك أسبانيا كارلوس الثالث، وذلك ما بين (1179هـ/1180هـ) (1765م/1766م) وهدفها المهادنة بين أسبانيا والمغرب، مع افتكاك الأسارى، وتمتـين

---

(1) - محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، ص : ز من المقدمة.

(2) - د. حيدر محمد غيبة، رسالة ابن فضلان، الشركة العالمية/ مكتبة المدرسة...، ط1، سنة1414هـ/ 1994م، ص 34.

(3) - محمد بن عبد الوهاب الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تقديم وتعليق ألفريد البستاني، منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو، ط ب، سنة1940م، ص :2.

(4)- محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، ص :6 .

العلاقة بين الدولتين بتبادل الهدايا، واسترداد الكتب النفيسة.[1]

هذه الرحلات وفرت الكثير من العناصر الأدبية التي يتطلبها البحث، وبخاصة الأخيرة التي ستكون ضمن عينة الدراسة، وما تنقلات ابن خلدون شرقا وغربا إلا اضطرار سياسي، وإن كان طابع المذكرات غالبا على رحلته.[2]

ويمكن أن تكون هناك بواعث اقتصادية ولا نملك الرحلات الخاصة بذلك إلا ما يشير إليه الدارسون من أن رحلة يدعى عبد الباسط بن خليل بن شاهين المالطي القاهري جمع بين الفوائد التجارية والعلمية وتوقف في تلمسان.[3]

[illegible]

أ- الـ[illegible]: الـتدوين مرحلة حضارية ينتقل فيها الإنسان من الاعتماد على الذاكـرة إلى الكـتابة، ولا شك أن الناس منذ أن وجدوا وهم يرحلون والكثير من الرحالين يروون مشاهداتهم، والقلة هي التي دونت ما شاهدت بأقلامها، ومن خلال النظر في المسيرة الحضارية للأمة نجد أن أزهى عصورها هي التي تلت عصر التدوين.

والرحلات لا تكاد تخرج من هذا الإطار " إذ كان من أهم الأسباب في تدوين الرحلات حاجة الدولة (الإسلامية) إلى معرفة الطرق الكبرى، التي تصل أقاليمها، ومن ثم ألفت كتب كثيرا في وصف المسالك والممالك، وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية، إذ أن الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم، وكان المسلمون يتجشمون راضين كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة... ويصف كثير من هؤلاء الحجاج طريقهم إلى الأماكن المقدسة في كتب أو رحلات مختلفة "[4]، والمغاربة ليسوا مولعين بتدوين الأحداث التاريخية والإبداعات الأدبية، ولا بتدوين شؤون حياتهم، إلا ما يتعلق بالرحلات، فقد أخذوا فيها بسهم وافر، فبرزت جملة من الرحلات ميزت المغرب الإسلامي، إذ كان الكتاب يتبارون في هذا المجال، وبخاصة في القرنين السابع والثامن من الهجرة، حيث

---

(1)- أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والاجتهاد، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، سنة1984م.

(2) - ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ط1، سنة 1997.

(3) - الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، المغرب، ط1، ج2(جزآن)، ص 106.

(4)- شوقي ضيف، الرحلات، [سلسلة فنون الأدب العربي، الفن القصصي] دار المعارف، ط1، سنة1956م، ص 8-9.

ازدهرت الآداب والعلوم بفضل تشجيع المرينيين.[1]

ولكثـرة هـذه الـرحلات وتنوعها، لن نتحدث إلا عن بعض منها متسائلين عن طرق تدوينها؛ هل يدونها الرحال مباشرة؟ أم يعتمد على الذاكرة؟ وهل يكتفي بمشاهداته فقط؟ أم يدعمها بالمصادر المختلفة؟ وهل يسجل مذكراته ثم يعمد إليها ويطلق العنان للتداعي؟ هذه الأسئلة وغيرها جعلتنا نقف على تعدد طرق التدوين وتنوعها .

1- التدوين أثناء الرحلة: بعض الرحالة يكتبون رحلاتهم أثناء السفر، فهذا العبدري يذكر أنه ابتدأ تقييد رحلته في تلمسان وأطلع ابن دقيق العيد بالقاهرة على ما سجله منه إذ قـال:" ووقـف على ما تقيد من هذه الرحلة، واستحسنه، وأفادني فيها أشياء، وقيد منها وفـاة الشقراطسي..."[2] إلا أن هذا النص لا يدل أن الرحلة قد دونت كلها، والواقع أنه ما لم يذكر الرحال بذلك فإنه يصعب على الدارس أن يحدد زمن كتابة المدونة.

2 - التدوين بعد الرحلة: ويبدو أنه الشكل الأكثر انتشارا إذ يعمد فيه الرحال إلـى تسـجيل ما يمكن أن يفوته على أن يتم التدوين النهائي بعد اكتمال الصورة الذهنية للـرحلة، وقد تكون الرحلة كلها عبارة عن مذكرات، أو ذكريات قريبة من السيرة الذاتية وفـي هـذا الحال قد تعرض الأحداث من منظور ذاتي[3] وقد يتأخر ظهور الرحلة بعد السفر بزمن، فالتجيبي في رحلته[4] يشير إلى أحداث وقعت سنة 704هـ، مع أن الرحلة كانـت سـنة696هـ، ولعل العياشي يكون قد فعل ذلك أيضا، نظرا لما جمعه من أقوال وأخبار، لا يمكن أن تظل عالقة بذاكرته بهذا الوضوح، إلا بالاعتماد على بيانات ما.

3 - التدوين من الـذاكرة: إما أنها مروية شفويا كما حصل مع ابن بطوطة، أو يكون الرحال قد اعتمد على ذاكرته في التحرير كما فعل ابن قنفذ في رحلته " أنس الفقير وعز الحقير"، فكل ما ذكره من أخبار الشيخ أبي مدين وإخوانه، وأصحابه وشيوخه

---

(1)- محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، ص : ب، ت[من المقدمة]

(2) – العبدري، الرحلة، ص : 139-140.

(3) – انظر حسني محمود حسن، أدب الرحلات عند أمين الريحاني، رسالة ماجستير إشراف شكري عياد، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام 1969، رقم:734، ص :156.

(4) – أنظر التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص 307، عن الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، ج1، ص 57.

وتتميز هذه قد حصل على معلوماته من رحلاته المختلفة داخل المغرب وهو ينتقل بين مدنه وقراه للقاء الشيوخ، أو زيارة الأضرحة أو حضور المواسم... وهذا ما يفسر لنا اختلاف الزمن في رحلته بشكل لافت، حتى أنه يصعب إدراك تتابع الأحداث فيها.

ث - التأليف والتدوين: من خلال الدراسة تبين لنا أن الرحلات دونت من قبل فاعليها، أو من غيرهم كما هو في التفصيل الموالي:

1- رحلات كتبت من قبل مؤلفيها، وأشاروا إلى منهاجهم في مقدمات لرحلاتهم وغالبا ما يحدد تاريخ البدء والانتهاء، كما فعل العبدري والعياشي والغزال والورتيلاني...

2- رحلات كتبت أو نسخت من غير فاعليها كما فعل ابن جزي المدون لرحلة ابن بطوطة وقد أضاف إليها ما رآه ضروريا لجمالية الرحلة[1]، ولقد ذكر أحد الباحثين في هذا النوع رحلة ابن جبير التي نسقها غيره، ورحلة ابن رشيد... بمعاونة آخر.[2]

ورحلة فيض العباب لابن الحاج النميري، لو لم يهتم بها أحد أقاربه بعد وفاته لما خرجت للناس، رغم كتابتها من قبل المؤلف، قال منسقها:"و كان الكتاب متفرقا في تقاييد مبددا، ورقات مسددا..."[3]، وقد تكون هناك رحلات أخرى لم تصلنا أو لم نطلع عليها.

3- رحلات لم يخطط لها الكتاب ولكنهم شاركوا فيها، مثل أحمد بن هطال الذي صاحب محمد الكبير باي الغرب الجزائري في رحلته، ودون ما فعله الباي. وكما فعل ابن الحاج المصاحب للسلطان أبي عنان إلى قسنطينة، فسجل رحلة "فيض العباب".

ويبدو أن معظم الرحالين يجمعون شتات ما يسجلونه، ثم يهذبون مذكراتهم وقت الإستراحة والطمأنينة أثناء السفر أو بعده، وقد يرخون العنان للذكريات، فتوظف ما تراه مناسبا، وبخاصة لدى من قام برحلات كثيرا، إذ يتفاعل الماضي مع الحاضر وتتشابه المواقف وتتداعى مع بعضها، وقد يستشير الرحالون المراجع والمصادر أو يستقصون الأخبار، مما يجعل الرحلة أحيانا أشبه ما تكون ببحث جاد في التأليف، ومن بين من فعل

---

(1)– أنظر الطائع الحداوي، مقال (النص الواصف لابن جزي) في معنى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، ط1، سنة 1999، ص ص: 145-189.

(2) – أنظر الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، ج1، ص: 59.

(3)- ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة 1990، ص: 150.

ذلك العياشي في رحلته: "ماء الموائد"، إلا أننا حين نتحدث عن آليات كتابة الرحلة، نعني ما تجاوز التقارير الإخبارية إلى عمل أدبي متماسك، وإذا سجل الرحال رحلته أثناء السفر، فليس بالضرورة أن تكون المسودة الوحيدة، فقد تكون للرحلة الواحدة مسودات ذلك أن" الكتابة أثناء الرحلة تتضمن وصفا حارا صادقا، ولكنه انفعالي غير متقن، وبذلك يفقد صفة العمق التي لابد من توافرها في كل عمل أدبي..."[1]، أما التحقق من القضايا فلا بد فيه من استشارة المصادر، وهذا ما يقتضي الاستقرار، رغم أن بعضهم يحمل كتبه معه.

- الترتيب في المادة الرحلية:

نتساءل في هذه المرحلة عن كيفية ترتيب مواد الرحلة، أهو ترتيب زمني؟ أم ترتيب مكاني؟ أم ترتيب موضوعي؟

الترتيب الزمني: يحدد فيه الرحال بداية الرحلة ونهايتها، وقد يقسم رحلته إلى وحدات زمنية معتمدا على اليوم، أو الأسبوع، أو الشهر... وفي هذا الإطار إما أن يعنون الفصل بالزمن، أو يذيله به، وقد يتلاعب الرحال في التقديم والتأخير، حرصا على التشويق.

ومن الرحلات التي خضعت للترتيب الزمني ولم تهمل المكان- رحلة التجاني- الذي حرص على تسجيل الأيام تسجيلا دقيقا حتى أننا نستطيع أن نحسب أيام كل فترة قضاها في مكان ما، وهو يشير إلى الزمن في بداية المرحلة أو في ثناياها، أوفي آخرها مما يجعله يعتمد شكلا غير رتيب، وأما ابن هطال فقد اهتم بالساعات فضلا عن الأيام.

الترتيب المكاني: وفيه يتبع الرحال التسلسل المكاني الذي يقطعه من خطة سير الرحلة أولا بأول، وهو ما يسمى عند القدامى بمراحل الطريق، إلا أن هناك أماكن ذات أهمية قصوى، وأخرى أقل منها، وهو في تعامله مع المكان يصفه وصفا ذاتيا، وقد يدعم مشاهداته بأوصاف سابقيه من الرحالين، أو المؤرخين، أو الأدباء.

وقد يختلط الترتيب المكاني مع الزمني، فيخصص يوما لزيارة كذا، ويوما لزيارة كذا...
ومن الرحالين من يهتم بالكيانات السياسية للمكان، كالانتقال من قطر إلى آخر.

ومن الرحلات المعتمدة على الترتيب المكاني " نتيجة الاجتهاد في المهادنة و الجهاد " للغزال، أما رحلة العياشي والورتيلاني، فترتيبهما مكاني، ممتزج بالموضوعات.

---

[1]- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي(حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص: 61.

التصنيف الموضوعي: ويقوم على اختيار موضوعات بعينها والانطلاق منها إلى وصف مكان أو شعب... ويراعى في ذلك التسلسل الزمني و المكاني، أو يهمل وقد يندرج تحت الموضوعات الأساسية موضوعات فرعية.[1]

وحين ينتقي الرحالون المعلومات و يرتبونها ترتيبا ما يراجعون رحلاتهم بالتنقيح والتهذيب؛ لأن الذاكرة كثيرا ما تكون عرضة للنسيان والخطأ، ثم يعرضونها على الأقران للتصحيح وإبداء الرأي، ولا تنتشر بين الناس إلا بعد الاطمئنان من كونها ستحرز على كثير من الاستحسان والرضا. أما آليات جمع المعلومات من قبل الرحالين، قبل تنسيقها، فإنهم يعتمدون على المشاهدة والمعاينة، وقد صرح كثير من الرحالين على أنه قد سمع ورأى، وحدد عملا شاهد من المدن والقرى، ووصف جميع ما أبصر[2]، وإلى جانب الرؤية والمشاهدة تأتي رواية الأخبار عن طريق السماع في الدرجة الثانية.

وقد لا يكتفي الرحال بالخبر المسموع فيذهب في التحري والاستقصاء مذاهب شتى، فإن لم يستطع التأكد يخرجه مخرج الشك لا مخرج اليقين، " إن الحركة المهيمنة لأفعال في الرحلة تتراوح بين أفعال اليقين المتضمنة لأحكام والرؤية و المشاهدة في صياغات تأكيدية تقريرية... وبين الأفعال الاحتمالية التي يتوخاها الراوي حتى يتسنى له الحديث بشكل افتراضي يقول من خلاله ما يعجز عن تأكيده فيتركه في منطقة الاحتمال والافتراض والشك، وعادة ما تأتي هذه الجمل حمولة أدبية رقيقة غير جافة..."[3]

ويضمن الرحالون ما يرونه مناسبا في تحاورية مثيرا جديرا بدراسة خاصة، مما جعل الرحلات تحتل بعض صفحات الكتب، ودواوين الشعراء والكتب الفقهية...كل ذلك لتوثيق المعلومات و إعطائها مصداقية ترقى بالرحال إلى مصاف العلماء المحققين، وتخرجه من مصاف المقلدين الغافلين، وقد يبلغ الإسراف المعرفي درجة تثقل سير الرحلة.

أنواع الرحلة:

هناك عدة احتمالات في تقسيم الرحلات فإن نظرنا إلى تشكيل اللغة أمكننا الحديث عن الرحلة الشعرية والرحلة النثرية، وقد أفاض الدكتور حسين نصار في تبيان هذا

(1) - ناصر عبد الرزاق الموافي، ص: 65-66.

(2) - أحمد بن المهدي الغزال، ص: 45.

(3) - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص: 161.

التقسيم[1]، وإن نظرنا إلى العناصر التي تشتمل عليها الرحلة في علاقتها بالواقع قسمنا الرحلات إلى واقعية فعلية ومتخيلة، وندخل ضمن المتخيلة رسالة الغفران، والتوابع والزوابع لابن شهيد وما ماثلهما، وإن نظرنا إلى العناصر التي تشتمل عليها الرحلة في علاقتها الفنية الجمالية فسنجد رحلات التقارير، والرحلات الجغرافية، والرحلات الأدبية، التي تلتمس من خلال عناصرها التكوينية وعلاقتها بما يتطلبه الأدب من جمال وانسجام في اللغة، وانصهار المرئي بالذات وذلك في قالب مميز.

أما إذا نظرنا إلى بنية الرحلات، فيمكن أن نتحدث عن البنيات التالية:

1- البنية النمطية: وهي تلك البنية التي تتبع نمطا قريبا من الرحلة الواقعية، ويكون الزمان والمكان فيها منسقين، مرتبين ، وبذلك تتكون الرحلة من أربع وحدات هي:

- المقدمة
- مرحلة الذهاب.
- مرحلة العودة
- الخاتمة

وهذا التقسيم يلغي مرحلة الوصول التي تتوسط في بعض الرحلات مما يؤهلها لتشكيل مرحلة أساسية، وفي رحلات أخرى تنتقل حتى لا تكاد تظهر للدارس، ولكنها تجسد الهدف وعليه فلا بد من إبرازها في الدراسة.

هذه البنية تكاد تكون شاملة لكل الرحلات، رغم الاختلاف في التفاصيل، إذ يمكن تشكيلها كبنية مغلقة أو مفتوحة، أو كبنية تامة أو ناقصة.

إن الرحلة ذات نمط تقليدي اكتمل من خلال النص النموذجي المجسد للخصائص الشكلية والمضمونية، ويرى بعض الدارسين أن الشكل النمطي يتجسد في رحلة ابن جبير، ويرى آخرون أنه يتجسد في رحلة ابن بطوطة، كما يمكن أن يكون في رحلات أخرى، والمقصود بالبنية المغلقة و المفتوحة أن يكون الرحال ملتزما بهدفه الذي رسمه ولا يتعداه، أما البنية المفتوحة فيمكن أن تتولد فيها مشاريع سفر جديدة، فابن بطوطة كان قاصدا الحج، ثم تولدت لديه مشاريع سفر جديدا إلى اليمن، ثم إلى بلاد أخرى، فالبنية في

---

[1] - حسين نصار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية لونجمان، ط1، 1991، ص 97-110.

رحلة ابن بطوطة مفتوحة تولدت منها بنيات جزئية و الكل يخضع لبنية نمطية كبرى لا تختلف في خطواتها الذهاب والإياب.

ويقترب من هذا بعض الرحلات الحجازية التي تقصد إلى مكة و المدينة، وأثناء العودة تنشأ بنية فرعية بزيارة الشام، ثم العودة عن طريق مصر، كما فعل العياشي في رحلته "ماء الموائد"

وضمن البنية النمطية ذات الشكل المفتوح أو ذات الشكل المغلق تتولد البنية المحورية " وتستند إلى تحديد محاور بعينها، يحددها الشخص الرحال وتخصصه العلمي.[1]

واهتمامات الرحالين ضمن البنية المحورية يمكن إجمالها في:

1- بنية السفر نفسه: وهذه تتميز بكونها بنية مهيمنة من جهة، و من جهة ثانية بنية متحكمة وجاذبة لباقي البنى[2] إلى حد الخضوع، يضاف إلى بنية السفر التفريعات التالية: أن يكون السفر داخل القطر، أو داخل العالم الإسلامي، أو خارج القطر، أو خارج العالم الإسلامي، كما يمكن أن ننظر إلى السفر من حيث المسالك فنتحدث عن الرحلة البرية أو البحرية أو هما معا.

2- البنية العلمية: المتعلقة بالجغرافية والمسالك والممالك وما يقاربها، إذ جاءت أحاديثهم أخبارا علمية جافة، " ولكن بعض الرحالة يتمتعون بذوق ناقد فتفطنوا إلى مواطن الجمال في أسفارهم، ووقفوا عندها يتأملون ويتمتعون، وتركوا لنا لوحات بارعة تصور المنظر الجميل، والحسن النبيل..."[3]

وضمن المحور العلمي، يمكن الحديث عن اهتمام الرحالين بالمناخ والظواهر الطبيعية، وأنواع النباتات وبعض الكواكب و مطالعها، وبعض الحيوانات والمعادن وأسرارها.

3- البنية الاجتماعية: عني الرحالون بالأمور الاجتماعية وبخاصة تلك التي تميز التجمعات البشرية في مظاهرها غير المألوفة لدى الرحال، وهذه العناية " أكسبت رحلاتهم أهمية كبيرة، إذ جعلتها مصدرا لا يستغنى عنه للمؤرخين وعلماء الاجتماع."[4]

---

(1) - ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص: 72-73.

(2) - عبد الرحيم مودن أدبية الرحلة، ص : 26.

(3) - حسين نصار، أدب الرحلة، ص 116-117.

(4) - نفسه، ص: 120.

ولـم يقتصروا على الشعوب الأجنبية، بل اهتموا بعادات الشعوب العربية نفسها حسب مـناطقها وسـجلوا مشاهداتهم في الأعياد والمواسم والأفراح والأتراح، كما تحدثوا عن بعـض الأطعمة والمعاشات المختلفة، وعن بدء انتشار التدخين، وشرب الشاي، والبن في المقاهي. كما اهتموا بالسلوكات النسوية الناشزة، وغيرها من الظواهر الاجتماعية.

4- البنـية الثقافية: إن المجال الأساسي في الرحلة هو المجال الثقافي الشامل لإبداعات البشـر فـي المجـالات المتعددة، فالعبدري خرج من بلاده و في ذهنه البحث عن العلم وظواهره، ولذلك كان جل تقييمه للمدن قائما على مدى توفر العلم أو نقصانه أو انعدامه، ثـم يأتي الاهتمام بالعلماء أنفسهم وتخصصاتهم المعروفة آنئذ من فقه وأصول وحديث، وتفسـير، وتصوف، وتاريخ، ومعرفة الأخبار و الآثار، ويتفرع عن هذه البنية المحورية بنـية أخـرى تـتعلق بالأخـبار الأدبية، كالتراجم والسير، مثل تراجم العلماء، وسنداتهم العلمية، وبخاصة أولئك الذين تلمذ منهم الإجازات العلمية، أو الذين يتشرف الرحال بالأخذ عنهم نظرا لمكانتهم العلمية العالية.

ويهتم الرحالون بالكتب وجمعها، و بخاصة المخطوطات النادرا التي كتبت بخط المؤلف نفسـه، فالعياشي لم يعد من الحجاز بتجارا وإنما عاد بأحمال من الكتب، كما أن الرحالين يبحـثون عـن المكتبات الخاصة ويشيدون بمن يعيرهم بعض الأسفار، وبمن ينقلون عنه بعـض الأخـبار مـن مصـادرها، ويذهب البعض إلى حد التحقيق والتوثيق من خلال المقارنات بين نسخ الكتب والروايات المسموعة.

وضـمن هذه البنية يهتم الرحالون بآثار الأولين كما فعل العبدري على طول الطريق من تلمسـان إلى مكة، وكما فعل الغزال مع الآثار الباقية في الأندلس، بالإضافة إلى الاهتمام بالـنقوش والـزخارف الخطـية والرسـوم البيانية والتماثيل الحيوانية والبشرية، والدمى والمصنوعات المختلفة.

5- البنـية الأدبـية واللغوية: يدخل ضمن هذه البنية المحورية كثير من المسائل اللغوية كقضـايا الـنحو والصـرف التي تأخذ من مناقشات الأقدمين حيزا واسعا، وكذلك المتن المعجمي، والاستعمالات الفصيحة، والدارجة ولغات الآخرين.

أمـا فـي جانب الأدب فنجد الحديث عن الشعر والنثر وما يتفرع عنهما، وللبنية الفرعية النقدية سهم وافر، مما يعكس ثقافة الرحال وقدرته التحليلية والحوارية، وذوقه الفني. وقد تتسـع هـذه البنـية لإبداعات الرحال حين يسجل قصائده أو رسائله أو تعليقاته المختلفة، ويمكن إدراج التأملات الخاصة بالكون و الحياة ضمن هذه البنية.

6- البنـية الاقتصـادية: لقد تحدث الرحالون عن المنتوجات كالتمور والحبوب، وتحدثوا عـن الحـيوانات كالجمـال والخيل، وتحدثوا عن الأسعار والعملات المتداولة وقدراتها الشرائية وصرف بعضها ببعض، كما تحدثوا عن المكتريات كالجمال وأحمالها، والمراكب وأسعارها، والأسواق ومعروضاتها، والضرائب التي يدفعها الرحالون عبر مناطق العبور، وقـد تضرروا منها لكونها لا تخضع لقانون وتتعدد حسب الأهواء مما يجعل الرحال عرضة للابتزاز المستمر، وقد يحمل بعض الرحالين بضائع للتجارة أو يتحدثون عمن يتاجر هنا وهناك، كل ذلك يشكل بنية تبرز الأوضاع الاقتصادية عبر الفترات الزمنية المختلفة مما يـؤهل الـرحلات لأن تكون وثائق أساسية لكونها لا تقتصر على الامتزاج الاجتماعي والثـقافـي " بـل تـعـرف خيـرات كل بلد للآخر وحركات كتابات الرحالين بالمعلومات الاقتصادية "[1].

فالبنية النمطية للرحلات المغربية القديمة تتفرع إلى بنيات محورية لكنها ليست مستقلة فهي موزعة على مدى المتن الرحلي، وقد نجدها مندرجة تحت بنيات أخرى كأن يتحدث الـرحال عن التصوف فيضمنه الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو يتحدث عن الرسائل فيضمنها كثيرا من الشواهد والقطع الشعرية، أو يتحدث عن وصف الآثار، فيضمنها الأحداث التاريخية.

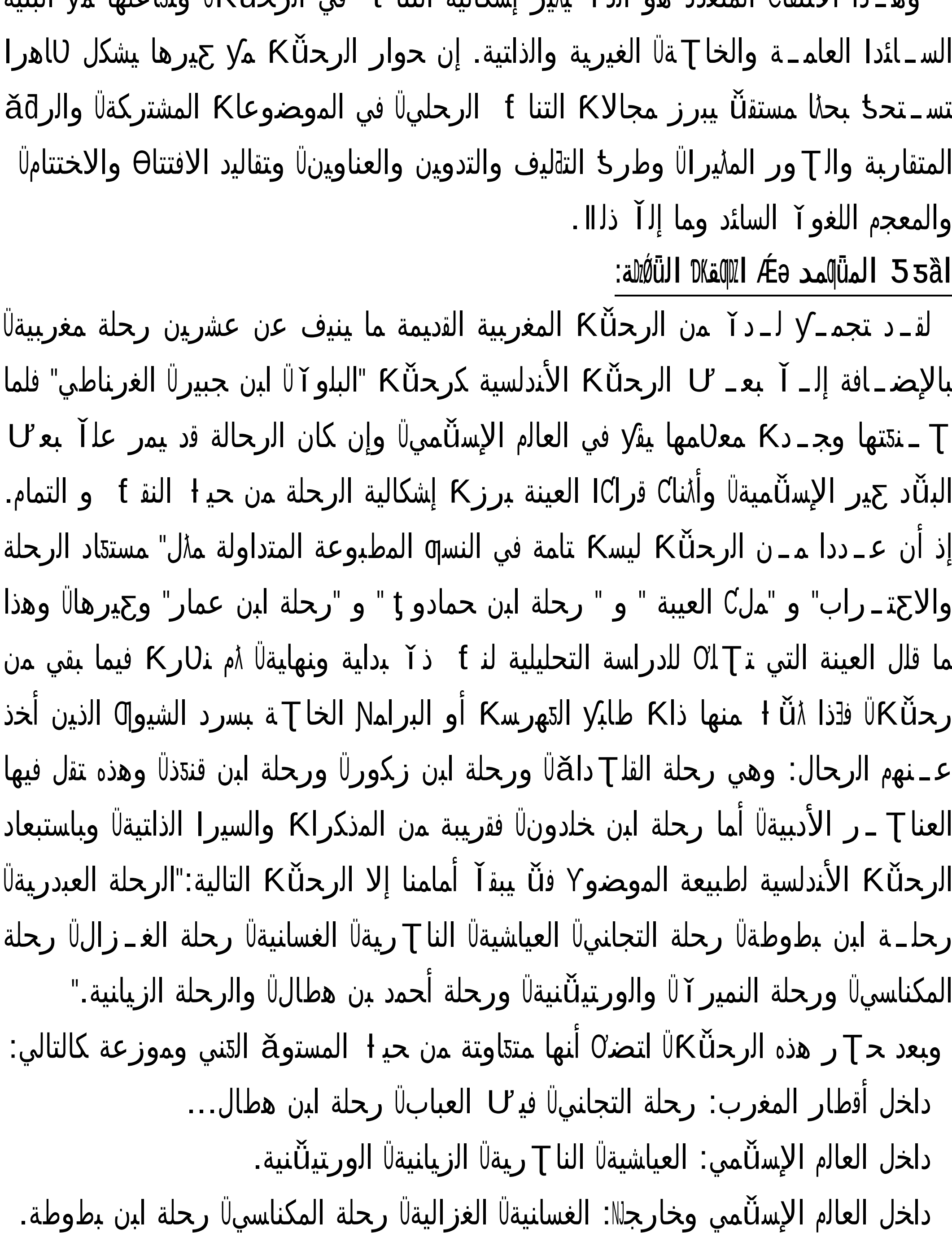
علـى أن هناك رابطة أخرى تتحكم في الرحلات، وهي البنية الانتقائية التي تتجلى في الكيفيات التالية:

1- " انتقاء الرحال لأبرز وأفضل ما في كتبه بناء على هدف معين.

2- انتقاء موضوع بعينه أو ظاهرة، وتتبعها في الزمان أو المكان.

---

[1] – د. عطية عودا أبو سرحان، أثر الرحالة المسلمين في تعريف المجتمعات الإسلامية/ مجلة الفيصل، الرياض. ع.25، م.7، رجب 1399، يونيو 1979م، ص: 34.



3- انتقال من رحلات الآخرين..."[1]

وهذا الانتقال المتعدد هو الذي يثير إشكالية التناص في الرحلات، وتفاعلها مع البنية السائدة العامة والخاصة، الغيرية والذاتية. إن حوار الرحلات مع غيرها يشكل ظاهرة تستحق بحثا مستقلا يبرز مجالات التناص الرحلي، في الموضوعات المشتركة، والرؤى المتقاربة والصور المثيرة، وطرق التأليف والتدوين والعناوين، وتقاليد الافتتاح والاختتام، والمعجم اللغوي السائد وما إلى ذلك.

ثالثا: المتن المعتمد في الدراسة:

لقد تجمع لدي من الرحلات المغربية القديمة ما ينيف عن عشرين رحلة مغربية، بالإضافة إلى بعض الرحلات الأندلسية كرحلات "البلوي، ابن جبير، الغرناطي" فلما تصفحتها وجدت معظمها يقع في العالم الإسلامي، وإن كان الرحالة قد يمر على بعض البلاد غير الإسلامية، وأمام قراءة العينة تبرز إشكالية الرحلة من حيث النقص والتمام. إذ أن عددا من الرحلات ليست تامة في النسخ المطبوعة المتداولة مثل" مستفاد الرحلة والاغتراب" و "ملء العيبة " و " رحلة ابن حمادوش " و "رحلة ابن عمار" وغيرها، وهذا ما قلل العينة التي تصلح للدراسة التحليلية لنص ذي بداية ونهاية، ثم نظرت فيما بقي من رحلات فإذا بعضها منها ذات طابع الفهرسة أو البرامج الخاصة بسرد الشيوخ الذين أخذ عنهم الرحال: وهي رحلة القلصادي، ورحلة ابن زكور، ورحلة ابن قنفذ، وهذه تقل فيها العناصر الأدبية، أما رحلة ابن خلدون، فقريبة من المذكرات والسيرة الذاتية، وباستبعاد الرحلات الأندلسية لطبيعة الموضوع فلم يبق أمامنا إلا الرحلات التالية:"الرحلة العبدرية، رحلة ابن بطوطة، رحلة التجاني، العياشية، الناصرية، الغسانية، رحلة الغزال، رحلة المكناسي، ورحلة النميري، والورتيلانية، ورحلة أحمد بن هطال، والرحلة الزيانية."

وبعد حصر هذه الرحلات اتضح أنها متفاوتة من حيث المستوى الفني وموزعة كالتالي:

داخل أقطار المغرب: رحلة التجاني، فيض العباب، رحلة ابن هطال...

داخل العالم الإسلامي: العياشية، الناصرية، الزيانية، الورتيلانية.

داخل العالم الإسلامي وخارجه: الغسانية، الغزالية، رحلة المكناسي، رحلة ابن بطوطة.

---

[1] - د.ناصر عبد الرزاق الموافي، أدب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص: 74 .

ولكـي أخـتار" العينة" من هذه الرحǙĶ وجدĶ نفسي أمام وضǦ يـƮعب الƮل فيǊ مما جعلنـي أضيف عوامل أخرǎ تعينني علǾ الاختيار منها اكتمال الرحلةǓ وتوافر العناƮر الأدبـية وتمǮـيلها للسير النمطي إضافة إلǾ ما تقدمǊ من موضوعاĶ مǦ مراعاǫ طريقة التقديم وتمثيل الأقطار المغاربية قدر الإمكان فاستقر الرأǐ علǾ الآتي:

اخترĶ مـن الرحǙĶ خارج البلاد الإسǘميǓ إحدǎ الرحǙĶ إلǾ الأندلƧ باعتبارها تكشف عن أرƯ استرجعĶ من المسلمين ومن المتيد أن نتƉار إلǾ تلاǫ البǘد بعد الخروج مـنها فوقـǦ الاختـيار علǾ رحلة ابن المهدǐ الغزال المعنونة بـ " نتيجة الاجتهاد في المهادنـة والجهـاد" لكونها كاملةǓ وتقل فيها النقول التاريخية لاعتماده علǾ المشاهدǫ إلǾ درجة كبيرا. مما يعطيها تميزا بين مثيǘتها.

وأمـا الرحǙĶ داخل المغرب فقد وقǦ اختيارǐ علǾ الرحلة التجانيةǓ لكونها تجاوزĶ ذكـر المراحل والمسافاĶ التي اهتم بها ابن هطالǓ وقدمĶ في نثر مرسلǓ وعانقĶ عالم الأدب بشـعره ونثـرهǓ وكشـĶ عن كثير من الƮراعاĶ الكائنة في المغربǓ ولكونها منتمية إلǾ تونƧǓ فضلتها علǾ غيرها.

أما الرحǙĶ داخل العالم الإسǘمي فوقǦ اختيارǐ علǾ ƭǘƯ رحǙĶ "حجازية" وهي: العـبدرية لكونها رحلة تتسيسية من حيƭ الاكتمال الفني في المغرب وبقي نموذجها سائدا فـي القـرن الثامن وما بعدهǓ بل حاكاها الكثيرǓ ولم يتخلف نموذجها إلا بالرحلة العياشية التـي مثلĶ نهاية تطور الرحǙĶ المغربية فيما قبل النهضةǓ والتي ƮارĶ هي الأخرǎ نمـوذجا لرحǙĶ القرن السابǦ عشرǓ وعلǾ منوالها كانĶ الرحلة الناƮريةǓ والورتيǘنية وغيرها من الرحǙĶ الحجازية فوقǦ عليها الاختبار.

أما الرحلة الورتيǘنيةǓ فهي الرحلة الجزائرية المكتملة بين أيديناǓ إذ لم نعثر علǾ " نحلة اللبـيب فـي الرحلة إلǾ الحبيب " لابن عمار كاملة وإنما عثرنا علǾ ما يعتبر مقدمة لهاǓ لهذا كلǊ سيكون التحليل خاƮǙ بالرحǙĶ التالية:

1- الرحلة المغربية لأبي عبد ǃ المغربي العبدرǐ

-2 الرحلة التجانية لأبي محمد عبد ǃ التجاني.

-3 الرحلة العياشية " ماƅ الموائد" لأبي سالم العياشي.

-4 رحلة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " للحسين بن محمد الورتيلاني.

5- رحلة " نتيجة الاجتهاد في المهادنة و الاجتهاد". لأحمد بن المهدي الغزال.

وأرى أن هـذه النصـوص الـرحلية تكشف لنا عن الطاقة الإبداعية في المتون السردية للـرحلات الأدبـية، وتطـورها مـن حيث الاهتمامات في علاقتها بالمحيط الاجتماعي والثقافـي، كمـا تكشف عن تنوع البنيات المحورية، وتوحد البنية النمطية، أما النشاطات الـرحلية فيبدو أنها كانت خصبة في المغرب الأقصى لدرجة لم يبلغها قطر مغربي آخر، ونأسف لعدم تمكننا من الإطلاع على الرحلات من القطر الليبي و الموريتاني، رغم بحثي في مصر ومراسلاتي إلى ليبيا عن رحلة المصراتي المطبوعة.

أمـا القطـر الموريطانـي فقـد كلفت أحد الطلبة بالبحث عن رحلة طوير الجنة في موريتانيا و سألت عنها في المغرب و اتصل بي الأستاذ عبد الرحيم مودن مستفسرا عنها فعلمـت أنهـا مفقودة كما قال الأستاذ أبو القاسم سعد الله الذي كتب مقالا عنها في كتابه تجـارب فـي الأدب والـرحلة[1]، يتمنى فيه أن يتقدم أحد الباحثين العرب لتحقيقها باللغة العربية، إذ توجد نسخ منها مترجمة إلى اللغات الأجنبية.

ورغم هذا النقص الواضح في تمثيل المغرب كله، يمكن النظر إلى الرحلات و بخاصة الحجازيـة مـنها على أنها نوع من المعارضات كالمعارضات الشعرية، إذ نجد الرحلات الحجازيـة تتفق في البناء، ومجمل الفضاء المكاني باعتبار ذلك هو الهيكل الأساسي، كما تـتفق في نقاط الاتصال والكشف، وقد يحدث بينها شيء من التباري في تقديم ما قدم، أو تصحيحه أو رفضه، أو ما صار عليه المكان أو ساكنه بعد تغير الزمن.

وفي هذا الإطار يمكن اعتبار الهيكل النمطي للرحلات إيجابيا، لما يتميز به من تمحيص ودفع نحو الأفضل، مما يشكل لدينا طبقات لثقافة المكان المرحول فيه والموضوع المتناول مـن قـبل الرحالة المتتابعين وندرك أن الظاهر النادرة ذات القيمة التي ينفرد بها رحال دون آخر في غاية الأهمية لأن الرحالين لا يركزون عليها كثيرا.

ذلـك أن الـرحلة عموما- وبخاصة الحجازية- ذات ترسيمة جغرافية لمجال الحركة، فهـناك مـناطق يجب تلمسها عن قرب حتى إذ لم يتم ذلك تأسف الرحال وأبدى ما في

---

(1) - د.أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، سنة1983م، ص 265.

وسعꞍ لاستدراا ما فاĶǙ وهناا مناطǨ لا يعبة بها مǞل أماكن المحƲوراĶ والمƮاسدǙ وإن كانĶ الرحǛĶ تهتم بغير المǖلوف أيضا وتعرف القراƇ بما لم يعرفوه من ƸريƄ وعجيب ونادر ومنꞍ تǖتي النكهة الطيبة للرحلة فيما تتƮرد بꞍ.

ولـذا نجد أƮحاب الرǛحǛĶ كالعبدرǐ والعياشي وابن خلدون لا يسترسلون في أخبار بǛدهم لألƮتها لدǎ مواطنيهمǙ وإن كنا نحن الآن نتحسر لذلا الƮراƷ المسكوĶ عنꞍ.

وإذا كان الغربيون الذين أبدعوا الرواية الغربية بمƮهومها المعاƮر يعـتبرون " كتب الرحǛĶ وقƮ ƒ المغامراĶ سواƇ رويĶ في شكل مذكراĶ أو رسائل أو سير ذاتية[1] من قبل الإرهاƮاĶ السابقة عن عƮر الرواية فجد ير بنا أن ننƲار إلǐ الرحǛĶ الأدبية علـǐ أنها النƮو ƒ الممهدا لولادا الروايةǙ إلا أن الحركة النقدية في ǆقافتنا لم تلتƮĶ إلǐ ذلاǙ وكانĶ تقƮي كل ما ليƩ بشعر أو رسالة أو خطبة وقد وƻǆ إجهاƯ لكل ما يمكن أن يـولد من رحم حضارتنا بسقوط الأمة في أحضان التقليد والركودǙ والتغافل النقدǐ لم يكـن خاƮا بǖمتناǙ فهذا أحد المبدعين الغربيين يقول: "ما أسعدنا نحن القƮƮيينǙ أو قل نحن الذين نكتب عن الحياǙ أنꞍ لم يتقدم لأرسطوǙ حديƚ ليضƲ لنا القواعد لكيƮية التعامل مƲ القƮة مǞل وحدا العمل والزمن التي فرضها القدماƇ علǐ جميƲ كتاب المسرحية"[2]

فالعمل القƮƮي لم يكن محل متابعاĶ تقويمية وترشيدية علǐ مستوǎ العالم كلꞍ وبذلا كانـĶ الإبداعاĶ القƮƮية عندنا أيضا بمنǖǎ عن النقدǙ ومنها الرحǛĶ باعتبارها قƮة سـƮرǙ ونحـن الآن إذ نستعير المنهƝ الذǐ تدرƩ بꞍ الرواية نحاول أن نكشف عن مدǎ عǛقة الرحلة بهذا الجنƩ السائدǙ ومدǎ Ʈǚحية المنهƝ لسردنا القديم.

---

[1] – الزمن والروايةǙ أ.أ. مندلاوǙ تر: بكر عباƩǙ دار ƮادرǙ بيروĶǙ طIǙ سنة 1997مǙ ƒ :19.

[2] – نƮسꞍǙ ƒ :19.

الفصل الأول

البنية السردية

Ƹ--Ǿ-ĂƎ--ơ

يجـد القـارƏ للـرحلة أن السـمة الإخبارية ƓالبةعلƗ المتونǛ فالهدف في الǛاهر هو التواƮ ـل فقـط إلا أن ضمن هذه الƮيغة الإخبارية الشاملة ترد ƮيƸ أخرă أدبية هدفها إنتاج معان ممكنة تتوخƗ من القارƏ أن يشارǁ فيهاǛ ويتجلƗ ذلǁ في التƋمƘƙ والقƮائد

وبعض الرسائل، والخطابات التوجيهية الآمرة أو الناهية، التي يقصد منها التأثير والحث على الاستجابة بالفعل أو الترك.

وهذه الأقسام وإن كانت عامة في كل النصوص القصيرة والطويلة فإنها في الأدب الأعم تتميز وتنفرد في خطابات مستقلة، أما في الرحلات فتأتي متجاورة، متكاملة لتكون النص الرحلي. وهو نص سردي لغوي يقوم على متتاليات أساسية من الوحدات السردية، التي تصنف إلى فئتين نظرا لوظيفتها. فالأولى أفقية توزيعية، والثانية عمودية إدماجية تشمل على كل القرائن[1]، على أن كل وحدة يمكن أن تشمل وحدات أصغر كما أن عدة وحدات يمكن أن تكون متتالية ينطبق عليها الوحدة الكبرى.

والرحلات عمل أدبي يقوم على استعادة أحداث ذات مغزى، بعد امتزاجها بصفاء الذاكرة والشعور، واستعادتها كما وقعت بالفعل من حيث الحركة والسرعة والدقة أمر في غاية الصعوبة، ولذلك تتشكل وفق لحظات الاستعادة، ووفق المعالم المرصودة من قبل المؤلف، والموكولة إلى السارد، و وفق الغايات المقصودة.

وهذه الرحلات تتشكل في أزمنة مختلفة، ومتباعدة أحيانا، وتشير إلى أحداث ذات مرجعية واقعية في معظمها، وفي طياتها لا تخلو من وقائع تنتمي إلى عوالم الخيال الذي يقود الأسفار إلى اللامرئي، وبجانبها قد نجد كثيرا من الوهم والخرافة، فالرحلة فسحة في الزمان والمكان والمعارف البشرية، ولا بد فيها من التنوع والاختلاف، وإلا صارت مملة، وهي قائمة على حب الاستكشاف، وملء الفجوات التي يشعر الرحال أنها تنقصه، فتصبح إشباعا لميول خاصة تعمل على دفع الرحال إلى الاستجابة الواعية وغير الواعية، وبذلك تتشكل هوية الرحلات بما تحمله من خصوصيات اجتماعية وأدبية وتاريخية وصوفية...

ولقد ارتأينا الاستعانة بالمناهج المعاصرة للكشف عن أدبيتها وانتظامها من خلال تحليل بعض هذه العناصر، وفي هذا المجال يمكن القول أنه ليست الموضوعات والأحداث هي

---

(1) – رولان بارث، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة، تر: نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، شتاء 1989، ص: 24.

المهمة، "وإنما الكيفية التي بها أطلعنا السارد على تلك الأحداث"[1]، وهذا ما يستوجب علينا معرفة آلية الرحلة وحركيتها بالكشف عن مفاصلها.

ولقد ألف الدارسون تقسيم النص إلى وحدات كبرى، وصغرى، ووحدات توزيعية وأخرى إدماجية، وأساس التقسيم قد تكون مبنية على المضمون الذي يمتد حتى يشمل الإنتاج الأدبي ككل، وقد تكون أدنى من الجملة، كما عند بارث (قرائن خاصة بالأشخاص، معلومات تفيد عن هويتهم، تأشيرات عن بيئتهم...).[2]

وقد يهدف التقسيم إلى استخلاص العناصر الثابتة في مجموع من الحكايات كما عند بروب "...نجد قيما ثابتة وأخرى متغيرات، وما يتغير هو أسماء الشخصيات وصفاتها في الوقت نفسه، وما لا يتغير هو أفعالها أو وظائفها ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه غالبا ما تسند القصة نفس الأفعال إلى شخصيات مختلفة..."[3]

ويشترط في هذه الوظائف أن تكون قائمة على التعميم والتجريد، وقد نجح في إقامة نماذج لبنيات حكائية قابلة للتعميم مستخلصة من الحكايات الشعبية الروسية، لكن الوظائف مرتبطة بمدى شموليتها لأشكال الحكي كلها، وقد تكون الوظائف أو الوحدات خاضعة لنظام (زمني تتابعي)، أو لنظام منطقي سببي أكثر دقة، وفي هذه الحال، تحدد الأهداف أولا ثم تنجز الخطوات المحققة لها، أو لا تنجز فيحصل النجاح أو الفشل. ويمكن لكل حدث أن يتشعب ويفتح إمكانات متعددة.

وهكذا تتوالد المتواليات وتتعقد خاضعة لقانون الانبثاق أو الاحتواء، أو التضمين، وجميع المتواليات الكبرى، مرتبطة

---

(1) – تزفيطان تودوروف، مقولات السرد الأدبي، تر لحسن سحبان، وفؤاد صفا، طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط1، سنة 1992، ص: 41.

(2) - رولان بارث، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة، ص: 24.

(3) – فلاديمير بروب، مورفولوجية القصة، تر: د.عبد الكريم حسن، د. سميرة بن عمو، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، سنة1416هـ/1996م، ص: 37.

بتحسن الوضع، أو بتدهوره[1]، وهذا النظام المنطقي السببي يتوفر في السرود التخيلية، ويصعب إيجاده في السرود القريبة من التاريخ والواقع كالرحلات التي تقوم على فعل السفر الذي هو "...بنية ناظمة للرحلة في تسلسلها الزمني المكاني، ومسهم من جهة أخرى في سبك مكونات الرحلة وخصائصها البنائية "[2] وسنعتمد في التقسيم علي الإقامة والترحال بالإضافة إلى اهتمام السارد بما حوله مما يستتبع عنصرا ثالثا وهو الكم العلمي والثقافي المسرود في الوحدات، إذ توجد وحدات تتوفر على عنصري الإقامة والترحال، ولكنها خاوية من مضمون سردي يميزها ويشكلها فيجب تجاوزها عن طريق الضم إلى وحدات أخرى، لهذا لن نعتمد في التقسيم إلا على" الوحدات السردية الكبرى..."[3] لضرورات منهجية.

إن المتتاليات الظاهرة قد لا تكفي للتقسيم في الأعمال التخييلية فيلجأ الدارس إلى النظام المنطقي السببي ذلك أن الوظيفة هي نشاط ما يحقق الغرض المتوخى، مما يساعد في بناء الحبكة، هذا من جانب ومن جانب آخر" هي الكم المتغير فيما يتصل بالآخرين، والذين عن طريقهم يمكن التعبير عنه "[4] بشكل أو بآخر، وترابط القصص التخييلي يكون انبثاقيا أو احتوائيا أو تناسقيا بشكل منطقي سببي يسهم بشكل فعال في شد خيوط الحبكة، وهذا ما نجده في الرحلات ولكن بشيء من الارتخاء. ذلك أنه حين تسيطر الأحداث تغيب الحبكة، أو تضعف، وتقل أهمية الشخصيات بل غالبا ما تكون شخصية مسطحة لكن ليس بالمعنى القدحي، وإذا كان هذا النوع من السرد معروفا في الرواية قديما، فإن الرحلات القديمة ما زالت تمثل والرحلات المنتقاة للدراسة تتناول موضوعات متقاربة، وقد تتعرض لها لكن نفسها لذلك يمكن اعتبارها نظارات تعكس الضوء وتلون الواقع الذي

---

[1] – السيد إبراهيم، نظرية الرواية، دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط، سنة 1998، ص 18-22.

[2] - عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال ق 19، ص: 106.

[3] – جيرار جنيت، خطاب الحكاية، (بحث في المنهج) تر محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة الأميرية، ط2، سنة 1997، ص 103.

[4] – شلوميت ريمون كنعان، التخييل القصصي، الشعرية المعاصرة، تر لحسن أحمامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط، سنة، ص: 39.

تمر به حسب معرفة الرحالين واهتماماتهم، سواء من حيث الموضوعات أو لغة الخطاب، وقد تتعدد المستويات اللغوية ضمن النص الواحد، ويحاول المؤلفون أن يوجدوا أسلوبا متجانسا يوحد الأصوات المتنوعة الناجمة عن التعامل اللغوي من خلال التضمينات المختلفة للأجناس الأدبية وغيرها، من شعر وخبر وموعظة...إلخ، ورغم ما يبدو على وحدات الرحلات من تفكك فإنها مرتبطة ارتباطا مكانيا أو زمانيا أو منطقيا .

وطبيعة السفر في الرحلة ليست مبنية على العقدة بقدر ماهي مبنية على الترحال الشامل للإياب والوصول ثم العودة، وضمن هذه المراحل الكبرى تنشأ حكايات ذات عقدة وأخبار ذات فائدة وآراء لا تخلو من صواب. وكلها مشمولة بسلسلة المكان والزمان أو الموضوع، وتتحدد وظيفتها ما داخل السرد دون أن تكون مرتبطة بشخصية ما إذ مثل هذه الأخبار والنوادر ينظر إلى وظائفها، ويمكن أن تستغني[1] عن الشخصية.

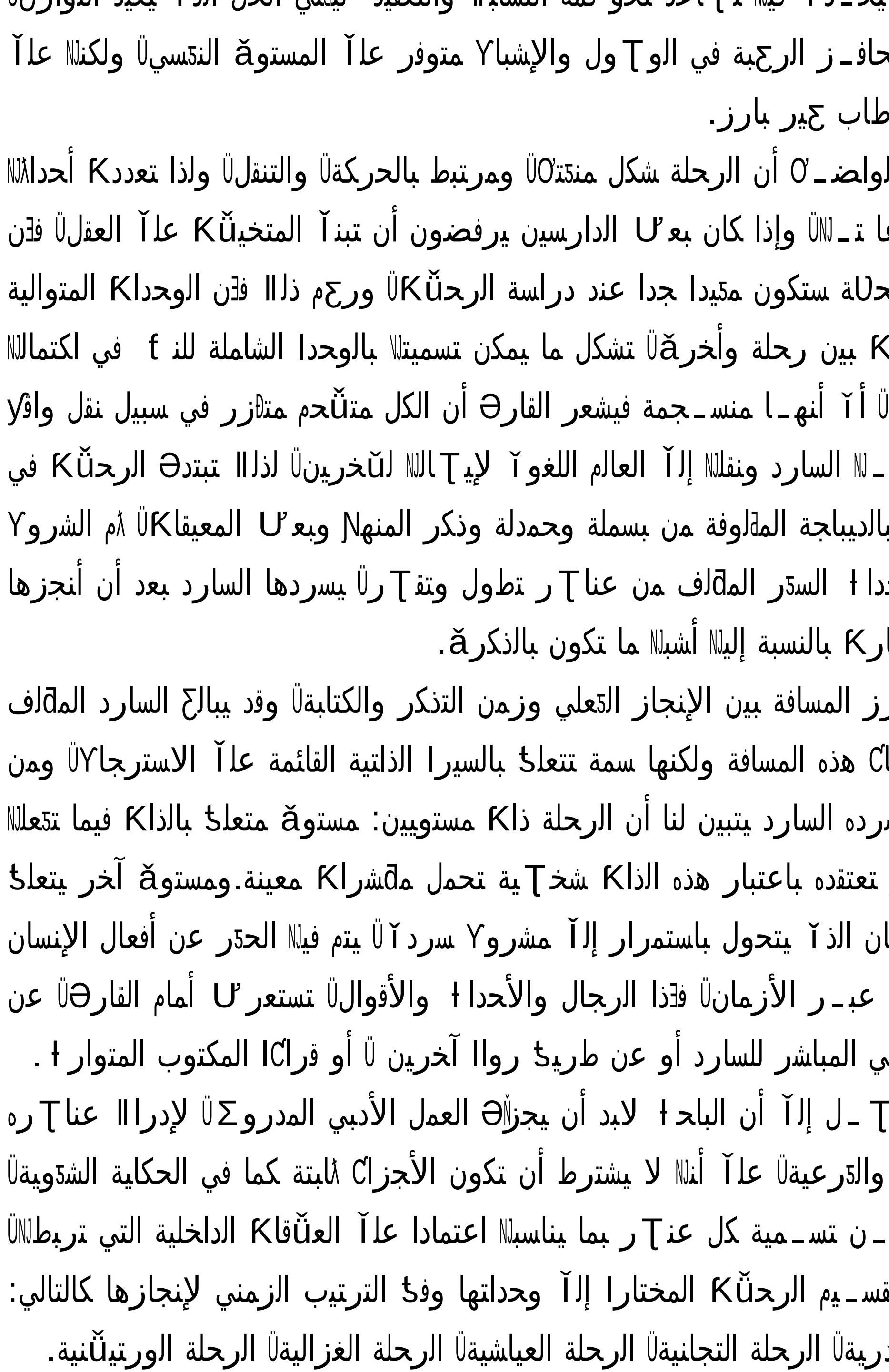
فالمعطيات الواقعية والمتخيلة أساس للإبداعات الفنية، والرحلات تقوم على التعبير عن الواقع والمنجزات الكائنة والتفاعلات المختلفة معها، وبذلك تتقاطع فيها أنواع الخطاب المتعددة. وتتوقف لغايات سردية يرتئيها السارد، فتنصبغ الرحلة بصبغة مميزة مخففة من حدة الارتباط بالواقع موفرا بعض التشويق والإغراء.

والتقطيع للنصوص قد يكون من قبل المؤلف حين يقسم عمله إلى أبواب وفصول أو أقسام، وقد يكون مبنيا على الزمن من حيث نوعه أو انصرام جزء منه كالمواسم وغيرها، كما يمكن أن يعتمد على المؤشرات اللفظية مثل الأسلوب المباشر وغير المباشر أو تغيير الضمائر أو الأزمنة النحوية، وقد يكون مبنيا على الموضوعات والأفكار، و" بإمكان التقطيع أن يطابق أيضا تنقلات في الفضاء" [2] وهذا الذي نعتمده في دراسة الرحلات، وتحليل بنياتها والكشف عن نظامها ونضيف في اعتبارنا أنه كلما كان السرد أكثر واقعية كان أشد التصاقا بالبناء التعاقبي الذي تهيئه الممارسة الحركية من نقطة البداية إلى نقطة النهاية لما فيه من تعميم، رغم أن انعدام الحبكة في الرحلات يعود أساسا إلى أن السرد

---

(1) – تزفيتان تودوروف، مقولات الحكاية الأدبية، تر عبد العزيز شبيل، العرب والفكر العربي، مركز الإنماء القومي، لبنان، ع10، ربيع1990، ص: 106.

(2) – برنار فاليط، النص الروائي(تقنيات ومناهج) تر: رشيد بنجدو، المجلس الأعلى للثقافة(101)، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، الايداع 10556/ 1999. ص: 87.



أفقـي ولا يحـدث فيه تصاعد نحو قمة التشابك والتعقيد ليأتي الحل الذي يعيد التوازن، رغـم أن حافـز الرغبة في الوصول والإشباع متوفر على المستوى النفسي، ولكنه على مستوى الخطاب غير بارز.

ومـن الواضـح أن الرحلة شكل منفتح، ومرتبط بالحركة، والتنقل، ولذا تتعدد أحداثه وموضـوعاتـه، وإذا كان بعض الدارسين يرفضون أن تبنى المتخيلات على العقل، فإن هـذه الملاحظة ستكون مفيدا جدا عند دراسة الرحلات، ورغم ذلك فإن الوحدات المتوالية والتي تتفاوت بين رحلة وأخرى، تشكل ما يمكن تسميته بالوحدات الشاملة للنص في اكتماله وتفاعلاتـه، أي أنهـا منسـجمة فيشعر القارئ أن الكل متلاحم متآزر في سبيل نقل واقع تفاعـل معـه السارد ونقله إلى العالم اللغوي لإيصاله للآخرين، لذلك تبتدئ الرحلات في مقـدماتها بالديباجة المألوفة من بسملة وحمدلة وذكر المنهج وبعض المعيقات، ثم الشروع في سرد أحداث السفر المألوف من عناصر تطول وتقصر، يسردها السارد بعد أن أنجزها بالفعل وصارت بالنسبة إليه أشبه ما تكون بالذكرى.

وهكذا تبرز المسافة بين الإنجاز الفعلي وزمن التذكر والكتابة، وقد يبالغ السارد المؤلف فـي إخفـاء هذه المسافة ولكنها سمة تتعلق بالسيرة الذاتية القائمة على الاسترجاع، ومن خلال ما يسرده السارد يتبين لنا أن الرحلة ذات مستويين: مستوى متعلق بالذات فيما تفعله أو تقوله أو تعتقده باعتبار هذه الذات شخصية تحمل مؤشرات معينة. ومستوى آخر يتعلق بتاريخ المكان الذي يتحول باستمرار إلى مشروع سردي، يتم فيه الحفر عن أفعال الإنسان المتـراكمة عبـر الأزمان، فإذا الرجال والأقوال والأحداث تستعرض أمام القارئ، عن طريق الحكي المباشر للسارد أو عن طريق روايات آخرين، أو قراءة المكتوب المتوارث.

وهكـذا نصـل إلى أن الباحث لابد أن يجزئ العمل الأدبي المدروس، لإدراك عناصره الأساسـية والفرعية، علما أنه لا يشترط أن تكون الأجزاء ثابتة كما في الحكاية الشفوية، وإنمـا يمكـن تسـمية كل عنصر بما يناسبه اعتمادا على العلاقات الداخلية التي تربطه. وسـنبدأ بتقسـيم الرحلات المختارة إلى وحداتها وفق الترتيب الزمني لإنجازها كالتالي: الرحلة العبدرية، الرحلة التجانية، الرحلة العياشية، الرحلة الغزالية، الرحلة الورتيلانية.

ثانيا: البنية العامة لرحلة العبدرية

نقصد بالبنية تقسيم الرحلة وتقطيعها إلى متواليات كبرى تشتمل على عدة وحدات وكل وحدة كبرى تشتمل على وحدات صغرى ووحدات أصغر ذلك أن توفر العمل الأدبي على شكل خاص به هو الذي يميزه عن غيره وهو الذي نزعمه للرحلات ورحلة العبدري يمكن تقسيمها كالتالي:

I - المقدمة: وتشتمل على مقدمتين:

إحداهما للمحقق محمد الفاسي وتمتد من صفحة (أ) إلى (أ-ز) وهي لا تعنينا والثانية للعبدري وهي محل الدراسة وفيها:

1- البسملة والصلاة والسلام على النبي محمد والحمدلة والإقرار والتقصير.

2- المنهج الموضوعي المتبع في تقييد ما يمكن تقييده.

3- ملامح الزمان(إنشاد63 بيتا) اندثار القيم وفشو الفوضى والاضطراب.

4 - بدء تدوين الرحلة في تلمسان

II – الرحلة:

أ-مرحلة الذهاب

1. الانطلاق من حاحة ص (7 ـ10) :3

- التهيئة النفسية بالزيارات والبشارات.

- صحراء المغرب الشرقية سوء الطباع وقطاع الطرق.

- رحلة في كنف الليل مع رفاق مجهولين.

2. الوصول إلى تلمسان والمكوث بها ص (10 ـ24) 13

- وصف المدينة وذكر ما بها من زراعة وآثار.

- موازنة بين قاضيها وقاضي مراكش.

- اللقاء بابن خميس والإعجاب به وبشعره.

- تعليقات الرحال (ص :15-18).

- قصيدة لابن المولى..(35 بيتا).

- لقاء أبي يحي بن عصام وقصيدة في الرد على المعتزلة (11 بيتا).

أ- أبيات للقاضي أبي حفص بن عمر في المعنى نفسه.

ب- تعليق ووعد بالعودة إلى الموضوع.

- قصيدة العبدري وهو بتلمسان يذكر فيها زهده (25 بيتا).

3. الرحيل من تلمسان

- المرور بمليانة وقصيدة على لسانها وذكر الجزائر. ƒ (26-24) 2Ɵ

4. الوصول إلى بجاية (الإقامة يومان) ƒ (31-26) 5Ɵ

- ذكر محاسنها وما بقي فيها من آثار للعلم.

- المرويات عن أبي عبد الله الكناني في الشاطبي.

(مرويات عن الإمام علي كرم الله وجهه، وأشعار الكناني)

5. الوصول إلى بني وراره ثم ميلة وذكر نبعيهما. ƒ (31) 2/1 Ɵ

6. الوصول إلى قسنطينة. ƒ (37-32) 5Ɵ

- ذكر محاسنها وواديها.

- لقاء أبي علي بن باديس وقراءته الموطأ عن أبي يعقوب...الغماري.

- سماع العبدري عن الغماري.

- رحلة ابن التكون إلى مراكش (32 بيتا).

- دراسة وتعليق على رحلة ابن التكون.

7. من بونة إلى تونس ƒ (39-37) 2Ɵ

- بونة وفعل النصارى فيها.

- قرية خولان وأثر الخطوب عليها.

- باجة ومكابدة أهلها لغارات العربان.

- لقاؤه مع أبي علي الحسين بن محمد الطبلي ومروياته.

- حكاية استعارة كتاب. وقصة مشابهة للحريري.

- تعليق على ذلك.

8. الوصول إلى تونس ƒ (63-39) 14Ɵ

- ذكر جمالها وأهلها ومائها.

- جامع الزيتونة.وآثار تونس.
- أهل تونس وأخلاقهم.
- لقاء علمائها:
  - أبو محمد ...الطائي القرطبي.
  - أحمد بن يوسف الفهري اللبلي.
  - الفقيه أبو عبد الله محمد النفزي ابن هريرا.
  - قصيدة الشقراطسي(132 بيتا).
  - تخميس أبي عبد الله المصري للمنفرجة.
  - تعليقات العبدري.
  - بحوث في الفقه والأدب.

9. القيروان وجفاء أهلها واندراس العلم فيها. ص (74-64) 10ص
- جامعها وما به من مخطوطات.
- مقبرتها وما بها من مزارات.
- اللقاء مع المحدث – الدباغ.
- قصيدة للعبدري بعث بها لولده محمد[51بيتا]

10. الوصول إلى قابس ثم الطريق إلى طرابلس. ص (76-74) 2ص

11. الوصول إلى طرابلس. ص (84-76) 8ص
- استيلاء العرب على برها والنصارى على بحرها.
- شيخها أبو عبد الله بن عبد السيد.
- مناقشات العبدري لأهل طرابلس.
  - قبة طرابلس وعجيب صنعها.
  - آثار إفريقية.

12. الطريق من طرابلس إلى برقة. ص (88-85) 3ص
- ذكر مصراتة وزديات وسرت وبادية برقة وقلة أهلها.
- استغلالهم للنساء

– بعƯ الآثار

- مسكن منحوƘ في حجر.

13. من برقة إلى الإسكندرية (90-88) ſ 2θ

- إطلاŭ برقة نقول عن البكر.

- فƮاحة أهل برقة.

- العقبة الكبرă والƮغرă.

14. الإسكندرية وعجيب مبانيها. (125-90) ſ 35θ

- عمود السواري.

- منار الإسكندرية.

- مقابر ومزاراƘ.

- سوƇ معاملة أهل الإسكندرية للحجيƝ.

- أبو عبد ا بن حباسة وحكاية.

- ابن جبير وحرƩ الإسكندرية.

- قƮيدتƝ المهداƋ لƮŭθ الدين [56 بيتا

- قƮيدا ابن جبير في مدينة رسول ا [Ʈلعم].

- لقاƇ الرحال لابن المنير.

- شرحƝ للبخاريŬ وتقاريƱ

- إجازا ابن المنير للرحالة.

- قƮيدا ابن المنير في مدθ الرسول(Ʈلعم)(59ب)

- مراسلتƝ لابن المنير وهو بمƮر.

- نقل من كتاب.

- إنهاƏه للقاƇ بابن المنير بƔقرا مناسبة.

- لقاƏه للمحدƚ تاج الدين الغرافي العراقي.

- تعريف بƝŬ وأخذه عنƝ

- روايتƝ لأشعار ناƮر الدين...ابن منƮور الإسكندري

- إجازتǸ آخر خلƒƇ بني العباΣ (26ب).
- قƮيدتǸ ذاƘ الشƒا في مدθ المƮطƒĬ (51 ب).
- بحوƪ فقهية فيما بينǸ وبين الشافعية.

15- الوƮول إلĬ القاهرا (152-125) ƒ 27θ

- العمارا الوافرا والطباƳ السيئة.
- تضييعهم للمساجد.
- حسن إسǈم الأترااا ورعايتهم للحجيǉ.
- كƤرا الباعة في الليلǛ والازدحام في النهار.
- الأكل في الأسواƽ والطرقاƘ.
- الاشتغال بالمنطƽ وترƧ المنقول.
- خطبة لأبي عمر السلمي الشاعر المغربي مذيلة بƋبياƘ.
- لقاƇ شرف الدين الديماطي
  - ما أخذ ه عنǸ.
- لقاƌه بابن دقيƽ العيدǛ الحبر.
  - انتقاده لبعƯ سلوكاتǸ.
- إجازتǸ للرحالة.
- إطǈعǸ علĬ بعƯ أجزاƇ الرحلة واستحسانǸ لها
- محاوراƘ بينهما.
- الأخذ عنǸ إمǈƇǛ إنشاداƘ لغيره.
- القاهرا وعجائبها .145 ƒ
  - نيل مƮر والعمران حولǸ والزراعة.
  - الأهراماƘ وƷرائبها .146 ƒ
    - وƮƒها وما ذكر عن سبب بنائها.
- المƋمون يعجز عن هدمها
- كƤرا المغاربة بالقاهرا.

- السّر عن طريك الريف - دمياط-.
- الإقامة سبعة أيام بالإسكندرية.

27. السّر من الإسكندرية إلىٓ طرابلΣ. ƒ 235-236 θ1

- تعداد المراحل.

28. السّر من طرابلΣ إلىٓ تونΣ. ƒ 237-239 θ2+2/1

- من قابΣ إلىٓ سوΣ
- زيتون البعلي عابة إفريقيا موازنة بينها وبين ما بالشام.
- رباط المنستير وما فيه من قبور.
- ذكر قϮر الجمي وهو قϮر الكاهنة ƒ 237.
- رخاي سوسة وتبدل حالها.

29. الوϮول إلىٓ تونΣ ولقاي العلماي بها. ƒ 239-276 θ36

- النزول بها والاستئناΣ بعلمائها.
- العلامة أبو عباΣ الغماز وشيوخه ƒ 240
- تخϮيƒ وقK للقرايه علىٓ الغماز.
- سماY أشعار له ولغيره وذكر تواليّه.
- الشيخ أبو القاسم بن حمادي بن أبي بكر الحضرمي
  - علاقة الرحال به قرايته عليه.
- الشيخ أبو محمد عبد ا بن يوسف... الخلƒ الأندلسي
  - إلباسه الخرقة للرحال.
  - أسانيده وإنشاداته.
- الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن رزين التجيبي المرسى
  - أخذه قراياته إنشاداته.
- الشـيخ أبـو الحسن التيجاني قرايته عليه ƒ 257
  - قϮيدا ابن الأبار – أدرك بخيله...
  - قϮيدا حازم في مدθ الرسول(Ϯلعم)[82بيتا]

وتضمينه لمعلقة امرئ القيΣ

- الفقيه أبو عبد ا محمد بن أبي القاسم الأزدي الفاسي ف 263
- الشيخ جابر بن محمد بن القاسم بن حسان الوادي آشي ف 265.
- قراءة وإجازة.
- بعض أرجوزة السخاوي في المتشابه من ألفاظ القرآن.
- قراءة أحاديث المعمرين ف 367
- الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري المالقي 267
- أخلاقه - اهتماماته.
- قصيدته في مدح النبي(ص)[7أبيات].
- الشيخ...أبو يعقوب يوسف ابن إبراهيم...الجذامي ف 271
- الشيخ أبو محمد ابن هارون.
- برنامجه - إنشاداته - قراءاته عليه.
- الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى البطرني ف 275

30 . مغادرة تونس إلى المغرب الأقصى. ف 276-280 4ص
- ذكر باجة، بونة، قسنطينة، بجاية
– لقاءه لبعض الشيوخ ف 276
- ذكر مدن مليانة، مازونة، وهران، تلمسان، فاس، مكناس، أزمور.

III- الخاتمة ف 280 8ص أسطر
- زيارة قبر الشيخ ابن محمد الصالح بن ينصار
- الاجتماع مع الأهل
- الحمد لله.

IV- القصيدة ف 284-280 4ص

قال: " هذه قصيدة نظمتها في الرحلة رأيت أن أختم بها هذا التقييد."، و فيها خمسة أبيات ومئة (105 ب)، ثم أردفها بالحمدلة والصلاة على الرسول صلى ا عليه وسلم كما ابتدأ رحلته.

الرحلة الثانية



في المقدمة: يسجل الرحالة تصوراته ويرسم أهدافه ويخطط منهجه كما يذكر مصادره ومراجعه ولتبيان عناصر المقدمة أخضعنا للقراءة عشرين رحلة متعددة المقاصد منها رحلات حجازية، وعلمية، وزيارية، وسفارية؛ فاستخلصنا أن هناك عناصر ثابتة وأخرى متغيرة، ومن خلال التركيز على العناصر الثابتة تبين أنها موجودة في أكثر من نصف العينة رغم تفاوتها فيما بينها، ومن أهمها الحمدلة، فكل الرحلات تشتمل عليها إلا رحلة ابن جبير التي ابتدأت بالبسملة.

ومقدمة الرحلة العبدرية ابتدأت بالبسملة والصلاة والسلام على النبي صلعم، ثم التعريف باسم العالم (محمد بن....العبدري) ثم أردف ذلك بالحمدلة مع الإقرار بالذنب والتقصير، وهذه الديباجة تقليد متبع في الحضارة الإسلامية في المنطوق الشفوي والمكتوب، وتدل على استحضار النعم وشكر المنعم، والإقرار باتباع الواسطة في النعمة الكبرى وهي الإسلام، وبعدها يسترسل الرحال في ذكر صفات الله تعالى، أو صفات نبيه الكريم بما يناسب غرض الرحلة، وحين تتعدد البسملة والحمدلة، أو نجدها قبل اسم المؤلف يمكن اعتبارها من فعل النساخ، وليست من المتن، وهذا ما وقع في الرحلة العبدرية، ففي الفقرة الأولى من المقدمة يأتي الإقرار بالتقصير، وهو غاية في الخضوع الذي هو جوهر العبادة، فندرك أنها رحلة تعبدية في جل مظاهرها. ثم نجد منهجه الذي يحدد فيه العناصر وهي: - تقييد ما يمكن تقييده - وصف البلدان - أحوال القطان - ما استفاده من أخبار وأشعار - الاعتماد على الحس والعيان - مع الاهتمام بالشاهد والبرهان من الواقع أو من الكتب المسطورة، ثم الالتزام بالوضوح والموضوعية والحياد وإثبات بعض الآثار المنقولة تبركا، مع مراعاة وضع القارئ.

ومايميز مقدمة الرحلة العبدرية تحليتها بقصيدة شعرية من ثلاث وستين بيتا سجل فيها بعض صفات ملوك زمانه مع التركيز على اندثار القيم وفشو الفوضى والاضطراب من فاس إلى الإسكندرية فقد انفرط العقد في كل مكان، وأصبح المستغيث لا يغاث ومن هنا يتأسف على الماضي من الزمان. ثم يسجل بدء تدوين رحلته في تلمسان ولما فرغ منها حمد الله مرة أخرى، ثم ختمها بالدعاء الذي هو تجربة وجدانية ذاتية مرتبطة بالحال التي يكون عليها الرحال، فقد ربط الدعاء بأربعة أمور" طلب الصحة، والعون، والهداية،

والكتابـة " مـV الحسـبلة في الأخيرU وهي أمور كافية لحتU الذاK وترشيدها وتوفيقها للT ـوابU وقد اشتملK علا ما ينبغي أن تشتمل عليN المقدماK من حيI التT ور الكليU والمـنهN المتبV في التقييد الموسوم بالموضوعية والحيادU وقد التزم بمنهجN مما جلب إليN كثيرا من الانتقاد لكون الناΣ لم يتقدوا مواجهتهم بالحقيقة والT واب.

:K___HUmKŏqIp Θdا_fNI

الـرحلة العـبدريةU شكلاK في مقدمة ومتنU ثم ذيل شعرا ينتظمهاU قدمها العبدرا في ثلاثين وحدا موزعة علا الهيكل العام ومتتالياتها الكبرā كالتالي:

1- الذهاب: من حاحة إلا مكةU وفيN ستK عشرا وحدا بحجم ورقي قدره 162 تT حة

2- ŬKN_JKāJF ğN_DžNI المقدسة: والمقT ود بها مكة والمدينة وما بينهماU وفيها ثلاI وحداK بحجم ورقي قدره إحدā وخمسين "51 "T حة.

3- العودة: مـن المديـنة المنورا إلا حاحة مرورا بالقدΣ وفيN عشر وحداK بحجم ورقي قدره أربعون T حة.

ومـن ذلك نستنتN أن مرحلة الذهاب مبسوطة علا أكثر من ثلاثة أخماΣ الرحلة في حـين لا تـبلƸ مرحلة العودا إلاالخمΣ من الحجم العامU وهذا يعني أن السارد كان مهتما بالمحيط في مرحلة الذهاب أكثرU وفي العودا قد استنتد ما أراد تسجيلN إلا حينما وقف في تونΣ وقتة طويلةU وƸادرها ولم يستوف كل ما يريد.

فالعبدرية كغيرها من الرحلاK مبنية علا الحركة الكبرā نحو مكةU إلا جانب حركتN فـي المكان نتسN وهاتان الحركتان تسببان في السرد الأفقيU والسرد الدائراU وأعني بN مـا يخـT مكانا ما من المحيط البيئي والاجتماعي والثقافيU ويلعب التداعيU والتذكرU والمذاكرا الدور البارز في الكم السردا إلا جانب لقاCا العلماC.

وتمتاز الوحداK بالتتاوK الواسV من حيI الكم الورقيU فالوحدا الأولا خT ها للتهيئة النتسـية عن طريƙ الزياراK والبشاراK المتعددا ثم الانطلاƙ في الرحلة حتا الوT ول إلـا تلمسان مرورا "...علا بلاد القبلةU وهي بلاد ماK فيها العلم وذكره..." وأنهاها بما

يدل أنه كان ينظر إليها وحدة متكاملة رغم المسافة والزمن "...حتى انتقلنا عنها في أزيد من عشرين مرحلة. " [1]

وهذه الظاهرة لا تتخلف إلا قليلا، إذ أنه كثيرا ما ينهي الوحدة بقوله " والحمد لله الذي كلّت الألسن عن مدى حمده..."[2] أو بكلمة "وبالله التوفيق"[3] أو بكلمة " إن شاء الله " أو بقوله: "والله أعلم"، وهذه العبارة مستفيضة في الرحلة، وقد ينهي الوحدة بالدعاء كما فعل حين غادر تونة "...نسأل الله اللطف بنا في أحكام المقادير."[4]

وهذه الصيغ غالبا ما تأتي كمقدمات الغلق للوحدة الكبرى والصغرى، أو يستبدلها بما يؤدي معانيها، وقد ينتقل إلى الوحدة الموالية بلا إشارة في قلة.

ولا ندري عن العناوين التي تتخلل الرحلة المكتوبة بالبنط العريض شيئا، أهي من إنجاز العبدري أم من غيره لكون المحقق لم يشر إلى ذلك، وأما كلمة "فصل" فهي عنوان فرعي، قد يعني الاستطراد في أكثر من موضع.[5]

ونجد بعض الوحدات قد اتسعت وتشعبت مثلما حدث في تونس(ص 23-63) في مرحلة الذهاب، وفي العودة(ص 239-275)، وكذلك في الإسكندرية (ص 90-125)، وفي القاهرة (ص 125-152)، وفي الحرم المكي(ص 169-200) ولكن تشعبها ليس سرديا باستمرار، إذ تمتلئ الوحدات بفصول فقهية أو لغوية أو تاريخية من باب الاستطراد الذي يراه السارد ذا أهمية بالغة في المكان نفسه. بينما نجد بعض الوحدات قصيرا جدا كحديثه عن قابس الذي لا يتجاوز صفحة ونصف صفحة، وهناك وحدات مدرجة تقريبا كحديثه عن غزة والخليل، ووحدات أخرى مهملة تماما، ولا يسجل فيها إلا أسماء الأماكن، كما فعل بين البركة ومكة، والسارد في هذه المراحل يهتم بذكر المياه العذبة والمالحة، والآبار والأحساء والينابيع المالحة، ويذكر الزمن المقضى بين مرحلة وأخرى بالأيام.

---

[1] – العبدري، الرحلة، ص :8-9.

[2] – نفسه، ص : 10.

[3] – نفسه، ص : 59،63،89.

[4] – نفسه، ص: 87.

[5] - نفسه، ص: 180،183،188،199،214،226، 83،87،88،89،179.

<u>[illegible]:</u> الروابط بين الوحدات الكبرى متينة لكونها قائمة على الانتقال الخاضع للرابط الزمني والمكاني، ولم نجد من الفجوات إلا ما ورد في نهاية (صفحة 152) حيث وقع انقطاع، فالصفحة الموالية تبدأ بذكر المناهل والمراحل بين البركة إلى مكة المكرمة، ولم يشر المحقق إلى ذلك، ولعل الخلل مطبعي إذ الصفحة الموالية مرقومة بـ(157) مما يعني أن أربع صفحات قد سقطت.

وأما الوحدات الصغرى التي بلغ عددها ثمانين فهي محكمة البناء تخضع لمنهجية دقيقة في السرد والتقديم، فهو حين وصل إلى قسنطينة ذكر محاسنها ومن ثم ذكر لقاءه بأبي علي ابن باديس، ثم ذكر ما قرأه عليه، وهذا تولد عنه استرجاع لأيام خلت كان الشيخ الغماري قد أقام بقسنطينة، وأخذ ابن باديس شيئا من علمه دون أن يعلم بمنزلته[1]، ثم انتقل إلى ذكر ابن الفكون في رحلته إلى مراكش مما استتبع إثبات الرحلة الفكونية في اثنين وثمانين بيتا.[2]

ومن الوحدات ما لا يأتي متساوقا بهذه الكيفية الانبثاقية، وإنما يكون الانتقال إلى الفروع شبه قصير كما في وحدة القاهرة[3]، وداخل الوحدات الفرعية يأتي البناء محكما فحين وصل إلى القاهرة تحدث عن العمارات الوافرة والطباع السيئة، ثم ذكر تضييع الأهالي للمساجد، مما يعد من الطباع السيئة، ثم انتقل إلى تمام الأثرات للقاهرة واستطرد إلى الحديث عن كثرة الباعة في الليل، والازدحام في النهار، ثم تولدت عن ذلك حكاية الأكل في الأسواق والطرقات وهكذا. ولما كان بالقاهرة التقى بشيخين جليلين فكان اللقاء مختصرا قصيرا مع الديمياطي، وطويلا مع ابن دقيق العيد، إذ تفرع الحديث عن منزلته العلمية، وانتقاد بعض سلوكاته، وإطلاعه على بعض أجزاء الرحلة واستحسانه لها، وتشعب السرد إلى المحاورات التي جرت بينهما، وهذه تتفرع هي الأخرى إلى فروع أصغر، ويسرد علينا ما يتعلق بنيل مصر، وأهراماتها وما يحكى عنها، ومزاراتها، والمباني التي بنيت حول الأضرحة وما يحكى من كرامات حولها.

---

(1) – المصدر السابق، ص: 32-33

(2) – نفسه، ص: 34- 35.

(3) – نفسه، ص: 125...157.

وهكذا تتوالى الوحدات فما إن ينهي وحدة حتى يبدأ وحدة موازية أو حكاية متضمنة أو متفرعة في إحكام متقن وتأثير عليه مباشرا أو ندركه بعد التأمل.

ومن الوحدات ما يكون مبنيا على السبب المكاني أو الموضوعي وهما أساسان ظاهران في الرحلة، كما يتجليان في وحدة مكة[1]، فقد ابتدأ الرحلة بتاريخ الوصول، ثم بديباجة في فضل مكة ثم سجل أشواقه لهذه الأرض المقدسة الطاهرة شعرا، كما دوّن به موسم الحج إلى ذكر مكابدة الناس للمتاعب للوصول إلى هذه البقاع الطاهرة، ثم وصف معالم مكة ومن ذلك انتقل إلى الحرم وأجزائه، ولم يفته أن يسجل الفوضى والبدع التي شاهدها، كما أشار إلى القمامات، وإلى عدم الاهتمام بالنظافة، ثم ينهي الوحدة بقوله: "وبالله التوفيق".

ولما رأى أن هناك أمورا لم يستوفها، ذيل الوحدة باستطرادات يقتضيها المقام، فبحث أصل التسمية "مكة" ، "بكة"، وهو فصل لغوي، ثم بحث البيت العتيق/ الكعبة، في فصل تاريخي، ثم وقف بعرفات فذكر اختلاف الآراء والأقوال في فصل مذهبي ، ثم ذكر البدع، وتقاتل الركب مع أهل مكة، وما وقع من فتن(في فصل اجتماعي تنظيمي) ثم أوجز القول في مناسك الحج في فصل فقهي، ولم يفته أن يسجل ضعف العلم في تلك الديار.

ومما يميز وحدات الرحلة من حيث المضمون الفكري، هو أن الرحال منذ أن خرج من بلاده وهو يبحث عن العلم والعلماء، ويعمل على ملاقاة البارزين منهم، والأخذ عنهم، وطلب إجازاتهم له ولغيره، وليس براض إلا على تونس، أما المدن الأخرى فيسجل جوانبها الإيجابية والسلبية، ومنظاره موجه باستمرار إلى العلم وآثاره، ونلمس في الرحلة انجذابا قويا إلى مقام الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو أحيانا يعبر عنه بنفسه، وأحيانا يورد قصائد الشوق لغيره، كقصيدة الشقراطسي[2] بـ:133 بيتا، وقصيدة ابن جبير[3] بـ: 33 بيتا. وقصيدة ابن المنير[4] بـ:55 بيتا، وقصيدة حازم القرطاجني[5] بـ: 80 بيتا،

---

(1) – المصدر السابق، ص: 169-200.

(2) – نفسه، ص: 45-49.

(3) – نفسه، ص: 96-98.

(4) – نفسه، ص: 102-105.

(5) – نفسه، ص: 258-261.

بالإضـافة إلـى الأبيا ت والمقطعـات المتفرقـة. لقد كـان السارد يشبƔ هذه الرغبة عن طريƀ الƔـنƓ فلمـا وƜل إلƑ المدينة عمره الشوƀ واستولƑ عليƌ أنوار الحضرا النبوية فƉنشد قƜيدتƌ الطويلة النƔƓ(1) بـ :144 بيتا

والعبدرƒ في الوحداƑ التي تغطي الطريƀ من المغرب إلƑ القاهرا يهتم بالعلم والعلماƇ وطـبائƔ السكان والآƛارƓ وفيما بين البركة إلƑ مكة يهتم بالينابيƔ و المراحلƓ و لقد برز النضـƜ العلمي والƔكرƒ لديƌ من خƜل محاورالƌ لابن دقيƀ العيد في القاهرا. وقد يƔسƟ المجـال لخلجـاƑ الـنƓƔ وذبـذباƑ الشـعور فـي أن تعبر عن نƔسها برجƔاƑ- علƑ قلـتها- تنبـƐ عـن أحاسيƓ قوية نحو الأماكن المقدسة وإن كانƑ في لغة جزلة إلƑ حد الوعـوراƓ ولعل ما ينبغي تسجيلƌ هو ƛناƉه علƑ الأتراƁ بعد استيƜئهم علƑ مƜرƓ لأنهم أحسنوا Ɯنعا في كƛير من أوجƌ التنƲيم في القاهرا والبقاƳ المقدسة.

:ƊƅƔàƅ ƃƄـƔƏ

وهـي Ɯـيƙ دالة علƑ الروابط الجزئية بين الƔقراƑ عدا الروابط النحويةƓ إذ تختƭ بالƔقـراƑ أو الƔƜـولƓ وتميـز بين الخطاباƑƓ من ذلƁ Ɯيƙ الإخبار: إذ يستعمل منها الƜيƙ " يروƐ" Ɠ "قال فƜن" Ɠ "قال الƔقيƌ"Ɠ "حدƛني"Ɠ"وحدƛني إمƜƇ من كتابƌ "Ɠ " وحدƛني إمƜƇ بلƔƲƌ " Ɠ " أخبرني" Ɠ" قلƑ هكذا حدƛني".

ومـƛلها **Ɯيƙ السماƱ:**"وسمعƑ"Ɠو"سمƔ مني" **وƜيƙ الإنشاد:** "وأنشدني" Ɠ "وأنشدني قال أنشدني" Ɠ "وأنشدني قال أنشدنا.." Ɠ "وأنشدني إمƜƇ عليƌ..." Ɠ "وأملƑ علي.." .

ƛم **Ɯيƙ الرƊية البصرية والقلبية:** "وما رأيƑ بـ" Ɠ "ولم أر بها" Ɠ "وقد رأيƑ أن أƛبƑ" Ɠ "وقد رأيƑ في نزول الركب " Ɠ "وأرƐ ".

وƜيƙ الحوار" وسƉلƑ" Ɠ "وسƉلتƌ.." Ɠ "ولما لقيتƌ سƉلني.." و " أجاب" و "أجبتƌ..".

ƛـم **Ɯـيغة القول** "قلƑ" Ɠ "قلƑ هذه" Ɠ "قلƑ قد.." وهذه غالبا ما يتبعها رأƒ السارد أما Ɯيغة "قيلƓ يقال..." فتدلان علƑ عدم التƉكد.

ومما يدل **علƑ التذكر** " وقد ذكرتني" التي تدل علƑ توالد خطاب جديد بعد ذكر حادƛة ما.

ومما يدل **علƑ العزم والنية** "ولما عزمƑ علƑ." ويستعمل لƜستقƜƇ "وقد بذلƑ...".

---

(1) – المƜدر السابƀƓ ƭ: 208-213.

ومن **الصيغ الدالة على لقاء الشيوخ** "ولقيǨ" Ü "وممن لقيتǊ" Ü "ولقيǨ بها". كما يستعمل **صيغة تفيد التثبت في الأخذ عن الشيوخ** "وقرأǨ عليǊ" Ü "ومما قرأǨ عليǊ"Ü " .

وأما صيغ التفصيل فمنها "وأما كذا "Ü "ومن ذلǮ"Ü "ومنها"Ü "ومنهم"Ü "وممن لقيتǊ"Ü ولعل أكثـر الǐ يغ تداولا ما يدل علǉ الرحيل والنزول "ǮƯ سافرنا"Ü"ǮƯ وǐ لنا" Ü"وكان رحيلنا"Ü "ǮƯ مررنا"Ü "ǮƯ قطعنا"Ü "ǮƯ جبنا..." Ü "ǮƯ سرنا" Ü "ومنها إلǉ" Ü "ومن كذا...إلǉ كذا..."Ü "وبعـد مـرحلة"Ü "ǮƯ نزل الركب"Ü "ǮƯ زرنا"Ü وتƘتي بǐ يغة الماضي باستمرار مما يدل قطعا علǉ اختǚف زمن الƠعل وزمن السرد وقلما يستعمل ǐ يغة الحاضر السردǉ .

ومـن الǐ ـيغ الدالـة علـǉ نـوǝ الخطاب "ومن أǣرب"Ü " ومن الأمر الغريب"Ü "ومـن الغرائب" Ü "ومن ǣرائب العبر...". ومن ǐ يغ العودا بعد الاستطراد الطويل" وقد خـرجنا عمـا كـنا بسـبيلǊ فلنرجǞ...". إن ǐ يغ الأداƔ تبين لنا المƠاǐ ل في الوحداǨ الǐ غرǎ و الروابط بين الƠقراǨÜ وتميز بǐ Ơة خاǐ ة نوǝ الخطاب الذǉ يتبǞ الǐ يغة.

تمـƮل رحلة العبدرǉ لونا جديدا عند مقارنتها بما سبقهاÜ كما تمƮل نضجا في التƘليف و الكـتابة الأدبية قياسا علǉ من جاƔ بعدهÜ وما يميزها هو البحƮ الدائب عن العلم والعلماƔ فهـو يشيد بكل مكان يعƮر فيǊ علǉ العلم ويتهجم علǉ كل بلد خاو منǊ ومن حملتǊÜ ومن ذلـǮ تهجمـه علـǉ طرابلƩ وإشادتǊ بتونƩÜ ويغتنم فرǐ ة الحديƮ عن العلم و العلماƔ ليبـرز مهارتǊ الأدبية وتƽوقǊ العلميÜ فيسرد قǐ ائد أو يبدǝ وǐ Ơا فنيا مسجوعا أو يعلǪ علǉ أقوالÜ أو يشرƟ أشعاراÜ ورǣم تكلƽǊ لǚسجاǝ أحيانا...وبخاǐ ة في الوǐ فÜ فƜن رحلتǊ متميزاÜ ولكنǊ ابتداƔ من القاهرا يبدأ وǐ ƽǊ يƠقد حيويتهووتƽǐ يلǊ.[1]

وهـناǮ رابط متعلǪ بƠƘǪ الانتƲار وهو ما تعارف عنǊ الناƩ من أن الرحلة إلǉ الحƲ نهايـتها مـتوقعة إذ بعـد الوǐ ول إلǉ البقاǝ المقدسة والعودا منهاÜ يمر السارد بالمدن المƘلـوفة إمـا عـن طريǪ الجنوب أو الشمال إن سلǮ طريǪ البرƷحتǉ يǐ ل إلǉ نقطة الانطǚǪÜ هذا الأمر يترتب عنǊ ارتباط السابǪ بالǚحǪÜ وتحكم الǚحǪ في السابǪ[2].

---

[1] – انƲر كراتشكوفسكيÜ تاريƺ الأدب الجغرافي عند العربÜ 1Ǫ f :367.

[2]– عبد الƠتاƟ كيليطوÜ الأدب والغرابة دراساǨ بنيوية في الأدب العربيÜ دار الطليعةÜ بيروǨÜ ط3Ü1997Ʃ Ü f 34.

[3]- انƲر ميلود حبيبيÜ النǎ f الأدبي بين التلقي وإعادا الإنتاجÜ نƲرية التلقي(إشكالاǨ وتطبيقاǨ)Ü منشوراǨ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط(د.Ǩ)Ü f :172.

أمـا الوحداƘ السردية الƮغرة ăفذاƘ طبيعة تكرارية من حيƋ هيكلهاǃ وأما من حيƋ ملƮوƻها فيختلف من وحدا إلƑ أخرةă وهذا نمط آخر لǚرتباط.

وهكـذا تتضƠ لنا أنواƱ الروابط في الرحلةǃ فمنها اللƾƻية ومنها ƹير اللƾƻية وتتƮافر جمـيعا لتلم السرد المشتƘǃ وتجعل منǊ بنية سردية كاملة ذاƘ أهداف ووƮائف مباشراǃ وهذه الروابط متوفرا في الرحƚƘ كلها أو في معƮمها.

أما الخاتمة في الرحلة العبدرية فقƮيرا جدا وليسƘ منƾƮلة عن سرد المتنǃ قال فيها " وخـتمƘ الـرحلة بـزيارا قبـر شيƣ الƮالحين... ƇƬ من اƅ جمƲ الشمل والاجتماƱ بالأهل... والحمد ƅ الذƒ أعجزƘ ƮنائعǊ شكر الشاكرين..."(1).

فهي تشتمل علƑ ƛƚƛة عناƮر:

- زيارا قبر أحد الشيوƣ الأفاضل تبركا.
- الوƮول إلƑ المنزلǃ ولم الشمل.
- الƜناƇ علƑ اƅ تعالƑ بما هو أهلǊ.

لـم يسترسل العبدرƒ في عنƮر" لم الشمل" فهو من الذين لا يƾتحون مجالا للعواطف إلا قليƚƜ وقد يكون ذلƃ عن رأƒ خاƫ بǊ في السلوƃ.

:ǈـǲـȈـƜǀƬلا

ذيّل العبدرƒ رحلتǊ بقƮيدا قال فيها " وهذه قƮيدا نƮمتها في الرحلة رأيƘ أن أختم بها هذا التقييد مستعينا باƅ ". ƇƬ أورد خمسة أبياƘ ومائةǃ وهي كالتالي:

- مقطƲ من عشرا أبياƘ (1-10) في النƮƠ والاعتبار
- حوالي 90 بيتا (11-102) في مساƇلة المدن والمعالم ومنطوقاتها المتخيلة
- مقطـƲ أخيـر من ƛƚƛة أبياƘ (103-105) فيǊ تعليƼ للشاعرǃ ƇƬ أنهƑ الكل بالحمدلة والƮƚا والسƚم علƑ النبي محمد (Ʈلعم).

وهذا التذييل فيǊ كƜير من التشخيƫ الذƒ أنطƼ فيǊ العبدرƒ عدا مƮاهر بما استخلƮǊ مـن عبـر ومواعƮǃ وجعل ذلƃ لسان حال الأرƩ التي تجود بالنƮيحة لكل من يسمƲ Ʈوتها ويتƘمل تعاقب الأزمان عليها.

(1) - العبدرƒǃ الرحلة ǃ ƫ :280.

ثانيا: بنيـة الرحلـة التجانيـة

بعـد أن استعرضنا بنية الرحلة العبدرية وقدمنا تحليلا لانتظامها وتحديد الأداء فيها ننتقل إلى الرحلة اللتجانية لنرى بنيتها التي تقوم على ما يلي:

I – الـمـقـدمـة: وتشتمل على:

0 . كلمـة تمهيدية وجهها المحقق " حسن حسني عبد الوهاب" إلى القارئ في ست وأربعين صفحة ثم خارطة للطريق التي سلكها التجاني في رحلته.

1. مقدمـة المؤلـف المشـتملة على ديباجة مألوفة – من حمدلة وصلاة ثم ذكر لمشمولات الرحلة وما فيها من شعر ونثر. ص 1

II- الـمـتـن: ص 4

أ- **مرحلة الذهاب**

1- الخروج من تونس. ص 4-5

2- الحديث عن رادس: ص 5-9 4θ

- رباط رادس - إغارة الروم عليها زمن عبد الملك بن مروان.
- حكاية السفينة والخضر - وادي مليان وقنطرته.

3-الحديث عن الحامة: ص 10 1θ

- التداوي بماء الحامة - مرناقة وحسان.

4- جزيرة شريك: ص 11-15 4θ

- عبادها - تمنعها عن المسلمين حكايات - الأقاليم التابعة لها.

5- منازل العرب الهلاليين: ص 15-22 7θ

- نزوحهم- الجرجرائي والهلاليين- البازوزي والهلالين.

6- النزول بملتان ص 22-23 1θ

- سبب التسمية(الوقائع التي حدثت بها مع الخوارج)

7- الفحون: آخر جزيرة شريك ووصف المنارة ص 23-24 1θ

8- اهريقلية ص 24-25 1θ

- وصفها.- وقائع مع الزويلي النكاري.

9- النزول بسوسة 30θ 55-25 f

- وŢƮها(نقţ القرآن كǛم اǙ عزوا أسد بن الƱراƘ إلĨ Ţقلية)
- حكاية عبد اǙ بن الزبيرǙ تمنƔ سوسة علĨ الغزاƧ.
- أشعار في سوسة و تمردها علĨ المعز.
- من شعراƇ سوسة: محمد بن حسين...القرشيǙ علĨ بن احمد الŢƮار.
- أبو الƱتوθ محمد أبو موسĨ عبد السوΣ القطان- ابن الغطاΣ
- ابن عبدون السوسي/عبد الحليم...السوسي
- التراب السوسي:-القŢيدا التي أولƔ بها العرب .52-44 f
- محمد بن عبد الجبار الرعينيǙ حكاية.

10- النزول بزرمدين: 2θ 57-55 f

- زيارا قبر شيخها الزرمديني- القŢور التي احتلها العرب.
- قŢور الوردانين - الشيƣ الدهماني ورفضǋ للشيعة.

11- قŢر الجم: 8θ 65-57 f

- الكاهنة وقŢرالجمǙ زهير بن قيΣ البلوă-حسان بن النعمان وإقامتǋ ببرقǋ.
- تحŢن الروم بقŢرالجم وأخباره

12- أم الأŢابƔ. 1θ 67-66 f

13- ŢƮاقΣ: 16θ 84-68 f

- ما قيل في ŢƮاقΣ. جامعها- توالي الأمراƇ الŢنهاجيين.
- من شعرائها:-علي بن حبيب التنوخي ضرار بن تميم الƱزارĨ.
- أبو عمر بن أبي بكر بن حمود الŢدفي.
- زيارا قبر أبي إسحاƼ بجبنيانǋ(f 81).

14- قŢر المحرΣ (أŢل بنائǛ سكانǛ الميورقي) 1θ 86-85 f

15- قŢر وذرف: أبياƘ فيǋ. 1θ 86 f

16- الوŢول إلĨ قابΣ: 31θ 117-86 f

- وŢƮها- ما قيل فيها وفي أهلها.

- عين تاورغا- عيد الفطر- الٹŬا والخطبةٌ
- سبخة تاكمرK- بعƳ خٹائ f السبخةٌ ماقيل فيها من شعر

27- تـ ـوزرقاعدا الجـ ـريد f 157-173

-متنزج باب المنشر- ماقيل فيلا من شعر- أهل توزر من بقايا الروم.
- أٹل البربر-الأرƳ كانK للروم ثم أجŬهم البربر عنها ثم عادوا.
- أكل لحوم الكŬبٌ بيƴ فضŬK الناΣ
- قدم توزرٌ افتتاحها ٹلحا علĬ يد حسان- بقاǇ كنائسهاٌ
- الميورقي وتوزر- رمي الناΣ في بئر الشهداǇ.
- توزر لبنĬ مرداΣ.الإقامة بروضة لأبي العباΣ بن يملولٌ زيارا القبور.
- مراسŬK التجاني:- التعريف بقبي بكر محمد بن أحمد الجذامĬ.
- قٹيدا:36 ب متبوعة بنثر.+11بـ +25بـ رسالة إلĬ الهنتاتي:7بـ .
- مراسŬK ابن حسينة والتجاني -الإقامة خمسة عشر يوما.

28- الرحيل عن توزر والعودا إلĬ قابΣ (f :172-179)7Ɵ

- أهوال الطريƾ- الرياƟ العاتية - الإقامة ببستان
- لقاǇ أبي بكر بن فتƠ-أشعار متبادلة بينهما-الرحيل إلĬ طرا-الحمة
- النزول خارج قابΣ-بطحاǇ قابΣ- عودا الجيƫ إلĬ تونΣ.

29- الخروج من قابΣ والنزول في تبلبو (f :179-184) 5Ɵ.

- زاوية أبي ƹراراٌ سŬم العوسجĬ- أفعالا في العربان
- المرور بقرƒ ومنها أجاΣ.(مذهب الخوارج- وقائƴ).

30- الإقامة بمنزل ƹمراسن f :184-191 7Ɵ.

- ٹعوبة المسالاا. مزارƳ الذرا.السكان بربرورƹميون.
- النكارا وعدم تغسيل الموتĬ.حرمان البنK من الميراƭ
- عيشهم من الغارا علĬ- الأمن في بŬدهم- الإقامة شهرا- بناǇ دار السلطان
- مراسŬK مƴ التجاني.

31- أخبار المجاعة ببرقة ورفƳ العودا إلĬ تونΣ (191-204) 13Ɵ

- أشعار في المناسبة. - رسالة السلطان إلىّ والد التجاني وجوابه .
- أخبار إبراهيم الكاهن - عيد الأضحىّ -أخبار المرينيين والزيانيين.
- قŢيدا من شقيŧ المؤلف.

32- الارتحال إلىّ طرابلΣ :(204-220) 16Ɵ.

- المرور بقحسا Ƈ كثيراŮ النزول بتاذر-رئاسة الجوارىّ في المراجمة.
- مŮقاا سالم بن مرجم وعزمه علىّ الإقامة عنده بزنزور.
- السبحة التي يمتار منها النŢارă الملƠ.
- زاورا الŢغرă(بلد المرابطين) وشيخها عبد الرحيم الزوارىّ.
- من معتقداƘ الخوارج .
- زوارا الكبرă: واولŮ حŢن تليل.
- زواجة. آثارŮ Ţبرا وهد مها بقمرمن ابن العا .
- زاوية أولاد سهيل - استقبال أهلهاŮ والاحتفاƇ بالركب.
- زاوية أولاد سنان إخوا الوشاحيين والنوائل.
- عبد ا بن ذباب الذىّ عذب البربربالنار.
- الحلول بزنزور-الجامƳ- السوŧŮ أهلها بربر هواريون مجريسيون.
- أŢل تسمية هواراŮ هوانهم بعد العز.
- من علماƇ زنزور: ابن برنيŧ الهوارىّ المجريسي
- زيارا قبر الشيƿ عبد الجليل الحكيميŮ وقبر السيقاطي
- كثرا المساجد بهذا الساحل.
- أميـر آل سـالمŮ ينŢـƠ السـلطان بعدم الحƋ هذا العالم
- مراسلاƘ التجاني وهو بزنزور

33- الدخول إلىّ طرابلΣ 221-280 59Ɵ.

- استقبال الأهالي للركب السلطاني - مسجد العشرا.
– قŢر بن مطروŮƟ الحكام نŮافة الشوارƳ.
- الأهالي يحفرون خندقاŮ - ذكر فتƠ طرابلΣ وما جرă عليها من وقائƳ.

- أبواب طرابلΣ - المݐ݈ݑݎ شجر الجميزݎ المحارΣ والمساجد.
- القائم بالعلم في طرابلΣ (الشيɋ أبو فارΣ عبد العزيز... بن عبيد).
- ابـن اللحيانـي يـرحب في سماϒ دروسℕ.- عقد مجلΣ بدار السلطان .
- قراϹ ƒ ϹΙ مسلم./ إجازا أبي فارΣ للتجاني. شيوϤ أبي فارΣ..
- زيارا قبر عبد الوهاب القيسي - مشاورتℕ للنبي (ƒ) مناما. - مناماتℕ.
- قبرالتقيℕ أبي إسحاƙ إبراهيم بن... الأجدابي اللواتيݎ تϑليف الأجدابي
- التقيℕ أبو الجسن علي بن محمد بن المϑمر الطرابلسي
- أول من أƲهر السند بطرابلΣݎ وهو أول من أحيا القيام في رمضان
- مقابر أهل طرابلΣ –أسباب محنة أبي الحسن بن المϑمر. كلمة طرابلΣ.
- فضϹǕ طرابلΣ:
- أحمد بن عيسϒ من قديم شعرائها(تـ 183 هـ)
- أبو الحسن علي بن أبي بكر بن بǕل(تـ 81 Þ)
- أبو محمد عبد الحميد... بن أبي الدنيا الݐوفي الطرابلسي(684/606هـ)
- أبو علي الحسن بن موسϒ... الهوارϒ (682/609هـ) - أشعاره.

34- الإقامة بطرابلΣ مدا عام ونݐف العام ƒ 280

- مراسǕƘ المϐلف لبعƲ أقاربℕ ƒ 280-306 26Ɵ
- الجواب (31 بيتا + نϑر)- رسالة أخرϐ (27 بيتا + نϑر)
- الجواب (33بيتا + نϑر)- رسالة من بعƲ الطلبة (05 أبياƘ)
- وݐول خبر المشارقة المتوجهين إلϒ المشرƙ... إلϒ طرابلΣ.

35- الخروج من طرابلΣ ƒ 306 1Ɵ

- توديϒ المϐلف للشيɋ أبي فارΣ بϐبياƘ (12بيتا).

36-النزول بتاجوراϹ ƒ 307-312 5Ɵ

وݐفها- فواكها.

-علماϐها ابن عبد السǕم التاجورϒ (أخباره) ƒ 308

- الشريف أبو عبد ا محمد ... الحسيني التاجورϒ

37- النزول بغافة - وادي الرمل قرير تيبار - كرم تاجبة .

38- النزول بعين تامدنت 3θ 315-312 f

(وتسميتها) نبات العشر - الخرافة وما قيل في ذلك .

39- النزول بعين فارا 1θ 316-315 f

قصر فارا - مرض التجاني - الإقامة خمسة أيام.

ج - العودة:

40- النزول بعين وردة 1θ 316 f

41- الرجوع من الطريق إلى طرابلس 1θ 318-317 f

- يوم عاشوراء 709 هـ .

42- المراحل من طرابلس إلى المهدية 2θ 320-318 f

43- المهـديـة 73θ 393-320 f

- وصـفـهـا – تاريخ بنائها – بناء زويلة

- الحديث عن الأحداث والوقائع والملوك 366-324 f

- فضلاء المهدية وشعرائها 393-366 f

44- من المهدية إلى تونس 1θ 393 f

مدة الرحلة عامان وثمانية أشهر وأيام= 975 يوما.

د- الخاتمة :

ثم قصيدا في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. 1θ 394-393 f

ثالثا: اللغة:

بعد **أن** حددنا الوحدات الكبرى والصغرى للرحلة من حيث الترتيب بناء على أهميتها وبروزها، وبينا كيفية تفريع كل وحدة إلى وحدات أصغر، يمكن القيام بتركيب لما تم من تحليل لهيكل الرحلة كما تتجلى في خطابها كالتالي:

فالمقدمة: (تشتمل على صفحة واحدة).

-**و السفر الفعلي**: يشتمل على قسمين : (4-393) 389ص

أ- مرحلة الذهاب: وفيها أربعون وحدة صغرى ممتدة من ص (4-317) أي بحجم ورقي: 312 ص

ب مرحلة الإياب: وفيها خمس وحدات من(316-393) بحجم ورقي: 77 ص .

أما الخاتمة: فتذييل للرحلة بقصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيها خمسة وثلاثون بيتا بحجم ورقي يمتد صفحتين ونصف الصفحة. (ص 393-395).

[illegible]:

الرحلة قائمة على السفر، وهو الانتقال الفعلي من مكان إلى آخر، لذلك تبدأ الرحلات كلها بخبر الانفصال عن المكان، الذي يتواجد فيه الفاعل، ولكون الحركة والسكون، أو الحل والترحال هما الحركتان المميزتان للعمل السردي، فإن التمفصلات مبنية عليهما. والملاحظ أن مرحلة الذهاب كثيرة الوحدات، ولا يشتمل الإياب إلا على خمس وحدات، ذلك أن السارد في الذهاب يسرد كل ما يتعلق بالمكان، ويذكر الشعراء والمراسلات، وأخبار السكان، والحوادث الماضية، فتوسع في القول، بينما اكتفى في مرحلة الإياب بذكر الانتقال من مكان إلى آخر، فأفرغ كثيرا من الوحدات من المحتوى لسببين:

-1 لأنه سرد ما يتعلق بالمكان وأهله في مرحلة الذهاب.

2- لكونه تأثر بمرضه الشديد، الذي أعاقه عن مواصلة الرحلة إلى الحج، فهو متعلق بالعودة إلى تونس مقر سكناه، حيث سيلقى العناية والرعاية، ولم يعر الاهتمام إلا للمهدية، ولعله مثلها بما يناسبها، وهو في تونس بعد إبلاله، وما يميز هذه الرحلة هو انعدام مرحلة الوصول إلى الأهداف، لكون السارد أرغم على العودة قبل إتمام مقصده. ولنتبين الانفصام بشكل أوسع نقوم بقراءة للوحدات الكبرى وكيفية انفصامها ثم ننظر في الوحدات الصغرى.

I – المقدمة:

إن المقـدمات عنصر من العناصر المكونة للهيكل الرحلي، وغالبا ما تأتي كتوضيحات للـرحلة من حيث ظروف المشروع وأهدافه والإمكانات المتوفرة لإنجاز والمنهج المتبع، وذكر المميزات الخاصة.

وفـي رحلـة التجاني نجد الحمدلة التي ركزت على الخضوع لحكم المدبر الأعظم في حالتي "الحل والترحال" وواجب الإنسان هو تكييف أفعاله وفق المشيئة العظمى، ولعل هذه الالتفاتة أن تكون ملخصة لبعض الإحباط الذي أصيب به التجاني في الطريق.

ثم أردف ذلك بالصلاة على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وخص من بين أعماله الهجـرة التي كانت سببا في إظهار الدين، ولا يخفى المقصد الذي يشمل الحركة والانتقال فـي الهجرة، والممهد للحديث عن الرحلة التي هي حدث مادي واقعي، تم بالانتقال عن المكـان قصـد الاتصـال بآخر، وفيه كل البركة " وقضى له بالبركة في تلك الحركة"[1] وصـولا إلـى هجـرة أخرى على المستوى السلوكي المتمثل في هجرة الحرام. ثم بسط مشـروع رحلته الذي يقدم ما في كل بلد من آثار ومعالم وما جرى عليها من وقائع، وكل ذلك مصحوب بنظم ونثر مما " تحسن المحاضرة به وتحصل الإفادة إن شاء الله به."[2]

وهكـذا حدثنا في المقدمة عن الخلفية المؤطرة للرحلة كمقصد شرعي، ثم قام بإغراء القـارئ بما سيجده في الرحلة من عوالم ممكنة[3] (خبر، أوصاف، مسافات، آثار، معالم) وكـل " مـا يتشوف إليه ويتشوق إلى الإطلاع عليه "، ولكون القراء منهم من يميل إلى الـنظم ومنهم من يميل إلى النثر، فإنه حفزهم إلى الإقبال على قراءة الرحلة لكونها شاملة على"... حلة النظم والنثر" بهذا صارت المقدمة توجيها للقارئ وتحفيزا له، بالإضافة إلى إضاءتها لمشروع الرحلة، فالمقدمة مفتاح توجيهي قام به المنتج بعد أن أنتج نصه.[4]

II- الخـروج:

وهو الإنجاز الفعلي للانفصال عن المكان، وفي الرحلة يشتمل على الذهاب و الإياب.

أ – الذهاب

---

(1) - التجاني، الرحلة، ص: 3.

(2) – نفسه، ص: 3.

(3) - أحمد بوحسن، نظرية التلقي والنقد العربي الحديث، نظرية التلقي، ص 29.

(4) – سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي، ط1، سنة1992، ص: 50.

حدد السارد الأهداف والغايات بعد الانطلاق فيما يلي:[1]

1- الذهاب إلى الحج، وهو غير معلن وأخفي عن الناس عمدا لأغراض سياسية وأمنية.

2- استرجاع جربة إلى حضرة الإسلام من أيدي النصارى " وهو هدف معلن" ولأجله جندت الأجناد وأعدت الأزواد.

3- زيارة تفقدية إلى بلاد الجريد، لغرض تطويع الناس وجمع المستحقات.

وهذه الأهداف خطط لها كبير الدولة وشيخ الموحدين أبو يحيى زكرياء بن اللحياني[2] الذي يرد في الرحلة باسم "مخدومنا"، ولكون السارد تابعا له فهو ملزم بتتبع الخطوات التي تسعى إلى تحقيق الأهداف الظاهرة والباطنة، وتتميز هذه الرحلة بهذا الإخفاء الذي يبقيه السارد خارج المسرح، وباعتبارنا نعلم به فإننا نتوقع ظهوره بين الحين والآخر، لكنه أشغلنا بالتنقلات المحلية إلى جربة، وإلى الجريد، ولم يفصح عن الهدف الخفي إلا بعد أداء الجيش للمهام المنوطة بحركة خروجه، حيث تقتضي الخطة أن يعود الجيش إلى تونس بصحبة الثقيلة أبي زكرياء بن يعقوب.[3]

والوحدات السردية إلى هذا الفصل النوعي تقدر بثمان وعشرين وحدة، وهو فصل فني يبرز المقصد الخفي من القوة إلى الفعل، وتبدأ رحلة جديدة أهدافها تعبدية خالصة. وتستمر الرحلة في الحركة نحو مقصدها إلى "طرابلس" حيث يستقر ابن اللحياني أكثر من عام ونصف العام، مما يجعل خيوط الرحلة تتراخى، وبخاصة بعد توالي التحذير من التوجه إلى المشرق من قبل الأمراء والعامة، مما يهدد المشروع كله.

ثم تأتي الأخبار المبشرة بإمكانية الحج. وذلك بعودة الوفد المشرقي الذي زار المغرب الأقصى، وهو الوفد المساعد على تجاوز المفاوز الفاصلة بين طرابلس ومصر. فيتجدد الأمل وتتواصل الرحلة بعد أن توفرت أسبابها لابن اللحياني المصحوب بوفود المشارقة وحراسة الخاصة، وفرقة جاءت مع الوفد من تونس. وبعد الخروج من طرابلس وقطع بعض المراحل يستجد عارض خاص بالتجاني إذ ألم به مرض شديد، فمكث الوفد مدا

(1) – المصدر السابق، ص: 4.

(2) – نفسه من مقدمة المحقق، ص: 25.

(3) – نفسه، ص: 179.

فـي الطريق انتظارا لشتائه فلما تعذر عليهم الإقامة أكثر واصلوا سيرهم وعاد التجاني إلى تونس مع وفد خا ص . [1]

ع - الثانية :

هذا مشل آخر يتقرر فيه مصير السرد وفيه يتحول المؤلف/السارد من مجرد تابع إلى فاعل حقيقي فيقطع الأهداف الأولى وينشئ أهدافا أخرى ويصبح منكوصا على عقبيه.

ويسـتمر ابـن اللحيانـي في السير لتحقيق الأهداف الخاصة بالحج بينما يعود السارد أدراجه بسرعة إلى أن يلتحق بالعاصمة "تونس". [2]

ومن خلال هذه المشل المؤثرا في سير السرد يمكن القول أن الرحلة التجانية تشتمل على مشاهد :

الأولـى : حين فاجأ القائد الجيش بالإعلان عن هدفه " ثم أصبحنا فوصل الأجناد لوداعنا فكانوا يدخلون أفواجا يودعون ثم يخرجون وهم يبكون ويدعون إلى آخر النهار وشاهدنا بهذا الموقف حالا تحرك الضلوع وتذكي الولوع وتجري الدموع...".[3] فهو موقف حزين بـعث يحـدث أثـرا كبيرا في نفوس الأتباع الذين أدوا مهمة عسكرية سياسية وعادوا إلى العاصمة بعد أن تركوا سرية تحمي القائد وتعينه على تحقيق أهدافه الجديدا.

الثانـية: تتمـثل فـي هذا الإصرار من قبل القائد على أداء فريضة الحج رغم المخاطر وتواتر الأخبار عن المجاعات والظروف السيئة غير المواتية لأداء هذه الفريضة فيمكث بعيدا عن عاصمته أكثر من عام ونصف العام انتظارا للظرف المواتي لتحقيق الهدف.

الثالثة: المرض المفاجئ الذي حل بالسارد وأرغمه على العودة فانقطع السرد المتوقع.

وبعـد هذه القراءة السريعة للوحدات الكبرى ننتقل نظرا أخرى على الوحدات الصغرى.

أهداف ـي الـوحـدا ت الصـغرى: تتصل الوحدات الصغرى بالنزول وتنتهي بالرحيل فالمكـان هو المؤثر الأول في النمو السردي فحين ينزل الركب يتسع السرد للتعريف به مـن حيث ما هو عليه في حاضر السرد. فيصف وصفا شاملا ثم يذكر بعض الخصائص الطبيعـية والبشرية ثم يقف السارد وقفة مع الزمن فيعود إلى الماضي ليستحضر بعض

---

[1] – يرى المحقق أن أسباب العودة صحية وسياسية ولكنه لم يذكرها المقدمة ص : 25 .

[2] – التجاني الرحلة ص :393.

[3] – نفسه ص :178.



الوقائع التي كانت قبل الفتح الإسلامي للمغرب، وأثناءه، وما لعبه المكان وأهله في حرب الفتن المتوالية على المنطقة مذكرا ببعض المعالم والآثار، وقد يتجاوز ذلك إلى المظاهر الأدبية والثقافية، فيعدد أبرز الشعراء، وبعض الفقهاء، وكبار العباد والزهاد، وما يحكى عنهم من أحوال وكرامات، وهكذا تصبح الوجدة مسرحا لاستعراض الماضي بجوانبه المتعددة، حتى إذا استغرق القارئ في "المحكي"، وتوقع المزيد، جاءت الحركة لتقطع السرد وتهيئ لوجدة أخرى، فتتوالى الوجدات فتحا وغلقا. وكل ذلك مرتبط بالحل والترحال.

:DIYãl ű__ǿ_Dž

تتجلى في الخطاب، وتتعين نوعه كما تتعين بعض مقاصده من ذلك:

"Û"ğƙfƐ_ǬĮ Ķ_ƬĴI ǘǿ_Dž وهي دالة على الحركة والسير، كما تدل على الإقامة والسكون كقوله: "ثم انتقلنا" ، "ودخلنا" ، "وأقمنا" ، "ثم قطعنا" ، "ثم ارتحلنا"، "وكان نزولنا"، "وانتهى السير بنا"، "ووصلنا إلى"، "فبتنا"، "ثم أصبحنا."، "ويوم حلولنا به.."، "وفي أثناء إقامتنا به..."

فهذه الصيغ تقوم بدور الإعلان والفتح، وتوحي بالمحتمل من الخطاب الذي يتعلق بالمراحل وقطعها أو بمزايا المكان، كما يعتمد عليها السارد في دفع حركية السرد إلى غاياتها، وهناك صيغ أخرى تدل على نوع الملفوظ منها:

ب- YƘ_ǂǇâl: أنشد فلان، أنشد لنفسه.. أنشدني...أنشدنيها..، ويقرب منها: وأنشدنا يقول، وأنشده مرتجلا وهي تشير مجتمعة " إلى جنس محدد هو الشعر القائم على القول وليس الإخبار...[1]

ج- ƷƘ_ǁ_Ʊâl: أخبر فلان، خبّرنا، أخبرني، ذكر فلان، ذكر لي، روى....

وهذه الصيغ تدخل ضمن جنس الخبر، سواء كان هذا الخبر من الأخبار القصار أو الطوال، وسواء كان حكاية أو قصة تدور حول الجن أو الأولياء...أو وقائع تاريخية...[2]

د- الحديث: ويدخل ضمنه: "وقال، قيل، يقال، يقول... يروى...وقد روى.."، وهي جميعها تشير إلى جنس الحديث سواء كان هذا الحديث لخطيب أو حكيم أو للرسول (صلعم). [3]

---

(1) – سعيد يقطين، الكلام والخبر(مقدمة للسرد العربي) ص: 192.

(2) – نفسه، ص: 192 .

(3) – نفسه، ص: 192.



وهـنااا ٍ ـيح تـ5ـيد **التواصل بين الطرفين** منها: ٍيح المراسلة الشـ5وية أوالمكتوبة: "ووٍـkـ إليـنا..." ٍ "وكتب إلـٍ..." ٍ "فكتبـk إليـا" ٍ "فـ5جبتـا" ٍ "فـ5جابني" ٍ" فراجعتـا"ٍ "وناولنيها"ٍ "ومن فٍول هذا الكتاب.."

ومن الٍيح التي تـ5يد **الأسترسال في السرد** "ٍم كان..."ٍ"وقد كان..."ٍ"فلما كان..."ٍ"ولم تزل.."ٍ ويقرب منها ما يـ5يد **الأسترسال في ذكر الأعٍـام** "ومن أعٍـم..."ٍ"ومن الأدباٍ.."ٍ "ومن الشعراٍ..."ٍ "ومنهم...".

ومن الٍيح النادرا الدالة علٍ **الرٍية أو الإعجاب** "شاهدٍ"ٍ"ومن العجب.."ٍ أما ٍيح الغرابة فغير واردا في الرحلة التجانية.

هـذه أبـرز الٍيح الدالة علٍ الملـ5وٍ في الرحلة التجانيةٍ أما تلاا التي يسميها يقطين "مناٍـk" (1) مـٍل حكايةٍ لطيـ5ةٍ فائداٍ عجيبةٍ فهي مـ5قودا في الرحلة التجانية بخٍـف رحلتي العياشي والورتيٍـني.

هـذه الٍ ـيح يتوسل بها السارد في ربط أجزاٍ الخطابٍ وشد القارٍ للمتابعةٍ وهي داخلـة بـدلالاتها فـي ٍميم البنية السردية لكونها أدواk ربط القول وتنٍيمـا ٍ إضافة وتـ5ٍيـٍـٍ عطـ5ا وبياناٍ إنشاٍ واستئنافاٍ إنشادا وحكيا.

وهنااا رابط آخر يتجلٍ في أفـٍ الانتٍار(2) الذٍ يتولد لدٍ القارٍ من خٍـل الإفٍاٍ عـن بعـٍ الغاياk من الرحلة أو السكوk عنهاٍ فلقد تبين للمتلقي المعاٍر للرحلة أن السـ5ر كـان إلـٍ جربة وإلٍ بـٍـد الجريد لغاياk أمنيةٍ يتعلـٍ بعضها بالسيادا وبعضها الآخر بالطاعةٍ لذا يتوـٍ أن تنتهي الرحلة عند أداٍ المهام المنوطة بهاٍ ولكن حين انتهٍ هـذا الأفـٍ الذٍ أوجده التٍريٍ الأول ٍهر أفـٍ جديد وهو الزيارا إلٍ البقاٍ المقدسةٍ ممـا يجعل القارٍ ينتٍر النهايـاٍ ويتوـٍ سردا متعلقا بهذا الـ5ضاٍ الكائن بين بـٍـد الجريد والبقاٍ المقدسة ذهابا وإيابا.

ولما ابتدأk الرحلة في تحقيـٍ بعـٍ التوقعاk. أجبرk علٍ النكوٍ مما أحدٍ نوعا مـن الاضطرابٍ فلولا مبرر المرٍ الشديد لحكم علٍ العمل من الناحية الأدبية بالـ5شل

(1) – المرجـع السابـٍ: ٍ 162.

(2) - عبد الـ5تاٍ كيليطوٍ الأدب والغرابة... ٍ :21.

لكون السرد خيب الآمال المنتظرة، لهذا يشعر القارئ بالأسف على فقدان سرد قد يكون ممتعا جدا لو صاحب التجاني حاكمه إلى البقاع المقدسة فهو سيستقبل من قبل حكام مصر وغيرهم مما ضيع فرصة نادرة، ولعل هذا الشعور هو الذي جعل السارد يرسل قصيدته التي ختم بها الرحلة متأسفا على قطع الرحلة القاصدة للروضة الشريفة.

ج- الخاتمة:

ينهي السارد رحلته أو كما يسميها "التقييد" بقوله: " وهنا انتهى الغرض المقصود من هذا التقييد، والحمد لله أولا وآخرا، وباطنا وظاهرا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا " (1)

نلاحظ: اختلاف التسمية لكونه أطلق (التقييد).

ثانيا: تحقيق الغرض المقصود الذي حدد في المقدمة أولا.(2)

ثالثا: الحمدلة، وقد جاءت في صيغة الإخبار، والإخبار يأتي بعد وقوع الحدث.

والرحال في هذا ملتزم بالسنن السلوكي إذ بعد كل فعل يجب أن يتلوه الحمد. الذي يشتمل على حامد ومحمود وعلة الحمد(3)، ويبدو أن علة الحمد كانت بسب إنجاز "التقييد" والعودة إلى الوطن بالسلامة، والإعفاء من المخاطرة في التوجه إلى المشرق، ولعل هذا ما يشير إليه بقوله "باطنا وظاهرا ".

وبعد الحمدلة أضاف الصلاة الطيبة المباركة وقد يكون ذلك تابعا للأعراف المعمول بها، ولكن حين ننتقل إلى ذيل الرحلة، ندرك المناسبة لذا قال: " ورأيت أن أختمه (التقييد) بقصيدة...أمتدح بها النبي محمدا صلى الله عليه وسلم. خيرالأنام، وأتوسل به إلى الله تعالى في تيسير المرام." (4) والقصيدة تشتمل على خمسة وثلاثين بيتا من البحر الكامل، يتحدث فيها عن التوبة النصوح، ويذكر العباد الزهاد، ثم يتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه على أن يبلغه الروضة الشريفة، من خلال هذه القصيدة البديلة عن تلك الأشواق التي كان

(1) – التجاني، الرحلة، ص: 393.

(2) – نفسه، ص: 3.

(3) – رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة والإشارة)، شركة النشر والتوزيع- المدارس، الدار البيضاء، ط1 1421هـ/2000م، ص 96.

(4)- التجاني، الرحلة، ص 393.

يأمل أن يوصلها إلى الحضراÙ فلما لم يتمكن بسبب الإعاقةÙ فقد أرسلها لتعبر عن الذاÙK وتبقى سائرا بين القراC عبر الأجيالÙ ذلك أن " الرحلة كحافز للحكي هي التي يتحدد منها أي تحول يتم بواسطة الانتقال من فضاC إلى آخرÙ ومن شخصية إلى أخرىÙ ومن زمان إلى آخر..." [1] كما أنها " النوع الأدبي الأكثر ارتباطا بالسرد في ثقافتنا القديمة "[2].

هذه هي بنية الرحلة التي قضاها التجاني في صحبة ابن اللحياني وقد كانK "خيرا وبركة على الأدب والتاريخ إذ قيد التجاني أخبارها ودون آثارها وسجل مشاهداته وعبر عن انطباعاته بلغة أنيقةÙ وديباجة مشرقةÙ ويمتاز وصفه للمدن بالدقة والتنوع وبخاصة وصفه لجربة الذي تفرد به."[3].

[illegible]

I-المقـدمـة

الرحلة العياشية تتصدرها:

---

[1] – سعيد يقطينÙ الرواية والتراث السرديÙ ص: 65.

[2] – نفسهÙ ص: 50.

[3] - نيقولا زيادةÙ الجغرافية والرحلاK عند العربÙ ص: 206.

0 - كلمـة للمؤلف ترجم فيها لصاحب الرحلة وأماكن دراسته وشيوخه مع ذكر ميلاده في أقل من صفحة.

1- مقدمة المؤلف وهي طويلة نسبيا وتتكون من العناصر التالية:

- الديباجة المألوفة (الحمدلة و الصلاة والسلام على النبي الكريم).
- مآثر الحج وتشوق الرحال له منذ صغره.
- حجته الأولى سنة1059هـ والثانية سنة 1064هـ.
- كثرا الفتن بالمغرب وانتشار المجاعة.
- الحجة الثالثة سنة 1072هـ ومدحه للرسول صلى الله عليه وسلم.
- الاستخارا والاستغاثة التهيؤ للسفر.
- توديع الأهل زيارا بعض قبور الصالحين والمسجد.
- الخروج إلى سجلماسة أول الشتاء بالتقويم المحلي.

II- الـ ƙـ Ǻ ـ ƹ

ǫ-ﻟﺬǥƘƙ ويشتمل على الوحدا Ƙ التالية

1.الخروج من البلاد   ƒ 13-17 ص5

2.الخروج من سلجماسة (جبير الحمام اللحن في الشعر.   ƒ :17-20 ص3

3- بلاد توا Ƙ   ƒ :20-39 ص19

- عبد الله بن طمطم وزاويته- عادا أهل توا Ƙ في السلام
- محمد الخزرجي وزاويته
- سؤال فقهي- رؤية النبي صلعم الرؤيا في النوم

4. الخروج من بلاد أوجر Ƙ   ƒ :39-45 ص6

- محمد بن إسماعيل الكوراني كتبه سيدى الشيخ

5. الدخول لواركلا   ƒ :45-48 ص3

- [الإباضية أبواب الموتى]

6. الـرحيل من واركلا   ƒ :48-60 ص12

-عادا Ƙ قبر سيدى محمد الجلاني الحر ƚ على البقر .

- قبر سيدي كناوي نΣور الإبل

7- دخول مدينة طرابلΣ   ص: 60-88 ÜΘ18.

- سيدي محمد بن مساهل الآذان خلف المسافري دوي في البحر

- حكام طرابلΣ من الأتراك رسائل المΣاف من طرابلΣ.

8- الرحيل من مدينة طرابلΣ   ص: 88-91ÜΘ91 .

9- درن   ص: 91-92 ÜΘ3.

10- مدينة لبده -عرΣ الزيتون   ص: 19-93 ÜΘ1

11- ساحل حامد   - قبر سيدي مΣتاΘ.   ص: 93 . Θ1

12- بلدا زلتين   - قبر سيدي عبد السلام الأسمر- سيدي بن نجيب.

-أمر زيارا حمزا مناماي الوزY وتغذيته).   ص 94-96.Θ2

13- مسراته النزول بقبر الشيخ زروق   ص: 96 -103.Θ7

- (قبره تركته سيدي فتح ا)

14- مدينة اليهودية   ص: 103-104 .Θ1

15- برقة (من ماK بها من الΤحابة الجبل الأخضر)   ص: 104-108 .Θ4

16- مدينة درنه (الزطاطه حميمة)   ص: 108 -116 .Θ8

17- وادي الرهبان- وادي البطرون   ص: 116-125.Θ9

18- الدخول إلى القاهرا   ص: 125-157.Θ32

-الشيخ إبراهيم الميموني ţ عبد السلام اللقاني

ţ - سلطان وأخلاقه ţ موسى القلبي

- عاداتهم في ختم الدروΣ ţ عمر فكرون)

- زيارا القرافة نساء يزرن القبور- ليلة العيد القهوا وبسط الكلام فيها

- مراسK العياشي لشيوخه يوم العيد -الثناء على الشيوخ

- البيضاوي يΣاف التΣسير- السلطان سليم وأفعاله في مΤر

- علماء مΤر : - ţ أبو الحسن السبرماسي النور المحمدي

- ţ عبد الجواد الطريني ţ على الΤوفي- وعدا آية الكرسي

- طواف الإفاضةՙ ما يتعلق أهل مصر والشام
- ţ سليمان الأحسائيՙ الإحرام من التنعيم للعمرا
- ţ :جمال الدين الهندي - جمال الدين النقشبندي - زين العابدين الطبري
- نية المجاورا للمؤلف –لبس الخرق الثمانية
- إجازا الثعالبيՙ الثناء على الشاذلية والنقشبندية .
- وصايا الشيخ عبد الخالق الخوجة - قصد المؤلف من رحلته.
- الدار التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلمՙ مولد فاطمة.

33- الخروج من مكة.. ص 226-235 9θ

34- الدخول إلى المدينة المنورا ص 235-90 من جII 311θ

-(خروج أصحاب المؤلفՙ زيارا البقيعՙ وما يزار بالمدينة)
-خروج الركب المصري من المدينة وما يتعلق أيام الإقامة.
- بناء المدينةՙ وعاداتهم- الركب الشامي.
- المساجد التي تزار بالمدينة.
-أحد وما به من مشاهد: - خروج أهل المدينة لقبر حمزا
– منا كر تقع - الأكل من نبات أحد (نبات الحرم)
- الآبارՙ العين الزرقاء- أودية المدينة
- (إقامة المؤلف بالمدينة ՙ تدريسه فيها)
- الركب العراقي إلى المدينة (مكوس الطريقՙ مذاكرا مع المعتزلة)
-ما يتعلق أهل المدينة في المولد الشريف - عادا يوم الجمعة.
- الخطة موزعة على الفقهاء - شراء المناصب
- عطلة الجمعة والثلاثاءՙ- التهنئة في أول الشهرՙ
- الصلاة في أول الوقت- عاداتهم في الصلاة- إدخال الجنائز إلى الحرم.
- الاستعداد للبردՙ أسقام المدينة – الولوع باللحم-مطرعظيم بالمدينة
- ما يسمع ليلاՙ بالروضة الشريفةՙ مبالغة في الدعاء لماII الترا.
- إمارا الحرمين- قدوم أهل مكة للرجبية-عادا الأعراب في الوداع

- أعراب الحجاز وجهلهم- رجوع أهل مكة من الرجبية .
- لقائه لمشائخ المدينة
- ţ علي بن محمد الربيع (البقيع يفني أجساد الموتى بسرعة.)
- ţ المنلا إبراهيم الكوراني(غرامه بابن عربي- بركة كلام ابن العربي)
- مكانة المنلا والقشاشي- اجتماع المؤلف بالمنلا- الحديث المسلسل
- قراءة المؤلف على المنلا شرح الهداية التحفة المرسلة- ونحوها
- ţ عبد الجليل المغربي ... كتب ابن العربي. الحلم والعمرا عن آدم.
- ولادا ابن العربي- رجال الغيب .
- منهاج العابدين- مفتاح الفلاح لأبن عطاء .
- رسالة أخرى الأسماء الإدريسية. عزيمة لأم الصبيان.
- ما يكتب للحمى- ما يكتب للمصروع وللجان.-أسرار الفاتحة .
- ماينسب لأهل المذاهب وهم بريئون منه.
- ţ القشاشي-طريقته- القشاوى والشناوى. الثناء على ميزان الشعراني.
- تآليف الشناوى – وشيوخه- وفاته.
- لقاء المؤلف للقشاشي- الحث على الطريقة الشاذلية.
- تآليف القشاشي -رسالة الشيخ سالم شيخان-الوجود المطلق-رسالة للمنلا.
- ţ ياسين.- ţ إبراهيم بن خير الدين .- ţ نور الدين الهندى.
- ţ جمال الدين المهتدى النقشبندى.
- ţ أحمد بن التاج –كتاب الجفر الكبير f 2 من ج I
- من تآليفه: شرح على منية ابن غازى. f 17
- ţ : داود الانطاكي وحكاية عجيبة . f 2
- ţ : عبد العزيز الزمزمي المكي f 28
- من تآليف ابن التاج: السفينة.
- سيدى محمد بن سليمان الروداني- f 30
- الزياني – أخباره: عزلته وورعه وحرفته f 44-32

- آلة التوقيƘ- قŢيدا ع ريبة الشكل
- ţ حسن البرǏ. 45 f
- ţ محمد الǃزارǏ. 46 f
- أحمد بن محمد المالكي قŢيدتان ǊǋǄ مراسلة المǔلف ǋǊ 53-47 f
- ţ يحيǏ الأحسائي مراسلتǋǊ للمǔلف بلغز وإجابتǋǊ 56-53 f
- ţ إبراهيم الأحجار 56 f
- ţ علي الضرير المالكيǃ علي السودانيǃ محمد بن رسول 57 f
- المǓ ناǆƴ العجميǃ أحمد البرǏ 58 f
- مختاراƘ المǔلف من طبقاƘ السبكي 58 f
- ţ موز الشامي 85 f
- ţ عبد ا بن ǆمن العمودǏ (وحشي قاتل حمزا) 87 f
- نسب الشيǊ محمد باعلي 89 f
- ţ مŢطǃǏ (جمال الدين النقشبندǏ) 90 f

35- الخروج من المدينة إلǏ مكة ج II 284-91 f 193Ɵ

- سيل عǋيم في مكةǃ رمضان في مكة...فتوة ǎ فقهية 100-95 f
- فتǑ البيƘ سبƴ مراƘ 100 f
- ذهاب المǔلف لجدا
- قŢيدا في مدƟ النبيǃ تحديد السقف الأعلǏ للبيƘ
- جبل حراǃǑ الجعرانة.ذهاب المǔلف للطائف]
- ţ عبد العزيزǃ...التواتيǃ إجازتǋǊ للمǔلف 125-115 f

من لقيهم من الشيوǊ بمكة : 125 f

- زين العابدين الطبرǏ
- سيدǏ عيسǏ الǂعالبي فهرستǋǊ كنز الرواا 211-126 f
- ţ حسن العجمي الطرǇ الŢوفية 225-212 f
- ţ سيدǏ أحمد بن علي باقشرǃ و ţ الحجاز 226 f

45- الخروج من عزا والوţول للخان | f 353-352 1θ

46- الخروج من الخان والوţول إلآ العريţ | f 354-353 2θ

47- من العريţ إلآ دمياط. - ţ عبد ا الدمياطي. | f 256-254 2 θ

48- المنية- المشعوذ | f 357 θ أقل من ţحة

49- الوţول إلآ مţر | f 359-357 1θ

50- الخروج من مţر | f 360 1θ

51- الوţول إلآ الإسكندرية | f 368-360 8θ

- زيارا أبي العباΣ المرسآ السK نعيمة

-عجائب الإسكندرية مزاراتها- قţائد في مدθ أبي العباΣ المرسآ

52- الارتحال من الإسكندرية (أجرا الدليل والإبل) | f 372-368 4θ

53- دخول لقţر أحمر – بلد الشيخ زروق. | f 378 2θ.

54- دخول طرابلΣ: انتهاك تخميΣ البردا | f :380-403 23θ.

- الشيخ عاشور القسنطيني.قţيدا للمؤلف-سيدآ عبد الكريم التكون تأليف والده

- ديوان في مدθ النبي ţلآ ا عليه وسلم- في تحريم الدخان تلخيf ذلك.

55- الخروج من طرابلΣ | f 407-403 4θ

56- الدخول إلآ توزر | f 408-407 1θ

-سيدآ ţحراوآ أحمد بن عبد ا - مزاراK أحمد بن العاţي الدباسي)

57- الارتحال من توزر | f 411-409 2θ

58- الدخول إلآ بسكرا | f 413-411 2θ

59- الخروج من بسكرا والمرور بزاوية ألأخضرآ | f 417-413 4θ

قبر خالد بن سنان- قţيدا في مدحه-

60- نزول العقارب | f 420-417 3θ

61- وادآ الناموΣ | f 422-420 2θ

62- الوţول إلآ بلاده | f 422.

III - الخاتمـة: وتشتمل علآ العناţر التالية: | ج2 f : 422.

- تاريخ الوصول وهو شهر شوال من عام (1074هـ).
- الحمد على نعمة الاستقرار بعد الأسفار.
- الصلاة على النبي المختـــار.
- التضرع للعزيز الغفـــــار.

ثم إعلان عن نهاية الكتاب ودعاء آخر يبدو أنه للناسخ.

ثـم أتبعت الرحلة بتذييل للمؤرخ خليل بن أحمد الحسني الخالدي متبوعة هي الأخرى بتقـريظات شـعرية ونثـرية لكـل ذلك ممتد على ما يقارب ست صفحات من "*1-6*".

<u>الهيكلـــــة العامـــــــة</u>

بعـد الاسـتعراض التفصيلي للوحدات المكونة لهذا السفر المؤلف من جزأين كاملين والـذي يبلغ مجموع صفحاتهما خمسا وسبعين وثمانمائة صفحة نقوم بنظرة فاحصة لهذا الهيكل الضخم المشكل كالآتي:

<u>فالمقدمـة:</u> فيها إحدى عشرة صفحة ص 2-13.

<u>و الســفـر:</u> يشتمل على المراحل الآتية:

أ. مرحلة الذهاب بست وسبعين ومائة صفحة. ص 13-189

ب. البقاع المقدسة بتسع وستين وخمسمائة صفحة. ص 190 ج1-303 ج2

ج. مرحلة العودة بتسع عشرة صفحة ومائة. ص 303-422 ج1

أما **<u>الخـاتـمــة:</u>** فلا تتجاوز عشرة أسطر.

بالنظـر إلـى هذه الأرقام نجد أن ما يخص البقاع المقدسة يقارب الثلثين ويشكل الذهاب والإيـاب أكثـر من الثلث قليلا وهذا مؤشر على الحجم الورقي المخصص لكل مرحلة و مرحلة الذهاب أكثر حجما من مرحلة العودة.

أمـا مـرحلة المكـوث والمجـاورة في البقاع المقدسة فتشتمل على التعريف بالعلماء ومؤلفاتهم والاهتمام بتاريخ المدينة الطبيعي والاجتماعي.

فإذا نظرنا إلى الوحدات الصغرى التي تتألف منها كل وحدة كبرى نجد مايلي:

أ- مـرحلة الـذهاب: مكونة من إحدى وثلاثين وحدة تتراوح بين صفحة و اثنتين وثلاثين صفحة وهي على النحو التالي:

- إحدă وعشرون وحدا ما بين Ţ ةحة إلĬ خمΣ Ţ ةحاĶ.
- خمΣ وحداĶ ما بين سĶ Ţ ةحاĶ إلĬ تسعة.
- أربŷ وحداĶ من عشر Ţ ةحاĶ إلĬ تسŷ عشرا Ţ ةحة.
- وحدا واحدا باثنتين وثŭثين Ţ ةحة.

ب- مرحلة الوŢول إلĬ البقاŶ المقدسة وفيها سĶ وحداĶ بحجم ورقي قدره خمسمائة وتسŷ وستون Ţ ةحةƇ وترتيبها حسب الحجم الورقي كالتالي:

- الوحدا 36 = 03 ţ .
- الوحدا 33 = 09 ţ .
- الوحدا 37= 13 ţ .
- الوحدا 32= 36 ţ .
- الوحدا 35=193 ţ .
- الوحدا 43=311 ţ .

فالمجموŶ الورقي المخŢ ţ لهذه الوحداĶ السĶ 365 Ţ ةحة وبإضافة الأسطر من هنا وهـناƘ يŢـبƠ الحجـم ثŭثمائة وتسعا وستينƇ ونرă أن أقل الوحداĶ ثŭ ŧ Ţ ةحاĶ وأكثرها ثŭثمائة وإحدă عشرا Ţ ةحة.

ج - مرحلة العودا وفيها أربŷ وعشرون وحدا موزعة كالتالي:

- وحدا واحدا بتسعة أسطرƇ وهي الأخيرا رقم 62.
- ثماني وحداĶ بحجم Ţ ةحة واحدا.
- خمΣ وحداĶ بحجم Ţ ةحتين للوحدا.
- وحدا واحدا بثŭ ŧ Ţ ةحاĶ.
- خمΣ وحداĶ بأربŷ Ţ ةحاĶ للوحدا.
- وحدا واحدا بسĶ Ţ ةحاĶ.
- وحدا واحدا بثماني Ţ ةحاĶ .
- وحدا بثŭ ŧ وعشرين Ţ ةحة
- وحدا بتسŷ وعشرين Ţ ةحة

إن حجم الوحداĶ يبين المواطن التي يسترسل فيها السارد في الحكي مما يستدعي التذكير بالأسباب التي تعود في ƹالبها إلĂالهدف التعليمي.

<u>:nj__ƛƖƸϢƖϷ ǫƘŏ__ǫǁèl</u>

الرحلة في انتظامها، خاضعة للتنقل، وهي ذات خط واحد، لذا يحكم متوالياتها ويضمها إلى بعضها الرابط الزماني والمكاني اللذين ينتظمان حركة السفر، فهي ذات خط أفقي غاية الوصول إلى نقطة ما ثم العودة، ونقطة البداية تحسب من الانطلاق ذهابا حتى الوصول إلى الهدف، وقد يستريح الرحال مدة زمنية ما، قبل أن يبدأ خط الرجعة.

وصول إلى البقاع المقدسة

الذهاب(أ)

(ب)

الانطلاق

العودة(ج)

الوصول (د)

وغالبا ما تكون نقطة الانطلاق غير مضخمة، في حين تسلط الأضواء على نقطة الوصول إلى الأهداف بشكل واسع، وتكون العودة على الخط نفسه أو قريب منه، مما يجعل وحدات الذهاب أكثر امتلاء بالحدث، والقول من خط العودة، إذا سلك السارد الطريق نفسها، أما إذا غير الطريق فيتخذ السرد مسارا آخر حسب اللافت للانتباه.

وإذا كان الرابط بين الوحدات الكبرى هو فعل التنقل في فضاء ما[1]، فإن هذه الوحدات تشتمل على وحدات صغرى، والوحدات الصغرى تشتمل على وحدات أصغر وهكذا ...

والرابط بين وحدة صغرى ومكوناتها ليس زمنيا باستمرار إذ غالبا ما يخضع لعلاقات موضوعية، وعلاقات سببية، ويمكن أن تتضخم وحدة ما بمسرودات تحدث وظيفة التفسير عن طريق المشابهة أو التضاد أو ما إلى ذلك، كما توجد مسرودات لا نعتقد أن لها وظائف فاعلة، وإنما هي من باب "الطرافة" أوردها السارد، إيفاء بمنهجه الذي يقتضي أن يسرد على أهل بلاده ما يعود عليهم بالنفع من مشاهدات، ونقل الكتب التي لا تتوفر لديهم، وكل ما يتزود به اللبيب لتكون الرحلة غنية في بابها عن غيرها.

وتقسيمنا الرحلة إلى هذا العدد تقسيما تقريبيا. إذ أن الرحال يقيم بمكان ويرحل عنه ولا يذكره إلا " بمررنا بـ..." أو " أقمنا بـ " ، وقد لا يذكره إلا بعد مدة فيقول: " وبعد

---

[1] - برنار فاليط، النص الروائي، تقنيات ومناهج، تر: رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة للمطابع الأميرية ط، سنة1999م، ص: 87.

كـذا من يوم و Ţ لنا إلƗ... " مما يجعل هذه الوحداƘ خاوية من الخطاب السردƗŮ مهملة من حيƅ الأحداƅ الƃفتةŮ ويمكن أيضا أن نهمل بنƋƩ الكيƼية بعƯ الوحداƘ الƬ Ţغيرا الحجـم ولكـنا أبقيناها معالم لازمةŮفالرابط بين الوحداƘ هو الزمن الطبيعي الذƗ يتم فيƌ فعـل الحركة والتنقل وفيƌ نجد "نوعا من السببية الغائية" [1]Ů أƗ أن السارد معني بالهدف الـذƗ هو غايتƌŮ وكƋن السببية حينئذ ليسƘ خلƼية وإنما هي أمامية علƑ أن الخيط الزمني وحده كاف ليكوƉن لدينا الترابط في الرحلةŮ وينقلنا من مكان لآخر.

فالسـارد حـين يƢل إلƑ وحدا ما تتمتƲ بجاذبية ماŮ يقوم بتمديد السردŮ إذ لا يكتƼي حينـئذ بذكـر المراحلŮ وإنما يوسƲ دائرا الاهتمامŮ فƎذا بƌ ينقل عادا أو يتƢل بشيƅ أو يحكـي عـن تاريƣ مكان أو شخƢيةŮ أو يƘخذه ذاƋ إلƑ ذكر مƄƋƘ ومروياƘ أخرƐŮ وهـنا " يمكن لهذه الوحداƘ المتجاورا من وجهة نƲار المحاكاƋ أن تكون وحداƘ منƋƢلة عن طريƀ سلسلة من عملياƘ الإدراج التي تنتمي إلƑ مجالاƘ وƲيƼية جد متباينةŮ وهكذا ينشـƋ ضرب من الزمن المنطقي الذƗ ليسƘ لƌ سوƐ عƚقة واهية بالزمن الواقعيŮ فƎما التبعƒـر الƲاهـرƗ للوحداƘ فيƲل قائما باستمرار..."[2] فالسارد حين ينقلنا إلƑ وحدا ما يƘخذ بƋذهاننا عن طريƀ العƚقة المكانية الموضوعية ƋƯ يسترسل عن طريƀ الاستطراداƘ مـن نƢ إلƑ آخرŮ مما يوجد زمنا آخر ينشƋ مƲ الخطاباƘ المتجاورا فيتكون لدينا حدƩ بنائـي مـا يـربط تلـƃ المسروداƘŮ فننساƀ معƌ ناسين زمن الرحلة وامتداده الأفقيŮ مسـتغرقين فـي الاسترجاعاƘ التي يقدمها السارد عن طريƀ الأحداƅ أو الشخƢياƘ أو المعـارفŮ وحـين ننƲـر ƲاهريƋ إلƑ السرد نجد الروابط الƼعلية شبƌ واهية لما يقوم بƌ السارد من ممارسة سلطة خƼية شبƌ إيهاميةŮ علƑ القارƏŮ المتشوƀ باستمرار إلƑ الجديد الطـريف.وعليƌ فƎنƌ ينبغي أن ننشرƓ في التحليل لتبيان كيƼية انتƲام الوحداƘ الكبرƐ ƋƯ كيƼية تƋرعها إلƑ وحداƘ ƢغرƐ وأƢغر...

فالوحداƘ الكبرƐ في الرحلة العياشية تكون معنونة في منتƢف السطرŮ وبخط مغاير للمتن من حيƅ الحجم مƙل: ذكر **خروجنا من سجلماسة**Ů والدارƩ لم يتبƲ هذه العناوين

---

(1)– شلوميƘ ريمون كنعانŮ التخييل القƢƢي... ƭ :34.

(2) – رولان بارƅŮ التحليل البنيوƗ للسردŮ تر حسن بحراوƗ وأخرƐŮ طرائƀ تحليل السرد الأدبيŮ ƭ :31.

كمعالم للوحدات باستمرار، لأنه يجد بعض الوحدات مدرجة ضمن المتن بلا عنوان مثل **بلاد توات** أو الدخول لـ **وركلة**، أو الارتحال من وركلة، وذلك أن السارد لا يعنون إلا المدن الكبيرة وما يراه ذا بال، في حين اعتمدنا في تقسيم الوحدات على وجود السعة السردية، فكلما وجدنا حجما ورقيا في مدينة خصصنا له وحدة، وقد يمهد السارد بخطاب مناسب ليدخلنا في الوحدة الموالية ويغلق الوحدة التي هو فيها، فحينما كان في سجلماسة قال: " اشتريت آخر بسجلماسة وأعطيت أفضلها (الخيل) لأمير الركب، واستصحبت الثلاثة الباقية إلى توات، وكتب الأمير أيده الله إلى عماله فيما استقبلنا من البلاد أن يمدونا بالمحتاج من علف إلى توات."[1] وهكذا تنغلق وحدة سلجماسة لتبدأ وحدة توات.

وبعد مراحل عديدة يوجزها ويكتفي ببعض الأحداث البسيطة، يختم الوحدة بقوله: "...وما سرنا قط مرحلة مثلها... ولا يكثر بها الزلات ويجعلها آخر ما نلقاه من المشقات ثم ارتحلنا منها ودخلنا أول عمالة توات"[2]، أو كقوله: " .. ثم ارتحلنا... قاصدين إلى مدينة طرابلس أمنها الله وبينها وبين هذه البلاد (زنزور) نحو من اثني عشر ميلا."[3]، إلا أن العياشي لا يذكر المسافة باستمرار. وبعد هذه الجملة التمهيدية التي يغلق بها وحدة ويمهد لأخرى يضع عنوان: " ذكر دخولنا لمدينة طرابلس..." ثم يسترسل في السرد قائلا: "كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب..." [4]

وقل أن يحيد عن هذا النهج في ربطه بين الوحدات في الجزأين معا، فمن الجزء الثاني قوله حينما أراد الخروج من المدينة عائدا :" وأقمنا بالمدينة خمسة أيام، وكأنها طيف منام، فتهيأ الرحيل ودنا، ولم نظفر بالمنا، وعاقتنا أشغال السفر عن ملازمة الحرم.. "، ثم وضع عنوانا ذكر الخروج من المدينة المشرفة، ثم يستأنف السرد قائلا :" فكان سفرنا من المدينة المشرفة على ساكنيها أفضل الصلاة والسلام عشية يوم الخميس..."[1]

---

(1) –أبو سالم العياشي سيدي عبد الله، الرحلة العياشية، ماء الموائد، مصورا بالأوفسيط، ط2، الرباط، 1977، ج1، ص 17

(2) – نفسه، ص: 20.

(3) – نفسه، ج1، ص: 60.

(4) – نفسه، ج1، ص: 60.

(1) – المصدر السابق، ج2، ص: 297.

ويمكن القول أن الروابط بين الوحدات في غاية المتانة، مما يشعرنا بدقة التأليف ومراعاة الانتقال السليم من موضوع إلى آخر و من مكان إلى الذي يليه.

أما الوحدات الثلاث الأخيرة فلها نظام آخر، فلنقف قليلا عند الوحدة السادسة المعنونة بـ (الرحيل من واركلا، ص: 48-60.) إذ يستهلها بلا عنوان بقوله: " ثم ارتحلنا من واركلا يوم الاثنين " ويذكر المراحل والقرى التي مر بها ركب الحجيج، ويكون دور السرد بصيغة " ثم ارتحلنا ". التي هي المحفز على الانتقال. ثم نجد " لطيفة "، في قوله: " **لطيفة** شاهدنا من عجائب الله في ذلك اليوم خروج النبات من الأرض في تلك الليلة بذلك المطر وظهر على وجه الأرض خضرا، ولم نعهد مثل ذلك ..."[2] ثم يستأنف السرد، فنجد "**غريبة**" وهي قريبة في الاستعمال من لطيفة كقوله: " **غريبة** وقد وجدنا في تلك المزارع قوما يحرثون ببقرة واحدة "، ولم يعهد مثل ذلك في بلادنا، وما زلنا نتعجب منه حتى رأينا آخر يحرث ببعير، فأنسانا الأول وطال تعجبنا منه. وما قضينا العجب منه حتى رأينا أعجب منه. إنسان يحرث بإنسان آخر، يمسك أحدهم المحراث ويجر الآخر، ولم نملك أنفسنا أن نزلنا عن الرواحل للتفرج فيهم..."[3].

والغريبة بهذا تدل على تفرد غير مألوف، في حين تدل اللطيفة على سر خفي وقف عليه السارد، وأراد التنبيه إليه.

وقد ينتهي من مضمون غريبة ليسرد غريبة أخرى، أو يردف لطيفة بأخرى وثالثة

وهكذا نجد السارد يلون السرد ويحركه بواسطة ثلاث كلمات: " ثم ارتحلنا"، "لطيفة" "غريبة"، ومما يحرك السرد أيضا الماضي المسند إلى ضمير المتكلم "ومررنا" [4]، وتستعمل حين لا يخبر عن المكان وأهله إلا قليلا، فكأنها نوع من الاختصار في القول، وهي متعددة يمكن حصرها كالتالي: [illegible]:

- الصيغ الدالة على الإقامة والترحال مثل: ثم ارتحلنا، ثم سرنا، ثم ذهبنا، ثم تجاوزنا، وكان رحيلنا يوم...، وكان نزولنا...، وبتنا، ولما خرجنا، وزرنا، وأصبحنا.

---

(2) – نفسه، ج1، ص: 52.

(3) – نفسه، ج1، ص 54.

(4) – نفسه، ج1، ص: 54، 59، 90، 94، 100، 105...

- الصيغ الدالة على توثيق الخبر والحديث مثل: ومن ذلك ...أخبرنا، وقد أخبرني...، وقد ذكر لي...، وقد ذكر فلان ...، وحدثني...

وهي صيغ إسنادية يمكن أن نضيف إليها "وقد ذكر المؤرخون" "وقد قال بعض العلماء".

-الصيغ الدالة على التعليق أو الاستشهاد بقول غيره: قلت...، وقد قلت...، فأقول قال فلان...، وهـذا مـا قلته...، وفي ذلك قلت...، وعند التقييد والموافقة على رأي غيره يستعمل " نعم..."

- وفي تذييل القول يستعمل أما... ومن ذلك... واعلم...

وبعد النقل يحافظ على النظام المستعمل من قبل المؤلف الذي نقل عنه – كقوله : " فأقول قـال الشيخ تاج الدين في بعض رسائله ما نصه: فصل في طريق الوصول إلى الله تعالى علـى طريقة السادات النقشبندية..."[1] أما إذا قطع نصا ثم عاد إليه فإنه يستعمل "تتمة في ذكر" أوتتميم، وقد يشعر بالاستطراد والخروج إلى موضوعات جر إليها النقاش فيستعمل "رجوع أو انعطاف"[2] أو صيغة "فلنرجع إلى ذكر"

صيغ الشعر مثل: وكنت كثيرا ما أنشد قولي[3]، وفي ذلك قلت، وفي ذلك أنشدت، وقد يستعمل صيغة "ولنذكر هنا هذه القصيدة.."، وقد يستعمل "قال الشاعر"

والخلاصـة أنه حين يذكر شعره غالبا ما يستعمل وأنشدت أو قلت أما حين ينقل عن غيره فيستعمل الصيغ المألوفة.

وقد يستعمل السارد "عجيبة " أو "ومن العجائب" أو "أعجوبة".

وفي المبشرات يستعمل رأيت، ومما رأيته، سواء كانت الرؤية في الكتب أوفي الطبيعة.

وفي إطار المحاورات يستعمل وقد أجابني، وممن أجاب، فأجبته، وجوابي، وفي إيراد الحجـج يسـتعمل: وقـد قال، وقد ورد، وقد قال فلان، وأما فلان، وفي إطار المحاورات الذاتية يستعمل: قلت...فإن قيل...

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 213.

(2) – نفسه، ص : 176،185،189.

(3) – نفسه، ج1، ص: 124/ ص: 61/ ج2، ص: 244.

(4) - ننفسه، ج1، ص:124، 61. ج2، ص:244.

أمـا مـع الشـيوخ فيستعمل قرأت عليه، ومما سمعته بقراءة غيري، ومما أفادنيه، ومن فـوائده فـهذا ذكـر أسانيد الشيخ قال: وأما أسانيده، وممن لقيه الشيخ أو من سمع عنه أصـحاب الشـيخ، ومن تآليفه، ومن مروياته، ومما رويناه عنه، وقد يستعمل مع الشيوخ أخبرني عنه إجازة، وقد استجزته... فأجازني، ومما أدرجه في كتابه. وقد يستعمل "تنبيه" على قلة، هذه أهم صيغ الأداء، وهي في مجملها تحدد نوع الخطاب الذي يأتي بعدها، من كونه سردا أو حوارا، أو نقلا عن كتاب أو عن راوٍ، كما تحدد قناة التواصل من رؤية أو قـراءة أو اسـتماع. ولقـد أشار يقطين إلى هذا التعدد بقوله: " تتعدد صيغ الأداء بتعدد المـتكلمين ونـوعها، وهـذه الصيغ ذات إيحاءات خاصة ودلالات محددة، وهي تستدعي دراسة متأنية، لأنها تفيدنا كثيرا في تعيين أقسام الكلام وأصنافه." [1]

إن صيغ الأداء تحدد أقسام الكلام وأصنافه، وتربط بين ما قبلها وما بعدها لـذا يعتمد عليها كثيرا في انتظام الخطاب، فإذا أخذنا مثلا وحدة صغرى وحللنا مقاطعها لمعرفة كيفية الانتقال من كلام إلى آخر فستعيننا الصيغ على ذلك.

فالـوحدة الرابعة والخمسون معنونة بـ" دخول طرابلس". وهي من الوحدات المتوسطة مـن حـيث الحجـم[2]، والسارد لم يعنون الوحدة وإنما قال:" ودخلنا المدينة قبيل غروب الشـمس آخـر يوم الجمعة الرابع من رجب..." فصيغة (دخلنا) فتحت وحدة سردية.ومن ذلـك: " وورد علـي فـي طرابلس صاحبنا سيدي أبو راوي من حفدة الشيخ سيدي عبد السلام...وجاء-ونحن هناك-مركب معهم كتاب من الخاقان الأعظم يأمر فيه بالزينة التي جاء خبرها ونحن بمصر... فزينت طرابلس سبعة أيام بلياليها على نحو ما وقع بمصر." ثـم قال " ودخل علينا في طرابلس ركب أهل تونس...وجاء معهم الشيخ العلامة...سيدي عاشور القسنطيني، ارتحل إلى الحجاز بجميع أسبابه وحمل معه جميع كتبه.ولما أراد أن يخبـرنا بلقائه قـال: "وممـن لقيته بطرابلس فتيها الشاب الظريف... " وحين أراد الاسـتطراد قـال: الحـديث شجون سيما عند إرادة تكثير الفوائد وجمع الفنون، والشيء بالشـيء يذكر ووصل فائدة بمشابهها لا ينكر..." وبهذا التعليل للاستطراد يقدم مخاطبه

---

(1)سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص: 158.

(2) – أبو سالم العياشي،الرحلة،ج2، ص: 380-403.

شعرية بينǐ وبين أحد القضاČ في موضوŸ استعارا كتاب يذكر فيǐ ما كتبǐ وما أجاب بǐ ŧـاحبǐ- ونجـد هـنا-و"نـ f ما كتبƘ" "وقد أجاب"ǔ ونـ f قŧيدتǐ التي أجاب بهاǔ وتستغرƀ المكاتباƘ الشعرية أربŶ ŧفحاƘ.

وأشار إلǍ ما وŧلǐ من مكاتباƘ من المغرب مŶ ركب الحجيŝ فذكر بعضهاǔ ƅم استعمل المŧـطلƟ "فقـال منشدا" فذكر قŧيدا من أربعة وƊƛين بيتاǔ ƅم استƊنف لقاČاتǐ للشيوơ فقـال: " وممن لقيتǐ بطرابلƩ الشيơ الفقيǐ.. سيدƒ محمد بن العƛƀ الفهامة..سيدƒ عبد الكـريم بـن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني"[1]ǔ وبعد أن ذكر ترجمتǐ ينتقل إلǍ الحديƚ عن أبيǐ وعƚقة العياشي بǐǔ ƅم الحديƚ عن مƊلفاتǐ...ومنها ديوانǐ في مدƞ لنبي "ŧلعم" المرتب علǍ حروف المعجم بشيČ من لزوم ما لا يلزم[2]ǔ

ƅم ذكر أربŶ قŧائد منǐǔ ومن تƉليفǐ: " محدد السنان في نحور إخوان الدخان"ǔ والكتاب يتـناول بدعـة الدخانǔ وقد لخŧǐ في ƅماني ŧفحاƘ[3] ƅم انتقل إلǍ ذكر الارتحال من طرابلƩ فƏƜƀ وحدا وفقƟ أخرƐ.

وهكـذا نجد السارد/ المƊلف يراعي ŧيƷ الأداČ في معƢم الوحداƘ الŧغرƐǔ وهي بمƛابة روابط سردية تتيƟ لǐ أن يواŧل سرده وفƀ ما ارتƉǔ هذه الŧيƷ علǍ مدƐ ƅƛƚ وعشـرين ŧـفحة في الوحدا المذكورا تعتبر من معالم الخطاب وتنوعǐ من شعر ونƛرǔ ومن خبرǔ ورأƒ...ǔ وهكذا يمكن إجمال دلالاƘ ŧيƷ الأداČ فيما يلي:

1- ŧيƷ رابطة للقول بالمكان والزمان.

2- ŧيƷ رابطة للقول بالشخŧياƘ.

3- ŧيƷ مبينة لنوŸ القول منشودا ومكتوبا وشفويا.

وإلǍ جانب هذه الŧيƷ هناƁ روابط أخرƐ متعلقة بƏƀ الانتƢار إذ جرƘ العادا أن الرحال يكتب رحلتǐ بعد عودتǐǔ فكƉن الرحلة بهذا العرف تجعل قارئها يتوقŶ الخطواƘ الهيكلية لهاǔ من ذهاب ووŧول إلǍ البقاŸ المقدسة ƅم عودا إلǍ نقطة الانطƚƀ.

[1] – المŧدر السابƀ ǔ f :390.

[2] – نفسǐǔ f :391.

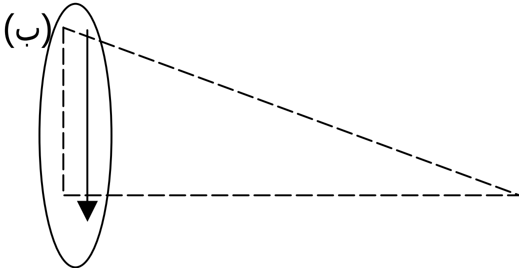
[3] – نفسǐ ǔ f :396ǔ 403.

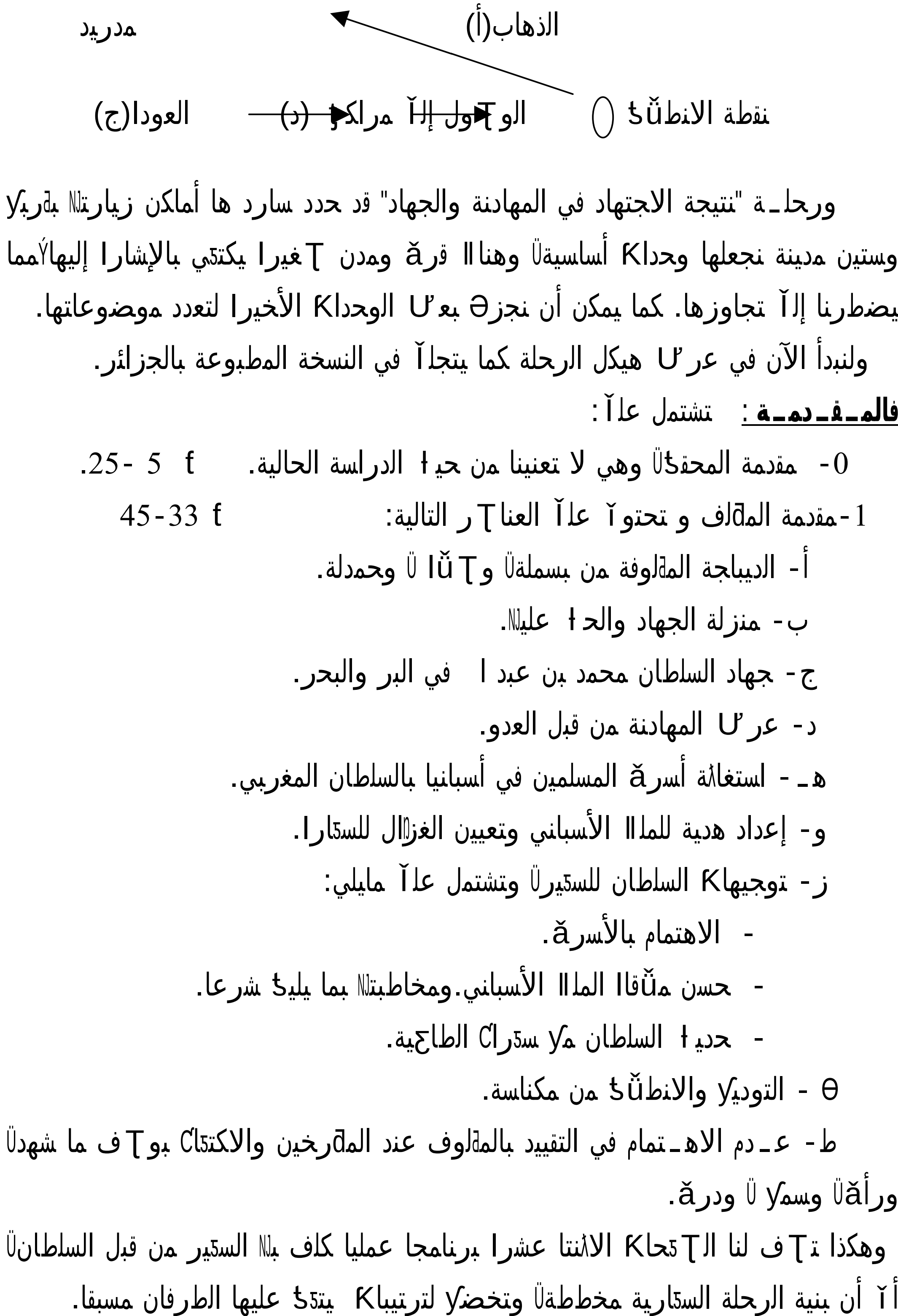
ورغـم ذلـك فإن نادرا ما إذا كان القارئ يتوقف أن تسرد كتب كاملة وتنقل حرفيا. هذه الغاية التعليمية التثقيفية التي ألزم العياشي بها نفسه قد لا يحتملها المتلقي، و هذا ما سبب نوعا من الثقل المضني لمتن الرحلة العياشية، إلا أن هذا الكم المعرفي الضخم كان فـي غايـة الأهمـية بالنسبة لفئة من الناس الذين يتلهفون للمعرفة الصوفية في حلقاتهم الدراسـية لـذلك سماها رحلته " ماء الموائد " إذ لا تخلو مائدة طعام من ماء فكذلك الرحلة اشتملت على عنصر الحياة الذي تتم به الصلات وترتقي به الأرواح إلى أعلى الدرجات.



ثالثا- بنيـة الرحلـة الحجازيـة

بعد قراءة [illegible] رحلات سابقة تبين أن بنيتها متقاربة، إذ كلها تشتمل على تمهيد تحدد فـيه الظروف العامة المقتضية للسفر، والأهداف المتوخاة منه، وبعد توضيح ذلك ضمن المقدمة يبدأ الإنجاز قصد تحقيق الأهداف، ثم العودة، فالوصول المقترن بالاستقبال، مما يجعلها من حيث البنية كالرحلات الحجازية ويمثلها الشكل التالي:





ورحلة "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد" قد حدد ساردها أماكن زيارته بقرابة وستين مدينة نجعلها وحدات أساسية وهناك قرى ومدن صغيرا يكتفي بالإشارا إليها مما يضطرنا إلى تجاوزها. كما يمكن أن نجزئ بعض الوحدات الأخيرا لتعدد موضوعاتها.

ولنبدأ الآن في عرض هيكل الرحلة كما يتجلى في النسخة المطبوعة بالجزائر.

فالمـقـدمـة : تشتمل على:

0- مقدمة المحقق وهي لا تعنينا من حيث الدراسة الحالية. ص 5 -25.

1- مقدمة المؤلف و تحتوي على العناصر التالية: ص 33-45

أ- الديباجة المألوفة من بسملة وصلاة وحمدلة.

ب- منزلة الجهاد والحث عليه.

ج- جهاد السلطان محمد بن عبد الله في البر والبحر.

د- عرض المهادنة من قبل العدو.

هـ- استغاثة أسرى المسلمين في أسبانيا بالسلطان المغربي.

و- إعداد هدية للملك الأسباني وتعيين الغزال للسفارا.

ز- توجيهات السلطان للسفير وتشتمل على مايلي:

- الاهتمام بالأسرى.
- حسن ملاقاة الملك الأسباني.ومخاطبته بما يليق شرعا.
- حديث السلطان مع سفراء الطاغية.

ح- التوديع والانطلاق من مكناسة.

ط- عـدم الاهـتمام في التقييد بالمألوف عند المؤرخين والاكتفاء بوصف ما شهده ورآه وسمعه ودرسه.

وهكذا تصف لنا المقدمة الاثنتا عشرة برنامجا عمليا كلف به السفير من قبل السلطان أي أن بنية الرحلة السفارية مخططة وتخضع لترتيبات يتفق عليها الطرفان مسبقا.

والسـ ـ2ـ ـر: يشـ ـتمل علـ ـ مرحلة الذهاب فالوصول إلى الغاياية ثم العودا إلى نقطة الانطلاق

:ك ـ ـ ـ ـ ـ ـ الجز-1

الانطلاق من طنجة والتحول إلى سبتة: 47-64 ق 1ه

1. الخبر عن مدينة سبتة 55-47 ق 8ه

[الاستقبال بالمداف النزول بدار الاستقبال وصف المسجد و كنيسة بيوم الموكب استعراض لكتـ ـارا الذنوب ونظام الاستعراض - أسوار المدينة حراستها نساء المدينة الاستقبال الحاكم - المرور بالمستشفى الباء المرضى - المواجهة للمرابطين المسلمين على الأسوار- التوديع.]

2.الخبر عن مدينة الجزيرة: 59-55 ق [أقل من ق]

[الاستقبال بالمداف وأعيان القوم النزول بدار خاصة إقبال القاضي والضباط للتحية استقبال النساء والتحية(رقصة الرجال و النساء.) وصف المدينة-(الانتقال على خيل خاصة إلى مدينة طريفة)

3- الخبر عن مدينة طريفة: 60-58 ق [صفحتان ونصف]

[الموكب الاستقبال دار الضيافة القريبة ووصفها وخدمها التوديع.

4- الخبر عن المدينة "مدنية" 66-60 ق 6ه

[الموكب الاستقبال دار النزول أوامر الملك حول المدن التي يمر بهاالوفد سهرا مع الأعيان ونسائهن البلاطة لعبة الثيران اكتراء الديار للفرجة المدينة وأزقتها الانتقال إلى مدينة خريز...]

-5 الخبر عن مدينة خريز: 71-66 ق 5ه

[استقبال بموسيقى وصف المدينة النزول بدار مختارا وصف البلاطة استقبال حاكم البلد وصف الجالسين على المدرج سهرا غنائية استغفار عن الحضور الإقامة خمسة أيام السير إلى لابريخة.]

6- الخبر عن مدينة لا بريخة 72-71 ق 1ه

وصف المدينة وأهلها والملاحة فيها المكلفون بإعداد الإقامة والاستقبال

7- الخبر بلفرنكا وبلاطيوس: 74-72 ق.

[موكب المدينتين: بلشكو المسلم أهل المدينتين ألقابهم موجودا بالمغرب الرحيل إلى أشبيلية.]

8- الخبر عن إشبيلية: 91-74 ق. 17ه

[منظرها استقبال دار النزول للمعتمد بن عباد نزهة في المدينة تفكيك قنطرا وتركيبها وصف رياض وصـ ـور التماثـ ـيل زيارا المسجد الأعظم استقبال ولد الحاكم الحديقة الأنس زيارا مصنع مستشفى للنساء] مراحل صنع المداف تعليم رجال البحرية سهرا على شرف الوفد التوديع السير إلى قرمونة.

9- الخبر عن مدينة قرمونة: 91 ق 1ه

[موقعها في حجر ربوا، الاستقبال بالخيول، دار الإقامة، أهلها، السير إلى مدينة القوينطي.]

10- الخبر عن مدينة القوينطي: f 92 Ü16θ سطرا

[موقعها على ربوا، أهلها، خنادق]

11- الخبر عن مدينة أسيخا: f 92-93 θ 1 Ü2/1

[استقبال، موقعها، أرجاؤها، أشجارها، حسنها، مسجدها، الإقامة بها، السير إلى الرملة.]

12- الخبر عن مدينة الرملة: f :93 θ > f

[الموقع، أهلها، دار النزول، سهرا بألعاب نارية، لوحة تأبين تاريخ، ورود السفير، السير إلى قرطبة.]

13- الحديث عن مدينة قرطبة f 95-103 θ8Ü 2/1 f

[مـوقعها- تعسف، الاستقبال، قنطرتها، دورها، الهتاف بنصر السلطان المغربي، دار النزول، موازنة بين ضيافة اشبيلية وقرطبة، مسجد قرطبة، السكنى بالمسجد، المحراب، الآيات المكتوبة بالمسجد، للنصارة فـي المسجد، خزانة الذخائر، مساكن القرايلة، ونورهم، عدد سواري المسجد 1228، أشجار الصحن أبوابه ستة عشر، سور المسجد وابراجه، الإقامة ثمانية أيام، السفير يحتج، أهل قرطبة، الانتقال إلى الكربي.

14-الخبر عن مدينة الكربي " El-carbio " f :103-104Ü9θ أسطر

- موقعها- بداوا أهلها، واديها، مداشرها، الإقامة بها يوم

15- الخبر عن مدينة أندوخر "Andojar" f :104-105 θ1

- موقعها، قنطرتها، مأواها، أهلها، ميلهم للإسلام، حفل بالمحارك، السفر ليلا لبايلن.

16- الخبر عن بايلن f 105-106Üθ1،2/1

[أهلها، أرجاؤها، قصبتها، ركوب الخيل، الجبال الشاهقة، النزول في دار خاصة، آخر إقليم الأندلس.

17- الخبر عن مدينة البيسيو " Elvisillo " f 106 θ9 أسطر

موقعها، أهلها – تخصصها في إنتاج البغال.

18- الخبر عن بلدبينيس "Valdenpenas" f 107 θ2/1 f

مكانتة المدينة وأهلها- نواحيها، النزول بدار عجيبة، السير ليلا إلى مدينة منسنارس.

19- الخبر عن مدينة منسنارس "Mansanares " f 107 θ1

[مكانتها، استقبا لها، دار الحاكم، حفل بساتين، السفر إلى أرنيسيا، المرور على بلزط.

20- الخبر عن مدينة أرنيسيا "Herencia " f 109 θ9 أسطر

- منزلتها، مأواها، أهلها، النزول بدار أحد التجار، تربية الحمير، الرحيل من طمبليكى.

21- الخبر عن مدينة طمبلكى "Tembleque " f 108-109Üθ7 أسطر

[مكانتها، مأواها، أهلها، الاحتفال بالمحارك، الصراخ بنصر السلطان- دار النزول، الانتقال إلى مورا.

22- الخبر عن مدينة مورا mora   f 109 8Ɵ أسطر

موقعهاÜ قṬبتها(اختṬا f العنب) بنيانهاÜ الإقامة بها والسّر إلĬ بŬشيا‌ا لاṬكĬ

23- بŬṬيا‌ا لاṬكĬ: f 1ƟÜ109 f

[مكانتهاÜأهلهاÜ دارالنزولÜنهربانطاخوÜحابةالṬيدوالوحو ţ Ü دارالطاحيةÜ قنطرا Ü كيفّية العبور]

24- الخبر عن مدينة إيŬṬكا f :   f 1Ɵ110 f

[مكانـتها- مŬقا‌ا الأهالي- بعدها عن مدريدÜ(مدينة الخطاف للجنودÜ رسل الما‌ا بحركة الوفد)Ü عادا الما‌ا في سكن الṬيف و الخريفÜالذهاب إلĬ مدريد و النزول في دار الما‌ا.]

25- الخبر عن مدينة مدريد: f :111-125Ü13Ɵ

اسـتقبال الوفد Ü كŁرا الأهاليÜ عدم قدرتهم علĬ الحربÜ انهزام المسلمينÜ السير وسط الجموƳÜ قنطرا بتسـعة أقواΣÜ الغاسŬƘÜÜالطرȤ مزينة بالأشجارÜالدخول بهيئة عƲيمةÜ النزول بدار الطاحيةÜ[موƘ أم الطاحية وضرب النواقيΣ تسعة أيام. احتجاب الطاحيةÜ[Ü دار النزولÜ اتساعهاÜ استقŬل كل"دار للقعود" بـنوƳ مـن الحجـاراÜ بسـاتين الدارÜ انتشار المراياÜ سقف القبة[سور البستانÜ طرقاÜ Ü دار الأسود Ü دارṬـناعة الفخار و...Üدار الحاكمÜ مخزن الأسلحةÜ بناƇÜ مدريد وطبقاتهاÜ شوارعهاÜ الإقامة أكŁر من شـهرÜ الخروج منÜÜاستراحة الما‌اÜÜالوṬول إلĂورامةÜ رسومالطريȤÜتسخير أسرă المسلمين في شȤ الطريȤÜعيادا أسرă المسلمين في المستشفĬÜ إخبارهم بṬلة سلطان المغرب.السير إلĬ مدينة لاكرانخة.

26- الخبر عن مدينة لاكرانخة "lacranja "   f 125-144 19Ɵ

[إقامـƘا للمـا‌اÜ بـناƋهاÜ مŬقا‌ا رجال الدولةÜ اعتذار عن التƋخيرÜ دار النزولÜ الاستقبال في دار الوزيرÜ الاستعداد للدخولÜ المستقبلونÜ الدخول علĬ الما‌ا Üالحوار حول السّر والاستقبال .السŬم علĬ أولاده وأخـيÜÜ تṬاويرÜ زيارا بستانÜ ṬهاريƝ Ü ṬÜ ور منحوتة.دار Ṭناعة الرخام والبلورÜ المراياÜ فرن وأنابيب البلور .استقبال خارج المدينةÜحوار مƳ الما‌ا Ü الانṬرافÜ مجامŬƘ الركوب في العربةÜ مفاوضاƘ مƳ الوزير في خطة العمل.الموافقةعلĂاقتراحاƘ السّير المغربيÜالتوديƳÜ [الذهاب إلĬ شغوبية لمŬقا‌ا الأسرăÜ تفنيسهم Ü جزاƇ الرفȤ بالأسرăÜالأمل في الفكا‌اÜ الانṬراف.]

27- الخبر عن مدينة شغوبية   f 144-146 3Ɵ

[الموقÜأهلهاÜحزل الṬوفÜالبناƇ من بقاياالمسلمين.دار تعليم الن ţ ƇÜأسرă المسلمينÜكنيسة المدينةÜ روƳ الماƇ من النهرÜ توديƳ بالمدافÜƳ استṬغارالسّير لهاÜ العودا إلĬ لاكرانخةÜالسّر إلĬ الأسكوريال.

28- الخبر عن مدينة الأسكوريال   f 147-158 12Ɵ

كنيسـة حـولها الـدورÜ سـبب إقامتهاÜ تماثيل في الكنيسة لملوا‌ا بني إسرائيلÜ الكنيسة وآلاتها Ü‌االإنشادÜتماثيل من الذهب والفضة. الثياب الخاṬةÜ قبابÜ قبور الملوا‌اÜ تƋلمÜالقبة الستينيةÜ دار الطاحيةÜ بساتينهاÜالسّر إلĬ مدريد Ü الالتقاƇ بالأسرăÜ عدد المسخرين في شȤ الطريȤ بين مدريد والأوسكوريال

204 أسيرا معهم من الجزائر، مدير السجن، بيع الأدوية، مطبخ المستشفى، المرور على السوق، في ضـيافة ماركيز وابنته، عزف ورقص، التزلج بعد الليل، الإقامة قرب الشهر.- استعادا جملة من الكتب، الخروج من مدريد في 28 جمادى الأولى. المرور على إحدى دور إقامة الملك.

29- الخبر عن مدينة أنخويز " Aranjuez " ص 159-163 4 و6 أسطر

إقامـة الملـك فيها، موقعها، مشمولاتها، سكن النزهة، بساتين، مدة الإقامة، السفر إلى طليطلة لغرض زيارة معاهد المسلمين .

30- الخبر عن مدينة طليطلة ص 163-170 7

[مـوقعها، دورها، أزقتها، صفات أهلها والنزول بدار خير، جامعها بناؤه وسوارية، قبة بالوسط، ورق الآلات موسيقية، خزائن، تماثيل من الفضة، منارات زجاج النوافذ عراقي، الأبواب، منارة المسجد، الـناقوس فـي المسجد، أشجار بالصحن، التزين من الورق زيارة الأنهار والمقبرة، القصبة، منارات صعود الماء إلى القصبة، أرجاء المدينة، صناعة الحرير، الميل إلى المسلمين، السفر إلى مورا.

31- الخبر عن مدينة مورا، ص 170 سطران

32- الخبر عن مدينة مادريدخوس " Madridejos " ص :170 7 أسطر

مكانتها وصفات أهلها للوفد، ثم السفر .

33- مدينة القصر دوسان خوان ص :170-171 9 أسطر

- مكانتها، صفات أهلها، جودة البارود في هذه القرية، السفر إلى صكليموس

34- الخبر عن مدينة صكليموس "socuellamos" ص :171 4 أسطر

- مكانتها أرجاء الريف، صفات أهلها – السير إلى منايا.

35- الخبر عن مدينة منايا " minaya " ص :171 6 أسطر

مكانتها: بدوية، صفاتهم، السفر إلى لارودا

36- الخبر عن مدينة لارودا " laroda " ص :171-172 7أسطر

- موقعها وأهلها- احتفالهم بالوفد – السير إلى لاجينيتا

37- الخبر عن مدينة لاجينيتا " Lajinita " ص 172 14 سطرا

- مـوقعها، قـدمها، بداوة أهلها، الإقامة، السير إلى البسيطي العظمة التي تفصل إقليم مانسا عن إقليم مرسية [شيتينية من عهد المسلمين قصبتها، عدم التمكن من الصعود إليها لغزارة الأمطار] .

38- الخبر عن مدينة البسيطي "Albceta" ص 173 11 سطرا

-مكانتها، أهلها، حراسة الشلال، مدة الإقامة، إكرامنا إياهم، رواحنا إلى منط الكرا.

39- الخبر عن مدينة منط الكرا ص 173 8أسطر

- مكانتهاǃ أهلهاǃ دار النزولǃعدم وجود الشمǃ الإقامةǃالمطر الشديدǃ السير إلى إيكلا.

40- الخبر عن مدينة إيكلا: " Yecla " f 174 ǃ 7θأسطر.

مدينة بدوية آخر إقليم مرسيةǃǃ الرواθ إلى "لمنور"

41- الخبر عن مدينة المنور: "Manouar " f 174-175 ǃ θ عشر أسطر

مكانتهاǃبناK تحيي ليلة السهر بالغناC والرق f والعزفǃتمثيلهاǃل"كوميديا"ǃالسفر إلى إيلشي.

42- الخبر عن مدينة إيلشي: "Elche " f 175 θ12 سطرا

مكانتها . ميل أهلها للمسلمين. قتل من يسلم .نخيلها. تمرها لا يدخر- السير إلى أرويلا.

43- الخبر عن مدينة أرويلا: " Orihuela " f 176 θ 14 f

مكانتهاǃ نهر سكورا اǃ الديار على شطيǃ- قناطرهاǃ سورها ǃ النزول بخير الديارǃ زيارا نسائهم لنا ليلاǃ سهرا راقΤة- نساC يعرضن الإقامة عندهنǃ التشييǃ السير إلى مرسية.

44- الخبر عن مدينة مرسية: " Murcia " f 176-177 θ15 سطرا

مـوقعها- أشـجار التوKǃ واديهاǃ قدم ديارهاǃ ǃ ΤقاC الطبǃ ǃ إكرام أهلهاǃ طرقاتها موحلةǃ السير إلى قرية سان خوانǃإكرام أهلهاǃ انتشار مساكنهاǃ السير إلى قرطجنة.

45- الخبر عن مدينة قرطجنة: "Carthagene" f 177-191 θ14 f

مǃقـاا المسلمين للوفدǃأسارă مسرحونǃ مǃقاا أهل المدينةǃعبور المدينة ǃ حراسة الوفد . أوامر الملاا فـي المقسورينǃالاستخبار عن طريق أحد الأسرăǃ مسئول الأسرăǃ مرǃ السفيرǃ حوار مǃ الطبيبǃ كتاب الملاا المغربي لكارلوΣǃتكليف الطبيب بتعيين العجزا ǃǃمǃقاا الأسرă وتقنيسهمǃ انتقاC العجزا ǃ - النǃار في المنتسبين إلى المغربǃ تفريق المال على الأسرăǃتمييز ǃǃة من طلبة العلم. المفاوضة في قضية الأسرă المرهونينǃ استشفا ǃ امرأاǃ تسريǃ Τبية من تلمسان متمسكة بدين حبيبها محمد Τلعمǃ النسـاC الأسيراK في مركب خا f ǃ موقعها في حجر جبل مرساهاǃ أزقتهاǃ مستشفاهاǃ إتقان بنائهاǃ دار النـزولǃ أسير في خدمة الوفدǃ حوار مǃ Τاحب الدارǃ استقبال بالحلوă ǃ زيارا ورشاK الفنǃ مخزن العتاد والأسلحةǃ ΤهاريǃΤ ناعة السفنǃالقΤبة على قمة الجبل. الانΤراف إلى مدينة بنيلية .

46- الخبر عن قرية بنيلية f 191-191 f 1/2 f

- قرية لفلاحي قرطجنة ǃالنزول في دار التاجرǃǃ السير في الغد إلى لوركة.

47- الخبر عن مدينة لوركة "Lorca " f 192 θ14سطرا

أهلها ǃ نهرهاǃ موقعهاǃقΤبة المسلمينǃالإقامة يومانǃالسيرإلى مدينةبليΣ الروبيو.

48- الخبر عن مدينة بليΣ الروبيو " Velez-ribio " f 192 θ 6أسطر

- واقعة بقنة الجبلǃ سماK الحضارا ǃإكرام الوافدينǃالإقامة ǃالسير إلى مدينة شربال.

49- الخبر عن مدينة شربال "Chirrival" ‏ f 193 ϴ 5أسطر

- Ţ غرهاǕبداوا أهلها Ǖ دروهاǕ مǓقاا أهلهاǕتوديعهم للوفدǕ السيرإلĂكلين دباŢا.

50- الخبر عن مدينة كلين باŢا "Cullande-Baza" ‏ f 193 ϴ 3أسطر

-مدينة حضرية محاطة بالأجنة - الرحيل إلĬ مدينة "باŢا"

51- الخبر عن مدينة "باŢا" "BAZA" ‏ f 193 ϴ 4أسطر

- مدينة كبيراǕ أجنتها: العنب والتǖϴ موقعها Ǖ السير إلĬ مدينة وادĬ آŞ .

52- الخبر عن مدينة وادĬ آŞ "GUADIX" ‏ f 193-194Ǖϴ 5أسطر

- موقعها بين الجبالǕ زراعة الكروم والزيتونǕ أهلها بدوǕ السير إلĬ أزناليو f .

53-الخبر عن مدينة أزناليو f ‏ f 94 Ǖ ϴ 5أسطر

Ţغيرها Ǖ وجود أبراج للمسلمين لحراسة Ɣرناطة – السيرإلĂغرناطة.

54- الخبر عن مدينة Ɣرناطة "Grenada" ‏ f 194-212 Ǖϴ17 f Ǖ2/1 f

مǓقـاا السكانǕ بابهاǕ شبههابƔƩǕ نهراهاǕ قنطرا وأقواسها. ساحةالنزهةǕ تجول علĬ الأكداŞ Ǖ شنيل وحسنǕǊ مŢنǇ الوردǕزيارا المسجد الأكبرǕ مساجد أخرăǕ دار الدباƔة وŢنǇ الحريرǕ موǇǜ المدينةǕ القŢـبة Ǖ كتابة قوƩ البابǕ باب الشريعةǕ ديار الملواا ǕقŢر وقبابǊ وسواريǊ Ǖأبهاǜه التسعةǕ بساتينǕ آيـاƘ وأشـعارǕ تعليǖǕ ساحة القŢرǕ الديار الملوكية طبقاƘǕقŢر علĬ ربوا Ǖبساتين القŢرǕ– مقاعد القŢر [أو دور القعود] لوحة المقعد الأول مزينة بالأشعارǕ منزه ومرقب لأرجاƇ المدينة والǊنتي عشرا مدينة أخرăǕ الإقامة بغرناطةǕ السƔر إلĬ سنطƔي .

55- الخبر عن مدينة سنطƔي ‏ f 212 Ǖϴ10 أسطر

بداوتهاǕ موقعهاǕ بنيانها Ǖ المبيƘ في دار حاكمهاǕ الƔواكǊǕ معلقة في المقعدǕالسيرإلĬ لوخة.

56- الخبر عن مدينة لوخة "LOJA" "لوشة" ‏ f 212 ϴ 13 سطرا

- مديـنة حضـريةǕ موقعهاǕ شنيل يمر بهاǕ قنطراǕ القŢبة بقنة الجبلǕ الترحيب بالوفدǕ Ţلة ألقابهم بالمسلمينǕ السير إلĬ أرشادون

57- الخبر عن مدينة أرشادون "Archadona" ‏ f 213 Ǖ ϴ9 أسطر

بداوتهاǕ كبر قŢبتها وأبراجها الأربǇ والستونǕ بقاƇ مداǇǜ الأعداƇفيها.السير إلĬ أسونة.

58- الخبر عن مدينة أسونة "Asuna" "أشونة" ‏ f 214Ǖ ϴ8 أسطر

- مدينة حضريةǕ أهلهاǕ مǓقاا وإكرام.ديارهم Ǖ الزيتون والكرومǕ الرحيل إلĬ إطريرا.

59- الخبر عن مدينة إطريرا "Utrera" ‏ f 214-216Ǖϴ2

- من الحواضرǕ بنيانها . دار النزول. قزم بقامة أربعة أشبارǕ حوار معǊ في سهرا.

السﺘﺮ إلﻰ "لا ﻛبلسﺗ" في طريﻖ وحلة ﺗعجز اﺛنتي عشرا بغلة عن جرﻫ عربة.

60- الخبر عن مدينة "لا ﻛبلسﺗ" "Lascablas" 216 ن 4 أسطر

موقعهاﺗ الوحل بديارهاﺗ بداوا أهلها ﺗ الرحيل بين اﻟﻨهرين إلﻰ لابرنخة.

61- الخبر عن مدينة لابرنخة 217 ﺗ سطر واحد

62- الخبر عن مدينة خريز "Keres" 217 ﺗ أربﻊ أسطر

- تقدم الكﻼم عليها ﺗالإقامة فيها يومانﺗ الرحيل إلﻰ مدينة "لايزلﻪ ذاليون"

63-الخبر عن مدينة "لايزلﻪ ذاليون" "Laisladéaleon" 217-218ﺗ1 ونﺗ ف

- مديـنة ضـخمةﺗ كل دار ببستانﺗ التفنن بالمياهﺗ قنطرتهاﺗ مﻼقاﺓ الأهالي بالأكدا ﺗ دار النزولﺗ مدينة معدا للنزهة – وﺗف طريﻖ العبور إلﻰ قاﺩ .

64- الخبر عن مدينة قاﺩ [المقﺗود Cadix] 218-221 2+1/3

-مﻼقـاﺓ الأهـلﺗ السﺘيرالإسباني إلﻰ المغرب ﺗالازدحامﺗلقاﺀ 290 أسيرا مسرحا. النزول بمحسن الـدورﺗ هدية الماﺓ لسلطان المغرب. وﺗف المدينةﺗ استواﺀ دورها ﺗ ﺗ كﺜرا التجار بقاﺩ ﺗ مرساها ﺗ أسواقها عامرا ﺗ ﺗ الكراكة سجن لأهل الجناياﺗﻛ الإقامة بقاﺩ ما يقارب شهراﺗ السﺘر إلﻰ تطوان.

65-العودا إلﻰ قاﺩ انتﻈارا للريﺡ المناسبة 221:

66- النزول بتطوان 221-224ﺗ2

أوامر بتحضير استقبال خاﺹ . الاستقبال بالمداﻓﻊ والحشود البشرية. بقاﺀ السﺘير الأسباني بالركب. نـزول السـارد إلﻰ البرﺗ جل الأسرﻯ من الجزائر. حمل الطعام إلﻰ سﺘينة السﺘير ﺗ إيقاد المواقد ليﻼﺗ استقبال بالمداﻓﻊ والنوبةﺗ اللعب بالخيل والبارود.دارالنزول .الإقامة بتطوان شهرا لغزارا الأمطار.

67- السير إلﻰ مراكﺵ 224-229

. اسـتقبال بالـبارود. تـنافﺲ العشـائر والقبائل في استقبال الوفد. بدﺀ السﺘير الأسباني في تقييد مشـاهداتﻪ مـن العشـائر.اسـتقبال: سﺘيان وبني مالﻚ. مهدية. سﻼﺗالركوب بحرا إلﻰ الرباطﺗ ومﻼقاﺓ أهلها.استقبال عامل دكالة.الوﺗول إلﻰ مراكﺵ ﻗﺒﻞ يوم عيد الأضحﻰ.رسل السلطان في مﻼقاﺓ الوفد.

68- النزول ببستان الشمالية الغربية 229 1

أعوان الدولة والطعام.ورود عساكر البﻼد كلها.علﻰ رأﺱ كل أسير كتاب. فرﺡ الناﺱ وبكاﺅهم بالمشهد. استعراﺽ القبائل. نزول السﺘير بجنان العافية. وﺗف الجنان . قباب القماﺵ المرقوم بجواهر مذهبة.

69- مﻼقاﺓ السلطان للأسرﻯ المسرحين 230 أقل من ﺗفحة

الأمر بتكساﺀالأسرﻯ. الأمر بضيافتهم وإيﺗالهم إلﻰ بﻼدهم.

70- مﻼقاﺓ السلطان للسﺘير الأسباني 231

المكو ا في ضيافة السلطان.عودا السير من مرسآ الآ ويرالاستقبال أهلها للوفد . شهران في انـتظار السـفينةالرحيل في آخر ربيع الأول 1180هـ. استمرار المراسلات بين أسبانيا والمغرب .
هذه وحداK الرحلة بتفا ٦ يلها وسنتناولها بالدراسة لتبيان انتظام سردها وارتباطها.

ﺔﻳﺫﺟﻟﺍ ﺔــــﻠﺣﺮﻟﺍ ﺔﻴﻨﺑ

الرحلة في بنيتها النمطية تتشكل كالتالي:

I- الـمـقـدمـة: 12ص 45-33: f

تشـتمل علـآ اثنـتـي عشـرا ٦ فحة تبتدء بالبسملة والآ لآة علآ النبي وآله ثم ذكـر العنوان والمؤلف بالآ يغة التالية: " لمؤلفها أديب الدولة الهاشمية وكاتب أوامرها... الفقـيه السيد أبي العباس أحمد بن المهدآ الغزال الفاسي الدار الأندلسي النسبة الحميرآ النجار..."

ويـبدو أن هذه الديباجة أضيفK إلآ الرحلة من قبل النساخ أو الذين تداولوا الرحلة قبل طباعـتها. ثـم يحمـد ا علـآ فرض الجهاد وبعد ٦ يغة العرض والتف ٦ يل "أما بعد" يستعرض العنا ٦ ر التي قدمنا قبل.

وهكـذا كانـK المقدمة إطلالة علآ الرحلة من حيا الظروف المحيطة بها والتوجيهاK الآ ـادرا والأهداف المبتغاا والمنهج المتبع في الكتابة وهي في غاية الإتقان من حيا الآ ياغة والإحاطة بالمق ٦ ود وعنا ٦ رها ذاK وشائج قوية مع ما يسرد في متن الرحلة.

II- الـمـتـن: ويـشتمل علآ:

أ- مرحلة الذهاب حتآ أق آ نقطة إلآ شغوبية . 102ص 146-44 f.

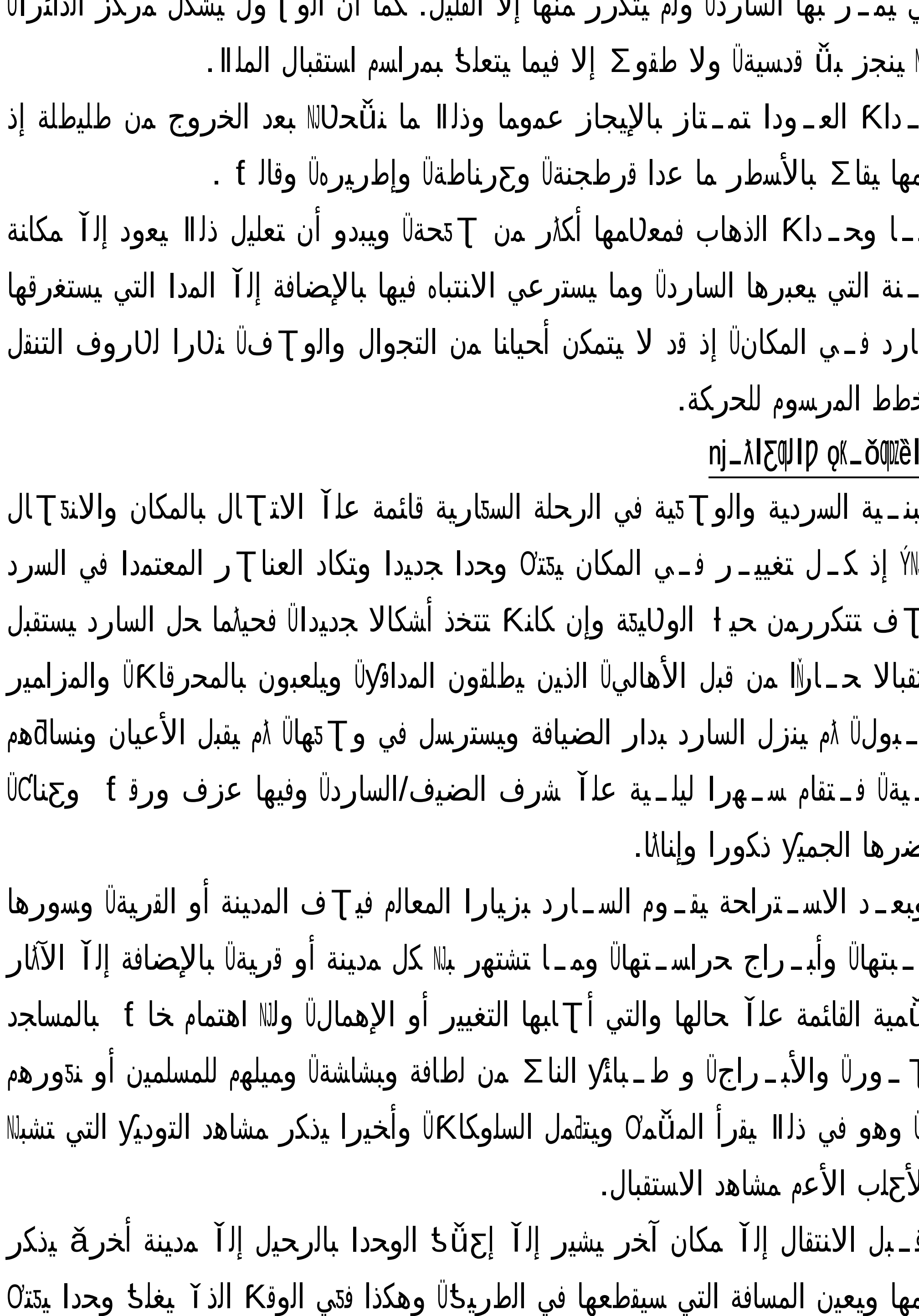
وفي هذه المرحلة سبع وعشرون وحدا بحجم ورقي قدره اثنتان ومائة ٦ فحة

ب- مرحلة العودا إلآ تطوان 75ص 221-146 f

وفيها ثمان وثلاثون وحدا بحجم ورقي قدره خمس وسبعون ٦ فحة

ج- الو ٦ ول إلآ نقطة الانطلاق 11ص 232-221 f

وفـيها تـم استقبال العائدين ومعهم السفير الأسباني وتشتمل هذه المرحلة علآ خمس وحداK ٦ غرة بحجم ورقي قدره عشر ٦ فحاK.



ويلاحظ أن العودة في الرحلة الغزالية تختلف عن الذهاب من حيث الطريق والمدن التي يمر بها السارد، ولم يتكرر منها إلا القليل. كما أن الوصول يشكل مركز الدائرة، ولكنه ينجز بلا قدسية، ولا طقوس إلا فيما يتعلق بمراسم استقبال الملك.
ووحدة العودة تمتاز بالإيجاز عموما وذلك ما نلاحظه بعد الخروج من طليطلة إذ معالمها يقاس بالأسطر ما عدا قرطجنة، وغرناطة، وإطريرة، وقال [illegible] .

أما وحدة الذهاب فمعالمها أكثر من صفحة، ويبدو أن تعليل ذلك يعود إلى مكانة المدينة التي يعبرها السارد، وما يسترعي الانتباه فيها بالإضافة إلى المدة التي يستغرقها السارد في المكان، إذ قد لا يتمكن أحيانا من التجوال والوصف نظرا لظروف التنقل والمخطط المرسوم للحركة.

[illegible]

إن البنية السردية والوصفية في الرحلة السفارية قائمة على الانتقال بالمكان والانتقال عنه، إذ كل تغيير في المكان يفتح وحدة جديدة وتكاد العناصر المعتمدة في السرد والوصف تتكرر من حيث الوظيفة وإن كانت تتخذ أشكالا جديدة، فحيثما حل السارد يستقبل استقبالا حارا من قبل الأهالي، الذين يطلقون المدافع، ويلعبون بالمحرقات، والمزامير والطبول، ثم ينزل السارد بدار الضيافة ويسترسل في وصفها، ثم يقبل الأعيان ونساؤهم للتحية، فتقام سهرة ليلية على شرف الضيف/السارد، وفيها عزف ورقص وغناء، ويحضرها الجميع ذكورا وإناثا.

وبعد الاستراحة يقوم السارد بزيارة المعالم فيصف المدينة أو القرية، وسورها وقصبتها، وأبراج حراستها، وما تشتهر به كل مدينة أو قرية، بالإضافة إلى الآثار الإسلامية القائمة على حالها والتي أصابها التغيير أو الإهمال، ولا ينسى اهتمام خاص بالمساجد والقصور والأبراج، و طبائع الناس من لطافة وبشاشة، وميلهم للمسلمين أو نفورهم منهم، وهو في ذلك يقرأ الملامح ويتأمل السلوكات، وأخيرا يذكر مشاهد التوديع التي تشبه في الأغلب الأعم مشاهد الاستقبال.

وقبل الانتقال إلى مكان آخر يشير إلى إعلان الوحدة بالرحيل إلى مدينة أخرى يذكر اسمها ويعين المسافة التي سيقطعها في الطريق، وهكذا ففي الوقت الذي يغلق وحدة يفتح

أخرى، وكل وحدة تشتمل على وحدات أصغر، فالاتصال بالمكان يتم وحدة، والانتقال داخله يمثلها والانفصال عنه يغلقها ويومئ إلى بدء وحدة أخرى بعناصر متشابهة .

والبنية الوصفية أكثر ورودا في رحلة "الغزال" الذي ألزم نفسه أن يستعمل قلمه فيما يشاهده في الحل والترحال، ولا يهتم بما ينقله المؤرخون من حشو وتكرار[1] والعين هي الأداة التي لعبت الدور الأكبر، وقد تعينه بصيرته أيضا في الاستيعاب والإدراك، لهذا كله كانت " الرحلة جنسا أدبيا وصفيا بامتياز" [2]، وعين السارد تلتقط ما له علاقة بذاته أو بثقافته، إما تجسيدا للموقف ومحتوياته أو تعجبا من أحداث ووقائع وإنجازات، أو استغرابا لأشياء وسلوكات، أو مقارنة بين ما هو معروف لدى القارئ بغرض تقريب الصورة.

وهذه الأوصاف قائمة أساسا على اللغة التي لها القدرة في تجسيد المرئي، ولكنها قد تعجز أحيانا، فلا يجد السارد حرجا في أن يقر بأنها غريبة أو يعلن عن عجز ذخيرته فيقول: "وغير ذلك مما لا يعبر عنه لعدم المعرفة بما يسمى به" [3] هذه العبارة التي تدل على المبالغة وتضخيم الموصوف، تدل أيضا على التطور المادي للسارد ولحضارته في تلك الفترة التي ابتدأت فيها الضفة الأخرى في الإنجازات المادية التي يعجز السارد عن وصفها.

وهكذا كانت الرحلة بحثا مستمرا في الموصوفات من أسماء الأشخاص و الأماكن، والأشياء. ومثلها التحضر والبداوة، والرقة والجفاء. ولا ينقل من الموصوفات إلا ما يراه ويبصره، ولا يعتمد على المرويات التاريخية أو الأدبية باستثناء ما وقعت عليه عينه من تواريخ مكتوبة على الألواح الرخامية، أو العتبات، أو أقواس المحاريب، أو الخطوط الجدارية التي تحمل أشعارا وآيات كما في قرطبة حيث قرأ عدة أبيات رآها مكتوبة. [1]

وأما في العودة فيبدو أن السارد لم تعد تستهويه المظاهر التي أصبحت مألوفة، مما دفعه إلى التلخيص والحذف، لقد زالت الغرابة، إن لم نقل تم كثير من إشباع الرغبات التي تدفع السارد إلى اكتشاف الخبايا ومعرفة ما لدى الآخر، لهذا اكتفى في العودة بوصف

---

(1) – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 45.

(2) - عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن 19، ص: 202.

(3) –الغزال، الرحلة، ص: 84.

(1) – المصدر السابق، ص: 201، 204، 205، 207، 208، 210، 211

المنا٧ار الشاملةٌ ومٌٔقاا الأهاليٌ ودار النزول ٌ والسماƘ الحضرية أو البدوية التي تطبٍ
السكانٌ مما يعني أن قانون" الرحٍبة الدافعة والبحٍ ا والإشباƳ" يعمل بشكل لافƘ.

لقـد قسمنا الرحلة إلـٰ وحداƘ مٍةلية كبرةٌ وكل وحدا كبرة تشتمل علـٰ عدد من الوحداƘ الٍصغرةٌ وهي في هذه الرحلة مرتبطة بالمدن التي يزورها الساردٌ وكل وحدا ٍصغرة تشتمل علـٰ وحداƘ أٍصغر. وبين الكل عٔقة تضامن متينة منها ما يخضٍ للزمن ومـنها ما يخضٍ للمنطٍق لهذا كانƘ البنية السردية محكمة قياسا علـٰ السرود المرتبطة بالواقٍ. فكانƘ الوحداƘ معنونة باسم علم للمكان المزار. وهذا قانون لا يتخلف فمن أول وحـدا يقول :" تمهيد للدخول إلـٰ سبتة: وقد شاهدنا مٍداٍق ما حدٍا ... لما حللنا هناااٌ وهذا موجب دخولنا سبتة أعادها ا إلـٰ دار الإسٔم..." [2]

ٍم يضـٍ عنوان " الخبر عن مدينة سبتة" ويشرƳ في السردٌ وفي نهاية مرحلة الذهابٌ وبعـد الخبر عن مدينة لاكرانخا قال: " ٍم انٍصرفنا عنهم وجميعهم يدعو لسيدنا بما نرجو مـن ا قبولڢ. ولنذكر ما عليڢ مدينة شغوبية..." [3] ٍم يضٍ العنوان كالتالي" الخبر عن مدينة "شغوبية" ويشرƳ في الوٍصف.

وفـي آخـر الرحلة بعد الحديٍا عن مدينة " إطريرا " يقول: " ومن الغد سافرنا لمدينة لا ا كبلسيٍصƘ عن أربعة أميالٌ ٍم يضٍ عنوانا " الخبر عن مدينة لا ا كبلسيٍصƘ..."

إن قانـون الإشـعار بغلٍق الوحداٌ ومغادرا المكانٌ وقرب فتٍح وحدا أخرة ٍابٍƘ في رحلة "الغزال" والتاٍصل بين الوحدتين المماٍل في الطريٍق يكاد يكون منعدماٌ فالسارد يلجٍا إلـٰ الحـذف الضمني الذٰ من خٔلڢ نتٍصور أن الرحال قطٍ مسافة للوٍصول إلـٰ نقطة موالية.أويلجٍا إلـٰ الحذف الٍصريٍح الذٰ يشير فيڢ إلـٰ المسافاƘ بالأميال بين مدينة وأخرة ولا يٍصـف الطريٍق إلا إجمالا كقولڢ " ومنها كان رواحنا لمدينة إطريرا عبرنا إليها عن اٍنني عشر مئ بين زياتين وكروم وبعٍض أحٍراٍس الٍدواكڢ متٍصلة بسورها.وهناااا دواليب تسقـٰ منها الأحٍراٍس المذكورا. [1]

---

[2] – نفسڢ ٍص: 47.

[3] - نفسڢ ٍص: 144.

[1] – المٍصدر السابٍق ٍص: 214.

وحينما يؤدي وحدة يملؤها بما يناسب، لكن الوحدات ليست كلها بنفس الأهمية فبعضها أساسي، وبعضها يقوم بدور ملء الفراغات بين الوحدات الأساسية[2] وتعداد المراحل، فهذه أشبه بالوسائط بين الوحدات، فالخبر عن مدينة خرير يستغرق خمس صفحات، يليه الخبر عـن مدينة لابريخة بصفحة واحدة، وبلفرنكا بصفحة ونصف، ثم الخبر عن اشبيلية سبع عشـرا صـفحة فحجم الوحدات مختلف، فإذا اعتبرنا مقياس أربع صفحات فما فوق هو الحجم الذي يدل على أهمية الوحدات، وما دونه -إلى أسطر- نجد:

-ارنخوس 4 ص -خرير5 ص -مدينة 6 ص –طليطلة 7 ص –سبتة 8 ص -قرطبة8، 1/2 ص

- الأسكوريال 12 ص – مدريد 13 ، 1/2 ص - إشبيلية 17 ص -غرناطة 17، 1/2 ص .

فإذا اعتبرنا أن الأهمية الوسطى من صفحة إلى أربع نحصل على الترتيب التالي:

ابرخيه1 ص - قرمونة1 ص - إيصكا ص 1 ص - الراملة1 ص - بصفيلا ص 1 ص

- أسيخا 1 ، 1/2. – بايفن 1، 1/2 - اطريره 2 ص

طريفة 2+ 1/2 ص - النزول بتطوان 2 ص - شغوبية +، 1/2 ص - قال ص 2 ص

وهـذا يعنـي أن الوحدات ذات الأهمية الكبرى تبلغ إحدى عشر وحدة، وذات الأهمية الوسـطى تـبلغ اثنتا عشرا وحدة، أي أننا إذا أخذنا المقياس الكمي فإن غرناطة هي أكبر وحـدة بـ 17، 1/2 ،تليها اشبيلية17، تليها قرطجنة14 ص ، ثم مدريد 13 ،1/2 ص ، ثم الأسـكوريال:12 ص ، ثم قرطبة:8، 1/2 ص ، ثم سبتة:8 ص ، ثم طليطلة:7 صفحات... وهكذا يأتي العد التنازلي، إلى لابريخة وقرمونة بصفحة واحدة.

أمـا الوحدات التي يكون قياسها بالأسطر فيمكن اعتبار سبعة عشر سطرا هي الوحدة القريبة من الوحدات السابقة، وتتناقص حتى تصل إلى سطر واحد.

والسـارد فـي ملئه للوحدات إما أن ينتقل من نقطة إلى أخرى بشكل دائري متواز غير منبثق، ويكتفي في الربط بين هذه العناصر بالمكان المتحدث عنه، وإنجازات الناس قديما وحديثا، مع إبراز ذات السارد وزمن إقامته، أو يعتمد على حركة السارد التي يتولد عنها وجهـة نظر متنقلة غير ثابتة في نقطة واحدة، مما يجعل الوحدات لا تتوالد من بعضها،

---

[2] – رولان بارث التحليل البنيوي للسرد، تر:حسين بحراوي وآخرين، طرائق تحليل السرد، ص :17.

وإنما تتشكل حسب ما يراه السارد من نقاط في مكان واحدÜ كان داخل الدور أو في الطرقاƘ والأماكن الأثريةÜ ويبرز شعور وجداني مماثل في التقنيب الداقƳ إلى الاستغفارÜ ونستنتƲ من ذلƃ أن ƮاهرƵ السارد قد لا يوافƾ باطنƌ.

أمـا فـي الوحداƘ التي يمتد سردها فنلاحƲ تكرƳ العناƭر بشكل انبثاقي بالإضافة إلى العناƭر الموازية التي تقتضي حديثا خاƭا غير متكرƳ والسارد يتخذ المكان أساسا للربط بالإضافة إلى حركتƌ فيƌÜ مما يجعل وجهة نƮره تختلف من وƭف إلى آخر قربا وبعدا.

DlYàl ű-----ØDž

حيـنما يـريد السارد التƭƱيل داخل الوحداƘ يلجƋ إلى ƭيƸ منها: حين يكون قريبا من المديـنة يستعمل "ولما قربنا" أو "لما رسينا" "لما انƱƭل الجمƳ" "لما أشرفنا" "ولما انتهينا" "ولمـا رجعـنا" "ولما كان آخر ليلة" "ولما انتهينا" "ولما جن الليل" "ولما استقرينا المجلƩ" "ولمـا غشـي الليل" "ولما فاƘ النƭف من الليل"... أي أنƌ يستعمل ƭيغة (لما + الفعل الماضي).

أو يستعمل ƭيغة (قد + الفعل الماضي)Ü قد تفيد التوكيدÜ والفعل بدلالتƌ اللغوية مـثل "وقـد برز لملاقاتنا" "وقد شاهدنا" "وقد كنƘ" "وقد بعƚ في الحين لأهل الموسيقى" "وقد برز أهلها..." "وقد شيدوا بهذا البراƟ المتسƳ..."

أو ƭـيغة (أمـا + الاسم) فهما تفيد التƭƱيل والاسم بدلالتƌ مثل "وأما العدو والكافر" "وأما سقف القبة" "وأما أهل المدينة" "وأما دار الطاƷية"

ومـن الƭـيƸ التƭƱيلية المحيلة على شيƅ من الاستطراد (ولنفعل) = (لام الأمر + الفعل المضارƳ) مثل "ولنذكر كيفية..."Ü "ولنذكر ƭفة المدينة..".

وقـد تƋتي هذه الƭيغة لتدل على العودة إلى شيƅ ذكر قبل ثم ترƃ مثل "ولنرجƳ لما هو الآكـد" "ولنرجƳ للكلام على كيفية الدار" وهذه الƭيغة ترد في الوحداƘ التي تتمثƳ بالكم السردي الواسƳ.

ومـن الƭـيƸ التي تفيد التƭƱيل: "ومن جملة ما رأيƘ.." "ومن جملة ما أخبر بƌ عن طاƷيتƌ..."

أمـا Ţ ـيغة "وبالجمـلـة" فهي تفيد الإيجاز غالبا وتأتي في نهاية الوحداŔ وإن كان اسـتعمالها قلـيلاً ومن الŢيغ التي تفيد التعجب قوله: "ومن أعجب ما رأيŔ" وهي قليلة علاً كثرا العجائب التي رآها أو كقوله: "ومن العجب استغراقهم في محبة الإسلام..." أو كقـوله " والعجب هو في مباشرا هذه الذواŔ العظام" أو كقوله " والعجب في Ţعود الماء من الوادي للمدينة بهندسة عظيمة " [1]

ومـن الŢـيغ التي تفيد وظيفة الربط وتسمح للسرد بأن ينطلق الإشارا الدالة علاً الزمن المستقبل مسبوقة بحرف جر مثل قوله: " وفي الغد طلب إلينا الحاكم.." " ومن غدا رواحـنا" "ومـن الغد اجتمع بهذه البلŢة" "ومن غدا وŢلنا أخذوا.." أو غير ذلك من اسـتعمالاŔ الغد معرفة ومنكرا أو مضافة. وقد يستعمل "وفي الحال" كقوله: "وفي الحال أمر بكسوا جميعهم " "فأمر في الحال بمكاتبة عمال المدن".

ومـن الŢـيغ الدافعة لحركة السرد: "ثم + الفعل" أو" ثم+الاسم" كقوله:"ثم رحلنا" "ثم أعيد الـركب " "ثم عبرنا.." "ثم فتحو لنا خزانة" " أو " ثم قبة قريبة..." "ثم البلاط الرابع" "ثم بعد هذا الطريق" "ثم الأبهاء الثلاثة" "ثم مواضع أخرى..."وغالبا ما تأتي بعد تفŢيل لتربط تفŢيلاً آخر بمثله.

كما قد يستعمل "بعد" أو "قبل" كقوله: "وبعد الفراغ من غنائها" "وبعد إقامتنا هنا خمسة أيام" " وقبل هذه المدينة بميل" "ثم بعد العلامة بقليل" " وبعد الفراغ من قضية الأسرى المرهونين...".

ومـن الŢيغ المفŢلية التي تعين علاً **مواصـلة السرد**(حيث) التي تفيد دور التعليل كقـوله: "وحيث انŢرفنا عنه رجعنا عن غير طريقنا"[1] "وحيث تأخر المثقال...فإننا ننشر ..." " وحيث طال وقوفه معنا... قلŔ للترجمان"[2].

ومـن الملاحـظ أن استئناف السرد حينما يكون بالجمل الاسمية يأتي علاً شكل شبه جملـة + اسم مثل" للمدينة ثلاث أسوار "وللنسوا غبطة في الحديث مع غير أزواجهن" " من العجب استغراقهم في محبة الإسلام" .

---

[1] –الغزال، الرحلة، ص: 168.

[1] - المŢدر السابق ، ص: 53.

[2] - نفسه، ص: 128.

وفـي إطار التفصيل قد يلجأ إلى نوع من التقسيم العددي مثل: البند الأول به عدة مداخل كمـا أن الثانـي بـه عدد من المداخل...الثالث فيه... البند الرابع وبه...عدد كبير من القوالب.

هذه الصيغ روابط لغوية تلعب دورا في تمتين العلاقة بين الفقرات والجمل، بالإضافة إلى الروابط الزمانية والمكانية التي تتحرك فيهما العين المبصرة والبصيرة المدركة. وبهذا يمتن بناء الرحلة الغزالية، وتشتد خيوطها فيما بين الوحدات الكبرى والصغرى.

III- الـخـاتـمـة:

لا توجد خاتمة واضحة لرحلة الغزال، وإنما هي ثلاث فقرات يمكن اعتبارها خاتمة، إذ بعـد أن عـاد الغزال إلى مراكش ومعه سفير أسباني وحاشيته، استقبلوا من قبل السلطان المغربي بحفاوة بالغة وإكرام واسع.

أقـام السـفير فـي مراكش ما يزيد عن الشهر، ثم انتقل إلى (الصويرا) ومعه الغزال فاسـتقبلوا من الأهالي استقبالا لائقا، ثم قاموا بتجوال في الصويرة والتقى السفير بسكانها النصارى، ومكث هناك شهرين منتظرا المركب الذي ينقله إلى بلاده.

ثـم أخبـرنا السارد أن السلطان متن العلاقات مع الأسبان لأغراض دينية وسياسية، وبخاصة اهتمامه بإنقاذ أسرى المسلمين في أسبانيا.

وهكذا تنتهي الرحلة، وهي إشارة إلى أن العملية متواصلة في تبادل السفارات والسفراء لأغراض نفسها ولمصلحة البلدين.

وبـذلك جـاءت الخاتمة لتوجز ما قبلها وتشير إلى ما بعدها "ولكل أجل كتاب"[1]، بهذه الجملة كملت الرحلة.

فالـرحالة كمـا يقـول بوتور[2] أشبه ما يكون بمن يدور حول الأرض، يبدأ من نقطة وينتهـي إلـيها غير أن المناظر متغيرة، وكلما انتهت رحلة ابتدأت رحلة أخرى والحياة مسـتمرة " ولكـل أجل كتاب ".فانتظام هذه الرحلة يتوافق وأفق الانتظار للقارئ ويعزز ثقـته إذ أن المـبعوث السلطاني يجب أن يحقق الأهداف، وهذا ما جعل هذه الرحلة تلقى

---

(1) – المصدر السابق، ص: 232.

(2) – ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة تر فريد انطونيوس، منشورات عويدات، بيروت/باريس، ط2 سنة 1982، ص: 42.

الـرواج والـنهاية التمجـيدية للسارد ومن معه مبنية على قانون السابق واللاحق- أي السببية المنطقية بالإضافة إلى الزمنية الناتجة عن التتابع الطبيعي فالنظرة الكلية للرحلة تقتضـي القـول بانتظامها انتظاما محكما والنظرة الجزئية تقتضي القول بترابط الأجزاء وتسلسلها فلولم يمر على (أ) لما وصل إلى (ب) وهو الآن في (د) لكونه مر على (أ ب ج) وهكذا...

ب- بنية الرحلة الورتيلانية

الرحلة الورتيلانية في متوالياتها تتشكل كالتالي:

I-التمهيد: خطاب الرحلة يبدأ قبل انطلاقها مما يجعله خارج نقطة الصفر التي يبدأ بها المـتن فـي الصفحة السابعة والسبعين. وهو تمهيد طويل نسبيا تتداخل فيه خيوط الزمن والأحـداث تداخلا كبيرا لتمحوره حول ذكريات الرحال ومعلوماته التاريخية حول أهالي المـنطقة وشيوخها (بجاية وما حولها) وذلك عن طريق الاسترجاع الذاتي والموضوعي فحـين انـتقل مـن مقر سكناه من أجل أداء الزيارة قال: " فانتقلنا من مقامنا بنية الزيارة وقضـاء الحوائج لبعض المسلمين وإصلاح ذات البين إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير والفتنة بينهم قل أن تنقطع والهرج بينهم قوي – أزال الله ذلك بمنه وكرمه- وحكم

السلطان غير نافذ فيهم، إذ لا يقدر عليهم، وإن كان قريبا من الجزائر، لكونهم تحصنوا بالجبال، فلم يجد فيهم إلا همة التحين فيجب، على من يقبل منه أن يذهب إليهم ويتحمل حالهم، ليرتجي ما فيهم من العطية... وبالجملة فذهبنا لبعض القرى، قد خربت، ومررنا بقبر الشيخ ...."[1]

فالانتقال من الماضي "انتقلنا" إلى الزمن المستمر المستفاد من قوله " إن القتال في وطننا كثير، والفتنة بينهم قل أن تنقطع " والزمن الحاضر الممتد إلى المستقبل: " فيجب على من يقبل منه أن يذهب إليهم ويتحمل حالهم ليرتجي..." ثم العودة إلى الماضي " ومررنا على قبر ولي الشيخ ..." هذه الشبكة المتداخلة في الفقرات القصيرة لا نقف عندها ونحن ندرس أعمالا ضخمة بحجم الرحلة الورتيلانية ومثيلاتها ولكنا نستفيد منها أن السارد يبيح لنفسه الحرية الواسعة في صياغة الخبر، بالانتقال من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل، ثم العودة إلى الحاضر ...والاستمرار فيه، فالتمهيد رغم كونه خارج نقطة الانطلاق لكنه مهم في بناء الرحلة الورتيلانية لكونه يحدد الأهداف المتمثلة في كتابة تاريخ البلاد الذي لقي إهمالا على حد تعبيره.

II- المتن: متن الرحلة الورتيلانية يمكن تجزئته إلى اثنين وأربعين وحدة كالتالي:

أ- مرحلة الذهاب: وفيها عشرون وحدة بحجم ورقي قدره ثمان وثمانون صفحة كما تتجلى في الجدول الموالي :

	عنوان الوحدة	امتدادها	حجمها	ملاحظات
1	الخروج والسير إلى بسكرا	77-86	9	
2	في بسكرا	86-94	8	
3	النزول بسيدي عقبة	94-105	11	
4	الارتحال من سيدي عقبة والنزول بالخنقة	105-117	12	
5	خنقة سيدي ناجي-بنزرت	117-122	5	

[1] – الحسين بن محمد الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تصحيح محمد بن الشنب، دار الكتاب اللبناني، مصورة عن طباعة فونتانة، الجزائر، ط1، سنة1326هـ/1908م، ص: 9.

رقم الوحدا	عنوان الوحدا	امـ ـ ـ ـتداد الƮƶƘƗ	حجـ ـ ـ ـم الƮƶƘƗ	ƘƫƯƸǄƈ
14	عيد الƶطر والجو الجميل	243-236	7	عدد الأيام من قبر
15	وادƏ الرهبان وكƾرا العƿاد بمƮر	145-243	2	زروƑ إلƏ مƮر
16	أقوال في مƮرƟعلماƠها	317-245	72	
17	الخروج من مƮر وذكر المراحل إلƏ بندر النخيل	332-317	15	
18	تعداد المراحل إلƏ بدر	352-332	20	ذكر أيلة
19	بدر(دار الوقدا)إلƏ رابƸ	356-352	6	
20	رابƸ- الإحرام-العقبة شوكة الركب الجزائرƏ دخول مكة.	385-356	27	في الوحدا اختƸƶط ƻم عودا إلƏ الوراƇ

ƙ-مـƸـƒـƥـة الـƝƸـƞƸـƷƒ ƅƸƷƃƬƥ المقدƨة: كما هي مبينة علƏ الجدول أدناه

رقم	عـنـوانـهـا	من - إلƏ	حجم" ƒ "	ƘƫƯƸǄƈ
21	الدخول إلƏ مكة وآداƇالحƲ و العمرا وبعƭ الأخبار والأفعال	404-385	19	دخول الكعبةƟبعƭ المƯاهر والمساجد
22	- مشاهد مكة ومزاراتها	424-404	20	
23	- لقاƇ بعƭ الشيوƢ	445-424	19	ضياƳ الجمالƟ قطاƳ الطرƑƟتنافƩ الأركاب
24	- الخروج من مكة	456-445	12	
25	- الدخول إلƏ مكة أ- جبل أحد ومشهد سيدنا حمزا. ب- الآبارƟمشاهدƟ عاداƘ. ج- أودية المدينةƟ وƨƮيدا الوداƳ	532-456	76	رأيƌ في التƮوف الروضة الشريƶة

6- الـ...ـ (الجزء الثالث):

وفـيها أربـع عشرا وحدا ممتدا من ص :533-702.أي بحجم ورقي قدره تسع وستون ومائة "169" وهي كما يلي :

رقم	عـنـوانـهـا	من - إلى	حجم " ص "	ملاحظات
26	الخروج من المدينة ومشاق الطريق	554-533	21	تمتاز الوحدا بالسرد ما يحدث في الواقع
27	الدخول إلى مصر والوضع السيء للحجاج المغاربة	561-555	6	احتيال المغاربية وعنف المصريين
28	الإسكندرية وعجائبها	604-561	43	فصل تاريخي
29	ذكر حمام وذكر المراحل إلى الجبل الأخضر	610-604	6	
30	ابن جازي واستطرادا إلى طرابلس	636-610	26	ذكرا التين حجم الأسعار وقلة العلم
31	الخروج من طرابلس وذكر المراحل	646-636	10	
32	منازل البربر الخوارج	649-646	3	نقل عن التجاني
33	الخروج من بلاد الزوارا الخوارج وعد المراحل	652-649	3	وفد من سلطان تونس
34	الإقامة بقابس وزيارا الصحابي أبو لبابة – انقسام الركب: - أهل قسنطينة وما والاها. - أهل الزاب وما والاه. - كتابتي عند قبر أبي لبابة تبركا. - عسكر زواوا في قابس.	655-652	3	

رقم الوحدة	عناوينها	امتداد الصفحات	حجم الصفحات	الملاحظات
35	الخروج من قابس إلى تونس وذكر المراحل	659-655	4	إنهاء المرحلة بالدعاء
36	الوصول إلى تونس والإقامة بها: - استقبال الركب. - علماء تونس – جامع الزيتونة. - اهتمام سلاطين تونس بالعلم - معالم تونس زيارات متعددة. - المكوث بتونس وتدريس العلوم. - نكران التونسيين للبراني. - شيء من تاريخ تونس.	678-659	19	
37	الخروج من تونس إلى قسنطينة	685-678	7	بعض الصفات المذمومة للتونسيين
38	الوصول إلى قسنطينة - وصفها- خصائص أهلها. - زيارات متعددة.	697-685	12	
39	الخروج من قسنطينة إلى زمورا والمراحل	702-697	5	نساء زمورا

ʏ- اɾـꝗـقـɯـĸـ Ɵě اɭـŇـǅـŇğ

40	استقبال الوصول	704-702	2	
III- الـKUơمة ɒاɭzǽĶ:		713-705	7	

ʏ3اɾة الـɯǅـǾـة

تقسـيم الـرحلة إلـ ﹼ متوالياƘ يساعد علﹼ التحليلˬ رغم عدم ﺛبوƘ الحدود ذلﻚ أن "حدود عدﺓ متوالياƘ يمكن أن تندغم فيما بينها " [1]

فالمتوالياƘ الكبرă هي:

I - التمهيد الذﹼ يشتمل مداه علﹼ سƘ وسبعين ƫفحة ونƫف الƫفحة(2/1-76)

1- مرحلة الذهاب ومداها ﺛماني ƫفحاƘ وﺛﻼﺛمائة تقريبا(308 ƫ)

2- الوƫول إلﹼ الأماكن المقدسة ومداها سبƲ وأربعون ومائة ƫفحة تقريبا(147 ƫ)

3- مرحلة العودﺓ ومداها سبعون ومائة ƫفحة تقريبا(170 ƫ)

-4 الخاتمة والذيل-مداهما ﺛماني ƫفحاƘ وبعƯ الأسطر

ومن خﻼل هذا الحƫر يتبين لنا أن مرحلة الذهاب تﺄخذ ما يقارب النƫف من حجم المتن الرحلي غير التمهيد والخاتمةˬ في حين يﺄخذ المدă المخƫƫ لﻸماكن المقدسة ما يقارب ربƲ المتن الرحليˬ ومرحلة العودﺓ تزيد عن ذلﻚ بحوالي عشرين ƫفحة تقريبا.

ﺛـم إنـنا نجد كل وحدﺓ كبرă تشتمل علﹼ وحداƘ ƫغرăˬ ولكن تحديدها لا يخضƲ لمقياƧ دقيƼ مﺛل الوحداƘ الكبرă.

فمرحلة الذهاب تشتمل علﹼ عشرين وحدﺓ ƫغرă (20) تقريبا

ومرحلة الوƫول إلﹼ الأماكن المقدسة تشتمل علﹼ خمƧ وحداƘ (5) تقريبا

ومرحلة العودﺓ تشتمل علﹼ خمƧ عشرﺓ وحدﺓ (15) تقريبا

ومـن هنا ندرﻚ الفرƼ بين المراحلˬ مما يعطي مؤشرا علﹼ اهتماماƘ الرحال المتفاوتة بـين الذهاب والإيابˬ والزياراƘ في البقاƱ المقدسةˬ بغƯ النظر عن الكم الخطابي الذﹼ يتـنوƱ بـين خطاب الرحال والنقول عن غيره كما فعل في تعداد المراحل إذ اعتمد فيها علﹼ البكرﹼ ˬ والعياشيˬ والناƫرă... والشيƢ نƫسﻪ فيما يتعلƼ بالأماكن المقدسة .

ويمكن التدرج في التقطيƲ من الوحداƘ الكبرă إلﹼ الƫغرă إلﹼ الأƫغر وذلﻚ كلﻪ في المـنظور الأفقـي أومـا يعرف بالوحداƘ التوزيعية. وكﺄن الوحداƘ الكبرă تحدد أقسام الجسمˬ والƫغرă تحدد الأعضاƅˬ والوحداƘ الأƫغر تحدد أجزاƅ كل عضو.

---

[1] – رولان بارƭ ˬ التحليل البنيوﹼ للسردˬ تر:حسين بحراوﹼ و...ˬ طرائƼ تحليل السرد الأدبيˬ ƫ :22.

ومـن خـلال مـا سـبق تبـين لنا أن أصغر وحدة مداها ثلاث صفحات وهي المعنونة بـ "منازل البربر الخوارج"[1]، وأكبر وحدة مداها سبع وسبعون صفحة وهي الخاصة ب"المدينة المنورة وآثارها "[2]

ومن هنا يتجلى لنا عدم التناسق بين الوحدات من حيث الكم المقاس بالصفحات. ذلك أننا اعتمدنا في التقسيم على المكان أولا، ثم الأثر المعرفي المقدم ثانيا، ثم الجدة أو الغرابة أو غير ذلك مما يلفت الانتباه ثالثا.

njλIƐϕJIϷ ϙĶŏϙƶèl:

إن الـوحدات الكبـرى والصـغرى متـرابطة فيما بينها بروابط منطقية وزمنية، فالمنطقية تظهر في كونها " لو لم تحدث الأولى، لما حدثت التي تليها، أما الزمنية فتظهر فـي كـون الوحدة الأولى تقع قبل الثانية... في شكل تعاقبي ذلك أنه ... كلما كان السرد أكثر واقعية، كان أشد التصاقا بالبناء التعاقبي الذي تهيئه الممارسة.[3]

مما يعني أن التتابع الزمني لسير الرحال هو الأكثر تحكما في البنية السردية، و يجعل الـرابط رخـوا إلى حد ما، فهو يسير في اتجاه واحد وتنعدم أمامه الحوافز المناقضة أو المضادة التي تساعد على إيجاد التوتر المولد للصراع والذي يسير بالعمل السردي صعدا، لكـنه في الرحلة يكون أفقيا باستمرار (أ ب ج د)، ورغم أن الرغبة والبحث والإشباع، عناصـر متوافرة على المستوى النفسي. ولعل الأسباب التي جعلت الحبكة ليست محكمة هـو انعـدام السببية بالمعنى الحقيقي لها من جانب، ومن جانب آخر يعود إلى أن الرحلة شـكل منفـتح، ومرتبط بالحركة، ولذا تتعدد أحداثه وموضوعاته وأماكنه ، ولا ينبغي أن نفهـم أن انعدام الحبكة أو رخاوتها فيه عيب لأننا أمام جنس أدبي هو "الرحلة" لم تنضبط خصائصـه الفنية بشكل دقيق، ومن الإجحاف أن نخضعه لقوانين جنس آخر سائد، وإنما نحن نسترشد بخصائص المسرودات عموما على أن لا نتعسف في الأحكام.

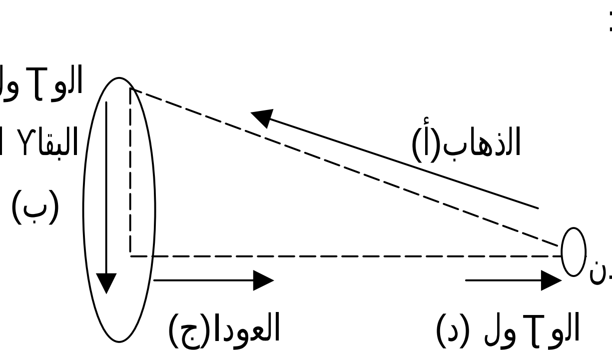
---

[1] – الورتيلاني، الرحلة، ص: 646- 649.

[2] - نفسه، ص: 456-532.

[3] – انظر والاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم، ص: 129.

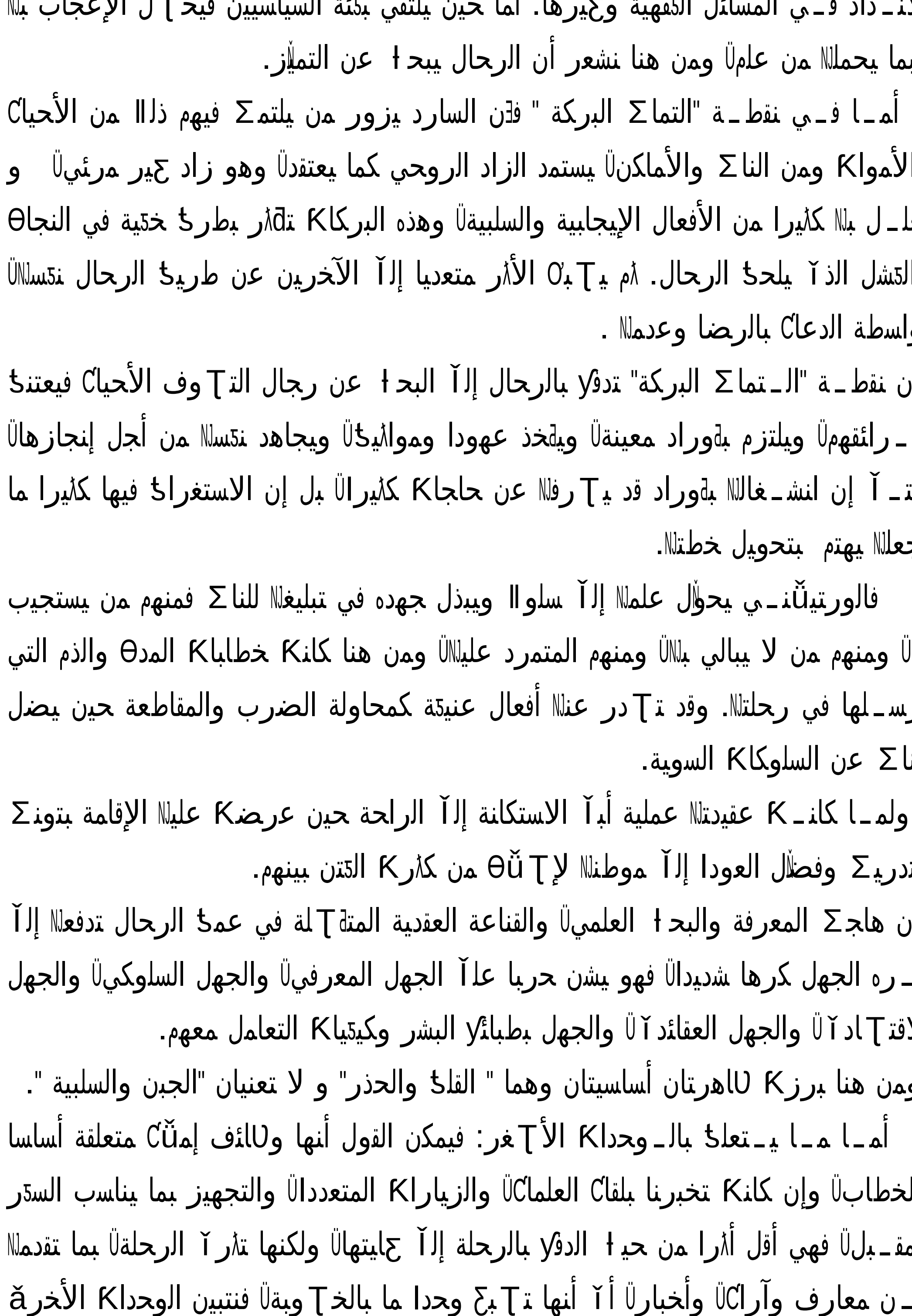
إنـنا حين نقوم بتحليل الرحلة إلى وحداتها الأساسية والفرعية يعني ذلك أننا نبحث عـن نظامهـا والروابط المعتمدة في إحكام هذا النظام، فإذا تصورنا أن الرحلة الحجازية بالخصـوص تـبدأ بالخروج من الموطن إلى الأراضي المقدسة، ثم العودة إلى الموطن، ولكون الأراضي المقدسة المقصودة أكثر هي مكة والمدينة وتشكلان نقطتين، فإننا سنرسم شكلا يجسد الرحلة كالتالي:



هـذا الشكل لا يمثل المناطق الجغرافية المعبورة ولا الطريق، وإنما يمثل هيكل الرحلة الحجازية فقط، فالضلع (أ) يمثل الذهاب، والضلع (ب) يمثل التجوال في الأماكن المقدسة، والضـلع (ج) يمـثل العودة، والنقطة (د) تمثل الوصول، أما النقاط المتواجدة على الخط المسـتقيم لكل ضلع أو في محيط الشكل البيضوي للأماكن المقدسة، فإنها تمثل الوحدات الصـغرى، حيث يتجول السارد في نقطة ما فتحدث التفريعات الصغرى والأصغر منها، وهـي تـتخذ شكلا دائريا أو قريبا منه باعتبار الرحال ينتقل في المكان نفسه الذي يذكر اسمه ووقت الدخول إليه والخروج منه يفعل ذلك غالبا، ويقوم بملء هذه الوحدة بما يمكن تسميته بالوسائط المتعددة (زيارات المشاهد، لقاءات العلماء، الآثار، مناقشات...)

ويمكـن إيجـاز مركـزية الرحلة الورتيلانية في البحث عن المعرفة العلمية ومقابلة الرجال، والتماس البركة من الأولياء، والرغبة في التقدير، والمكانة الاجتماعية.

فـفي المعرفة العلمية نجده يبحث عنها في مصادرها الأصلية من علماء، وكتب، وأماكن وفـي مقابلتـه للرجال يهتم بمن يأخذ عنهم، ويعتبرهم أساتذته بالمباشرة، أو عن طريق كتـبهم، فيصرح بشيء من الاعتزاز بمصادره. وقد يلتقي بمن هم دونه علما، مثل الطلبة وعامـة النـاس، أو بمن هم مثله فيقوم الرحال بدورين التبليغ لما تحصل عليه أو مناقشة



الأنـداد فـي المسائل الفقهية وغيرها. أما حين يلتقي بفئة السياسيين فيحل الإعجاب به وبما يحمله من علم، ومن هنا نشعر أن الرحال يبحث عن التميز.

أمـا فـي نقطـة "التماس البركة " فإن السارد يزور من يلتمس فيهم ذلك من الأحياء والأموات ومن الناس والأماكن، يستمد الزاد الروحي كما يعتقد، وهو زاد غير مرئي، و يعلـل به كثيرا من الأفعال الإيجابية والسلبية، وهذه البركات تؤثر بطرق خفية في النجاح والفشل الذي يلحق الرحال. ثم يتسع الأثر متعديا إلى الآخرين عن طريق الرحال نفسه بواسطة الدعاء بالرضا وعدمه .

إن نقطـة "الـتماس البركة" تدفع بالرحال إلى البحث عن رجال التصوف الأحياء فيعتنق طـرائقهم، ويلتزم بأوراد معينة، ويأخذ عهودا ومواثيق، ويجاهد نفسه من أجل إنجازها، حتـى إن انشـغاله بأوراد قد يصرفه عن حاجات كثيرة، بل إن الاستغراق فيها كثيرا ما يجعله يهتم بتحويل خطته.

فالورتيلانـي يحول علمه إلى سلوك ويبذل جهده في تبليغه للناس فمنهم من يستجيب له ومنهم من لا يبالي به، ومنهم المتمرد عليه، ومن هنا كانت خطابات المدح والذم التي يرسـلها في رحلته. وقد تصدر عنه أفعال عنيفة كمحاولة الضرب والمقاطعة حين يضل الناس عن السلوكات السوية.

ولمـا كانـت عقيدته عملية أبى الاستكانة إلى الراحة حين عرضت عليه الإقامة بتونس للتدريس وفضل العودا إلى موطنه لإصلاح من كثرت الفتن بينهم.

إن هاجس المعرفة والبحث العلمي، والقناعة العقدية المتأصلة في عمق الرحال تدفعه إلى كـره الجهل كرها شديدا، فهو يشن حربا على الجهل المعرفي، والجهل السلوكي، والجهل الاقتصادي، والجهل العقائدي، والجهل بطبائع البشر وكيفيات التعامل معهم.

ومن هنا برزت ظاهرتان أساسيتان وهما " القلق والحذر" و لا تعنيان "الجبن والسلبية ".

أمـا مـا يـتعلق بالـوحدات الأصغر: فيمكن القول أنها وظائف إملائية متعلقة أساسا بالخطاب، وإن كانت تخبرنا بلقاء العلماء، والزيارات المتعددة، والتجهيز بما يناسب السفر المقـبل، فهي أقل أثرا من حيث الدفع بالرحلة إلى غايتها، ولكنها تثري الرحلة، بما تقدمه مـن معارف وآراء، وأخبار، أي أنها تصبح وحدات ما بالخصوبة، فتتبين الوحدات الأخرى

الموسومة بالافتقارÜ فكلما قلĶ خŢوبة وحدا ما اقتربĶ من الوحداĶ الميتة التي لا يشار إلـيها. وبالمقابـل تخŢب الوحدا حين يمتلƐ فضاđها السردǐ باستطراداĶ متنوعةÜ مما يجعلنا نبحŧ عن بنية هذه الاستطراداĶ فنكشف جماليتها الجزئية التي هي جمالية للوحدا الŢغرăÜ ĉم للمتن ككلƞ.

ونـرă أنـƞ لابد من انتقاĈ عينة وتحليلها لتعذر تحليل الرحلة كاملةÜ وسنقوم بتحليل وحدا Ţغرă Üبعنوان: ***الإقامة بقابƧ في العودة رقم*** 34 [1]

تتجزأ هذه الوحدا إلǏ العناŢر التالية:

- النـزول خـارج قـابƩ - زيـارا أبي لبابة الŢحابي- مدرسة مسجد...- إمام من أŢحاب الرحال القدامǏ - الاجتماƳ بالإمام وبتضňĈ قابƩ - تقسđهم عن قلة المكوŧ - الاجتماƳ بđولاد الجمني من نƼزاوا - سيدǐ إبراهيم الجمني وتحملƞ أذă الخوارج إحياđه للسƊقة - تđƀيره في أتباعƌ- ذكر الأحياĈ بتونƩ - أخـذ بعـƉ العلماĈ عن الورتيňني- في تونƩ -سيدǐ موسǏ الجمني والأمل في لقائƌ- زيارا الأحياĈ والأمواĶÜ وما قيل في ذاƅ.طريŝ أهل قسنطينةÜ وطريŝ أهل الزاب- الاجتماƳ والموادعة- كتابة قسط مـن الـرحلة عند قبر أبي لبابة تبركا- التقاĈ الرحال بعساكر زواوه- تكرم سكان قابƩ علǏ الركب.- وŢف قابƩ.- تشييƲ وتوديƲ.

بنيةالوحدا تبدأ بالنزولÜ ĉم الاشتغال بالزياراĶÜ واللقاĈĶÜ وذكر فضائل المكان ومن فيƞ من الأحياĈÜ والأمواĶÜ ĉم التوديƲ والخروجÜ والمđلوف أن يŢف المكان عند النزول. لأنـƞ مناسبة للحديŧ عنƞ كعňقة "الحال بالمحل "Ü وبعد توطيد العňقاĶ بعناŢر المكان المختلƼة في مƲاهرها المادية والروحية Üالحية والميتة واللقاĈ بالغرباĈ والأقارب وƷيرهمÜ

قامـĶ ألƼـة بـين السارد وأهل المكان لذا شيعƞ السكان وودعوه مما شكل لنا خاتمة الوحداÜ ويوحي بƔƼ وحدا أخرă لاحقة.

فالـوحدا متـضامة فـي عناŢرهاÜ رƷم أن الانـتقـال من عنŢر لآخر ليƩ سببيا ولا منطقـياÜ بـل تمليـƌ الاهـتماماĶ النƼسية والروحية التي تƼرƉ الحركة إلǏ أماكن الـزياراÜ وهـذا ما يقوم مقام السببÜ إن الوجود في مكان ما يقتضي ذكر بعƉ ما فيƞÜ ويňحƲ أن التسلسل في هذه الوحدا خاضƲ لنƲام التوازǐ [2]Ü بمعنǏ أن الانتقال من وحدا

---

[1] – الورتيňنيÜالرحلةÜ ŧ :652-655.

[2] – تزفيتان تودوروفÜ الشعريةÜ تر شكرǐ المبخوĶ ورجاĈ بن سňمةÜ مطبعة فضالةÜ المغربÜ ط 1، سنة1987، ŧ 70

إلى أخرى موازية لها في تدرج قد يكون خاضعا لعوامل خارج نطاق الرحالة من زمان وظروف أخرى. وكل هذه الوحدات الجزئية تشارك في إنشاء وحدة قابس بشكل غير متداخل إذ أن وحدة ما إن لم تنته بمسرود ما تبقى خاوية فيهملها السارد ويكتفي بمجرد ذكرها كعنوان لمرحلة ما.وبعد تحليل وحدة صغرى ننتقل إلى تحليل وحدة أخرى تتسم بالطول النسبي ونقترح الوحدة المعنونة بـ: الدخول إلى المدينة المنورة رقم 25 في تسلسل وحدات الرحلة وتمتد بين ص 465 إلى ص 532 بحجم ورقي قدره 76 صفحة وهي منتظمة كالتالي:

أ- التمهيد: ويشتمل على عنصرين:

- تخلف الركب وفيهم والده محمد.
- نور المدينة يغشي أهل الذوق السليم

ب- المتن: ويشتمل على ثماني وحدات صغرى وكل وحدة تشتمل على وحدات أصغر منها وهي :

1- الدخول إلى الحرم الشريف(الصلاة فيه عيد الأرواح)

2- زيارة البقيع ومن فيه:

- (قول مالك قول المراغي مشاهد زيارات الشيعة...)
- مشهد محمد بن عبد الله ...أخو إدريس: - أشراف المغرب
- الصلاة في الحرم وفضلها –خروج نساء المدينة.

3- مساجد المدينة التي تزار ص: 468.

- مسجد قباء. - مسجد الضرار- مسجد مشربة أم إبراهيم عليه السلام
- مسجد الفتح والمساجد التي في قبلته- دعاء صلى الله عليه وسلم فيه.
- دعاء الشافعي في محنته - دعاء أبن عمر
- سبب تسمية يوم الفتح - المساجد التي في قبلته- عددها.
- نقل عن العياشي - عن السيد السمهودي .
- مسجد القبلتين - تعليق.

4-ذكر جبل أحد 476 ص

- زيارا قبر حمزا يوم الخميΣ - ما روĬ من آΝار حول شهداĈ أحد
- زيارا أهل المدينة لشهداĈ أحد في رجب في همساƘ عŪيمة .
- قراĈا القرآن هناا - اعتراƯ أحد الƼقهاĈ عن أفعال أهل المدينة
- رويا وتعليƾ .
- زيارا قبور الأولياĈ وما يجرĬ فيها من البدƳ - تعليƾ
- شهداĈ أحد - مناكر في الجزائر حول قبور الأولياĈ - اجتماƳ بجاية
- تعليƾ
- عودا إلĬ مشاهد أحد - فضلƌ - التداوĬ بترابƌ - الأكل من نباتƌ
- الرأĬ الƼقهي (تعليƾ)
- قبلة هارون وما قيل فيها وما يشعر بƌ عندها - المهراΣ
-مساجد أخرă - مƫلĬ العيد

5- الآبار المƫودا بالزيارا والاستشƼاĈ – (قال لم نذكر إلا ما زرناه) ‭f :490-497‬

- بئر أريΣ وماروă في هذه البئر - عين الأزرƾ والاهتمام وما قيل فيها
- بئر البƫة - بئر بضاعة - بئر نيرحا - بئر روما بئر السير
- بئر ƹرΣ - آبار أخرă.
- تربة ƫعيب والاستشƼاĈ ‭f (497-498)‬
- حال ومواجيد - ما يجد الزائر للمدينة(رƏية ƫوفية)
- حكاية مƳ راهب - حكاياƘ أخرă - تعليƾ وإجازا

6 - عاداƘ أهل المدينة: ‭f :506-523‬

-الخروج للبقيƳ - كنΣ المسجد وشعائر ƫلǄا الجمعة .
- تعطيل الدراسة يوم الƻǄƹ والجمعة . التهيئة بدخول الشهر الجديد
- عادا في إقامة الƫǄا- عادتهم في الجنائز- عادتهم في لمǄكاƘ "الزواج "
- هواĈ المدينة - ƫǄا الاستخارا وفضلها وأحاديƚ المغƼرا.
- عاداتهم في الحر والبردŨ عادا خدمة الحجرا الشريƼة من قبل عبد الأƹواƘ
- العادا بعد الƼراƷ من ƫǄا العشاĈ ومهابة المسجد ليǄŨ (وƫف للعياشي.)

- حراسة المسجد من قبل الأعراب - الخروج إلى الرجبية.

7- ذكر أودية المدينة التي تسيل إذا كثر المطر ص: 523-528

- وادي العقيق وما قيل فيه - سيله نقلا عن العياشي

- وادي الطحان (وسط بيوت المدينة) - وادي قناة (وهو أعظمها)

- وادي رانوناء (والأودية الأخرى الرافدة والمتلقية)

8- العزم على المجاورة واحتجاج الركب على ذلك ص 528-532

- فراق المدينة وعزم على المجاورة

- مرض نسائه - تعريف بأولاد رحاب - احتجاج على مجاورة الورتيلاني

- تفضل كبار أهل الركب بشراء ثلاثة جمال للرحال

9- التوديع:

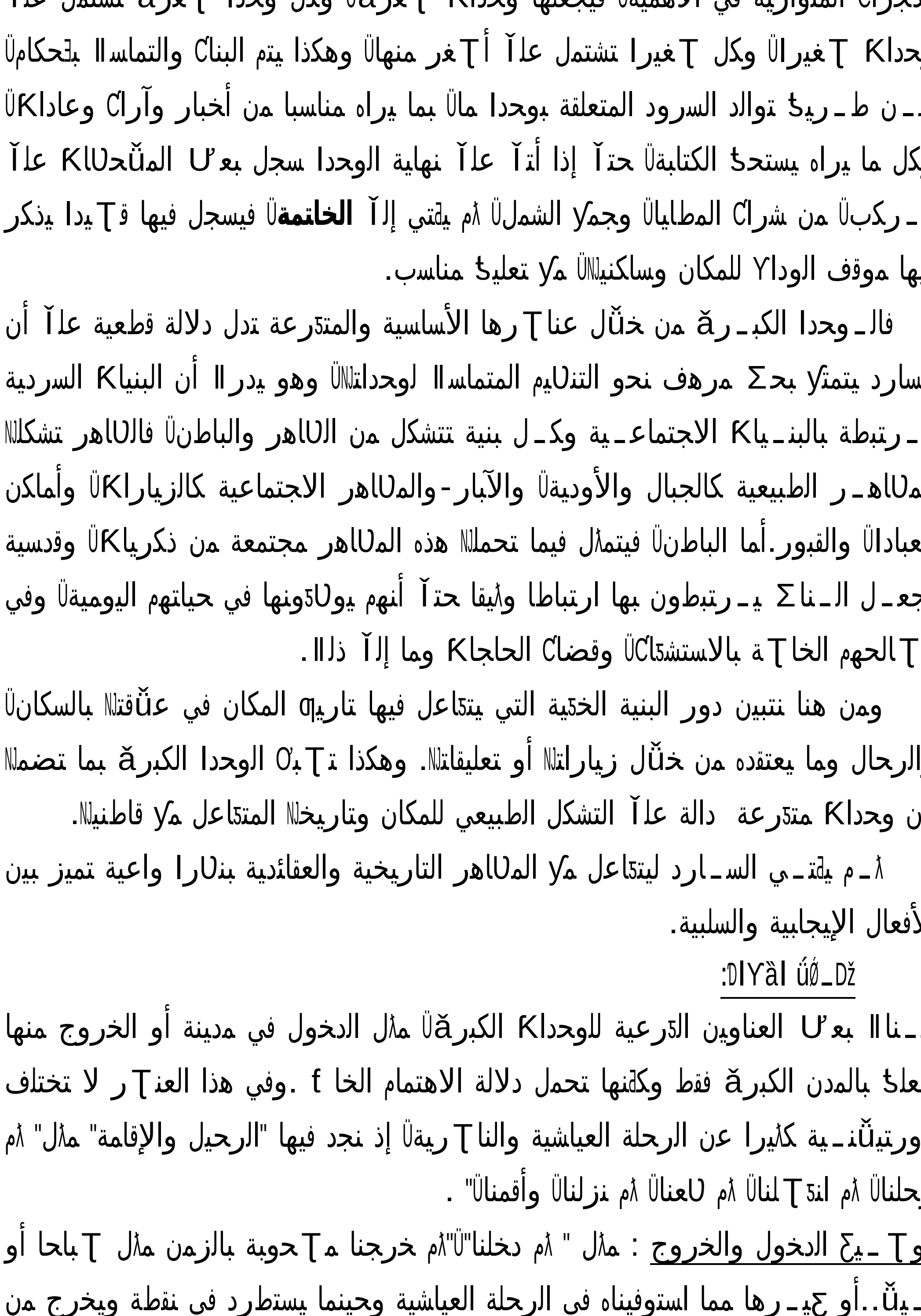
- البدء في الارتحال - انتظاره لولده محمد - الخروج المصحوب بالخوف

- قصيدة من 20 بيتا في الوداع

نلاحظ أنه افتتح الوحدة بتمهيد وضمنه عنصرين ثم انتقل إلى العرض فجعله مشتملا على تسعة عناصر وكل عنصر تنبثق منه عناصر أصغر منها ما هو انبثاقي أي أن الرابط سببي ومنها ما هو متوازي وحضور السارد في مكان ما يقتضي سرد عناصره فيبدأ بذكرها أولا بأول دون مبرر أحيانا إلا الأفضلية التي يرسمها في ذهنه كما في ذكر المساجد وقد يكون المكان سببا لذكر الأفعال فذكر جبل أحد سبب في ذكر أفعال أهل المدينة عند زيارتهم إياه وقد لا نجد سببا مباشرا وإنما تقنية التأليف اقتضت ذكر الآبار والأودية بالتعاقب وهذا شأن السرد الواقعي أحيانا.

ونلاحظ أن تشعب الوحدة قائم عموما على إرادة السارد وما يود الإخبار عنه وهو في ذلك يقتفي أثر العياشي في رحلته.

ثم يختم الوحدة بالإعلان عن الارتحال وما دام السارد سيودع مقام الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يرسل قصيدة يحملها أحاسيسه نحو الحضرة المحمدية وما يشعر به المفارق حين الوداع وهكذا يختم وحدة لينتقل إلى أخرى فالسارد ينظر إلى مثل هذه الوحدة الكبرى نظرة كلية بحيث يفتتحها بتمهيد ثم ينتقل إلى العرض الذي يسجل فيه



الأجزاء المتوازية في الأهمية، فيجعلها وحدات صغرى، وكل وحدة صغرى تشتمل على وحدات صغيرة، وكل صغيرة تشتمل على أصغر منها، وهكذا يتم البناء والتماسك بإحكام، عن طريق توالد السرود المتعلقة بوحدة ما، بما يراه مناسبا من أخبار وآراء وعادات، وكل ما يراه يستحق الكتابة، حتى إذا أتى على نهاية الوحدة سجل بعض المحطات على الركب، من شراء المطايا، وجمع الشمل، ثم يأتي إلى **الخاتمة**، فيسجل فيها قصيدا يذكر فيها موقف الوداع للمكان وساكنيه، مع تعليق مناسب.

فالوحدة الكبرى من خلال عناصرها الأساسية والمتفرعة تدل دلالة قطعية على أن السارد يتمتع بحس مرهف نحو التنظيم المتماسك لوحداته، وهو يدرك أن البنيات السردية مرتبطة بالبنيات الاجتماعية وكل بنية تتشكل من الظاهر والباطن، فالظاهر تشكله المظاهر الطبيعية كالجبال والأودية، والآبار- والمظاهر الاجتماعية كالزيارات، وأماكن العبادة، والقبور. أما الباطن، فيتمثل فيما تحمله هذه المظاهر مجتمعة من ذكريات، وقدسية تجعل الناس يرتبطون بها ارتباطا وثيقا حتى أنهم يوظفونها في حياتهم اليومية، وفي مصالحهم الخاصة بالاستشفاء، وقضاء الحاجات وما إلى ذلك.

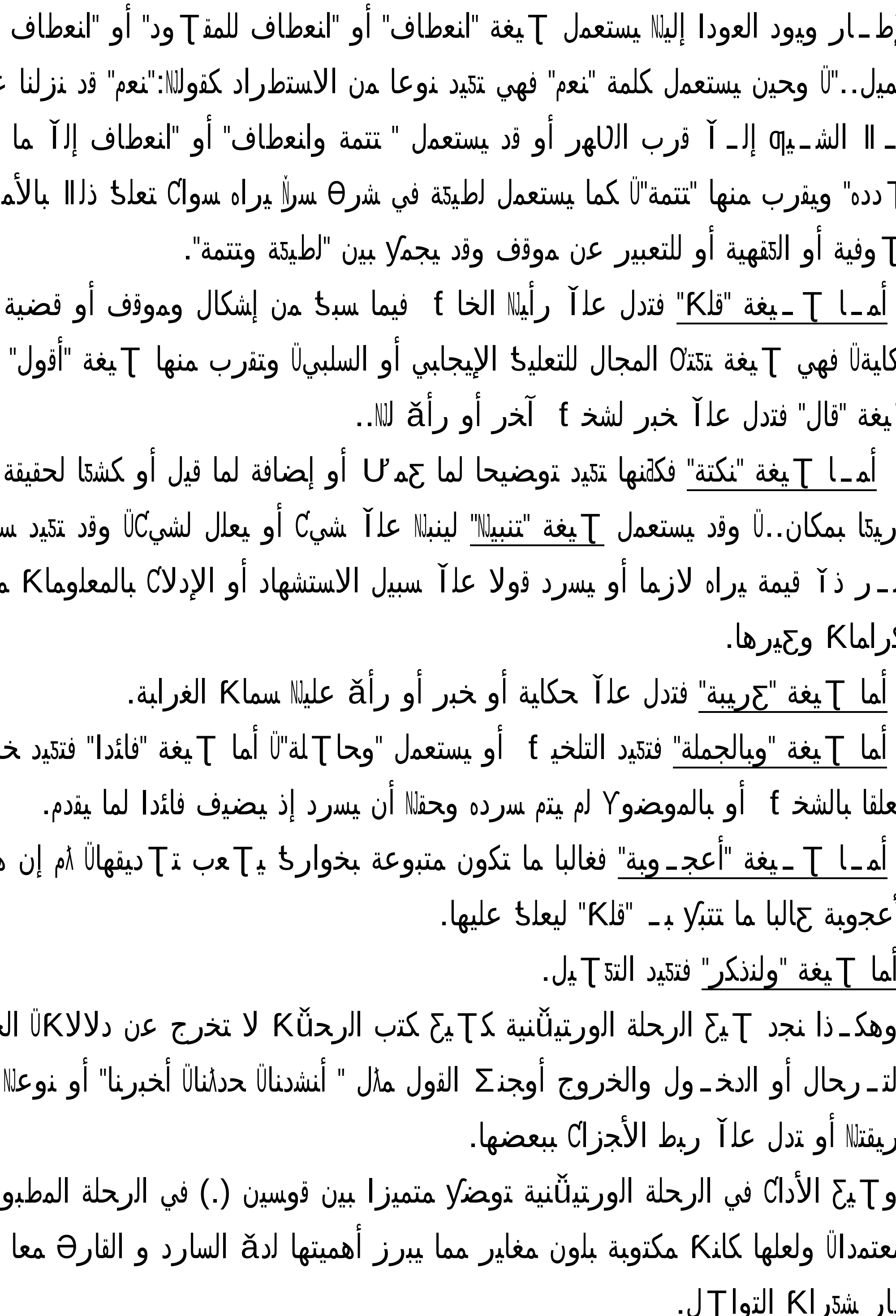
ومن هنا نتبين دور البنية الخفية التي يتفاعل فيها تاريخ المكان في علاقته بالسكان، والرحال وما يعتقده من خلال زياراته أو تعليقاته. وهكذا تصبح الوحدة الكبرى بما تضمه من وحدات متفرعة دالة على التشكل الطبيعي للمكان وتاريخه المتفاعل مع قاطنيه.

ثم يأتي السارد ليتفاعل مع المظاهر التاريخية والعقائدية بنظرة واعية تميز بين الأفعال الإيجابية والسلبية.

:DIYàl ûØ_Dž

هناك بعض العناوين الفرعية للوحدات الكبرى، مثل الدخول في مدينة أو الخروج منها تتعلق بالمدن الكبرى فقط وكأنها تحمل دلالة الاهتمام الخاص. وفي هذا العنصر لا تختلف الورتيلانية كثيرا عن الرحلة العياشية والناصرية، إذ نجد فيها "الرحيل والإقامة" مثل" ثم رحلنا، ثم انفصلنا، ثم ظعنا، ثم نزلنا، وأقمنا" .

وصيغ الدخول والخروج: مثل " ثم دخلنا"،"ثم خرجنا مصحوبة بالزمن مثل صباحا أو ليلا..أو غيرها مما استوفيناه في الرحلة العياشية وحينما يستطرد في نقطة ويخرج من



الإطـار ويود العودة إليه يستعمل صيغة "انعطاف" أو "انعطاف للمقصود" أو "انعطاف في تكميل.."، وحين يستعمل كلمة "نعم" فهي تفيد نوعا من الاستطراد كقوله:"نعم" قد نزلنا عند ذلـك الشـيء إلـى قرب الظهر أو قد يستعمل " تتمة وانعطاف" أو "انعطاف إلى ما كنا بصدده" ويقرب منها "تتمة"، كما يستعمل لطيفة في شرح سر يراه سواء تعلق ذلك بالأمور الصوفية أو الفقهية أو للتعبير عن موقف وقد يجمع بين "لطيفة وتتمة".

أمـا صـيغة "قلت" فتدل على رأيه الخاص فيما سبق من إشكال وموقف أو قضية أو حكاية، فهي صيغة تفتح المجال للتعليق الإيجابي أو السلبي، وتقرب منها صيغة "أقول" أما صيغة "قال" فتدل على خبر لشخص آخر أو رأي له..

أمـا صيغة "نكتة" فكأنها تفيد توضيحا لما غمض أو إضافة لما قيل أو كشفا لحقيقة أو تعريفا بمكان..، وقد يستعمل صيغة "تنبيه" لينبه على شيء أو يعلل لشيء، وقد تفيد سرد خبـر ذي قيمة يراه لازما أو يسرد قولا على سبيل الاستشهاد أو الإدلاء بالمعلومات مثل الكرامات وغيرها.

أما صيغة "غريبة" فتدل على حكاية أو خبر أو رأي عليه سمات الغرابة.

أما صيغة "وبالجملة" فتفيد التلخيص أو يستعمل "وحاصله"، أما صيغة "فائدة" فتفيد خبرا متعلقا بالشخص أو بالموضوع لم يتم سرده وحقه أن يسرد إذ يضيف فائدة لما يقدم.

أمـا صـيغة "أعجـوبة" فغالبا ما تكون متبوعة بخوارق يصعب تصديقها، ثم إن هذه الأعجوبة غالبا ما تتبع بـ "قلت" ليعلق عليها.

أما صيغة "ولنذكر" فتفيد التفصيل.

وهكـذا نجد صيغ الرحلة الورتيلانية كصيغ كتب الرحلات لا تخرج عن دلالات الحل والتـرحال أو الدخـول والخروج أو جزء القول مثل " أنشدنا، حدثنا، أخبرنا" أو نوعه أو طريقته أو تدل على ربط الأجزاء ببعضها.

وصيغ الأداء في الرحلة الورتيلانية توضع متميزا بين قوسين (.) في الرحلة المطبوعة المعتمدة، ولعلها كانت مكتوبة بلون مغاير مما يبرز أهميتها لدى السارد و القارئ معا في إطار شكل التواصل.

III- الخاتمة: في الرحلة الورتيلانية يخبر السارد بالوصول إلى نقطة الانطلاق، حيث استقبل بضرب البارود وعمرت الفرحة العارمة الكل إذ خرج الناس رجالا ونساء لاستقبال الوفد من زمورا إلى بني ورتيلان، قال: "فالجموع من وطننا رجالا ونساء هذا يتصل بنا وهذا ينفصل عنا، إلى أن وصلنا إلى مقامنا ودارنا ليلة الجمعة وليلة العيد، يوم عرفة عام 1181هـ."

- ثم أخبر عن الفتن التي كانت سائدا في المنطقة.
- واستمرار الوفود جماعات للتهنئة والتبرك على مدة شهرين كاملين.
- ثم دعاء بجعل الحج مبرورا والسعي مشكورا، وتجارا لن تبور.

هذه هي نهاية الرحلة أو خاتمتها، لكن السارد بعد هذا جعل للرحلة "خاتمة" أخرى يمكن اعتبارها تذييلا للرحلة لكونها تتعلق بشروط قيام الساعة، قال: " أوردها ليكون الناظر فيها على حذر وليستعد لها أيضا بما يصلح أن يكون زاده"[1].

ثم ذكر أشراط الساعة نقلا عن صاحب كتاب الجمان في اختصار أخبار الزمان، فذكرها فيما يبين 705-712. ثم ذكر صلاة التسبيح وكيفيتها عن ابن عباس.

ثم ختمها بأبيات شعرية في فضل صيام التطوع .

ثم يصرح الناسخ سعيد بن أحمد يدير العباسي القلعي أنه انتهى من كتابتها ضحى يوم الاثنين الثالث من شهر شعبان عام 1182هـ. كما يصرح أنه نسخها إلى الشيخ من مسودته تقربا وتبركا ثم دعا دعاء خاصة له وللمؤمنين عامة.

ونسجل في الخاتمة:

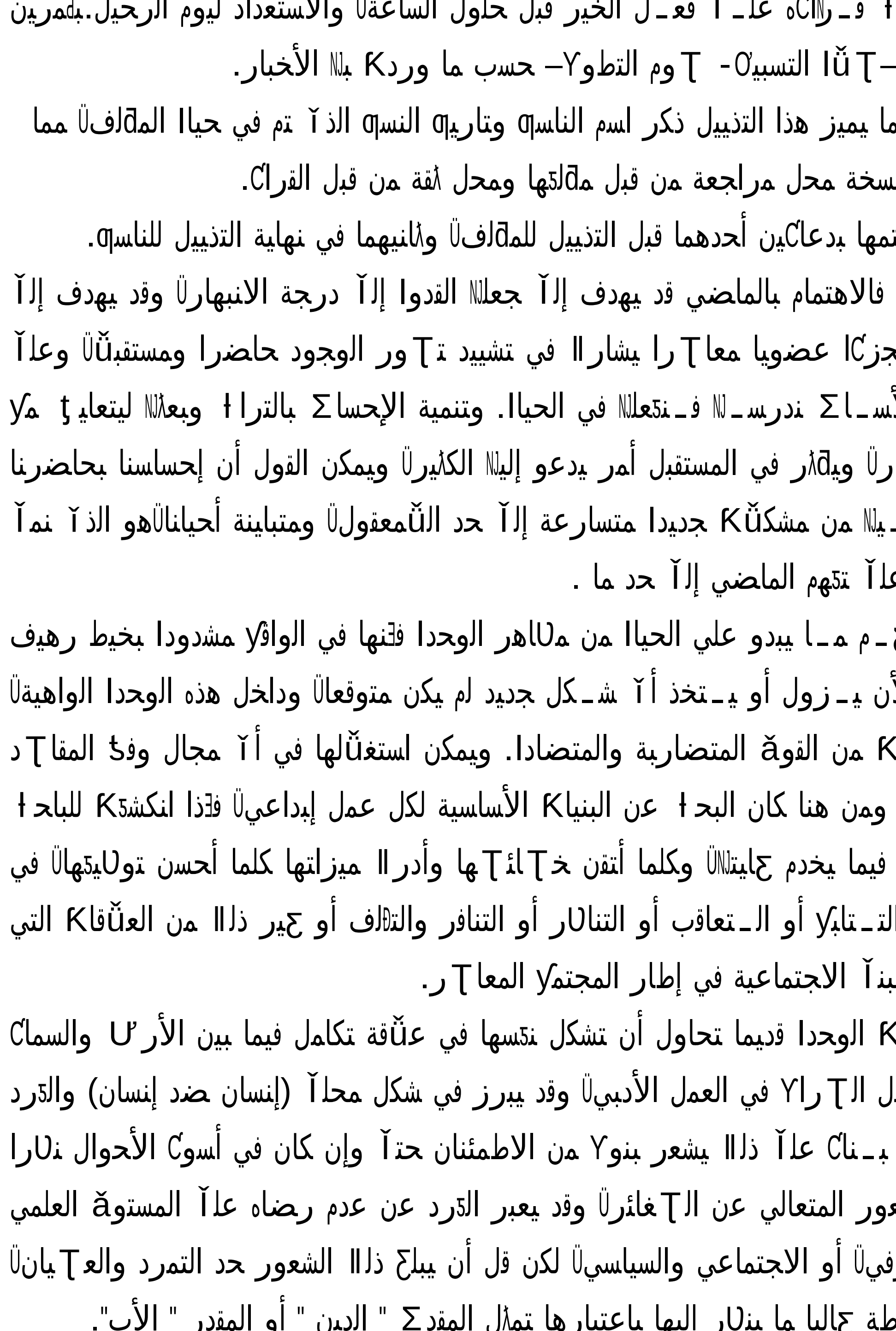
1- مظاهر الحفاوة بالرحال حيثما حل قبل بدء الرحلة وعند الانتهاء، مما يبرز مكانته الاجتماعية و الدينية.

2- ظاهرة الاحتفال بضرب البارود، وقد وجدناها عند الغزال أيضا مما يجعلها ظاهرة عامة في المغرب أثناء القرن الثامن عشر.

3- انتشار الفتنة في بلاد القبائل كما أشار إلى ذلك في التمهيد والخاتمة، أما التذييل فيصعب أن نجد له موضعا واضحا إلا ما يمكن اعتباره من اهتمامات السارد الذي أراد

---

(1) – الورتيلاني، الرحلة، ص: 705.



أن يحـث قـراءه علـى فعـل الخير قبل حلول الساعة، والاستعداد ليوم الرحيل. بثمرين تطوعين – التسبيح – يوم التطور – حسب ما ورد في الأخبار.

ولعل ما يميز هذا التذييل ذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ الذي تم في حياة المؤلف، مما يجعل النسخة محل مراجعة من قبل مؤلفها ومحل ثقة من قبل القراء.

ثم اختتمها بدعاءين أحدهما قبل التذييل للمؤلف وثانيهما في نهاية التذييل للناسخ.

فالاهتمام بالماضي قد يهدف إلى جعله القدوة إلى درجة الانبهار، وقد يهدف إلى جعلـه جزءا عضويا معاصرا يشارك في تشييد تصور الوجود حاضرا ومستقبلا، وعلى هـذا الأسـاس ندرسـه فـنتعلمه في الحياة. وتنمية الإحساس بالتراث وبعثه ليتعايش مع الحاضـر، ويؤثر في المستقبل أمر يدعو إليه الكثير، ويمكن القول أن إحساسنا بحاضرنا ومـا فـيه من مشكلات جديدا متسارعة إلى حد اللامعقول، ومتباينة أحيانا، هو الذي نمى قدراتنا على تفهم الماضي إلى حد ما .

ورغـم مـا يبدو علي الحياة من مظاهر الوحدة فإنها في الواقع مشدودة بخيط رهيف قابـل لأن يـزول أو يـتخذ أي شـكل جديد لم يكن متوقعا، وداخل هذه الوحدة الواهية، مجموعات من القوى المتضاربة والمتضادة. ويمكن استغلالها في أي مجال وفق المقاصد الغائـية ومن هنا كان البحث عن البنيات الأساسية لكل عمل إبداعي، فإذا انكشفت للباحث وظيفتهـا فيما يخدم غايته، وكلما أتقن خصائصها وأدرك ميزاتها كلما أحسن توظيفها، في إطـار التـتابع أو الـتعاقب أو التناظر أو التنافر والتآلف أو غير ذلك من العلاقات التي تحياها البنى الاجتماعية في إطار المجتمع المعاصر.

كانـت الوحدة قديما تحاول أن تشكل نفسها في علاقة تكامل فيما بين الأرض والسماء ولـذا يقل الصراع في العمل الأدبي، وقد يبرز في شكل محدد (إنسان ضد إنسان) والفرد المسـلم بـناء على ذلك يشعر بنوع من الاطمئنان حتى وإن كان في أسوء الأحوال نظرا لهذا الشعور المتعالي عن الصغائر، وقد يعبر الفرد عن عدم رضاه على المستوى العلمي أو المعرفي، أو الاجتماعي والسياسي، لكن قل أن يبلغ ذلك الشعور حد التمرد والعصيان، لأن السلطة غالبا ما ينظر إليها باعتبارها تمثل المقدس " الدين " أو المقدر " الأب".

وكان العلم يمكن أن يتعلم، ويمكن للناس أن يسيطروا على كثير من تخصصاته بل إن مجالات العلوم تكمل بعضها – من هنا كانت الرحلة ذات التوجه الموسوعي [أدب، فلسفة، فقه، تصوف، فلك، طب...] في حين يكاد الأمر يصبح مستحيلا الآن بل إن هذه العلوم والمعارف غالبا ما تبدو متناقضة ومتصارعة تصارع وحدات المجتمع نفسها فالتناقض والتناحر سمة عصرنا، والتكامل والتوافق والمعايشة سمة ننشدها في المستويات المعرفية على الأقل.

والرحلات خاضعة لقصدية مسبقة يحدد فيها الرحال زمن الإنجاز والمكان المقصود والطريق المسلوك والمهمات التي ينبغي إنجازها، وقد يحصل بعض الاختزال للأهداف والأماكن، مما كان مخططا، وقد يحصل أيضا بعض التعديل في الشكل الهيكلي مما يجعل الرحال يتكيف مع الأوضاع الجديدة، وفي حالات نادرا يحدث تحوير للخطة كما حصل لابن بطوطة الذي خرج للحج ثم سار في الأرض، وكما حدث للتجاني الذي عدل عن الحج بسبب المرض، وللزياني في بعض أسفاره.

ويمكن أن نحدد هيكلة الرحلة كالتالي: الاستعداد والتهيئة- الانطلاق في الإنجاز - بلوغ الهدف – العودة إلى نقطة الانطلاق، وسواء كانت الرحلة حينئذ حجازية أو سفارية أو تعليمية فإنها لا تخرج عن هذه البنية العامة، ما دامت منضوية تحت جنس الرحلة، ومن الممكن أن بعض الرحلات تحمل خصوصيات كالملحق التي تأتي بعد العودة كرحلة ابن حمادوش أو تضخم مرحلة الاستعداد كالرحلة الورتيلانية في تمهيدها الواسع.

لقد كان ذلك قائما في السرديات العالمية الشبيهة بالرحلة حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم استهجنت هذه التدخلات. وهذا ما يجعلنا نصر على أن الرحلات من الخلفيات التاريخية والفنية التي تولدت عنها الرواية إن لم يكن ذلك على مستوى السرد العربي فإنه كذلك على مستويات السرد العالمي.

هذا ما كشفت عنه دراستنا لتحليل بنيات الرحلات مع كون متونها تتسم بالصبغة المماثلة لمراجعها الواقعية إلا ما كان من رحلة ابن بطوطة التي تضم بعض الحكي العجائبي.

الفصل الثاني

äØdž_____U‡Jl ä__ØDz__ƛ

Ʒ__Ø_Ă϶ơ

كانت الدراسات الخاصة بالرواية تخضع خضوعا كاملا للشخصية ثم صارت لا تحفل بهـا إطلاقـا كـردّ فعـل على الحفاوة البالغة بالدراسات السيكولوجية. لذا كانت مقولة الشخصية غامضة إلى حد بعيد في الدراسات السردية المعاصرة. فهي تتراوح بين كونها علامـة مـن بين العلامات الأخرى يجري عليها ما يجري على العلامة[1]، إلى كونها فضـاء تلتقي فيه العناصر المختلفة التي "...لا تمتلك التماسك والمعقولية إلا فيما يـتعلق بالشخصـية الشيء الذي يمنحها معنى ويجعلها ممكنة الإدراك"[2]، والشخصيات ليسـت: " كائـنات بشرية بالمعنى الحرفي للكلمة، فإنها مصاغة في جزء ما على غرار تصـور القـارئ للـناس... فالتشـييدات شبيهة بشرية."[3]، وهي أنواع منها: الشخصيات المرجعية، وهي التي تحيل على عالم سبقت المعرفة به، عالم معطى من خلال الثقافة أو الـتاريخ (الشخصـي أو الجماعي). وما يطلب من القارئ هو التعرف على هذا التاريخ وبالتالـي التعـرف على هذه الشخصيات[4] من خلال الأعمال التخييلية من قصة ورواية وغيـرهما، وشخصـيات الـرحلات تحيل إلى أشخاص حقيقيين يقومون بتجارب السفر، وحـولهم يدور حكي الانتقال من مكان إلى آخر، وحكي الالتقاء بالعلماء، وحكي المراتب العلمـية التي يتبوؤها السارد والإجازات ومناقشة ما يطرح من قضايا أو تعليقات، وهكذا حيـنما ننتهي من قراءة الرحلة تبقى لنا هذه الصورة لاسم العلم الذي قام بفعل الارتحال فنتحدث عنه كشخص من خلال رحلته.

إن الشخصية تعيش التجربة الرحلية مرتين: مرة أثناء حركة الجسد، ومرة أثناء حركة الملفـوظ[5]، فـي المستوى الأول يتحول الجسد إلى مساحة تتحدد بالمكان الذي يحل فيه، وفي المستوى الثاني يصبح مجموعة علامات تتأطر في الجسد وتقيد صياغته من جديد في حكاية الرحلة، يقول باختين: " إذا رويت حدثا ... عشته قبل قليل، فإنني بروايتي (شفويا أو كتابيا) هذا الحدث أكون مسبقا خارج هذا الفضاء- الزمن، الذي وقع فيه الحدث، قطعا

---

[1] - انظر فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، ط1، سنة 1990، ص: 8.

[2] – شلوميت ريمون كنعان، التخييل القصصي، ص 58.

[3] – نفسه، ص: 94.

[4] – ينظر المرجع السابق، ص: 98.

[5] – أنظر عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن 19، ص: 166.

لا يـتم التطابق مع النص، فإن تماثل أنا، "أنا" التي أرويها أمر متعذر ومستحيل بمقدار صعوبة أن يشد شخص شعره بنفسه." [1]

فالخطـاب السـرد في الرحلة يتابع المشاهد المروية أولا بأول وعلى مدى واسع من الصـفحات وداخلها تلتقي تلك التصرفات التي تقوم بها الشخصية، والأحاديث التي تجريها والانطباعات التي تقيمها، واختيار ما يناسب ذوقها ويوافق اهتمامها.

لقـد تـراجع البنيويون أنفسهم عن اعتبار الشخصية علامة، وحتى بارث " يتأمل في إمكانية أن ما هو حقيقي للقص ليس الفعل وإنما الشخصية كاسم العلم، ويسعى فيراراً إلى تشييد نموذج للتحليل البنائي للتخييل القصصي، مع اتخاذ الشخصية كمفهوم مركزي."[2]،

ونجد الشخصية هي التي تتعامل مع الأشياء والأحداث، وهي التي تنشئ الأقوال أو تنقلها والكـل فـي الرحلة لا يمر إلا من خلالها، ولذا كانت الشخصية:"...مقولة لسانية لتشكيل خطاب الملفوظ."[3] وعليها وبها يقوم بناء الرحلة.

حيـنما درسنا نظام الوحدات كنا قد أشرنا إلى الشخصية التي تنجز تلك الوحدات وتؤدي تلك الوظائف، فالسارد بوصفه علامة نصية لا يبدو أنه يتمتع بكل الاستقلال عن المؤلف، إذ يشـير إلـيه وإلى مرجعيته وإلى إنجازاته وتفاعلاته مع المكان والناس والكل يتماهى تحت اسم العلم القائم بالرحلة.

فالشخصـية الـرحلية ليست "... شخصا شبحيا يمتلك صفات كل الأشخاص إلا الوجود البدنـي." [4] بل هي شخص حقيقي يمتلك الوجود البدني، وتتجلى بعض صفاته من خلال العمل المسرود، واسم العلم له وجود حقيقي في الواقع ويتمتع بسيرته الذاتية الخاصة به، ومنه رحلته، وما نملكه عن هذه الشخصية مجموعة من الملفوظات التي تعيننا مجددا على التخييل الواقعي الفعلي، في شكل لا نجزم أنه يقترب من الحقيقة إلا بمقدار ما يقترب ظل شـمع فـي ضوء خافت من حقيقة الشيء نفسه، لهذا فنحن سنقوم بعملية إعادة التشييد لشخصـية الـرحال، ومـن المعروف أن الشخصيات المرجعية تخضع لترسيمة حددت

---

(1) – وائل بركات (مترجم) مفهومات في بنية النص، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سنة1996، ص: 98.

(2) – شلوميت ريمون كنعان، المرجع السابق، ص: 57.

(3) –عبد القادر الشاوي، الكتابة والوجود، السيرا الذاتية في المغرب، إفريقيا الشرق، المغرب/لبنان، ط1، ديسمبر1999، ص 51

(4) – والاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، ص: 155.

عناصرها: " فئة الشخصيات المرجعية: شخصيات تاريخية، ...شخصيات أسطورية... شخصيات مجازية... شخصيات اجتماعية، تحيل هذه الشخصيات كلها على معنى ممتلئ وثابت، حددته ثقافة ما. كما تحيل على أدوار وبرامج واستعمالات ثابتة. إن قراءتها مرتبطة بدرجة استيعاب القارئ لهذه الثقافة." [1]

شخصيات مرجعية

ش. تاريخية — ش. أسطورية — ش. مجازية — ش. اجتماعية

ومن المؤكد أن شخصياتنا تاريخية ذات حياة مستقلة تماما، ووجودها في النص من خلال ما سجله التاريخ عنها، ومن خلال مقولاتها داخل الرحلة، وهي تتعامل مع القسم الثالث مما سماه هامون بالشخصيات الاستذكارية من الاستشهاد بالأسلاف.[2]

لـذا تتضـخم الـرحلات عن طريق التعرض للشخصيات الاستذكارية ذات العلاقة بالمرجعي والتقريري.

[illegible] المتكلم

ولهذا تسرد الرحلات بضمير المتكلم، الذي هو ضمير الحضور، فصاحبه يجب أن يكون حاضرا وقت النطق بها، ومن هنا كان الوجود الفعلي للشخصية على مدى النص، ويتجلى ضـمير المـتكلم كبؤرا مركزية للقول والفعل والمواقف باعتباره فاعلا و مفعولا، راحلا ومسـتمعا للعلماء، ومنشدا للأشعار، ومعلقا على ما سمع أو رأى، أو قرأ، باحثا ومحققا، إنـه يفعـل ذلـك ليضفي بعض الصفات المكتسبة على الذات لترشيحها تدريجيا لتكون شخصـية عالمـة، محققة، باحثة. فضمير المتكلم "تصريح بالوجود المفرد المؤسس على تجربة خصوصية لا تسري عليها المقارنة بغيرها."[1]

(1) – فليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية تر: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط 1990، ص: 24.

(2) – المرجع السابق، ص: 25.

(1) – عبد القادر الشاوي، الكتابة والوجود، ص: 52.

فـي الرحلة يسرد السارد/الشخصية نفسه حينما كان فاعلا، أي أن الشخصية تصبح "أنـا ساردا " لـ " أنا مسرودا " والانا الأولى مختلفة عن الثانية: الأنا الساردا تتكلم في الحاضـر القصصي، عن الأنا المسرودا في الزمن الماضي، فالأنا الساردا بخلاف الأنا المسـرودا هـوية مـزدوجة، فقد عاشت مغامراتها واقعا حدثيا في الماضي، ثم إذا هي تعيشها في الحاضر بعملية القص واقعا سرديا لغويا.

فالأنـا المسرودا مدلول قصصي في حين أن الأنا الساردا، دال قصصي، ونؤكد على أن الشخصـية الـرحلية هي التي تسوق الحدث إلى الأمام أو إلى الخلف أو بشكل دائري باعتـبارها تعـرف ما ينبغي أن تكتبه، وما لا ينبغي، والسارد قد يكون هو المسرود، لذا تتـبادل المواقـع علـى مستوى ضمير المتكلم "المفرد" و"الجمع" وضمائر الغائب، وهذا التـبادل دائـم الحضـور على مستوى الوقائع الحدثية والشخصيات المحاورا، والأخبار المـروية، والآثـار الموصوفة، وهذه قضية لغوية وقفنا عندها لنتبين المستويات السردية والشخصـيات ذات الأهمية القصوى في السرد، ونوضح " المنهج أو الطريقة الفيلولوجية التي تتابع، ونلاحظ التغيرات التي تطرأ على المضمون الأدبي وتحكم عليه".[2]

وضـمير المتكلم يجعل الخطاب منسوبا إلى الذات في زمنها الحاضر في السرد وهي الذات المركزية المعبرا عن كل ماهو أصيل ونقي والأنات الأخرى تدخل ضمن رقابتها، وأما حين يتنازل السارد/الشخصية عن دوره لسارد آخر يروي بضمير الغائب فإنه يحيل علـى زمن آخر غير زمن السارد/الشخصية." ظاهريا على الأقل وبذلك تنهدم الشخصية والسارد المؤلف الذي يدرك المكتوب، فهو المتحكم فيه والمنشط والموجه له.[3] وإذا كان الـبعض يـرى أن " ضـمير الغائـب يعطـي الكاتـب مسـافة تفصـله عـن ذاته، وتعطـيه أقصـى مـا يمكن من الموضوعية ظاهريا على الأقل"[1] فإننا نرى أن ضمير الغائـب هـنا لا يختلف عن ضمير المتكلم، ولا يتيح مجالا للموضوعية أكثر مما يتيحه ضـمير المـتكلم، لكون الأيام لطه حسين رويت بضمير الغائب، وفيها كثير من الذاتية،

---

[2] – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شعبان1919/ ديسمبر1998، ص 95.

[3] - ينظر المرجع السابق، ص :185.

[1] - محمد كامل الخطيب، المغامرا المعقدا، منشورات وزارا الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1976، ص :44.

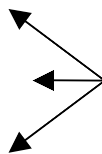
والرحلة، روي بضمير المتكلم وأغلبها أحداث موضوعية، فالموضوعية والذاتية ليستا خاصتين بالضمائر وإنما الضمائر إحدى المؤشرات الموجهة، وما يدل على الذاتية والموضوعية هي العناصر السردية الأخرى و كيفية التعامل معها..

الاسم العلم: يحمل الرحالون أسماء حقيقية لها وجود بالفعل، وتتحدث عن هذه الأسماء كتب التراجم وغيرها، وعلاقة الضمير باسم العلم تكون صحيحة لغويا بحيث يصح كل ضمير يحيل على اسم علم ما. "ومعلوم أن العرب عنيت باسم العلم ذلك اللفظ الذي يدل على تعيين مسماه تعيينا مطلقا أي غير مقيد بقرينة تكلم أو خطاب أو غيبة، أو إشارة حسية أو معنوية أو زيادة لفظية، وما ذلك إلا أن مدلوله يطلق في الغالب على شيء وشخص متميز عن غيره[2]، واسم العلم قد نجده في الرحلة فقيها أو صوفيا أو أديبا بارعا أو شاعرا أو غير ذلك.

والمؤلف يعني الجنس الذي يكتب فيه فيسميه رحلة، كما يعني ذاته ويكتب عنها، ضمن ميثاق معنوي يعقده بين قارئه ومؤداه أن ما سيقرأه رحلة قام بها اسم معين بكل ما علق بهذا الاسم خلال حياته الإبداعية أو غيرها، بل إن اسم العلم يسمي مؤلفه تقييدا، ومفهوم التقييد أحيانا " يتجاوز عملية الكتابة ذاتها ليصبح في بعض نماذج الرحلة المغربية مدعاة للفخر والاعتزاز بحكم ارتباطه بالمؤسسة الرسمية مؤسسة ديوان الكتابة..."[3]

وهكذا تصبح الشخصية في الرحلة هي المؤلف صاحب اسم العلم الخاص والسارد الذي يسند إليه السرد، والمتكلم بضمير المتكلم الذي تتعدد مواقعه، وإن كان التمييز بين هذه المواقع ممكنا، ولكنها جميعا تؤول إلى شيء واحد بالنسبة للقارئ.

ويمكن التوضيح كالتالي: [1]



---

(2)– ينظر عبد القادر الشاوي، الكتابة والوجود، ص: 52.

(3) – عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية ق19، ص: 152.

(1) – الشكل مأخوذ عن المرجع السابق مع تعويض الشخصية مكان السارد وتغيير ما يناسب المقام، ص: 155.

والشخصية في الرحلة صعبة المنال لا تقدم نفسها، ولا يهتم ساردها بمظاهرها الخارجية، حتى كأنها أصوات حين تتحدث، أو يتحدث عنها، ورغم أن توما شيفسكي وبارث لا يعنيان شخصيات الرحلة ولكن قولهما مناسب إلى حد ما إذ يريان بأن الشخصية ما هي إلا فتات لفظي من حيث المظهر المادي والأفكار والمشاعر، وكل ذلك وجد بنحو متراص بواسطة اسم علم[2]

[illegible]: ورغم ذلك فسنسأل عن كيفية تشييد الشخصية وبنائها من خلال ما نقرأ في

يقوم الدارسون في الأعمال التخييلية برصد السمات الخاصة بالشخصية عن طريق الإدماج المتنامي للسمات بشكل عمودي أو أفقي، ويمكن رصد السمات النعتية والفعلية، كما يمكن رصد السمات المكررا والمتفردا، والسمات المتضادا أو المتشابهة وغيرها.

وهذه المبادئ صالحة للشخصيات الروائية، ويمكن الاستفادا منها لدراسة الشخصية الرحلية رغم صعوبة تحويلها إلى إجراء عملي، لذا ينبغي أن نحاول تشييد الشخصية الأساسية من خلال:

-أ وصفها الخارجي، وإن كانت هذه الأوصاف نادرا جدا في الرحلات المغربية القديمة.

-ب من خلال أفعالها الأساسية التي يراها الدارس تحمل سمات معينة أو تشخصها.

ج- من خلال ما تصرح به الشخصية من أقوال الآخرين أو من الذات مما يجسد البنية الفكرية أو الشعورية الخاصة، أي أننا ندرس الشخصية من منظور داخلي وخارجي وسلوكات متكررا أو متشابهة مما له دلالة معينة في توصيف بعض الملامح.

وننظر إلى الشخصية باعتبار ما تقوم به من أدوار لأنها هي التي تنشئ المعنى الكلي للنص، ذلك أن تسنين القيم يفرض تسنينا خاصا للفعل الحدثي، فالاهتمام منصب على الأعمال أكثر من الاهتمام بالصفات والمظاهر.

وفي الرحلة يصعب الغوص في عمق الشخصيات، لافتقادنا الملفوظات الدالة عما يعتمل في الصدور فقلما ندرك بعض الاهتمامات من خلال ما تصرح به الشخصية، ولعل هذا ما يجعلنا نقرأ الرحلة بهدوء وفتور، ذلك أن السارد يكتفي بما يظهر من الأشياء والحركات، وما يسمع من أقوال، أما الخلجات الداخلية فتكاد تنعدم، وهكذا يبقى القارئ

---

(2) – ينظر: والاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، ص: 155.

غيـر مـتماه مع الشخصيات باستثناء الوضع الزمني إذ يحوّل القارئ الماضي حاضرا، ويصبح الاستغراق جزئيا. في حين يكاد يكون في النص المتخيل كليا.

فالشخصـية الرئيسـة للرحلة لا تخلق حوارا مباشرا مع الشخصيات التي تلتقي بها، ولا تفسـح لها المجال لتخاطبنا فهي تعرف بشخصياتها التي تلتقي بها ولا تعرّف بنفسها، وما يسـمح بـه مـن أقوال الشخصيات الأخرى وأفعالها وأوصافها يمر من خلال شخصية الرحال المعتمدة على الذات، وتعدد الصفات وتراكم الخبرات المعرفية الخاصة كالحكمة، وحسـن التصرف، والشجاعة، وغيرها مما يميز شخصية الرحال بين مرافقيه، "إن الأمر يـتعلق في جميع الحالات بمحاولة النظر إلى كل السلوكات والمواصفات والأحداث عبر وجهة نظر واحدة ترمي إلى خلق كون ثقافي ...يتطابق مع الكون الثقافي المعبر عنه من خلال صوت السارد..."[1]

ورغـم ذلـك فهذه الشخصية التي يمر كل شيء عبرها تتلقى بعض المساعدات كالإعانة على الطريق وإشباع نهم حب الاطلاع والتوثيق والتعلم، والمساعدات الأمنية في السفر من قـبل الرفقة أو موكب الحج، كما تتعرض للحالة بينها وبين مشاريعها العملية التي تتحول إلى ملفوظات سردية تصف أهم مظاهر الإعاقة الممثلة في فوات الركب، وقطاع الطرق، وأنظمة المرور من قطر إلى آخر، إلى جانب الإعاقات الذاتية كالمرض أو غيره.

<u>الشخصيات الثانوية</u>: تدخل شخصيات جديدة في الرحلة عن طريق اللقاء المباشر، وتكون هذه الشخصيات ذات وجود حقيقي، يعرف بها السارد ويقدمها من خلال نصـه، بالإضـافة إلى بعض الصفات التي يسجلها السارد عن طريق الرؤية أو السماع، وغالبا ما تختفي هذه الشخصية بعد أن تترك أثرها في متن الرحلة، وبعد أن يسـجل السـارد بعض أحكام القيمة لها أو عليها مما يراه مناسبا وهذا اللقاء لا يكون محددا بدقة في الزمان والمكان، وإن كانت هناك استثناءات.

وشخصـيات الرحلة غالبا ما تكون متممة للشخصية الأساسية أو لشخصية مثالية تطمح شخصـية الرحال إلى لقائها والاعتراف ببعض صفاتها أو نقل بعض علمها، ويمكن القول أن هذه الشخصيات كلها تتمتع بصفة "الإنسان الأدبي الذي ينظر إلى الحياة بعيون الأدب

---

(1) – سعيد بنكراد، النص السردي نحو سيميائيات للأيديولوجيا، دار الأمان، الرباط، ط1، 1996، ص: 63.

ويحاول أن يعيش وفقا للأدب .."[1] بمفهومه الواسع المستعمل قديما، ولا ينفي ذلك وجود شخصيات أخرى مناقضة أو مضادة، ولكنها قليلة، فشخصية الرحالة تفتقد "لملامح سيكولوجية أو فسيولوجية، فهي شخصية لا تبكي أو تضحك لا هي بالسمينة أو النحيفة، إنها شخصية فكرية تمارس الارتحال عبر حد لها من العالم المرئي بمكوناته الإنسانية وغير الإنسانية "[2] لذا سنتبنى تصور الشخصية وأدوارها وفق نظرية العوامل التي تقتضي اختصار العدد اللامحدود من الشخصيات إلى عدد قليل من النماذج المعروفة، وكما يقول بعض الدارسين "...لكي تكون الطبيعة الإنسانية قابلة للفهم ينبغي أن يكون في الإمكان نسبتها إلى فئات تظل محدودا مهما تعددت واتسعت"[3]، وإذا كان الروائي يفعل هذا، فعلى الناقد أن يطبق المنهج نفسه في حصر قضاياه ليتم التواصل الأدبي بشكل سليم.

ولن نسائل الرحلة باعتبارها رواية لأنها في الأغلب الأعم تحاكي التاريخ، وتفتقر إلى اللمسات الخاصة ببناء الشخصيات الروائية، ففي الرحلة يتم كل شيء في خط مستقيم منذ الانطلاقة إلى العودة وإلقاء عصا التسيار.

[illegible]:

من سمات الشخصية في النموذج العاملي كونها مجردا معنوية، فقد تكون فكرا أو جمادا أو تاريخا، فهي دور أساسي في الحكي بغض النظر عمن يؤديه، وينقسم هذا المفهوم قسمين:

1- مستوى عاملي مجرد يهتم بالأدوار ولا يهتم بالذوات المنجزة.

2- مستوى تمثيلي تتخذ فيه الشخصية صورة فرد يقوم بدور ما في الحكي، فهو شخص فاعل يشارك مع غيره في تحديد دور عاملي واحد أو عدة أدوار عاملية، وعدد العوامل محدود بستة وعدد الممثلين لا حدود له. ويورد الدارسون الترسيمتين التاليتين لتوضيح دور العامل والممثل.



[1] - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص: 160.

[2] – عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، ص: 33.

[3] – أ.أ. مندلاو، الزمن والرواية، تر: بكر عباس، ص: 46.

عامل 3Y 2Y 1Y

" وهـذا يعنـي أن ذاتا واحدا بإمكانها أن تسهم في عدة عوامل أو أن تسند لها وظائف مخـتلفة (ذات، مرسـل إليه، معارض)...وبالمقابل يمكن أن تشترك عدة ذوات في دور واحد: الذات الجماعية، المجموعة والكتلة التي تسعى إلى تحقيق موضوع مشترك الطائفة والقبـيلة والحـزب..."(1)، فالمجال الحدثي قد يتجسد في شخصية بعينها يطلق عليها اسـم المرسـل أو في عدة شخصيات، والشخصية الواحدة قد تجسد مجالا واحدا أو عدة مجالات، والمجالات عند غريماس تجمع في ثلاثة أزواج باستمرار وهي:

مرسل ← موضوع ← مرسل إليه.

↑

مساعد ← ذات → معارض.

هذا النموذج " يحدد بنية العلاقات العامة التي تحكم النص ...في مستواه الظاهري المعبر عـنه بالمستوى السطحي، الذي تقوم فيه في الوقائع الذي يبدو فيه محكوما بالبنية العميقة وكأنـه... صـلة وصـل بين العالم المتخيل والعالم المتمظهر، وهو ما سماه غريماس " A.J.Greimas" نموذج العوامل"(2) وما دام السرد يقوم في أساسه على التحول من طور إلى طور والانتقال من حال إلى حال فإن النموذج العاملي يمر بمتنوع من الانتقال.(3)

"وتقتضـي الدراسة في مرحلة من مراحلها فك سنن السرد بإعادة بناء مجموعة العمليات المعنـية، مـن ثمة بناء نحوي على جانب من التعقيد، وهو موضوع دراسة السردية المولدة بدورها من البنية العميقة."(1)

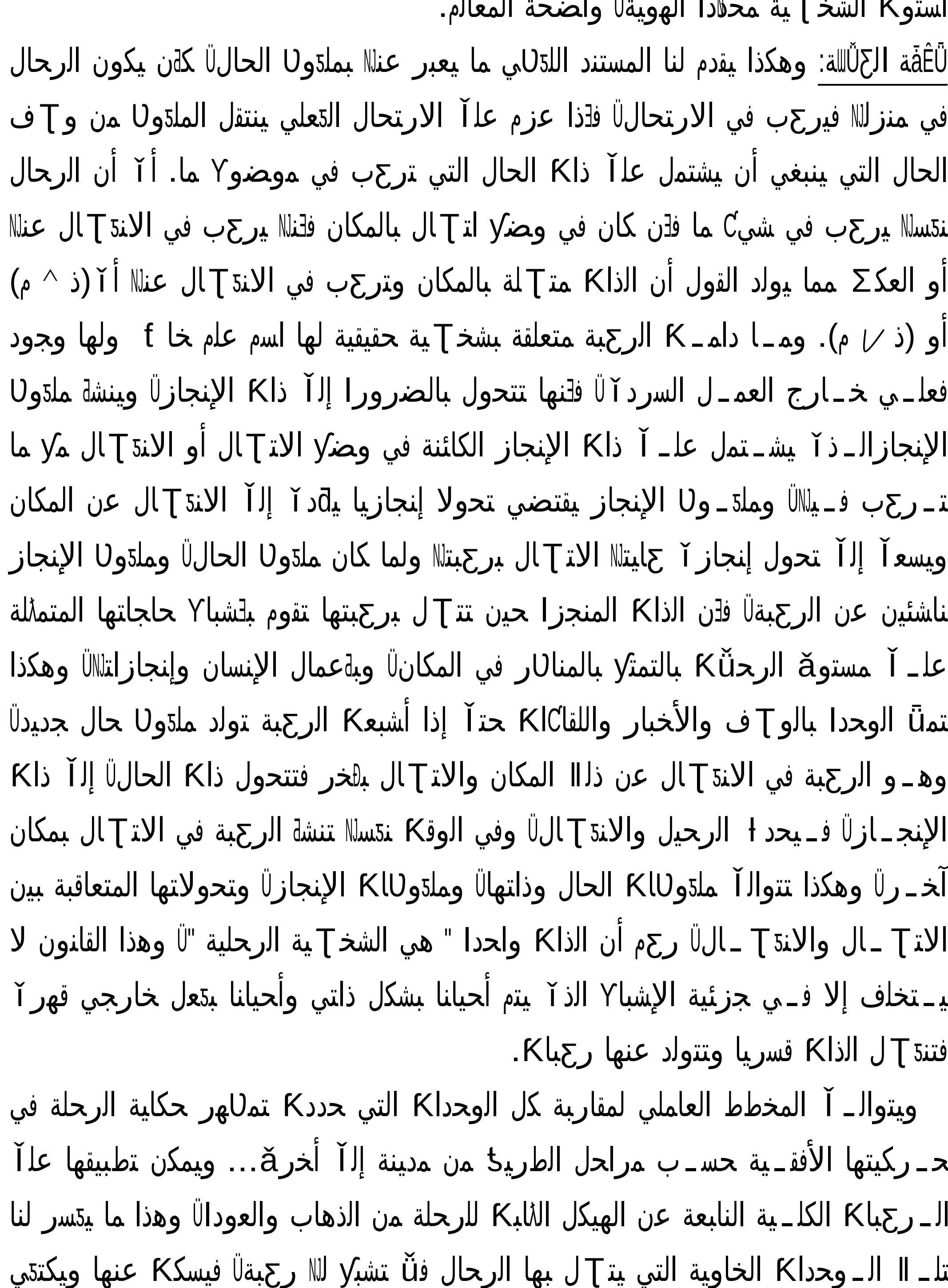
والكائـنات التـي تقـدم من خلالها الحكاية إما أن تكون ثابتة أو متحركة، فالمتحركة مـتعلقة بالوظائف والثابتة تعين الأوصاف، ففي بداية الخطاب تبدأ المستندات اللفظية في

(1) – السعيد بو طاجين، الاشتغال العاملي، دراسة سيميائية، منشورات الاختلاف ط1، أكتوبر2000، ص: 15-16.

(2) – سامي سويدان، في دلالية القص وشعرية السرد، دار الآداب، بيروت، ط1، سنة1991، ص: 26.

(3) – محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي، نظرية غريماس، الدار العربية للكتاب ط[illegible] سنة1993، ص: 47 وما بعدها.

(1) – نفسه، ص: 36.



تحديد الشخصية ثم تكتسب تدريجيا الأوصاف والوظائف حتى إذا شارف الخطاب النهاية استوت الشخصية محددا الهوية، واضحة المعالم.

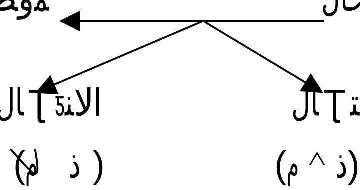
حالة الرغبة: وهكذا يقدم لنا المستند النصي ما يعبر عنه بملفوظ الحالة، كأن يكون الرحال في منزله فيرغب في الارتحال، فإذا عزم على الارتحال الفعلي ينتقل الملفوظ من وصف الحال التي ينبغي أن يشتمل على ذات الحال التي ترغب في موضوع ما. أي أن الرحال نفسه يرغب في شيء ما فإن كان في وضع اتصال بالمكان فإنه يرغب في الانفصال عنه أو العكس مما يولد القول أن الذات متصلة بالمكان وترغب في الانفصال عنه أي (ذ ^ م) أو (ذ v م). ومـا دامت الرغبة متعلقة بشخصية حقيقية لها اسم علم خاص ولها وجود فعلـي خـارج العمـل السردي، فإنها تتحول بالضرورة إلى ذات الإنجاز، وينشأ ملفوظ الإنجاز الـذي يشـتمل علـى ذات الإنجاز الكائنة في وضع الاتصال أو الانفصال مع ما تـرغب فـيه، وملفـوظ الإنجاز يقتضي تحولا إنجازيا يؤدي إلى الانفصال عن المكان ويسعى إلى تحول إنجازي غايته الاتصال برغبته ولما كان ملفوظ الحالة وملفوظ الإنجاز ناشئين عن الرغبة، فإن الذات المنجزة حين تتصل برغبتها تقوم بإشباع حاجاتها المتمثلة علـى مستوى الرحلة بالتمتع بالمناظر في المكان، وبأعمال الإنسان وإنجازاته وهكذا تمتد الوحدة بالوصف والأخبار واللقاءات حتى إذا أشبعت الرغبة تولد ملفوظ حال جديدة، وهـو الرغبة في الانفصال عن ذلك المكان والاتصال بآخر فتتحول ذات الحالة إلى ذات الإنجـاز، فـيحدث الرحيل والانفصال، وفي الوقت نفسه تنشأ الرغبة في الاتصال بمكان آخـر، وهكذا تتوالى ملفوظات الحال وذاتها، وملفوظات الإنجاز، وتحولاتها المتعاقبة بين الاتصـال والانفصـال، رغم أن الذات واحدة " هي الشخصية الرحلية "، وهذا القانون لا يـتخلف إلا فـي جزئية الإشباع الذي يتم أحيانا بشكل ذاتي وأحيانا بفعل خارجي قهري فتنفصل الذات قسريا وتتولد عنها رغبات.

ويتوالـى المخطط العاملي لمقاربة كل الوحدات التي حددت تمظهر حكاية الرحلة في حـركيتها الأفقـية حسـب مراحل الطريق من مدينة إلى أخرى... ويمكن تطبيقها على الـرغبات الكلـية النابعة عن الهيكل الثابت للرحلة من الذهاب والعودة، وهذا ما يفسر لنا تلـك الـوحدات الخاوية التي يتصل بها الرحال فلا تشبع له رغبة، فيسكت عنها ويكتفي

بذكرها، بناء على الميثاق الذي ينشئه مع القارئ وهو التزام السارد بذكر مراحل الطريق، وهذا التناوب بين مكون الحال، ومكون الإنجاز يعبر عنه بالشكل التالي:

مكون الحال

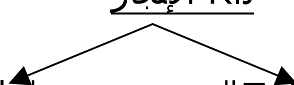
ذات الحال ← موضوع له قيمة



الاتصال (ذ ^ م)   الانفصال (ذ v م)

مكون الإنجاز

ذات الإنجاز



تحول انفصالي   تحول اتصالي

ويقرأ التناوب الثاني كالتالي: إن مكون الإنجاز يمكن أن يأتي في شكل تحول اتصالي أو تحول انفصالي، فيكون البرنامج السردي مجسدا في الإنجاز المحول[1] ومهمة ذات الإنجاز، ويعمل على تحويل حالة الانفصال إلى حالة الاتصال، مع التأكيد على أن الذوات لا يمكن تعريفها إلا من خلال علاقتها بالموضوع ذي القيمة، والموضوع ذو القيمة لا يتحدد إلا إذا كان هدفا للذوات[2]، وهكذا تنشأ العلاقة بين الذات والموضوع، فمكون الحال، ومكون الإنجاز " ليسا إلا تمثيلا منطقيا دلاليا للأفعال والحالات" [1] وذات الحال وذات الإنجاز عاملان تركيبيان يسمحان بإنجاز العمليات من طرف العوامل، كما يسمحان بقياس الحكاية من حيث الزيادات والنقصان، ويعني ذلك أن البرامج السردية، هي وحدات سردية تعود إلى تركيب عاملي وتساعدنا على فهم الترسيمة السردية[2]، وفي دراستنا لن نتتبع التمظهرات السردية للبنية السطحية كلها حسب الوحدات لأن ذلك سيظهر الدراسة بمظهر هزيل ضعيف لتشابه الأفعال والعوامل، لهذا سنكتفي بالوحدات الكبرى المشكلة

---

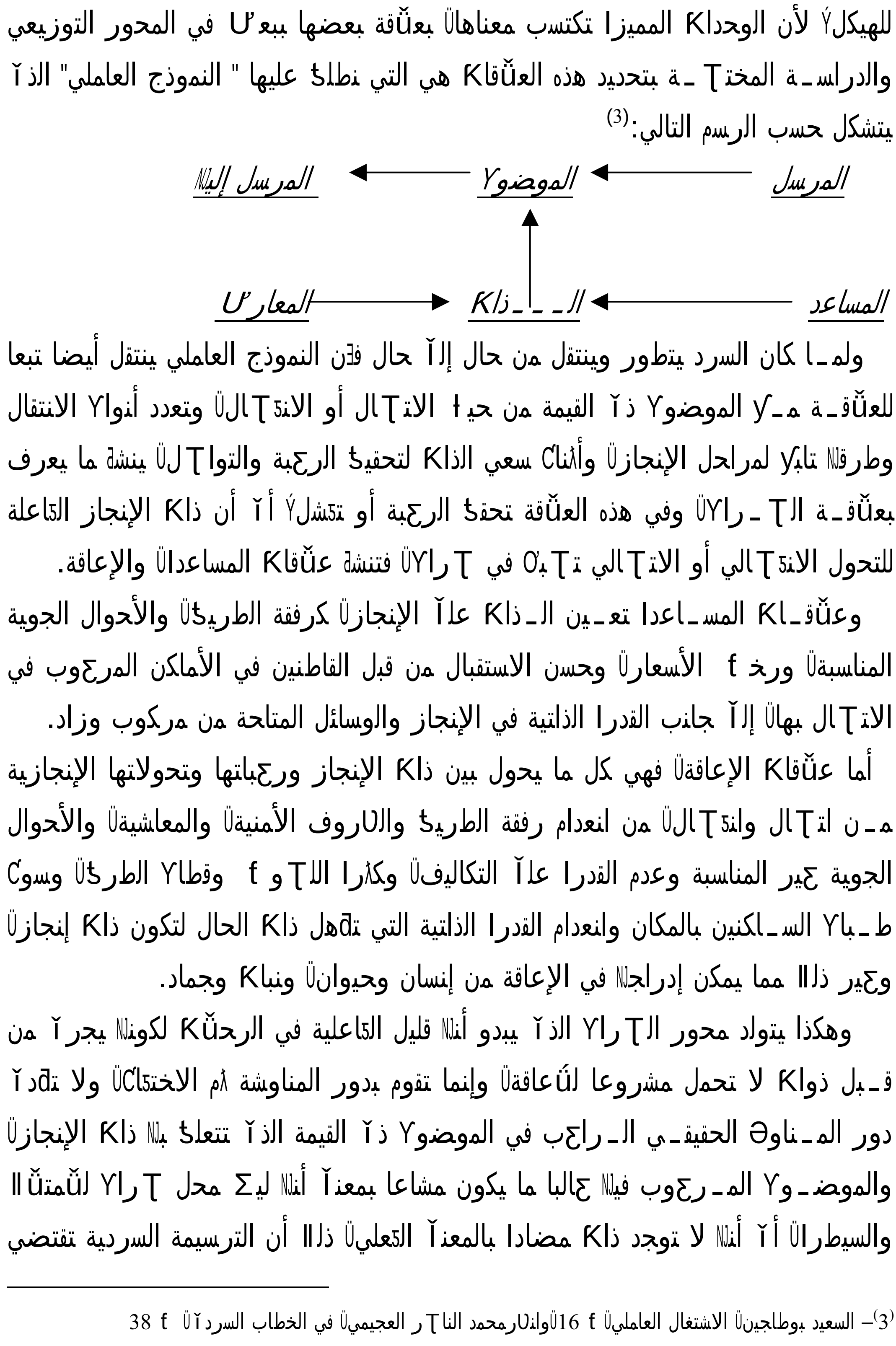
(1) – حميد لحمداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991، ص 34- 35.

(2) – أ.ج.غريماس، السيميائيات السردية (المكاسب والمشاريع) تر: سعيد بنكراد، طرائق التحليل الأدبي ص :190.

(1) –المرجع نفسه، ص :191.

(2) - نفسه، ص :192.

للهيكل، لأن الوحدات المميزة تكتسب معناها، بعلاقة بعضها ببعض في المحور التوزيعي والدراسة المختصة بتحديد هذه العلاقات هي التي نطلق عليها " النموذج العاملي" الذي يتشكل حسب الرسم التالي:[3]



ولما كان السرد يتطور وينتقل من حال إلى حال فإن النموذج العاملي ينتقل أيضا تبعا للعلاقة مع الموضوع ذي القيمة من حيث الاتصال أو الانفصال، وتعدد أنواع الانتقال وطرقه تابع لمراحل الإنجاز، وأثناء سعي الذات لتحقيق الرغبة والتواصل، ينشأ ما يعرف بعلاقة الصراع، وفي هذه العلاقة تحقق الرغبة أو تتشكل، أي أن ذات الإنجاز الفاعلة للتحول الانفصالي أو الاتصالي تدخل في صراع، فتنشأ علاقات المساعدات والإعاقة.

وعلاقات المساعدة تعين الذات على الإنجاز كرفقة الطريق، والأحوال الجوية المناسبة، ورخص الأسعار، وحسن الاستقبال من قبل القاطنين في الأماكن المرغوب في الاتصال بها، إلى جانب القدرة الذاتية في الإنجاز والوسائل المتاحة من مركوب وزاد.

أما علاقات الإعاقة فهي كل ما يحول بين ذات الإنجاز ورغباتها وتحولاتها الإنجازية من اتصال وانفصال، من انعدام رفقة الطريق والظروف الأمنية، والمعاشية، والأحوال الجوية غير المناسبة وعدم القدرة على التكاليف، وكثرة اللصوص، وقطاع الطرق، وسوء طباع الساكنين بالمكان وانعدام القدرة الذاتية التي تؤهل ذات الحال لتكون ذات إنجاز، وغير ذلك مما يمكن إدراجه في الإعاقة من إنسان وحيوان، ونبات وجماد.

وهكذا يتولد محور الصراع الذي يبدو أنه قليل الفاعلية في الرحلات لكونه يجري من قبل ذوات لا تحمل مشروعا للإعاقة، وإنما تقوم بدور المناوشة ثم الاختفاء، ولا تؤدي دور المناوئ الحقيقي الراغب في الموضوع ذي القيمة الذي تتعلق به ذات الإنجاز، والموضوع المرغوب فيه غالبا ما يكون مشاعا بمعنى أنه ليس محل صراع للامتلاك والسيطرة، أي أنه لا توجد ذات مضادا بالمعنى الفعلي، ذلك أن الترسيمة السردية تقتضي

(3)– السعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي، ص 16، وانظر محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي، ص 38.

مسارين سرديين مكونين من ذات وذات مضادة تتنازعان موضوعا ذا قيمة فتحصل المواجهة بينهما أو المصالحة، على أن تتم السيطرة لإحدى الذاتين على الموضوع ذي القيمة، سواء كان من جنس المحسوسات أو من جنس الأفكار... وهذا ما لا يحصل في الرحلة، وبهذا ينعدم الصراع بمعناه الدرامي. وبالتالي تبدو الرحلة بلا حبكة ولا عقد.

وفي هذا النوع من الدراسات ليس المهم الشخص أو اسمه وإنما المهم الأفعال والأحداث في محيطها أو الغرض الذي تؤديه في المسار. " إن الفعل والشخصية يتكونان تدريجيا على امتداد الخط الزمني في عملية القراءة وتطور السرد."[1] ومهما قيل عن سيادة الفعل والحدث فإن الشخصية لها السيادة في فعل السفر.

وعلى ضوء ذلك سندرس الأحداث أو نفسرها في مستواها السطحي على الرغم من أن قارئا آخر قد يفهم ذلك بطريقة مختلفة، وأن كثيرا من المنظرين يدعون" أنهم لا يفسرون الأفعال في القصص التي يحللونها، بل يصفونها ويسمونها لا غير، ولكن تسمية فعل ما، هي بمعنى من المعاني تفسيره." [2].

يظهر السارد أمام القارئ باعتباره شخصية، ولا ينسحب إلى الوراء، ومن هنا كان تماهي السارد والشخصية في الرحلة، وشخصية البطل، لا تمثل ملامح خارجية -غالبا- بل هي نقطة متحركة داخل الفضاء الممتلئ بالانتقالات السفرية، مما يتيح للسارد أن يقدم العالم الثابت متنوعا، من خلال وصف المجتمع والمدن والقرى وكل ما يمر به " وغالبا ما يتفتت العالم إلى أشياء منعزلة وإلى ظواهر وأحداث متجاورة أو متتالية"[1]، بينما بنية الشخصية تقوم على أن كل ما يقدم في العالم المسرود له علاقة ما بالشخصية، وهذا ما يربط الأشياء المعزولة والمبعثرة، ويجعل الشخصية هي المحور الجاذب لكل ما يسرد من أخبار وأفعال، في الجوانب السلبية أو الإيجابية، ومن خلال علاقاتها بالشخصية يمكنها أن تحدد بعض الملامح المميزة للشخصية.

---

(1) – ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، ص: 152.

(2) – نفسه، ص: 131.

(1) – محمد برادة، الرواية أفقا للشكل والخطاب المتعددين، مجلة فصول م11، ع4، شتاء 1993م، ص: 13-14.

فالرغبة هي الحافز الأكبر في دفع السرد نحو غاياته، ومنه تتولد الحركات والسكنات المعبر عنها بالاتصال والانفصال والتحولات المتعددة، ثم تليها في الأهمية علاقة الصراع التي تشمل حافزي المساعدة والإعاقة، فالرجال إما أن يساعد على تحقيق رغبته أو يعيقه، ومن هنا تتولد الحوافز السلبية المضادة للأولى (فينشأ الكره والإفشاء والإعاقة)، علاوة على أن المظهر الخارجي لا يعبر عن الحقيقة باستمرار، فقد ينجز الرجال عملا غير راغب فيه كما قد يتعامل مع شخص يكرهه مما يولد علاقات الظاهر والباطن في الأقوال والأفعال، وهكذا تتعدد الحوافز، ويصعب في ظل دراسة الشخصيات عن حوافزها، "ذلك أن الشخصيات حين تقوم بأفعالها وتنشئ علاقات فيما بينها إنما تقوم بذلك بناء على حوافز تدفعها إلى فعل ما تفعل."[2]

ثانيا- الأبعاد الفنية للشخصية :

تتميز شخصية العبدري بكفاءة إبداعية عالية وبخاصة في الكتابة النثرية مع باع في الشعر لا يغفل، ورحلته ذات تأثير في جمهورها المعاصر والأجيال التي بعده. وليس هذا فحسب بل للشخصية العبدرية تنوع في مجالات كثيرا. و"ثمة نوعان أساسيان من المؤشرات النصية للشخصية: التعريف المباشر والتقديم غير المباشر...فالنوع الأول يسمى السمة عن طريق الصفة، والنوع الثاني تعرض الشخصية ويضرب لها مثلا...تاركا للقارئ مهمة استنتاج الميزات"[3] و " السمات غير المباشرا تتم عن طريق:

أ)- الفعل: سواء كانت أفعال مهمة (أي شيء منجز من قبل الشخصية) أو أفعال حذف (أي كان على الشخصية إنجازها ولم تنجز) أو أفعال تأملية سواء كانت للإنجاز أو للترك).

ب)- الكلام: "يمكن أن يكون كلام الشخصية سواء في الحديث أو كنشاط صامت في الذهن مؤشر السمة أو السمات في كل من المضمون والشكل...وما تقوله شخصية ما عن الآخر قد لا يميز المتكلم عنه...بل أيضا الذي يتكلم..."[1]

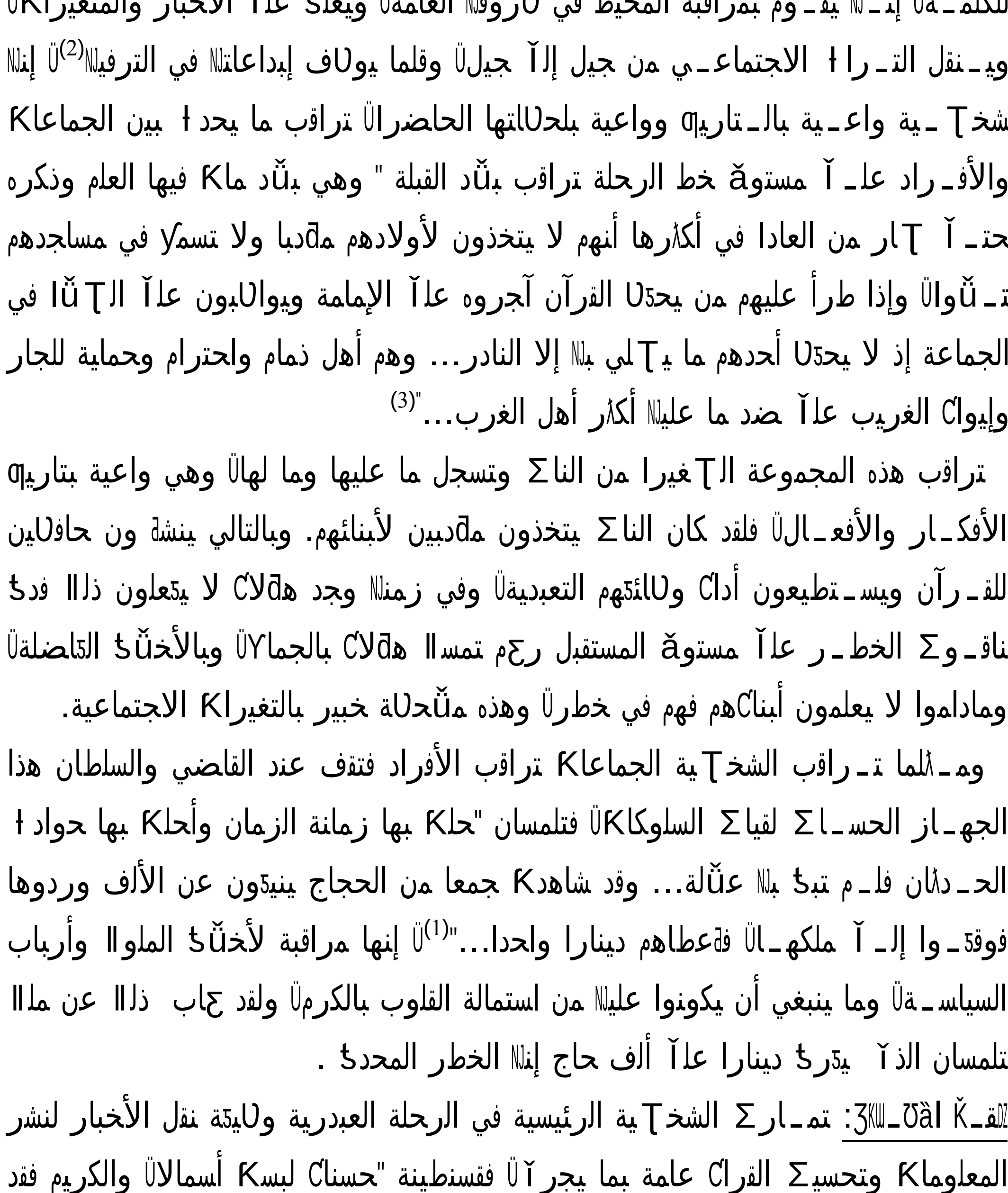
سمات الشخصية

---

(2) – د. يمني العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، ص: 52.

(3) – شلوميت كنعان، التخييل القصصي، ص: 91-92.

(1) –المرجع نفسه، ص: 94-97.



تتجلى سمات الشخصية من خلال مجالات الاهتمام فالعبدري باحث بالمعنى الدقيق للكلمة، إنه يقوم بمراقبة المحيط في ظروفه العامة، ويعلق على الأخبار والمتغيرات، وينقل التراث الاجتماعي من جيل إلى جيل، وقلما يتوقف إبداعاته في الترفيه[2]، إنه شخصية واعية بالتاريخ وواعية بلحظاتها الحاضرة، تراقب ما يحدث بين الجماعات والأفراد على مستوى خط الرحلة تراقب بلاد القبلة " وهي بلاد مات فيها العلم وذكره حتى صار من العادة في أكثرها أنهم لا يتخذون لأولادهم مؤدبا ولا تسمع في مساجدهم تلاوة، وإذا طرأ عليهم من يحفظ القرآن آجروه على الإمامة ويواظبون على الصلاة في الجماعة إذ لا يحفظ أحدهم ما يصلي به إلا النادر... وهم أهل ذمام واحترام وحماية للجار وإيواء الغريب على ضد ما عليه أكثر أهل الغرب..."[3]

تراقب هذه المجموعة الصغيرة من الناس وتسجل ما عليها وما لها، وهي واعية بتاريخ الأفكار والأفعال، فلقد كان الناس يتخذون مؤدبين لأبنائهم. وبالتالي ينشأ جيل من حافظين للقرآن ويستطيعون أداء صلواتهم التعبدية، وفي زمنه وجد هؤلاء لا يفعلون ذلك فدق ناقوس الخطر على مستوى المستقبل رغم تمسك هؤلاء بالجماعة وبالأخلاق الفاضلة، وماداموا لا يعلمون أبناءهم فهم في خطر، وهذه ملاحظة خبير بالتغيرات الاجتماعية.

ومثلما تراقب الشخصية الجماعات تراقب الأفراد فتقف عند القاضي والسلطان هذا الجهاز الحساس لقياس السلوكات، فتلمسان "حلت بها زمانة الزمان وأحلت بها حوادث الحدثان فلم تبق به علالة... وقد شاهدت جمعا من الحجاج ينيفون عن الألف وردوها فوقفوا إلى ملكها، فأعطاهم دينارا واحدا..."[1]، إنها مراقبة لأخلاق الملوك وأرباب السياسة، وما ينبغي أن يكونوا عليه من استمالة القلوب بالكرم، ولقد عاب ذلك عن ملك تلمسان الذي يفرق دينارا على ألف حاج إنه الخطر المحدق.

الوظيفة الثالثة: تمارس الشخصية الرئيسية في الرحلة العبدرية وظيفة نقل الأخبار لنشر المعلومات وتحسيس القراء عامة بما يجري، فقسنطينة "حسنات لبست أسمالا، والكريم فقد

---

(2) – ينظر عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، ص: 93.

(3) – العبدري، الرحلة، ص: 8.

(1) – نفسه، ص: 10-11.

مـالاŮ والـبطل أůخنـتŮ الجراθ حتآ لم يطـ احتمالا..." [2] فالشخŢية تخبر بŮوضاY المغـرب كلŮ وتوضŮ أن الأمور ليسƘ علآ ما يرام إůر الانقŮب المر يني والŢراعاƘ المحليةŮ ولكنها لا تشير إلآ فاعل الخراب والتدميرŮ وإنما تŢŮ حيůما حلƘ بالمقارنة مŮ ما كان عليŮ قبل كتنبيŮ وإنذار و تسكƘ عن الدول المغاربية سكوتا تاما.

وتشـير إلـآ ŮاراƘ العربان علآ المدن وما تحدůŮ من خراب وبذلŮ تسجل الشخŢية مـوقŮها مـن هذه الŮوضآ العارمة التي تŮتي علآ الأخضر واليابΣŮ فهذه باجة "... وقد حـدůƘ بهـا أن أهلهاŮ لا يŮارقون السور خوفا من العربانŮ وأنهم يستعدون لدفن الجنائز كما يستعدون ليوم الضراب والطعان"[3].

وتخبـر بامـتعاŮ شديد عما عانتŮ في مŢر من سلواŮ الناΣ والازدحام والاحتيال وأنـواY المكوΣŮ وتشير إلآ كون امتŮŮ الأتراŮ "المماليŮ" لمŢر بمůابة إنقاذ للمسلمين جميعا "...ولولا لطف ا في تملŮ الأتراŮ لهمŮ ما أمكن المقام بها مسلماŮ ولكن ملوكهم أهل دينŮ وعقائد سليمةŮ وشŮقة وحنان علآ المسلمينŮ وتŮضل علآ الŮقراŮŮ وحسن Ůن بŮهـل الدينŮ وهم ركن الإسŮم نŮعهم ا وأحسن عونهمŮ وقد رأيƘ من خدمتهم للركبŮ واحتياطهم وŢبرهمŮوحسن محاولتهم ما تعجبƘ منŮ فالحمد ...".[4]

فتملŮ الأتراŮ لمŢر بالنسبة للشخŢية مما يقتضيŮ الإسŮم إذ هم الذين يوطئون المقام للمسـلمين فـي مŢرŮ ويسهلون المرور إلآ البقاY المقدسةŮ كما أنهم عماد المسلمين في حمايـة الإسـŮم والتمكين لŮŮ ويŢدر هذا الموقف بعد المعاناŮ من عدم الانتŮام والتŮكŮ السياسـي والخراب في المغرب كلŮŮ و ينم عن بعد النŮر في الأمور. وهذا ما لم يسجلŮ الدارسون للشخŢية العبدرية في كونها تلتزم بالحـ فŮ "تقبيŮ حسنŮ ولا تحسين قبيŮ."[1]

وتهـتم الشخŢية بŮمر مŢر بالخŢو f Ů فحين كانƘ قريبة من مكة أخبرƘ عن وفاŮ

---

[2] – المŢدر السابـŮ f :32.

[3] – نŮسŮŮ f :37-38.

[4] – نŮسŮŮ f :128.

[1] – المŢدر السابـ Ů f :1.

سـلطانها الملـك المنصور:" وكنا تركنا السلطان على الحركة إلى جهاد عكة، وقد برز جميع عسكره خارج المدينة، فلما خرج مرض فمات." [2]

فالشخصـية تدرك الوضعية الإخبارية إدراكا جيدا إذ علقت على عسقلان قائلة: " ثم زرنا عسـقلان جبره الله، وهو خراب يباب لا أنيس به إلا أطلالا ماثلة وآثارا طامسة تكسر في القلـب تـباريح الأسى... تحث المبصر على إعمال العبرة، وإسبال الدموع بوابل العبرة وتـنادي الحذر الحذر والبدار."[3]، ولعل الإشارة إلى سير هذا السلطان إلى حصار عكة لاستخلاصها من أيدي الصليبيين، تكشف عن سر إعجابه به .

<u>الاعتـزاز بالـدين:</u> ومـن سمات هذه الشخصية الغيرة على الدين، وتبرز في أشكال مخـتلفة وبخاصـة عند هجوم النصارى على المسلمين، ففي عنابة تعجب من ذلك غاية الـتعجب وتحسـر لطرابلس التي تعاني من غارات الأعراب برا وهجمات النصارى بحرا قـال: " واسـتوى علـيها من عربان البر، ونصارى البحر النكال والكدر..."[4]، فالغيور المسلمين حين تهاجم من الأجنبي تحدث أثرا بالغا في النفوس المؤمنة ذات الحساسية التي لا تقـبل الذل، وهذه الشخصية من أولئك القلائل الذين يشعرون بهذه المشاعر مما جعلها تصف دنيا عصرها بكونها: " قد عريت عن عالم أو متعلم، وأقفرت من فقيه ومتكلم، فهي عامـرة، وقائمـة داثـرة، وهذا أمر شمل في هذا الأوان المدن والقرى وعم بحكم القدر أصناف الورى، ولا حول ولا قوة إلا بالله."[5]، هذه نظرة شاملة ربطت الأجزاء بالكليات والمقـدمات بالنـتائج، فاستخلصت العبر من حاضرها، وكما تغار الشخصية على البلاد الإسـلامية تغار علـى مقدسـاتها فحـين وصلت إلى القاهرة ساءها ما شاهدته من عدم الاهتمام بالمساجد:"ومن الغرائب عندهم تضييع المساجد والجوامع وإهمالها، وقلة التحفظ فيها حتى تصير مثل المزابل وتسود حصرها وحيطانها من الأوساخ، وقد صليت الجمعة فـي بعـض المسـاجد فرأيت فيه أكواما من أنواع الكناسات ...، فما أكثر جهلهم وأقل

---

(2) – نفسه، ص: 166.

(3) - نفسه، ص : 231.

(4) – نفسه، ص: 77.

(5) – نفسه، ص: 233.

حـياتهم..."(1)؛ إن انعـدام الـنظافة يخالـف الأصول في الإسلام وهذا ما أثار حفيظة الشخصـية فسـجلت هذه الصيغة التعجبية " ما أكثر جنايتهم وأقل حيائهم ". وبمثل هذا الإحساس الرهيف نحو بيوت الله سجلت هذه الظاهرة أيضا في البلد الحرام: " وقد دخلت مسـجد دار الندوة فوجدته ملآن من الأوساخ والقمامات ووجدت فيه ناسا نزلوا بأسبابهم وهـم يعملـون أعمالهم من سائر الصناعات...وفي داخل المسجد الحرام عند باب شيبة سـوق كبيـر بأنـواع المبيعات من أكثر الأسواق زحاما ولغطا "(2)؛ وهذا الشعور يمليه جانـبان: جانـب عقائدي محض وهو أن الإسلام دين نظافة؛ وثانيهما البيئة النظيفة التي عاشـت فيها إذ لم تسجل هذه الظاهرة في المغرب كله. وهذا ما يبرز سمة من السمات الشخصـية وهـي حـب النظافة والغيرة على المقدسات؛ و ضمن الغيرة على المقدسات الغيرة على المقابر: " وقد رأيت في نزول الركب بالمحصب قوما أدخلوا دوابهم في مقبرة جديـدة مبيضـة؛ وحصنوها داخل الروضة على المقابر؛ ووتدوا لها هنالك أوتادا؛ وبيتوا بهـا؛ فمـررت علـيهم حين أصبحنا وأنا داخل إلى مكة فرأيت الروضة ممتلئة بالروث؛ وعايـنت منظـرا شنيعا؛ فكلمتهم فقابلوني بالجفاء فانصرفت."(3)إنه لمنظر مؤذ للعين و محزن للقلب أن تدوس البهائم قبور المسلمين في مقبرة محاطة بسور؛ ومجملة بطلاء؛ لقد امتـزج الإحساس الديني بالحس الجمالي فدفعا بالشخصية إلى محاولة التغيير فلما لم تفلح انصـرفت.هـذا الإحساس متولد من الإدراك الذهني الذي سيطر على الشخصية الغيور والطمـوحة؛ إلـى أن تكـون أوضـاع الأمة أفضل مما هي عليه؛ ومن ذلك استهجانها لاستعمال النساء في البيع والشراء عند عرب برقة: " ويستعملون نساءهم في البيع والشراء؛ فلا يتوصل الحاج إلى شراء القوت إلا بعرض مبتذل وحال ممقوت."(1).

إن الشخصية أدركت الأوضاع السيئة فأرجعتها إلى فساد الحكام غير المؤهلين: "وقد لا تكـون الدنيا على ما أصف وأقول؛ وعلى وفق المشاهد من ذميم أوصافها والمنقول؛ وقد

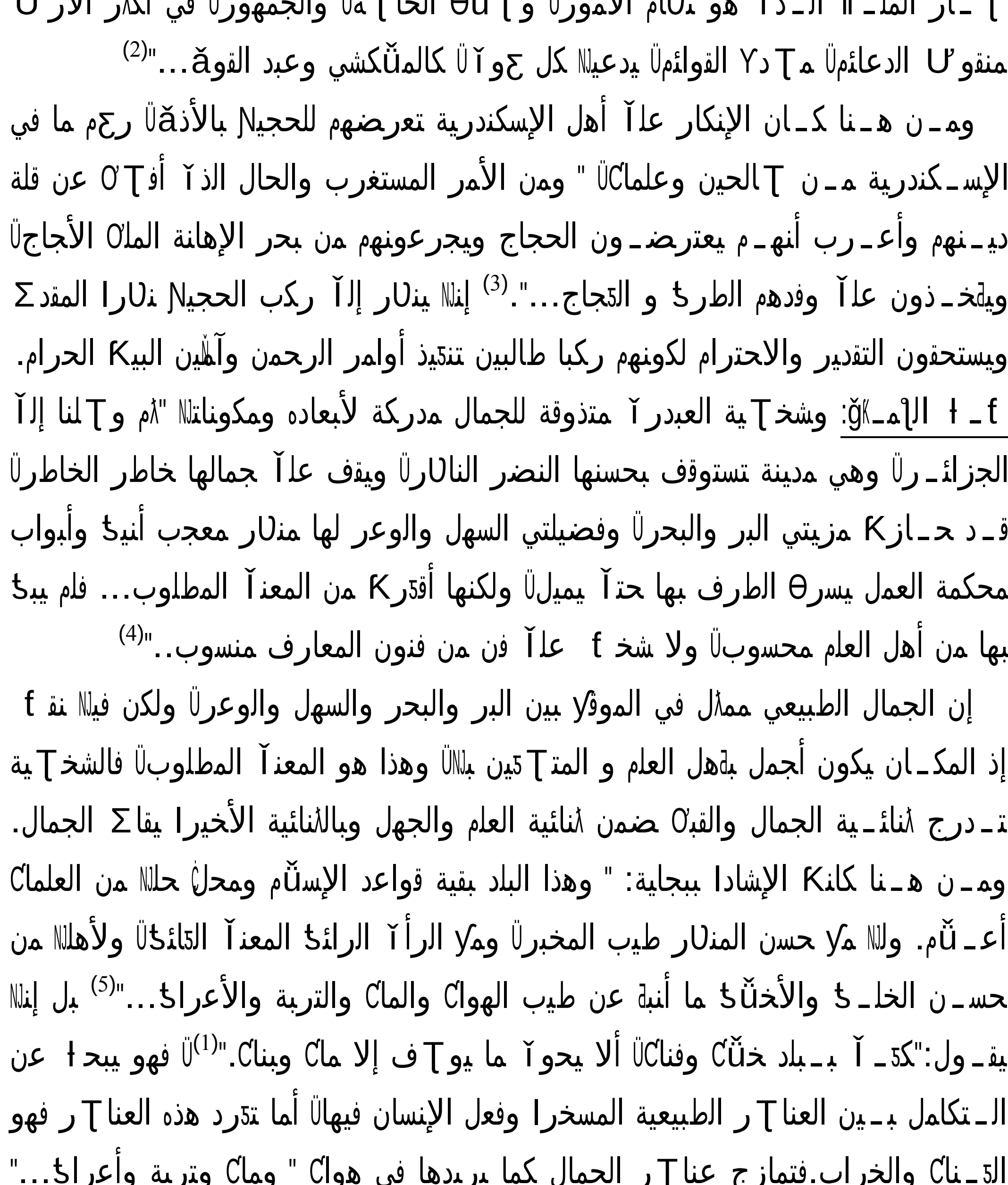
---

(1) – المصدر السابق؛ ص: 127.

(2) – نفسه؛ ص: 176.

(3) – نفسه؛ ص: 176.

(1) – المصدر السابق ؛ ص: 86.



صـار المـثل الـذي هو نظام الأمور، وصلاح الخاصة والجمهور، في أكثر الأرض منقوض الدعائم، مصدع القوائم، يدعيه كل ضعيف كالمشكشي وعبد القوي..."(2)

ومـن هـنا كـان الإنكار على أهل الإسكندرية تعرضهم للحجيج بالأذية، رغم ما في الإسـكندرية مـن الصالحين وعلماء " ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفضى عن قلة ديـنهم وأغـرب أنهـم يعترضـون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخـذون على وفدهم الطرق و الفجاج..".(3) إنه ينظر إلى ركب الحجيج نظرا المقدس ويستحقون التقدير والاحترام لكونهم ركبا طالبين تنفيذ أوامر الرحمن وآمين البيت الحرام.

ص ـ الجمال: وشخصية العبدري متذوقة للجمال مدركة لأبعاده ومكوناته "ثم وصلنا إلى الجزائـر، وهي مدينة تستوقف بحسنها النضر الناظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قـد حـازت مزيتي البر والبحر، وفضيلتي السهل والوعر لها منظر معجب أنيق وأبواب محكمة العمل يسر الطرف بها حتى يميل، ولكنها أقفرت من المعنى المطلوب... فلم يبق بها من أهل العلم محسوب، ولا شخص على فن من فنون المعارف منسوب.."(4)

إن الجمال الطبيعي ممثل في الموقع بين البر والبحر والسهل والوعر، ولكن فيه نقص إذ المكـان يكون أجمل بأهل العلم و المتدينين به، وهذا هو المعنى المطلوب، فالشخصية تـدرج ثنائـية الجمال والقبح ضمن ثنائية العلم والجهل وبالثنائية الأخيرا يقاس الجمال. ومـن هـنا كانت الإشادا ببجاية: " وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحط رحله من العلماء أعـلام. ولله مع حسن المنظر طيب المخبر، ومع الرأي الرائق المعنى الفائق، ولأهله من حسـن الخلـق والأخلاق ما أنبأ عن طيب الهواء والماء والتربة والأعراق..."(5) بل إنه يقـول:"كفى بـبلد خلاء وفناء، ألا يحوي ما يوصف إلا ماء وبناء."(1)، فهو يبحث عن الـتكامل بـين العناصر الطبيعية المسخرا وفعل الإنسان فيها، أما تفرد هذه العناصر فهو الفـناء والخراب.فتمازج عناصر الجمال كما يريدها في هواء " وماء وتربة وأعراق..."

---

(2) – نفسه، ص: 4.

(3) – نفسه، ص: 93.

(4) – نفسه، ص: 26.

(5) – نفسه، ص: 27.

(1) – المصدر السابق، ص: 32.

في سائل شفاف يسمى العلم ليزين كل فن من فنون العلم وإلا كان الكلام سرابا والقائم خرابا، فتصبح البلاد " عامرة داثرة " وقلما يتوفر هذا التركيب الجمالي فيما مر به العبدري من مدن وقرى، باستثناء تونس التي أفاض في عد فضائلها من جمال طبيعي وآثار وعمران وعلوم، وحسن الخلق ولين السلوك.[2]

ويندرج ضمن إدراكه الجمالي بحثه عن الآثار والعمران باعتبارهما آيتين يتجلى فيهما العالم النظري والتطبيق البشري ففي الآثار القديمة تتحرك الشخصية بين الماضي الممثل في الآثار والحاضر الممثل في مظاهر العمران في المدن العامرة، والمستقبل من خلال ما تقوم به الشخصية من تنبيه الأجيال وتعريفها بأعمال الأوائل.

فالشخصية لها وجود مستقل في إدراكها الحسي والنفسي والذهني، و تريد أن تخرج هذه الإدراكات من حيز الذات إلى الآخرين ليستفيدوا منها فهي تريد أن تؤثر في محيطها إن السارد ينحت شخصيته بالتدريج من خلال مواقفها المتعددة ويعرضها من خلال هذه الإدراكات في بعديها الأفقي والعمودي وبخاصة في الكشف عن آثار الرومان والبربر والمسلمين على مدى الأجيال المتعاقبة. فهي شخصية تتخذ أبعادا إنسانية واسعة الآفاق، رحبة التصورات وتعي ما في الأحداث المتعاقبة من عمق وجودي، لا ينقطع ماضيه عن حاضره ولا يتوقفان عن تخيل المستقبل، وتحاول أن تنشئ عالم الإنسان وفق رؤى خاصة قوامها العلم والعمل، وإزالة الجهل من الوجود، ولا شك أنها نظرة مثالية تصدر عن شخصية عالم مفكر يتأمل في المسار البشري، ويختار النقاط الدالة، فانتقاء ماله دلالة من أحداث وأقوال وأفعال لا يستطيعه إلا الخبير المتمرن الذي يعيد النظر بعد النظر، ليخرج للآخرين صورا عن واقع مشتت أعيد تركيبه في اللوحة المشكلة من لغة محكمة البناء، منتقاة الألفاظ، حسنة الصور والقالب.

الصورة المثالية: إن هاجس البحث عن المثالي متمكن من هذه الشخصية فكما تبحث عن الجمال في الطبيعة وعن الكمال الممكن في العلماء، تبحث أيضا عن الحقيقة المثلى، وفي هذا الإطار نجد الشخصية متنامية على مستوى الملفوظ الرحلي، إذ تبدأ بدايات بسيطة بزيارة " قبر الشيخ الصالح أبي حفص عمر بن هارون، وهو من كبار الأولياء،

(2) – نفسه، ص: 39- 63، وفي العودة من ص: 239- 275.

ومن عـﻠمـاﺀ الـﺼالحين نـﺬعنا ﺍ بهم "[1] ﺛم نبوﺓ بالاﻃلاﻉ علﻰ كتاب التشوف مما يدل علﻰ المعرفة المسبقة بسلوﻙ أهل التﺼوف وفي تلمسان تعرب عن المكنون:

ولاﺣﻆ لي الدنيا فقﺼﺮ عمرها ولو زيد أضعافا كحل عقال

وما عيشها إلا كـﻠـ ﻞ ﺣ ـمام ـة وما ملكها إلا كطيف خيال[2]

وهـي قﺼيدا يذكر السارد فيها أنه لم يخرج طلبا للﺬقه ولا لعلوم اللغة والحساب وإنما خرج طلبا للحقيقة التي لا توجد بين دفاﻑ الكتب.

قضايا إذا وفقﻚ يشﺬيﻫا ﺣكـ مه ـا وإلا فلا تعرﺽ لطب عضال

فلسﺖ لها في الكتب يوما مطالعا ولا سامعا فيها نـﻠام مـ ـقال

فإن أنﺖ لم تو ﺻل لحال و ﺻالها فدعني وإياها حليف و ﺻ ـال[3]

ﺛـم يتطور البحﺚ عن الحقيقة من خلال الأقوال والأفعال و زيارا العلماﺀ والاستﺬادا من علمهم والتماﺱ البركة من المزارا ﺕ الكبرﻯ وأداﺀ الحلة ويختم اكتمال شخﺼية الﺼوفي بارتداﺀ خرقة المتﺼوفة علﻰ يد عالم جليل في تونﺱ[4] وهو أبو محمد عبد ﺍ يوسف بن موسﻰ الخلا ﻑ الأندلسي وتحتﺬل الشخﺼية بهذه "الخرقة المباركة" بذكر أسانيدها إلﻰ السـلف الﺼالح ﺛم بالذهاب إلﻰ قرية العباد بتلمسان حيﺚ تتوج بزيارا الشيﺦ أبي مدين شعيب ﺛم الشيﺦ ﺻالح بن ينﺼار وبقرب ضريحه تتضرﻉ: " أفاﺽ ﺍ علينا من بركا ته وملأ بﺼائرنا بنور يستمد من مشكاته."[5]

ورﻏم ذلﻚ فإن الشخﺼية لا تبوﺡ بكل مكنوناتها فقد يلتقي بعلماﺀ ربانيين يوﺻونه بكـ تمان أسـ مائهم:"فمنهم من استكتمني اسمه وعاقدني علﻰ ألا أذكر رسمه عملا علﻰ منهﺞ زهده ومحجة تقواه وﺻونا لإخلاﺹ أن يشوبها ﺣﻆ لغير ﺍ ..."[1].

---

[1] - المﺼدر السابق ﺹ: 6.

[2] – نفسه ﺹ: 23.

[3] - نفسه ﺹ: 24.

[4] – نفسه ﺹ: 245.

[5] – نفسه ﺹ: 280.

[1]– المﺼدر السابق ﺹ: 99.

ويبدو أن أهل التصوف زمن العبدري ما زالوا على النهج السليم ولم يتحولوا إلى مبتزين. فهـم يراقبون أنفسهم ويصححون سلوكاتهم ولا يهتمون بالكرامات والخوارق التي تشغل العامة وتشوب سلوك الخاصة.

فشخصـية العبدري تبحث عن الكمال الممكن للبشر في العلم والسلوك. من خلال كل التصـرفات وتستمد فيض البركات وأنوار القلوب من عالم الغيوب ولا تتعالم ولا تبوح بكـل المكنونات إلا عند المؤول أمام الحضرات القدسية وترفض كل المزاعم وتدحضها بالحجة البالغة.

الداء الاجتماعي:

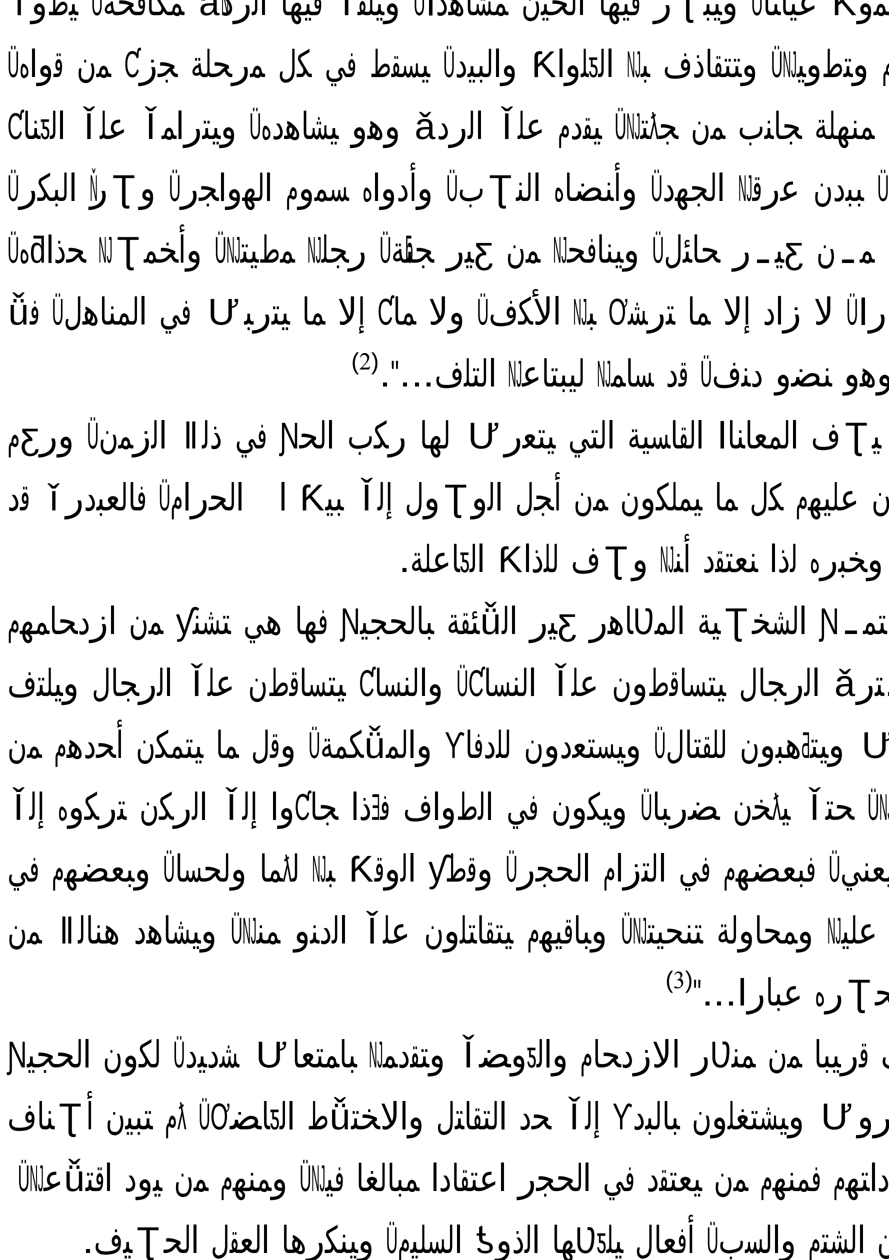
هذه الشخصية ذات اهتمامات اجتماعية واسعة من ذلك وقوفها عند ظاهرة قطاع الطرق المتفشـية وانعـدام الأمن فبعد أن خبر هذه الفئة من الناس وتعرض لأذاها في أكثر من مكان رأى أن أردأ خلق الله هم الممارسون لهذه الرذيلة.

و تلـك ظاهـرة نزوح المغاربة إلى القاهرة بخاصة تثار الشخصية " فقد كان المغاربة ينيفون على أهل البلاد كثرا لطيب الأرض وسعتها وكثرة أرزاقها وربما تقاتلوا مع أهل الموضـع فغلـبوهم وقـد فشـا علـى لسان الصغير منهم والكبير أن مغاربيا يملكهم لا محالـة..."(2) وبغـض النظـر عـن هذه الإشاعات التي يروجها المروجون فإن نزوح المغاربـة ظاهـرة تحـتاج إلـى وقفات أكثر من هذا التعليل. وفي القاهرة تبرز ظواهر اجتماعـية لم تفتها الشخصية أهمها: الأكل في الأسواق وكثرة الباعة ليلا ونهارا مع شدة الازدحام(3) كما تهتم بالأسعار ومعروضات الأسواق فلقد وسمت "أيلة" بأنها من "أسواق الـركب الكبار...لأنها مجمع المصريين والشاميين يتحينونها في طلوع الركب ورجوعه بأنـواع المبـيعات ولا سـيما الطعام وربما كثر بها حتى يزيد سعره على سعر الشام ومصـر لأن الجالـب إليها لابد له من البيع وكثير من الحجاج يتجهز منها ولكن الأمل ربمـا خاب فضر..."(1) وتهتم الشخصية بمتاعب الناس ومشاقهم وما يبذلونه للوصول إلى بـيت الله الحـرام ولا نخالهـا إلا متحدثة عن نفسها حين تقول:"فكم من ضعيف يرى في

(2) – نفسه: ص 148- 149.

(3) - نفسه: ص 128.

(1) – المصدر السابق: ص 159.



الطريق إليها الموت عيانا، ويبصر فيها الحين مشاهدا، ويلقى فيها الرجل مكافحة يطوي الليالي والأيام وتطويه، وتتقاذف به الفلوات والبيد، يسقط في كل مرحلة جزء من قواه ويجهد في كل منهلة جانب من جلده، يقدم على الردى وهو يشاهده، ويترامى على التلف وهو يعاينه، ببدن عرقه الجهد، وأنضاه النصب، وأدواه سموم الهواجر، وصر البكر، يباشره الأذى من غير حائل، وينافحه من غير جنة، رجله مطيته، وأخمصه حذاؤه، وبشرته دثاره، لا زاد إلا ما ترشح به الأكف، ولا ماء إلا ما يترشح في المناهل، فلا يصل إليها إلا وهو نضو دنف، قد سامه ليبتاعه التلاف..."[2]

فهذا نص يصف المعاناة القاسية التي يتعرض لها ركب الحج في ذلك الزمن، ورغم ذلك فإنه يهون عليهم كل ما يملكون من أجل الوصول إلى بيت الله الحرام، فالعبدري قد عاين مثل ذلك وخبره لذا نعتقد أنه وصف للذات الفاعلة.

وبالمقابل تمثل الشخصية المظاهر غير اللائقة بالحجيج فها هي تشير من ازدحامهم حول الكعبة:"..ترى الرجال يتساقطون على النساء، والنساء يتساقطن على الرجال ويلتف البعض بالبعض ويتأهبون للقتال ويستعدون للدفاع والملاكمة، وقل ما يتمكن أحدهم من الركن فيفارقه حتى يثخن ضربا، ويكون في الطواف فإذا جاءوا إلى الركن تركوه إلى البدعة وما لا يعني، فبعضهم في التزام الحجر، وقطع الوقت به لثما ولحسا، وبعضهم في صب العقوبات عليه ومحاولة تنحيته، وباقيهم يتقاتلون على الدنو منه، ويشاهد هنالك من المناكر ما لا تحصره عبارة..."[3]

فالشخصية تقف قريبا من منظر الازدحام والفوضى وتقدمه بامتعاض شديد لكون الحجيج يتركون الفروض ويشتغلون بالبدع إلى حد التقاتل والاختلاط الفاضح، ثم تبين أصناف الناس في اعتقاداتهم فمنهم من يعتقد في الحجر اعتقادا مبالغا فيه، ومنهم من يود اقتلاعه ولا يتورع عن الشتم والسب، أفعال يلفظها الذوق السليم، وينكرها العقل الحصيف.

---

(2) – نفسه، ص: 172.

(3) – نفسه، ص: 176.

وكما تمثل الشخصية مثال هذه المظاهر غير اللائقة. تشن هجوما على الأركاب المتقاتلة مع أهل مكة[1] أو فيما بينهم، وتأسف على فقدان بعض المغاربة بسبب عاصفة ثلجية وهم في طريق عمان إلى الشام وكان الركب الشامي قد "رحل من المدينة على الطريق المعلى إلى تبوك وصحبه أكثر المغاربة حرصا منهم على تقريب المسافة إلى الشام لأنها أقرب من طريق البرية بكثير، ولكنها شاقة قليلة الماء جدا، ووردها على سبعة أيام فحملهم الكسل والحين المقدر إلى سلوكها مع ضعفهم وتهتك قواهم، فوقع عليهم الثلج وهم بالقرب من عمان فأفنى خلقا منهم كثيرا، وذكر بعض من حضر ذلك أنه قد أحصى منهم ألفا وسبعمائة..."[2]

لقد تأثرت الشخصية بهذه الفاجعة التي حلت بهذا العدد الضخم من المغاربة، وعللت ذلك بكون الحجيج اختاروا الأيسر من حيث المسافة والأعسر من حيث المشاق، ولكن الحقيقة أن الحين المقدر هو الذي حملهم على سلوك هذه الطريق، فقضى أكثرهم.

ويحل بالشخصية ما يحل بالناس فتصاب بالمرض الشديد ويعالجها أحد الأطباء حتى تمثل إلى الشفاء "ثم وصلنا إلى قاعدة الديار المصرية، وكنت إذ وردتها مريضا، فلم يمكني فيها لقاء أحد وأنزلنا شيخنا شرف الدين الدمياطي بمدرسة الظاهرية، في علو منها مليح، وكان يبعث لي شخصا من فضلاء الأطباء يتفقدني ويعالجني، وهو الحكيم الفاضل أبو الطاهر إسمعيل المقدسي...ومازال يتفقدني مدة سبعة أيام حتى تماثلت واشتهيت الطعام والضعف لي ملازم، فقدرت أن هذا البلد غير ملائم لي، فسافرت وما وصلت إلى الإسكندرية حتى ثابت إلي قوتي وعادت إلي صحتي."[3]

هذه بعض ملامح الشخصية العبدرية كما تتجلى من خلال أقوالها ونأسف عن عدم تمكننا من الحصول على أوصاف لمظاهرها الخارجية.

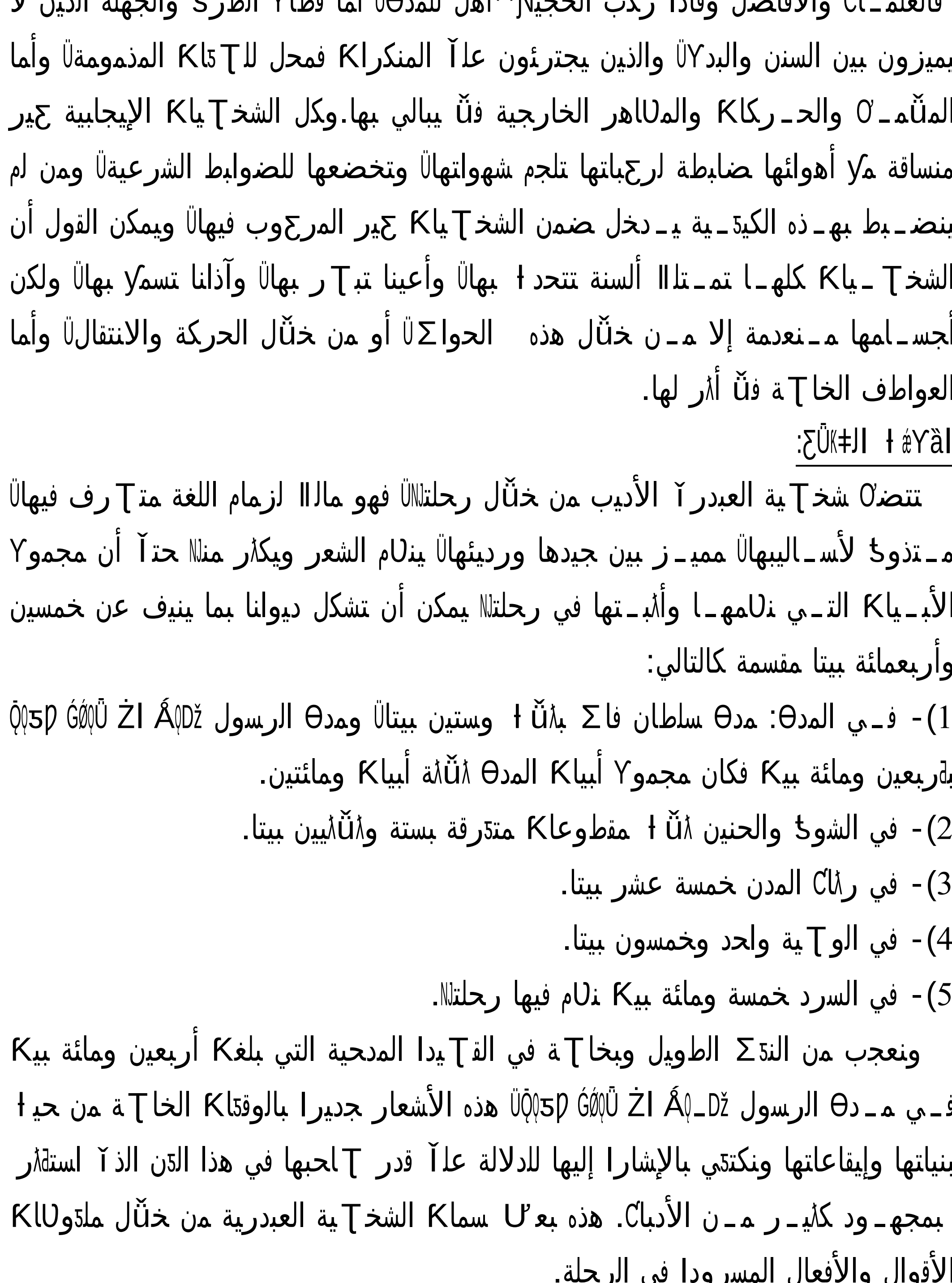
ومن خلال ما سبق نجد الشخصية تكتفي بالسلوكات المجسدة للقيم الفاضلة أو الرذيلة،

---

(1) – المصدر السابق، ص: 187.

(2) – نفسه، ص: 220.

(3) – نفسه، ص: 234.



فالعلمـ Ĉا والأفاضل وقادا ركب الحجيɰ[1]أهل للمدϴĥ أما قطاϒ الطرƾ والجهلة الذين لا يميزون بين السنن والبدϒĥ والذين يجترئون عاĬ المنكراƘ فمحل للƮ ƢاƘ المذمومةĥ وأما المƃĬمـ Ơ والحـ ركاƘ والمƶاهر الخارجية فƃ يبالي بها.وكل الشخƮ ياƘ الإيجابية ƹير منساقة مƔ أهوائها ضابطة لرƹباتها تلجم شهواتهاĥ وتخضعها للضوابط الشرعيةĥ ومن لم ينضـ بط بهـ ذه الكيƼـ ية يـ دخل ضمن الشخƮ ياƘ ƹير المرƹوب فيهاĥ ويمكن القول أن الشخƮ ـ ياƘ كلهـ ا تمـ تاƨ ألسنة تتحدƚ بهاĥ وأعينا تبƮ ر بهاĥ وآذانا تسمƔ بهاĥ ولكن أجسـ امها مـ نعدمة إلا مـ ن خƃل هذه الحواƩĥ أو من خƃل الحركة والانتقالĥ وأما العواطف الخاƮ ة فƃ أƛر لها.

<u>ƙ-ƀƔƧƗƃƚƕƗ:</u>

تتضƠ شخƮ ية العبدرƽ الأديب من خƃل رحلتƌƊ فهو مالƃ لزمام اللغة متƮ رف فيهاĥ مـ تذوƾ لأسـ اليبهاĥ مميـ ز بين جيدها ورديئهاĥ ينƶم الشعر ويكƛر منƌ حتĬ أن مجموϒ الأبـ ياƘ التـ ي نƶمهـ ا وأƛبـ تها في رحلتƌ يمكن أن تشكل ديوانا بما ينيف عن خمسين وأربعمائة بيتا مقسمة كالتالي:

1)- فـ ي المدϴ: مدϴ سلطان فاƩ بƛƃ ƚ وستين بيتاĥ ومدϴ الرسول ŘƂƏ ƅƆŷ ƌƆƅ ƑƆŰĥ بƗربعين ومائة بيƘ فكان مجموϒ أبياƘ المدϴ ƛƃƛة أبياƘ ومائتين.

2)- في الشوƾ والحنين ƛƃ ƚ مقطوعاƘ متƼرقة بستة وƛƃƛين بيتا.

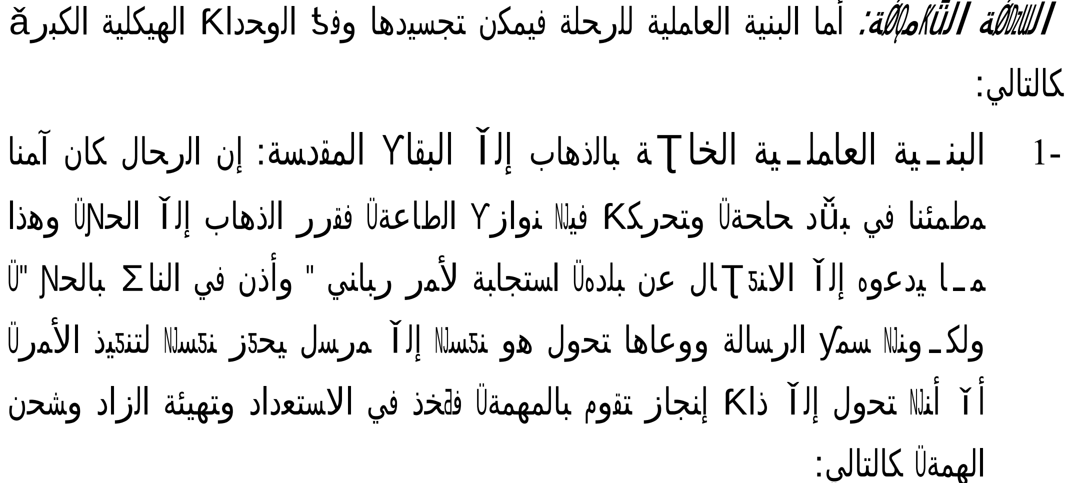
3)- في رƛاĈ المدن خمسة عشر بيتا.

4)- في الوƮ ية واحد وخمسون بيتا.

5)- في السرد خمسة ومائة بيƘ نƶم فيها رحلتƌ.

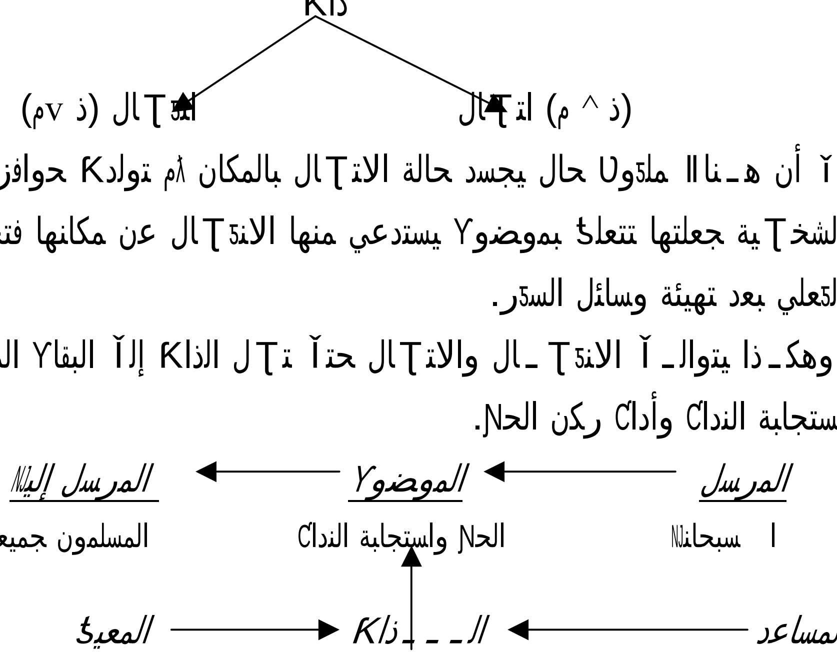
ونعجب من النƼƩ الطويل وبخاƮ ة في القƮ يدا المدحية التي بلغƘ أربعين ومائة بيƘ فـ ي مـ دϴ الرسول ŘƂـƏ ƅƆŷ ƌƆƅ ƑƆŰĥ هذه الأشعار جديرا بالوقƹƏ الخاƮ ة من حيƚ بنياتها وإيقاعاتها ونكتƼي بالإشارا إليها للدلالة عاĬ قدر Ʈاحبها في هذا الƼن الذƽ استƛƀر بمجهـ ود كƛيـ ر مـ ن الأدباĈ. هذه بعƯ سماƘ الشخƮ ية العبدرية من خƃل ملƼوƶاƘ الأقوال والأفعال المسرودا في الرحلة.

[1] – المƮدر السابƾĥ ƭ: 220-221.



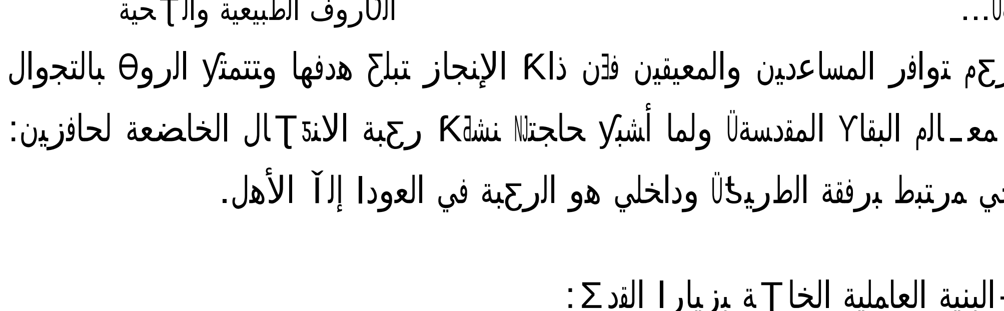
البنية العاملية: أما البنية العاملية للرحلة فيمكن تجسيدها وفق الوحدات الهيكلية الكبرى كالتالي:

1- البنية العاملية الخاصة بالذهاب إلى البقاع المقدسة: إن الرحال كان آمنا مطمئنا في بلاد حاحة وتحركت فيه نوازع الطاعة فقرر الذهاب إلى الحج وهذا ما يدعوه إلى الانفصال عن بلده استجابة لأمر رباني " وأذن في الناس بالحج " ولكنه سمع الرسالة ووعاها تحول هو نفسه إلى مرسل يحفز نفسه لتنفيذ الأمر أي أنه تحول إلى ذات إنجاز تقوم بالمهمة فتأخذ في الاستعداد وتهيئة الزاد وشحن الهمة كالتالي:



أي أن هنا تحولين حال يجسد حالة الاتصال بالمكان ثم تولدت حوافز داخلية دينية لدى الشخصية جعلتها تتعلق بموضوع يستدعي منها الانفصال عن مكانها فتحولت إلى الإنجاز الفعلي بعد تهيئة وسائل السفر.

وهكذا يتوالى الانفصال والاتصال حتى تتصل الذات إلى البقاع المقدسة والهدف هو استجابة النداء وأداء ركن الحج.



ورغم توافر المساعدين والمعيقين فإن ذات الإنجاز تبلغ هدفها وتتمتع الروح بالتجوال في معالم البقاع المقدسة ولما أشبعت حاجتها نشأت رغبة الانفصال الخاضعة لحافزين: خارجي مرتبط برفقة الطريق وداخلي هو الرغبة في العودة إلى الأهل.

2- البنية العاملية الخاصة بزيارة القدس:

المرسل ← الموضوع ← المرسل إليه

العبدري | زيارة القدس وآثارها | العبدري نفسه

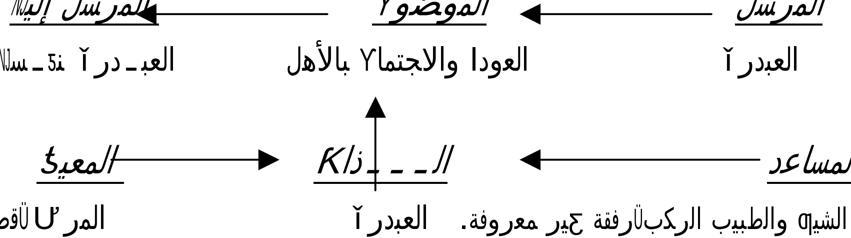
المساعد ← الذات ← المعيق

رفقة الطريق، الركب | العبدري | مشاق الطريق، الرسوم الجمركية

يقرر العبدري أن يغادر المدينة المنورة ليزور ثالث الحرمين، مبالغة في الطاعة وطلبا للثواب الجزيل، فيجد الرفقة المسعفة إلى الشام، وتقدم له المساعدات، ويجد بعض المضايقات الطفيفة التي لا تكون إعاقة حقيقية، وبالتالي ينتصر العبدري فيزور الخليل والقدس وعسقلان وغزة، ثم يذهب إلى القاهرة فيصيبه المرض.

3- البنية العاملية الخاصة بالعودة من القاهرة إلى حاحة

إن شدة المرض، وذهاب شهية الطعام ولدت توترا لدى العبدري رغم إشراف طبيب على علاجه فيسرع في مغادرة القاهرة إلى الإسكندرية ومنها إلى المغرب مرورا بتونس لكون الرغبة صارت شديدا في الالتحاق بالأهل.



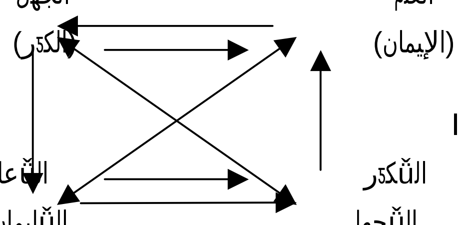
ورغم المرض الشديد يقاوم العبدري ويقرر السفر فيسعفه الطبيب حتى يمثل للشفاء فلما وصل تونس شعر بالراحة التامة، ثم يواصل الرحلة إلى بلده، فيصلها بعد أشهر. وهكذا ينتصر العبدري، بتحقيق أهدافه المعلنة من ذهاب وعودة ولكنه لا يحدثنا عن مظاهر التمجيد، المادية والمعنوية التي يمكن أن يكون قد تلقاها.

هذه هي الأهداف المعلنة، وهناك أهداف ضمنية غير مباشرة، تتمثل في كون الحاج الذي أدى الركن خالصا صادقا يحصل على الثواب، ولن يجده إلا بعد الحياة الدنيا، فالحج المبرور ليس له من ثواب إلا الجنة، هكذا ينزاح الحاضر إلى المستقبل، إلى العالم الآخر إلى عالم الغيب، فاستجابة الحاج للأمر تقتضي التمجيد لكن عند النهاية من العمل التكليفي أي نهاية دنياه التي يعتبرها مطية لأخراه.

3- أما البنية الكلية العميقة للرحلة فتتمثل في الشكل التالي:

1- الالتقاء بالعلماء ومحاورتهم لتحقيق الذات وبلوغها مرتبة التمجيد العلمي.

2- الاطلاع على أحوال البلاد والعباد بغرض النظر والاعتبار في حركة الزمن من حيث الماضي والحاضر والآفاق المستقبلية، ومن هنا نجد البنية العميقة الممثلة في المربع السميائي التالي:



إن العلم والإيمان وما يستتبعانه من اللاجهل واللاكفر يؤديان إلى القوة، وهذا ما تفتقده البلاد الإسلامية في زمنه، فالعلم قليل، والطغيان كثير، وهيبة الأمة منعدمة، وكل ذلك ناتج عن جهل ذوي الأمور بما يتولونه، وعدم تقديرهم لمسؤولياتهم، وما يناط بهم من مهام، فيتصرفون تصرف من لا إيمان له، وهكذا يحدث التناقض. ومن الطبيعي أن: العلم والإيمان يؤديان إلى القوة ومن ثم الحياة الكريمة. كما أن الجهل واللاإيمان يؤديان إلى الضعف ومن ثم الموت الحضاري.

أي: (علم + إيمان ← قوة ← الحياة الكريمة.)

بينما (جهل + اللاإيمان ← ضعف ← الموت الحضاري.)

وبذلك ضعفت الدولة الإسلامية في الداخل بانتشار اللصوص وقطاع الطرق وغير ذلك من الآفات، وضعفت في الخارج بالاعتداء على ثغورها في الشام وفي طرابلس وعنابة وغيرها. وهكذا نطل على أغوار الرحلة العبدرية ونصل إلى عمق شخصيتها، شخصية العالم، الفقيه، المفكر، الأديب، الشاعر.

ب- الشخصية في الرحلة التجانية:

تقـوم الشخصـية فـي الـرحلة التجانية، بدور الذات المدركة، ومن هنا كانت الشخصيات الأخرى بمثابة موضوع الإدراك[1]

ومعظم شخصيات الرحلة توصف من وجهة نظر مراقب خارجي إذ لا شيء عن داخلها إلا مـن خـلال بعض الأفعال أو الأقوال، كما يضطر القارئ إلى إعادة التشكيل وفق ما تسمح به الأقوال أو السلوكات الموضوعية.

يتشـكل السـرد عبـر الضمائر(ضمير المتكلم، المفرد، الجمع، وقد ينتقل إلى ضمائر الغائـب...) والإسناد إلى أسماء الأعلام الذين يتمتعون بوجود حقيقي في فترة زمنية ما، أنجزوا فيها أفعالا أو أنجزها غيرهم ممن له وجود حقيقي.

فالرحلة قريبة من السيرة الذاتية، فهي تدعي الإدلاء بخبر حول واقع خارج عن النص، وبالتالـي فهـي تخضع لتجربة التحقيق، فالهدف ليس هو الاحتمال السببي بل التشابه مع الحقيقـي،[2] ورغم كونها على علاقة وثيقة بالمرجع من حيث المحكي، فإنه "...ليس من الضـروري أن تتخذ طابع التشابه المحض، ويمكن أن يكون الميثاق المرجعي غير موفق به بما فيه الكفاية حسب معايير القارئ دون أن تختفي القيمة المرجعية للنص (...)، وهو ما لا يقع بالنسبة للنصوص التاريخية والصحفية ".[3]

فالشخصـية الـرحلية تحمل خاصيات فردية[4]، وليست نمطية للإنسان فهي أشبه بكتب الـتاريخ، وكتب الأخبار عموما، لذا يمكن القول أن كل محكي بضمير المتكلم تتطابق فيه الشخصـية مع المؤلف، وقد تتطابق مع السارد أيضا، وهو المؤلف على مستوى المرجع، فهـو مشـارك فعلي وحده أو مع الجماعة، أو راو غير مشارك، ولكنه شاهد بالرؤية أو السماع. وتكون الأنا في التمظهر الأول متحركة وفاعلة، وفي الثانية ساكنة ومنفعلة، وهما تـتفاعلان فيما بينهما، وعليه فالسارد يتحدث أساسا عن الشخصية "الأنا" ومن يندمج معه

---

[1] – بوريس أوسبنسكي، شعرية التأليف، ص: 98.

[2] – فيليب لوجين، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ، تر عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط1، سنة 1994، ص: 52.

[3] – المرجع السابق، ص: 53.

[4] – عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، ص: 66-67.

في ضمير "نا"، ولكنه قد يتحدث أيضا عن الآخر باعتباره مستحضرا من التاريخ أو السيرا أو الأخبار أو الأشعار، وهو من هذه الناحية قد يكون من الانتماء نفسه أو من انتماء آخر، سواء كان ذلك ضمن الدين أو الجنس أو المذهب الفقهي أو التوجه الفكري أو غير ذلك، لذا قد يتعدد الحديث عن الآخر بتعدد حضوره بصفته النوعية.

ولكوننا نود تقديم تحليل لشخصيات الرحلة التجانية، فإننا سنقوم بتقديم بعض المقاطع الدالة مما نراه ذا قيمة من خلال الأقوال والأفعال والأفكار أحيانا:

ΘƘƼ ا‡ǰǽǾة:

ǻǮǀȂا المة ǔǾǎ

قرر ابن اللحياني حاكم تونس السفر، الذي شكل هيكل الرحلة، والتجاني كاتب إدارة تابع له، لهذا كان جل شغله تسجيل أوامر القائد وأفعاله، وما غمض منها يحاول تفسيره، وهذا ما تقتضيه الخدمة السلطانية، والتابع الذي لا تذوب شخصيته يتكلم باسم القائد أحيانا حين يتعلق الأمر بالقرارات الحاسمة التي تقتضي مشاركة ذوي الرأي، كما حصل بعد حصار طويل لحصن القشتيل[1]، وقد يتحدث باسم الإدارة باعتباره يمثل السلطة، أو يوجه الاستشارة في المواقف التي تحتاج إلى ذلك. وهذه الشخصية تتسم بالطاعة والانقياد في الحل والترحال وفي السلم والحرب، وفي مجالس العلم، وفي المراسلات الإدارية والإخوانية الخاصة، تأتمر بأوامر القائد ولا تستجيب للهواجس الذاتية، رغم أن الرحلة عكست الصبغة المذكراتية للذات وللغير.

ǁǽǰـǾة المـƺǮǓ: يبرز الاهتمام بتصوير المحيط الذي تتحرك فيه الشخصية تصويرا يرصد تاريخ المكان، والأجناس، والجماعات، والمذاهب، ومثلما تتعرض لأعمال الجماعات تشير إلى أعمال الأفراد، ورداءة المكان وحسنه لا يتبعان المكونات الطبيعية باستمرار، إذ غالبا ما تسقط خصائص السكان على المكان ويظهر من خلال سلوكاتهم، من ذلك: "ثم ارتحلنا... إلى أن وصلنا إلى موضع إقامتنا منزل غمراسن، فوجدنا منزلا قد غضب الله على أربابه فابتلاهم من سكناه، والإقامة بمغناه بأليم عذابه، وخرج إلينا جميع أهله فتلقونا على بعد، ولما وصلنا إليه اخترنا موضعا لبناء الأخبية فلم نجده إلا بعد

(1) – المصدر السابق، ص: 128.

صعوبة ومقاساة شديدة لصلابة الأرض وعدم ثبوت الأوتاد بها."[1] من خلال هذا النص نشعر بالنفور لكون الشخصية اتخذت موقفا منه " فقد غضب الله على أربابه " ولعل هذا البوح يعكس جانبا من اللاشعور لدى الشخصية إذ نفر من الإقامة في هذا المكان بعد أن اشترك في الاستشارة لابن اللحياني القاضية بالعودة إلى تونس فلما لم يأخذ ابن اللحياني بهذه الآراء استقر في عمق الشخصية النفور وعدم الرضا بدليل ما تسجله من فضائل لأهل المكان. إن التركيز على مكان ما يتم عن طريق الحفر في ماضيه. وربطه بأحداث الزمان وسير الأبطال وذوي الشأن وهذه مزية خاصة وفيه يتعالق الزمان والمكان مع الجماعات البشرية وهذا من الأهمية بمكان للمجتمعات في أن يتوفر لديها من المعلومات عن مدنها وقراها ما يضيء الماضي وييسر الحاضر ويدفع بالمصير إلى المستقبل الأفضل. فالاعتزاز بالانتماء متولد عن المعرفة بالزمكانية وماضي الجماعة البشرية.

مع الأجناس: شخصية التجاني تتفاعل مع الأجناس المتواجدة في المنطقة التي عبرها ومن خلال التقصي تعين الأصول العربية أوالبربرية أو الرومية أوالقبطية فالروم من بقايا ما قبل الفتح " وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقيا قبل الفتح الإسلامي وكذلك أكثر بلاد الجريد لأنهم في حين دخول المسلمين أسلموا على أموالهم."[2]

أما الجماعة القبطية فنقلت إلى تونس في عهد حسان بن النعمان إذ " بعث عبد الملك (بن مروان) إلى أخيه عبد العزيز وهو أميره على مصر يأمره أن يوجه إلى حسان ألف قبطي وألف قبطية يستعين بهم فحملهم عبد العزيز في البر فلما وصلوا إلى حسان أنبت كثيرا منهم في رادس وفرق باقيهم في مراسي إفريقية."[3]

وتهتم الشخصية بالبربر في أكثر من موضع بل تعين قبائلهم وأفخاذهم واندماج بعضهم في القبائل الهلالية وقد تهتم بالفروع مما يجعل الرحلة أصلا من أصول الأنساب العربية والبربرية فالاهتمام بالأنساب في جانبه الإيجابي يؤدي إلى التماسك الاجتماعي ذي التشكيلات المادية المعاشة في سياق حياتي معين على مستوى التجمعات السكانية

---

(1) – التجاني الرحلة ص: 184- 185.

(2) – نفسه ص: 159.

(3) – نفسه ص: 6.

لمنطقة ما، وبخاصة حين يرتكز على الأصول التي لا تقبل الطعن، أما جانبه السلبي فإنه قد يستغل للتفرقة بين سكان منطقة واحدة، مما يولد آثارا سلبية في التعامل الاجتماعي، وقد يستغل في الادعاء المزيف من حيث الوضاعة والوجاهة، أو الشرف والدناءة، وقد يصبح النسب رمزية لدى الأفراد لتشكل الشخصية، كما يمكن أن يكون قد حصل لصاحب الرحلة الذي ينتسب إلى إحدى قبائل المغرب الأقصى "تجان" بكسر التاء، التي استقر بعض أفرادها الذين جاءوا مع عبد المؤمن بن علي في تونس، وصار كثير من التجانيين أعلاما رفعوا راية العلم والأدب في البلاد التونسية مدا لا تقل عن الثلاثمائة سنة."(1)

مع المذهب :

للشخصية ولوع بالحديث عن أهل المال فهي تستقصي أخبار الخوارج التي جرت بينهم وبين غيرهم في هذه المنطقة: " ومن هذه القرية كان الابتداء بسلوك منازل البربر المتمسكين بمذهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين وأموالهم، وهذا المذهب هو الغالب على جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس خصوصا أهل الساحل منهم، فهم بهذا المذهب المذموم يتقربون بسبي من يمر بهم من المسلمين للروم...".(2)

ولا نستطيع وسم الشخصية بالتعصب لاعتمادها على الأدلة، ومن ذلك هذا الحوار في مسألة المسح على الخفين: " فذكرت له بعض الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله (صلعم)، فردها بالجملة وقال هذه أخبار آحاد لا يجب العمل بشيء منها قال: وقد نص لنا سيدنا أبو يزيد مخلد بن كيداد على طرح ما كان من الأحاديث يناقض أصلا من أصولنا، فلعنت النص ومن نصه."(3).

وتهتم الشخصية بسلوكيات النكارية الذين يقطنون "المقدمين" " فهم لا يدفنون موتاهم إلا جلوسا، في كهوف متسعة يحفرونها لهم وقلما تجد من يعرف منهم الصلاة ولا آذان لهم رغم وجود المسجد، ولا تصلى فيه الجماعة ولا الجمعة، ولا يغسلون موتاهم، ولا يصلون عليهم،

(1) – المصدر السابق، ص: 11. م(مقدمة).

(2) – نفسه، ص: 119.

(3) – نفسه، ص: 208.

ولا يورثون البنات شيئا من مال أبيهم، وعيشتهم من الغارة على العرب."[1]

إن شخصية التجاني مولعة بالتسيسات الثقافية في المنطقة لذلك نراها لا تغفل التركة الأخرى، فذكر الفتنة الكبيرة التي أوجدها المعتزلة في مقولتهم "خلق القرآن" والتي تعرض من جرائها خلق كثير للتعذيب والهوان شرقا وغربا، ويذكر ذلك نص على وجود لوحة في صحن جامع سوسة مكتوب عليها نقشا في الحجر: " القرآن كلام الله ليس بمخلوق" ويكتب مثل ذلك في عمد الجامع وذلك كله تنبيه على مذهب أهل السنة، وتأنيبا له بسبب كثرة ما كان بها وبجميع بلاد إفريقية في القديم من مذاهب المنحرفة عن المذهب السني، ثم ما كان بها منها في زمن ملك الروافض لها، ثم في زمن تغلب الخوارج عليها "[2]، هكذا ربط الشخصية بين المذاهب لكون الخوارج والمعتزلة يشتركون في مقولة "خلق القرآن"، وهذا التصور الثقافي الفكري الذي كان سائدا في المشرق انتقل وترسخ إلى المغرب، وأخذ يعمل عمله في أذهان المسلمين، من أتباع دين رب العالمين.

وفي ساحل آجيم، من حيث يجتاز الناس إلى جربة، قال: " وزرنا بهذا الموضع - الذي أقمنا به- مسجدا هناك مباركا يذكرون أن الإمام المهدي رحمه الله سكن به في أول جوازه إلى المشرق، فإنه كان دخل في رحلته إلى هذه الجزيرة." [3]

وبالموازنة بين هذا الموقف وما صدر منه من لعنة حين سمع فتوى الكيدادي في المسائل يتضح موقفه من الخوارج والشيعة. ولا يعني ذلك أنه يعتقد مذهبهم لأنه من خلال الحديث عن طرابلس أشار إلى أن بني عبيد قد قتلوا بشرا كثيرا ممن أسقطوا حي على العمل من الآذان، كما روى عن غيره أنه " ليس شيء أشد على بني عبيد من صلاة القيام في رمضان، كما أشاد بدور الشيخ أبي الحسن ابن المنمر الذي كان أول من أعاد السنة في طرابلس في قيام ليالي رمضان، وهو أول من قطع " حي على خير العمل من الآذان".

وهو أول من أطلق للناس صلاة الضحى جهارا، لأن بني عبيد يقتلون من يصليها."[1]

---

(1) – المصدر السابق، ص: 187.

(2) - نفسه، ص: 26.

(3) – نفسه، ص: 121.

وهكذا تتضح لنا شخصية التجاني التي استوعبت هذا المكان المتعدد الأجناس والثقافات والمذاهب والآراء، مما يكوّن أفقا ثقافيا واسعا، ومتنوعا، وعرض ذلك عن طريق هذه الشخصية يدل على مدى تبحرها في ثقافة المنطقة وتاريخها، ومن خلال العرض اللغوي تبين انتماؤها لأهل السنة، ولكنه انتماء لا يقصي الآخرين.

الرؤية الأدبية: تتجلى الميول الأدبية للشخصية من خلال ما تقدمه لنا، إذ كلما وصلت مكانا وقفت عند أهم فضلائه من أئمة وفقهاء، وأدباء وشعراء، وأرباب كل فن من الفنون المعروفة آنئذ. كما تتجلى في المراسلات العديدة المتواجدة في الرحلة فقد وردت فيما يقارب عشرة مواضع[2]، وهي مراسلات فيما بين الشخصية والأتراب والأنداد من الأدباء، أو فيما بينها وبين الأقارب ولأحباب، وفي الغالب يتجاور فيها الشعر مع النثر.

تقدم شخصية التجاني التاريخ بأشكاله في صياغة فنية تؤدي وظيفة التبليغ بما تضفيه من ذاتية الأديب الذي ينتقي اللفظة الدالة والعبارة المصورة، وهذه مزية التجاني الذي استطاع أن يستقرئ الخارجي ثم يصهره في الذات فإذا الكل في نسيج ملتحم، يحمل أصداء الوجدان في اختيار العناصر الدالة من التاريخ، و مما يحكي شعبيا مع الحياد الموضوعي الذي يتحلى به من يشغلون المناصب العليا في الدولة. إنه نموذج للرحلة التي تبحث عن الجذور المتأصلة في تواضع عزيز، بلا تحيز للذات أو الإعلاء من شأنها.

إن شعرية اللغة الوصفية والسردية بلغت أوجا من الصفاء والنقاء وتجلت بشكل أكبر في المراسلات النثرية والمقطعات الشعرية، وتدل على اتساع فضاء المقروء لدى الشخصية في مجالات المعرفة في ذلك العهد.

هذه أهم سمات شخصية التجاني التاريخية والفكرية والأدبية، إلى جانب السمات السياسية التي لم تتجل بشكل واضح، ولكنها تطل من خلال التصرفات والمواقف.

الشخصية الثانية:

---

[1] – المصدر السابق، ص: 265- 266.

[2] – نفسه، ص: 140،164 وما بعدها، ص: 189-191، ص: 221-237، (ص: 180-306).

" هنا ليس من الضروري أن تكون الشخصية شخصا واحدا والأحداث لا تدرس موزعة مشتتة وإنما يتم جمعها وضمها عن طريق العناوين الفرعية المرتبة ترتيبا زمنيا أو سببيا وهما المبدآن الأساسيان لضم الأحداث..."[1] لهذا نقوم بشيء من التجريد الملائم لدراسة الشخصيات وجعلها مقترنة بدوائر الفعل أو ما يعرف بالعوامل ويمكن النظر إلى الرحلة التجانية وفق التقسيم التالي:

1- تطواف جربة والجريد.

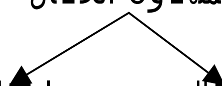
2- في انتظار الرحيل إلى الحجاز.

3- التوجه إلى الحج.

4- العودة إلى تونس.

وهذه العناوين هي ما يمكن أن نسميه الوحدات الكبرى للمتن السردي. وفي كل وحدة يمكن أن ينتج لدينا شكل عاملي أو أكثر يبين هيكلة النص وحركته ودلالته.

في البدء نجد " المخدوم" في حال استقرار بعاصمته تونس ومعه أعوانه الذين تندرج الشخصية ضمنهم، وهذا هو ملفوظ الحال. فينشأ بداخله هاجس الانفصال فيعبر عن رغبته في الحركة خارج العاصمة.

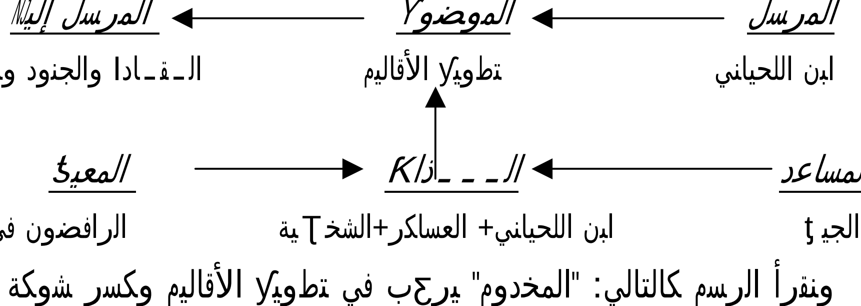


يتبين أن المخدوم في علاقة اتصال مع تونس العاصمة، ويرغب في الانفصال عنها إلى أماكن أخرى منها المقربة ومنها الكامنة، ولذا يبحث عن ذات الإنجاز باعتبار " المخدوم" هو المرسل، فإنه يأمر " المرسل إليه " الممثل في الجيش والأتباع بمحتوى الرسالة ومفادها الحركة إلى تطواف أطراف المملكة، واتضح أن هناك هدفين أو رسالتين إحداهما ظاهرة والأخرى خفية لا يعلمها إلا القليل وتبرز الشخصية القريبة جدا من الآمر "المرسل " و التي تعلم الأسرار، فتبوح بهذا السر على مستوى السرد.

1 - البنية العاملية لوحدة (تطواف جربة والجريد)

---

[1] - شلوميت ريمون كنعان، التخييل القصصي، ص: 32.



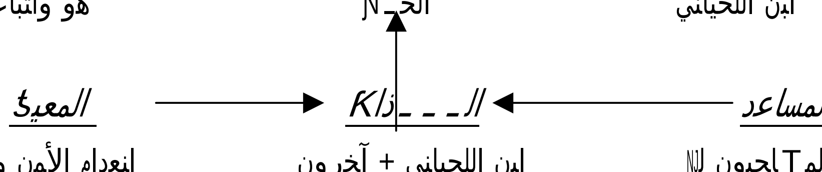
ونقرأ الرسم كالتالي: "المخدوم" يرغب في تطويع الأقاليم وكسر شوكة المتمردين الذين لا يدفعون المستحقات للدولة فيقرر الخروج إليهم، ويعد العدة الكافية من وسائل مادية وبشرية، ثم يعلن عن المقصد المصرح به، والسارد يكشف عن غاية أخرى وهي نية الحط المخفية عن الجيش. وينفصل الفاعل ومعه مساعدوه، ويجد بعض المعارضة في مناطق مثل " جربة " ولكن قوة جيشه تمهد السبيل، فيحقق الانتصار في تطويع قابس والجريد... وغيرها، وتنتهي الوحدة الأولى بالانتصار وتمجيد الجيش بتسريحهم والعودة إلى منازلهم، وهنا يكشف عن الهدف الثاني وهو الذي كان هدفا بالقوة ثم أصبح هدفا بالفعل فتنطلق الجيوش إلى في مشهد توديع مؤثر تبرز فيه كثير من المواقف الذاتية.

إن الشخصية الآمرة هي الأمير، والسارد يحكي أوامر الأمير، ويخبر عن مقاصده، ولكن شخصيته الخاصة المتماهية مع السارد ولذلك تختلف شخصية الآمر عن شخصية السارد، ورغبة تأمين الأقاليم رغبة جامعة، وعلاقة شخصية السارد على مستوى الرغبة علاقة الآمر بالمأمور الذي لا يمكنه الاعتراض، ومن هنا تتحقق إرادة المأمورين مع الآمر، ولكن شخصية الآمر على مستوى الإسرار تعلن شيئا وتسر شيئا آخر، وهذا ما يكشفه السارد للقراء قبل أوانه، مما يجعل القارئ يعلم أكثر من الشخصيات المساعدة التي تبذل ما في وسعها لتحقيق رغبة الآمر في الانتصار واستعادة جربة وتطويع بقية الأقاليم.

والإعاقة تدرك ضمنيا، وتتمثل في المقاومة العنيفة التي يلقاها الجيش في جربة بالأخص، وتنتهي بالفشل، وهكذا يبرز في البنية العاملية الأولى المظهران الظاهر والباطن، كما يبرز الالتحام بين الشخصية الأساسية ومساعديها إلى درجة الهيام بها.

2- البنية العاملة للوحدة (في انتظار الرحيل إلى الحجاز)





تعلن الذات الفاعلة عن رغبتها الجديدة التي كانت كامنة. إذ هي في وضع يملي عليها الرحيل لتحقيق الغاية، ولكون الرحلة مختلفة فإن الزاد والعدة تختلفان، لذا سرح معظم الجيش ورخص لهم في العودة، ولم يبق إلا ما يحتاج إليه في الحراسة وبعض الشؤون الأخرى، ومن بين من أبقاه السارد/الشخصية. واعتمد الفاعل في تحقيق رغبته على مساعدين معينين سيقبلون من المغرب عائدين إلى المشرق يدعم بهم قوته، لهذا يرسل المرسل رسالته بالانطلاق إلى طرابلس مارا بمناطق متعددة. فينفذ المرسل إليهم الأمر، لكن الأخبار تتضافر باستحالة تنفيذ رغبة " الحكم " في مثل تلك الظروف لشراسة المعارضين (قطاع الطرق، انعدام الأمن، المجاعة فيما بين طرابلس والإسكندرية...كثرة المتمردين) لهذا تتعوق الرغبة فلا تنجز، ولا تلغى رغم التوسط، وتبقى في حال انتظار قدوم المساعدين الأقوى والأكثر دراية بالطريق.

ويبرز في الوحدة ضعف إقناع الأتباع بالمكوث في طرابلس مما جعل الشك يتسرب إلى النفوس. فيمكث الفاعل ومن معه في الانتظار مدة عام ونصف العام وأيام. [1]

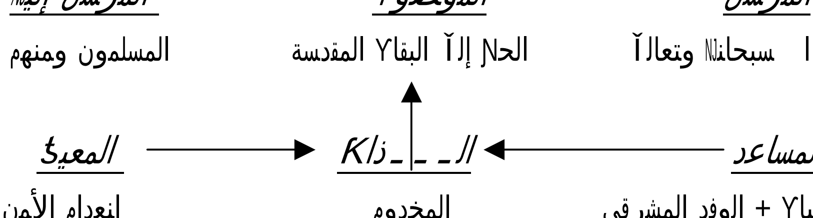
والملاحظ هنا أن المعيق أقوى من المساعد، وكذا من الفاعل وهو في اختبار حقيقي لإرادته، إذ تواردت الأخبار عن استحالة الحكم، ورغم ما يبدو من سوء النظر السياسي، فإن الفاعل مصمم على رغبته إذ كان بإمكانه أن يعود إلى تونس حتى تنتهي الظروف، ثم يحكم، ولكنه يعلم أن العودة أكبر معيق لهذا تربص بطرابلس إلى حين مواتاة الفرصة.

في البنية العاملية الأولى يبرز الفاعل المرسل باعتباره صاحب مشروعين، ظاهر وباطن، والظاهر يتناقض مع الباطن بالنسبة لإرادة المساعدين فهم يرفضون فراق القائد ويعودون إلى أماكنهم غير راضين. وأما في البنية الثانية، فالرغبة الظاهرة هي مسايرة الآمر، أما الرغبة الكامنة فتتمثل في أن معظم المساعدين لا يوافقون المرسل رغم التظاهر بالرضا، فينشأ نوع من التناقض بين التجلي والخفاء بشكل معاكس للبنية الأولى.

---

[1] - التجاني، الرحلة، ص: 280.

3- البنية العاملية لوحدة (الخروج إلى الحج) الخاصة بالمخدوم ابن اللحياني



إن الفاعل في هذه الوحدة يخرج لتنفيذ رغبته ومعه أتباعه ومساعدوه الإضافيون (المشكلون من وفد مصري كان قد قدم الهدية للسلطان المغربي الذي توفي مما جعل الوفد يلقى مشاكل ولم يتمكن من العودة إلا بصعوبة) فلما عاد من المغرب خرج " المخدوم" لإنجاز رغبته ويطرأ معيق لم يكن في الحسبان وهو " مرض السارد/الشخصية "ه وبعد الانتظار يحدث الانقسام فيواصل ابن اللحياني رحلته إلى الحج ويسكت السرد عنه تماما.

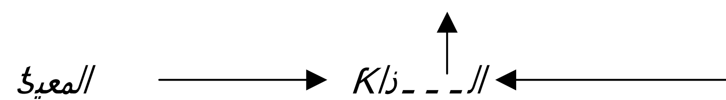
لقد وصلت الرحلة إلى نقطة مفصلية تفتح مجالا لاحتمالات كثيرة إذ يمكن أن يعودا معا أو ينتظرا معا أو يعود أحدهما ويواصل الآخر وهو الاختيارالموجود في السرد.

بعد أن أسعفت الشخصية الأساسية بمساعدين لهم دراية بالطريق ولهم قدرة على الحماية. اختفت و لم يعد السرد يهتم بها وبرغبتها وإنما برزت فضاءات أخرى فسحت المجال لذات الإنجاز التي كانت من ضمن المساعدين فتحولت إلى ذات متعلقة بموضوع ذي قيمة وهو العودة إلى تونس بعد أن تعرضت لإعاقة المرض.

4 - البنية العاملية الخاصة بمرض السارد



ابن اللحياني — الحج — التجاني ومن معه



ركب المخدوم ومن معه — التجاني ومن معه — المرض العضال

خرج السارد/الشخصية مع "المخدوم" وفي الطريق ظهر معيق خاص به حال دون تنفيذ رغبته مما جعله يفشل في تحقيق المراد. و قد عبر السارد عن شوقه للعودة إلى المنطلق في أكثر من مناسبة مما يبرر بروز هذا المعيق المفاجئ. في حين نجد الإصرار على مواصلة رحلة الحج لدى "المخدوم" وكأن بذرة التناقض زرعت قبل ليتوقعها القارئ.

إن المصير في هذه الوحدة درامي إلى درجة ما وهو الحافز الذي تتولد منه احتمالات كثيـرة اختيار أحدها يظهر حتما على شكل السرد لذا نجد السرد يتحول راجعا إلى الوراء ولا يتابع السير إلى الحجاز خلافا لما كان متوقعا ومرسوما في استراتيجية الرحلة.

5 - البنية العاملية الخاصة (بعودة السارد إلى تونس)

المرسل إليه	←	الموضوع	←	المرسل
التجاني		العـودة		التجاني
		↑		
المعيق	→	الذات	←	المساعد
لا شيء		التجاني		الأتباع وكتيبة التوديع

فـي هذه الوحدة يقع تحويل في النموذج كله إذ يصبح المرسل هو "السارد/الشخصية" والمرسل إليه (هو نفسه وبعض أتباعه) والرسالة (هي العودة إلى المنطلق) وتصبح كتيبة الجيش المصاحبة للوفد المشرقي مساعدة للسارد في تحقيق رغبته الجديدة.

لذا يعود السارد أدراجه بمساعدة تلك الكتيبة التي جاءت مشيعة للوفد المصري إلى نقطة ما ولكون العائق الطارئ أرغم السارد على العودة فقد عاد معه وتحقق الهدف وهو الوصول إلى تونس بلا معيق يذكر.

لقـد سكت السارد سكوتا تاما عن المرسل الأول "المخدوم" ولا يبدو أنه مهتم بعودته إذ انتهـى أمره إلى سكوت تام هو أيضا وإنما أراد أن يمجد نفسه على مستوى الأمل وهنا يأتـي دور التذييل الذي ختم به رحلته المتمثل في القصيدة التي امتدح بها النبي صلى الله عليه وسلم متوسلا به أن ييسر المرام[1]

إن لم أكن بالفعل ملتحقا بهم فالحب فيهم مقتض للحاقي

قسمـا بـعزته ورفعة قـدره إني لزورته لبا لأشواق

لكن سيئ ما جنيت أقـعدني عنه وقيد عزمتـي بوثـاق

وهكـذا نجد الرحلة تسكت عن النهاية إذ استبدلت البطل أو الفاعل في وحدتها الأخيرة وتغير مسار السرد الذي كان مرتبطا برسائل "المخدوم" الذي يواصل سرده وينقطع خبره

---

(1) – التجاني، الرحلة، ص: 393- 395.

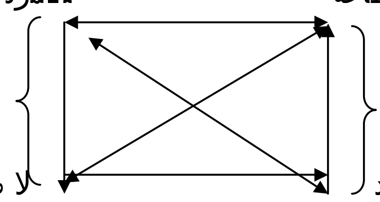
فـي حـين يتحول المرسِل إليه مرسِلاً ويغير اتجاه الرحلة قبل تحقيق الغايات مما يتيح الإمكانية لنشوء حكايتين إحداهما تتابع المرسل الأول، والأخرى المرسِل الثاني (السارد).

5- البنية العميقة: من خلال ما سبق يمكننا تجسيد المشروع السردي الأساسي كالتالي:

موت (-) خضوع حياة (+)

تمرد طاعة

تطاول احترام وهيبة



لا طاعة لا تمرد

عصيان

مشـروع المرسـل الأول يقوم أساسا على أن الرعية منهم من يؤدي المستحقات للدولة ومـنهم مـن يتمـرد فلا يدفعها، ولذا كان الخطاب إقناعيا لكل المساعدين على الإنجاز. فالذين يمنعون المستحقات والذين لا يدفعون، والذين لا يمنعون، كلهم في علاقة استتباعية وكلهم يمارسون نوعا من التطاول على الدولة وإن اختلفت درجاتهم، وهذا ما يؤدي حتما إلى العصيان الذي قد يتطور إلى موت الدولة.

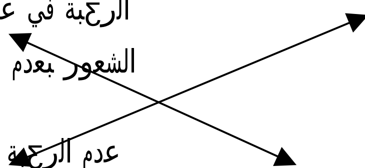
أمـا إذا تحـرك المشـروع السـردي عن طريق ذوات الإنجاز، فإن الرعية ستؤدي المستحقات وبالتالي تكون خاضعة لأوامر الدولة، ومنها تكتسب مهابة واحتراما في نفوس الرعية وهذا ما يديم حياتها.

فكـأن البنية العميقة متعلقة بكيان الملك الذي يمثله المرسِل، والرسالة تتعلق بحياة الدولة وازدهارهـا ودوام عزها أو هوانها، والتطاول عليها مما يؤدي إلى زوالها. هذه الرسالة اقترن بها الجميع وأنجزت بنجاح فوقع تمجيد ذوات الإنجاز الممثلة في الجيش.

6- وضمن دراسة "مكيفات الفعل" الخاصة بإبراز العلاقة بين الفاعل وفعله يتضح لنا أن الفاعل في المخطط العاملي الأول يمكن أن يجسد فعله كالتالي:

الرغبة في الفعل الرغبة في عدم الفعل

الشعور بوجوب الفعل الشعور بعدم وجوب الفعل



عدم الرغبة في عدم الفعل عدم الرغبة في الفعل

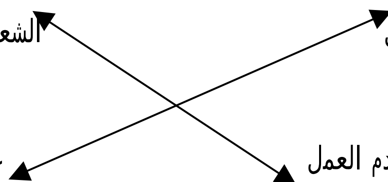
عدم الشعور بعدم وجوب الفعل عدم الشعور بوجوب الفعل

لقـد تحققت لدى الفاعلين الرغبة في الفعل والشعور بوجوب فعله كما تحققت القدرة على إنجازه وبذلك نشط الجميع وحققت الأهداف المرسومة.

7- وحين ننتـقل إلى المخطط العاملي الثاني والثالث نجد بعض التغيير.

الرغبة في الفعل الرغبة في عدم الفعل

الشعور بوجوب الفعل الشعور بعدم وجوب الفعل



عدم الرغبة في عدم العمل عدم الرغبة في العمل

عدم الشعور بعدم وجوب العمل عدم الشعور بوجوب الفعل

إذ يظـهر الفاعـل راغـبا فـي الفعل "الحج" شاعرا بوجوب فعله "مع اختلاف بين الفاعلـين" وبخاصة بين السارد والآمر، فالسارد يرغب في الحج ولكنه يرى عدم وجوب الفعـل لانتفاء شروط الاستطاعة، وبذلك عبر في أكثر من موضع على تردده، أما الآمر "المخدوم" فهو مصر على "الوجوب" ومصر على تنفيذ إرادته.

ولكـن بقـي شرط ثالث، وهو القدرة على الفعل، فلم تتوفر القدرة على الإنجاز، مما جعله يتريث إلى حين مواتاة الفرصة.

أما أولئك الذين يظن أنهم لا يرغبون في الفعل أو لا يشعرون بوجوبه فقد صرفوا إلى الحضـرة "تونس" لكن يمكن الاعتراض أن أولئك لم يعبروا عن إرادتهم فهم خدم "عبيد" ينفذون ولا يقررون. والفرق بين المخططين يكمن في:

- توافر القدرة في المرحلة الأولى، وافتقادها في المرحلة الثانية.
- توافـر الشعور بالوجوب في المرحلة الأولى، وضعف ذلك الشعور عند البعض في المرحلة الثانية.

ولما توفرت القدرة كان المخطط في علاقة الفاعل مع الفعل كالتالي:

- الرغبة في الفعل.
- الشـعور بوجـوب الفعل (حتى عند السارد لكون إرادته تابعة للآمر، وليست مستقلة في أخذ القرار)
- القدرة على وجوب الفعل.

- مبدأ المعرفة بكون فعل الحج من الأركان الواجبة ولا ينبغي تركه إذا توفرت القدرة لهذا صمم الجميع على الإنجاز لكن تدخل طارئ لا يجب إلا من أصحابه بعض التردد في الشعور بوجوب التعلة ومن بين الوفد كله ينتاب السارد/الشخصية بالمرض المقصي فيه يحقق هدفه في حين يحج الآخرون جميعا وهذا ما يطرح مصداقية القول والفعل على مستوى الخطاب في علاقة الظاهر والباطن " ويقتضي الخوض في هذا الموضوع إلى إثارة ما يعرف في مجال الدراسة "البراكماتيكية" بمسألة "اللغة الذاتية" التي تعد رجعا للصدى لما يتضمن به الباطن الخفي من قيم." [1]

ولقد صرح السارد بالتردد الواقع بين إرادة الآمر "المخدوم" والسارد حين قال: " فحاولنا بما اجتمع من هذه الأخبار المتتابعة ومن مرضه الشديد رأيه إلى تونس لتكون إقامته بها إلى أن يعافى من مرضه ويصل ركب الإرسال المشرقيين فنتوجه حينئذ معه من تونس..."[2] "...فقبل إلا سلوكا لمنهجه وقصد ألا يرجع إلى تونس إلا بعد حجه..."[3] فالسارد قد أفصح عن رأيه في النص الأول وحاول أن يقنع به "الآمر" أما الآمر "المخدوم" فله منهجه وقراره. لهذا نجد الخطاب يزيل اللثام عن رغبتين وإرادتين وشعورين بينهما بعض التفاوت. والسارد يجب أن يطيع رغبة الآمر إذ هو تابع وليس بحرة وهذا ما يدفعنا إلى أن نطرح سؤالا آخر حول مصداقية مرضه.

ويمكننا على مستوى المصداقية تتبع مراحل الرحلة وتغيرها من طور إلى طور فنرسم المخطط التالي:

صدق
باطن ظاهر
سر كذب
لا ظاهر لا باطن
باطل

---

(1) – محمد الناصر العجيمي في الخطاب السردي ص: 66.

(2) – التجاني الرحلة ص: 192.

(3) – نفسه ص: 194.

أولا بالنسبة للآمر المخدوم

- فـي المرحلة الأولآ نجد ﷲ هدفين ظاهر وهو تطويﻳ الأقاليمٌ وباطن وهو نية الحﻟٌ ولذا فهو يحمل سراً أآ يجتمﻳ لديﷲ (باطن + لا ظاهر).

- وبالنسـبة لـتطويﻳ الأقاليم يستوآ باطنﷲ مﻳ ظاهرهٌ فالعﻠاقة بين الفاعل وموضوعﷲ تتمثﻳ بالﺻدﻕ والعﻠاقة بين الفاعل وموضوﻉ الحﻟ تتسم بالسﺭ.

وفي الوحداﻛ (4.3.2) ينتقل السر إلآ العلنٌ فالعﻠاقة (ظاهر+باطن) متسمة بالﺻدﻕ.

_ ثانيا بالنسبة للسارد:

-في المرحلة الأولآ يستوآ ظاهره مﻳ باطنﷲ مما ولد لديﷲ الﺻدﻕ والإخﻠاﺹ ٌ أما في المـرحلة الموالية فيبدو من خﻠال النﺻين السابقين توسيمﷲ بوضﻳ "ظاهرٌ لا باطن" مما يـﻋدآ إلـآ نوﻉ من الشﻚ قد يقرب من الكذبٌ ولكن ذلﻚ يﺻدﻕ في تبيين العﻠاقة بين الفاعلـين وموضـوﻉ الحﻟ وليﺲ غير ذلﻚٌ أما علآ مستوﯽ الطاعة فإن السارد يظهر طاعتﷲ للآمر حتآ عند اشتداد المرﺽ عليﷲ.

هـذه القـراﺀة تخـﺹ المشروﻉ السردآ الرئيسي في الرحلة ولا تنﺻب علآ المشاريﻳ الثانوية التي لها بعﺽ الخﺻوﺻياﻛ.

2-2-1- الرحلة بين الشخصية والفاعلية:

إن الشخﺻـية الفاعلة في الرحلة كلها هي السارد الأساسي الذآ يروآ أفعالﷲ بضمير المـتكلم المفـرد أو الجمـﻳٌ وينجز إلآ جانب الأفعال كل الأقوال أﺻالة أو روايةٌ لكن مﻠامحﷲ الخارجية لا تكاد تظهر إلا قليﻠا.

فعل الفاعلية:

نجـد في المظهر الخارجي بعﺽ الإشاراﻛ المتناثرةٌ ففي موقف فراﻕ الأهل ينفعل إلآ درجـة انسكاب الدموﻉ[1]ٌ وهو موقف عاطفي وجدانيٌ ويتكرر هذا الموقف حين يشاهد أهل المدينة وقد خرجوا يتنزهون علآ جانبي وادآ العقيﻕ فيشده الحنينٌإلآ الأهل ٌيقول" وقد حضرني أبياﻛ ونحن علآ شاطئﷲ مﻳ جملة من أﺻحابنا :

---

[1]– أبو سالم العياشيٌ الرحلةٌ ج1ٌ ﺹ: 14.

جرة العقيق ودمعي كالعقيق جرة فلم تسل سائلي عـما هـناك جرة
أذكرني زمنـا عنـد الـذين بـهم أفاخر الشهب في وسط الدجى سحرا
قومي وأهلي ومن ألـبسه بينـهم شـرخ الشـباب نـديا طيبا عطرا[2]

وتشـاهده فـي أكثر من موقف يصرح بأنه لا يستطيع المشي راجلا[3]ولا يستطيع أن يلـتحق بالركب إلا بعد عناء شديد رغم أنه حج مرات قبل هذه التصريحات مما يحملنا علـى القول أنه رجل لا يمتهن الأعمال البدنية حتى يألف السير وحتى أنه يراسل أحد معارفـه بـبلده مخبرا إياه أنه صار يتمتع بقدرا عالية على المشي لم يكن بعهدها قبل وذلك بعد قطع مسافات طويلة أكسبته تمرينا وتدريبا.

وقد تشاهده رغم المكانة على جلال قدره بين أهل الركب والعلماء الذين يتصل بهم فلقـد قدم رسالة لأحد العلماء بالقدس فلما قرأها سأل عن الشخص المقصود فقال له "أنا" وما ذلك إلا لما يبدو عليه من الركاكة[4] التي لا تنمي عن قدر الموصوف في الرسالة.

ومما يمكن أن يشير إلى المظهر الخارجي حديثه عن مرضه وهو بالمدينة قال: " فطال بـي المـرض ومنعنـي من الوصول إلى المسجد... بل آل بي أن عجزت عن الخروج للجمعـة فضـلا عـن غيرها من الصلوات وفي أثناء المرض... قام بشؤوننا أصحابنا المغاربة فيما نحتاج إليه من أدوية وشراء الأطعمة..."[1]

هذه بعض المؤشرات الدالة على المظهر الخارجي للشخصية الرئيسية التي تماهت مع السـارد تماهيا كليا، ولعله من المؤيد أن نشير إلى بعض الأشياء التي تساعد السارد على الإنجـاز، من ذلك هذا البحث المضني عن الوسائل التي تعينه على السفر، قال: " وأخذنا فـي جمع أسباب السفر، وأهمني أمر الرواحل، إذ لم يكن عندنا منها شيء."[2] إلى جانب الأخبية والأمتعة، ولكنه لا يستقصي في وصف الأشياء.

(2) – نفسه، ج1، ص: 272.

(3) – نفسه، ج1، ص: 58، 21.

(4) – نفسه، ج2، ص: 305.

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 276.

(2) – نفسه، ج1، ص: 12.

فالسارد/الشخصية لا يتحدث عن خصوصياته الظاهرية إلا نادرا فحين أصابه التعب الشديد والسهر البالغ أضاع خيزرانته التي حج بها مرات كثيرا وشهد بها المشاهد فقال: "... تألمت لفقدها ولم أصب في طريقي كلها بمثلها..."(3)

وقد لا ندرك سببا لهذا التألم الشديد إلا إذا استحضرنا أثر العصا وفوائدها عند أهل ذلك الـزمان وبخاصة لدى السياح الصوفية وتلك هي المشاهد التي يشير إليها وحينئذ يمكن أن نقتـرب قليلا مما يعنيه بهذه الإشارات ويشبهها تضييعه لسطلة قال: " وسرقت لنا تلك اللـيلة سطلة عظمت علينا المصيبة بها لأنها كانت تكفينا في أشغال كثيرا أعظمها تسخين الماء للطهارة لأن الوقت وقت برد."(4) إننا قد نبتسم ابتسامة ساخرا لرجل تعظم مصيبته في عصا أو سلطة إذا ضاعتا منه ولكنه يعظم قدره ولاشك حين يحشو لنا بخبر مفاده أن المكاسين قد فرضوا على أهل السلك غرامات عالية أما هو فمعه "... حمل من الكتب ولم يأخذوا عليه شيئا..."(5).

فالـرحلة لا تعيننا بالشكل الكافي لتتبع أوصاف تمظهر الشخصية المحورية وما هذه الإشـارات إلا لمع أوردناها بعد تقص شديد للمتن بمقتضيات التحليل أما حين الانتقال إلـى الفعـل فسنجد أن الشخصية هي التي تقوم بمعظم الأفعال والأقوال وهذا ما يفرض عليـنا بالمقابل ألا نقف عند كل فعل وإنما سننتقي ما له دلالة تسهم في تمثيل الشخصية وفق ما نعتقده والرحلة لا تنمو إلا وفق منطق كامن فيها ومتميز بقدر ما عن المؤثرات الخارجية. ويمكن توسيم شخصية العياشي من خلال بعض المواقف:

الحماية:

ونقصد بذلك الأفعال التي تعيننا على تصور الشخصية بشكل من الأشكال فنجده جادا للالتحاق بالركب إذ قد يتخلف لقضاء مأرب ثم يجد في السير ليلتحق وقد تقهره الظروف فيقطع المسافات راجلا وبالمقابل قد يمارس دور الحامي للركب أو المشارك في الحماية

(3) – نفسه ج2، ص: 302.

(4) – نفسه ج2، ص: 379.

(5) – نفسه ج2، ص: 372.

فيستعد للمقاتلة[1] مع اللص و يسير خلف الركب لحمايته وتقديم المساعدة للمتخلفين عن السير.

المرشد:

ونجده من جانب آخر يقرأ القرآن باستمرار ويتضرع قرب الأضرحة متوسلا بالأولياء، ملتمسا البركة والتوفيق والرعاية، كما يلتزم بالوظائف والأوراد الخاصة به وبوظائف بعض الشيوخ في زواياهم، ويزور المشاهد الخاصة بالعلماء والأولياء، وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في أمكنة متعددة يزورها أحيانا وهو متيقن من كونهم دفنوا هنالك، وأحيانا يزورها وهو شاك في المشاهد والمقامات، ولكنه يفعل لأن الكثير ممن قبله وممن عاصره يفعل ذلك. كما يتلقى الذكر، والتلقين من علماء يعتقد فيهم الصلاح، ويعتز بكونه أخذ عنهم أصول الطريقة[3]، ويعتكف في المساجد إحياء لسنة الاعتكاف في آخر رمضان.

و مجاورته ذلك دلالة قطعية على ذلك الانقطاع عن أسباب الدنيا، متجردا للعبادة في الحرمين الشريفين، وفيهما يتلقى العلوم المختلفة عن غيره فيتحول من شخصية فاعلة إلى شخصية منفعلة تطلب المعرفة في فروعها الكثيرة من شريعة وحقيقة.

المدرس:

ثم يصبح مدرسا يأخذ عنه الناس العلوم المختلفة فيحمد أمره فيدرس في المسجد النبوي كتاب المختصر والشمائل المحمدية[1].

ويشارك العلماء من مختلف البلدان، فهو حريص كل الحرص على مناقشتهم والاستفادة منهم وإفادتهم، وتظهر عليه مظاهر التسامح والموضوعية فيستقر بقلوب الناس، ويلحون عليه في التدريس فيجيب أحيانا ويعتذر أحيانا أخرى، كما يعقد أخوة إيمانية مع الكثير من العلماء، ومنهم المجذوبون، ويراسل إخوانه العلماء، ويتلقى رسائلهم[2] في إطار التواصل المستمر، والتباحث العلمي مع أهل المذاهب المختلفة، ولا يعني أهل مذهبه من

(3) – المصدر السابق، ج1، ص: 159.

(4) – نفسه، ج1، ص: 207.

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 276.

(2) – نفسه، ج1، ص: 87، 69، ج2، ص: 214، 232.

التعلـيقاK البـناICمما يدل علـٓ الموضوعية والحياد الملتزم بالحقيقة بعيدا عن التعـب للرأٓ أو المذهب أو الدينÜ فقد أعجب بالنـارă الذين ركبوا معـه في السفينة من فلسطين إلـٓ مـر.

ويـف مـن المواقف المشينةÜ والروائـح الكريهة "... ولا يبالون بما نالهم في ذلك من وطC الأقدامÜ وتقطيـع الحبالÜ وتعفي الأرجاC واستنشاق الروائح الكريهةÜ ونحن استسهلنا أمـر السرقةÜ في جنب هذه المضارÜ وكان منزلنا أنظف المنازل وأحسنهاÜ وأبعدها عن الأذăÜ وأبهجها..."[3]

الجانب النقد:

إن الشخـية العياشية في جوانبها الفكرية والإبداعية بينة المعالمÜ تبرز اهتماماتها في كثير من أقوال السارد من ذلك أنها في الطريق شارK في نقاش حول لحن الشعر[4]أو ما يعرف بالضروراK الشعريةÜ ثم يوجزها بشكل جيدÜ كما يجرنا إلـٓ قضايا فقهية متعددا مثل البيوع وما يتعلق بها.

ويخـ ف حديثا طويلا لرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام[5]ويجول فيما قيل حول الموضوعÜ وفي ذلك يحاججÜ ويرد ويفيدÜ ويستعرض الأقوال المختلفةÜ مرجحا ومفندا برأٓ خا ف Ü وينشد الأشعار في التوسلÜ ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلمÜ وفي بعض

العلماCÜ كقوله مادحا أبا مهدٓ عيسـٓ الثعالبي:[1]

فحرفته التقوă وـنعته الـندă ومكسبه التفويض خير المكاسب

وتتجلـٓ إبداعاتـه النثرية في محاوراته للأعراب وللمكاسين وهي متناثرا هنا وهناكÜ وغالبا ما يستسلم للمطالبÜ لأنه لا يعرف حيل المحتالينÜ ولكنه استسلام المضطر لقضاC حاجـته مهما كانK التكلفة باهظةÜ وقد يحكي لنا بعض الغرائب كقوله:"...وتقدمK الركب فـي طائفـة من الحجاج...وقيلنا في النخيل إلـٓ أن ـلينا الظهر فطلعنا إلـٓ زاوية الشيخ

(3) – نفسهÜ ج1Ü ف: 198.

(4) – نفسهÜ ج1Ü ف: 19.

(5) - نفسه Ü ج1Ü ف: 25-39.

(1) –المـدر السابق Ü ج2Ü ف: 129- 130.

سيدي أبي هلال في سند الجبل، وعليه مشهد، وعنده مسجد وأثر، وحوله أبنية ليس فيها ساكن، وقبور كثيرة، ربما ترى الأموات في بعضها عليهم أكفان لم يتغير منهم شيء، ومن لم يعهد ذلك من الحجاج في بلاد المشرق من وضع الأموات في بيوت، فيطين عليهم، ربما زعموا أن ذلك كرامة ومنقبة لأولئك الأموات فيتبركون بهم..."[2]

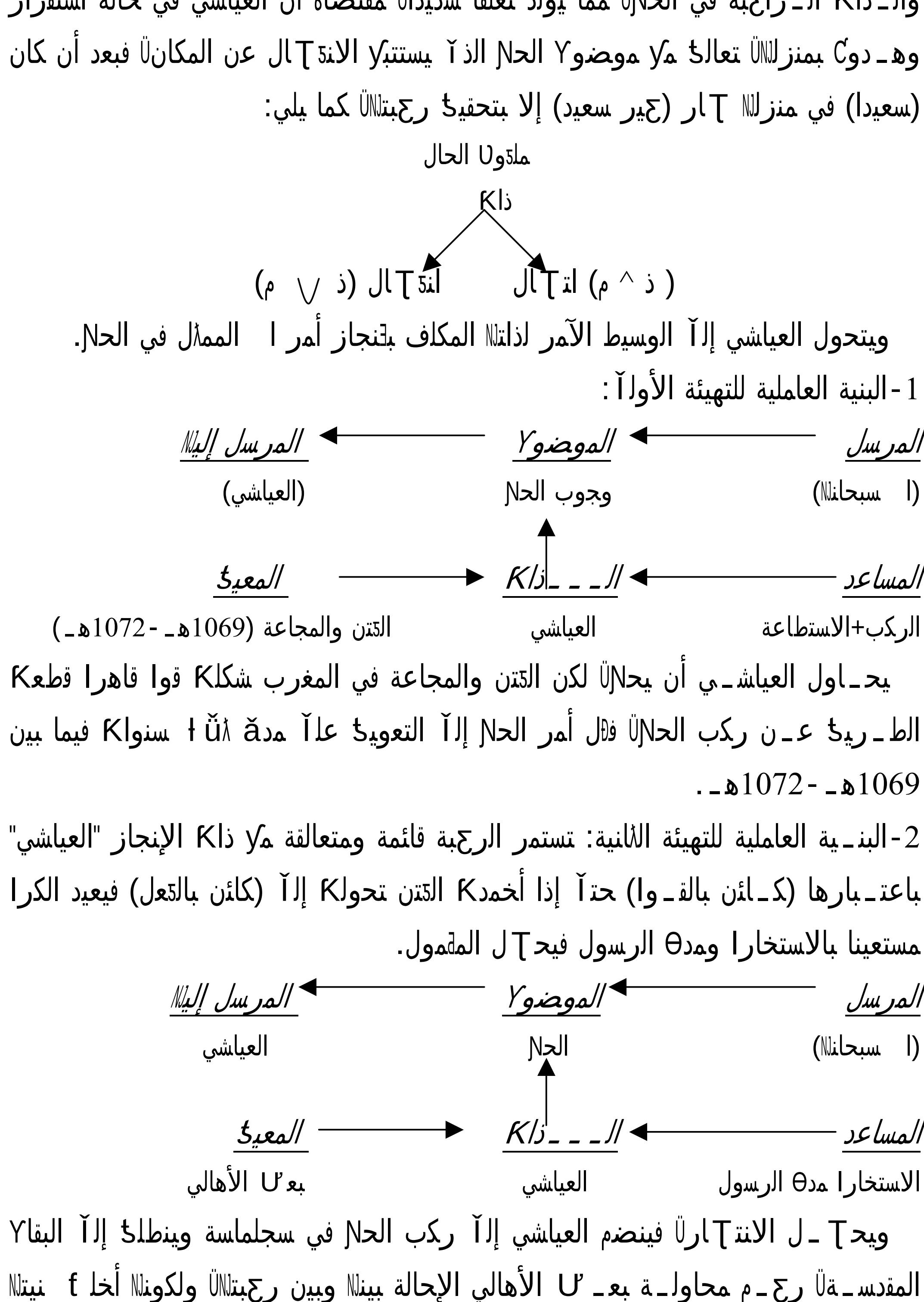
إنه ينقل القول الغريب ولا يكتفي بسرده، وإنما يعلق عليه كاشفا مزاعم الناس فيما يبنونه من معتقدات قد تكون واهية، مما يدل على ما تتميز به الشخصية من منهج عقلي منطقي في قبول الأخبار ورد الزائف منها، ملمحا إلى سرعة الناس في تفسير الظواهر الغريبة تفسيرا عجيبا. كما تتجلى شخصيته الفكرية من خلال مناقشته لجملة من المعتقدات الواهية فيقابل بين الحقيقة والخرافة، وبين السنة والبدعة، وبين المنطقي واللامنطقي من خلال استعراض الآراء والنصوص الثابتة للرد على كل انحراف عن الحقيقة. ويقابل بين طباع المشارقة والمغاربة في الجوانب الإيجابية والسلبية بلا تحيز. فالمقابلة قائمة عند العياشي في كل ما يسرده فهو يقارن بين الأوائل والأواخر، وبين النساء والرجال، بين العلماء والجهلة، بين المغاربة والمشارقة، بين الصوفية أرباب الأحوال وعلماء الرسوم. ويجري محاورا بينهما من أجل تبيان الحقيقة، التي هي طلبته، و قد يجري مقابلة بين منهج المعقول وأهل الكشف، ويسلم للمنهجين معا، بل يمارسهما معا في تكامل فعال وسليم.

- البنية العاملية للرحلة :

هذه أهم سمات شخصية العياشي من خلال متون الرحلة وبعد سننتقل إلى تجريد الشخصية في مجال عملها، وفق ما تقتضيه نظرية الدلالة الهيكلية في البنية السطحية مكتفين بالبنية العاملية للمراحل الكبرى في الرحلة من تهيئة، ثم ذهاب وإياب، معرجين على بعض الجزئيات، ثم نحاول استخلاص البنية العميقة للرحلة في أبعادها الخفية.

في إطار الأمر العام الصادر من الله سبحانه القاضي بالحج على من استطاع، يستقبل العياشي الأمر بحساسية عالية من أجل التنفيذ، فيدرس الاستطاعة والإمكانيات ثم يتحول إلى ذات راغبة في الحج وفي هذا يتضح متون الحال الذي يجمع بين موضوع الحج

(2) - نفسه، ج2، ص: 406.



والـ ذات الـ راغبة في الحج مما يولد تعلقا شديدا مقتضاه أن العياشي في حالة استقرار وهـ دوء بمنزله تعالق مع موضوع الحج الذي يستتبع الانتقال عن المكان فبعد أن كان (سعيدا) في منزله صار (غير سعيد) إلا بتحقيق رغبته كما يلي:

مكون الحال

ذات

(ذ ⋁ م) انفصال   اتصال (ذ ⋀ م)

ويتحول العياشي إلى الوسيط الآمر لذاته المكلف بإنجاز أمر الله الممثل في الحج.

1- البنية العاملية للتهيئة الأولى:

المرسل إليه	*الموضوع*	*المرسل*
(العياشي)	وجوب الحج	(الله سبحانه)

المعيق	*الـــذات*	*المساعد*
الفتن والمجاعة (1069هـ - 1072هـ)	العياشي	الركب+الاستطاعة

يحـ اول العياشـ ي أن يحج لكن الفتن والمجاعة في المغرب شكلت قوا قاهرا قطعت الطـ ريق عـ ن ركب الحج فأجل أمر الحج إلى التعويق على مدى ثلاث سنوات فيما بين 1069هـ - 1072هـ.

2- البنـ ية العاملية للتهيئة الثانية: تستمر الرغبة قائمة ومتعالقة مع ذات الإنجاز "العياشي" باعتـ بارها (كـ ائن بالقـ وة) حتى إذا أخمدت الفتن تحولت إلى (كائن بالفعل) فيعيد الكرا مستعينا بالاستخارا ومدح الرسول فيحصل المأمول.

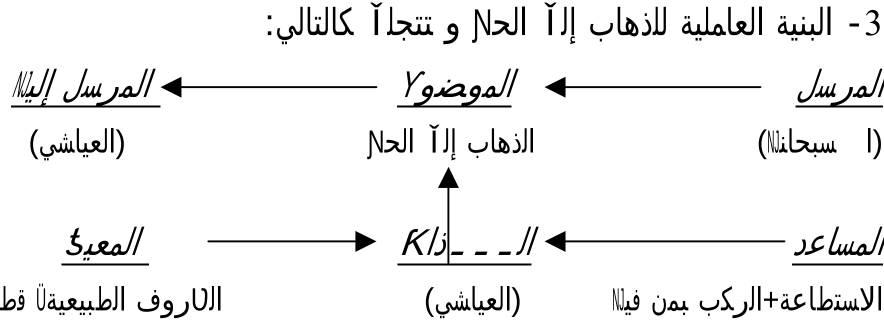
المرسل إليه	*الموضوع*	*المرسل*
العياشي	الحج	(الله سبحانه)

المعيق	*الـــذات*	*المساعد*
بعض الأهالي	العياشي	الاستخارا مدح الرسول

ويحصـ ل الانتصار فينضم العياشي إلى ركب الحج في سجلماسة وينطلق إلى البقاع المقدسـ ة رغـ م محاولـ ة بعـ ض الأهالي الإحالة بينه وبين رغبته ولكونه أخا نيته

ووا ـل عمـ فقد وهب التوفيق إلى الحج وهكذا ينتقل إلى جملة من الاختبارات
فالهـبة الإلهية جعلته يوفق في الخروج إلى الحج لكنه سيكون في وضع الاكتساب الذي
يـتولد عـن الاختـبار وليس عن الهبة فالمشيئة الربانية هي الموفقة للأعمال الصالحة
ولكـنها تتمظهـر فـي نظـر الشرع بالكسب الإرادي ثم تدخل الشخصية في جملة من
الاختبارات الترشيحية التي تؤهلها لأن تبلغ بيت الله الحرام الذي هو مقصد كل حاج.

3- البنية العاملية للذهاب إلى الحج و تتجلى كالتالي:

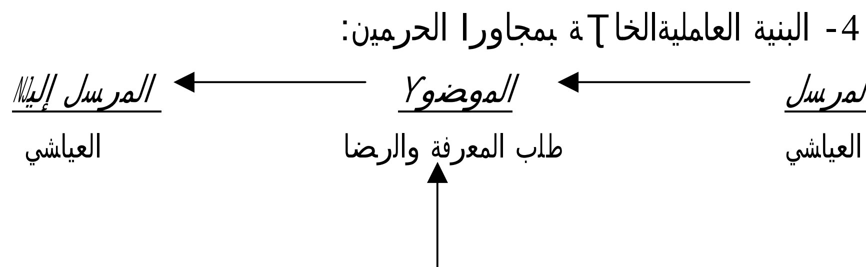


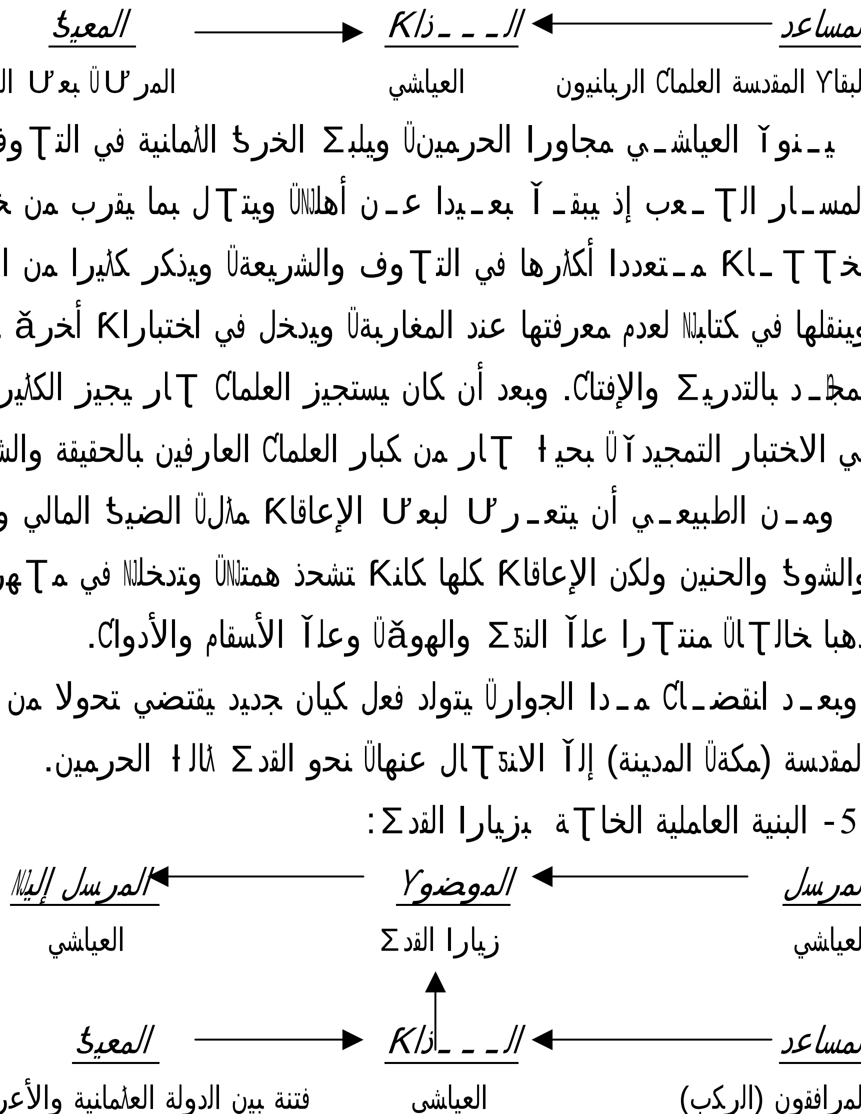
وصـل العياشي بعد مكابدا شديدا إلى مكة المكرمة ويمكننا القول أن الفاعل أي ذات الإنجـاز قـد دخلت في اختبار رئيسي حيث صارعت نفسها وصارعت كل معيق مما يرى ومما لا يرى فخرجت من الاختبارات الترشيحية الكثيرا على مدى المسافة الفاصلة بين سجلماسة ومكة خرجت منتصرا على الذات و الشيطان وقطاع الطرق.

و تـدخل الذات في اختبار تمجيدي الذي يتم بين المرسل وذات الإنجاز فإن تم الإنجاز وفـق المواصـفات والشروط مجد الفاعل و إلا عوقب ولكون هذه الأمور مخفية وسرا بـين العـبد وربه فإننا نتوقع أن يخرج العياشي من أيام الحج كيوم ولدته أمه نظيفا من الأدنـاس بريئا من الأرجاس جزاؤه الجنة. (إن شاء الله) وإمعانا في طلب رضا الآمر سبحانه يمكث العياشي مدا في جوار البقاع المقدسة يبتغي المعرفة الربانية.

وهكذا ندخل في فعل كيان يقتضي تحولا جديدا وهو دوام الاتصال في الوقت الذي يأخذ الركب في الانفصال عن البقاع المقدسة إلى ديارهم.

4- البنية العامليةالخاصة بمجاورا الحرمين:





يـنوه العياشـي مجاورا الحرمين، ويلبس الخرقة الثمانية في التصوف[1] فيكاف ذاته المسـار الصـعب إذ يبقـى بعـيدا عـن أهله، ويتصل بما يقرب من خمسين عالما في تخصصـات مـتعددا أكثرها في التصوف والشريعة، ويذكر كثيرا من الطرق الصوفية، وينقلها في كتابه لعدم معرفتها عند المغاربة، ويدخل في اختبارات أخرى تنتهي به إلى أن يمجـد بالتدريس والإفتاء. وبعد أن كان يستجيز العلماء صار يجيز الكثير. وهذا ما يدخل في الاختبار التمجيدي، بحيث صار من كبار العلماء العارفين بالحقيقة والشريعة.

ومـن الطبيعـي أن يتعـرض لبعض الإعاقات مثل الضيق المالي والمرض البدني، والشوق والحنين ولكن الإعاقات كلها كانت تشحذ همته، وتدخله في مطهر التوكل فيخرج ذهبا خالصا منتصرا على النفس والهوى، وعلى الأسقام والأدواء.

وبعـد انقضـاء مـدا الجوار، يتولد فعل كيان جديد يقتضي تحولا من الاتصال بالبقاع المقدسة (مكة، المدينة) إلى الانفصال عنها، نحو القدس ثالث الحرمين.

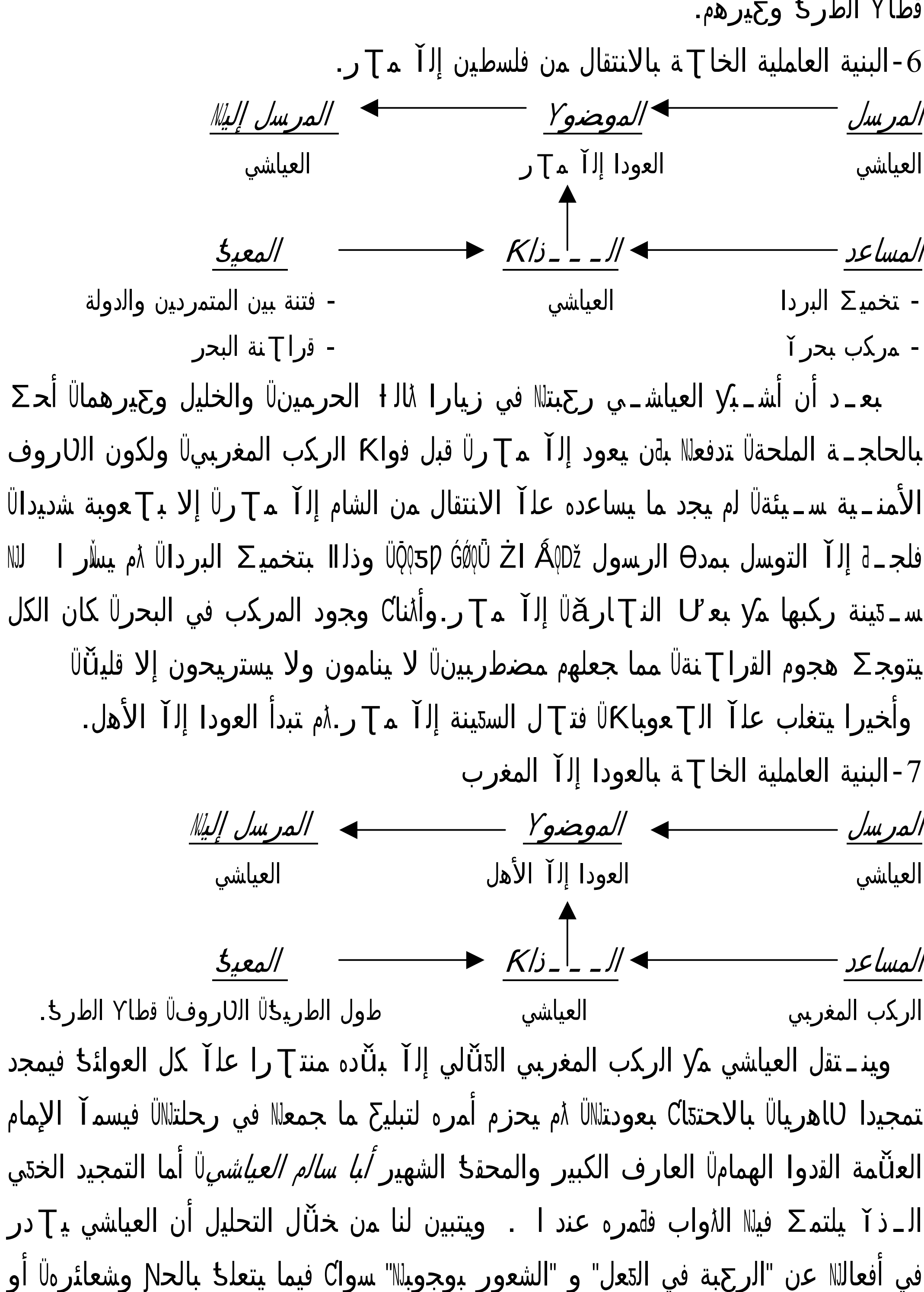
5- البنية العاملية الخاصة بزيارة القدس:

يتحول العياشي إلى غزة، ومنها إلى الرملة ثم دخل القدس حيث زار المسجد الأقصى، وما جاوره من أماكن الزيارة، وأثناء ذلك اتصل بجملة من العلماء، فأجاز بعضهم وأجازه آخـرون، ثم انتقل إلى الخليل وفيها أنشد قصيدا في مدح الخليل عليه السلام، ثم عاد إلى غزة ثانية فاتصل ببعض شيوخها، وفيها خمس البردة، ومن غزة إلى مصر بعد اضطراب

[1]- العياشي، الرحلة، ج1، ص: 208.

شديد تعرض خلاله إلى مضايقات من الأعراب ومن عساكر السلطة العثمانية وإلى ابتزاز قطاع الطرق وغيرهم.

6-البنية العاملية الخاصة بالانتقال من فلسطين إلى مصر.



بعد أن أشبع العياشي رغبته في زيارة بيت المقدس والحرمين والخليل وغيرهما أحس بالحاجة الملحة تدفعه بقوة يعود إلى مصر قبل فوات الركب المغربي، ولكون الظروف الأمنية سيئة لم يجد ما يساعده على الانتقال من الشام إلى مصر إلا بصعوبة شديدة فلجأ إلى التوسل بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك بتخميس البردة، ثم يسر الله له سفينة ركبها مع بعض النصارى إلى مصر. وأثناء وجود المركب في البحر كان الكل يتوجس هجوم القراصنة مما جعلهم مضطربين لا ينامون ولا يستريحون إلا قليلا.
وأخيرا يتغلب على الصعوبات فتصل السفينة إلى مصر. ثم تبدأ العودة إلى الأهل.

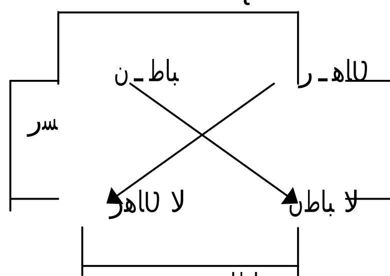
7-البنية العاملية الخاصة بالعودة إلى المغرب

وينتقل العياشي مع الركب المغربي الذي يؤدي إلى بلده منتصرا على كل العوائق فيمجد تمجيدا ظاهريا بالاحتفاء بعودته، ثم يحزم أمره لتبليغ ما جمعه في رحلته فيسمى الإمام العلامة القدوة الهمام، العارف الكبير والمحقق الشهير *أبا سالم العياشي*، أما التمجيد الخفي الذي يلتمس فيه الثواب فأمره عند الله. ويتبين لنا من خلال التحليل أن العياشي يصدر في أفعاله عن "الرغبة في الفعل" و "الشعور بوجوبه" سواء فيما يتعلق بالحج وشعائره أو

بالمجـاورة، أو بمراحل الطريق، أو بطلب المعرفة، فإن كل ذلك يراه داخلا في واجبات الإنسان المؤمن الصادق الذي ينجز كل فعل يعين على تحقيق مصلحة أو درء مفسدا.

فالشـعور بالـواجب والرغبة في فعله هو ما يجعل الشخصية نشطة لا تمل من قراءة الكـتب وتلخيصـها أو نقلها كاملة، كما لا تمل من الاتصال بالعلماء ومناقشتهم، والأخذ عـنهم أو إفادتهم، إنها شخصية فعالة في مستوى اهتماماتها. وهذا ما يجعلنا ننتـقل إلى مصداقية الأقوال والأفعال الصادرة عن الشخصية من خلال الشكل التالي:

8-مربع المصداقية:



مـن خـلال أفعال الشخصية وأقوالها تبين أن ظاهرها يتوافق مع باطنها، وبذلك كانت مصـداقية العياشي التي حققت له مركزا مرموقا بين العلماء والركب، والجيل، فيما ينقله ويدرسـه، وفيما يقتنع به وينجزه، ومن خلال ذلك نصل إلى هذا العمق المتزن المتوازن للشخصـية العياشـية، فهو فقيه في معلوماته يطبق الأحكام على ذاته، وفي في معرفته ملتـزم فـي سـلوكه، مراقب لمشاعره وأحاسيسه وما يصدر عنه من هواجس، يسعى لطلـب العلـم وتعليمه وحـين تمكـن منه تصدر لتبليغه. ويمارس الإقناع والتأويل بكل مسؤولية من خلال عرض الأقوال والأفعال على النصوص الشرعية، ثم يقبل، أو يرد أو يجتهد في وسطية.

بعد تحليلنا للمسارات العاملية يصبح " من المفيد أن نلم بالشخصية من حيث وظيفتها أو وظائفها العاملية، وما يناسب هذه الوظيفة أو الوظائف من أدوار عرضية."[1]

[1]- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي، ص: 82.



العياشي رجل حسن المعاشرا مع أهلها ومع الركب رفيق بهم يتولى مصالحهم ويشرف علـى أمـنهم بتعـريض ذاته للمهالك ويؤثرهم على نفسه. شديد التعلق ببركات الأولياء وكـراماتهم مما يولد لديه ثقة كبرى في الأموات وكل من يوصف بالصلاح من الأحياء وعلـى أسـاس هذه الثقة يتعامل مع الركب والرفاق ومع الناس حتى أنه حين يستغرب بعض الأفعال من الناس يقول في براءة " لم نألف ذلك في بلادنا ".

وهـو شـديد الاقتـناع بـآراء السنة والجماعة في غير انحياز رافضا آراء الخوارج والشيعة متساهلا في بعض ما ينقل عن آل البيت.ومتبعا لمذهب الإمام مالك يناقش عنه بـل قـد يلـوم بعض علمائه الذين لا يظهرون ما يمتاز به المذهب عن غيره بغرض التعريف به لئلا تعد مسائله شاذا أو بعيدا عن السنة.

أما في التصوف فيقبل من الجميع آراءهم باعتبارها آراء لأربابها صادرا عن أحوالهم ويناقش الطرق ويستفيد منها و يتعرض لوحدا الوجود وبعد مدا يشير إلى أنه فتح عليه فـيها فـتحا ربانيا ولم يذكره ويعجب بالطريقة النقشبندية ولكنه يلزم الطريقة الشاذلية ويسـدى النصـح لإخـوانه فـي كل مناسبة ويدرس في البقاع المقدسة بل يحرص كل الحرص على نقل المعارف الغريبة إلى المغرب لتعميم الاستفادا منها.

ثالثا- الدراسة الفنية للرحلة:

تمهيد الدراسة:

يـرى أصحاب النظريات المعاصرا أن دراسة "الشخصية" يمكن الاستغناء عنها ما عدا المقدار الذي يبين الفعل والوظيفة بعد تجريدها من السمات الفردية ولكن أليست السمات الفردية هي التي تجذبنا إلى العمل القصصي بما تقدمه من إدراك بعيد عن وعينا حتى عن طـريق المهـرج[1] والساذج وغيرهما لهذا لا يبدو أن الاستغناء عن دراسة الشخصية يحضـى بالقـبول النهائي فلابد من معرفة توسيماتها الفكرية والمظهرية والنفسية لأن المزية الأساسية للأدب هي أنه يقدم الأفكار والمعارف الإنسانية في سياق إنساني.[2]

---

(1) – ينظر رولان مارتن نظريات السرد الحديثة تر: حيا جاسم ص: 154.

(2) – روجر.ب هيكل قراءة الرواية (مدخل إلى تقنيات التفسير) تر صلاح رزق دار الآداب ط1 1995 ص: 231.

وتستنتج السمات الداخلية والخارجية من خلال المؤشرات اللفظية والمظهر الخارجي قد يستعمل سمة للشخصية ولكن على الدارس أن يميز بين المقومات الخارجية التي لا تخضع لسيطرة الإنسان كالطول ولون الشعر والعينين والمقومات التي للشخصية دخل فيها كالحلاقة واللباس فللمقومات الأولى علاقة تجاورية في حين أن للثانية معاني سببية إضافية ولذلك سنقف عند بعض تجلياتها لكونها المحرك الأول الذي ينجز المشروع المنطلق من قصر السلطان بمراكش إلى مدريد لأداء مهمة الصلح والمهادنة بين الدولتين وكتعبير عن الإرادة الصادقة يتم تبادل الأسرى والهدايا بواسطة السفراء

الد[illegible] الم[illegible]:

الشخصية الرئيسية هي التي تنجز الأوصاف بل هي التي أنجزت فعل الكتابة الذي قيد هذه الأفعال كلها. وسنكتفي بالأفعال التي أهلتها لهذه المكانة من ذلك هذه اللباقة والمجاملة اللطيفة التي ردت بها على المستأذنين لنساء الأعيان في الدخول عليهم بقصد الرؤية والتحية قال: " نحن ضيوف عندكم ليس لنا أمر من شيء فما رأيتموه صوابا وهو عادة عندكم لا نجبركم على تركه ولا علينا فيه ثقل فانشرحوا من جوابنا غاية الانشراح."[3] وقد يخرج عن المجاملة فيتخذ قرارا حاسما بلطف متناه فحينما كثر الزحام لمشاهدة الوفد في إحدى زياراته لرياض اشبيلية قال: " الكل يطلب رؤيتنا إلى أن تفاقم الأمر للجاج فيما بينهن من شدة الازدحام. فطلبنا من ولد الحاكم أن نعود للدار وتعللت بعلة النوم وما ألم بنا من الألم الناشئ من السهر فأجاب."[1]

وقد لا يكتفي بما يفرضه البروتوكول في التنقل والزيارة فيأتي على أمر ما فلا يملك المستقبلون إلا الإذعان كما في هذه الحادثة "... وبقي في الخواطر شيء من البيوت التي لم تعبر...فلم يسعنا إلا أن ألزمت حاكم البلد بالعود للجامع فأجاب فإذا بعتبة داخل أول بهو دخلته: لوحتان من الرخام متصلتان بالأرض مكتوب على كل واحدة منها: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم"...بادرتني الغيرة وسقطت على اللوحتين أمرغ عليهما شيبتي وأزيل عنهما الغبار بلحيتي..."[2]

(3) – أحمد المهدي الغزال، الرحلة، ص: 56.

(1) – المصدر السابق، ص: 90.

(2) – نفسه، ص: 101.

فالشخصية الرئيسية مهذبة غاية التهذيب، تسأل سلوى الذين أتوا خدمة السلاطين والرؤساء تدرك ما يناسب المقام وتتصرف بحكمة في كل الأفعال التي لا تشعر بالحرج. وقد يكون غرضها إظهار القوة أمام الآخر كما جرى بينها وبين أحد الأطباء بعد التحية ف قال:" وجعلت أتحدث معه في الأمور الطبية وأعترف له بمزية الحكماء، وما هم عليه من الصدق والثقة والأمانة لتصرفهم في ذوات الخلق، وأن أمرهم ممتثل عند الملوك والرعية، فهم ملوك عن الأبدان فانشرح لذلك غاية واستحسن مخاطبتنا إياه وقال: "هذا الخطاب لم نسمع مثله قط وأنتم المسلمون لكم عقول وبصيرة منورة" وقد غاب عنه أنني من أكابر الحكماء علما أنني لا أفقه شيئا، وإنما خطابي كله جعجعة وسفسطة لأمر أوجبه الوقت..."[3] ومن اللباقة والظرف اللائق برجل السياسة هذا الحوار مع القاضي بعد سهرة "... قال القاضي أية امرأة من النسوة الحاضرات ترضيك؟ ومن فيهن أحسن وأجمل من الأخرى؟" وقصده بالسؤال المباسطة والمداعبة، فأجبته بما فيه جبر خواطر الحاضرين من النساء والرجال بقولي:"إن هذا المجلس هو بستان، والنسوة التي فيه أصناف النوار، وللناس فيما يعشقون مذاهب." فاستحسنوا الجواب وفرحت بذلك النسوة وانشرح أزواجهن." [4]

الثقافة الدينية: في تعليق الشخصية على الحفلة الساهرة التي تقام على شرفها قال:"ولما انفصل الجمع ورجعنا لموضعنا، ونحن نستعيذ بالله مما عليه هؤلاء الكفرة من عدم الغيرة، وتوغلهم في الكفر نسأل الله سبحانه وتعالى ألا يؤاخذنا بما اقترفناه من مخاطبتنا إياهم بما أوجبه الوقت وتعين في الحال."[1] فلما لم تألف الشخصية هذا الاختلاط، ومباشرة النسوة للغريب، شعرت بضيق شديد وحرج كبير، بل لقد أحست أنها قد ارتكبت محظورا، وبذلك استعاذت بالله وتضرعت إليه ألا يؤاخذها على محاورة النساء. ومن فطنة الشخصية وفراستها الصادقة قولها أن الحائل بين معظم السكان والدخول في الإسلام هم رجال الدين، هؤلاء الذين يغررون بالمسلمين ويتنازلون عن كل

---

(3) – نفسه، ص: 180.

(4) – نفسه، ص: 56.

(1) – المصدر السابق، ص: 71.

شـيء إلا ما يتعلق بدينهم ولو عرض عليهم الإسلام "... لأجاب جميعهم لو لم تكن بين ظهورهم الترايلة، وهم أكثر القوم فرحا بهذه المهادنة، ويبدون من الترحيب بالمسلمين ما لا يكيف ويسامحون بكل عزيز...إلا ما كان من محافظتهم على دينهم، وهذا ما أبدته الدراسة فـي القوم عند مباشرتهم واختبار أحوالهم من غير لفظ ولا إشارة، إلا ما كان من بعض بقية الإسلام فمنهم من لفظ، ومنهم من أشار..."[2]

هذا التأمل لسلوك رجال الدين ومواقفهم ينم عن اهتمامات الشخصية التي كانت تأسف كثيرا عن ضياع الأندلس، وتزداد أسفا حين ترى بعض الأهالي الذين تعتقد أنهم مسلمون. ولا يصرحون بمعتقدهم أخذا بمذهب التقية. وخوفا من الموت المحقق ذلك أنـه

"... إن جهر أحد بذلك (بالإسلام) فلا يستتاب ولا يحكم عليه إلا بالقتل."[3]

وقـد تعبر عن أسفها وحرقتها بشيء من الهدوء والرزانة وقد لا تتحكم في انفعالاتها إلا بالـبوح: " ومنذ عبرنا هذا المسجد لم تفتر لنا عبرة مما شاهدناه من عظمته، وتذكرنا ما كـان عليه على عهد الإسلام، وما قرئ فيه من العلوم وتلي فيه من الآيات، وأقيمت فيه من الصلوات وما عبد به الله، وقد تخيل في الفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلم علينا وتهش إلينا من شدة ما وجدناه من الأسف، حتى صرنا نخاطب الجماد ونعانق كل سرية، ونقبل سور المسجد وجدرانه." [1]

لقد بلغ الانفعال أشده فسقطت الضوابط الخارجية والمعاملات الدبلوماسية لتفسح المجال لما ترسب في العمق ليبرز بهذه الكيفية المثيرة.

الشـخصية المحاورة: ومما يجسد القدرة السياسية للشخصية محاوراتها اللطيفة لكبار القوم وبخاصـة مع الملك كارلوس الثاني، فبعد التحيات المتبادلة والمجاملات الافتتاحية، جرى الحوار التالي:

الملك: كيف كانت المدن التي عبرتم عليها وهل أحسن إليكم عمالها ؟

---

(2) – نفسه، ص: 79.

(3) – نفسه، ص: 175.

(1) – المصدر السابق، ص: 97.

السفير: إن أهل المدن لم يقصروا في السير والإكرام الكل بأمره وقد كتبت بذلك لمولانا المنصور بالله فتحقق ما أنت عليه من الخدمة والمحبة.

الملك: الله يجازيكم خيرا (وجعل يسأل عن سيدنا وينزع الشمرير عن رأسه)

السفير: سيدنا والحمد لله بخير...وقد أمرنا...أن نعلمك ونخبرك بما أنت عليه من المنزلة التي لم تكن لأحد من الطغاة..فأنت المقدم فيهم والمميز أنت قومك...

الملك: فانشرح صدره من مخاطبتنا إياه غاية وقال: ما أنا إلا واحد من خدام سلطانك وعند أمره ونهيه وكل ما يأمرنا به نفعله وقد فرحت بهذه المهادنة...نسأل الله أن تكون دائمة وحيث طال وقوفه... ولم يمكنه الانصراف حياء وأدبا قلت للترجمان: "استأذنه علينا في الانصراف فقد أشفقت عليه من طول وقوفه معنا وليسامحنا في هذا التعب الناشئ عن سبب مباشرته إيانا...لأن نفوس الولاة ليست كنفوس سائر الناس"

الملك (انشرح من مخاطبتنا وجعل يضحك وينظر للأعيان كأنه يتعجب مما سمع ورأى كما لم يخطر له على بال): جزاكم الله خيرا على هذا الخطاب الحسن فقد انشرحت صدورنا وأنست أرواحنا بحديثكم المستطاب الناشئ عن العقل الراجح والصواب."

السفير: "بقيت لي عندك حاجة...

الملك: وما ذاك؟

السفير: أن تعطي الإذن لوزيرك في الكلام معنا في الأمور التي تعرض لنا على الإجمال والتفصيل منها ما أمرنا به من مولانا المنصور بالله ومنها ما اقتضاه الحال وتعين في الوقت لئلا يحصل ثقل في سرد الأغراض على مسامعك وإنا لا نرضى أن نثقل عليك في ذلك."

الملك: (ازداد بذلك فرحا وأمر وزيره في الحال أن يتفقد أحوالنا...ويمتثل أمرنا في جميع الأشياء من غير أن نستشيره)

السفير (انصرفنا في عز وكرامة)

(ومازال الملك يحدث قومه بما كانت مخاطبتنا إياه ويقول:

الملك: ما رأينا مثل هؤلاء المسلمين وما هم عليه من الصواب والعقل و التمييز."[1]

---

[1] – المصدر السابق، ص: 128- 129.

مـن خلال هذا الحوار الطويل الشيق تتضح لنا خبرة الشخصية في مخاطبة السلطان وتمرسـها في أمور السياسة والتدبير، بحيث افتكت إعجاب الملك واستصدرت منه أمرا يسـاعده على إنجاز المهمات، ويتجاوز كل العراقيل التي يمكن أن تنشأ لو بقيت الأمور معلقة بالملك وموافقته، هذه المحاورة لطيفة حقا، وتدل على عقل راجح ورأي حصيف وبغض النظر عن كون السارد/الشخصية ينتقيها أو يحافظ على الخطاب المباشر، فإنها تنم عن بعض الخصوصيات الذهنية والتدبيرية للشخصية الرئيسية.

إلا أنه ليس كل المحاورات صائبة، وقد يجامله الآخرون وإن كان على غير صواب. من ذلك: أن أقيم له استعراض ومباراة رمي بمختلف الأسلحة فهم منها أن الهدف المتوخى هو إظهار القوة وما عليه القوم من الاهتمام بأمور الحرب، فلما أدرك الغرض أجاب:

" إن حـرب الإسـلام لا يلتفتون للمدافع ولا للبنب... وإنما الشأن عندهم السيف والرمح والنبل، واستعمال البارود إنما هو عند الصدمة الأولى فقط... ومجال الخيل بين الصفوف هازمـة للجـيش، ومـا كان من المدافع والمهراس، وإنما هما آلتان من آلات أهل البحر والمدن التي حصرها العدو...

الوزيـر:" مـا قلت إلا حقا والصواب والحق في إظهار القوة والثبات عند مكافحة القتال صفا "

السـفير: "وقـد وهمت ما أبدوا من القوة بالأنشاط والثبات، وأقنعته بذلك ولم يجد بدا من قبول ما حكيته له"(1)

إن الشخصـية لـم تقدر جيدا دور المدافع والثبات في المعارك، وهذا نوع من التعالي المزيف، وكم كان جديرا بها أن تتعجب من هذه الجوانب، وتنقل تقنياتها، كما تعجبت من التفنن في البنيان والزخرفة.

هـذه النصوص الحوارية تجسد مقدرة الشخصية على الإقناع وتجسيد المواقف بكل قوة واعتـزاز بـلا وهـن أو ضعف، وحتى هذا التعالي الذي نجده في الأقوال و في بعض الأفعال، يضفي بعدا حيويا على الشخصية الرئيسية في كونها تتصرف وفق قناعتها.

[illegible] :

---

(1) المصدر السابق، ص: 148

الشخصية القوية تقدم رأيها أحيانا وإن لم يُرض الآخرين فهاهو السفير الناقد يعلق على مجسمات بشرية داخل إحدى الكنائس: "وهذه الأشياء التي بأيديهم جميعا من النحاس المذهب أيضا، وفيما يزعمون أن أصحاب هذه الصور ملوك بني إسرائيل، غير أني لم أتعرض لذكر أنبياء الله تعالى في هذا المحل، تنزيها لهم، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام."(1)، ورغم كون الشخصية تردد كثيرا من الألفاظ التي تبدو عدوانية، ولكنها تسجل للآخرين كثيرا من المواقف الإيجابية كقول السارد: "...لأن الروم عادتهم يصدقون المحدث لهم ما لم تظهر عليه مخايل الكذب أو يصدر... ما يؤذن بانحراف عن الجادة ولو نسيانا أو خطأ، فلم تقبل لهم كلمة قط بعد." (2) فهذا موقف أخلاقي سلوكي جيد

كما سجل العلاقات الحسنة والثقة المتبادلة بين المسلمين والنصارى في المعاملات. مثلما يستفاد من توصيات السلطان للسفير "...وأذن لخديمه إن لم يكف المال المصحوب معه للغرض الذي يظهر في الوقت زيادة على ما هو معين يأخذه من تجار النصارى، وأداؤه على فضل سيدنا، نصره الله في سراة المسلمين..."(3)، فالسلطان نفسه يقر بهذه العلاقات بين التجار المسلمين والمسيحيين ويشجع عليها سفيره.

والشخصية من خلال ما تقول تفصح عن أهدافها بلا التواء من حيث الجانب الفكري والعقائدي، وتتخذ موقفا واضحا من الآخر بلا كراهية، بل تحاول الالتزام بالموضوعية في ذكر ما للآخر وما عليه، وتظهر انفعالها وتأسفها الشديد على تضييع الكنز المفقود، بل لا تملك إلا أن ترسل زفرات حارات تتكرر في صيغة - رحمهم الله - أو ترسل دموعا تنسكب على الخدين لتطفئ ذلك الانفعال المتوهج الذي تكبته الشخصية، ولا يبقى الدمع إلا أن يفضحها رغما عنها أمام الملأ.

الشخصية المنبهرة

الشخصية في هذه الرحلة منبهرة بالتنظيم وبالعمران وبإبداعات الآخر في مجالات الحياة فقد تسترسل في ذكر الأشياء ووصفها وصفا استقصائيا ثم تقول: "...ولما مررنا بأزقة المدينة وشاهدنا ما شهدناه من ارتفاع بنيانها، وضخامة ديارها وعلو أبوابها وإحكام

(2) – نفسه، ص: 184.

(3) – نفسه، ص: 185.

تشييدها واتساΥ رحابها وتعدد الأكدا ţ ... وحضارا أهلها وسعتهم في المال وتنافسهم في المٹبـ Σ والمـراكبÜ كلاЌ العبارا علآ استيڪاC ما اشتملЌ عليه من أمور الدنيا التي لا تساوٓ عند ا جناΘ بعوضة"(1) لقد تبين لنا هذا التجاذب بين التزهيد في الدنيا والانبهار بالمنجـزاЌ وهو شعور كبحه السارد بقوله" لا يساوٓ عند ا جناΘ بعوضة" إلا أنه ينم من جانب آخر عل هذا الإعجاب المسيطر والانبهار الغالب إلـ ـ ٓ

درجة أن Ţ ارЌ العبارا كالة عن استيڪاC المشمولاЌ.

<u>الٹـ ـ</u>: تعبر الشخŢية عما ألم بها من تغيراЌ ناتجة عن التعب أو تقلب المزاج بشكل مباشر كقولها:"...قد أقبلوا علينا بعد العشاCÜ معلنين بالترحيب والسؤال عن الحالÜ وهل استرحنا من الميد الذٓ ألم بنا من فراتن البحر إلآ Ʃير ذاا من السؤال الذٓ فيه ثقل علآ النڪ Σ وفي الوقЌ لم نجد بدا من مباشرتهم مع ما نحن فيه من التعبÜ وبقايا المـيد وانحـراف المـزاج "(2) " وفـي هذا من المشقة ما لا يدركه إلا الخبير بمثل هذه الأوضاΥ.وقد يشخ ƒ الوضع من خلال محيط المدينة كقوله:"...وبها (طريڪة) من الهواC الڪاسـدÜ والعـياذ با والوخمÜ ما اشتكآ بسببه الكثير مناÜ ساعة حللناهاÜ ولما جن الليل هـبЌ ريـاΘ بنتن ماC واديها ضاقЌ منها نڪوسنا وكادЌ أرواحنا أن تذهب..."(3)فالهواC مكدر والأنڪاΣ ضاقЌ و الجميع يشتكي من الضجر وبخاŢة في وقЌ الاستكانة والراحة ممـا جعـل الشخŢـية تعزم علآ الرحيل ليلا "فقيهЌ الخدمة والأŢحاب وألزمتهم أن يتهيؤوا للسڪر."(1)

ومـن هذه الساعاЌ الحرجة ما حŢل له حين هبط إلآ ما يعرف ببيЌ الأمواЌ في أقباC الكنيسة فقال:"وقد ألم بنا ألم وضيځ في التنڪΣ حتآ خشيه الڪواЌ..."(2)

وهـذه في معظمها نوباЌ بعد التعب والجهد أو الوضع Ʃير المألوف الذٓ لا يوافځ طبع الشخŢية في جانبها العقائدٓ أو النڪسي والبدني.

---

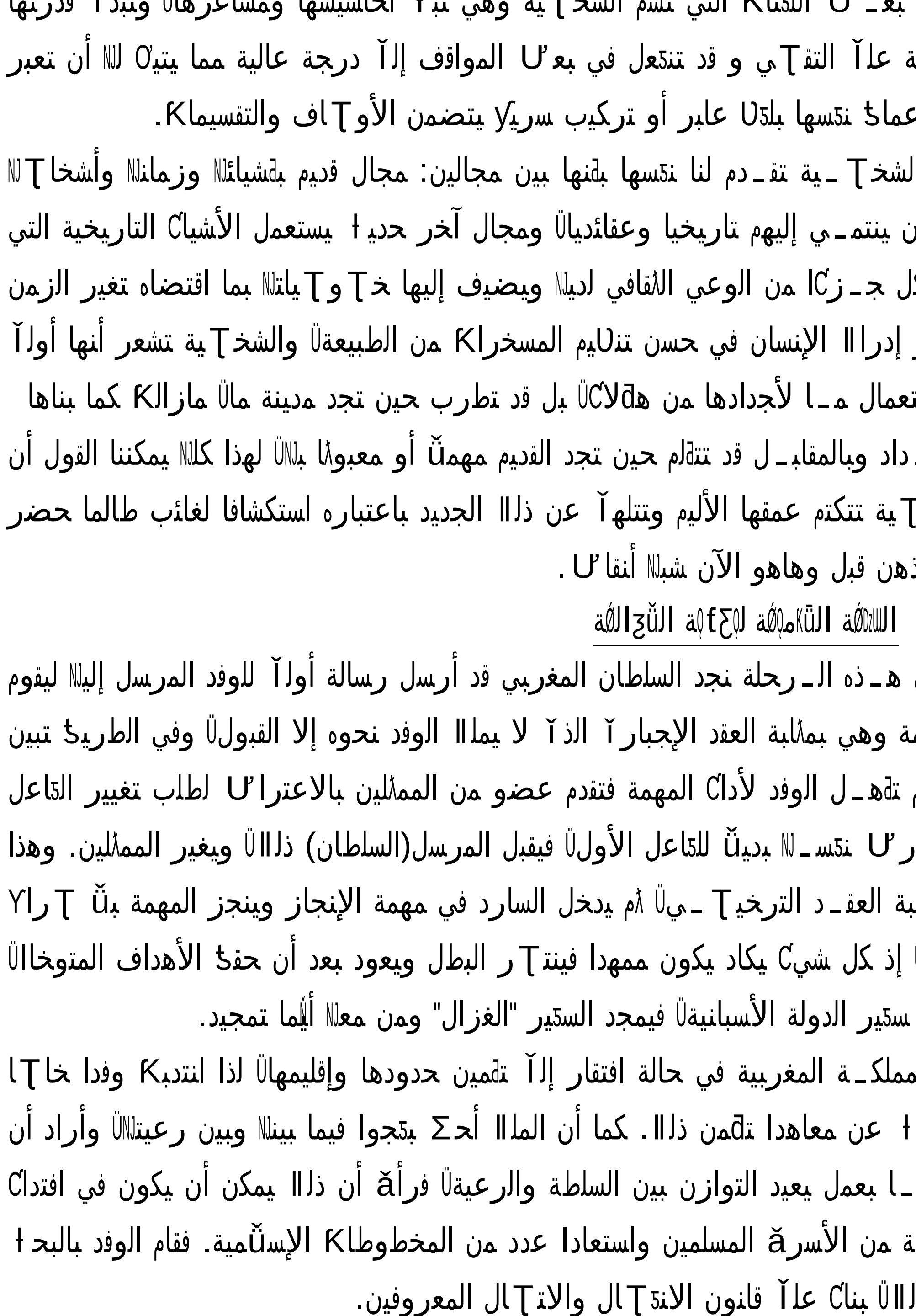
(3) - نڪسه ƒ :67.

(1) – المŢدر السابځ ƒ :155.

(2) – نڪسه ƒ :59.

(1) –المŢدر نڪسه ƒ :59.

(2) – نڪسه ƒ :151.



هـذه بعض اللقطات التي تسم الشخصية وهي تبث أحاسيسها ومشاعرها وتبدي قدرتها الذهنية على التقصي و قد تنفعل في بعض المواقف إلى درجة عالية مما يتيح لها أن تعبر عن أعماق نفسها بلفظ عابر أو تركيب سريع يتضمن الأوصاف والتقسيمات.

فالشخصـية تقـدم لنا نفسها بأنها بين مجالين: مجال قديم بأشيائه وزمانه وأشخاصه الـذين ينتمـي إليهم تاريخيا وعقائديا، ومجال آخر حديث يستعمل الأشياء التاريخية التي تشـكل جـزءا من الوعي الثقافي لديه ويضيف إليها خصوصياته بما اقتضاه تغير الزمن وتغير إدراك الإنسان في حسن تنظيم المسخرات من الطبيعة، والشخصية تشعر أنها أولى باسـتعمال مـا لأجدادها من هذا، بل قد تطرب حين تجد مدينة ما، مازالت كما بناها الأجـداد وبالمقابـل قد تتألم حين تجد القديم مهملا أو معبوثا به، لهذا كله يمكننا القول أن الشخصية تتكتم عمقها الأليم وتتلهى عن ذلك الجديد باعتباره استكشافا لغائب طالما حضر في الذهن قبل وهاهو الآن شبه أنقاض.

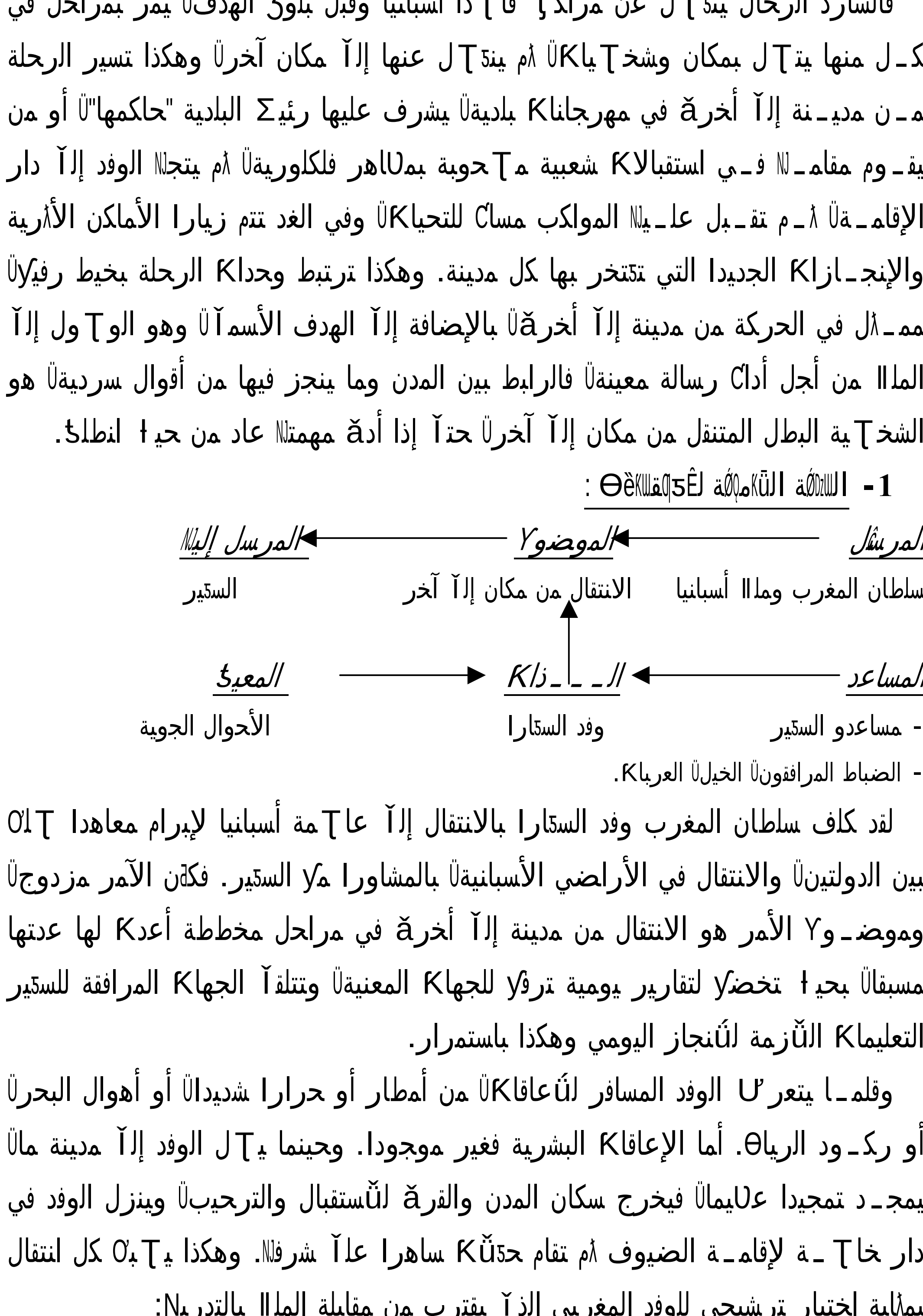
البنية الثلاثية لرحلة الغزال

فـي هـذه الـرحلة نجد السلطان المغربي قد أرسل رسالة أولى للوفد المرسل إليه ليقوم بالمهمة وهي بمثابة العقد الإجباري الذي لا يملك الوفد نحوه إلا القبول، وفي الطريق تبين عـدم تأهـل الوفد لأداء المهمة فتقدم عضو من الممثلين بالاعتراض لطلب تغيير الفاعل ويعـرض نفسـه بديلا للفاعل الأول، فيقبل المرسل(السلطان) ذلك ويغير الممثلين. وهذا بمـثابة العقـد الترخيصـي، ثم يدخل السارد في مهمة الإنجاز وينجز المهمة بنصر لا يذكر، إذ كل شيء يكاد يكون ممهدا فينتصر البطل ويعود بعد أن حقق الأهداف المتوخاة ومعه سفير الدولة الأسبانية، فيمجد السفير "الغزال" ومن معه أيما تمجيد.

فالمملكـة المغربية في حالة افتقار إلى تأمين حدودها وإقليمها لذا انتدبت وفدا خاصا يـبحث عن معاهدا تؤمن ذلك. كما أن الملك أحس بفجوا فيما بينه وبين رعيته، وأراد أن يملأهـا بعمل يعيد التوازن بين السلطة والرعية، فرأى أن ذلك يمكن أن يكون في افتداء جملـة من الأسرى المسلمين واستعادا عدد من المخطوطات الإسلامية. فقام الوفد بالبحث عن ذلك بناء على قانون الانفصال والاتصال المعروفين.

فالسارد الرحال ينتقل عن مراكش قاصدا أسبانيا وقبل بلوغ الهدف، يمر بمراحل في كـل منها يتصل بمكان وشخصيات، ثم ينتقل عنها إلى مكان آخر، وهكذا تسير الرحلة مـن مديـنة إلى أخرى في مهرجانات بلدية، يشرف عليها رئيس البلدية "حاكمها"، أو من يقـوم مقامـه فـي استقبالات شعبية مصحوبة بمظاهر فلكلورية، ثم يتجه الوفد إلى دار الإقامـة، ثـم تقـبل علـيه المواكب مساء للتحيات، وفي الغد تتم زيارة الأماكن الأثرية والإنجـازات الجديدة التي تفتخر بها كل مدينة. وهكذا ترتبط وحدات الرحلة بخيط رفيع، ممـثل في الحركة من مدينة إلى أخرى، بالإضافة إلى الهدف الأسمى، وهو الوصول إلى الملك من أجل أداء رسالة معينة، فالرابط بين المدن وما ينجز فيها من أقوال سردية، هو الشخصية البطل المتنقل من مكان إلى آخر، حتى إذا أدى مهمته عاد من حيث انطلق.

1- البنية العاملية للرحلة :



لقد كلف سلطان المغرب وفد السفارة بالانتقال إلى عاصمة أسبانيا لإبرام معاهدة صلح بين الدولتين، والانتقال في الأراضي الأسبانية، بالمشاورة مع السفير. فكان الأمر مزدوجا، وموضـوع الأمر هو الانتقال من مدينة إلى أخرى في مراحل مخططة أعدت لها عدتها مسبقا، بحيث تخضع لتقارير يومية ترفع للجهات المعنية، وتتلقى الجهات المرافقة للسفير التعليمات اللازمة للإنجاز اليومي وهكذا باستمرار.

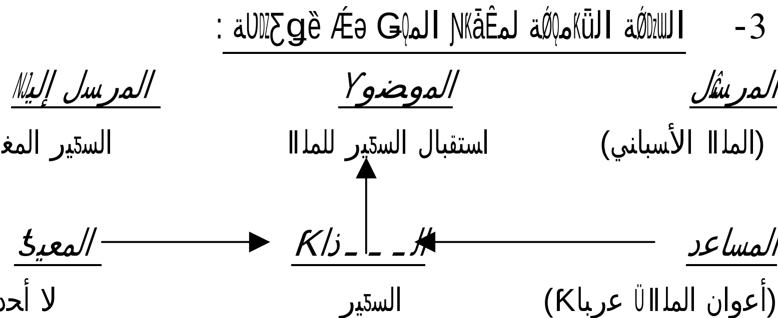
وقلمـا يتعرض الوفد المسافر لمعيقات، من أمطار أو حرارة شديدة، أو أهوال البحر، أو ركـود الرياح. أما الإعاقات البشرية فغير موجودة. وحينما يصل الوفد إلى مدينة ما، يمجـد تمجيدا عظيما، فيخرج سكان المدن والقرى للاستقبال والترحيب، وينزل الوفد في دار خاصـة لإقامـة الضيوف ثم تقام حفلات ساهرة على شرفه. وهكذا يصبح كل انتقال بمثابة اختبار ترشيحي للوفد المغربي الذي يقترب من مقابلة الملك بالتدريج:

2- البنية العاملية للرحلة (المرحلة الثانية) :



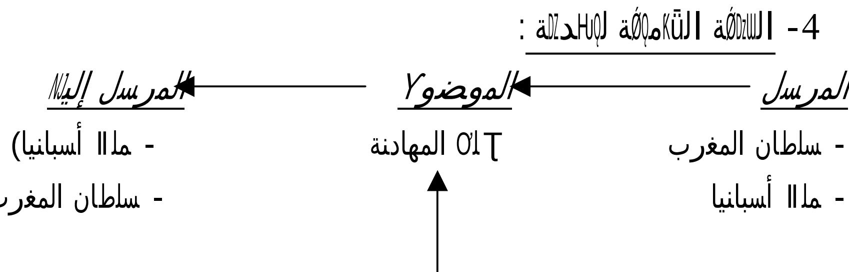
من خلال هذه البنية يتضح أن الوفد المغربي قد وصل إلى مدريد عاصمة أسبانيا وعزم على لقاء الملك كارلوس الثالث لتقديم هدايا السلطان وإبرام اتفاق الصلح، وقبل إنجاز الفعل يطرأ جديد وهو وفاة أم الملك ويعلن الحداد وتدق النواقيس ويؤجل اللقاء أي أن العائق في هذه البنية قوي استطاع أن يؤجل اللقاء إلى أمد.

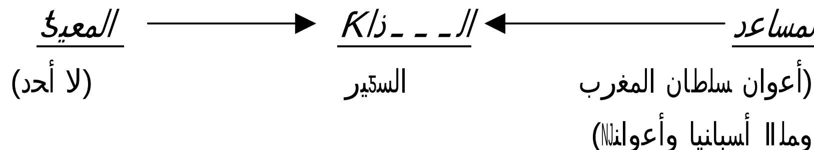
3- البنية العاملية لمرحلة الاستقبال :



بعد انقضاء مدة الحداد التي فاقت الشهر، أعلن الملك الأسباني عن استعداده لاستقبال السفير المغربي، فيلتقي حراس القصر والضباط ليلا لضبط خطة الاستقبال، ويركب الجميع في عربات ويدخل الوفد على الملك فتنجز زيارة مجاملة أولا، ثم تليها لقاءات أخرى سياسية لإبرام بنود المعاهدات، ثم زيارة في إقامة خاصة خارج المدينة، وفيها تتم المفاوضات المبدئية مع الملك، ثم تكملها مع الوزير المفوض، وتقبل اقتراحات السفير المغربي، ثم يقام احتفال التوديع.

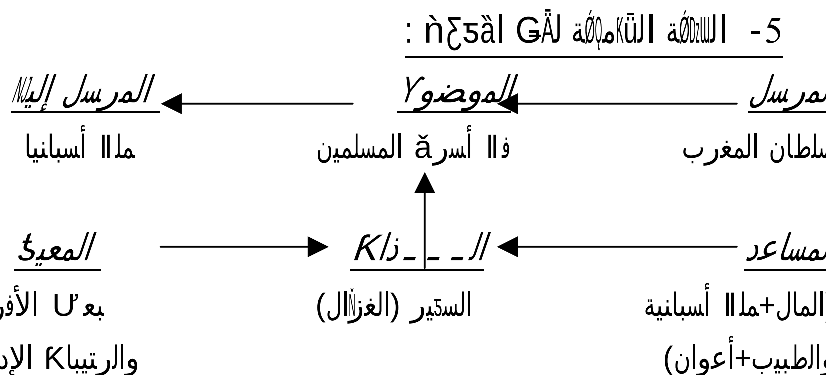
4- البنية العاملية للمهادنة :





يرغب سلطان المغرب، وملك أسبانيا في إبرام معاهدة بينهما خدمة للمصالح المشتركة، فيبادر سلطان المغرب بإرسال سفير يقوم بإنجاز المهمة، ونظرا لكون الاتفاقية كانت قد تمت قبل حركة الإنجاز، فإن السفير ومن معه يجدون المساعدة من كل أعوان السلطة الأسـبانية، وبـذلك تنجز المهمة بلا عائق، أما المرسل إليه فهما سلطانا البلدين، لكونهما المخاطبين بمضمون المعاهدة والمشرفين على تنفيذ ها.

5- البنية العاملية لرحلة الغزال :

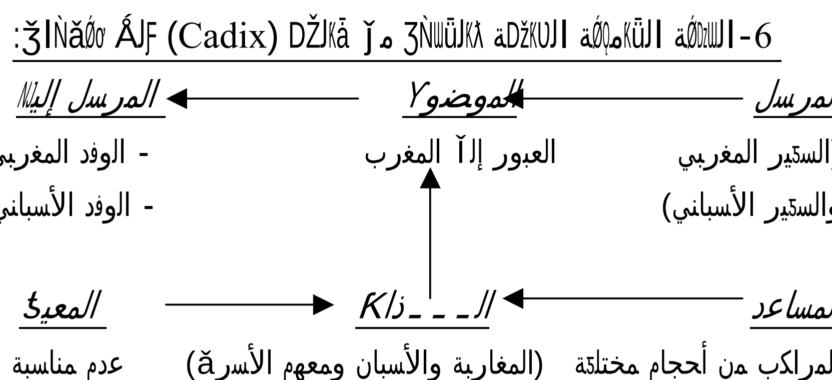


يكلف السلطان المغربي السفير الغزال بإنجاز عدة مهام منها، فك أسرى المسلمين، وقد زوده بمـا يكفي من المال باعتباره مانحا، ويبذل السفير جهده المضني في الوصول إلى الأسرى المتواجدين في نقاط مختلفة، فيطمئن على الجميع، ويقدم لهم تحيات السلطان، ثم يفاوض الأسبان في إطلاق سراحهم بالافتداء أو بالمعاوضة، فينجح في المهمة بعد أن بذل الأموال اللازمة ووفرت له التسهيلات المتاحة عليها، وإن تعرضت المهمة لبعض الإعاقات مـن قـبل المبتـزين والمتشددين من أعوان الدولة، فيلجأ إلى التحكيم الذي يشرف عليه الحكماء والأطباء.

وفـي ظـل هذه البنية العاملية تستعاد الكتب والأسفار القيمة من التراث الإسلامي في الأنـدلس، ويـربط بيـنهما حيث اعتبر كل منهما أسيرا، لهذا يظهر كل أسير في النهاية حاملا على رأسه كتابا أثناء حفل التمجيد بمراكش، مما أشاع جوا من الفرح المبكي.

ويمكننا أن نعتبر الاستقبالات التي يحظى بها الوفد في كل قرية ولقاءه بحكام المدن وأعيانها بمثابة اختبارات تأهيلية ترشحه ليلتقي بالملك. وحين يقترب الوقت لملاقاته تتدخل عوامل خارجية (الموت) للتأجيل مما يجعل السفير يتأهل أكثر لحظة حين وقت الدخول على الملك الذي قضى أجله في حداد على أمه. ثم يأتي الاختبار الترشيحي الأكبر حيث ينجح السفير في إبرام الاتفاقية والتفاوض في مسألة الأسرى والكتب وهذا ما يدخل أيضا في اختبارات أول إعاقة من حيث تعيين الأسرى وانتماءاتهم وصفاتهم وكونهم ذكورا أو إناثا وكيفيات التعرف على كل فئة أما الكتب فيتم تسليمها في صناديق بحيث لا نعلم عنها إلا كونها كتبا إسلامية في التراث.

6- [illegible] (Cadix) [illegible]:



قرر السفير المغربي بعد ضبط الإجراءات واستكمال الهدايا الموجهة إلى السلطان المغربي والتي كلف بتبليغها سفيرا أسبانيا خاصا قرر الجميع العبور إلى تطوان على متن مراكب خاصة بالوفد ومراكب للنساء الأسيرات والرجال الأسرى وذريتهم ومراكب أخرى للجنود بالإضافة إلى السفن التجارية فانطلق الجميع لكن الريح كانت عكسية فتأجل العبور إلى فرصة أخرى حيث استطاع الوفد النزول بتطوان.

الخاتمة:

بعد إنجاز المهام الممثلة في إبرام عقد الهدنة وتفكيك الأسرى المسلمين الذين بلغ عددهم تسعين ومائتي أسير جلهم من الجزائر واستعادة الكتب حيث رفع كل أسير كتابا على رأسه في حفل التمجيد وبعد عودة السفير سالما ومعه سفير أسباني جاء بهدية كبيرة للسلطان تعبيرا عن الود والوفاء والمحبة المتبادلة بعد كل ذلك مجد السفير الغزال تمجيد الأبطال حيث استقبل بحفاوة بالغة من فرسان القبائل والعشائر وأجناد السلطان

بالبارود والطلقات المدفعية، والموسيقى "النوبة" والألعاب المختلفة، كان ذلك ممتدا من ثغر تطوان إلى مراكش، وحيثما حل يلقى الترحاب والضيافة والاستعراضات البهيجة، وأكبر تمجيد تم في مراكش من قبل السلطان الذي استقبل السفيرين المغربي والأسباني، واستضافهما أكثر من شهر حيث عاد السفير الأسباني عن طريق مدينة الجديدة، وصار السفير المغربي عضوا بارزا في القصر وقد كلف بمهام أخرى بعد ذلك.

[illegible]

[illegible]

" السارد/الشخصية هو الذي يحكي عن نفسه مواقف نحاول استجماع بعضها واستكناه بعض دلالتها: عندما ابتدأت الرحلة قال "ثم أتينا أهل البيت والخدام والطلبة والجيران، ومن أتى يودعنا، ودعونا لهم، ودعوا لنا، وعند ذلك رفعنا ما يحتاج الرفق وانصرفنا على حسن الانصراف، ووقع البكاء والصراخ من أهل البلد..."[1]، هذا هو أول نص في بداية الرحلة بعد التمهيد الطويل، وهو يشكل جزءا أساسيا من إطار الرحلة يتبعه جزء الخاتمة، الذي ورد

---

[1]- الورتيلاني، الرحلة، ص: 77.

[2]- نفسه، ص: 705.

فـيه قوله: " ثم أنه بعد ذلك تأتي إلينا الوفود من كل وطن تارا ألفا وتارا أكثر... إلى أن انقطعوا في مدا طويلة نحو الشهرين..." [2]

فالشخصية محورية في النص ومحورية في المجتمع إذ لها أتباع ومريدون يودعون ويستقبلون وسرد ذلك لتبيان هذه المكانة الاجتماعية في الموقفين وتشيد بمن يكرمها ويحترمها في أكثر من مكان "...كلهم راغبون في الخير، ومشتاقون إلينا، فمنهم وقفوا معنا وقوفا عظيما وقياما لائقا جزاهم الله عنا أحسن الجزاء، فمنهم من تكرم علينا بالشعير والطعام واللحم، ومنهم من أتى بركوة من الضأن." [3] وهذا دأبها في الإشادة بفضل ذوي الفضل والإحسان، وغالبا ما يكون دليل الود هو الهدايا والعطايا.

وقد تبلغ المودة بين الشخصية و رفاقها مبلغا عظيما من التقدير المتبادل: " فلما حان الانفصال، وتقارب الرجوع والانتقال، تكدر القلب وتغير وحزن فصار لبه قلقا وانكسر الروح أن تزهق، وهي تطير وإنما مسكها قفص البدن، فلو تعطى الخيار لما افترقنا، ولكن لا خيار مع الزمان، فعند ذلك تكلمت الأحباب، وبدا منا البكاء والصياح، فلم يبق شيء لدى الفراق... فعزمت النفوس أن تذهب مغربة، وكذا أنفسهم جمعت أن تذهب مشرقة..."[4]، لقد سرد هذا المقطع بضمير الغائب، وكأنه غريب عنه، ولكن سرعان ما ندرك أنه المتكلم، فهذا الود القوي ربط بين الأحباب على خصال الكرم والتقوى وأدى بهم إلى مبادلة دموع الفراق كالعشاق الأغرار.

وقد يبلغ الانفعال بالشخصية أحيانا مبلغ الغضب والثورا: "...وجلست حذاء الكاخية فحاولني مرا ثانية للسجن أيضا، فقال الكاخية ذره فإنه رجل وحده، وأما أصحابي فلا يقدر عليه أحد، لأن الذي أراده بسوء، إنما أتى من مصر ارتشاه البدوي ولا عمل عليه ولا يعرف حاله أيضا، فلما أتى إلي ضربته بالحائط وخرجت في حالي ولم يتبعني أحد حتى بلغت الركب..."[1]

---

(3) - نفسه ص: 644.

(4) – نفسه ص: 645.

(1) – المصدر السابق ص: 558.

وأحيانا تبرز الشخصية بصدر رحب وبال منشرح تساعد الناس وتستشيرهم وتأخذ برأيهم قال:"...فلما حان وقت الظهر جاءنا الحجاج فمنهم من يريد الارتحال ومنهم من يريد المبيت فراودناهم الانتقال أنا والفاضل سيدي عبد الله بن رحاب فلم يساعدنا للارتحال سلطان فزان فارتحل جميعنا فلم يبق إلا ركبنا..." [2]

فالسارد هنا هو الشخصية المندمجة مع الفاعلين "جئناه" "فراودناهم" وهو المشارك للقوم في الرأي وهو القائد للركب.

المناجاة: والسارد/الشخصية المحورية يروي أشعار أساتذته وكأنها تعبر عن وجدانه كما في هذه القصيدة:

[illegible] ... [illegible]

فإن [illegible] في السلم [illegible] ... [illegible] الوراق من قبل [illegible]

[illegible] ... ولا [illegible] أسرار [illegible]

[illegible] ... [illegible] [3]

وقد يقول الشعر بنفسه طويل كالقصيدة التي تتجاوز مائة بيت في مدح الشيخ أحمد زروق قال: " أقول في مدحه والاستغاثة به لتزول عنا حجب الغفلة وكدرات النفس...

ألا أيها [illegible] ... [illegible] قلبي [illegible] [4]

ومنها:

وكم لها عند [illegible] وأسقام [illegible] ... وقد نالها [illegible] وأسرار من [illegible]

ولكنها آفة ونقمة أبدا ... تنافي رضا المولى [illegible] في القبر

طريقتنا تعلو على كل رتبة ... وأنوار سرها تعم من الجهر

وهاأنا عبدكم قريب لبابكم ... ليحظى بعزكم ويمحو من السكر

وقد أسكرتني المعاصي من الشقا ... وخلني ذنبي عن الفوز بالظفر

وإني ذو لؤم مسيء بين الورى ... وإني محجوب في طرف من العمر

---

[2] – نفسه: ص 548.

[3] – نفسه: ص 252.

[4] – نفسه: ص 202-209.

وهـي قـصيدة توسلية، ذكر فيها مزايا الشيخ أحمد زروق ثم أتبعها بالتذلل والتضرع معترفا بذنوبه مستغفرا ربه ثم سأل التوفيق والرضا، وختمها بالدعاء والصلاة على النبي محمد وآله وصحبه.

وفـي مكـة المكـرمة قـال قصيدة أخرى تقارب الأربعين بيتا، تجلت فيها المعارف الصوفية، وردت فيها العلوم الخاصة بأعمال الحج مع إيقاع عذب زينته القافية ذات ألف التأسيس والهـاء المضمومة المتبوعة بوصل ممدود، ولعل مد الألف والهاء الموصولة بالواو مما حسنها. ومنها في جبل الرحمة، وفي يوم عرفات الخير[1]:

ولما رأينا قبة الموقف التي جرت ... وطافوا خشوعا مع خضوع خضعناه

تجلى علينا بالكتاب وبالرضى ... وباهـى بنـا الأمـلاك حيث وقفنـاه

فيا صاحبي من مثلنا في مقامنـا ... ومن ذا الذي قد نال مـا نحن نلنـاه

على عرفات قد وقفـنا بمـوقف ... به الذنب مغفـور وفيـه محونـاه

فهـذا التصـوير الجـيد القائم على التجسيم والتشخيص يدل على المقدرة الشعرية لدى الشخصـية، والملاحظ أن القصـيدة التوسلية يبرز فيها ضمير المتكلم المفرد "أنا" مثل "وهاأنـا" "وقد أسكرتني". في حين يبرز ضمير الجمع في غيرها، فهذا الضمير تندرج فيه ضمائر "أنا، أنت، هو" وملحقاتها، فهو ضمير الجماعة لا يقصي أحدا عند التدقيق إلا من لم يحضر الموقف. ولذا كانت القصيدة الأخيرة بخاصة، كأنها لسان حال الحجيج.

المجتمع: السارد/الشخصية يهتم بما حوله مما يجري في التجمعات السكنية التي يمر بها سواء تعلق الأمر بالجانب السياسي أو الاجتماعي، ومن ذلك إيقاف صلاة الجمعة من قبل رجـال الدولـة الأتـراك في طرابلس: " من جملة الدواهي المعضلات أننا دخلنا المدينة للجمعة فجلسنا ننتظر الإمام فإذا برجال من الدولتين أرسلهم بالنداء لا تصلى الجمعة، فقام لهم صاحبنا الفقيه سيدي أحمد بن محمد الهشتوكي، فقال لهم هذا والله حرام..." [1]

وفي مصر سجل الملاحظة الاجتماعية التالية:"... غير أني أعرف أهل مصر وغشهم، فتـرى الـرجل يظهـر لك حسن الصنيع، ويبطن لك الخديعة والمكر..." [2] ومثل هذه

(1) – المصدر السابق، ص: 390.

(1) – المصدر السابق، ص: 153.

المخالفات التي تدور المجتمعات وبعض العادات السيئة والجيدة كثيرا في رحلته لكون الشخصية متفتحة على ما حولها معاملة ومدارسة، وتقدم دقيقا، ومن ذلك: " وبالجملة فأهل برقة يموتون بالجوع موتا كثيرا عند أبواب الديار، وإنما شأنهم معهم على الأبواب، فترة السائل الكثير يدخل على الباب بالطعام إلى أن يموت على عتبة الدار، فهذا من أجل كثير من الناس، وقد خاصمتهم وقلت لهم: من مات منهم فأنتم عليكم لوجوب مواساتهم بما عندكم..."[3]

تتدخل الشخصية لإصلاح وضع غير صحيح فتعاتب أهل المدينة، وتدعوهم ليحسنوا إلى إخوانهم بما يملكون لأن أمر الناس في الشريعة عظيم، بهذا البعد الإنساني تتجلى الشخصية المحورية ذات الأفق الرحب في الفهم والاستنباط والجرأة على قول الحق والنصح للأمة، ولذلك يرصد البدع ويحاول تغييرها بما أمكن حتى إن أغضب بعض أصحابه، وقد يستعين على ذلك بالدعاء على الفاعلين مما يثير حفيظة المبتدعين، وقد يرهبهم بسبب ذلك:"وفي تلك الرحلة مات الحاج الطيب بن بونشادا إذ كثيرا ما كان يعارضني في الأمور لما رآه مني من النكير على أهل البدع فلم يرض بذلك "نعم" أصابته غيرا رحمية على أهل بلده، أهل عامر، غير أنه اتصل به المرض فتشاءم بنا فكأنه رأى ذلك منا كرامة، فأتى إلي مرارا يطلبني في الحل، وقد جعلته في حل غير أنه فات مني الدعاء على الأعداء في الحطيم والملتزم وعرفة وغيرها..." [4]

فالشخصية تمارس ما يشبه القوة السحرية، مما يجعل الناس يرهبون جانبها، ويجتنبون غضبها أو إزعاجها، وهذا وضع غير عادي. وهي في مميزاتها النفسية ذات توجه صوفي معتدل تؤمن بقول القائل "كل شريعة ليس فيها حقيقة فهي زندقة، وكل حقيقة لا شريعة فيها فهي هرطقة " والشخصية تتخذ الطريقة الشاذلية أسلوبا للوصول، وهو يكبر شيوخه إكبارا عظيما، قال في حق شيخه عبد الوهاب العفيفي: " وهو من أهل القدوة إذ جمع بين الحقيقة والشريعة، جمعا متواطئا، فقل نظير له في زمانه... وقد أخذنا عنه

(2) – نفسه، ص: 557.

(3) – نفسه، ص: 612.

(4) – نفسه، ص: 605.

الطريق ورسم الحقيقة وأنه لقننا الأذكار وجددنا عليه العهد في الطرق الشاذلية المحضة وأجازني إجازا مطلقة في سائر العلوم العقلية والنقلية..."[1] وتتجلى تلك الشخصية ومذهبها في التصور كالتالي: "... نعم شطحه على قدر غيبته عن الأكوان وقوة اتصاله بالمكون لأن عالم الأرواح يقدر تمكنه وسريانه عي عالم الملك والملكوت وكذا ما دونه من عالم الجبروت تتقوى بصيرته وتتجلى أنواره فتتدلى له العلوم الإلهية والمواهب الربانية والواردات الجسمانية فتضمحل نفسه وتتلاشى أحواله فيغلب عليه الشهود وتتراكم عليه الرعود والصواعق من زواجر الخوف وسرادق الهيبة ولوائح الجلال فيكون كله بكليته فلا يرى في حضرته سوى محبوبه فإن التفت عنه زلت قدمه وسقط حاله فيترامى جذبا ويمتلئ عشقا ويكتسي معرفة فيتغذى بتجريد التوحيد وتجريد التفريد فينادي بلسان الحقيقة: " ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين" وحينئذ تكون عنده مقامات الغيب فيعرف مسالك البر عن الشريعة وطرق البحر أعني الحقيقة ثم يأمر بأمر التجلي بصوافه ويتخلق بمعاني أسمائه ليكون ظاهر القلب بالتعريف وجميل الظاهر بالتكليف..." [2]

هذا النص يوجز لنا تصور الشخصية لكيفية السير و أهداف الطريق والثمار المجنية بمواصلة المجاهدات.

الحنين للوطن: وقد يشتد به الشوق فيقول: " فمن هذا المعطن تشم رائحة طرابلس بل رائحة الوطن فماءه غزير عذب كثير منهمر طيب سائغ شرابه..."[1]

وكأن عودا السارد إلى طرابلس نهاية للمشاق والأتعاب وبذلك شم رائحة الوطن والأمر كذلك إذ ما إن وصل المؤلف طرابلس حتى قل أتعابه أو قل الحديث عنها وفي هذه المنطقة تسمو روحانية الورتيلاني ويشتد تعلقه بالأولياء وكراماتهم.

الاتصال بالعلماء: لا يتحرج الورتيلاني من الاجتماع برجال الدولة وحضور جلساتهم كما حدث في طرابلس إذ اجتمع مع سلطانها بحضور معظم العلماء الذين يلتقون به

---

(1) – المصدر السابق، ص: 289.

(2) – نفسه، ص: 500.

(1) – المصدر السابق، ص: 617.

دوريـا لبحث النوازل التي تعرض عليهم، قال: "...وقد حضرت لهم مرا واحدا من غير قصـد منـي، ولا منهم... إذ بعث لي السلطان رغبة فينا ومحبة في اجتماعنا، فقدر الله بالاجـتماع بعد الظهر إلى العصر، فافترقنا، ومرا أخرى بعث لي، وسيدي محمد الشـريف حـين رجوعـنا من الحج، فجلس معنا، وأوصيناه بتقوى الله تعالى، والإعانة والاجتهاد في أمور المسلمين..." (2)

فالسـارد/الشخصية مرتاح في طرابلس، ومستأنس جدا بأهلها، ولما حان الخروج منها قـال:" أقمنا بها نحو السوقين في إكرام من أهلها وتعظيم لنا وللحجاج، فظعنا على خير، وخـرج معـنا أكثـر أهلها من العلماء والطلبة، والفقراء، وأهل النسبة، وبعض رجال الدولـة، والأكثـر من العامة، وأعيان البلد من باب المدينة، وخرج الركب صبيحة ونحن ننتظـر بعـض الحـوائج والأشياخ الذين يصلون للتوديع من أهل المحبة والاعتقاد، ليتم سعينا، وتغتنم بركاتهم على الله أن يزيل الحجاب عن قلوبنا بجاههم عند الله ..." (3)

فمـن كان هذا حاله وقت التوديع يحق له أن يفتخر بالمكان، وبأهله، ويمكن أن نتصور الشخصية التي يودعها هذا الجمع الغفير من الناس في هذه المهابة والقدر العظيم.

ويلقـى الاحتـرام في تونس أيضا، فقد ودعه علماء تونس حين أراد الخروج منها قال: "ولما خرجت من تونـس، ودعني أكثر علمائها، وجم فضلائها، وعامة طلبتها... فما أصعبه من فراق، وأضره من احتراق، فقد فقدت السلوى، ولم أبث الشكوى..." (1)

فالسـارد/ الشخصـية ألف المكوث في تونس واستأنس بأهلها، ولذا ترك أهله هناك: " نعـم تـركت أهلـي هناك، أخذا بخاطر من فيها من العلماء والصالحين ممن بالغوا في محبتي، واشتياقا في إقامتي ناويا الرجوع إليها، والتوطن فيها رغبة في نشر العلم..." (2)

هـذا هو تصور علماء الإسلام لانتمائهم على الأوطان كلها، واعتبارها وطنا واحدا ممتدا، وذلك قبل أن تنشأ القوانين التي تحدد حرية المسلم وتدعي أنها تحميه.

(2) - نفسه، ص: 635.

(3) – نفسه، ص: 636.

(1) - المصدر السابق، ص: 678- 679.

(2) – نفسه، ص: 677- 678.

يهتم الورتيلاني ببعض من معه لذا نود تقديم بعض هذه الأشخاص ذات الاهتمام الخاص من قبل الشخصية المحورية كأمير طرابلس الذي قال فيه: "...صاحب الولاية محبنا في الله ومعتقدنا الأجل محب الصالحين سيدي علي باشا..."[3]، الذي قدم له خدمة بأن كتب كتابا إلى الإسكندرية يدعو المسئولين هناك بأن يستقبلوا السفينة التي تحمل أثقال السارد/ الشخصية، وعلى متنها عدد من الحجاج.

فشخصية علي باشا تحب الخير وتسعى إليه، أما أوصافه البدنية ومظهره الخارجي فلا نعرف عنها شيئا. فهي في صف المعينين للشخصية المحورية بالسعي إلى الخير.

وممن أشاد به وذكر فضله من وصفه بـ"...المعظم الأجل محب الصالحين والعلماء العاملين وزير السلطان، يوسف الكاخية، فإنه يعظم جانبنا، ويقضي حوائجنا، فلا يعز عليه شيء من أمورنا. جعل الله البركة في ذريته..."[4]، فهذه الشخصية لا نعرف إلا اسمها ومنزلتها "وزير السلطان" واسمه "يوسف الكاخية" وعلاقته بالشخصية المركزية في كونها تقضي مطالبها بلا عجز. وأمثال هذه الإشارات للشخصيات المساعدة والمؤيدة كثيرا جدا في متن الرحلة، ولذا قال في مكان آخر: " وأما غير هؤلاء من الأشراف والمريدين والمحبين وطلبة العلم، فلا أحصي عددهم ولا أؤدي حقهم ومعدهم، كان الله لنا ولهم بالعطف والعناية آمين. "[5]

- ومن الشخصيات الثابتة في معظم الرحلات، العلماء، ففي الرحلة الورتيلانية يلتزم منهجا يبدأ بالتعريف، ثم نعوت الإطراء، ثم يتبعها ببعض الإشارات التي تحدد المكانة العلمية للشخصية، واتجاهها الفكري، وما تشغله من وظيفة، وقد يضيف في بعض الحالات السلوكية وآثارها في أتباعها أو متلقي دروسها، وفي كل الأحوال لا يفسح المجال للشخصية بأن تتكلم، بل يقدمها عن طريق السرد، لا تفعل ولا تقول، وإنما توصف أو تسرد أخبارها، وهذه ميزات الشخصيات المساعدة أو المتعاطفة.

---

(3) - نفسه، ص: 169.

(4) – نفسه، ص: 633.

(5) - نفسه، ص : 633.

وقد يهتم بنوع من الشخصيات لمزية خاصة كاهتمامه بخطيب البقاع المقدسة يوم عرفة:"...إنني نزلت على بغلتي ونويت رؤية الخطيب الذي يخطب بها لتعلق همتي به وتاقت نفسي أيضا لسماع كلامه وهو لا تمكن رؤيته لازدحام الناس عليه... فتوجهت إلى موضعه ورأيته ودخلت الصف الذي يليه والناس حوله بالأعمدة يضربون من يريده... وصلت إلى الضاربين بالأعمدة فتقدم إلي واحد منهم فأخذ بيدي إلى أن بلغ بي إليه وسلمت عليه وركبته وسمعت كلامه أعني خطبته وتبسم في وجهي وانبسط ولم ينقبض، وهو رجل شريف كبير السن، وكلامه عليه حلو وطلاوة يعلوه نور، وهو أجمل خلق الله قدا وخدا، بياضه مشرب بحمرة، وسيم الوجه يتلألأ نورا، قد شاب فلم تبق فيه شعرا سوداء...لا يسأم الناظر فيه، فعلمت أن الله نور بصيرته وطهر سريرته وأعلى همته...".[1]

ففي مثل هذه النماذج يرسم المؤلف بدقة ويستقصي في الوصف. والشخصيات في الرحلة حقيقية وليست متخيلة يقدمها السارد لتؤدي دورا معينا معرفيا أو اجتماعيا أم تخييليا، ولا نعتقد أن السارد في الرحلة يدرك الغاية الفنية من الشخصيات، وإنما يقدمها على حسب ما يقتضيه المقام بتأثير من المكان أو الزمان أو الموضوع.

هذه بعض سمات الشخصية المحورية، وسننتقل إلى دراستها في علاقتها مع الأشخاص، وهي تعمل في مجالاتها العاملية وفق نظرية غريماس "Å.J.Greimas".

<u>الذات الفاعلة</u>: إن الهدف الذي تسعى الشخصية إلى تحقيقه مزدوج، فعلى مستوى الواقع تسعى في الوصول إلى البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج والعودة إلى المنطلق، وهذا الهدف تكتنفه غاية أخرى هي الرقي الروحي. وفي كلتا الحالين يمكن تقسيم المسرود إلى ما يساعد الشخصية وما يعيقها لتحقيق الهدف المزدوج وبذلك قال: " وأما ذكر طريق الحج فهو كذكر الطريق الموصلة إلى الله تعالى...". [1]

ففي *المستوى الأول* يساعد الشخصية ركب الحج الذي ينتقل إلى البقاع المقدسة مرة كل سنة، وعلى هذا المستوى يذكر عددا من الشخصيات المساعدة على مدى المسافة، منها

---

(1) – المصدر السابق، ص: 413.

(1) - المصدر السابق، ص: 141.

الدائمة، ومنها التي تؤدي دورا ما في نقطة ما ثم تختفي، والمساعدات المادية عموما تتمثل في الاستضافات المتعددة، والأسواق التي تقدم الاحتياجات للبيع والشراء، ورفاق الطريق والعلماء الذين تتصل بهم الشخصية، فتجري بينهم المناقشات، أو تقوم بالاستماع إلى بعضهم، ثم تعلق عن المسموع، ولعل أكبر مساعد في الرحلة هو الشيخ مسعود أمير ركب الحج الجزائري ومحمد الشريف الطرابلسي ورفاقه الدائمون بالإضافة إلى سلطان فزان الذي سافر السارد/الشخصية في رعايته، وأفراد الركب عموما.

وفي *المستوى الثاني* يساعده علماء الحقيقة كما يسميهم، ويستعين بالزيارات المتعددة للأحياء والأموات، والاعتبار بأحوالهم وذكر مآثرهم، والمطالعة في كتبهم أو كتب أمثالهم، ويحصل له التقوى بإفشاء آرائهم والدعوات إليها، وهكذا تقف الشخصية عند بعض الأولياء الأموات وقفات طويلة للاستلهام، كما تقف مع العلماء الأحياء وقفات الأخذ والتلقي، وبهذا يحدث نوع من التآزر بين الجانبين لتحقيق الغاية.

أما الإعاقة فتحصل على مستويين أيضا، ففي المستوى الأول أي طريق الوصول إلى الحجاز وأداء المناسك، نجد الإعاقة متنوعة، منها الطبيعية وتتمثل في مشاق الطريق من حرارة شديدة، وبرد شديد، ووعورة المسالك في بعض الأودية والشعاب.

وتلعب قلة الطعام وندرة الماء دور المعيق الأساسي على السير. كما نجد نوعا آخر من الإعاقة، ممثلة في قطاع الطرق الممتدين من مرحلة خنقة سيدي ناجي إلى البقاع المقدسة، فمنهم من يهجم على الركب لينهب بالقوة، ومنهم من يختل ليخطف بعض الممتلكات، ومنهم من يحتال على الحجيج ليستغل حاجتهم الشديدة للأشياء، فيرفع في الأسعار ويصل الأمر إلى أوجه حين تقوم معارك حقيقية بين الأركاب وعصابات قطاع الطرق بالمشادات عن طريق الأيدي أو الرصاص أو العصي.

أما على المستوى الثاني، فالإعاقة ماثلة في قلة الورع لدى أفراد الركب مما يدفع إلى سلوك غير مناسب لمقاصد الحج، فالشجار والخصام والاعتداء على الأمتعة، والزحام على مصادر الماء، كلها أمور معكرة لقدسية الرحلة الحجازية.

وتبلغ الإعاقة أقصاها فيما يبديه الحجيج من بدع وحماقات تنم عن جهل متأصل، وبخاصة أنهم لا يقبلون نصيحة ناصح، بل قد تظهر بعض الشعارات المخلة بالحياء،

كمـا يتضح ذلك مع "نساء أهل عامر"، إلى جانب الارتباط بالمصالح الدنيوية، من أهل وولـد، كـل ذلك يعمل عائقا أمام تجرد الشخصية الكاملة للمجاورة في الحرمين، مما اقتضى بعودة الشخصية مع الركب.

وقـد تبـرز عناصر مساعدة في الوظيفة الأساسية لها، ثم تتحول إلى عناصر معيقة، كالجمالـين الـذين يُكترون أساسا للمساعدة مقابل أجر متفق عليها، ولكن بعضهم قد مرد علـى المكر والمخادعة، فيستغل ظروف الحاج، ويقوم بالابتزاز في رفع الأسعار، وحتى الاختفاء تماما، كما وقع للشخصية المحورية مع أكثر من جمال.

<u>الغايـة:</u> تـتحقق الغايـة فـي الرحلة الورتيلانية بالوصول إلى الأماكن المقدسة (مكة والمدينة) فتحصل الراحة بعد النصب، وتتحقق الغاية الروحية بالتجرد الكامل في مكة وفي شعائر الحج جميعها وبخاصة في الوقفة المتذللة الخاشعة على ظهر جبل الرحمة.

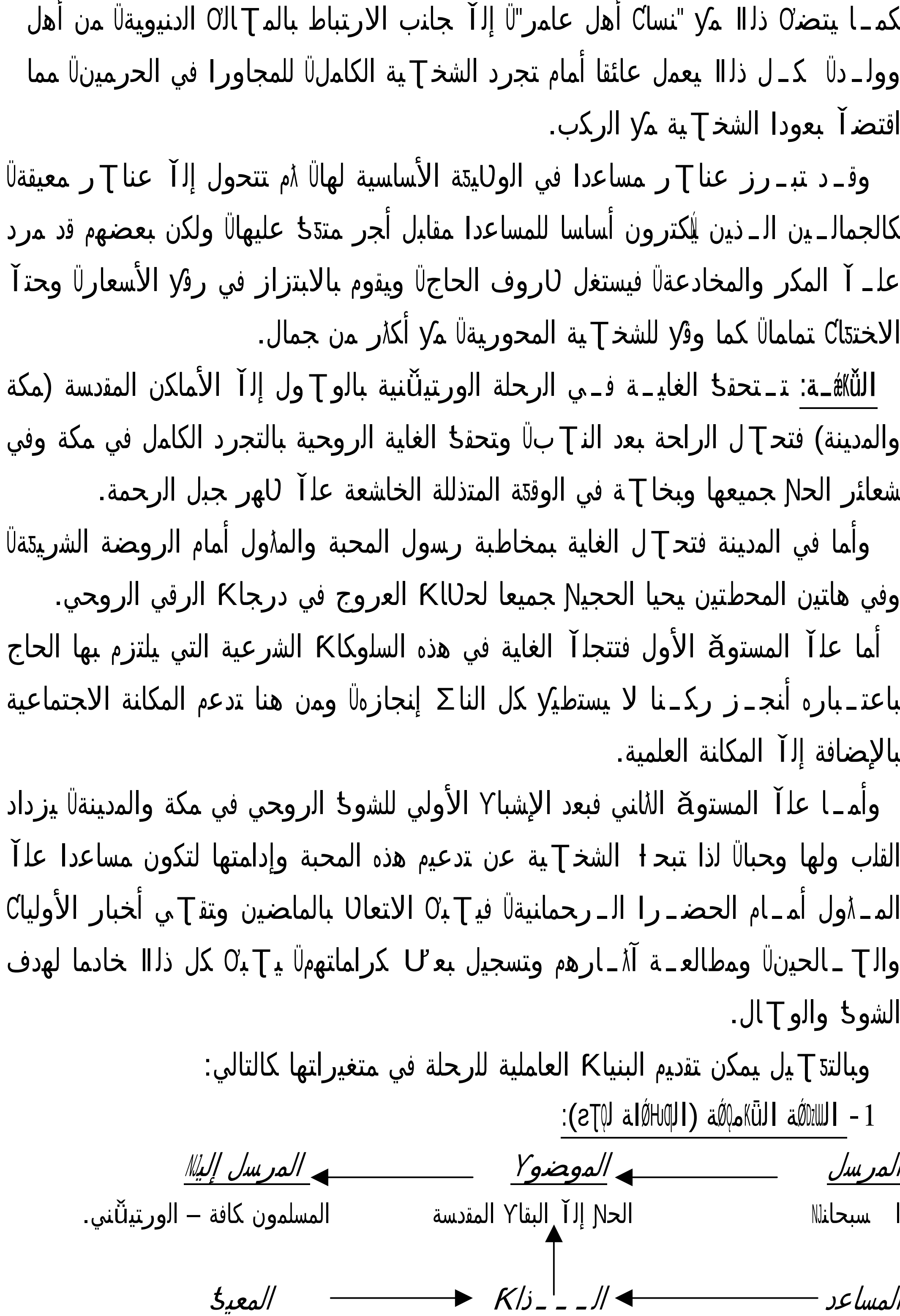
وأما في المدينة فتحصل الغاية بمخاطبة رسول المحبة والمثول أمام الروضة الشريفة، وفي هاتين المحطتين يحيا الحجيج جميعا لحظات العروج في درجات الرقي الروحي.

أما على المستوى الأول فتتجلى الغاية في هذه السلوكات الشرعية التي يلتزم بها الحاج باعتـباره أنجـز ركـنا لا يستطيع كل الناس إنجازه، ومن هنا تدعم المكانة الاجتماعية بالإضافة إلى المكانة العلمية.

وأمـا على المستوى الثاني فبعد الإشباع الأولي للشوق الروحي في مكة والمدينة، يزداد القلب ولها وحبا، لذا تبحث الشخصية عن تدعيم هذه المحبة وإدامتها لتكون مساعدا على المـثول أمـام الحضـرا الـرحمانية، فيصبح الاتعاظ بالماضين وتقصي أخبار الأولياء والصـالحين، ومطالعـة آثـارهم وتسجيل بعض كراماتهم، يصبح كل ذلك خادما لهدف الشوق والوصال.

وبالتفصيل يمكن تقديم البنيات العاملية للرحلة في متغيراتها كالتالي:

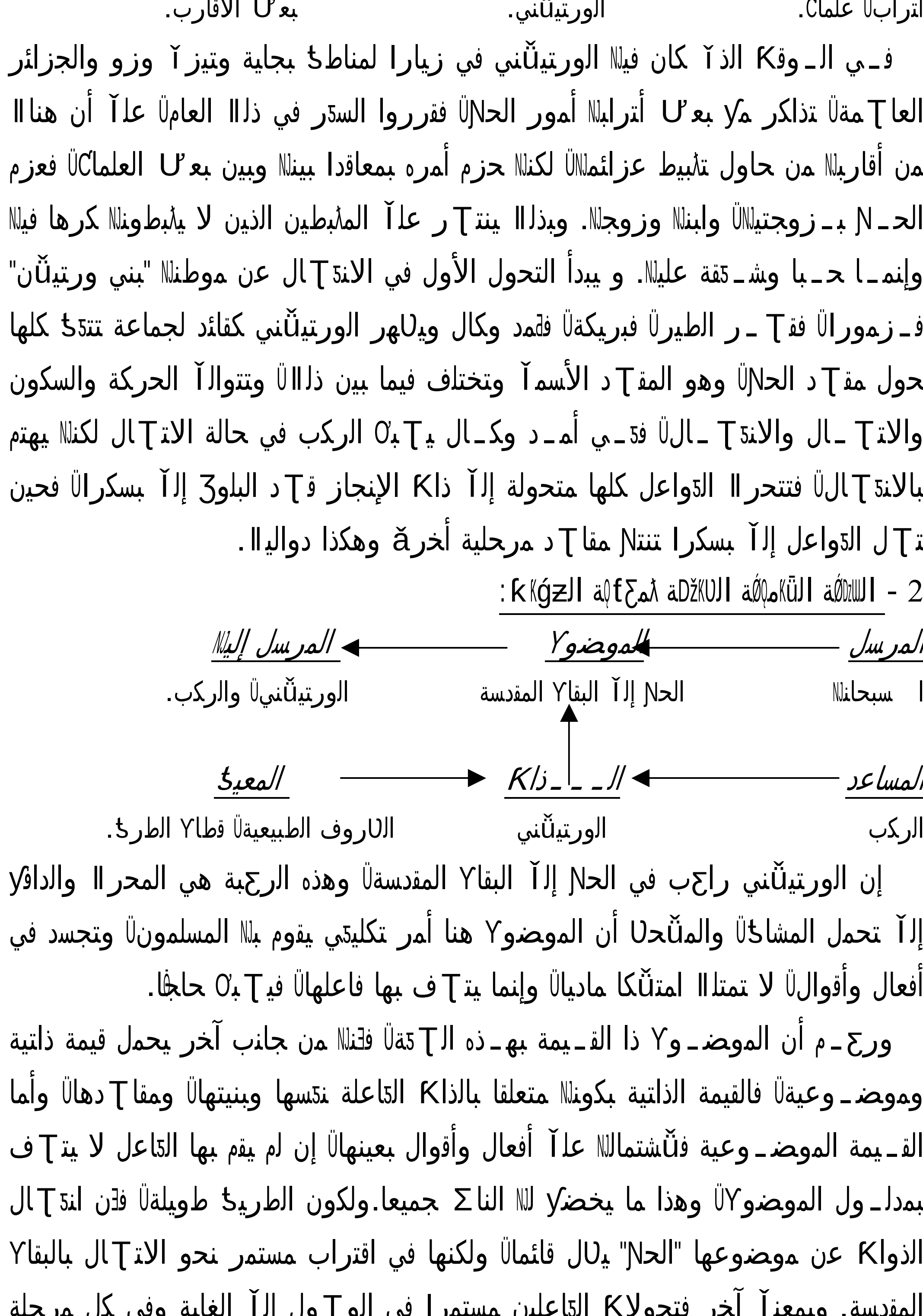
<u>1- [illegible] ([illegible]):</u>



أترابه علماء. الورتيلاني. بعض الأقارب.

في الوقت الذي كان فيه الورتيلاني في زيارة لمناطق بجاية وتيزي وزو والجزائر العاصمة تذاكر مع بعض أترابه أمور الحج فقرروا السفر في ذلك العام على أن هناك من أقاربه من حاول تثبيط عزائمه لكنه حزم أمره بمعاقدة بينه وبين بعض العلماء فعزم الحج بزوجتيه وابنه وزوجه. وبذلك ينتصر على المثبطين الذين لا يثبطونه كرها فيه وإنما حبا وشفقة عليه. و يبدأ التحول الأول في الانفصال عن موطنه "بني ورتيلان" فزمورة فقصر الطير فبريكة فمدوكال ويظهر الورتيلاني كقائد لجماعة تتفق كلها حول مقصد الحج وهو المقصد الأسمى وتختلف فيما بين ذلك وتتوالى الحركة والسكون والاتصال والانفصال فمرة يمكث الركب في حالة الاتصال لكنه يهتم بالانفصال فتتحرك الفواعل كلها متحولة إلى ذات الإنجاز قصد البلوغ إلى بسكرة فحين تصل الفواعل إلى بسكرة تنتظر مقاصد مرحلية أخرى وهكذا دواليك.

2 - البنية العاملية الدلالية [illegible]:



إن الورتيلاني راغب في الحج إلى البقاع المقدسة وهذه الرغبة هي المحرك والدافع إلى تحمل المشاق والمخاطر أن الموضوع هنا أمر تكليفي يقوم به المسلمون وتجسد في أفعال وأقوال لا تمتلك امتلاكا ماديا وإنما يتصف بها فاعلها فيصبح حاجا.

ورغم أن الموضوع ذا القيمة بهذه الصفة فإنه من جانب آخر يحمل قيمة ذاتية وموضوعية فالقيمة الذاتية بكونه متعلقا بالذات الفاعلة نفسها وبنيتها ومقاصدها وأما القيمة الموضوعية فلاشتماله على أفعال وأقوال بعينها إن لم يقم بها الفاعل لا يتصف بمدلول الموضوع وهذا ما يخضع له الناس جميعا.ولكون الطريق طويلة فإن انفصال الذوات عن موضوعها "الحج" يظل قائما ولكنها في اقتراب مستمر نحو الاتصال بالبقاع المقدسة. وبمعنى آخر فتحولات الفاعلين مستمرا في الوصول إلى الغاية وفي كل مرحلة

مـن مراحل الطريق يحدث انتقال بهدف جزئي، وانتقال عن نقطة أخرى مما يمكن أن نعتبـره اختـبارات تأهيلية ترشيحية لكل من يحج، فمنهم من يواصل الطريق، ومنهم من يمرض، ومنهم من يموت...

وتسـتمر الاختـبارات والـتحولات، على أن الموضوع ذا القيمة المتمثل في الحج لا يتـنازع عليه هنا من أجل الامتلاك، فهو لا يمتلك وإنما يتصف به، ولكون الذات الفاعلة أو المنجـزة هي الذات التي ستتصف بالحج، يمكن أن يسمى هذا الفعل انعكاسيا مكتسبا وليس هبة فالاختبارات لدى الحاج تجري على مراحل ثلاث: [1]

- اختـبار ترشيحي: ويتمثل في الاستعدادات الأولية وتهيئة الوسائل المعينة على السفر من زاد وراحلة.

- الاختيار الرئيسي: وهو مواجهة الطريق بصعوباتها، ومخاطرها الطبيعية والبشرية، فإن وفـقت الذات دخلت في:

- الاختـبار التمجيدي، وما دامت الغاية ليست مادية، ولا تمتلك وإنما يتصف بها، فإن التمجـيد مـن جنس العمل، فإن قام الفاعل بالنية الخالصة والأفعال المشروطة والأقوال المخصوصـة وفق العقد المبرم بين الآمر (الله سبحانه) والمأمور المكلف (أي شخص من المؤمنين) محيت ذنوبه، ويرجع كما ولدته أمه وجزاؤه الجنة. على أن هذا التمجيد مؤجل، وقـد تبرز بعض ملامحه ككرامات أو توفيق وتيسير. أو غير ذلك مما لا يجزم به، ومن هـنا يتجلى الاختبار التمجيدي على مستوى الباطن مؤجلا إلى يوم مستقبلي لا ريب فيه.

ذلك أن الاختبار التمجيدي يحصل بين المرسل والمرسل إليه الذي ينجز مهمة وفق العقد، أما على المستوى الظاهري فيطلق على الذات المنجزة اسم الحاج.

وعلـى مستوى مكيفات العمل نجد الفاعل يرغب في الحج رغبة ملحة، ويشعر بوجوبه لكونه قادرا من مرسل تجب طاعته إن توفرت شروط الاستطاعة، ولكون الشخصية في صحة جيدا وتملك القدرة وجب عليها الحج، بل من الهمة أن يصطحب أهله للحج.

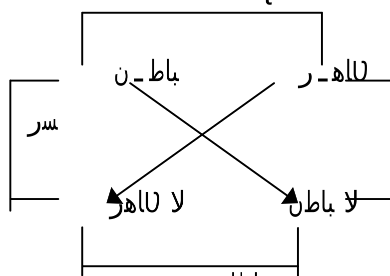
فشخصـية الورتيلانـي تمتلك الرغبة والشعور بالواجب، ولها من القدرة ما يبلغها إلى الحـج، وزيادة على ذلك فهي تمتلك المعرفة بوجوب الحج، وشروطه لكونه عالما فقيها،

---

(1) – محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي، ص: 53.

وسـبـ ٷ لـ ǋ أن حـ Ŋ قـبل ٯ أ ٍ أنها تتمتع بقدرا ا فعلي للرحلة إلى البقاع المقدسة على مسـتويا Ƙ مـتعددا ٯ وهـذا ما يولد نشاط الفاعلين في شكل إيجابي ٯ أما إذا انعدمƘ هذه العنا ٦ـر ٯ فـإن الفاعـل لا يبالي أ ٷ ٦ بالرسالة أو يكسل عن إنجازها ٯ مما يحد ٹ لديǋ التردد والفتور والمواقف السلبية من الحج.

3- ٲم نطر مـ ٦ ٶ داقية الفاعل في عٷقتǋ مع موضوعǋ ٯ الممǨ ٶة ǝ ǡ ا ا ٦ ǡ ǟ ة ǝ ǡ ǟ ǟ ة:



وفـي كوننا ندر Σ عٷقة الفاعلين بموضو ٧ الحج ٯ فإننا نجد العٷقة تتسم بالتوافٷ بين الا ٯ اهـر والباطن ٯ مما يƌدٍ إلى المـ ٦ داقية. فالخطاب لم يـ ٦ ر ٶ بغير ذا ا ٯ وأن القرائن تƌكد مـ ٦ داقية النيا Ƙ ٯ وهي التي جعلƘ الحجيج يغادرون ديارهم ويحتملون المشاٷ.

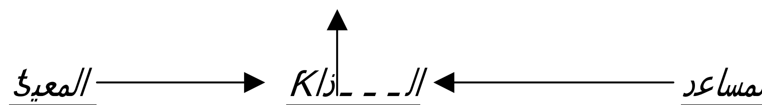
ونعـتقد أن هـذه المـ ٦ داقية تنسحب على كل المراحل ٯ ذا ا أن مشروعا سرديا ما قد تنسـحب كفاǇتǋ على الخطاب كامٷ أو على جزǇ منǋ ٯ كما أن الفاعل المنجز يحيا قناعتǋ حـيا ا كاملة ٯ فقد سيطر Ƙ عليǋ أشواٷ الو ٦ ول إلى البقا ٧ ٯ ويتغناها شعرا ونثرا وتمƌٷ ٯ ٲم ركزها في ٷ ٦ يدا مدٶ بها الرسول ǟ ǡ ǝ ǟ ǡ ǝ.

الورتيٷني كفاعل قائم بالعمل يƌدٍ أدوارا ريادية تتسم بالشجاعة والحزم والرأفة على مـن معǋ من المطيعين لتوجيهاتǋ ٯ وبالقسوا على من معǋ من المتمردين ٯ لهذا نجده يتمتع بهاتين الـ ٦ فتين المتضادتين ٯ كما أنǋ يحسن المعاشرا مع رئيـ Σ الركب ومن معǋ من علية القوم ٯ ويحسن الوعا والإرشاد ويتدخل في إ ٦ ٷٶ ذا Ƙ البين في بٷده بجاية وعلى مدة الطريٷ إلى الحجاز ذهابا وإيابا.

4- ا ǟǟة ا ǟǟǟة ا ǟǟǟة ٲ ـ (مǤة - المدǟة):



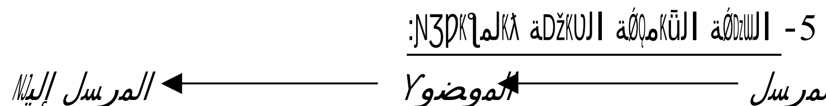
الورتيٷني	زيارا الروضة الشريفة	الورتيٷني



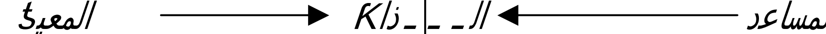
الركب — الورتيلاني ومن معه — ضياع الجمل، تنافس الأركاب، قطاع الطرق.

في هذه الحدة يكون الورتيلاني في حال اتصال مع البيت الحرام، ويرغب في الانفصال بغرض الاتصال بالحرم النبوي، فيجد الأركاب كلها متنافسة ومتصارعة، وتخرج من مكة إلى المدينة ويخرج معها، لكن الجمال الذي اكتراه يفر بعد أن قبض الأجرة فيبقى بلا جمال، فيتعثر في الرحيل، وتتقدم له المساعدة في الوصول إلى المدينة، ويتصل بقبر الحبيب ويلقي قصيدة في مدحه.

5- الحالة الثانية للرغبة الخامسة:



الورتيلاني. — مجاورة الحرمين — الورتيلاني



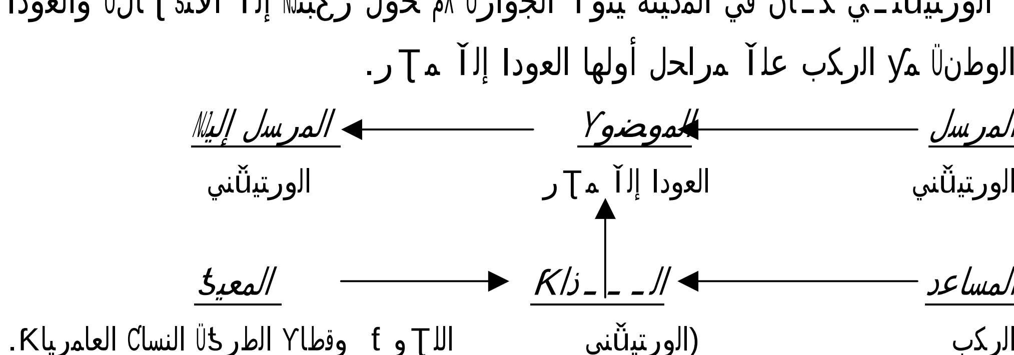
أهل الركب الجزائري. — الورتيلاني — أبناء صاحب قديم

في هذه المرحلة يشتد توتر الورتيلاني، فيرغب في استمرار الاتصال بالمدينة والبقاء فيها، فيبحث عمن يعينه على ذلك فيجد أبناء صاحب قديم له، فيعينونه بمنزل للإقامة مع أهله، إلا أن أعيان الركب وكل من فيه يلحون عليه بالعودة إلى الجزائر برفقة الركب، فيتنازل عن رغبته، ويستجيب لمطلبهم. ويمكن أن نتساءل عن مصداقية هذه الرغبة، إذ أنها وليدة فقدان جماله وهروب الجمال. لذلك حينما أصر عليه الأتباع والأتراب بالعودة على أن يهيئوا له المركوب والمحمول، استجاب لدعوتهم بشرط أن يكون كل ذلك إعارة وليس تفضلا.

لقد تخلت الشخصية عن مشروعها الذي تحول فيه المساعدون إلى معارضين لهذه الرغبة الجديدة، وفشل الفاعل في تحقيق مشروعه المتمثل في المجاورة بعد وقوع الاختبار الترشيحي، لأن الشخصية ترغب في المجاورة ولا ترغب وجوبها، ومن هنا نصل إلى أن الفعل الذي يمكن أن ينجز هو الصادر عن الرغبة والشعور بالواجب مع توفر الإرادة القوية، فليس كل من يرغب في الشيء يحصل عليه.

6- الحالة الثانية للرغبة السادسة (...):

الورتيلاني كان في المدينة ينوي الجوار، ثم حول رغبته إلى الانتقال والعودة إلى الوطن، مع الركب على مراحل أولها العودة إلى مصر.



في هذه البنية يسير الورتيلاني ومعه ابنه ونساؤهما مع الركب، وفي الطريق يعثر على الجمال الذي فر منه، فيشتكيه لأمير الركب، ويقيده ثم يحرر الجمال وقت الصلاة.

وفي هذه البنية يتعرض الورتيلاني ومن معه لمضايقات شديدة من قبل اللصوص وقطاع الطرق، إلى جانب مضايقات أخلاقية من قبل النساء العامريات اللائي يحاولن إفساد القوم، فيواجه الجميع بشجاعة وثبات، حتى أنه خاض معارك وأجرى مقابلات مع هؤلاء النسوة فانتصر على اللصوص، في حين تبقى النساء العامريات على سلوكهن السيئ، بل يتهمن الورتيلاني، ويصل الجميع إلى مصر.

ومن خلال ذلك يكتسب الورتيلاني مكانة مرموقة أهلته لها الاختبارات الترشيحية التي لا يتنازل فيها عن مبادئه الأخلاقية، ولا عن أقواله، فهو مصمم عازم على ما يقول ويرغب في السلوك السوي ويشعر بوجوبه على الجميع، كما يشعر بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لهذا تصدى لكثير من البدع الصادرة على أفراد الركب ذكورا وإناثا، فأقواله وأفعاله تتميز بمصداقية عالية إذ يتوافق ظاهرها مع باطنها.

والشخصية الورتيلانية تتصدى دور المدافع عن الركب ضد قطاع الطرق واللصوص أو النصب والاحتيال من قبل الجمالين والشيالين، وكل من يحاول التعدي على القيم. فهو قائم بالفعل يتصدى أدوارا متعددة، فهو المدافع الشجاع، والمحامي الفطن، والواعظ المرشد، والقاضي العادل. وفي هذا الإطار يتجلى الدور العاملي الواحد والتمثيل المتعدد.

7- البنية العاملية السابعة (الدفاع عن الحق):

المرسل ← الموضوع ← المرسل إليه

الورتيلاني — الدفاع عن الحق — الورتيلاني



المساعد	الـــذات	المعيق
القاضي	الورتيلاني	- عنف المصريين واحتيالهم - سوء تصرف المغاربة.

فــي مصر يتصدى الورتيلاني لظاهرة احتقار المغاربة، والوضع السيء الذين هم فيه، ولكون أعوان الأمن التركي ومن معهم يرشون القائمين بالأعمال، فإن كثيرا من المغاربة أدخلوا السجن ظلما، وتطور الموقف إلى الاعتداء على الورتيلاني نفسه، إلا أنه ضرب أحدهم، ومن ذلك الوقت لم يتعرض له بسوء، فخرج المغاربة من مصر لما فيها من ظلم، الورتيلاني والمغاربة فقدوا حقهم، ويسعون لاسترجاعه وامتلاكه، لكن غيرهم يسعى في سلبهم إياه، وشارك في ذلك سوء تصرف المغاربة واحتيالهم، مما ألجأهم إلى المحاكمات فكانوا الضحية، فصارعوا بالكلمة الطيبة، التي لم تثمر، فلجأ الورتيلاني إلى القوة، وبذلك نجا من السجن، فسار مع الجميع إلى الإسكندرية.

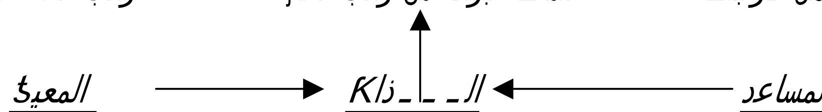
وفــي الطــريق يتعرض الوفد لمواقف متشابهة جرت فيما بين المغاربة والشيخ أمير، وهــذا ما يجعل الركب كله يسارع في الخروج من مصر لاستحال الإقامة فيها، مما جعل الشخصية تتنفس الصعداء حين تظهر معالم طرابلس من بعيد، وتقول "رائحة الوطن"، أي أن الشعور بالغربة يزول عند بلوغ الركب مدينة طرابلس.

فالصــراع بــين المغاربة والمصريين إما أن يكون لسوء الثقة، أو للتنافس في الجانب الســلبي، وتبــين أن الحقوق لا تؤخذ بالكلمة، وإنما بالقوة، فقد تضافر استعمال القوة في القاهرة، وفي الطريق حيث استعمل السلاح مع أفراد الركب، والشيخ أمير.

8- الوظيفة الثامنة [illegible]:



المرسل	الموضوع	المرسل إليه
أهل طرابلس	التماس البركة من ركب الحج	ركب الحــج



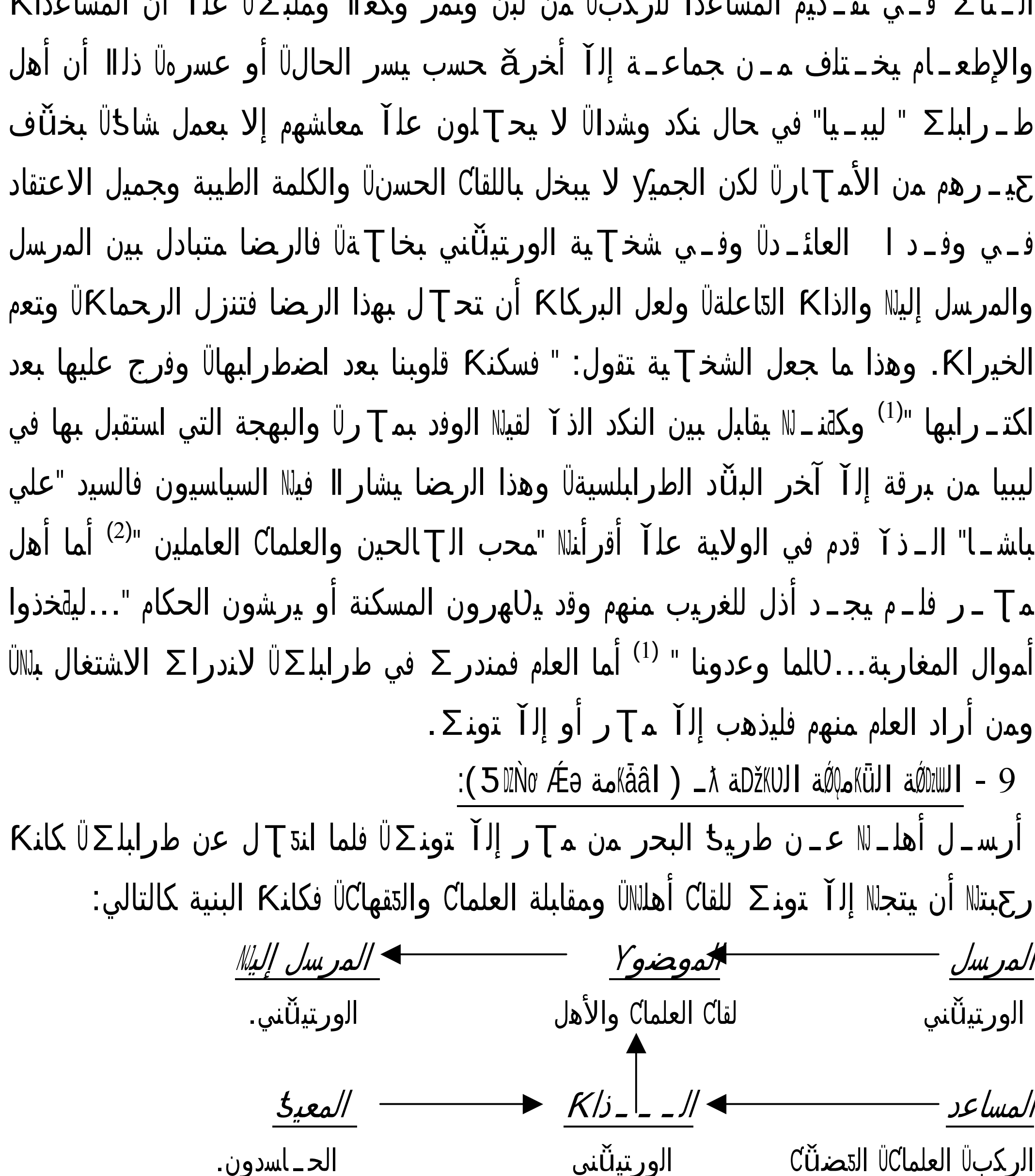
المساعد	الـــذات	المعيق
الإطعام والحفاوة	أهل ليبيا	الفقر وقلة ذات اليد.

إنــنا أمــام موقف مغاير لما كان بمصر، فالناس جميعا في المدن والقرى والأرياف، يخرجون جماعات يحتفلون بالركب، ويلتمسون الدعاء المستجاب و البركات، كما يسارع

الـناΣ فـي تقـديم المساعدا للركبÜ من لبن وتمر وكعاا وملبΣÜ علĨ أن المساعداƘ والإطعـام يخـتلف مـن جماعـة إلĨ أخرǎ حسب يسر الحالÜ أو عسرهÜ ذلاا أن أهل طـرابلΣ " ليبـيا" في حال نكد وشداÜ لا يحƫلون علĨ معاشهم إلا بعمل شاƀÜ بخǆف غيـرهم من الأمƫارÜ لكن الجميŴ لا يبخل باللقاƅ الحسنÜ والكلمة الطيبة وجميل الاعتقاد فـي وفـد ا العائـدÜ وفـي شخƫية الورتيǆني بخاƫةÜ فالرضا متبادل بين المرسل والمرسل إليǊ والذاƘ الفاعلةÜ ولعل البركاƘ أن تحƫل بهذا الرضا فتنزل الرحماƘÜ وتعم الخيراƘ. وهذا ما جعل الشخƫية تقول: " فسكنƘ قلوبنا بعد اضطرابهاÜ وفرج عليها بعد اكتـرابها "[1] وكƋنـǊ يقابل بين النكد الذĥ لقيǊ الوفد بمƫرÜ والبهجة التي استقبل بها في ليبيا من برقة إلĨ آخر البǆد الطرابلسيةÜ وهذا الرضا يشاراا فيǊ السياسيون فالسيد "علي باشـا" الـذĥ قدم في الولاية علĨ أقرانǊ "محب الƫالحين والعلماƅ العاملين "[2] أما أهل مƫـر فلـم يجـد أذل للغريب منهم وقد يƋهرون المسكنة أو يرشون الحكام "...ليƋخذوا أموال المغاربة...Ƌلما وعدونا " [1] أما العلم فمندرΣ في طرابلΣÜ لاندراΣ الاشتغال بǊÜ ومن أراد العلم منهم فليذهب إلĨ مƫر أو إلĨ تونΣ.

9 - البنية السردية للرحلة - الموضوع الرابع (من طرابلس إلى تونس):

أرسـل أهلـǊ عـن طريƀ البحر من مƫر إلĨ تونΣÜ فلما انفƫل عن طرابلΣÜ كانƘ رغبتǊ أن يتجǊ إلĨ تونΣ للقاƅ أهلǊÜ ومقابلة العلماƅ والفقهاƅÜ فكانƘ البنية كالتالي:



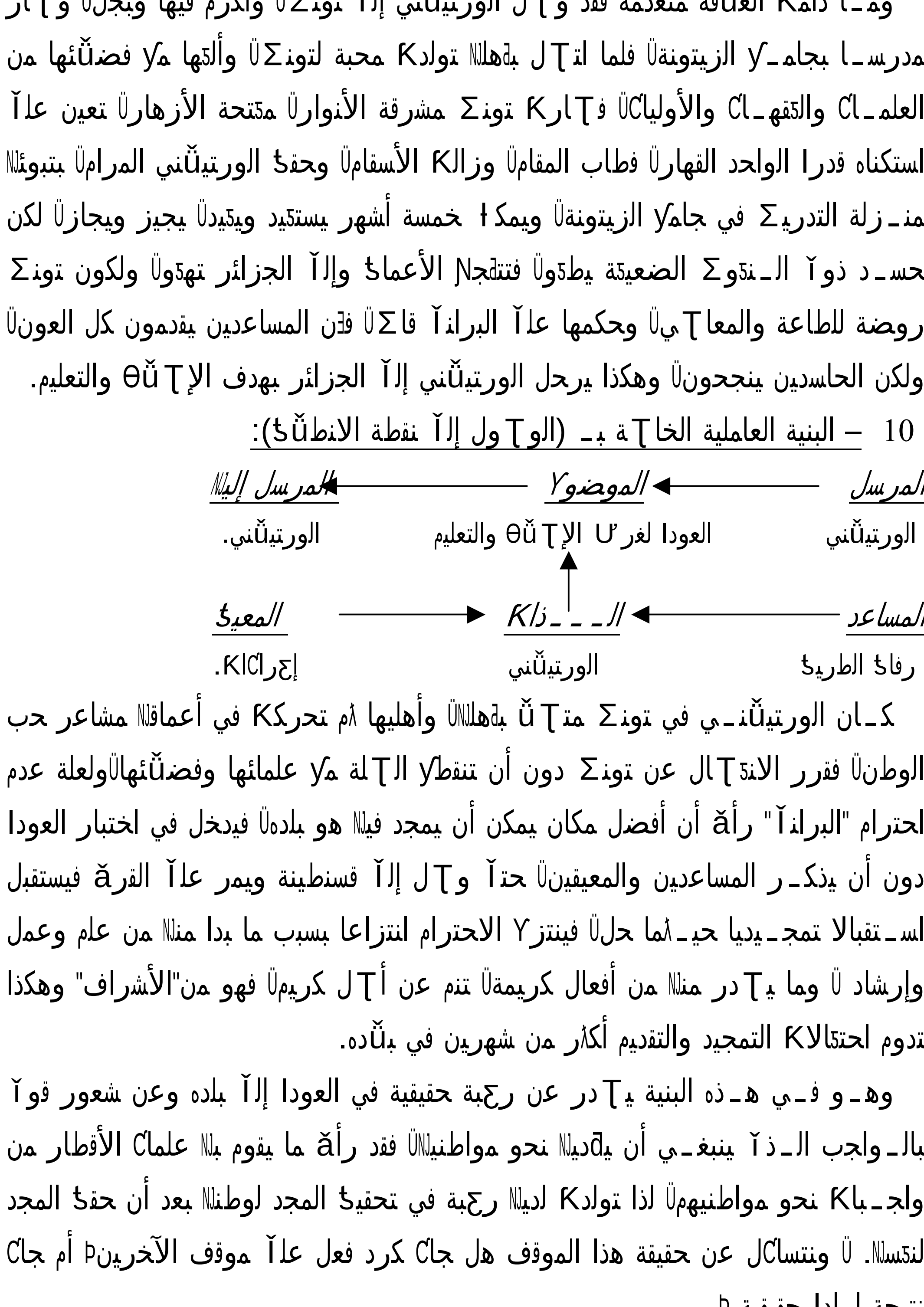
[1] - الورتيǆنيÜ الرحلةÜ f :625.

[2] - نفسǊÜ f : 628.

[1] – المƫدر السابƀÜ f :560.

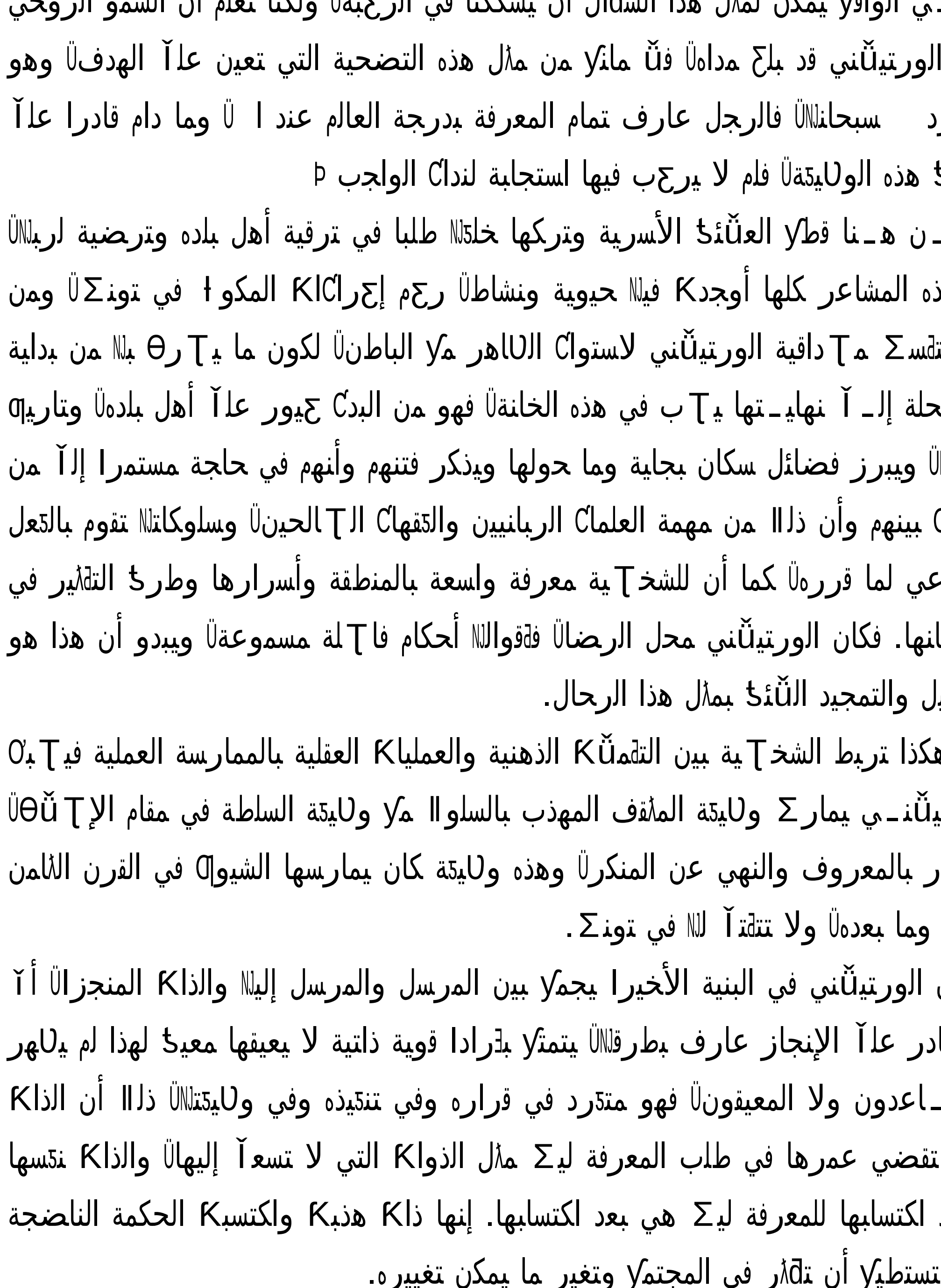
ومـا دامت الثقة منعدمة فقد وصل الورتيلاني إلى تونس وأكرم فيها وبجل وصار مدرسـا بجامـع الزيتونة فلما اتصل بتلاميذه تولدت محبة لتونس وألفها مع فضلائها من العلمـاء والفقهـاء والأولياء فصارت تونس مشرقة الأنوار متفتحة الأزهار تعين على استكناه قدرا الواحد القهار فطاب المقام وزالت الأسقام وحقق الورتيلاني المرام بتبوئه منـزلة التدريس في جامع الزيتونة ويمكث خمسة أشهر يستفيد ويفيد يجيز ويجاز لكن حسـد ذوي الـنفوس الضعيفة يطفو فتتغير الأعماق وإلى الجزائر تهفو ولكون تونس روضة للطاعة والمعاصي وحكمها على البراني قاس فإن المساعدين يقدمون كل العون ولكن الحاسدين ينجحون وهكذا يرحل الورتيلاني إلى الجزائر بهدف الإصلاح والتعليم.

10 – البنية العاملية الخاصة بـ (الوصول إلى نقطة الانطلاق):



كـان الورتيلانـي في تونس متصلا بتلاميذه وأهليها ثم تحركت في أعماقه مشاعر حب الوطن فقرر الانفصال عن تونس دون أن تنقطع الصلة مع علمائها وفضلائها ولعلة عدم احترام "البراني" رأى أن أفضل مكان يمكن أن يمجد فيه هو بلده فيدخل في اختبار العودا دون أن يذكـر المساعدين والمعيقين حتى وصل إلى قسنطينة ويمر على القرى فيستقبل اسـتقبالا تمجـيديا حيـثما حل فينتزع الاحترام انتزاعا بسبب ما بدا منه من علم وعمل وإرشاد وما يصدر منه من أفعال كريمة تنم عن أصل كريم فهو من"الأشراف" وهكذا تدوم احتفالات التمجيد والتقديم أكثر من شهرين في بلاده.

وهـو فـي هـذه البنية يصدر عن رغبة حقيقية في العودا إلى بلاده وعن شعور قوي بالـواجب الـذي ينبغـي أن يؤديه نحو مواطنيه فقد رأى ما يقوم به علماء الأقطار من واجـبات نحو مواطنيهم لذا تولدت لديه رغبة في تحقيق المجد لوطنه بعد أن حقق المجد لنفسه. ونتساءل عن حقيقة هذا الموقف هل جاء كرد فعل على موقف الآخرين أم جاء نتيجة إرادا حقيقية؟



فـي الواقع يمكن لمثل هذا السؤال أن يشككنا في الرغبة، ولكنا نعلم أن السمو الروحي لدى الورتيلاني قد بلغ مداه، فلم يكن مانع من مثل هذه التضحية التي تعين على الهدف، وهو التجرد سبحانه، فالرجل عارف تمام المعرفة بدرجة العالم عند الله، وما دام قادرا على تحقيق هذه الوظيفة، فلم لا يرغب فيها استجابة لنداء الواجب؟

مـن هـنا قطع العلائق الأسرية وتركها خلفه طلبا في ترقية أهل بلاده وترضية لربه، وهـذه المشاعر كلها أوجدت فيه حيوية ونشاطا، رغم إغراءات المكوث في تونس، ومن هنا تتأسس مصداقية الورتيلاني لاستواء الظاهر مع الباطن، لكون ما يصدر منه من بداية الـرحلة إلـى نهايـتها يصب في هذه الخانة، فهو من البدء غيور على أهل بلاده، وتاريخ وطنه، ويبرز فضائل سكان بجاية وما حولها ويذكر فتنهم وأنهم في حاجة مستمرا إلى من يصلح بينهم وأن ذلك من مهمة العلماء الربانيين والفقهاء الصالحين، وسلوكاته تقوم بالفعل الإقناعي لما قرره، كما أن للشخصية معرفة واسعة بالمنطقة وأسرارها وطرق التأثير في سـكانها. فكان الورتيلاني محل الرضا، فأقواله أحكام فاصلة مسموعة، ويبدو أن هذا هو التبجيل والتمجيد اللائق بمثل هذا الرحال.

وهكذا تربط الشخصية بين التصورات الذهنية والعمليات العقلية بالممارسة العملية فيصبح الورتيلانـي يمارس وظيفة المثقف المهذب بالسلوك مع وظيفة السلطة في مقام الإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه وظيفة كان يمارسها الشيوخ في القرن الثامن عشر وما بعده، ولا تتأتى له في تونس.

إن الورتيلاني في البنية الأخيرا يجمع بين المرسل والمرسل إليه والذات المنجزة، أي أنه قادر على الإنجاز عارف بطرقه، يتمتع بإرادة قوية ذاتية لا يعيقها معيق لهذا لم يظهر المسـاعدون ولا المعيقون، فهو متفرد في قراره وفي تنفيذه وفي وظيفته، ذلك أن الذات التي تقضي عمرها في طلب المعرفة ليس مثل الذوات التي لا تسعى إليها، والذات نفسها بعـد اكتسابها للمعرفة ليس هي بعد اكتسابها. إنها ذات هذبت واكتسبت الحكمة الناضجة التي تستطيع أن تؤثر في المجتمع وتغير ما يمكن تغييره.

الفصل الثالث

ǯǨ__Ǧ___ـمـ__الــ ةـǾ__Ǳ__ǻ

[illegible]

يـتحدث الدارسـون عـن المكان في الأدب، وهم يعنون بذلك تحويل المكان الواقعي المـتعدد الأبعاد، إلى ما يمكن إدراكه من خلال العلاقات المكانية والزمانية القائمة على اللغة بين الذات الواصفة (أو المؤلف) والحدث الموصوف.[1]

وإذا قدر لنا أن نقرأ وصفين لمكان واحد أحدهما يتم مباشرا بالنظر إلى الشيء وأجزائه وصفاته، وثانيهما يصف الشيء نفسه بالاعتماد على الذاكرة بعد مضي فترة زمانية ما، قد تطول أو تقصر، إذا قرأنا هذين الوصفين سنجد فروقا واسعة، وهذا ما يتجلى في وصف الأمـاكن داخل الرحلات المغربية، إذ نشعر أن بعض الأوصاف أنجزت في الوقت الذي يوجد فيه السارد قرب الشيء، وبعض الأوصاف الأخرى نجدها باهتة الأجزاء والألوان، فندرك أن الذاكرة يمكن أن تكون قد خانت السارد في بعض الصفات والملامح.

وإذا كانت " اللغة غالبا ما تبدو بطبيعتها أكثر اقتدارا على "ترجمة" العلاقات الفضائية من أي نوع من العلاقات..."[2] فإن هذه العلاقات اللغوية قائمة أساسا على الإيهام بالواقع، ولا شك أن لخصائص الكلمة التصويرية دورا في تجسيد المكان وتقريبه للأفهام.

وإذا كـان المكان في السرد التخييلي هو نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، فإنه في الرحلة مكان حقيقي يود السارد أن ينقله بواسطة اللغة إلى من لم يشاهده، ليتخيله، ولهـذا لا يصـبح الوصف المرتبط بالمكان ذا خاصة زخرفية أو تزيينية كما في السرود

---

[1] – بوريس أوسبنسكي، شعرية التأليف، بنية النص الفني وأنماط الشكل التأليفي، تر: سعيد الغانمي وناصر حلاوي، المجلس الأعلى للثقافة، سنة 1999، ص: 69.

[2] – جيرار جنيت، الفضاء الروائي/ مجموعة من المؤلفين، تر عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق/ المغرب، لبنان، ط، سنة 2002م، ص 12-13.

التخيلية، وإنما يصبح هدف الوصف توثيق الشيء كما هو موجود، والاحتفاظ به كمشهد سيصبح أثريا بعد حين.

إن المشار إليه في الرحلات هو عالم الواقع، لذا سنجد القوانين المتحكمة في الوصف هي قوانين الواقع، ويمكن للقراء أن يتحققوا من وجود ذلك في العالم المحسوس.

لذلك لا نتوقع من المكان في الرحلات إلا المرجع، الذي يشكل الخلفية الطبيعية لأحداث فعل السفر، عبر الطريق الممتد من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول ثم العودة، وهذا الخط الأفقي تتعدد مناظره، فهناك منظر للصحراء القاحلة، والواحات الخضراء، والرمال الذهبية، والجبال الشاهقة، والأودية العميقة، والسهول الممتدة، وهناك المدن والقرى، والخيم المترامية. وناس عاديون وعلماء، وخيرون طيبون وأشرار، وقطاع الطرق، وهناك مساجد وقبور، وأسواق وجسور وهذا العالم الحسي يشكل الفضاء الرحب لكل رحلة، وهو خاضع أساسا للعقل الذي يقسم الأشياء إلى عوالم منفصلة، وعوالم متصلة، ولكل منها قوانينها الخاصة المتحكمة فيها، وفي هذا الإطار تصبح الرحلة هي المؤطرا للمكان الروائي، لكون الانتقال من مكان إلى آخر يصاحبه تحول في الشخصية، وهذا ما يجعلها قادرا على التعامل مع الآخرين، أما حين تعيش في أماكن مغلقة معزولة، قد تعيش في عالم من الوهم أشبه ما يكون بالشرنقة، تلك الخيوط الوهمية التي تسقط مع أول تجربة في التواصل مع الآخرين.

فالمكان في الرحلة شبيه بالبناء، يتم بالتدريج مرحلة فمرحلة، وكلما وضع البناء حجرا انتقل إلى غيره ويعرض ساكنا في الآثار و البناءات المعمارية الجميلة، والقبور والأضرحة، ويعرض متحركا كما في المدن والقرى، والطرقات... والسارد يتخذ موقعا قريبا من المكان الذي يجري فيه الحدث، وبذلك تتعدد التقنيات الوصفية وفق إدراكات الرحالين واهتماماتهم.

وعبر التاريخ تغيرت نظرة الناس إلى المكان، فمنهم من يراه سطحا، ومنهم من يراه كرة، ومنهم من يراه اسطوانة مجوفة.[1] ذلك أن التفاعل الإنساني مع المكان نجده من خلال السير عليه، والشعور بإحاطته، وإدراكه اليقيني من أنه هو الذي يضمن مأواه من

---

[1]- أنظر صالح ولعة، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، سنة 1997، ص 12

هنا كانت إشكالية السطح والجوف، والإدراك الشمولي أو الجزئي. ولكون الأحداث تقع على المكان أو فيه، فإنه لا بد من تعاقبها أو تشابكها، وبالتالي يصعب الفصل بين الزمان والمكان، مما دفع بالبعض إلى دراستهما متفاعلين كما فعل باختين (الزمكان)، وإذا كان ذلك في الرواية المتخيلة، فإن الرحلة الواقعية أولى بهذا التصور، ذلك أن المكان في الرحلة يشكل الفضاء الواسع الذي ينشئه الرحالة، بدءا من نقطة الانطلاق إلى نقطة حط الرحال، حتى أن المكان هو الأكثر جاذبية والأقوى إثارا للتطلع نحو الجديد، وهو المشكل لهيكل الرحلة، ومن خلاله نكتشف المألوف والغريب قياسا على بنية الزمن التي تحتاج في إدراكها إلى ثقافة خاصة، وإذا كانت الفنون مقسمة عموما إلى فنون مكانية وأخرى زمنية بموجب التغليب، فإن الأدب عموما فن زمني، والسرد قائم على الأحداث المنتظمة في زمان وقد جرت على مكان أو فيه، وهو الذي يجسدها وينزع عنها صفة التجريد.

ولكون الرحلات حددت اتجاها معينا، يتجلى في البقاع المقدسة غالبا، فإنها بذلك تربط المشاعر والأفكار بعشق المكان فتلهج الألسنة بذكرها قبل الوصول إليها وبعده.

ويستعمل الدارسون للمكان أنواعا من المصطلحات منها:[1]

الفضاء الحكائي، القضاء النصي، الفضاء الواقعي، ورغم اختلافها فإنها متداخلة ذلك أن الفضاء الحكائي يقوم على الفضاء الواقعي بكيفية ما وكلاهما منضو في الفضاء النصي، ولكون الفضاء والمكان لا يوجدان في العمل المسرود إلا من خلال اللغة، فإننا سنكتفي بدراسة المكان كما يتجلى في الرحلات، رغم إدراكنا أن الفضاء أوسع بكثير من المكان، بل إن المكان عنصر من عناصر الفضاء. ولكون الرحلة هي استكشاف للفضاء وما يحويه، فإن المكان عنصر لا يمكن الاستغناء عنه، وهو المعتمد في تحديد اتجاه سيرها، وبالتالي فهو الرابط لشتاتها، والمنشئ لعلاقاتها (حركية الحدث) وهو الذي يصوغ الأحداث التي يعبر عنها الخطاب بمظاهرها المادية والاجتماعية والثقافية، وتبرز الخصائص والألوان مرتبطة بالمكان مما ينشئ علاقات مع السارد يتولى سردها في شكل

---

[1] – حسن نجمي، شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي/بيروت/الدار البيضاء، ط1، سنة2000، ص: 65.

تŢ ـريحاK ذاتية تنبƐ عن الألďة أو النّورƠ وعن الإكبار والاستŢغارƠ وما إلĬ ذلĪ من نبذباK وجدانية تحرĪ سلوكاK الرحالƠ فتدفعƆ لأن يƠŢ عن أحاسيسƆ مدحا أو ذما...

فالمكـان إذا هـو المحďز للشخŢيةƠ وهو الذي يتيƠ للرحال بƠن يطلƴ علĬ ما فيƆ من كـنوز وخďايا وقيم فكرية ƛقافية واجتماعيةƠ وشخŢياK علميةƠ وبقايا الأولين فتنشƋ أهمية الأمكـنة الƛرية الخŢبة والأمكنة الďقيرا و المقďراƠ وتبرز العƚقة بين الأماكن وساكنيهاƠ فحيƛما وŢƘK الأماكن بكونها مريحة وجميلة أو مقďرا لا خير منهاƠ فƎنƆ تنشƋ أحكام حول الإنسان فƎما أن تكون الأماكن في توافƾ فيشملها الوŢف المادƟƠ وإما أن تكون في تنافرƠ فتوŢ ـف بالجودا والسكان بالرداƟƖ. أوالعكƩ... وهذا ما يتجلĬ في ƛنايا الرحƚK بشكل ملمـوƩƠ مƴ الأخذ في الاعتبار بƛباK المكان وتغير السكانƠ في حين تبدو قضايا أخرǎ باهتة كعدم الاهتمام بالمƋكل والمشرب والأشياƟƠ والأƛاƭ.

والسـارد يهـتم بالأمكـنة كخلďـية لƖحـداƭ ومجرياتهاƠ و كمƟƛراKƖ علĬ الأفعال والسلوكاK البشريةƠ وباعتبارها أهدافا استراتيجية ينشد الناƩ الوŢول إليهاƠ أو باعتبارها أماكن تساعد علĬ الďعل الرحلي أو تعيقƆ كالďيافي والقďار.

ومـن الďضـاƟƖK الواسـعة ذلĪ التناƘم بين أركاب الحجيƆƠ حيƭ تتوارǎ كƛير من مطالـب الجسـدƠ وتبـرز سـبحاK الروƟ في الďضاƟ الجغرافي الممتد من عتبة منازل الـوافدين إلـĬ مكـة حيƭ الغاية والمقŢدƠ وإنجاز تلĪ الأفعال الرمزية المطهرا للبدنƠ والشاحنة للروƟ فتتƖلأ أنوارها القدسيةƠ وفي هذا الإطار يسجل السارد بعƉ الشذوذ في المواقـفƠ إذ ليƩ كل الحجاج متنورينƠ وليسوا علĬ وعي بما يďعلون أو يقولونƠ وبذلĪ تŢعد بعƉ الأنغام الناشزاƠ والحركاK الناتئة.

وبقدر ما تتضƠ الرƟية والمقŢدƠ يتďاعل الزائر مƴ فضائƆ فيسبƠ في الƚمرئي بعيداƠ ليƛب علĬ أجنحة المخيلة فيمƛل أمام الحضرا الربانيةƠ فƎذا الأمكنة ŢارK مزويةƠ وعلĬ امـتداداتها الجغـرافية تشبƆ الƚمكان ويŢبƠ الƚمرئي هو المستغرƾ للحدقة والبŢيرا. وبهـذا تمتزج الأكوان في عيون بعƉ الخواƫ من البشرية. فيŢبƠ الďضاƟ هو المادا الحيوية لƖفعال كلها في اليقƊة والمنامƠ وفي الانتماƟ للمنهƆ والتلقي الكشďي.

ينتقل الرحال من مكان لآخر معتمدا على الحواس في نقل ما يراه " والمكان ليس حقيقة مجـردا وإنما يظهر من خلال الأشياء التي تشغل الفراغ أو الحيز، وأسلوب تقديم الأشياء وهو الوصف " [1]

وإذا كانـت الأحـداث لا تكتمل إلا بتتابعها مسرودا فإن دراسة المكان المعتمدا على الوصـف لهـا خاصية أخرى إذ يمكن عزلها كمقطوعات وصفية ذات طبيعة خاصة من حـيث الصـياغة وطرق التقديم وما استعمل فيها من تقنيات. ومن خلال التنقل والحركة يتشكل العالم المحسوس كما يراه الرحال أو كما يجسده في رحلته ومن الطبيعي أن يعكس ذلك منظورا تجاه نحو الأشياء والناس لأن الاهتمامات الشخصية للرحال والغايات المتوخاة مـن الوقـوف عـند أماكن ما، دون أخرى مما يشارك بفاعلية في تجديد أماكن الرحلة وخصوصيتها وتقرأ أخيرا بذلك الاختلاف المنهجي بين استعمال المكان والفضاء.

فالفضاء "الحقيقي فضاء الفيلسوف وامتداده المعرفي يتخذ شكلا وقاعدا في ذهن المفكر ثم يلقي بظله على الواقع الاجتماعي، بل المادي نفسه..." [1]

ورغـم إدراكنا لهذه الفروق فإننا نستعين ببعض المفاهيم الفضائية حين نجدها مناسبة، كمـا نسـتعين بالتقاطبات الثنائية لما لها من طابع إجرائي، حين يكون ذلك أنسب، وقد نكتفي بتوصيف المكان في شكله السردي السطحي، حين يكون ذلك أجدى.

أولاً- في الرحلة العبدرية:

فـي الرحلة العبدرية يتجلى الاحتفاء بالمكان، لكون السارد يهتم بالوصف كثيرا فمنذ الصفحات الأولى يصف بلاد آنسا حين انتقل إليها، وسرعان ما يحدثنا عن تعاقب الأحداث التي أجراها الزمن على المكان، قال: "... حتى صارت رؤيتها قذى في المقلتين، وعادت بعادياتها الزمان أثرا بعد عين فليس بها إلا رسوم حائلة وطلول مائلة." [2]

---

[1] – سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة، لثلاثية نجيب محفوظ، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة العامة للكتاب، ط، س 1984، ص: 76.

[1] - حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط1، سنة1990، ص: 31.

[2]- العبدري، الرحلة، ص: 8.

وحين يقطع صحراء المغرب الشرقية يسجل أثر المكان على ساكنيه فهذا الناس في تلك المفاوز " من أضر بقاع الأرض على المسافرين، لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدهم إذية..." [3]

فبنية المكان تستقطب اهتمام السارد حيثما حل، وهو يمزج في ذلك بين السرد والوصف لتجسيد المكان في ذاته، والإخبار بما جرى فيه من أحداث، وقد يقف واصفا ما آل إليه المكان. وهو ينقلنا من مكان إلى آخر بواسطة [ثم + فعل] كصيغة دافعة للانتقال، وكلما تجدد المكان تجددت الأخبار والمناظر، وسنعرض للمكان في هذه الرحلة كالتالي:

- <u>المدن والقرى:</u> تعتبر <u>المدن</u> عتبات بدخولها ينتهي باب واسع للسرد، يتصدره الوصف الشامل للمدينة، ثم الانتقال إلى سرود داخلية وحين يندمج السارد مع المكان وأهله يطمئن، فيشعر بتلاشي الفروق بينه وبين غيره، مما يجسد الإحساس بكون البلاد الإسلامية كلها واحدا، أما حين لا يندمج فتتصاعد مشاعر النفور وعدم الرضا، وبذلك ينشأ الخطاب الهجائي نحو المكان. فتونس مكان الأنس والراحة، جديرا بالإعجاب والمحبة، ويضفي عليها صفات المدح والإطراء قال: "...مدينة تونس مطمح الآمال، ومصاب كل برق، ومحط الرحال من الغرب والشرق، ملتقى الركاب والفلك، وناظمة فضائل البررين في سلك... كأنها ملك والأرباض لها إكليل..." [1]، ومن خلال المكان ينتقل السارد إلى من يعمر المكان "...وما رأيت لأهلها نظيرا شرقا وغربا، شيما فاضلة وخلالا حميدا، ومعاشرا جميلة، وقد كان الأخلق بمن شاهد أخلاقهم أن يطنب في وصفهم، ويضرب عمن لم يمحضهم الوداد في صفتهم..." [2]

وأما قابس فمحل استهجان هي وساكنوها: "...مدينة قابس ذات المناظر الخبيثة، والمحيا العابس، وخيم هواء، وخيم ولوم طبع، وتضييع المصلين والمساجد...مغانيهم إلى النجوم عالية، ومعانيهم أسفل التخوم هاوية، إلى عتونات تخبو لقربها المصابيح، وتنحو

---

(3) - نفسه، ص: 9.

(1) - المصدر السابق، ص: 39.

(2) – نفسه، الرحلة، ص: 41.



بالحـول كـل وجـه تبيض تسود الأذهان والألوان، وتضرم للمزاج المعتدل نار الحرب العوان..."(3)

يضـفي السـارد على المكان صفة الإعجاب والتقريظ، حين يبهره المكان، أما حين يستهجنه أو يستهجن بعض سلوكات الناس وبخاصة ما يتعلق بالشريعة، فتجده يوجه الشتائم والسباب، بما يبعده عن الاعتدال، وهذا ما فعله في طرابلس قال:"...مدينة طرابلس، وهي للجهـل مقر، وما للعلم بها عرس، أقفرت ظاهرا وباطنا، وذمها الخبير بها سائرا وقاطنا، تلمح لقاصدها لمعان البرق الخلب...اكتنفها البحر والقفر، واستولى عليها من عربان البر وتجـارة البحر النفاق والكفر، وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر، لا ترى بهـا شجرا ولا ثمرا، ولا تخوض في أرجائها حوضا ولا نهرا، ولا تجتلي روضا يحوي نورا ولا زهرا، بل هي أقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمار..." (1)

لـم ينعم السارد مع جو طرابلس وأهلها، ولم يشعر بما شعر به في تونس فتفنن في ذمهـا، تفنـنا واسـعا حتى نفى عن طرابلس كل فضيلة، ويتضح امتزاج وصف المدينة وأهالـيها فـي لحمـة متماسكة، مع إدراج بعض الخطابات السردية كالإخبار عن إفساد الأعـراب بـرا، والتجـارة بحرا، وإحاطة طرابلس بهاتين الفئتين من الناس مما جعل الـنفاق والكفـر سـائدين، وهمـا مـن الصفات المذمومة، كلما فشتا في مكان أفسدتاه.

وهكـذا يصـل العـبدري إلـى هذا التعجب الذي لخص فيه موقفه من أهل تونس، وطـرابلس قـائلا: " فسبحان من جعلهم وأهل تونس في طرفي نقيض أولئك في الأوج، وأولاء في الحضيض..." (2)

هكـذا يـتحدث سـارد العبدرية عن المدن مدحا واستهجانا، ثم يتجاوز هذه العتبات ليخوض غمار البحث عن العلم والعلماء، ويتفقد المزارات، وكل ما يتهمم به من صفات.

أمـا القـرية فلا يقف عندها طويلا، وإنما يراها بمثابة وقفة أو استراحة بعد عناء شـديد، يلتفت إليها ثم يأخذه السير في مواصلة الطريق " ثم مررنا على قرية خولان، ولم

---

(3) - نفسه، ص: 74.

(1) - المصدر السابق، ص: 76-77.

(2) – نفسه، ص: 77.

يعرج عليها من صحبنا إنسان، ولم أر بها ما يتعرف به ببيان، ولا يعمل فيه قلم ولا لسان، سوى أن فناءها رحب المسرح، وبسيطها أبسط من غيره وأشرح، ولكن أيدي الخطوب، قد زوت فنزوى وأتمت أهلها، وهم شرع في الماء الروي." [3]، وتصف القرى لا يتعدى الأبواب للسرود التاريخية والأدبية والفقهية، وإنما أوصاف إخبارية وتكسير لرتابة السرد بالعدول إلى الوقفات البسيطة الممزوجة بالسرد الإخباري.

الآثار والقصور: ومن اهتمامات العبدري الوقوف عند آثار الأقدمين، مما يجسد لنا نوعا آخر من المكان بعد رحيل أهله وتعاقب الأحداث عليه وتغير معالمه مثل قوله في قصر المنار بالقيروان: "... مبني من صخور منحوتة، موضوع على الاستدارة كأنه مخروط من عود، وهو من فرط إتقانه كأنه حجر واحد، وفي أعلاه طوق ناتئ من تلك الصخور على هيئة طنف[1] قد نحت ورققت أطرافه حتى حددت وعرضت من الأصل فتمت لذلك جميلة المنار، وفي أعلى القصر من كل جهة صخور بارزا من البنيان عظيمة، وقد نحتت مستديرا، وحفرت فيها مجار للماء من السطح فصارت ميازيب، متسعة المجاري في غاية الإحكام، وجمال المنظر، وقد دلت آثار تلك البلدان على ضخامة مملكتها في غابر الزمان، على ضد ما هي عليه الآن، فإنها شديدا الإهمال، غير سديدا الأحوال. طامسة المسالك، دامسة كالليل الحالك، عمرانها خراب..."[2]

لقد اقترب السارد من القصر وأخذ يصف أجزاءه بالتدريج، ينقل بصره من أسفل إلى أعلى ويبرز الأجزاء التي تضفي الحسن على القصر، وتدل على إتقان الصنعة وإحكامها.

والوصف ساكن لا حراك فيه عمرانه خراب، مسالكه دامسة ولياليه حالك، ولكون الآثار تدل على بنائها فقد استحضر السارد عن طريق هذا القصر عظمة الدول التي أنشأته وملكته، وعن طريق المقابلة بين تلك العظمة نقل المنظر الذي آل إليه الأمر الآن، وهذا ما يتناسب، وسارد الرحلة العبدرية الذي يستنطق الآثار ويقف أمامها لاستخلاص العبر.

---

(3) – نفسه، ص: 37.

(1) – طنف: الطنف: السقيفة تبنى فوق باب الدار للوقاية من المطر...ما أشرف خارجا عن البناء، ج أطناف وطنوف. [م الوسيط]

(2) – العبدري، الرحلة، ص: 82.

ومن هذه الآثار ما كان يجده على الساحل الليبي في بلاد برقة منها: " ورأيت ما بين جرسون ومراوا آكاما عليها دائرا بديار منحوتة، منها في حجر صلد من أبدع العمل وأغرب الإتقان عجيبة محكمة جدا، ودخلت منها واحدا بإزاء الطريق فوجدتها على نعت دار متقنة، وعن يمين مدخلها حجرا عجيبة للطبخ وعن يساره حجرا أخرى للرحض[3] والتطهير، في مقابلة الداخل بيت كبير مليح جدا، منقوش على أحسن صفة تكون عليها البيوت المبنية، وتلك الآكام كلها منحوتة ديار على تلك الصفة." [4]

اعتمد السارد في هذا الوصف لأجزاء المنزل على العين، ومن مسافة قريبة يتحرك من نقطة إلى أخرى، لينقل لنا بواسطة اللغة هذا القصر المنحوت، المكون من عدة غرف ولعله أول مرة يبين وظائف الغرف فذكر الطبخ والتطهير، كما يضفي على المكان صفات تقييمية "عجيبة"، "مليحة" على أحسن صفة، وهذا التقييم التمجيدي، ينم عن الانبهار، وهكذا أبدى السارد منظارا هندسيا استدرج فيه الوصف استدراجا في حركة بطيئة، ولم يخف الإحساس بالإعجاب، فهو انتقال من الكلي إلى الجزئي، ومن الوصف الموضوعي إلى الذاتي. ثم ربط الوحدة (البيت) بالمنظار العام ليقول كل الآكام على تلك الصفة من التخطيط والتزيين والإحكام.

فالسارد في الرحلة العبدرية يهتم بآثار الأولين، ويولع بها وبتفاصيلها المعمارية ونشعر باندهاشه أمامها لذلك لا يخلو وصف من الإعجاب والغرابة، إذ يصور الشكل المعماري بدقة، فيصبح ذلك الأثر المنتمي إلى الواقع مجسدا في الخطاب ويأخذنا الإعجاب والاندهاش كما اندهش السارد/المؤلف على زمانه.

ولعل أكبر أثر أعجب به العبدري ما سماه قصر الجم، قصر الكاهنة، قال: " وعلى الطريق التي سلكناها قصر لجم وهو قصر الكاهنة، وما وقع بصري في كل ما رأيت على بنية أعجب ولا أغرب منه، وهو مما لا يمكن تصوره بالوصف، ولا تغني في تصوره عن المشاهدة لغرابته، ومختصر وصفه أنه" قصر مستدير متسع عال جدا من صخور منحوتة كبار محكمة الوضع والرصف حتى كأنه حجر واحد وقد فتحت في أعلاه

---

[3]- الرحض: رحض الثوب رحضا: غسله فهو راحض، مرحوض، رحيض..(م الوسيط).

[4] – العبدري، الرحلة، ص: 235.

أبـواب مـҬوفة محيطة بـЖ وعلـϰ تـلك الأبواب أبواب أخرى مـثلها دائرا بالقـҬر أيضا، ويـظهر ما فوق الأبواب من بعد كـأنه قـҬر واقف في الهوى[كذا] وأن تـلك الأبواب لمكان اختراق الرياح احتياطا علـϰ القـҬر من عاديتها لإفراط علوه ويمكن أن تكون لغير ذلك.

وبناء داخل القـҬر أعجب فـإنه لو جعل دورا وحدا لم يكن فيه كبير منتزه، وإن اتسع في السـاحة علـϰ وضـع واحد، ضاقت وحجبت عنها الشمس، فجعل البناء فيه مدرجا كلما طلعت نقـص منه دور حتـϰ ارتفع البناء إلـϰ حد لا يحجب فيه بعضه الشمس علـϰ بعض، حتـϰ يضر بها دوام الظل عليها وҬارت السقوف المدرجة من جملة الساحة يرتفق بها إذ لم يبق من الساحة غير مبني إلا دائرا ضيقة..."[1].

لقد اعتمد علـϰ البҬر في الوҬف إلا أن الإحساس بالإعجاب والغرابة مازجت الوҬـف مـنذ البداية، ثم يأتي التعليل لما يرى، فـدمجت النظرا الموضوعية مع الذاتية، بـبذل مـا استطاع ليجاب اهتمام القارئ، ويثير فيه الاندهاش من هذا البناء، ولكنه يشعر بالتقҬـير فـي التعبير عن الغرابة فيقول: " ولا غنـϰ في تҬوره عن المشاهدا لغرابته "

فالوظـيفة هـي أسرا القارئ وجعله يحتار كما احتار العبدري، زيادا علـϰ رҬف هذه الكلمـات كمـا رҬت تلك اللبنات حتـϰ جاء القҬر- مكتمل- جميلا، وهذا الوҬف لا يهتم كثيرا بالتفاҬيل الجزئية، وإنما يريد أن يقرب الҬورا المعمارية لقҬر الجم كمنظر عام، والرؤية من مكان ما ممتدا نحو القҬر، ولم ينتقل من نقطة إلـϰ أخرى.

فالرؤية البҬرية قد رسمت Ҭورا غريبة أيضا الرؤية القلبية فالتمست معنـϰ معقولا وتفسـيرا مقبولا، ويبدو أن السارد لا يريد أن يزيل الغرابة عن المعاني، وأراد أن يبقيها غريبة كما الآثار البҬرية غريبة.وبعد أن أدرك خارج الموضوع أراد أن يدرك عمقه[1]، ولما لم يستطع قراءة السر المكنون نبه إلـϰ ذلك.

<u>الأمـاكـن الـمـقـدسـة:</u>

<u>المسـاجد:</u> ذكر السارد المسجد كعنҬر في كل مدينة وҬفها، وزيادا علـϰ ذلك فـإنه خҬ ـص المسـاجد ذات الشـهرا بوҬاف مستفيضة كجامع الزيتونة، قال عنه: " وهذا

---

[1] – العبدري، الرحلة، ص: 237-238.

[1] –Ҭلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المҬرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، سنة1996، ص 399-400.

الجامع من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقا ودائره مسقف، ووسطه فضاء قد نصب فيه أعمدا من خشب على قدر ارتفاع الجدر، وشدت إليها حبال متينة، في حلق من حديد مثبتة فيها، وفي السقوف شدا محكما، فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء، وذلك أدبهم فيها حتى ينصرف فصل الصيف." [2]

إن السارد/ المؤلف اهتم بالجانب الهندسي، ولكن ما لفت انتباهه أكثر هي المظاهر الكتانية التي يظللون بها فضاء ساحة الجامع، فأفاض في وصفها، ولم يتحدث عن المصلين، لأن سارد الرحلة العبدرية حين يصف العلم يلتزم بالموضوعية من جهة، ومن جهة أخرى فإن تونس في هذه الرحلة نموذج العلم والعلماء والمعاملة الحسنة، ونموذج الدين والدنيا، وما تفننهم بالمظاهر الصيفية إلا دليل عنايتهم بعمر المساجد على خلاف ما رآه في الحجاز إذ قال: " ورأيت بمسجد الخيف-طهره الله- من قلة تحفظهم وكثرة تهاونهم، ما يتغير له قلب كل مؤمن، ورأيت في داخله العذرة وأنواعها من الكناسات والأقذار، ورؤوسا مطروحة وجزارات أنتن بها المسجد، وهم يوقدون فيه النار حتى اسودت حيطانه، وصار كالمطبخة فسبحان من قضى بما شاء، وهو الفاعل لما يريد." [1]
فالسارد يصف المظاهر الحسنة، ويشيد بها، ويقف عند المظاهر المشينة فيستهجنها... ولقد وقف عند الحرمين وأمام الصخرا في المسجد الأقصى بإعجاب شديد[2]، هذه القبة التي حركت ملكة السارد/ المؤلف فأنشأ فقرا وصفية بديعة.

القبور: ويهتم السارد بقبور المشهورين من الناس في حياتهم فيزور ها، ومن ذلك تربة الإمام الشافعي بالقرافة، قال: "... وهي أشهر من أن تخفى، وأظهر من أن تغفل أو تنسى، عليها رباط كبير، ومحل أثير، وفيها جراية تزيدها اشتهارا، وعناية تلحظها مبرا وإيثارا، وعليها قبة عجيبة مشهورا معدودا في المباني المتقنة مذكورا، مفرطة الاتساع

---

[2] - العبدري، الرحلة، ص: 40.

[1] - المصدر السابق، ص: 177.

[2] – الرحلة على التوالي: المسجد الحرام:174... المسجد النبوي ص: 204، المسجد الأقصى ص: 230.

والارتفاع وغريبة الإحكام والإبداع، ذرعتها من داخلها فوجدت سعتها أزيد من ثمانين ذرعا وفيها من العدد والأسباب والآلات ما يعجز عن الوصف..."[3]

والسارد يقف على ما أقامه الناس من بنيان على قبرهم و تفننوا فيه تفننا فاق تفننهم في منازل الأحياء، إلا أن الواصف اكتفى بالنعوت العامة ثم ذكر الأبعاد الهندسية ليقرب لنا المكان، ومثل هذا المشهد كثير وبخاصة في القرافة بمصر.

ولما زار الشام وقف عند كل المزارات التي بلغها، ومن ذلك قبور مسجد الخليل قال:"... وفي داخل المسجد قبر الخليل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وتقابلها من ناحية يسار القبلة ثلاثة أخرى، وهي قبور أزواجهم، وكان في غربي المسجد قبر يوسف عليه السلام، دفن هنالك حين نقل من مصر بوصيته، والآن قد زيد في المسجد حتى رجع قبره في داخله، وعلى يمين المنبر لاصقا بجدار القبلة نفق يهبط منه على درج من رخام متقنة العمل إلى مسلك ضيق، هو ممر إنسان واحد ويفضي إلى فسحة ليست بكبيرة مفروشة بالرخام، وفيها صور ثلاثة قبور."[1]

هذا الاهتمام بقبور الأولياء ومقبرة القرافة، وبقبور الحجاز والشام، يشكل نسبة عالية من سرد الرحلة بالقياس إلى بعض الرحلات الأخرى، بل إن السارد قد يذهب مذهب التحقيق ليؤكد صحة انتساب هذه القبور إلى ذويها، كما فعل مع قبر إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة[2]. إننا أمام ظاهرة الاحتفاء بالقبور من حاجة إلى الشام، مما يعني أن المسلمين صاروا يهتمون بالأموات أكثر من الأحياء.

المزارات: يبحث السارد عن العلماء الأحياء فيسمع منهم، ويبحث عن الأموات فيستحضر أعمالهم الجليلة فيكبرهم، ومن خلال ذلك يحدث نوع من التواصل اللامرئي عبر الزمن الممتد، فإذا الأحياء والأموات في مجلس روحاني عطر.

ففي مصر يقف عند مزارات كثيرة منها "...روضة السيدة الشريفة الطاهرة ذات الفضائل الظاهرة والكرامات المتظاهرة نفيسة بنت علي بن أبي طالب..." [3] فيتحرك لديه

---

(3) - العبدري، الرحلة، ص: 152.

(1) - المصدر السابق، ص: 222.

(2) - نفسه، ص: 223.

(3) - نفسه، ص: 152.

السارد/المؤلف الشعور الخفي الكامن في النفوس المائل في حب آل البيت وحب مزارهم، فيتخذ هذا الاهتمام بمزارا السيدا نفيسة وأمثالها دليل على أن الدولة التركية الحاكمة لمصر آنئذ تجل آل البيت فيتوافق ذلك مع العبدري فيبدي استحسانا ويشيد بمواقف الأتراك في خدمة الإسلام ولعله من الأفضل أن نتجاوز زياراته المختلفة، ونقف معه قليلا عند روضة سيدنا محمد [صلى الله عليه وسلم].

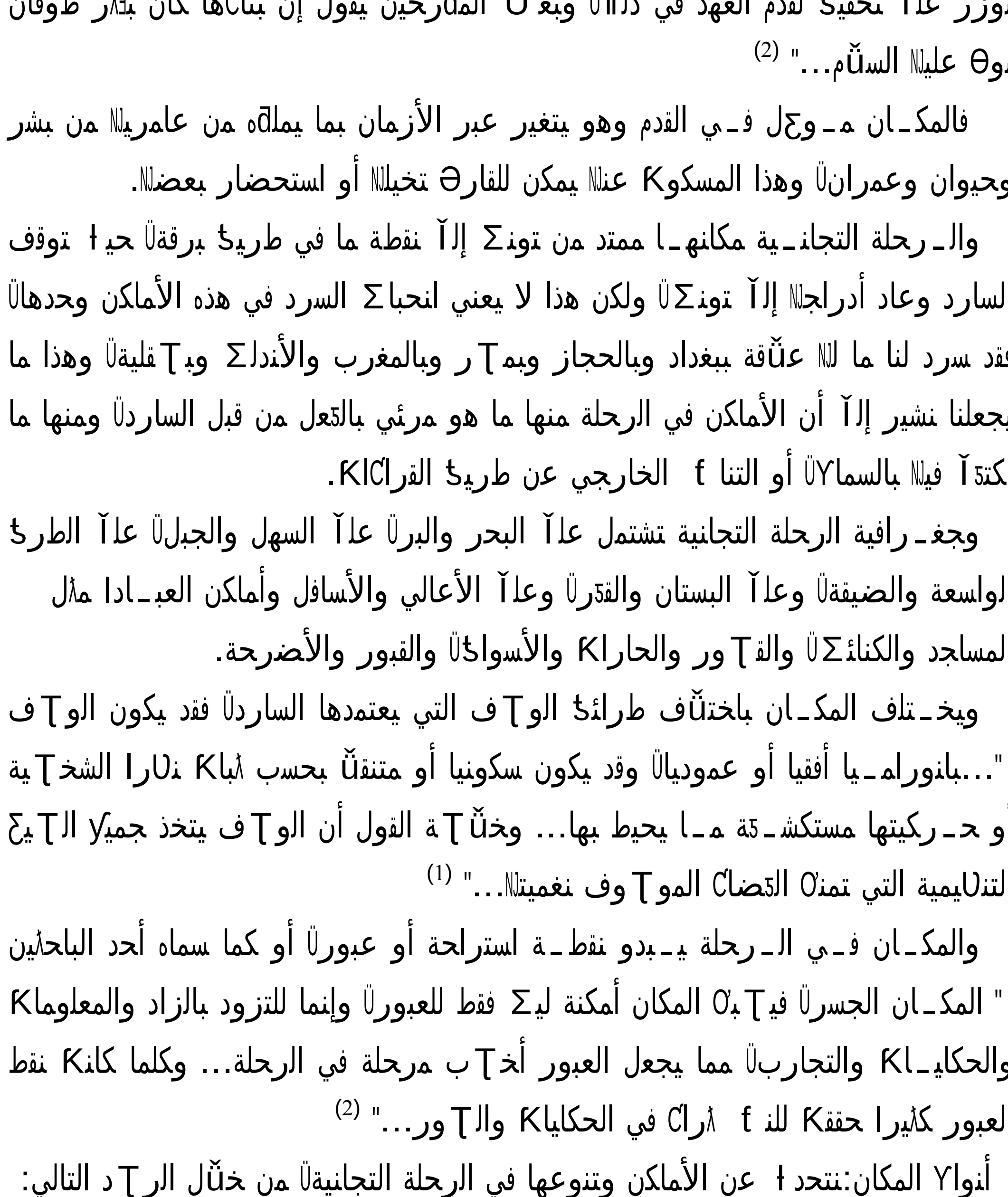
<u>الروضة المقدسة</u>، قال: " وأما الروضة المقدسة – زادها الله شرفا و جلالة – فهي في داخل المسجد عند الجدار الشرقي قريبا من الركن الذي على يسار المحراب وبينها وبين الركن الذي في الأول، وبينها وبين الجدار الشرقي ممر ضيق... وهي شرفها الله معمولة بالرخام الأبيض من الأساس إلى سقف المسجد، بأتقن ما يكون من الصنعة، وأعجبه وهي موضوعة على شكل التربيع ولكن ربعها الشمالي ينحو نحو الاستدارا، وفيه أركان وبعض انخراط إلى الجهة الشرقية، وفي ركنها الواصل بين الجدار الغربي والجنوبي صندوق مليح من خشب مبني في الحائط بإزاء رأس النبي [صلى الله عليه وسلم]، وعلى يمينه ذلك وأنت مستقبله علم بإزاء رأس أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم آخر بإزاء رأس عمر رضي الله عنه...."[1] إنه وصف فوتوغرافي قريب من الرسم الهندسي يحدد المعالم والأشكال، ولا يستنطقها، ورغم عظمة الموقف لدى المسلمين فإن السارد يقدم هذه الوصف بحياد تام، ليس فيه تأمل ولا استشعار بحزن أو اضطراب وجد، ولا تواجد أو تحازن، ولعل ذلك جاء نتيجة للوضع الذي كان عليه العبدري من العجلة والاضطراب.

<u>ثانيا- *في الرحلة التجانية:*</u>

حين نقرأ الرحلة التجانية ونقف عند مكان ما حسب ما يحدثنا عنه السارد، نجد أنفسنا أمام فضاء واسع تتراكم فيه الأمكنة مع أزمنتها، يحدثنا السارد عن زمن الرومان والفتوح الإسلامية، والوقائع التاريخية المتتابعة، ويحدثنا عن الأحياء والأموات مما يجعل الوقفة المكانية ذات بعد زمني بعيد، حتى إنه لا يدرك لها بدء ولا نهاية " وليس يوقف لوقت بناء

---

[1] - التجاني، الرحلة، 205.



توزر على تحقيق لقدم العهد في ذلك، وبعض المؤرخين يقول إن بناءها كان بعد مرور طوفان نوح عليه السلام..." [2]

فالمكان موغل في القدم وهو يتغير عبر الأزمان بما يملؤه من عامريه من بشر وحيوان وعمران، وهذا المسكوت عنه يمكن للقارئ تخيله أو استحضار بعضه.

والرحلة التجانية مكانها ممتد من تونس إلى نقطة ما في طريق برقة، حيث توقف السارد وعاد أدراجه إلى تونس، ولكن هذا لا يعني انحباس السرد في هذه الأماكن وحدها، فقد سرد لنا ما له علاقة ببغداد وبالحجاز وبمصر وبالمغرب والأندلس وبصقلية، وهذا ما يجعلنا نشير إلى أن الأماكن في الرحلة منها ما هو مرئي بالفعل من قبل السارد، ومنها ما اكتفى فيه بالسماع، أو التناص الخارجي عن طريق القراءات.

وجغرافية الرحلة التجانية تشتمل على البحر والبر، على السهل والجبل، على الطرق الواسعة والضيقة، وعلى البستان والقفر، وعلى الأعالي والأسافل وأماكن العبادة مثل المساجد والكنائس، والقصور والحارات والأسواق، والقبور والأضرحة.

ويختلف المكان باختلاف طرائق الوصف التي يعتمدها السارد، فقد يكون الوصف "...بانوراميا أفقيا أو عموديا، وقد يكون سكونيا أو متنقلا بحسب ثبات نظرة الشخصية أو حركيتها مستكشفة ما يحيط بها... وخلاصة القول أن الوصف يتخذ جميع الصيغ التنظيمية التي تمنح الفضاءات الموصوفة نغميته..." [1]

والمكان في الرحلة يبدو نقطة استراحة أو عبور، أو كما سماه أحد الباحثين " المكان الجسر، فيصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور، وإنما للتزود بالزاد والمعلومات والحكايات والتجارب، مما يجعل العبور أخصب مرحلة في الرحلة... وكلما كانت نقاط العبور كثيرة حققت للنص ثراء في الحكايات والصور..." [2]

أنواع المكان: نتحدث عن الأماكن وتنوعها في الرحلة التجانية، من خلال الرصد التالي:

---

[2] - نفسه، ص: 161.

[1] – مجموعة المؤلفين، الفضاء الروائي، تر: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب/ لبنان، ط، سنة 2002م، ص: 32.

[2] - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص: 221.

المدخل: يتخذ وصف المدن شكلا يكاد يكون ثابتا، فالسارد يصف المدينة وصفا مباشرا كما يراها في حينها، وغالبا ما يأتي وصفه بانو راميا أولا، ثم استقصائيا في بعض الأجزاء، ثم يستدعي التاريخ ثانيا لاستكمال الصورة الوصفية عن طريق الخبر أو الشعر، أو غير ذلك، إلا أن هذا الترتيب غير مطرد باستمرار. لما وصل الرحالة إلى سوسة، قال: " وسوسة مدينة كبيرا على سفح جبل عال، وعليها سور منيع من الصخر ينتهي البحر إليه ، وبها آثار الأول، وإليها تنتسب الثياب الرفيعة السوسية..." [3]

فهذا الوصف أشبه ما يكون بالمنظار العام الذي يصور من بعد أو من عل، لولا أنه يضيف إليه هذه العلامة التجارية المميزا لسوسة " الثياب الرفيعة السوسية..." ثم يستعين الواصف ببعض الأجزاء المساعدا في تكوين الصورا الواضحة في ذهن القارئ.

قال: " وبها جامع للخطبة حسن..." وكأن هذا العنصر من مستلزمات المدن، ثم يتخلى السارد عن الرؤية الشاملة، فيدخل إلى المسجد ويقول:"وبصحن جامعها المذكور بيت قد كتب فيه بخط قديم نقشا في الحجر"القرآن كلام الله ليس بمخلوق" وكتب ذلك في عمد الجامع"[1]، وهذا ما يجسد فترا من تاريخ الصراع الأفكار بين المعتزلة وأهل السنة، وقد ذهب ضحيتها ناس كثيرون، وتعرف بقضية "خلق القرآن" ثم أراد أن يجسد لنا خصائص أهل سوسة وتمنعهم على العتاا المتمردين عبر الأزمان،فيحكي أخبارهم ثم يدعمها بأبيات:

مدينة سوسة بالغرب ثغر — تدين له المدائن والثغور
لقد لعن الذين بغوا عليها — كما لعنت قريظة والنضير
أتاها الخارجون ليملكوها — فكان من الإله لها نصير [2]

والسارد لا يتردد في تقديم مرجعيته النصية فهو يستعين بمن تعرض للمكان الذي يقف عنده، وهكذا يصبح المكان الرحلي مشيدا فوق أماكن أخرى، كانت قد شيدت قبل شعرا أو نثرا من قبل رحالين، أو ممن كانوا مقيمين فيه، أو عابرين معجبين...

---

[3] - التجاني، الرحلة، ص: 25-26.

[1] - المصدر السابق ، ص: 26.

[2] - نفسه، ص: 28.

إن الخطـاب بهـذا يتحول إلى ملتقى الخطابات، والسارد يبدع العلاقة بينها فإذا هي مـتآزرة لخدمـة قصدية السارد في تجسيد المكان والإشادة بخصائصه المدحية، إن كان مأنوسا به، أو بخصائصه المستهجنة إن كان منفورا منه.

إن تعاقب النصوص الوصفية لمكان ما، ظاهرة شائعة في الرحلة المغربية وفي عامة النصوص السردية التي تسلك سبيلا واحدا، وقد تتحاور هذه الأمكنة فيما بينها، وقد يكتفي السـارد بما شيده غيره فيوظفه في رحلته ليؤدي الغرض نفسه، ومن ذلك وصفه لجزيرة جربة حيث اعتمد على الوصف الجغرافي بذكر القياسات المختلفة، قال" وجزيرة جربة من أعلـام الجزائر خطرا وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكرا، وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلا... وأما عرضها فمختلف، فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلا، وهو الطرف الواسع، ومن هذا الموضع إلى جزيرة قرقرنة في البحر ستون ميلا وعرض الرأس الشرقي منها خمسة عشر ميلا، وهو أضيق مكان بها..." (3)

فهـذا تعـريف بالمكان جغرافيا وتحديد لأبعاده من حيث الطول والعرض، مما يضفي علـيه شـكلا هندسـيا مـا، ثم وصف أرض جربة وخيراتها قائلا: "وهي أرض كريمة المـزارع، عذبة المشارب، وأكثر شجرها النخيل والزيتون، والعنب والتين، وبها أصناف كثيـرة مـن الفواكه... وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض... صفة، وجفافا، وطيب مذاق وعطارة استنشاق، ورائحته توجد من المسافة المديدة والأميال العديدة..." (1)

والواصـف هنا سرد أنواع الفاكهة سردا، وميز التفاح تمييزا مستعينا بحواسه المختلفة (نظـر= صـفة، اللمس= جفافا، الذوق= طيب مذاق، الشم= عطارة استنشاق...) وهكذا نجـده يفصل بعد الإجمال. ثم يصف مساكن الأهالي قائلا: "وأكثر مساكن أهلها أخصاص بالنخيل يجعل كل واحد منهم في أرضه واحدة أو اثنين أو أكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله، وليس بها بناء قائم إلا دور قليلة..." (2)

(3) - نفسه، ص: 121-122.

(1)- نفسه، ص: 122.

(2)- نفسه، ص: 122-123.

وهـذا وصـف إخباري أكثر منه تجسيدا أو تجسيما، ذلك أن الوصف في الرحلة قد يصبح " ظاهرا حكائية موازية للمسرود...". [3]

فالوصف بشكلية " المباشرة والتاريخي " يؤدي وظيفة أدبية بما يستشهد به السارد من أشعار تستكمل النقص في الوصف أو تدعم القول وتؤكده، إضافة إلى جعل الوصف في خدمة السرد حيث يمتزجان لدفع الرحلة نحو غاياتها وتوفير العناصر الأدبية المشوقة لها، وقد يطعم السارد وصفه بالأبعاد الهندسية، وقد يكتفي بإيراد أوصاف ذات دلالات تحفيزية من أخبار، وتواريخ، وتصنيفات وترميم وغيرها...

القرى: وفي مقابل المدينة يقف السارد عند كثير من القرى التي يمر بها الموكب، وقد يشير إليها إشارات منثورا كقوله واصفا قرية طرا: " فرأيت بلدا به اسم، وقرية به معنى، وهي محفوفة بالنخيل، وبها التمر المفضل على جميع البلاد، وليس فيها ما ينظر إليه على الجملة غير العين المعروفة بعين طره..." [4]

إن السـارد لـم يـنجذب نحو هذه القرية ولم يعجب بها رغم توفرها على عنصرين هامين: الماء والنخيل، والملاحظ أنه اعتمد في التعبير على النفي " به اسم، به معنى" أي أنـه يلمح أنها قرية لم ينف عنها ما يتصوره القارئ من معاني القرى المتمثل في النشاط والحركة، وليس فيها ما ينظر إليه من عمران ونشاط.

وبالمقابـل قد يشيد ببعض القرى كقوله: "...قرية أجاس، وهي قرية ضخمة ذات مبان كثيـرة، ولهـا غابـة متسـعة، وبها عين حرارا غير أنها مستوبلة، وأخبرني أهلها أنهم احتفروا في هذا الوقت بئرا عذبة الماء سالمة من الوباء، فهم الآن يشربون منها، ويسقون من تلك العين بهائمهم وزرعهم ورأيت بها مسجدا..." [1]

فالسـارد يقدم لنا هذه القرية بشيء من الرضا " ذات مبان كثيرا " وهذا الذي جعلها ضخمة، إذ القرى الأخرى حقيرا لكونها لا تشتمل على المباني الضخمة.

---

[3] - عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، ص: 45.

[4]- التجاني، الرحلة، ص: 142.

[1]- المصدر السابق، ص: 181.



والسارد يصف الأشياء المجزأة واحدة تلو الأخرى بشكل تتابعي منفصل رغم اتصالها فالإشارات متشذرة غير متلاحمة، فكأنه وصف تجميعي.

<u>القصور:</u> ومعناها القرى الحصينة التي يمكن أن تشتمل على برج أو أبراج للحراسة، والاختباء أثناء الغارات، ويعني التجمع السكاني المتجانس، وقد يصف السارد بعض القصور وصفا سريعا كقوله: "وحاذانا على بعد ساحل البحر، القصر المعروف بقصر زياد، وهو قصر حصين، وفي أهله نجدة موصوفة وشجاعة معروفة، قال اللبيدي في أخبار الشيخ أبي إسحاق الجبنياني نفعنا الله به: وكان قصر زياد يسمى دار مال لكثرة من به من أهل العلم في ذلك الزمان." (2)

فالسارد كما نرى لم يصف القصر بقدر ما وصف أهله، ليدل من خلالهم على عظمة القصر من حيث الحصانة، لكونهم شجعانا، ومن حيث التحضر والثقافة لكون أهله علماء، ولما رأى أن وصفه فيه نقص دعمه بشهادة من راو آخر وهو "اللبيدي" وحتى القصور الشهيرة لا يسترسل في وصفها فهو يقول عن قصور العبيد يين بالمهدية: " وأخذ عبيد الله في بناء قصوره بها فبنى قصره الكبير المعروف به الذي كانت به طيقان الذهب، وبنى أبو القاسم ابنه قصره المعروف به أيضا، وبينهما فسحة..." (1)

فهذا الوصف إخباري عن وجود قصور وليس وصفا لها إلا ما كان من هذه الإشارة المنقطعة " كانت به طيقان من ذهب " ولم يشر السارد إلى مصدر خبره أهو الرؤية أم السماع، ونحن أمام قصر بمعنى الإقامة الضخمة للملوك والوزراء، وبعض الأثرياء بخلاف المفهوم المتداول، والمستعمل إلى الآن في الجنوب الجزائري.

<u>الحصون والقلاع:</u> من الحصون التي وصفها السارد/الرحالة، حصن تليل "... وهو حصن في رأس تل مشرف على البحر، وتحف بالقصر في سند التل دور كثيرة معمورة، وما تحت التل سواني ومزارع، وليس هنالك شجرة واحدة، وإنما معتمدهم في سكناهم بذلك القصر على ما يزدرع عونه بتلك السواني، وبها آبار معينة، إلا أن ماءها شريب

---

(2) - نفسه، ص: 67.

(1) - المصدر السابق، ص: 323.

وليس العذب منها إلا ما بين التل والبحر، وأهله برابر نكارة موصوفون بخبث وشر".[2]

هاهو السارد يقف بعيدا ليرسم لنا المنظر الشامل، ثم يغير موقعه ليدخل إلى المكان فيخبرنا عن الآبار، ثم يذوقها فيخبرنا أنها غير عذبة إلا بعضا منها، ثم يغير موقعه ليخبر عن الأهالي بكونهم موصوفين بخبث وشر، ولا ندري أهذا الحكم عن دراية أم عن موقف سماعي تراكم نتيجة كراهية المذهب "الخارجي" وعلى كل حال لا تتضح صورة المكان إلا بصورة أهله، إلا أن مظاهر الاندماج مع السكان منعدمة، فكأنه ومن معه محجوبون عن الناس فلا يخبرنا عنهم إلا بصيغ الأخبار المتداولة (أخبرني، وقال).

ومن اهتمامات السارد ذكر القلاع المتعددة كقوله: " ومسافة غمراسن تحتوي على قلاع كثيرا أشهرها قلعة نفيس بكسر النون وتشديد الفاء، وقلعة حمدون، وكان منزلنا في فضاء متسع بين هاتين القلعتين، وقلعة نفيس أحصنهما، وإليها يلجأ جميع أهل البلاد إذا حل بهم عدوا أو وصل إليهم جيش، وهو جبل مرتفع في السماء قد سهلت فيه طرق ضيقة لا يسلكها السالك إلا على غرر، وقد تدرب أهلها على سلوكها فهم يتنازون فيها تنازي العصم، وكذلك غنمهم وإبلهم، فيسلك البعير منها مسالك لا يستطيع الآدمي سلوكها إلا بالحيلة، وتصعد تلك الطرقات إلى بيوت منحوتة في الجبل بعضها فوق بعض من وسط الجبل إلى أعلاه، يسمونها "الغيران" وأكثر جهاته عامرا... والنسور كثيرا ما تأوي إليه وتجتمع فتصاف عليه، وتحف بهذا الجبل مزارع فيها نخل كثير لا يرى أحسن من رطبه، وبها آبار ليست بالكثيرا يستقون منها بالغرافيز، وأكثر مزارعهم الذرا التي يسمونها القصب..." [1]

وهذا من أتم الأوصاف في الرحلة التجانية لاشتماله على الجانب المعجمي المحدد للمنظور بدقة، ثم وصف الموقع والجبل والطرقات والبيوت المنحوتة، ثم حركة السكان في الجهات كلها، والتفات إلى وجود النسور بكثرا في المنطقة، ولا نعتقد أن وجودها رامز. كما ذكر بعدد المزارع والمياه، وأنواع المزروعات وبخاصة الذرا، ثم سجل اللغة المتداولة لها وهي القصب. فالنص ثري جدا ومجسد للموصوف غاية التجسيد، فإذا أضفنا

---

(2) - نفسه: ص 211.

(1) - المصدر السابق: ص 185- 186.

إليه قوله: "...وقوا اعتمادهم في ري الأرض إنما هو على ما ينحدر من سيول تلك الجبال في وقت الأمطار فإنها تجتمع في أبطح ذي حصباء متناسبة وتربة بيضاء كافورية تحدث بمزارعهم أحداث السور أو السواري وتخترقها مذانب متسربة إليها منه وليس في تلك البقاع ما يرتاح إليه الخاطر سوى هذا الأبطح..." [2] لقد اكتمل هذا المنظر في بعده الجغرافي والجيولوجي والبشري والاجتماعي ورغم هذه القطعة الجميلة النثرية الأثرية فإن السارد يختمها بما ينفر من المكان " فليس في تلك البقاع ما يرتاح إليه الخاطر..." ولا ندري ألكون السارد قد ألف المدن ويفضلها على القرى والأرياف أم أنه اتخذ موقفا من السكان لكونهم بربرا وخوارج. فالوصف هنا موسوم بالاستقصاء وإدماج الطبيعة بمحتوياتها مع ساكنيها في حيوية ونشاط دائب وحركة غريبة. وفي الأخير ختم المشهد بانطباعية ذاتية قد تمحو الصورة الجميلة المرتسمة في ذهن القارئ.

وهذه التعليقات الذاتية تضيء من جانبها شخصية السارد في مواقفها الإيديولوجية الذاتية.

الزوايا: من الأماكن التي ذكرها السارد "الزوايا" وقد أحسن تقديمها والتعريف بها قال: " ثم اجتزنا على زاوية تعرف بزاوية أولاد سهيل... **وهي رابطة حصينة** يحف بها شجر كثير من التين والرمان والخوخ... ولها أرض متسعة تعرف بالسابرية... وأولاد سهيل قوم من العمور..." [1] ثم عرف بمنشئها قائلا: "...وسهيل صاحب هذه الزاوية رجل كان يعرف بفتى عيسى يذكر عنه صلاح واعتناء بإضافة من كان يرد عليه... أبناؤه... سكنوا تلك الزاوية رحمة للمجتازين بهم فإنهم يرفدونهم بما يحتاجون إليه من زاد وغيره ويرجعون إليهم ما استلبتهم العرب..." [2]

ثم تحدث عن استقبالهم من قبل سكان الزاوية: " ولما نزلنا بمقربة من هذه الزاوية وصل إلينا أهلها راغبين في الوصول إلى موضعهم والتحرم بطعامهم فسرنا مع مخدومنا إليهم فصعدونا إليهم فوجدناهم قد شحنوها بالعدد المنمنمة على نحو التحبيس عليها

(2) - نفسه، ص: 185- 186.

(1) - المصدر السابق، ص: 212.

(2) - نفسه، ص: 213.

ورأيـ Ķ هناﷲ كتبا كثيرا محبسةǓ وزرنا بداخلها قبر الشيϙ أبي عيسϠ رحمﷲ ا Ǔ ثم أتوا بطعام محتƱل فطعمنا وانتشرنا..." [3]

هـنا يϮ ـبƠ المكان شبﷲ مقدΣǓ بما يقدمﷲ من خدماĶ لأبناĈ السبيل "المجتازين" وبما يحبΣ عليﷲ من أشياĈ كالكتبǓ ولعلها قد تطورĶ لتƌدϠ أدوارا تنويرية أخرă.

فـي هذا التقديم للمكان لا يعتمد الوϮف وحدهǓ وإنما السرد أيضا لكونﷲ يضيĈ جانبا مـن الموϮ ـوف وهكـذا تتعانϟ النشاƱ مع الوƲائف لتجسيد المكان وƹاياتﷲǓ ووƲيفتﷲǓ الاجتماعيةǓ والدينية.

ومن الزوايا المذكورا زاوية أولاد سنان... وهي راجعة إلϠ حكم عبد ا بن دلƢاب... بـ ن جاريـ ةǓ الشـ ديد القسـ وا المشهور هو وبنوه بربط البربر وتعذيبهم بالنار وƹيرها لاستخراج أموالهم منهم..." [4]

والغريب أن المكانين مشتركان في اسم "الزاوية" مختلƱان في الوƲائف فمƌΣس الزاوية الأولـ ϠǓ يذكـ ر عنﷲ الϮ ƟǗ والكرم... ومƌΣس هذه الزاوية شديد القسواǓ ومن وƲائف الـ زاوية الأولـ ϠǓ إعانة المجتازين وحƱƲ الكتب وإƹاƛة المحتاج ورد الأموال لذويهاǓ أما هذه الزاوية فمكان تعذيب بالنـ ـار لاƹتϮاب أموال الناΣ وأخذها قوا أو قهرا وكلتاهما زاويةǓ إحداهما مجاƫ الرحمة والأخرă مجاƫ التعذيب.

المسـ اجد: المسـ جد مـ ن العناϮ ر الأساسية في تكوين المدن والقرăǓ بل وفي تمييز السـ كان أيضـ اǓ لذاﷲ يشير إليها الرحالون أينما حلوا. ولم يهتم السارد بعمران المساجد وهندسـ تها في هذه الرحلةǓ وإنما اهتم بالجانب التاريخي لتƌسيسها. وأشهر من تعبد فيهاǓ وبعـ Ư كراماتهمǓ من ذاﷲ مسجد الشعاب قال: "... وقد رأينا أن نذكر بناĈ هذا المسجد الذϠ أشار إليﷲ البكرϠ... وهو منسوب لأبي محمد عبد ا الشعاب أحد الϮلحاĈ التƌضǗĈ مـ ن أهل طرابلΣ وكان نجارا ونسب المسجد المذكور إليﷲ لأنﷲ هو الذϠ أتم بناĈهǓ ولزم السـ كنϠ بﷲ..." [1] ويذكر أن الخضر عليﷲ السƜم كان يزور الشعاب هذا ويحادƛﷲ وأنهما

---

[3] - نƱسﷲǓ ƫ: 213.

[4] - نƱسﷲǓ ƫ: 214.

[1] - المϮدر السابϟǓ الرحلةǓ ƫ: 247.

رئـيا مجتمعـين في المسجد المذكور، ويسمع الشعاب يوما بكاء امرأة عند باب المسجد فسألها عن سبب بكائها فأخبرته أن لها ولدا أسره عدو الدين، وسألته الدعاء بخلاصه فدعا لـه وأمنت المرأة على دعائه، ثم انصرفت المرأة إلى بيتها فلما وصلت ولدها في السكة يسأل عـن دار أمه فسئل فأخبر بفراره في البحر... فتوجهت المرأة إلى الشيخ تشكره وتعرفه بوصـول ولـدها وأن ذلك إنما كان ببركة دعائه، فهنأها بسلامته، وقال لها إنما نجاه الله بدعائك لما علم اضطرارك وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين ومائتين.[2]

إن المسجد " لا يعرف بخصائص العمران، وإنما بخصائص الإنسان من حيث الإنشاء والـتقوى، وبعض الكرامات التي تجري على يد الصالحين الأتقياء، وفي هذا المثال نجد اجتماع متمم المسجد بالخضر، وهي قضية تجد رواجا واسعا لدى المتصوفة، وهو عنوان للعبد الصالح الذي له من العلم اللدني الكثير، ولا يلتقي إلا بالصالحين.

ولـذلك ظهرت بركة الشخص الذي يجتمع مع الخضر في دعائه للأم التي جاءته باكية، ولتتميم الحكاية يفر الولد ويصل إلى أمه، وتخبر الأم الشيخ على أن لدعائه أثرا لكن تقواه لا تجعل منه دعيا، إذ أرجع السبب إلى الأم المضطرة بناء على النص المقدسة لمكانة الأم، وللدعاء المستجاب " أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء " [3]

وهكذا يذكـر مع كل مسجد قصة تصلح أن تكون مثالا للأسلوب غير المباشـر الذي يعتمده الراوي في سرد أخباره، ويفرق بين المسجد والجامع بالتمييز الشرعي، فالجامع ما تقـام فـيه صلاة الجمعة، وقد لا يوافق على اسم المكان كما ذكر في سياق الأخبار عن غمراسـن "... وأقمنا ما أقمنا معهم فلم نسمع عندهم أذانا، ولا طرق صوته لنا آذانا، وإن كـنت قد رأيت في أعلى قلعتهم موضعا سموه مسجدا، وليس يصلي فيه إلا رجل غريب، مـن أهـل زوارا سـكن عندهم..." [1]. ووظائف المسجد معروفة ومحددة، ولكون هذه الوظائـف مـنعدمة أو مفرط فيها يصبح المسجد حينئذ علامة على الساكنين قربه، وعلى ذلك يعتمد في تقييمهم من حيث علاقتهم بالدين والصلاة والتقوى.

---

(2) - نفسه، ص: 248.

(3) - سورة النمل، من الآية: 62.

(1)- التجاني، الرحلة، ص: 187.



الجامع: لم يذكر من الجوامع إلا أربعة منها:

جامع قابس: وقد وصفه قائلا: "... وهو مسجد متسع له منار مرتفع قد مال وخرج عن الوزن إلا أنه لصحة موضعه لا يخشى من وقوعه..." [2]

ويذكر في موضع آخر أنه يقع في الساحة العامة للمدينة: " ودار ابن مكي هذه مجاورة لجامع قابس الأعظم ببطحاء متسعة وتلك البطحاء هي سر قابس"[3]

وبذلك يجتمع للمكان وصف من خصائصه الاتساع من الداخل وارتفاع المنارة وكونها مائلة، ثم التصاقه بساحة عامة وبجوار دور كبار القوم، وأنه في مركز المدينة.

فأجزاء المدينة متصلة بهذه الساحة التي يقع بها المسجد كاتصال الجنين بالحبل السري، والوصف هنا لم يأت متتاليا، وإنما جمع بين أكثر من فقرة، وهذه من خصائص وصف المكان فقد لا تأتي الأوصاف كلها دفعة واحدة، وإنما تأتي مجزأة هنا وهناك، والقارئ يستجمع الوصف الشامل من المشاهد المنفصلة.

أما *جامع طرابلس الأعظم:* " الذي بناه بنو عبيد، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة، وسقفه حديث التجديد، وبه منار مربع قائم من الأرض على أعمدة مستديرة فلما تم نصفه كذلك سدس، وكان بناؤه في العام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل ابن إسحاق..."[4]

فالسارد يصف الجامع الأعظم من الداخل أولا، ثم يهتم بالجانب التاريخي، ثم يصف حداثة السقف، والمنار القائم على أعمدة بشكل ما إلى النصف ثم يتغير الشكل إلى المسدس، ثم يخبر بزمن بنائه، ثم يوالي السرد عن بانيه وما وقع له. ونذكر أن السارد لم يهتم كثيرا بوصف أماكن العبادة، وإن كان يذكرها.

المصلى: وهو من أماكن العبادة التي كانت من مستلزمات المدينة لأداء صلاة العيدين، و الاستسقاء.

---

(2)- نفسه، ص: 94.

(3)- نفسه، ص: 178.

(4)- نفسه، ص: 253.

فمصلى تـوزر: " هو مصلى كبير يحده بناء حائط مرتفع... ويوجد بمقربة من هذا المصلى مقبرا للفقيه أبي محمد بن يعقوب رحمه الله، وهي بدار أعدت لهم هناك لدفن من يموت من الغرباء ذوي الأخطار، ومعه فيها جماعة سواه..." [1]

فالمصلى واسع وأحيط بحائط مرتفع... بالإضافة إلى وظائف المصلى المسكوت عنها هـنا فهنـاك يضيف وظيفة أخرى، وهي أن الغرباء ذوي الشأن يدفنون في بيت خاص يقع داخـل المصـلى، وقـد زاره السارد وتعرف على قبور عدد من المشهورين. أما إحدى الوظائـف الأساسية للمصلى فيحددها في مكان آخر " ...فأصبحنا يوم عيد الفطر فغدونا إلى المصلى، ووصل خطيب البلد، فصلى، ثم أخذ في الخطبة..." [2]

وفـي طرابلس يشير إلى المصلى: " ومصلى البلد بجانبه (المرسى) بين جنوب وشرق مـنه، وهـو محدث الوضع هناك، وإنما كان المصلى القديم في الجهة الغربية... يعرف الآن بالعيون، وبمقربة من هذا المصلى الآن بئر قد نبتت بها شجرا واحدا من شجرا الجميز المخصوص نباته بمصر المشرق..." [3]

أمـا *مصلى المهدية* فمرتبط بحكاية استشرافية لعبيد الله المهدي، حين هجوم صاحب الحمـار " وعندما وضع أول حجر منه (السور) وهو حاضر أمر ناشبا كان بين يديه أن يوتـر قوسه ويقف على ذلك الحجر، ويرمي سهمه ففعل الرامي ذلك فانتهى السهم إلى المصـلى، ووقـع قائما على نصبه فقال المهدي إلى ذلك الموضع ينتهي صاحب الحمار، يعني أبا يزيد فقدر أن وصل أبو يزيد إلى ذلك الموضع ولم يتجاوزه." [4]

ثـم تأتي الإشارات الموالية للمصلى لتدعيم الحكاية كما توقعها المهدي فالمصلى بهذا يـؤدي أدوارا تعـبدية خالصـة وقد تضاف إليه وظائف أخرى. فهو في نص طرابلس " يـواري الغرباء ذوي الشأن " وفي نص المهدية نهاية الغرباء المعتدين على المهدية فكأنه يقـوم بطلسـم الحمايـة المـزدوجة، حماية الأموال الغرباء وحماية الأهالي من الغرباء

---

(1)- المصدر السابق، ص: 163.

(2)– نفسه، ص: 154.

(3)- نفسه، ص: 246.

(4)- نفسه، ص: 321.

المعـتدينÜ ثم إن المۦلۮ مۦدر الخۦوبة والخيراĶ باعتبار الماĆ مۦدر كل خيرÜوقد غاب عن المدن المعاۦرا واستعيۍ بالمۑعب وتغيرĶ الوÜائف والمهام.

مصادرالميــاه:

- *العــيون:* اهتم سارد الرحۑĶ بالماĆ ومۦادره رغم اختۑف الدواعي. فسارد التجانية يحدثــنا عن المياه باعتبارها نقاط التمركز السكاني ونشاطاتهم. في حين يحدثنا الآخرون عن المياه باعتبارها مسعۃة للرحالينÜ وعدم معرفة أماكنها ونوعها قد يؤدۍ إلۮ المخاطر. ومــن المياه التي حدثنا عنها " ماĆ قابΣ" قال:" ومن المكاره التي حۃĶ بها جنة قابΣ ما يتعاهدها من الوباĆ وينتاب ساكنها من الأمراۍ. وبسبب ذلا فيما ذكر أهلها كثرا شجرا الدفلۮ بها فيكتسب الماĆ منها لدă جريۑ سمية ومرارا تضر بۃبدان ساكنيها كثيراÜ ولذلا لا تجــد وجــوه كثير من أهلها إلا مۦۃرا... وليΣ في جميع مياهها ما يسلم من ذلا إلا العين المعروفة بعين الأميرÜ والعين الأخرă فالسارد المعروفة بعين سۑمÜ فۃن ماĆ هاتين يسلم من الۃساد لعدم مروره علۮ الدفلۮ..." [1].

فالسارد يۃسر Üاهرا وبائية بنوع الماĆ الذۍ يتناولۑ السكان ويستثني عينين ماؤهما ليΣ كغيــرهÜ ولكنۑ في الوقĶ نۃسۑ يشير إلۮ أن قابΣ جنة بمزروعاتها وبساتينها وخيراتهاÜ وهي كجنة الآخرا حۃĶ بالمكاره.

ومن العيون التي ذكرها دون الإشارا إلۮ سكانها " عين تامديۃĶ " قال: " فنزلنا بالعين المعــروفة بعــين تامــيدنĶÜ بالتاĆ الۦحيحة المثناÜ وبكسر الميم وكسر الدال المهملةÜ وســكون الــنونÜ وهــي عين متسعة عذبة الماĆ يتضمنها واد متسع يشتمل علۮ غاباĶ مشتبكة من الأبا والقۦبÜ وإلۮ جانبها أحساĆ ما تشابهها في العذوبة..." [2]

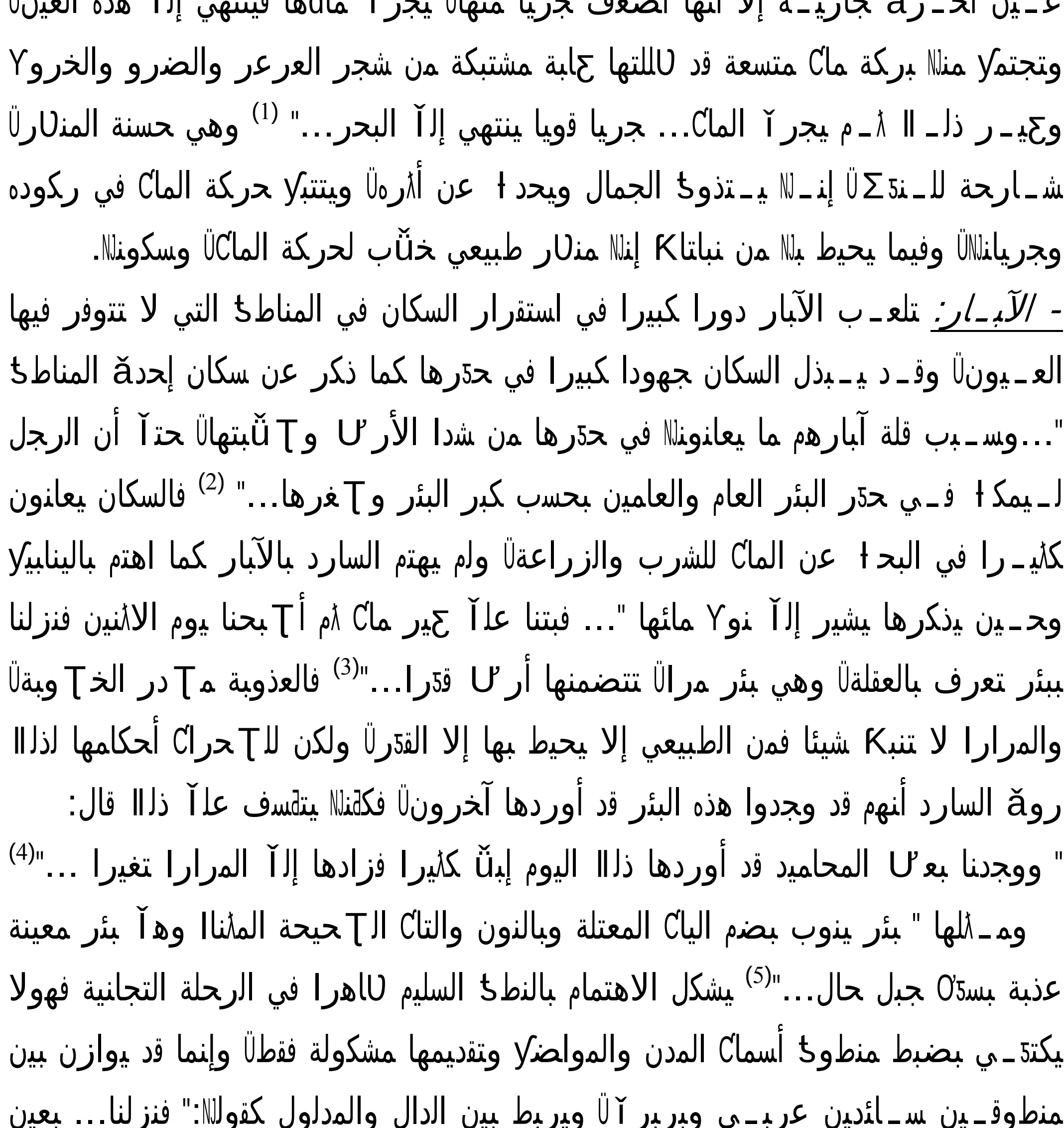
يركــز الســارد علــۮ نوع الماĆ والمحيط الذۍ يكتنۃۑÜ والمۑحÜ حرۦۑ علۮ سۑمة النطۃ باسم المكان. فالعيون تسقي البساتين وماؤها هو السبب في أفضلية الثمارÜ

وقد يۦف حركة الماĆ فۃذا هو منÜار خۑب كقولۑ: " ونزلنا يومنا ذلا بالعين المعروفة بعــين فاراÜ وهذه العين أعذب من الأولۮÜ وهي بواد حسن المنÜار شارθ للنۃΣÜ وقبلها

---

[1] - المۦدر السابۃÜ f :89.

[2] - نۃسۑÜ f :312.



عين أخرى جارية إلا أنها أضعف جريا منها، يجري ماؤها فينتهي إلى هذه العين، وتجتمع منه بركة ماء متسعة قد ظللتها غابة مشتبكة من شجر العرعر والضرو والخروب وغير ذلك ثم يجري الماء... جريا قويا ينتهي إلى البحر..." (1) وهي حسنة المنظر، شارحة للنفس، إنه يتذوق الجمال ويحدث عن أثره، ويتتبع حركة الماء في ركوده وجريانه، وفيما يحيط به من نباتات إنه منظر طبيعي خلاب لحركة الماء وسكونه.

- الآبار: تلعب الآبار دورا كبيرا في استقرار السكان في المناطق التي لا تتوفر فيها العيون، وقد يبذل السكان جهودا كبيرا في حفرها كما ذكر عن سكان إحدى المناطق "...وسبب قلة آبارهم ما يعانونه في حفرها من شدة الأرض وصلابتها، حتى أن الرجل ليمكث في حفر البئر العام والعامين بحسب كبر البئر وصغرها..." (2) فالسكان يعانون كثيرا في البحث عن الماء للشرب والزراعة، ولم يهتم السارد بالآبار كما اهتم بالينابيع وحين يذكرها يشير إلى نوع مائها "... فبتنا على غير ماء ثم أصبحنا يوم الاثنين فنزلنا ببئر تعرف بالعقلة، وهي بئر مرة، تتضمنها أرض قفرا..."(3) فالعذوبة مصدر الخصوبة، والمرارة لا تنبت شيئا فمن الطبيعي إلا يحيط بها إلا القفر، ولكن للصحراء أحكامها لذلك روى السارد أنهم قد وجدوا هذه البئر قد أوردها آخرون، فكدروه يتأسف على ذلك قال:

" ووجدنا بعض المحاميد قد أوردها ذلك اليوم إبلا كثيرا فزادها إلى المرارة تغيرا ..."(4)

ومثلها " بئر ينوب بضم الياء المعتلة وبالنون والتاء الصحيحة المثناة وهي بئر معينة عذبة بسفح جبل حال..."(5) يشكل الاهتمام بالنطق السليم ظاهرا في الرحلة التجانية فهولا يكتفي بضبط منطوق أسماء المدن والمواضع وتقديمها مشكولة فقط، وإنما قد يوازن بين منطوقين سائدين عربي وبربري ، ويربط بين الدال والمدلول كقوله:" فنزلنا... بعين ودرس بكسر الواو وسكون الدال المهملة وكسر الراء وهكذا تنطق العرب بها والبربر

(1) - المصدر السابق، ص: 315- 316.

(2) – نفسه، ص: 186.

(3) - نفسه، ص: 205.

(4) - نفسه، ص: 205.

(5) - نفسه، ص: 317.

يلحقـون هـذه اللفظة تاء ساكنة على ما هو معروف من كلامهم." (1). وقد يصبح الماء معلما من معالم الطريق تعرف به المراحل وتنزل عنده الأركاب فيكون مصدر راحة بعد عـناء. ولكـون الآبار عميقة فقد تنسج حولها أساطير، وخرافات كما تنسج على العيون والأكمات من ذلك بئر الكنود الكائنة بطرابلس "...ذكر البكري...أن بمدينة طرابلس بئرا تعرف ببئر الكنود، من شرب منها فقد عقله، وأنهم يعيرون الشارب منها، ومن أتى منهم بمـا يلام عليه قيل له: لا عتب عليك فقد شربت من بئر أبي الكنود (....) وهذه البئر قد رأيـتها بداخل المدينة وعليها يوردون بهائمهم، وكثير من أهل البلد يشرب من مائها ولا يتحرج من ذلك مع علمه بما يسند عنها." (2)

فحكاية فقدان العقل مروية قديما وأسندها السارد إلى البكري، أما سارد الرحلة فقد زار البئر، وسأل عن الخبر فوجد الناس يتداولونه، ولكنهم لا يبالون به إذ يشربون بلا حرج.

ويلحق بالعيون والآبار ***البرج*** التي يتجمع فيها ماء العيون كبركة عين طرة، وغيرها.

- ***الوديان:*** ذكر السارد في رحلته أكثر من أربعة عشر واديا، والتي وقف عندها ووصفها باعتـبارها تشكل حيزا من الرحلة أو تجسد ميزا ما لا يتجاوز الخمسة، والسارد قد يذكر الـوادي ويصـفه ويحدد منابعه، وما ينتـفع به من المزارع والبساتين، كقوله في قابس: "... ولهـا واد يسـقي بسـاتينها ومزارعها ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشـوارعها، أصـل هـذا الوادي من عين خرارا في جبل بين القبلة والمغرب منها " (3)

فالـوادي يشارك في تشكيل فضاء المدينة من الجبل إلى الانعراجات المختلفة التي تخترق البسـاتين والدور والشوارع، فينشئ عنه شكل هندسي لم يستمر السارد في تجسيده، وكما يركز على استثمار ماء الوادي، قد يشير إلى ضياعه بلا انتفاع كوادي زرود الذي حدده، وذكـر الجهـات التي تنتفع به، والتي لا تنتفع به، قال: " ووادي زرود في قبلة القيروان بينها وبينه أميال يسيرة، وأصله من موضع يعرف بقران بضم القاف وتخفيف الراء، وهذا

---

(1) - نفسه، ص: 316، قال المحقق: وفي بعض النسخ بالزيادات فيقولون تودرست" هامش 1 .

(2) - نفسه، ص: 259.

(3) – نفسه، ص: 87 – 88.

الوادي يمر في طريقه على مزارع تسقى منه وينتشر بها فيها، فإذا انتهى إلى الأصنام وهو موضع في جوف القيروان انتشر في سبخة هنالك متسعة، ضاع ماؤه فلم ينتشر بها ..." [1]

فالسارد هنا على تحديد الجهات: جنوب "قبلة" وشمال "جوف" والمسافات "أميال" ثم المرور على مزارع كثيرا تستفيد منه ثم تنتهي إلى سبخة تستوعبه فلا يبقى للوادي أثر ولا منفعة. وهذا الوصف يكاد يكون رمزيا من حيث البدء والانتهاء.

وقد يصف الأودية وصفا جغرافيا مذكرا بالأحداث التاريخية التي جرت بها كما فعل مع ***وادي مجسر*** " وهذا الوادي أصل مائه من الجبل المتصل من المغرب إلى المشرق، فيجتمع عند جبل صغير يعرف برأس تاجرا... حيث أوقع الشيخ أبو محمد بالميورقي وقعته... ثم يفترق من تاجرا واديان ينتهيان إلى البحر، أحدهما هذا الوادي... والآخر... هو المعروف بوادي الفجاء..." [2]. فالسارد يرسم خريطة الوادي ابتداء من منبعه من الجبل، ثم تجمعه عند رأس تاجرا، ثم تفرقه إلى واديين وكلاهما يصب في البحر، وقد ذكر ما جرى على هذا الوادي من أحداث دموية تقابل جريان الماء إذ قال : " وروي من دمائهم المراقة ظمأ جواده. " [3]

وكأن منظر الوادي وماءه الجاري أبى إلا أن يولد صورا جريان الدماء التي أراقها المنتصر الذي أشبع ظمأه من المنهزم "الميورقي".

ولقد أوجد في هذا الوادي من المقابلات ما يثير العجب إذ قال:" ووادي مجسر منها معروف بكثرة الأسود وهي موصوفة بشدة الأسر وقوة القسرة وقد كانت تبنى في الوسط من هذا الوادي مشارع فتجلت الأسود ناسها وأكثرت فيهم افتراسها فتفرقوا مغناها ولم يستطيعوا لأجل ذلك سكناها وهذا الوادي ما كان من أرضه منخفضا كان الماء بها دائما لأنه يعود بطبع الأرض ملحا أجاجا ولا سيما ما قرب من البحر وتوجد بها أنواع من الحوت وما كان منها مرتفعا لم يكن بها ماء إلا حين حمله عند نزول الأمطار وتنبت بها غابة مشتبكة من الأثل والطرفاء." [1]

---

(1) - المصدر السابق، ص: 118.

(2) – نفسه، ص: 120.

(3) - نفسه، ص: 120.

(1) – المصدر السابق، ص: 120-121.

نجـد أن الوادӑ في هذا الوϦف يϵترϑ إلӑ واديينӧ والناΣ ينقسمون إلӑ قسمين منهزم ومنتϦـرӧ الـوادӑ يجرӑ بالماƠ وضواحيϞ جرΚ بالدماƠӧ المنتϦر وتقابلϞ الأسود التي فعلـΚ فعلـتها فـي السكان فارتحلوا كما ارتحل الميورقي المنهزمӧ ثم نجد هذه الأسود الضـارية الآكلةӧ وأنواϒ الحوΚ المستطابة المƿكولةӧ وهذا الماƠ العذب في أولϞӧ والمالƠ الأجاج في آخرهӧ والأماكن الجافة من الوادӑ ӧ والماƠ الجارӑ بتƿداӧ والجارӑ بقوا السيل الجـارفӧ هذا وذاϙ يغطӑ بالإϯل والطرفاƠӧ إنϞ منϢر متكامل ممتد علӑ مساحة واسعة تتجلӑ فيها الحيواناΚ الضاريةӧ والأسماϙ الطرية والماƠ العذب والممجوج.

وهذه الأودية منها ما ينقطϔ ماƙهӧ ومنها ما هو دائم الجريانӧ فوادӑ الرمال بطرابلΣ:

" واد متسـϔ عذب الماƠ لا ينقطϔ ماƙه في شتاƠ ولا في ϦيفӧӨ ومبدƙه من الجبل قاطعا إلـӑ البحـر... وأϦل مائϞ من عيون تنبϔ في أثنائϞӧ تبتدƏ من مسافة قريبة من الجبلӧ فتجـرӑ قليلاӧ ثم تنقطϔӧ ثم تبتدƏ بعدها عيون أخرӑӧ فينتهي ماƙها إلӑ البحرӧ ولا يعم الماƠ جميϔ الوادӑ إلا في وقΚ الأمطار عند نزول السيول من الجبل..."[2]

إنـϞ وϦـف دقيϑ تتبϔ فيϞ السارد أوضاϒ الماƠ علӑ مسافة بعيداӧ من حيϮ الϢهور والخـϐاƠӧ ومـن حـيϮ الجرӑ والركودӧ ومن حيϮ الامتلاƅ والخواƠӧ ومن حيϮ المبدأ والمنتهـӑ. ولا يـتعلϑ وϦف السارد للوديان بالرحلة في ذاتهاӧ كما هو الشƿن مϔ الآبار والعـيونӧ وإنما يتعلϑ الأمر بمدӐ الاستƽادا من مياه الوديان وما ينشƺ حولها من زراعة وعمـرانӧ إلـӑ جانـب الاهتمام بالتشكيل الجغرافي للوادӑ ӧ ولعل ربط مϦادر المياه بالسكان ونشاطهم نابϔ من كون التجاني من مسئولي الدولة المهتمين بالمناρϔ الاقتϦاديةӧ والآثـار الأمنية والاجتماعية. وهذا ما يتناسب مϔ وϢيƽة شخƭ مϦاحب لمسئول كبيرӧ كان خروجϞ أساسا لضبط الجانب الأمنيӧ واستخلاƭ الجباياΚ المتعددا ممن يسكنون في المـدن والقـرӐ ورƙوΣ الجبال وحواف الوديانӧ ونعتقد أن كثيرا من هذا الوϦف كان مباشرا آنيا ضبطϞ السارد حين كان ماثلاӨ بالمكانӧ لكون الذاكرا يϦعب عليها أن تستعيد هذه الأوϦاف الدقيقة كما تتجلӑ في الواρϔ الطبيعي.

---

[2] – نƽسϞ: ƭ 310.

- *السبخات:* ويلحق بمصادر الماء بركات الماء المالحة التي تشكل هي الأخرى مجالا فضائيا مائيا لكنه خطير خطورا بالغة، ونكتفي بذكر "سبخة تاكمرت" التي ذكر السارد أنهم قطعوا جزءا منها نهارا وجزءا ليلا:" فلما كان آخر الليل الأخير ارتحلنا وأخذنا في اجتياز هذه السبخة فلم نزل نقطعها سائرين وسيرا إلى الزوال من الغد... ووجدنا فيها معالم قائمة من جذوع النخل تمنع السالك من الخروج عن طريقها...لأن ما على يمينها وشمالها من الأرض مغائض لا تثبت عليها قدم ولا يسلكها أحد جاهل بها إلا غاص فيها." [1]

وقد اشتهر أمر هذه السبخة وأودت بحياة قوافل كثيرا فضلا عن الأفراد، ولما أراد السارد أن يدعم ما يقوله أسند الخبر للبكري في المسالك: " وقد هلكت فيها الجماعات والعساكر ممن دخلها ولم يدر أمرها. " وإذا غاص فيها أحد التقمته الأرض في الحين وعادت كما كانت"[2]، ثم أسند الخبر لمخدومه " اللحياني" الذي روى له خبرا مفاده أن قافلة فيها ألف جمل قد غاصت في هذه السبخة ثم عادت الأرض كما كانت وكأن لم يكن لتلك الإبل أثر. [3] ثم وصف السبخة قائلا: "...وهي من غرائب الدنيا التي أغفلها المؤرخون وأهمل وصفها الإخباريون، فإنها أميال في أميال سطحا واحدا كاللجين المسبوك، أو المرمر المحكوك يكاد ينفذه البصر لصفائه، وكأنما هو غدير جمد بمائه. قال: وآن وقت الصلاة والناس يمشون فيها فصلوا منها على بساط من الكافور أو سطح من البلور قال: ولما تمادى المشي في هذه السبخة إلى وسط النهار، وتوالى عليها تكرار الحافر... تخرق منها نحو مائة ذراع فيما يقرب من البرك، فكل ما تخاف من الحمولة والأثقال ابتلعته وساخت الجمال بحمالها فما أخرجت إلا أشلاء بعد نحرها..."[4]

هذا الوصف لسطح السبخة ليس من إبداع سارد الرحلة وإنما هو مأخوذ عن سارد آخر، ينقله عنه بأسلوب مباشر، مما يجعل القارئ يتصور المنظر ويشاهد ما يفعله الناس من حركة وصلاة، ثم انكسار جزء من سطح السبخة ثم غوص الجمال بأثقالها وإخراجها بعد نحرها. والغرض من هذا الوصف هو التحذير من المكان الذي أهلك

---

(1) – المصدر السابق، ص: 154- 155.

(2) – نفسه، ص: 155.

(3) – نفسه، ص: 155.

(4) – نفسه، ص: 155.

الكثيـرة فالسـبخة عميقة الأغوار مجهولة المقدار تقضي على الأعمار لذا يهابها كل مار ويحذر من الوقوع فيها كما يحذر من الوقوع في النار إنه المكان المعيق للسائرين في الليل والنهار.

- <u>الجبال:</u> لقد أورد السارد أسماء جبال كثيرة تبعا لتذكر الأحداث أو مآثر الأشخاص الثـائرين والمعارضين ولم يفصل القول إلا على جبل درن ضمن حديثه عن أغمراسن إذ قـال: " وغمراسـن اسـم لناحية من الجبل المتصل الذي أصله جبل درن بالمغرب وهو الجبل الأعظم الذي قيل على وجه الأرض ما يدانيه سموا وامتدادا وكثرة خصب واتصال عمارة ومبدؤه من البحر المحيط في أقصى السوس مارا مع الشرق مستقيما إلى أن يصل إلى هذا الموضع فيسمى درن ثم يمتد فتسمى مسافة منه جبل نفوسة فإذا حاذى طرابلس رق وخفي وامتد... رقيقا إلى أن يصل إلى طرف أوثان من أرض برقة فينقطع هنالك."[1]

إلى هنا ينتهي تحديد المكان وامتداداته وبعض تسمياته. فالمكان غالبا ما يذكر ليس للزينة وإنمـا باعتـباره مسرحا تقدم من خلاله الأحداث لذلك أردف قائلا: " وهو من مبدئه إلى منتهاه مخصوص بسكنى البربر وبه كل طريفة من الثمار وغرائب الأشجار والماء ينبع منه في مواضع معروفة..."[2] فالمكان على سعته ورحابته مخصوص بجنس من الناس ولـيس لغيرهم وهو جبل متفرد في الخصوبة بل هو مصدر كل الخيرات لذا فهو محبب للنفوس لذا نجده حصنا لكل مظلوم و مغلوب ومصدر الثورات والتمرد.

هكذا يصبح المكان معبرا يقف عنده السارد ليراه ويتأمله ثم يفتحه فإذا به أمام خشبة المسرح تقدم من خلاله الأحداث المتراكمة عبر الزمن فنرى الأشخاص يبنون أو يهدمون ونراهم يقتلون ويُقتلون ويسلبون أو يُسلبون يموتون فيدفنون أو يصلبون يبنون المساجد فيعبدون أو يتنزهون ويتمتعون ثم يغلق المكان للانتقال إلى مسرح آخر.

- <u>المـدارس</u>: ومما أشار إليه السارد وتفردت به طرابلس على مستوى السرد " كثرة المـدارس" وأحسنها المدرسة المنتصرية: " التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بـن أبـي البـركات بن أبي الدنيا... وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعا

---

(1) – المصدر السابق، ص: 185.

(2) – نفسه، ص: 185.

وأطرفها ما نعته ونقلته من خط أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد في بعض تقاييده قال: "حللت في بعض سفراتي بطرابلس فبكرت يوما إلى المدرسة التي أنشأتها بها الهمة العلية... فدخلت إليها وقعدت مسرحا طرفي في روضة حبست حاستي البصر والشم عليها ثم قلت:

ياحبذا نسمة هبت لناشقها — تروي الكرامة سطرا من روضة الجنة

حسبتها عندما هبت وقد نعشت — ببلة من نداها روح منتشق

قرأت أن الهداة قد وقفت التجار بها — محافظين على نشر لها عبق

فعندما فضها الداوي ذكرني — بطيبها طيب عيش مر لي أنق

بأوجه أنفس الرحمن ساحتها — وسقيتها أبدا بالعارض الغدق[1]

والملاحظ أن السارد لم يصف نهاية وإنما أسند السرد لراو من المستوى الثاني الذي يروي حكاية متضمنة ذات علاقة موضوعية تدعم ما رآه السارد وأراد أن يبلغه فلم يجد أفضل من إيراد هذا الوصف لابن سعيد، مما يدل على أن السارد اتخذ المكان متاحا لتقديم أوجه كثيرا من مطالعاته الأدبية والتاريخية، ومن المعلومات المتعلقة بالمجالات العلمية الكثيرة، ومن خلالها نتبين شخصية السارد الثقافية والمعرفية ذات التكوين الموسوعي اللائق بمن يتولى مثل وظائفه في بلاطات الدولة.

- المنتزهات: ولكون السارد لم يقدم لنا مهام المدرسة ونظامها وإنما اكتفى بالإخبار عن حديقتها فإننا نتخذها تمهيدا لتقديم المنتزهات التي توجد بالمدن منها "باب المنشر"، وهو من أحسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هنالك ويجتمع به القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والأمتعة الموشية ما يعمه على كبره فيخيل للناظر أنه روض تفتحت أزهاره، واطردت أنهاره وليس بنور أحسن من هذا الموضع وهو خارج عن غابتها والغابة ملاصقة لسور المدينة..." [1]. يقدم السارد وصفا استقصائيا جزئيا للمكان، في حين كان من المألوف أن يقدم المنظر الشامل ثم ينتقل إلى المفصل. أي أنه ابتدأ من نقطة

---

(1) – المصدر السابق، ص: 251- 252.

(1) – المصدر السابق، ص: 158.

ضـيقة ثم اتسع المشهد حتى عم المدينة وبساتينها. وهذه تقنية مستعملة الآن في التصوير عموما وفي الأفلام خصوصا.

ومما أشار إليه من المنازه الجميلة مرسى طرابلس قال: " وبخارج باب البحر منها منظر مـن أنـزه المناظـر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة، وهو مرسى حسن متسع تقـرب المراكب فيه من البر وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في أوارها." [2] هنا يتعانق البـر مع البحر، والسفن راسية، والعمال في نشاط، والسارد ينظر من بعيد فيصف بعض الأشياء ويسكت عن أخرى، مما أوحى له بأن يقول : "أنزه المناظر"، والسارد أشرف من أعلى فبدا لنا هذا المشهد الذي يعرف عند النقاد بعين الطائر. [3]

وهكـذا يمكـن القـول أن التجاني يهتم بأخبار المكان عبر الأزمان أكثر من اهتمامه بوصـف المنزه والبستان، وقد رأيناه يضمن أوصاف الآخرين ليشخص المكان، من غير قصـور ولا نقصان، ووصف المكان قد يأتي مسرحا لتقديم الأحداث، وقد يأتي تشخيصا ودفعـا للسير والانتقال، وقد يجسد مظاهر العمران وما يلحق ذلك من خراب وتدمير، وفتن وبنيان، و آثار صناعة الإنسان وجزيل مواهب الرحمن.

ثالثا- في الرحلة العياشية:

الصـورا المكانـية تشـكيل يجمـع مظاهر المحسوسات من أصوات وروائح وألوان وأشكال وحركات، و يتسم الحديث عن المكان في الرحلة بالموضوعية ونقل الصورا كما فـي الواقـع، وإن كانـت باهـتة أحيانا، ومتلونة بأمزجة الساردين وتنوع وجدانا تهم.

والوصـف مكـون أساسي يتناوب مع السرد في دفع الرحلة إلى مصيرها، وقد يمتزج الوصـف مـع السـرد إلـى درجة يصعب الفصل بينهما، لكون السفر في المكان يتجدد باستمرار، والسارد يتأثر بهذا التجدد وبخاصة إن كان نحو الأفضل، مما يجعله ويندمـج وجدانـيا مع الموقع الجديد، وإذ يرحل السارد في الأماكن باستمرار، فإنه يهفو إلى بقاع معيـنة تثير الاطمئنان وراحة البال على المستوى الباطني، مما يهون المشاق والصعاب التي يعانيها المسافر في اجتياز الأمكنة، بل يهون ذلك التصور مع المكان نفسه من حيث

---

[2] – نفسه، ص: 246.

[3] – بوريس أوسبنسكي، شعرية التأليف...، تر: سعيد الغانمي وناصر حلاوي، ص: 75.

هـو مواقع تشتمل على مخاطر طبيعية تعيق الحركة والراحة، فيتوجه الرحال المهالك وبخاصة حين تتضاءل عناصر الحياة من ماء وطعام.

وسـنقف عند الأمكنة اللافتة للانتباه والتي نعتقد أنها تشكل العناصر الأساسية والفعالة في فضاء الرحلة العياشية ونبدأ بـ:

المدن والقرى:

ما إن يمر السارد بقرية أو مدينة إلا ويشير إليها، فحين قرب من القليعة قال: " ثم ارتحلنا من هنالك في يوم عاصف لم نر مثله فيما تقدم من سفر...ولا تكاد العين إلا ملئت رمالا، فالـركبان بأرديتهم مترفلون والمشاة بجوانب الإبل قهرا يرملون، ونزلنا بالقليعة تصغير قلعة، وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه، وبها آبار كثيرا طيبة المـاء، ونخـيل ليس بكثير وهي من طاعة سلطان واركلا..."[1] فالسارد وصف والمشقة التي عاناها الركب في الطريق من جراء الرياح الشديدة، واعتبر ذلك إطارا يحدد محيط " القـرية " إذ هـي تقع وسط هذه الرمال التي ما إن تهب الرياح حتى تسد الآفاق، ثم ذكر القـرية مـن حيث موقعها "على حجر صلد" وهذا دأب القرى غالبا ولكون الماء هو الهم الأول فـي مثل هذه الأماكن وهو الذي يجذب الناس للإقامة والاستقرار، ويجذب السابلة للاستراحة، قال: " وبها آبار كثيرا طيبة الماء..."، ثم أردفها بأهم ما في الصحراء حينئذ "النخيل" وبذلك تم وصف المكان، وهو وصف شامل متحرك في الأول، ساكن في الآخر، ولم يتهم بالدور السكنية وبالشوارع والأزقة، ولكنه أشار إلى كونها مسكونة عامرا، قال: "...وبهـا عامله، وهمته على قدر همة مستعمله، وقد أخبرني من رآه أسود حافي الرجل عـاري الرأس، في ثياب وسخة، ومع ذلك يتحاكم إليه أهل قريته ويذعنون لأمره..." [2]

وهـذا رسم لشخص يتحرك في هذه القرية، ويأتيه أهلها فيتحاكمون إليه، ويذعنون لأمره، فالوصـف فـي خدمة شخصية حاكم القليعة الموصوف بصفات متتالية مألوفة في ثياب وسخة، فالمكان بأجوائه وسط الرياح العاتية وسكانه يجسد درجة كبيرا من البؤس.

---

[1] - أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص: 43.

[2] - نفسه، ج1، ص: 43.

وهاهو يصف بلاد سف (سوف) قائلاً: "...سوف وهي خط من النخيل مستعرض في وسط الرمل وقد غلب على أكثره وفيه بلاد عديدة وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض أخبرني أهل البلد أنهم إذا أرادوا غرس النخيل بحثوا في الأرض قليلاً حتى يصلوا إلى الماء فيغرسونها بحيث تكون أصولها في الماء ثم يردون عليها الرمل فلا تحتاج إلى السقي أبداً ويعالجونها بعد ذلك بأبعار الإبل وغيرها فيضعونها في أصولها... وكذلك يفعلون بأنواع الخضر والبقول وسائر ما يغرسونه وكثيرا ما يقتنون الكلاب للصيد فإن بلادهم ذات صيد كثير وجل معيشتهم منه ومن التمر... وسكنى هذه البلاد في زرائب من جريد النخل فإليها يأوون وبها يخزنون..." (1)

في هذا المنظار اعتمد على الوصف الشامل الخارجي "خط من النخيل مستعرض..." و"زرائب من جريد النخل..." ووصف شامل داخلي حيث يصور عمل الفلاحين في حقولهم وبساتينهم وما يفعلون مع شيء من الاستقصاء في الحفر والتغطية والمعالجة بالبعرة ولم ينس السارد حركة الناس في الغرس والإيواء والتخزين وحرصا منه على ذكر نشاطهم قال: "وتبعنا كثير من أهل البلد يلتقطون البعر من منزل الركب للنخل على حسب ما ذكرنا."(2)

فالمكان هنا عامر بنشاط الغرس والحفرة والتغطية والتخزين وجمع البعر... بالإضافة إلى ذكر الكلاب والصيد الوافرة مما يوفر الحركة والنشاط ويبرز الحياة في المكان. وقد يصف القرى والقصور الخالية كقوله: "...وجئنا ظهرا لقصر مخيف ووجدنا فيه مياها كثيرا في مواجل ووجدنا فيه جابيتين (3) متلاصقتين مبنيتين بالحجارة المرصوصة بناء متقنا وكل واحدة طولها نحو المائة ذراع في مثلها وقد تعرضتا لأفواه الشعاب وجمعتا من الماء ما تبحرة وكاد أن ينفجرة وأخذ الناس حاجتهم وتوضؤوا وهذا القصر من أعظم القصور الخالية التي بقيت رسومها في تلك البلاد وفيه أثر مسجد مئذنته باقية إلى الآن..." (1)

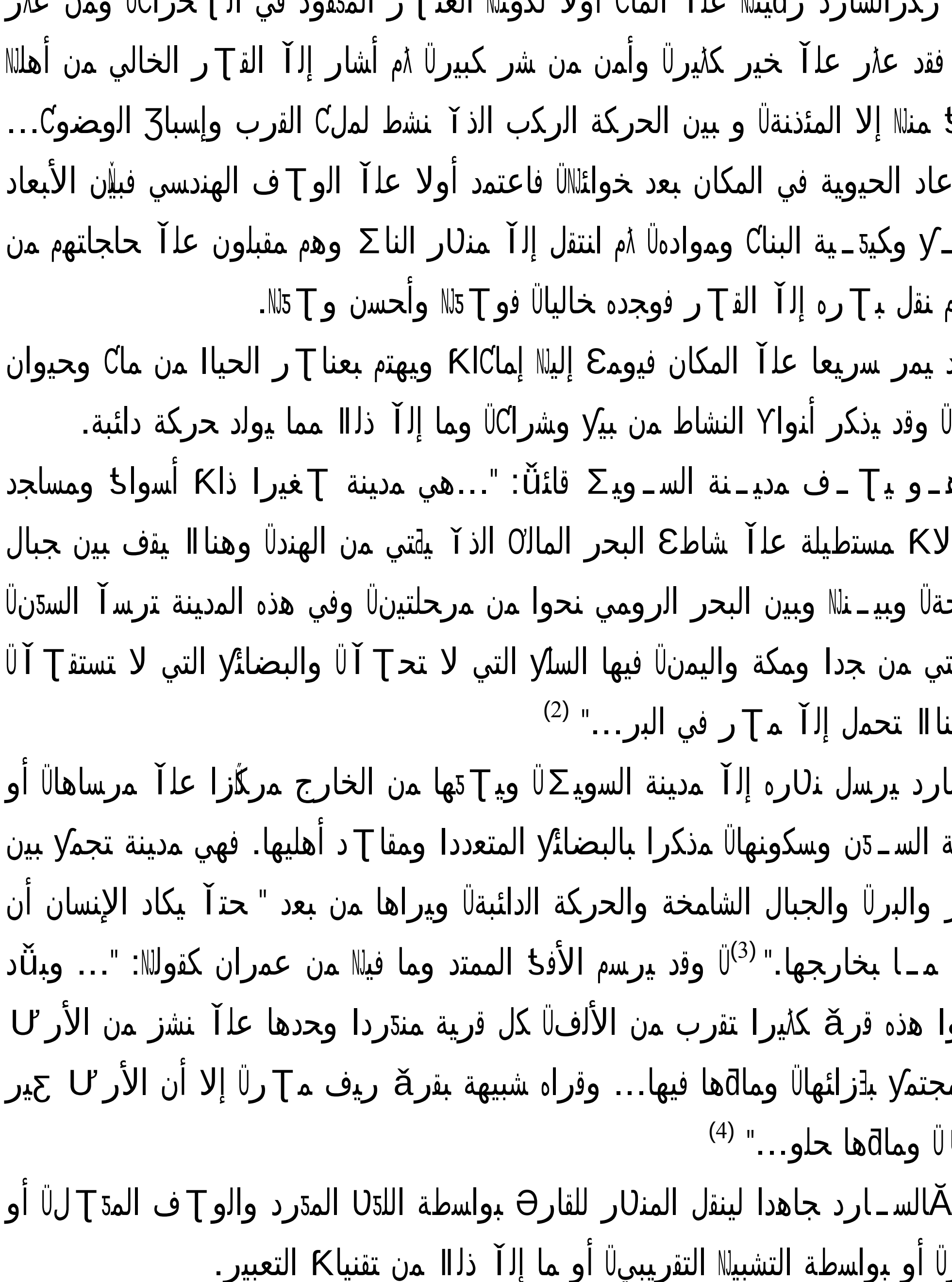
---

(1) - المصدر السابق، ص: 52.

(2) – نفسه، ج1، ص: 52.

(3) – جابيتين: جابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء ج جواب (م الوسيط)

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 108.



لقد ركز السارد رؤيته على الماء أولا لكونه العنصر المفقود في الصحراء، ومن عثر عليه فقد عثر على خير كثير، وأمن من شر كبير، ثم أشار إلى القصر الخالي من أهله ولم يبق منه إلا المئذنة، و بين الحركة الركب الذي نشط لملء القرب وإسباغ الوضوء... فقد أعاد الحيوية في المكان بعد خوائه، فاعتمد أولا على الوصف الهندسي فبين الأبعاد والموقع وكيفية البناء ومواده، ثم انتقل إلى منظر الناس وهم مقبلون على حاجاتهم من الماء ثم نقل بصره إلى القصر فوجده خاليا، فوصفه وأحسن وصفه.

وقد يمر سريعا على المكان فيومئ إليه إيماءات ويهتم بعناصر الحياة من ماء وحيوان وسكان، وقد يذكر أنواع النشاط من بيع وشراء، وما إلى ذلك مما يولد حركة دائبة.

فهاهو يصف مدينة السويس قائلا: "...هي مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات مستطيلة على شاطئ البحر المالح الذي يأتي من الهند، وهناك يقف بين جبال شامخة، وبينه وبين البحر الرومي نحوا من مرحلتين، وفي هذه المدينة ترسى السفن التي تأتي من جدا ومكة واليمن، فيها السلع التي لا تحصى، والبضائع التي لا تستقصى، ومن هناك تحمل إلى مصر في البر..." (2)

فالسارد يرسل نظره إلى مدينة السويس، ويصفها من الخارج مركزا على مرساها، أو حركة السفن وسكونها، مذكرا بالبضائع المتعددة ومقاصد أهليها. فهي مدينة تجمع بين البحر والبر، والجبال الشامخة والحركة الدائبة، ويراها من بعد " حتى يكاد الإنسان أن يتبين ما بخارجها." (3)، وقد يرسم الأفق الممتد وما فيه من عمران كقوله: "... وبلاد نفزاوة هذه قرى كثيرا تقرب من الألف، كل قرية منفردا وحدها على نشز من الأرض بنخل مجتمع بجزائرها ومياهها فيها... وقراه شبيهة بقرى ريف مصر، إلا أن الأرض غير الأرض، ومياهها حلو..." (4)

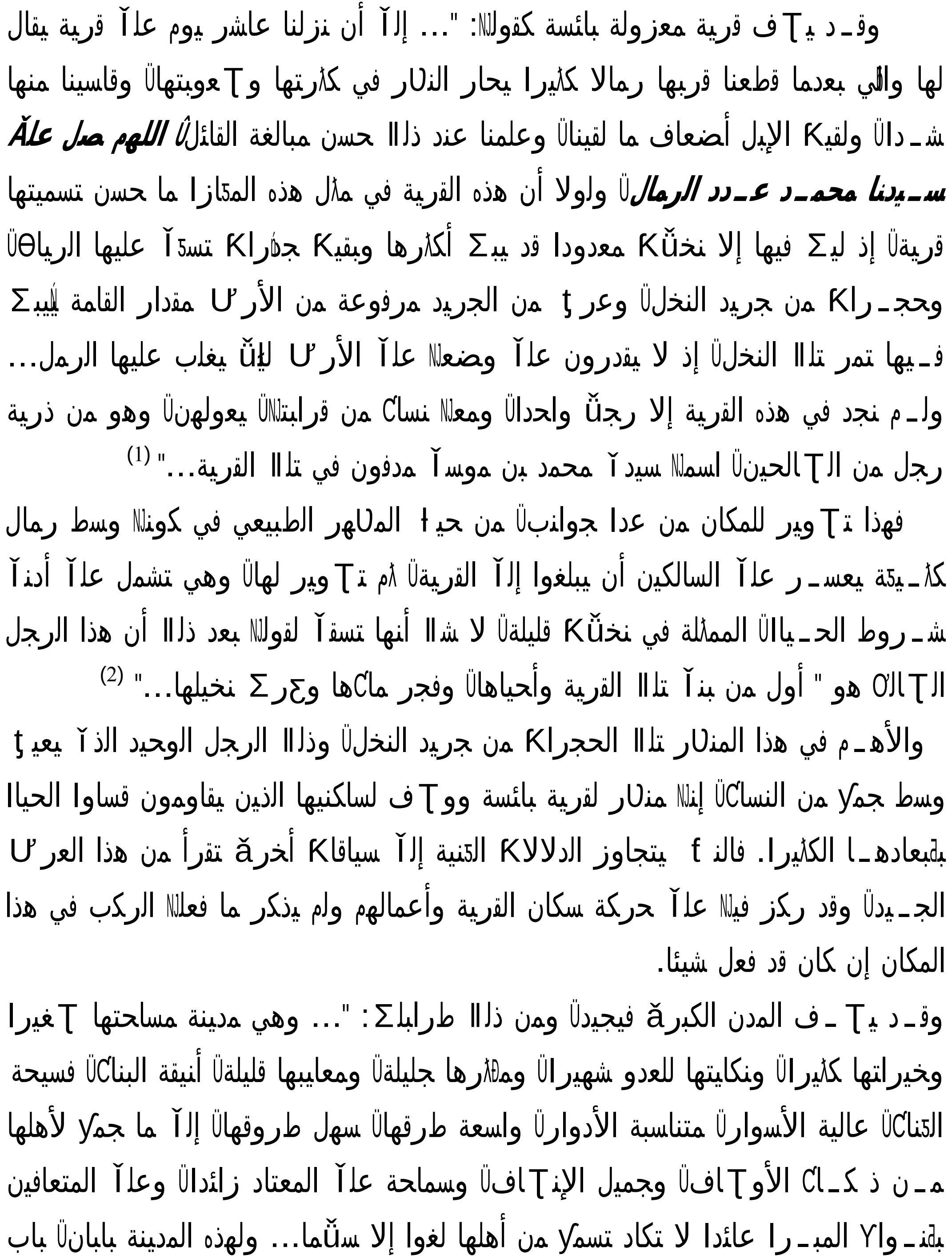
يسعى السارد جاهدا لينقل المنظر للقارئ بواسطة اللفظ المفرد والوصف المفصل، أو الموجز، أو بواسطة التشبيه التقريبي، أو ما إلى ذلك من تقنيات التعبير.

---

(2) - نفسه ج1، ص: 162.

(3) - نفسه ج1، ص: 162.

(4) - نفسه، ص: 53.



وقد وصف قرية معزولة بائسة كقوله: "... إلى أن نزلنا عاشر يوم على قرية يقال لها والي بعدما قطعنا قربها رمالا كثيرا يحار النظر في كثرتها وصعوبتها، وقاسينا منها شدة، ولقينا الإبل أضعاف ما لقينا، وعلمنا عند ذلك حسن مبالغة القائل: ***اللهم صل على سيدنا محمد عدد الرمال***، ولولا أن هذه القرية في مثل هذه المفازة ما حسن تسميتها قرية، إذ ليس فيها إلا نخلات معدودة قد يبس أكثرها وبقيت جذوعها تسفى عليها الرياح، وحجرات من جريد النخل، وعريش من الجريد مرفوعة من الأرض مقدار القامة ليبس فيها تمر تلك النخل، إذ لا يقدرون على وضعه على الأرض لأنه يغلب عليها الرمل... ولم نجد في هذه القرية إلا رجلا واحدا ومعه نساء من قرابته، يعولهن، وهو من ذرية رجل من الصالحين، اسمه سيدي محمد بن موسى مدفون في تلك القرية..." (1)

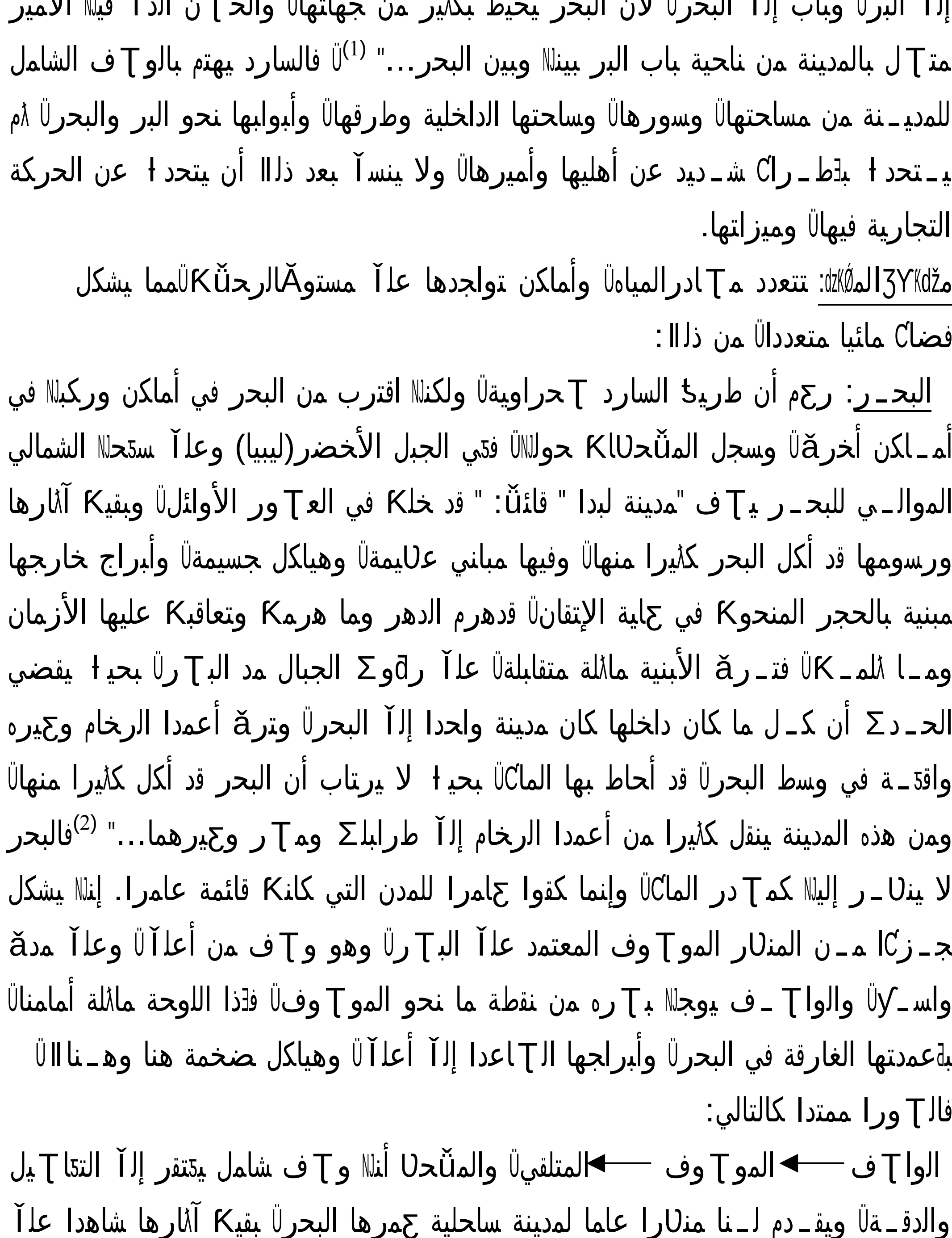
فهذا تصوير للمكان من عدة جوانب، من حيث المظهر الطبيعي في كونه وسط رمال كثيفة يعسر على السالكين أن يبلغوا إلى القرية، ثم تصوير لها، وهي تشمل على أدنى شروط الحياة، المتمثلة في نخلات قليلة، لا شك أنها تسقى لقوله بعد ذلك أن هذا الرجل الصالح هو " أول من بنى تلك القرية وأحياها، وفجر ماءها وغرس نخيلها..." (2)

والأهم في هذا المنظر تلك الحجرات من جريد النخل، وذلك الرجل الوحيد الذي يعيش وسط جمع من النساء، إنه منظر لقرية بائسة ووصف لساكنيها الذين يقاومون قساوة الحياة بأبعادها الكثيرة. فالنص يتجاوز الدلالات الفنية إلى سياقات أخرى تقرأ من هذا العرض الجيد، وقد ركز فيه على حركة سكان القرية وأعمالهم ولم يذكر ما فعله الركب في هذا المكان إن كان قد فعل شيئا.

وقد وصف المدن الكبرى فيجيد، ومن ذلك طرابلس: "... وهي مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعايبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طرقها، سهل طروقها، إلى ما جمع لأهلها من ذكاء الأوصاف، وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بنفع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من أهلها لغوا إلا سلاما... ولهذه المدينة بابان، باب

(1)- المصدر السابق، ج1، ص: 40.

(2)- نفسه، ص: 40.



إلى البر، وباب إلى البحر، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها، والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه وبين البحر..."[1]، فالسارد يهتم بالوصف الشامل للمدينة من مساحتها، وسورها، وساحتها الداخلية وطرقها، وأبوابها نحو البر والبحر، ثم يتحدث باختصار شديد عن أهليها وأميرها، ولا ينسى بعد ذلك أن يتحدث عن الحركة التجارية فيها، وميزاتها.

دلالة المياه: تتعدد مصادر المياه، وأماكن تواجدها على مستوى الرحلة، مما يشكل فضاء مائيا متعددا، من ذلك:

البحر: رغم أن طريق السارد صحراوية، ولكنه اقترب من البحر في أماكن وركبه في أماكن أخرى، وسجل المؤلف حوله ملاحظات، ففي الجبل الأخضر (ليبيا) وعلى سطحه الشمالي الموالي للبحر يصف "مدينة لبدا" قائلا: "قد خلت في العصور الأوائل، وبقية آثارها ورسومها قد أكل البحر كثيرا منها، وفيها مباني عظيمة، وهياكل جسيمة، وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان، قد هرم الدهر وما هرمت، وتعاقبت عليها الأزمان وما ثلمت، فترى الأبنية ماثلة متقابلة، على رؤوس الجبال مد البصر، بحيث يقضي الحدس أن كل ما كان داخلها كان مدينة واحدة إلى البحر، وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر، قد أحاط بها الماء، بحيث لا يرتاب أن البحر قد أكل كثيرا منها، ومن هذه المدينة ينقل كثيرا من أعمدة الرخام إلى طرابلس ومصر وغيرهما..."[2] فالبحر لا ينظر إليه كمصدر الماء، وإنما كقوة غامرة للمدن التي كانت قائمة عامرا. إنه يشكل جزءا من المنظر الموصوف المعتمد على البصر، وهو وصف من أعلى، وعلى مدى واسع، والواصف يوجه بصره من نقطة ما نحو الموصوف، فهذه اللوحة ماثلة أمامنا، بأعمدتها الغارقة في البحر، وأبراجها الصاعدة إلى أعلى، وهياكل ضخمة هنا وهناك، فالصورة ممتدة كالتالي:

الواصف ← الموصوف ← المتلقي، والمؤلف أنه وصف شامل يفتقر إلى التفصيل والدقة، ويقدم لنا منظرا عاما لمدينة ساحلية غمرها البحر، بقيت آثارها شاهدا على

[1] - المصدر السابق، ص: 60.
[2] - نفسه، ج1، ص: 92.



وجـودها. وقد اعتمد السارد في إثارة المتلقي على الصورة وعلى التشبيه والإثارة الذهنية وعلى الرؤية البصرية.

ومـن مشاهد ركوب البحر ما سرده قائلا: "... فلما رأينا الزحام على المراكب اكترينا مـركبا خاصا لأنفسنا بقرشين... فركبنا من بولاق ضحى، وكانت معنا في المركب ناقة لـبعض أصحابنا لم تألف البحر، فكادت تغرق بنا المركب مرارا كثيرة، كلما بدا لنا موج البحـر اضـطربت، والمركب صغير فيميل بنا ولن نخرج من ذلك المركب حتى عاينا بعض ما يعاينه البحرية عند هيجان البحر." [1]

والملفت للانتباه هو هذه الناقة التي تضطرب من رؤية الأمواج، فيضطرب المركب حتـى كـاد يهلـك الركاب، وهو وصف متحرك نشيط وحيوي، والعنصر المشوق فيه والطريف هو الناقة الشرود على متن مركب في بحر متما وج، إنه منظر رائع لا أدري ما إذا تفطن إليه الرسامون أم لا؟.

ومـن ذلـك ركـوبه من مدينة تسمى منية عمرو إلى القاهرة، قال:"... وكان جلوسنا بموضـع يخزنه نصارى في المركب، ولم تصل لنا منهم إذاية، ولا حصلت لهم منا إلى أن افتـرقنا بخير، وكان المركب جيدا، ركبنا فيه قرب الاصفرار، وسرنا إلى قريب من الـثلث الأول مـن الليل، ونزلنا وخرجنا إلى البر، ونمنا نوما قليلا إلى قريب من نصف الليل، فأقلعوا، وسرنا بقية ليلتنا، وطاب الهواء آخر الليل، وسائر اليوم...ومررنا بموضع يقـال لـه كـركر البقـرة ...فإن المراكب تخاف فيه من اللصوص إن مرت هناك بلـيل...قـد يسر الله علينا بطيب الهواء، فكان الخروج منه نهارا، ولم يكن وقت المغرب آخر ذلك اليوم إلا وقد أرسينا ببولاق..."[2]

فالحديث سرد أكثر منه وصفا وهو يشتمل على الحركة الزمنية من وقت الاصفرار والليل والنهار، ولعل العنصر الدرامي هو خوف المراكب من اللصوص وعدم موافقة الرياح للحركة، ولم يحدث ذلك فيما سرده السارد.

---

[1] - المصدر السابق، ج2، ص: 360.

[2] - نفسه، ج2، ص: 356.

فمثلما تتعرض القوافل لخطر قطاع الطرق براً، تتعرض المراكب للقرصنة بحراً، ومثل هذه الظاهرة تسجل انعدام الأمن في البلاد آنئذ برا وبحرا.

كما يسجل السارد موقفا نفسيا اجتماعيا حضاريا حين نفى الأذى المتبادل بين السارد والنصارى الراكبين، مما يحملنا على الاعتقاد أن الموقف الشائع من الآخر هو الأذى، بسبب الآثار المترتبة عن الحروب الصليبية من جانب، ومن جهة أخرى نعلم أن السارد يعيش في بيئة موحدا النمط الثقافي والعقائدي، والغريب أن اللقاء بين هؤلاء المسلمين والنصارى تم في البحر على ظهر السفينة، ولم يحصل أي مكروه، ولعل هذا المشهد أن يكون رامزا إلى المفصل الحركي " البحر" الواصل والفاصل بيننا وبين غيرنا، وأن الاتصال والمصالح المشتركة قائمة رغما عنا، وتتضح صورا البحر في المرسى أكثر منها في العمق، إذ قال متحدثا عن مرسى بولاق: "... وقد أرسينا ببولاق وهي مرسى القاهرا الكبير التي تجتمع فيها مراكب دمياط، ورشيد، والصعيد، وهممنا أن نبيت في المركب إلى الصباح، فاستخرت الله تعالى، فقوى عزمي على الخروج وتجشمنا مشقة الخروج من السفينة بين العشاءين من الزحام الكثير، من كثرا المراكب بحيث لم يتمكن لنا الخروج إلى على ظهر المراكب من مركب إلى آخر، وأصحابها يمنعوننا، ويشتموننا، فلما خرجنا تعرضنا المكاسون..." (1)

فالسارد يحكي ما حدث له في المرسى بضمير المتكلم "استخرت" وضمير جمع المتكلمين "هممنا"، "تجشمنا" وهو ومع من كان معه ينتقلون من مركب إلى آخر، وأصحاب المراكب يدفعونهم برفق أحيانا، وبغلظة وقسوا أحيانا إلى درجة الشتم. فالمرسى مكان واسطة بين البحر والبر، وفيها كثير من خصائص القاهرا المرصوصة بالأشياء والناس.

الأودية: ومن الأودية التي وقف عندها السارد طويلا، واد بالمدينة إذ حدد مصادره وتاريخه، وما شاهده منه، قال: "... سيل قناا إذا استجمعت يأتي من الطائف وهو أحد فحول أودية العرب، فيأتي من المشرق حتى يصل السد الذي أحدثته نار الحرا، وانقطع هذا الوادي بسببه، ثم انخرق سنة تسعين وستمائة، فجرى الوادي سنة على ما بين الجبلين، وسنة أخرى دون ذلك، ثم انخرق بعد السبعمائة، فجرى سنة أو أزيد، ثم انخرق

(1)- المصدر السابق، ج2، ص 357-358.

ســنة أربع وثمانين وسبعمائة بعد تواتر الأمطار، فحدث واديا آخر غير مجراه الذي هو علــى مشهد سيدنا حمزة قبليه وقبلي جبل عينين، وبقي المشهد وعينين في وسط السيل، نحــو أربعــة أشهر لا يقدر أحد على الوصول إليهما إلا بمشقة، وكان أهل المدينة يقفون علــى التل، الذي خارج باب البقيع، فيشاهدونه ولو زاد مقدار ذراع في الارتفاع، وصل إلــى المديــنة، ثم استقر في الوادي، بين القبلي والشمالي، قريبا من سنة. قلت وقد سال ونحن بالمدينة سيل عظيما بقي مدة يجري، إلا أنني لم يتــفق لي الخروج إليه لبعده، ثم عائــق المرض، إلا لما خرجنا لزيارة سيدنا حمزة في الرجبية أدركنا فيه بقية ماء، وهذا الوادي هو الذي ورد في الصحيح في استسقائه عليه السلام، أنه سال شهرا وأهل المدينة يخرجون إلى موضع أعلاه من ناحية المشرق وراء الحرة فيقيمون الأسبوع أو الأكثر."[1]

هــذا الــنص على طوله يبين لنا طريقة السرد المعتمدة في مثل هذه الأخبار إذ يمتزج فــيها السرد والوصف ويعامل المكان كالشخص تماما، فتحدد معالمه، وما جرى له من أحداث. فالسارد يسرد تاريخ المكان "الوادي" والسد الذي بني عليه، وانخراقه وما أحدثه الانخراق في مجراه من تغيير، وحين ينخرق السد يذكر لنا مدة سيلان الوادي باستمرار، ثــم يقــدم شهادته على أنه رآه أو رأى بقية الماء فيه بعد سيلانه مدة، ثم يذكر لنا احتفال أهــل المديــنة به حيث يقيمون الأسبوع أو أكثر من ذلك على ضفافه، ثم يربط هذا كله بــزمان النــبوة. فالسارد قد قدم لنا بطاقة خاصة بالوادي في جانبه التاريخي والعمراني، والطبيعي والاجتماعي، وربط ذلك بمصدر من مصادر التشريع، وهو الحديث الصحيح.

ومــن الأودية التي احتفى بها السارد وادي الرهبان "... وهو واد كبير ذو رمل، وفيه فسلان نخل، ومائه كثير، ولما نزلنا واشتد الحر، وكان الماء بعيدا منا، فقدرنا الذهاب إلى الماء، ثم إنا بحثنا في الرمل بإزاء خبائنا فوجدناه ثريا، ثم تابعنا البحث نحو ذراع فبلغنا إلــى مــاء حلو طيب جدا كماء النيل، فإذا الوادي كله على ذلك الوصف يحفر كل واحد ببــاب خبائه ما أراده للشرب والوضوء، ولم يذهب إلى الموارد إلا من شاء سقي الإبل، وغالب الناس سقوها هناك." [1]

---

[1] - المصدر السابق، ج1، ص: 273.

[1] - المصدر السابق، ص: 116- 117.

فالوادي كبير مغطى بالرمال وفسائل النخيل، والسارد يسرد لنا فعل الحفر والبحث عن الماء ويعبر ضمنيا عن الفرحة التي يشعر بها الناس حين وجدوا الماء عذبا بلا مشقة فصار لكل ذوي خيمة ماء وهذه النعمة قلما تحصل للقوافل العابرة للفيافي.

فالماء يبعث الحياة في كل شيء، فهاهم الناس في حركة هنا وهناك يبحثون على الماء ويستبشرون بالعثور عليه بعد مسافة قصيرة فيضحكون ويفرحون حامدين الله، فيتسابقون إلى الشرب والوضوء وإملاء الأوعية.

الآبار والأحساء: إن الماء يشكل هاجسا حقيقيا للرحالين المتوجهين إلى الحج، وبخاصة عن طريق الصحراء الممتد من سجلماسة إلى واركلا، ومن طرابلس إلى الإسكندرية، ومن سيناء إلى الحجاز، إذ يصعب فيها الحصول على الماء، وبخاصة والمسافرون في أركاب قد يتنافسون على ورود الماء ليلا ونهارا، وقد يتقاتلون، ولذلك كثر الحديث عن الآبار المتواجدة في الطريق، وعن مائها ونوعه، وعن الأحساء والمواجل التي يتجمع فيها ماء المطر. إنه العنصر الفعال في زاد الرحلة، ومن افتقده أو ضل عن مصادره فقد حياته وتعرض للهلاك.

فالحديث عن الآبار ومحيطها، وعمقها وحلاوتها وغزارتها وسهولة أخذ مائها من اهتمامات السارد في كل أحاديثه، وكما يهتم بصفة الماء العذب الحلو، يذكر النقيض، ومن ذلك: "...وماء الهايشة ملح أجاج لا يكاد يساغ يضرب به المثل في القبح، وليس في مياه برقة أقبح منه، إلا مواضع قليلة لا يعتمرها الحجاج، مع أن هذا أيضا لا يسقي منه إلا من اضطره العطش، وهو ماء راكد، في مواضع كثيرا يحيط بها القصب، وبعضه أشد قبحا من بعض..." (2)

فالتركيز كما مر على ذوق الماء ومحيطه وسهولة أخذه... يشكل العناصر الثابتة في السرد أو الوصف، وكأن السارد يضع معالم لمن سيأتي إرشادا وتحذيرا مع تبيان عذوبة الماء وملوحته وتعيين مواقعه، قال: " وتحته على ساحل البحر أحساء كثيرة، في وسط حدائق نخل، وماء ذلك المكان كله عذب..." (1)

---

(2) - نفسه، ج1، ص: 101.

(1) - المصدر السابق، ج1، ص: 169.

السبخات: يهتم السارد بالسبخات المتواجدة في الطريق، ومن ذلك سبخة أبي هلال قبل طرابلس: "... وبتنا على حد السبخة... وأظن أنها آخر سبخة سيدي أبو هلال [كذا] التي لم ير مثلها في سباخ الأرض كلها طولا وعرضا، وكثرة ملح... ودخلناها إثر سماء (مطر) فقاسى الناس فيها شدة ولم يهتدوا فيها للطريق... وسلكت الإبل فيها على صراط غير مستقيم، أرق من الشعرة وأحد من السيف... لا يمشي فيه إلا بعير واحد إثر بعير، ومن أعرض عنه وأمال يمينا أو شمالا ربما تسيخ رجلاه في الأرض..." [2]

ومن السبخات أيضا قوله: "... ومررنا بالهايشة وهي سبخة مستطيلة وعلى جوانبها قصور خالية وفيها نخيل متفرق كثيرة، والشياطين لا تبرح أوطانها منه، ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه سيما المعاود، لما سيشعر بعده من المفاوز والمهامه، والمعاطش التي يحار فيها الدليل، كما لا أحسن منه وأبهى منه في منصرف الآيب لدلالته على انقضاء المفازة وقرب العمارة. ونخيله آخر نخل يراه الذاهب وأول نخل يراه الآيب." [3]

فالاهتمام بالطول والعرض والنبات المحيط، مما يعتني بذكره السارد، فهو يرسم المكان رسما جغرافيا يقربه لذهن القارئ، ولعل هذا النص من النصوص النادرة التي ربط فيها السارد بين الجانب النفسي والبيئة، وقد فسر ذلك وأجاد. والسباخ توحي بالملح لهذا لم يغفل السارد الحديث عن ملح بالهايشة فقال: " وبآخر بالهايشة واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح فإن الماء يجمد ملحا، ولا الملح يذوب ماء... ولم نقطع ذلك المكان إلا بعد لأي ولأي..." [4] ومن السبخات التي وقف عندها السارد طويلا، سبخة الكبريت، قال: " وبتنا... في سبخة مقطع الكبريت وسمي هذا المحل مقطع الكبريت لأن في أعلى السبخ معدن الكبريت في آبار كثيرا يحمل منها كالطين، ومن هناك يحمل إلى طرابلس، وكذلك إلى مصر والإسكندرية، ويذهب منها مع الركب إلى مصر، في كل سنة أحمال كثيرة...وقد أصابتنا يوم نزولنا بهذه السبخة ريح عاصفة حمراء قوية جدا أسقطت كثيرا

---

(2) - نفسه، ج1، ص: 53.

(3) - نفسه، ج1، ص: 101.

(4) - نفسه، ج1، ص: 101.

مـن الأخبـية دامت إلا الصباح ولم نوقد نحن ولا كثير من أهل الركب في تلك الليلية نارا ولا طبخت فيه عشاء من قوة الريح وعصف منا الأخبية بالحبال فما أصبح ذلك." [1]

لا شك أنه وصف للمكان بكيفية قل أن تحدث في مثل هذه الرحلات إذ ربط فيها بين الـبيئة (السبخة) والطارئ الممثل في شدة الرياح التي عصفت بالناس وعطلت سيرهم العادي بقوتها وما تحمله من أتربة ومخاطر.

المـواجـل: اهتم السارد كثيرا بالمواجل التي تجمع مياه المطر والتي تسعف الحجيج في مواضع كثيرة من ذلك " ومررنا الغد بحسبان وهو ماجل منقور في حجر يجتمع فيه المطر فإذا فرغ المجتمع بقي محله يرشح بماء قليل يجتمع في قعره يبل الظمآن فمه." [2]

مـن هنا ندرك المعاناة التي يجدها الحاج وهو يبحث عن الماء فقد تضطره الظروف إلـى أن يـبلل فمه من بقايا ماء قديم العهد. فيسعد كل السعادة لأنه إن لم يجد ذلك الشيء اليسير يبس ريقه وانتهى أمره.

إن المـاء فـي مصـادره المختلفة وتشكيلاته المتباينة قد يكون مصدر فرحة وابتهاج للسـارد وقد يصبح في الرحلة عائقا حقيقيا أمام استمرار السير وهـو حين يكثر ويعذب ينشطه وحين يقل مذاقه يمل ويتعب كما أن الماء قد يكون في بئـر أو عين أو يسيل في واد أو يجتمع في ماجل أو سبخة فيعيق الركب فالماء هو الزاد الذي لا ينبغي أن ينفد في الطريق وبخاصة في الفيافي المقفرة لذلك يرصده السارد ويسـمه والحديث عنه مرتبط بالناس وبما يحدثونه من وسائل في تجميعه وحفظه وما يبذلونه من جهد للحصول عليه. و من هنا كانت علاقته بالجبال والسهول والقفار والأودية. ومن هنا تختلف قيمته في حالات الندرة والابتذال.

الطـريق: يعتنـي بها السارد من حيث الصعوبة والسهولة ومن حيث الأمن والخوف ووفـرة الوسـائل المعينة أو قلتها وانعدامها. ومن ذلك قوله: "... وسلكنا في أرض كأنها المحشـر ومحل المنشر إلا أنها ليست بيضاء ولا نقية بل سوداء شقية لا تسمع فيها إلا همسا ولا يسلك الدليل فيها إلا حدسا لم نضع الإبل ورؤوسها إلى الأرض كأنها سائرة

---

[1] - المصدر السابق، ج1، ص: 104.

[2] - نفسه، ص: 101-102.



ليوم العرض، في أرض مزقة من حر وشتها النعال، وآلمة أخفاف الإبل وحوافر البغال، فلففنا على الأرجل الخرق والرقاع، كأننا في غزوة ذات الرقاع نتدرج في أرض صفصف قاع. هي في رأينا شر البقاع، وقد فرغ من عند الناس الطعام والشراب، وتعوضوا منها الرمل والسراب..." (1)

إنها الطريق الصحراوية الواصلة بين القليعة و ورقلة في أرض الجزائر، على هضبة الحمادة، وقد أجاد السارد في تصوير معاناة الناس والإبل والبغال، حتى أيس الكل من الحياة، واستكانوا للعذاب، وقد قدم خطابه في بنية إيقاعية سجعية موزونة تنسي مضمونها، فكأن الألم يولد الجمال. إنه تجسيد للمكان لا تسمع فيه إلا الأصوات المارة و أخفاف الإبل.

ومما أشار إليه السارد أن الطريق في أرض الحجاز قد اهتم بها الأمراء، وأزالوا كثيرا من عقباتها قال:"... ومررنا بموضع يقال له عرقوب البغلة، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سويت وبنيت، واتخذ على جانب الطريق مسجد صغير غير مسقف، وذلك عمل الأمير رضوان..." (2)

أو كقوله: "...وأخذنا في نزول العقبة بعد طلوع الشمس، وهي عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، ولم لا، وهي عقبة أيلة المشهورة، إلا أن الطريق بها منحوتة، قد سويت في أكثر الأماكن الصعبة وبنيت حافتها ببناء متقن..." (3)

فالسارد يهتم ويبين حينما يجد الوسائل المعينة، ومن ذلك قوله: "...كما هو شأننا في كل دار وهي أحساء كثيرة في مضيق بين جبلين، فيها نخيل وماء طيب جدا حلو خفيف نافع، وتسوقنا بها أعراب مدين بأحمال كثيرة من العنب الجيد الأسود، وهي في غاية الحسن وجاءوا برمان كثير، واشترى الناس العنب أولا بدرهمين ثم صار بعد ذلك رطل ونصف بدرهم..." (4)

هاهو السارد يجد بغيته فينعت الماء بأربع نعوت متتالية " طيب، حلو، خفيف، نافع"

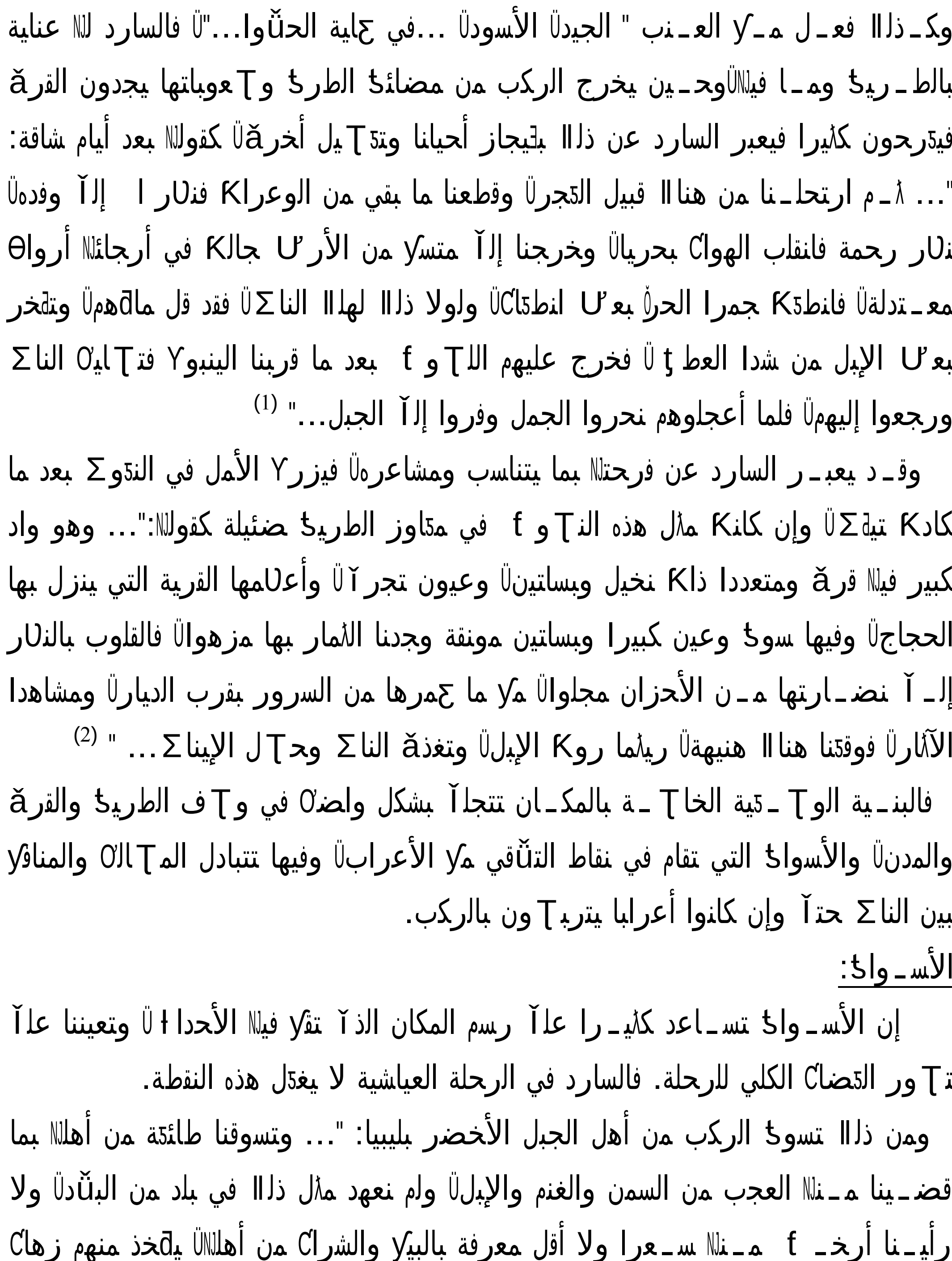
---

(1) - المصدر السابق، ج1، ص: 45.

(2) - نفسه، ج1، ص: 166.

(3) - نفسه، ص: 166.

(4) – نفسه، ج1، ص: 169.



وكذلك فعل مع العنب " الجيد، الأسود ...في غاية الحلاوة..." فالسارد له عناية بالطريق وما فيه، وحين يخرج الركب من مضائق الطرق وصعوباتها يجدون الفرجة فيفرحون كثيرا فيعبر السارد عن ذلك بإيجاز أحيانا وتفصيل أخرى، كقوله بعد أيام شاقة: "... ثم ارتحلنا من هناك قبيل الفجر، وقطعنا ما بقي من الوعر، فنزلنا إلى وفده، نار رحمة فانقلب الهواء بحريا، وخرجنا إلى متسع من الأرض جالت في أرجائه أرواح معتدلة، فانطفأ جمر الحر بعض انطفاء، ولولا ذلك لهلك الناس، فقد قل ماؤهم، وتأخر بعض الإبل من شدة العطش، فخرج عليهم اللصوص بعد ما قربنا الينبوع فتصايح الناس ورجعوا إليهم، فلما أعجلوهم نحروا الجمل وفروا إلى الجبل..." [1]

وقد يعبر السارد عن فرحته بما يتناسب ومشاعره، فيزرع الأمل في النفوس بعد ما كادت تيئس، وإن كانت مثل هذه النصوص في مجاوز الطريق ضئيلة كقوله:"... وهو واد كبير فيه قرى ومتعددة ذات نخيل وبساتين، وعيون تجري، وأعظمها القرية التي ينزل بها الحجاج، وفيها سوق وعين كبيرة وبساتين مونقة وجدنا الثمار بها مزهوة، فالقلوب بالنظر إلى نضارتها من الأحزان مجلوة، مع ما غمرها من السرور بقرب الديار، ومشاهدة الآثار، فوقفنا هناك هنيهة، ريثما روت الإبل، وتغذى الناس وحط الإيناس... " [2]

فالبنية الوصفية الخاصة بالمكان تتجلى بشكل واضح في وصف الطرق والقرى والمدن، والأسواق التي تقام في نقاط التلاقي مع الأعراب، وفيها تتبادل المصالح والمنافع بين الناس حتى وإن كانوا أعرابا يتربصون بالركب.

الأسواق:

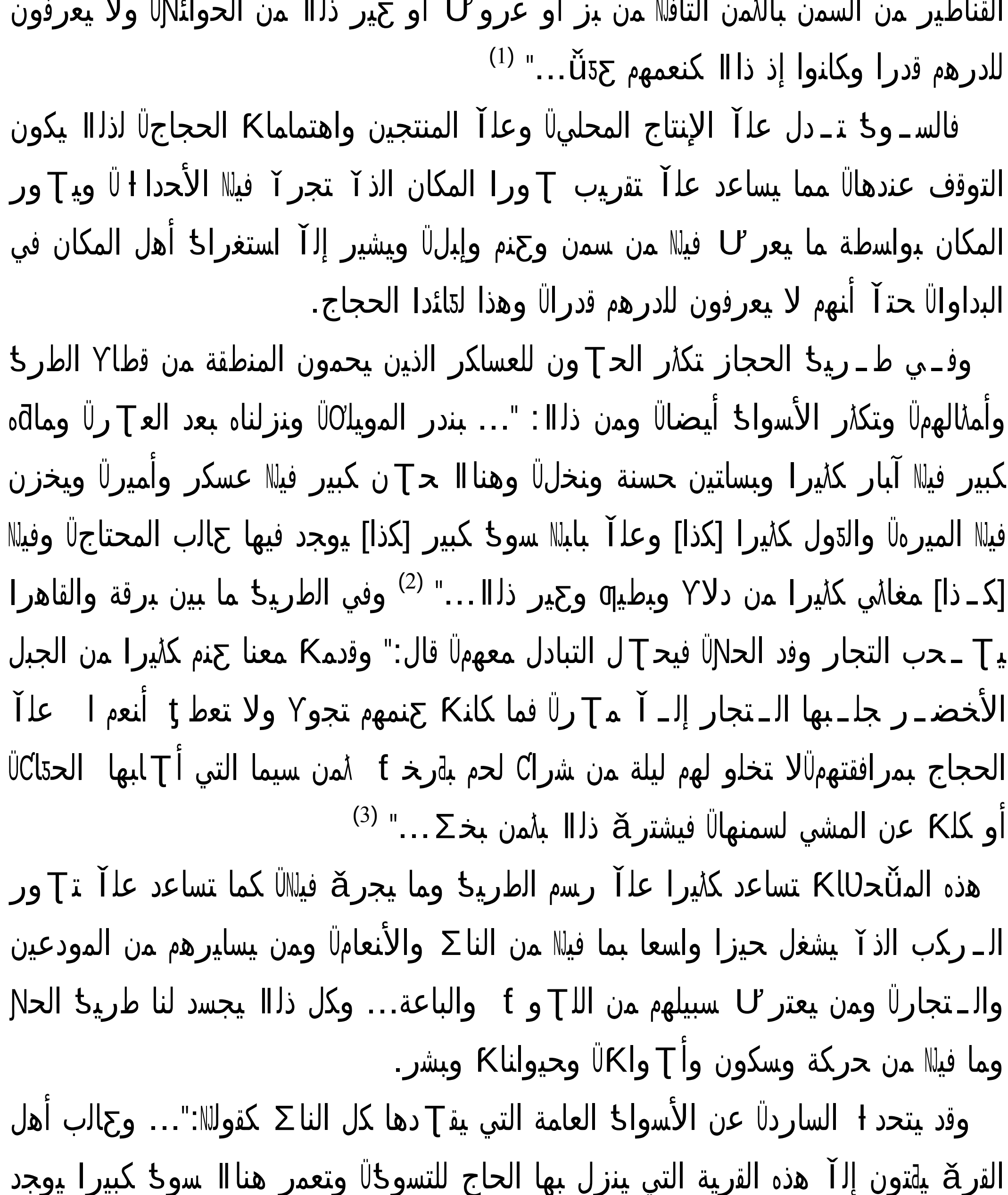
إن الأسواق تساعد كثيرا على رسم المكان الذي تقع فيه الأحداث، وتعيننا على تصور الفضاء الكلي للرحلة. فالسارد في الرحلة العياشية لا يغفل هذه النقطة.

ومن ذلك تسوق الركب من أهل الجبل الأخضر بليبيا: "... وتسوقنا طائفة من أهله بما قضينا منه العجب من السمن والغنم والإبل، ولم نعهد مثل ذلك في بلد من البلاد، ولا رأينا أرخص منه سعرا ولا أقل معرفة بالبيع والشراء من أهله، يأخذ منهم زهاء

---

(1) - المصدر نفسه، ج1، ص: 178.

(2) - نفسه، ج1، ص: 187.



القناطير من السمن بالثمن التافه من بز أو عروض أو غير ذلك من الحوائج، ولا يعرفون للدرهم قدرا وكانوا إذ ذاك كنعمهم غنم..." [1]

فالسوق تدل على الإنتاج المحلي، وعلى المنتجين واهتمامهم بالحجاج، لذلك يكون التوقف عندها، مما يساعد على تقريب صورة المكان الذي تجري فيه الأحداث، ويصور المكان بواسطة ما يعرض فيه من سمن وغنم وإبل، ويشير إلى استغراق أهل المكان في البداوة، حتى أنهم لا يعرفون للدرهم قدرا، وهذا لفائدة الحجاج.

وفي طريق الحجاز تكثر الحصون للعساكر الذين يحمون المنطقة من قطاع الطرق وأمثالهم، وتكثر الأسواق أيضا، ومن ذلك: "... بندر المويلح، ونزلناه بعد العصر، وماؤه كبير فيه آبار كثيرة وبساتين حسنة ونخل، وهناك حصن كبير فيه عسكر وأمير، ويخزن فيه الميرة، والدول كثيرا [كذا] وعلى بابه سوق كبير [كذا] يوجد فيها غالب المحتاج، وفيه [كـذا] مغاني كثيرة من دلاع وبطيخ وغير ذلك..." [2] وفي الطريق ما بين برقة والقاهرة يصحب التجار وفد الحج، فيحصل التبادل معهم، قال:" وقدمنا معنا غنم كثيرة من الجبل الأخضر جلبها التجار إلى مصر، فما كانت غنمهم تجوع ولا تعطش أنعم الله على الحجاج بمرافقتهم، لا تخلو لهم ليلة من شراء لحم بأرخص ثمن سيما التي أصابها الحفاء أو كلت عن المشي لسمنها، فيشترى ذلك بثمن بخس..." [3]

هذه المحطات تساعد كثيرا على رسم الطريق وما يجري فيه، كما تساعد على تصور الركب الذي يشغل حيزا واسعا بما فيه من الناس والأنعام، ومن يسايرهم من المودعين والتجار، ومن يعترض سبيلهم من اللصوص والباعة... وكل ذلك يجسد لنا طريق الحج وما فيه من حركة وسكون وأصوات وحيوانات وبشر.

وقد يتحدث السارد عن الأسواق العامة التي يقصدها كل الناس كقوله:"... وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق، وتعمر هناك سوق كبيرا يوجد

---

[1] - المصدر السابق، ج1، ص: 106.

[2] - نفسه، ج1، ص: 170.

[3] - نفسه، ج1، ص: 111.

فـيها غالـب المحتاج وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفول شيء كثير" [1]

هـذه الأسواق تقام خارج المدن أما أسواق المدن والمواسم فشيء آخر "... ثم في الغد عمـرت الأسـواق وكثـر الإنفاق وخرجت البضائع ذوات الأثمان وصنوف التجارات وتـزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان، وأكثر التجار يقولون إن من اشترى شيئا من منى، وجعلها في تجارته وجد بركته." [2]

والحـديث عـن الأسواق والتسوق يبرزنا لعادات، والتقاليد، والمعروضات... ويساعد على تكوين صورا للعصر، وما يجري فيه من بيع وشراء في المدن والأرياف.

الأماكن المقدسة:

إن الحـديث عـن الأمـاكن المقدسة يشمل دور العبادة التي خصت بالتقديس شرعا، والقـبور التـي خصت بالاحترام، ثم الزوايا والأضرحة التي استحدثت وبالغ الناس في تقديسها إلى ما يفوق الصنفين الأولين أحيانا، ولكون الرحلة العياشية حجازية فمما لاشك فـيه أن الدافع الروحي هو المهيمن على المؤلف، لذلك سنجده يحيا في عالم خاص قد لا نتصـوره، وذلـك لا يمنعنا من محاولة استحضار بعض عناصره، و يتجلى برنامجه في الـبداية حيث يهتم بالأحياء والأموات، وبالمساجد والأضرحة ويستمد من الكل ما يزوده بالطاقة الروحية التي يبحث عنها، ولنبدأ بذكر الزوايا.

الزوايا: في الزاوية غالبا ما يكون هناك عالم له دراية بالأمور الشرعية، والسارد يبحث عـن ذلـك ويتحـراه "... وكـنا نزلنا بقرب زاوية سيدي عمر...الأنصاري الخزرجي الشامي، ولقينا بها رجلا ممن ينتحل الفقه اسمه سيدي محمد بن محمد بن علي بن أبي بكر وهو في غالب الظن من أهل الخير، وله بعض الخبرة بفروع الفقه..." [3]

وجـرت بيـنهما مسـائل على مدى أكثر من صفحتين، في نوازل فقهية، ف الزاوية تبدو منبرا لاستعراض قضايا معرفية، حين يجد من هو أهل لذلك.

---

[1] - المصدر السابق، ج1، ص: 178.

[2] - نفسه، ج1، ص: 199.

[3] - نفسه، ج1، ص: 22.



وقد تتخذ بعض الزوايا في إطعام الناس، وقد تسند أمور بعضها في فترات الضعف إلى غير المؤهلين، كما حدث في زاوية الشيخ زروق بمسراتة:" ونزلنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب ووقار وذل وانكسار، وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع، وهو الذي كان الشيخ يصلي فيه، وخطب إمام المسجد من ورقة، وليته أحسن القراءة منها، فإنه كان يتوقف حتى في آيات من القرآن العظيم، وأسف لذلك المكان من شرفه بجوار الشيخ... كيف يسند الأمر فيه إلى غير أهله، ويوضع في غير محله، فلله الأمر من قبل ومن بعد..." [1]

فالزوايا منارات بالمغرب العربي، و يبرزها السارد بهذا المفهوم، ويأسف حين تقصر عما ينبغي أن تكون عليه، وحين يصبح القائمون عليها لا يتمكنون من قراءة المكتوب.

الأضرحة:

مما اهتم السارد به زيارة الأضرحة، فهي من الأماكن التي يتعاهدها سواء منها ما يعرف بأضرحة شيوخ الزوايا أو المشاهد المنتشرة على عهده في البقاع المقدسة[2]، وتحويل المكان إلى فضاء ذي وظيفة قدسية، نشأ بالتدريج في العالم الإسلامي حتى صار يخضع لخصائص ينبغي مراعاتها من خلال تعاليم الشريعة وجوبا وندبا [3]

ومن ذلك زيارته للقلعة التي كان يدرس بها أبو الحسن الشاذلي بالإسكندرية: " وزرنا قلعة أبي الحسن الشاذلي، التي كان يأوي إليها هو وأصحابه، وهي قلعة كبيرة في سور البلد الشرقي فيها بيوت متعددة، والطائفة الشاذلية رضي الله عنهم إلى الآن يأتونها في ليلة معلومة في السنة، ويبيتون بها، ويطعمون، ويذكرون الله تعالى، ويقرؤون ثم يفترقون من هنالك إلى مثل ذلك الوقت في السنة الأخرى." [4]

إنه احتفال سنوي يجتمع فيه المريدون لأحياء الذكرى، بالإطعام والذكر والتعارف. فالسارد في الرحلات المغربية وبخاصة الرحلات الحجازية يلح إلحاحا شديدا على زيارة

---

(1) - المصدر السابق، ج1، ص: 96.

(2) - ورأيه كما سجله: " أن هذه أماكن اشتهرت بين الناس فتزار لحسن النية رعاية لقدر من أضيفت إليه فيستحضرالزائر في قلبه علامة من نسبت إليه الأمكنة، وعظمة تلك النسبة ولا يشغل قلبه بصحة النسبة وضعفها..." [ج1، ص: 226.]

(3) - عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر، ص 275 هامش 3.

(4) - أبو سالم العياشي، الرحلة، ج2، ص :364.

الأولـياƇ الأحـياƇ والأمواƘÜ ولا يتردد في ذكر فضائل المزار العلمية والسلوكيةÜ وما يـروăa عنهم من كراماƘÜ مما يجعل المكان المزار سببا في ذكر أسانيد الحديƭ Ü والكتب الƋقهيةÜ أو القواعد السلوكية و المجاهداƘ الƇوفية.

وهذه الزياراƘ تƌدƒ وƴائف تطهيريةÜ إذ يشعر فيها السارد بالراحة والاطمئنان وأداƇ جزƇ من الواجب الذƒ التزم بƌ ويبلƷ الاندماج الروحي مƲ المكان مبلغا عالياÜƯ وكƛيرا ما يƇ ـرƟ الســارد بƋن عدم تمكنƌ من الوƇول إلƑ مكان ما (مقدƩ) سبب لƌ خيبة أمل كبيـرا يتمنـƑ لـو تتاƟ لƌ الƑرƇة لاستدراكهاÜ لذا نجده يƋƃسف عن ضيƀ الزمان حين يضـطر للƋرتحـال قـبل إتمام الأوطارÜ وحين يƇل الانƑعال الوجداني أقƇاه قد يبدƒ السـارد/ المƌلف قƇائد ينشدهاÜ أو يƛبƘ قƇيدا قالها قبل: " لما دخلƘ مشهد الشيƣ أبي العـباƩ المرسي رضي ا عنƌÜ وجدƘ القƇيدا التي بعƛتها عند ذهابنا ملƇقة بالجدار القبلـيÜ بƎزاƇ المحراب وحولها قƇيدا لي أخرă كتبتها هناƁ سنة أربƲ وستينÜ وبƎزائها قƇيدا الشيƣ... محمد الحاƋƴ أبي جمال الدين المقدسي... مƲ قƇائدƒ..."[1]

ومـن المـزاراƘ بالإسـكندرية " زاوية أبي محمد ƇالƠ ينزلها المغاربة ولهم فيها أوقـاف وفـيها سـƔƟ معلƀ يتبركون بƌÜ يزعمون أنƌ من سƔƟ الƇحابة الذين فتحوا المدينةÜ ولا أƇل لذلƁÜ ومن المزاراƘ أيضا مƇحف كبير بجامعها الكبيرÜ يزعمون أنƌ مـن المƇاحف التي بعƛها سيدنا عƛمان... إلƑ الآفاƀÜ ولا يƇƠ نسبتƌ إليƌÜ ومن مبانيها العجيبة التي لا شبيƌ لƌ في الدنيا حمامها الكبيرÜ فقد أƛنƑ عليƌ الأطباƇÜ وذكر المƌرخون أنƌ انƑرد في سعتƌ وحسن شكلƌ وفخامة بنائƌ عن Ʒيره من حماماƘ..." [2] فالسارد يسرد ما يقالÜ ويƇف ما يرăaÜ ويعلƀ علƑ ذلƁ بما يقتنƲ بƌ.

فالمكـان مناسبة لتسجيل عاداƘ أو سلوƁÜ وهو بذلƁ يغوƫ في عمƀ المجتمƲ ليسجل التقالـيد التي ميزƘ العƇور الغابرÜ وما فيها من محدƛاƘ علƑ أƇعدا مختلƑة. والسارد يقـدم هذه المشاهد وما يجرƒ فيها من أفعال وأقوالÜ ويƇف المكان وهو ƹاƫ بالناƩÜ ويسجل الأƇواƘ المتداخلة من قبل الحضور الذاكرين والتالين للقرآنÜ والمƇلين حتƑ

---

[1] - المƇدر نƑسƌÜ ج2Ü ƫ: 364.

[2] - نƑسƌÜ ج2Ü ƫ: 367.

آذان الۃجر. وخŢ f Ţ ۃحاĶ لما ينبغي أن يزار في المدينة المنورا ومكة المكرمةٚ و يشير إلĨ المقاماĶ والمساجد والأضرحة في كل مكان يحل بƜ.

ومـن المشـاهد التي زارها السارد وحدۿنا عنها ما يلي: " مشهد سيدنا إبراهيم بن النبي *ŢĨĪ / عليƜ وسلم* فيƜ قبرهٚ وقبر عۿمان بن مƲعونٚ فقد جاƇ في الحديƚ أن أول من دفـنƜ رسـول ا *ŢĨĪ / عليƜ وسلم* بالبقيƔ عۿمان بن مƲعونٚ فلما توفي ابنƜ إبراهيم قالوا يا رسول ا أين نحۃر لƜ Þ قال عند فرطنا عۿمان بن مƲعونٚ وفي الحديƚ ما يدل علĨ أن بناĶ النبي *ŢĨĪ / عليƜ وسلم* هناƅ." [1]

فهـذا السرد بمۿابة حۃر في المكانٚ فهو يقف عند نقطة في مكان ماٚ ويذكر حالها كما هـي علĨ عهدهٚ ۿم يستنطƾ المكان فƎذا التاريƹ يتكلم بما حƲƜ وما نسيƜٚ وما يشاƅ فيƜ وقد يلجƋ إلĨ مناقشة حجاجية ذاĶ براهين منقولة عن Ţحة خبر ما.

إن سرد المشاهد في كل نقطة هي رحلة في الماضيٚ حتĨ أن السارد Ţار شغوفا بهذه الرحƜĶ الارتدادية إلĨ الوراƇٚ واستعراƉ أخبارهاٚ وإن بعُد زمنهاٚ لكونها تشكل جزƇا من ۿقافتƜٚ يتباهĨ بتحقيقاتƜ المنقولة والمسموعةٚ وقد يرفƉ الأخبار والآراƇٚأو يرجحها.

والسـارد حـين يسرد مۿل هذه الأخبار وحين يقف علĨ هذه المشاهد نجده يتسم بروƟ العـالم المحقـƾ الذƓ لا يقبل من الأخبار إلا ما ۿبĶ من أكۿر من طريƾٚ وبخاŢة في مشـاهد مكة والمدينة مسترشدا بشخ f مقيم يعرف المشاهد يدعĨ الشيƹ محمد الۃزارƓ وبكتاب السيد السمهودƓ " تاريƹ المدينة ".

وهـذا ما يۃعلƜ حين يŢل القدƩٚ ويسرد أخبار المزاراĶ هناƅ فكۿيرا ما يعلƾ علĨ المـزاعم كقـولƜ: "... وأمـا قبر موسĨ عليƜ السƜƛ بينƜٚ وبين القدƩ نحو من نŢف مـرحلةٚ أو أزيد إلĨ ناحية المشرƾ وقد أروني ما يحاذيƜ من الأمكنة عندما Ţعدنا إلĨ الطورٚ وأخبروني أن المسافة بيننا وبينƜ مخوفة غايةٚ ولا يوŢل إليƜ إلا في قواٚ ومنعة وكـنĶ كۿيـر الاشـتياƾ لرƊيتƜٚ ولمشاهدا ما يقال هناƅ من العجائبٚ وإن لم يرد أۿر Ţـحيƴ في أن ذلƅ قبرهٚ ولم يشتهر ذلƅ المكان في العهد القديمٚ ولا في Ţدر الإسƜƛٚ وإنما بناه وأƲهره المتƋخرون من الملوƅٚ وأƲن ذلƅ كان في المائـة السادسـة أو

[1] - المŢدر السابƾٚ ج1ٚ f : 239.

السابعة..." [1]

فالسارد لا يتدخل فيما يسرد عليه ولكن ينقله ثم يعلق مبديا رأيه وهو في مثل هذه الأخبار ليس حياديا بمعنى أنه ليس وسيطا ينقل المسرود فقط وإنما هو سارد للخبر ناقد له ويرفضه حين لا يرى له وجها من الصحة وإن كان يميل في عمقه للتصديق أو التماس البركة بناء على النية كما يقول في أكثر من موضع.

ومن المشاهد التي زارها في فلسطين قبر الخليل إبراهيم عليه السلام:"...فزرنا قبر خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام وقبور بنيه الكرام سيدنا إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام وقبور أزواجهم والقبور كلها في مغارة تحت أرض المسجد وفي المغارة طاقة مفتوحة في وسط المسجد مثل البير قد علقت فيها مصابيح توقد ليلا ونهارا وفي أرض المسجد شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور من ديباج في مقابلة قبور الأنبياء التي في المغارة إلا قبر يوسف عليه السلام فإنه في آخر المسجد في ركنه الغربي في محل يغلق عليه ولا يفتح إلا في أوقات مخصوصة..." [2]

فالسارد يتحرى هذه المزارات ويبحث عنها بكل جهده وقد يكلفه ذلك مشاق كثيرة وكأن في عمقه لذة أو متعة تدفعه إلى حب الاستكشاف و الاطلاع و يزورها من باب حسن الاعتقاد في التواصل بين الأموات والأحياء التماسا للبركة.

المساجد:

إن الرحال المغربي يهتم بالمساجد اهتماما خاصا فهو ينزل بها أو بقربها أينما حل باعتبار المسجد مكان العبادة ومكان التلاقي والتعارف وباعتباره مكان العلم والأمن فيه تدرس مختلف العلوم وتجرى فيه الحلقات المتنوعة. لذلك نجد السارد يسرد أخبار المساجد وأحوالها باستمرار ولا يغفل عنها أينما حل فهو من الأماكن الثابتة في الرحلات كما يهتم بالمآذن وارتفاعها ودرجاتها وتقنيات بنائها. ففي مسجد ورقلة صعد المئذنة ووصف المدينة قائلا: "... ثم بعد الصلاة طلعنا للمئذنة وهي مشرفة على المدينة كلها فنظرنا إلى أطرافها ووسطها وكنا نستقلها قبل ذلك فإذا هي مدينة لها

(1) - المصدر السابق، ج2، ص: 318.

(2) - نفسه، ج2، ص: 345.

سـبعة أبـواب وهي في وسط خط من النخيل، ومساحة المدينة بالتخمين نحو من نصف فرسخ في مثله محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها..." [1]

فهـذا الوصـف الشـامل تم بواسطة تقنية رؤية مشرفة من أعلى وفرتها المئذنة التي أسعفت السارد على إدراك المكان وتصويره، وهذه التقنية قليلة في الأوصاف القديمة، ثم قـال فـي المسجد: "... فدخلت المسجد بإزاء داره [الإمام] لصلاة المغرب، وهو مسجد مـتقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان، على بابه أماكن وفي جوانبه معدا للوضوء، وقضاء الحاجة ومكان معد لتسخين الماء فأعجبني غاية..." [2] لقد نزل من المئذنة وباشر الوصف عن قرب، فهو يعدد الأجزاء بنقل بصره من مكان إلى آخر، فكون تصورا جيدا للمكان ومرافقه المختلفة التي تعين القاصد على أداء الصلاة وشروطها.

فالسـارد يقتـرب من المسجد أكثر حل"... وكان نزولنا يوم دخولنا طرابلس في المحل الـذي كـنا ننزل فيه قبل ذلك ...على باب المسجد المسمى بجامع الحاج إبراهيم بقصبة المدينة قرب ضريح ولي الله تعالى سيدي سالم المشاط..." [3]

إن تحديد المكان في أقصى المدينة قرب المسجد والضريح، مما يرتاح إليه السارد فكأنه يستأنس بالأحياء والأموات معا. وهذا دأبه لقوله: " كنا ننزل فيه قبل ذلك" ولذلك يتأسف حين يصل القاهرة: " ثم دخلنا القاهرة ضحى، ولم نجد دار للكراء بقرب الأزهر مع شدة رغبتـنا فـي ذلك، فطرحنا أمتعتنا بوكالة قايتباي بباب الأزهر الغربي، وجعلنا نتطلب دارا للسكنى، فما وجدناها إلا آخر النهار بمحل يقال له البردبكية، وجدنا هناك دارا واسعة فـيها عـدة مساكن إلا أنها بعيدا عن الأزهر بنحو من أربعمائة خطوة، قريبة من مشهد الحسـين رضـي الله عنه..."[4]، لقد أهمه البعد عن الأزهر حيث عد المسافة بالخطوات، ورغم قرب السكن من مسجد الحسين، واتساع الدار، فإنه يأسف على ذلك كثيرا، وبخلاف ما يفعله العبدري الذي يستقصي الأماكن استقصاء المهندس الخبير بأبعادها، وفنياتها، فإن سارد العياشية لا يهتم بالمسجد ذاته وأبعاده وسواريه إلا قليلا، فهو يقصد المساجد متبركا

---

[1] - المصدر السابق، ج1، ص: 46.

[2] - نفسه، ج1، ص: 47.

[3] – نفسه، ج1، ص: 61.

[4] – نفسه، ج1، ص: 125.

بهـا، ولا يفـتها إلا البـيت العتـيق، والمسجد الأقصى، فقد رسم للبيت العتيق شكلاً توضيحيا زيادا عن التشكيل اللغوي، قال: " صفة البيت العتيق -زاده الله شرفا- من داخله بـيت مربع ونقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السلم، نحو ثلاثة أذرع يصعد مـنه إلـى السـطح، وأرضه مفروشة بالمرمر الملون المجزع، مكسو الحيطان والسقف بكسوا على هيئة الكسوا الخارجة في الصنعة، والكتابة مخالفة لها في اللون، فإن الخارجة سـوداء كلهـا، والداخلة بياض في حمرا، وفيه مصابيح كبيرا معلقة بعضها من الذهب وبعضها من البلّور الأبيض الصافي، المكتوب بلون أزوردي، وله ثلاثة أعمدا من خشب مصـطفة فـي وسطه ما بين اليمين والشمال، وكل عمود منها قد سمرت عليه ألواح من عـود من أسفله مقدار وقفة -ثم يقدم الشكل- والخشب المسقف به الذي عليه اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدها رأسه على رأس السلم..." [1]

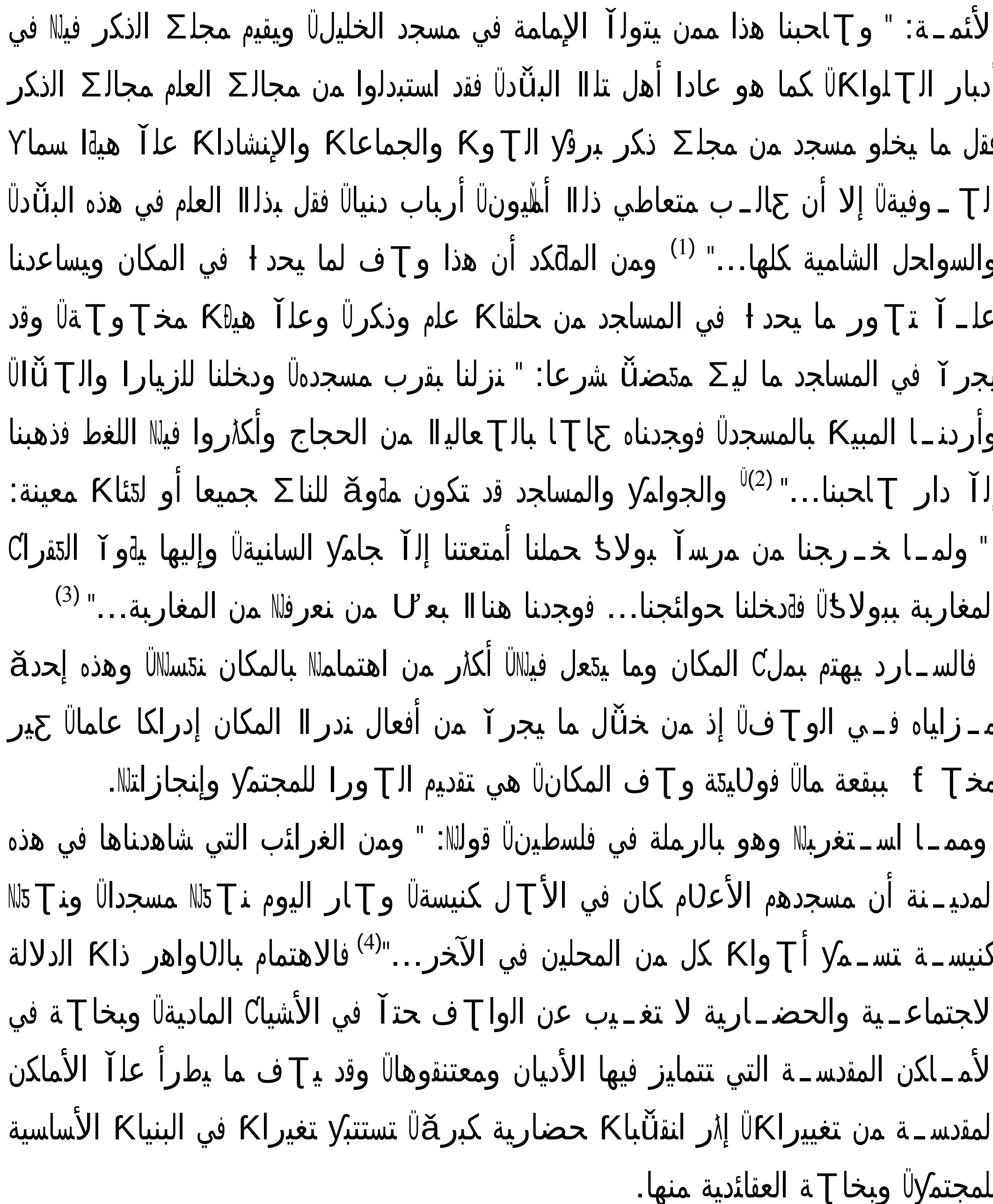
وهذا أوفى نص استقصائي للأماكن المقدسة في الرحلة العياشية، وكأنه كان يختبر طاقته الوصفية كلها ثم ركزها في البيت العتيق إذ هي نقطة الارتكاز في القبلة، ونقطة الارتكاز في الحج وإليها كان يهفو، ومنها كان يعرج في رحلة تأملية، .

يكثـر السارد من زيارا المساجد ويعتني بتاريخها وتوثيق ما قيل فيها أكثر من وصفها علـى مـا هـي عليه، ولعل عدم اهتمامه بالشكل والبناء راجع إلى كونه ألف المكان في الحجـاز السابقة، ولكونه مجاورا صار ما بالمساجد لا يشكل لديه أي جديد، إلا أنه حين زار بيت المقدس أول مرا وصف الصخرا والمسجد الأقصى بإطناب، ومما قاله: " وهذا المسـجد المقـدس آية من آيات الله في فخامة البناء وسعة المقدار، فيه أشجار كثيرا من التين والزيتون، عظيمة تحت كل شجرا مصطبة مبنية بالحجر المنحوت على قدر ما تظله أغصـان الشجرا، فيه شكل محراب يجلس الناس تحتها للصلاة... وفي وسط المسجد قبة الصخرا ماثلة في الهواء مثمنة الشكل لها أربعة أبواب، دور القبة كلها نحو من خمسمائة قـدم وحـيطان القبة وأرضها كلها مزخرفة بأنواع الفسيفساء المصبوغة بأصباغ مختلفة ونقوش عجيبة..." [2]

---

(1) - المصدر السابق، ج1، ص: 197.

(2) - نفسه، ج2، ص: 315.



وقد يسجل الظواهر الاجتماعية والعلمية وحلقات الذكر المقامة في المساجد بإشراف الأئمة: " وصاحبنا هذا ممن يتولى الإمامة في مسجد الخليل، ويقيم مجالس الذكر فيه في أدبار الصلوات، كما هو عادة أهل تلك البلاد، فقد استبدلوا من مجالس العلم مجالس الذكر فقل ما يخلو مسجد من مجالس ذكر يرقى الصوت والجماعات والإنشادات على هيئة سماع الصوفية، إلا أن غالب متعاطي ذلك أميون، أرباب دنيا، فقل بذلك العلم في هذه البلاد والسواحل الشامية كلها..." (1) ومن المؤكد أن هذا وصف لما يحدث في المكان ويساعدنا على تصور ما يحدث في المساجد من حلقات علم وذكر، وعلى هيئات مختصة، وقد يجري في المساجد ما ليس مستحضرا شرعا: " نزلنا بقرب مسجده، ودخلنا للزيارة والصلاة وأردنا المبيت بالمسجد، فوجدناه غاصا بالصعاليك من الحجاج وأكثروا فيه اللغط فذهبنا إلى دار صاحبنا..." (2) والجوامع والمساجد قد تكون مأوى للناس جميعا أو لفئات معينة: " ولما خرجنا من مرسى بولاق حملنا أمتعتنا إلى جامع السانية، وإليها يأوي الفقراء المغاربة ببولاق، فدخلنا حوائجنا... فوجدنا هنالك بعض من نعرفه من المغاربة..." (3)

فالسارد يهتم بملء المكان وما يفعل فيه أكثر من اهتمامه بالمكان نفسه، وهذه إحدى مزاياه في الوصف، إذ من خلال ما يجري من أفعال ندرك المكان إدراكا عاما، غير مختص ببقعة ما، فوظيفة وصف المكان، هي تقديم الصورة للمجتمع وإنجازاته.

ومما استغربه وهو بالرملة في فلسطين، قوله: " ومن الغرائب التي شاهدناها في هذه المدينة أن مسجدهم الأعظم كان في الأصل كنيسة، وصار اليوم نصفه مسجدا، ونصفه كنيسة تسمى أصوات كل من المحلين في الآخر..."(4) فالاهتمام بالظواهر ذات الدلالة الاجتماعية والحضارية لا تغيب عن الواصف حتى في الأشياء المادية، وبخاصة في الأماكن المقدسة التي تتمايز فيها الأديان ومعتنقوها، وقد يصف ما يطرأ على الأماكن المقدسة من تغييرات إثر انقلابات حضارية كبرى، تستتبع تغيرات في البنيات الأساسية للمجتمع، وبخاصة العقائدية منها.

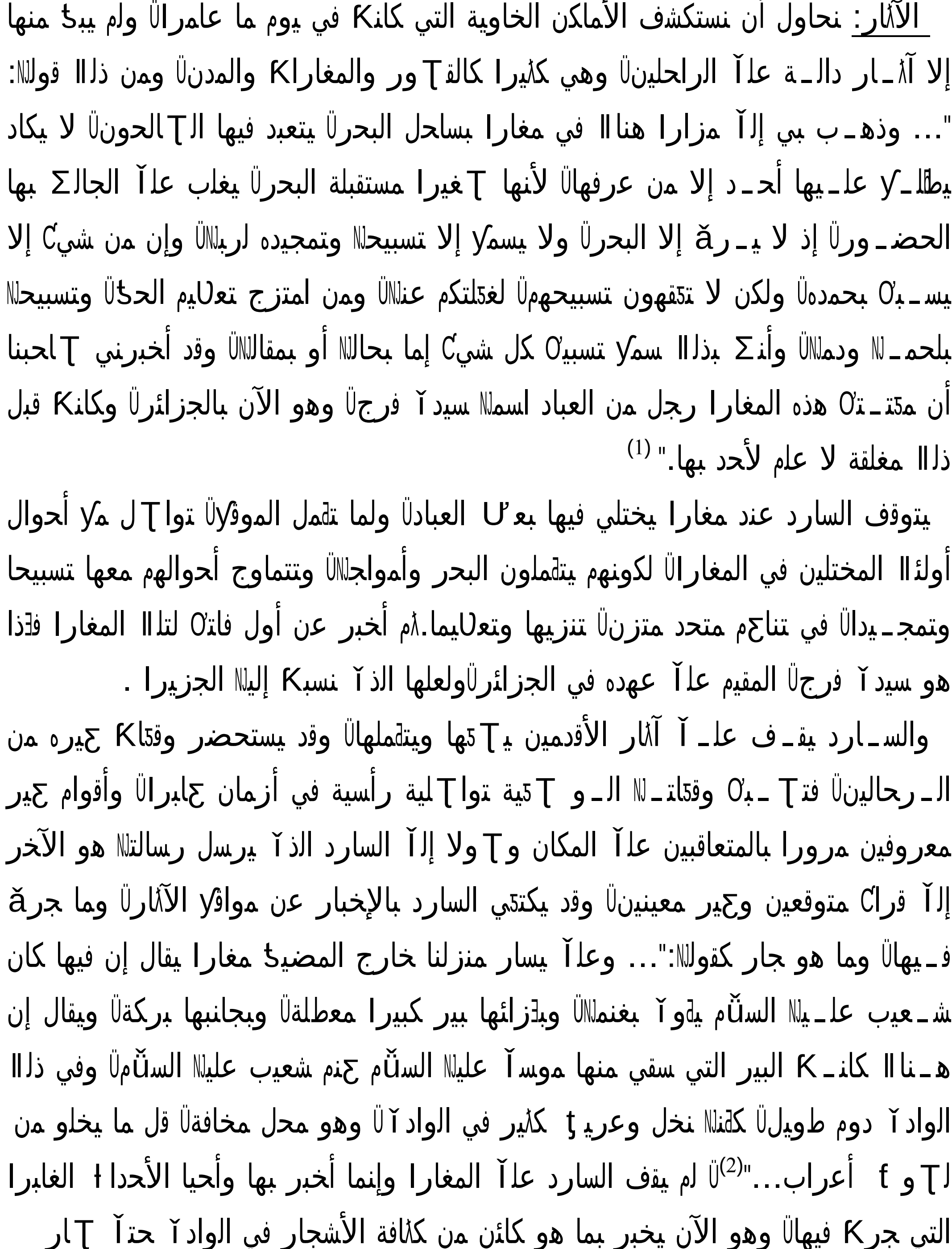
---

(1) – المصدر نفسه ج1، ص: 347.

(2) – نفسه ج2، ص: 379.

(3) – نفسه ج2، ص: 358.

(4) - نفسه ج2، ص: 314



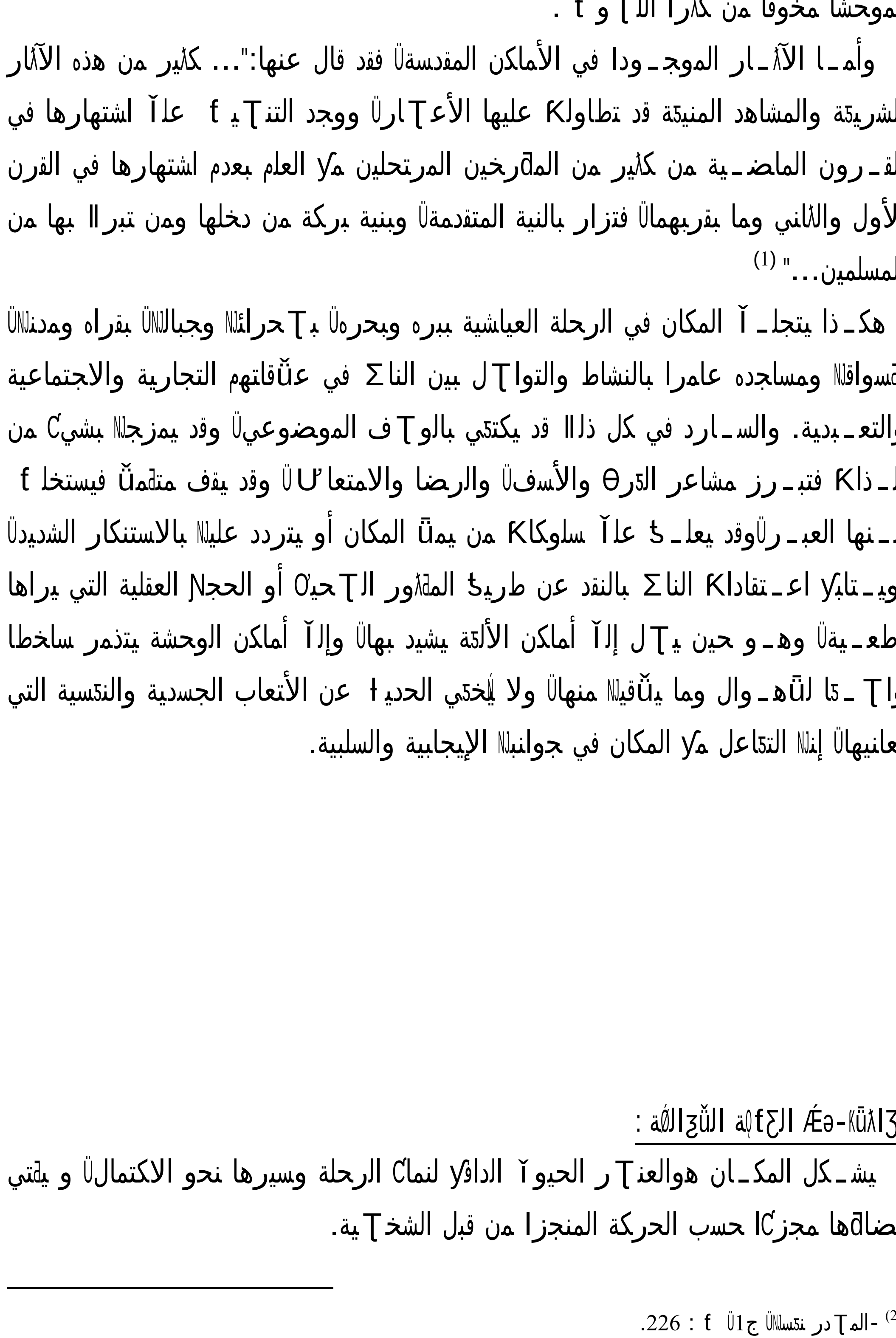
الآثار: نحاول أن نستكشف الأماكن الخاوية التي كانت في يوم ما عامرة، ولم يبق منها إلا آثار دالة على الراحلين، وهي كثيرا كالقبور والمغارات والمدن، ومن ذلك قوله: "... وذهب بي إلى مزارا هنالك في مغارا بساحل البحر، يتعبد فيها الصالحون، لا يكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها، لأنها صغيرا مستقبلة البحر، يغلب على الجالس بها الحضور، إذ لا يرى إلا البحر، ولا يسمع إلا تسبيحه وتمجيده لربه، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، لغفلتكم عنه، ومن امتزج تعظيم الحق، وتسبيحه بلحمه ودمه، وأنس بذلك سمع تسبيح كل شيء إما بحاله أو بمقاله، وقد أخبرني صاحبنا أن مفتتح هذه المغارا رجل من العباد اسمه سيدي فرج، وهو الآن بالجزائر، وكانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها." (1)

يتوقف السارد عند مغارا يختلي فيها بعض العباد، ولما تأمل الموقع تواصل مع أحوال أولئك المختلين في المغارا، لكونهم يتأملون البحر وأمواجه، وتتماوج أحوالهم معها تسبيحا وتمجيدا، في تناغم متحد متزن، تنزيها وتعظيما. ثم أخبر عن أول فاتح لتلك المغارا فإذا هو سيدي فرج المقيم على عهده في الجزائر، ولعلها الذي نسبت إليه الجزيرا .

والسارد يقف على آثار الأقدمين يصفها ويتأملها، وقد يستحضر وقائع غيره من الرحالين، فتصبح وقفاته الوصفية تواصلية رأسية في أزمان غابرة، وأقوام غير معروفين مرورا بالمتعاقبين على المكان وصولا إلى السارد الذي يرسل رسالته هو الآخر إلى قراء متوقعين وغير معينين، وقد يكتفي السارد بالإخبار عن مواقع الآثار، وما جرى فيها، وما هو جار كقوله:"... وعلى يسار منزلنا خارج المضيق مغارا يقال إن فيها كان شعيب عليه السلام يأوي بغنمه، وبإزائها بير كبيرا معطلة، وبجانبها بركة، ويقال إن هنالك كانت البير التي سقي منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام، وفي ذلك الوادي دوم طويل كثير، نخل وعريش كثير في الوادي، وهو محل مخافة، قل ما يخلو من لصوص أعراب..."(2)، لم يقف السارد على المغارا وإنما أخبر بها وأحيا الأحداث الغابرا التي جرت فيها، وهو الآن يخبر بما هو كائن من كثافة الأشجار في الوادي حتى صار

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 100-101.

(2) - نفسه، ج1، ص : 169.



موحشا مخوفا من كثرة اللصوص .

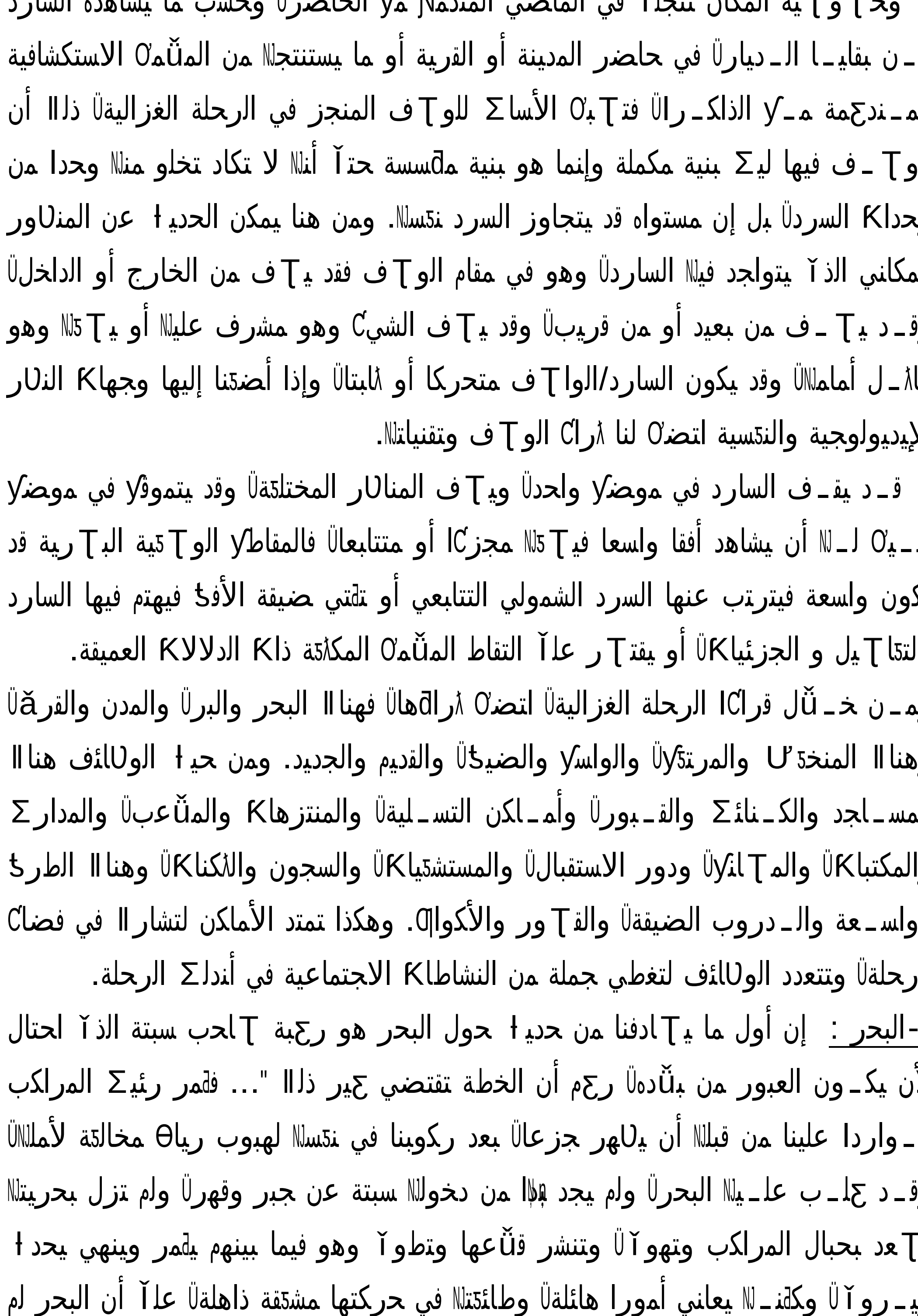
وأمـا الآثـار الموجـودة في الأماكن المقدسة، فقد قال عنها:"... كثير من هذه الآثار الشريفة والمشاهد المنيفة قد تطاول عليها الأعصار، ووجد التنصيص على اشتهارها في القـرون الماضـية من كثير من المؤرخين المرتحلين مع العلم بعدم اشتهارها في القرن الأول والثاني وما يقربهما، فتزار بالنية المتقدمة، وينبه ببركة من دخلها ومن تبرك بها من المسلمين..." [1]

هكـذا يتجلـى المكان في الرحلة العياشية ببره وبحره، بصحرائه وجباله، بقراه ومدنه، بأسواقه ومساجده عامرا بالنشاط والتواصل بين الناس في علاقاتهم التجارية والاجتماعية والتعـبدية. والسـارد في كل ذلك قد يكتفي بالوصف الموضوعي، وقد يمزجه بشيء من الـذات فتبـرز مشاعر الفرح والأسف، والرضا والامتعاض، وقد يقف متأملا فيستخلص مـنها العبـر، وقد يعلـق على سلوكات من يمر المكان أو يتردد عليه بالاستنكار الشديد، أو يـتابع اعـتقادات الناس بالنقد عن طريق المحاورة الصحيحة أو الحجة العقلية التي يراها قطعـية، وهـو حين يصل إلى أماكن الألفة يشيد بها، وإلى أماكن الوحشة يتذمر ساخطا واصـفا لأهـوال وما يلاقيه منها، ولا يخفي الحديث عن الأتعاب الجسدية والنفسية التي يعانيها، إنه التفاعل مع المكان في جوانبه الإيجابية والسلبية.

3- [illegible] :

يشـكل المكـان هو العنصر الحيوي الدافع لنماء الرحلة وسيرها نحو الاكتمال، و يأتي فضاؤها مجزأ حسب الحركة المنجزة من قبل الشخصية.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص: 226.



وخصوصية المكان تتجلى في الماضي المندمج مع الحاضر، وحسب ما يشاهده السارد من بقايا الديار، في حاضر المدينة أو القرية أو ما يستنتجه من المشاهد الاستكشافية المندمجة مع الذاكرة، فتصبح الأساس للوصف المنجز في الرحلة الغزالية، ذلك أن الوصف فيها ليس بنية مكملة وإنما هو بنية مؤسسة حتى أنه لا تكاد تخلو منه وحدة من وحدات السرد، بل إن مستواه قد يتجاوز السرد نفسه. ومن هنا يمكن الحديث عن المنظور المكاني الذي يتواجد فيه السارد، وهو في مقام الواصف فقد يصف من الخارج أو الداخل، وقد يصف من بعيد أو من قريب، وقد يصف الشيء وهو مشرف عليه أو يصفه وهو ماثل أمامه، وقد يكون السارد/الواصف متحركا أو ثابتا، وإذا أضفنا إليها وجهات النظر الإيديولوجية والنفسية اتضحت لنا ثراء الوصف وتقنياته.

قد يقف السارد في موضع واحد، ويصف المناظر المختلفة، وقد يتموقع في موضع يتيح له أن يشاهد أفقا واسعا فيصفه مجزأ أو متتابعا، فالمقاطع الوصفية البصرية قد تكون واسعة فيترتب عنها السرد الشمولي التتابعي أو تأتي ضيقة الأفق فيهتم فيها السارد بالتفاصيل و الجزئيات، أو يقتصر على التقاط المشاهد المكثفة ذات الدلالات العميقة.

ومن خلال قراءة الرحلة الغزالية اتضحت ثراءها، فهناك البحر والبر، والمدن والقرى، وهناك المنخفضات والمرتفعات، والواسع والضيق، والقديم والجديد. ومن حيث الوظائف هناك المساجد والكنائس والقبور، وأماكن التسلية، والمنتزهات والملاعب، والمدارس والمكتبات، والمحاكم، ودور الاستقبال، والمستشفيات، والسجون والثكنات، وهناك الطرق الواسعة والدروب الضيقة، والقصور والأكواخ. وهكذا تمتد الأماكن لتشكل فضاء الرحلة، وتتعدد الوظائف لتغطي جملة من النشاطات الاجتماعية في أحداث الرحلة.

-<u>البحر :</u> إن أول ما يصادفنا من حديث حول البحر هو رغبة صاحب سبتة الذي احتال لأن يكون العبور من بلاده رغم أن الخطة تقتضي غير ذلك "... فأمر رئيس المراكب الواردا علينا من قبله أن يظهر جزعا، بعد ركوبنا في نفسه لهبوب رياح مخالفة لأمله، وقد غلب عليه البحر، ولم يجد بدا من دخوله سبتة عن جبر وقهر، ولم تزل بحريته تصعد بحبال المراكب وتهوي، وتنشر قلوعها وتطوي وهو فيما بينهم يأمر وينهي يحدث ويروي، وكأنه يعاني أمورا هائلة، وطائفته في حركتها مشفقة ذاهلة، على أن البحر لم

تحـدث فيه فراتن[1] يجزئ منها، ولا تراكم أمواج ينشئ الجزء منها، وقد اعتمد في ستر حالته على عدم معرفتنا بأحوال البحر وأموره..." [2]

فالبحـر هـنا مسـرح تمثيلي، ورجال البحر يقومون ببطولته، ويمثلون دور المحتار المعانـي لتلاطم الأمواج والسير ومن معه يتضرجون، وقد تفطنوا للحركة التمويهية التي يقـوم بهـا الـبحار، ويتغافلون، وكأنهم لم يدركوا شيئا، كل ذلك طاعة لوالي سبتة الذي رحب في استقبال السفير في مدينته مجاملة للملك الأسباني لأنه يتهم بالتقصير في خدمة الدولـة. كمـا يتحول الساحل أو بالأحرى الشاطئ إلى معرض احتفالي أيضا "... وأمر بإخـراج الفلائك المفروشة بالقماش المرقوم، وشحنها بالعسكر، وأعيان قومه، وقصدوا المـركب الذي نحن فيه والكل معلن بالترحيب لفظا وإشارة..."[3]، وقد يتحول البحر إلى خطـر محـدق، ومورد محقق كقوله حين العبور من سبتة إلى أسبانيا "... فما بعدنا عن المرسـى بقليل إلا وهبت ريح غير موافقة لعبورنا نشأت عنها فراتن عظيمة حتى يئسنا الحياة، وتحققنا من الغرق، ومكثنا على هذه الحالة التي يشيب لها الرضيع من تقلب الجفن ودخـول الماء من الجهتين ما يزيد على ثمان ساعات..."[4]، ولعل هذا الوضع يكون قد أزال أثـره الاستقبال الحار الذي وجدوه على الساحل الآخر: " لما رسينا بمرساها (مدينة الجزيـرة) بـرز لملاقاتنا بشط البحر خلق كثير وأطلقوا عددا من المدافع، وبعث حاكم الـبلد عـددا فلائـك بعد أن زينها بأنواع الديباج وأركب فيها أعيان قومه..."[5] فالبحر مصـدر أهوال لمخالفة الرياح لمقصد الحركة وحين يقترب الوفد من البر، تبرز مظاهر الفـرح مما ينسي المعاناة والتعب المضني: " إننا ركبنا من قال قال، قاصدين تطوان، وقد مكثـنا في البحر أياما لهبوب رياح مخالفة لعبورنا، ولما يسر الله تعالى بريح طيبة عبرنا البوغاز، فما قربنا المرسى إلا والمدافع تخرج علينا من البساتين، وبساحل البحر خلق لا

---

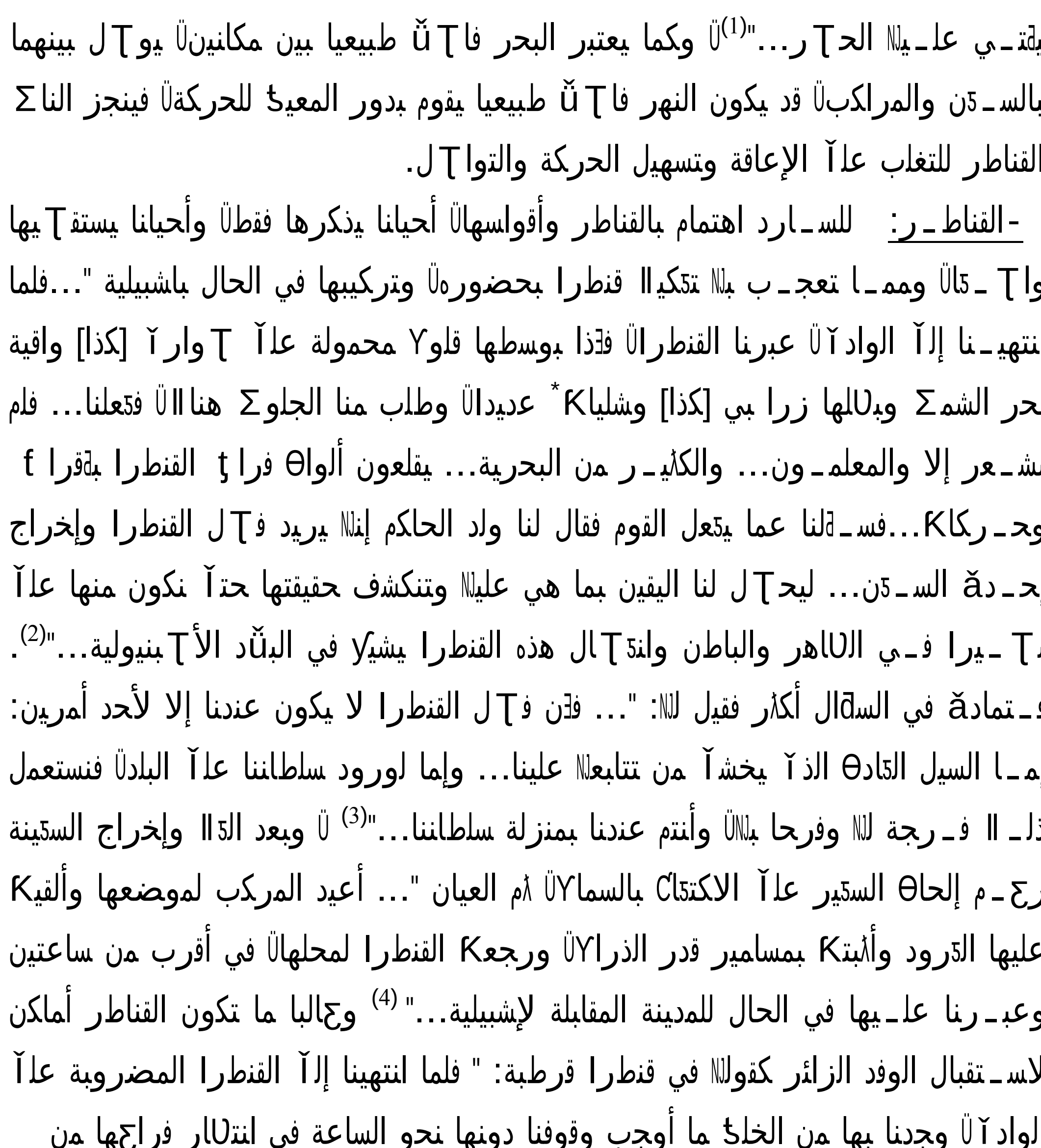
[1] – فراتن: ج لعلها الأمواج.

[2] – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 46.

[3] – نفسه، ص: 47.

[4] – نفسه، ص: 55.

[5] – نفسه، ص: 55.



يلتقي عليه الحور..."[1]، وكما يعتبر البحر فاصلا طبيعيا بين مكانين، يوصل بينهما بالسفن والمراكب، قد يكون النهر فاصلا طبيعيا يقوم بدور المعيق للحركة، فينجز الناس القناطر للتغلب على الإعاقة وتسهيل الحركة والتواصل.

-القناطر: للسارد اهتمام بالقناطر وأقواسها، أحيانا يذكرها فقط، وأحيانا يستقصيها واصفا، ومما تعجب به تفكيك قنطرة بحضوره، وتركيبها في الحال باشبيلية "...فلما انتهينا إلى الوادي، عبرنا القنطرة، فإذا بوسطها قلوع محمولة على صواري [كذا] واقية لحر الشمس وبظلها زرابي [كذا] وشليات* عديدة، وطلب منا الجلوس هنالك، ففعلنا... فلم نشعر إلا والمعلمون... والكثير من البحرية... يقلعون ألواح فرش القنطرة بفورة وحركة...فسألنا عما يفعل القوم فقال لنا ولد الحاكم إنه يريد فصل القنطرة وإخراج إحدى السفن... ليحصل لنا اليقين بما هي عليه وتنكشف حقيقتها حتى نكون منها على بصيرا في الظاهر والباطن وانفصال هذه القنطرة يشير في البلاد الأصبنيولية..."[2]. فتمادى في السؤال أكثر فقيل له: "... فإن فصل القنطرة لا يكون عندنا إلا لأحد أمرين: إما السيل الشديد الذي يخشى من تتابعه علينا... وإما لورود سلطاننا على البلاد، فنستعمل ذلك فرحة له وفرحا به، وأنتم عندنا بمنزلة سلطاننا..."[3]، وبعد الفك وإخراج السفينة رجع إلحاح السفير على الاكتفاء بالسماع، ثم العيان "... أعيد المركب لموضعه وألقيت عليها الفرود وأثبتت بمسامير قدر الذراع، ورجعت القنطرة لمحلها، في أقرب من ساعتين وعبرنا عليها في الحال للمدينة المقابلة لإشبيلية..."[4] وغالبا ما تكون القناطر أماكن لاستقبال الوفد الزائر كقوله في قنطرة قرطبة: " فلما انتهينا إلى القنطرة المضروبة على الوادي، وجدنا بها من الخلق ما أوجب وقوفنا دونها نحو الساعة في انتظار فراغها من

---

(1) – المصدر نفسه ص: 222.

* الشاليات: silla الإسبانية: كرسي.(المحقق)

(2) – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 77.

(3) – نفسه ص: 77.

(4) – نفسه ص: 78.

القوم الذاهبين أمامنا، فإذا هي قنطرة من أعظم القناطر في العلو والضخامة، لها من الأقواس ستة، وبطرفها من ناحية المدينة باب المدينة، والجامع الأعظم قريب منها جدا.." [1]

أما قنطرة مدريد فهي: " قنطرة عظيمة هائلة عبرناها في ازدحام عظيم مضروبة على الوادي الذي يقرب المدينة اشتملت على تسعة أقواس في غاية الطول والعرض، وابتداء بنيان هذه القنطرة قبل نصف الأقواس، وبعدها بالترسيف والستائر بما يقرب من الميل، وبطرفي القنطرة أقواس معقودة على سواري من الرخام، والمسافة التي بين القنطرة و المدينة من دون نصف ميل بقليل، وبساحل الوادي عرائش من القصب واقية للنساء من حر الشمس حال نصبهن أثوابهن بالوادي..."[2]

إن السارد يهتم بالقناطر وأقواسها وطولها وعرضها في بعدها الهندسي والعمراني ويسجل بعض المظاهر التي لها بعد اجتماعي وحضاري كهذه المظاهر الممثلة في خروج النساء للغسيل على أطراف الوادي، وقد خصصت لهن مساحات مسقفة من حر الصيف وبرد الشتاء، وهذا ما يثير المتلقي فيهتم بما يصفه السارد من مظاهر لها وجود في بيئته، ولكن من غير اعتناء ولا رعاية.

- **مصادر المياه:** ولما كانت القناطر وصلة بين حافتين فإن السارد لم ينس الإشارة إلى الأودية الجافة، والأنهار الجارية.

- الأودية والأنهار: لقد وقف السارد عند نهر غرناطة، وتتبع تقسيماته، وما أنجز عليه من قناطر، وما فيه من نشاط، قال: "...وقد شقها نهران أحدهما دارو "Darro"، والآخر شنيل " Genil"، غير أن شنيل أخذ منه ساقيتان من أعلى مجراه قرب اتصاله بالمدينة، كل ساقية قدر الوادي المتوسط، ثم ساقية عن يمين مجراه، والساقية الأخرى شماله..."[3]

ويشير إلى أثر الوادي وما يجده المتنزه حوله من نشاط قائلا: " والوادي المسمى بشنيل يجد فيه الإنسان نشاطا ...، وقد حاز من الحسن ما لم يكن غيره، لعذوبة مائه وطيب هوائه وبسط أرجائه المستوي مع الأرض من غير حافة ولا جرف في جميعه..."[4]

---

[1] – المصدر نفسه، ص: 96.

[2] - نفسه، ص: 113.

[3] - نفسه، ص: 196.

[4] – نفسه، ص: 196.

فالسـارد ذواقة للجمال، دقيق الملاحظة في ذكر الفروق بين الأشياء المتماثلة، إذ يعطي المزية في عبارة قصيرة بالاعتماد على الملمح المميز، ولا يسرد ما هو حسن وجميل فقط ففي مدينة طريفة قال: "... وقد شق المدينة نهر غير جار في الوقت وبعض مجراه ماء راكد منتن..."[1]، وفي هذا ما يجعل سرده يتسم بالموضوعية والتنوع.

وقـد يعجبه استثمار ماء الوادي فيشير إلى ذلك كقوله في مدينة أسيخا: " والمدينة على شـفير الـوادي المسمى بشنيل عليه قنطرا في غاية الضخامة وإتقان البنيان أقواسها أحد عشر وعن يسارها عدا أرحاء متعددا الأحجار، وجريان الوادي مستو مع الأرض... من غيـر حافة ولا جرف، وبه دواليب تسقي بحائر خضر، وبشطه أشجار مستوية الصفوف من الأشجار العظام في العلو، غير أنها لا ثمار لها، وإنما هي للظلال ذاهبة مع الوادي إلى ما انتهى إليه البصر."[2]، فهذا منظر جميل ممتد رائع لوادي شنيل عند مدينة أسيخا.

لا يغفـل السارد ذكر مصادر المياه من أنهار وعيون وآبار ومواجل، من ذلك قوله عن مديـنة "مديـنة" : " ولا ماء بها إلا الآبار وهي في غاية العمق وشرابهم من ماء الماجل المجتمع من ماء المطر وهواؤها طيب للغاية..." [3] وقد يشير إلى هذه الأحواض الطبيعية التـي تتجمع فيها المياه، وتاريخها كقوله عن مدينة لوركه "Larca" "... وبقي أيضا أثر الـديار التي كانت بها (للمسلمين) إلى الآن. وكذا المطافي التي يجتمع فيها ماء المطر في غاية الطول والعرض" [4]، وفي هذه النقطة تلتقي رحلة الغزال مع الرحلات الحجازية في ذكـر الآبـار والعيون والمواجل، لحفظ ماء المطر، واستعماله وقت الحاجة، مما يضفي طابعا حضاريا متشابها على هذه البلاد كلها.

وكمـا يهـتم بالأودية والأنهار والمواجل والدواليب، يهتم بالصهاريج والأحواض التي يـتدفق منها الماء وسط البساتين والحدائق كهذه القطعة الوصفية لبستان من بساتين الملك فـي مديـنة لاكـرنخة "Lagraja" وبهذا البستان عدا صهاريج مدرجة ينحدر الماء من أعلاها لما دونه " فالصهريج الأعلى عمقه على ما قيل خمس قامات فأكثر... ومنها تمتد

---

(1) – المصدر السابق، ص: 58.

(2) – نفسه، ص: 92.

(3) – نفسه، ص: 66.

(4) – نفسه، ص: 192.

النـهارين الأخرى المنحدرا عنه على التدريج ومياهه مجتمعة من أودية وعيون بأعلى الجـبل... ولانـهرين قواديس من الحديد كالمداخل في باطن الأرض متصلة بالنهرين الأكبر نافذا للذي دونه فيتلقاه ما يحقنه ويمنعه النفوذ لعدا أنابيب فإذا أراد نفوذها لوسط النـهرين أو للأنابيب بحاشية يمكن قطعة من الحديد بأحد أوتاد من المعدن... ناتئة من الأرض قـدر أربعـة أصـابع فيولج عن القطعة المذكورا بالوتد ويمر به يمينا وشمالا فتنـعد عدا أنابيب في الهواء من وسط النهرين قدر مائة وعشرين ذراعا أو ما دون. وكـذا مـن حاشـية النهرين والأنابيب الصاعدا من النهرين ماء نعوده من فم أسد مسـتلقى وغيـره كالنـمر والجمل والآدمي... الكل بوسط النهرين مباين للآخر في التلاعب بالمياه ومخالف لغيره."[1] فهذا وصف هندسي يهتم فيه السارد بالأبعاد والأحجام والأشـكال والغايـة مـنه إظهار حسن الإتقان وبراعة الإبداع في تسخير المياه لصالح الإنسان وهذه النهارين ليست للتسلية والترفيه فقط. بل "... هناك نهارين تدخل داخلها السـفن الهائلة وعند كمالها يدخل عليها البحر وتخرج من النهرين الذي صنعت فيه كـذا إذا انصدع أحد المراكب وأرادوا إصلاحه يدخل لهذا النهرين... فيأخذ المعلم في علاج ما صدع منها..."[2]

وإلى جانب النهارين الضخمة هناك أحواض في البساتين كما في قوله:" الرابع فيه عدا أحـواض والفاصل بين الحوض والذي يليه حاجز بالبنيان قدر ذراع من الجهات الأربع وقد اتصل به من داخل البنيان أشجار الورد غير أن نباتها على صفة غير معهودا..."[3]

فالوصف معتمد على القياسات التي ألبست لبوس الأشكال الهندسية المعروفة.[4] فتضاء الماء فيه العميق كالآبار والمسطح كالمواجل والواسع كالبحار والجاري في الأماكن الضيقة كالسواقي والقنوات والأماكن المتسعة كالأنهار ومنه الساكن المتجمع كالأحواض والنـهارين. وكل ذلك يشكل قسما من المكان المملوء ماء. ولعل أول إشارا في الرحلة إلى جعل الماء يجري في الجدران قوله: "... غير أن هذه الدار تزيد على غيرها بمسائل

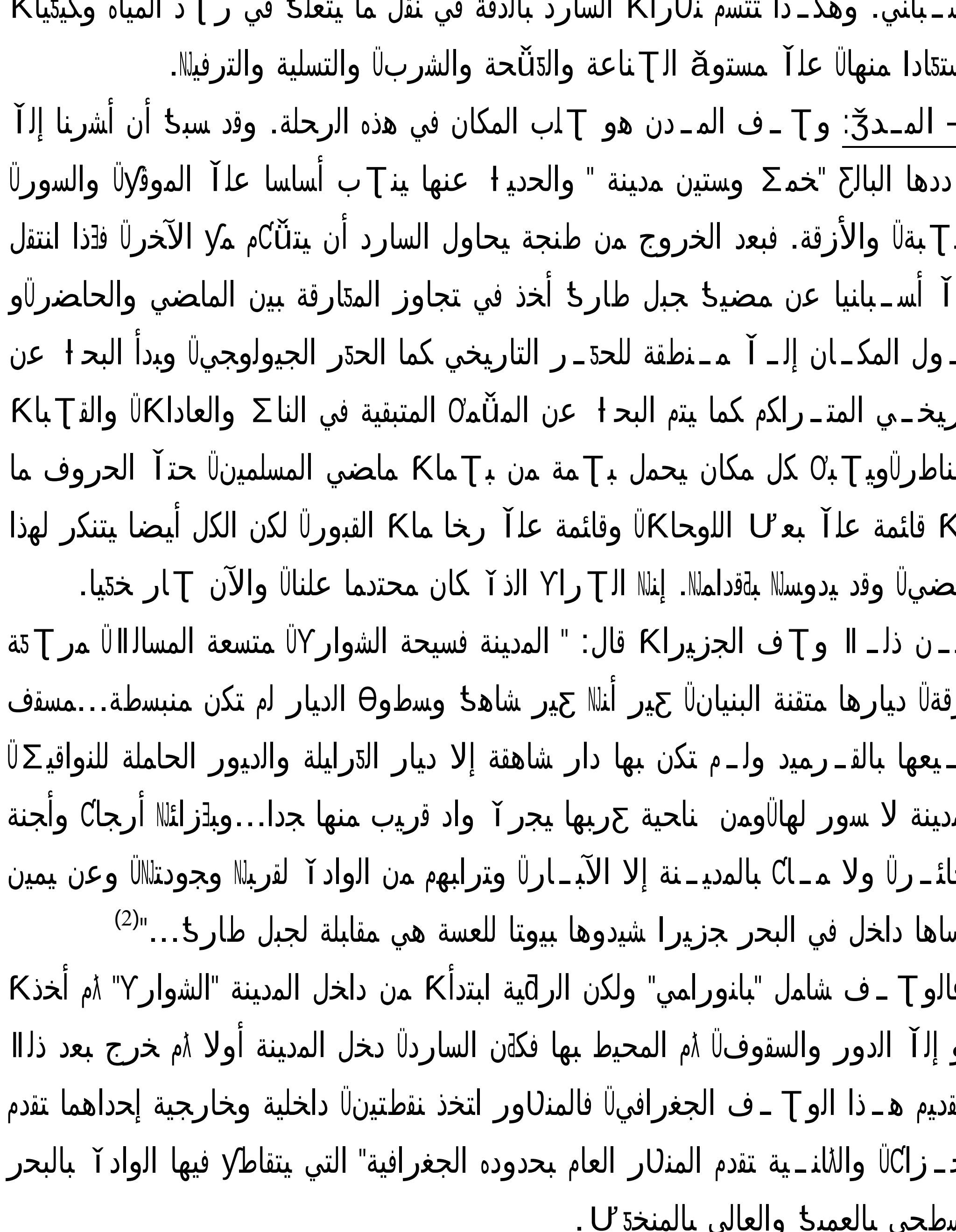
---

[1] – المصدر السابق، ص: 132.

[2] – نفسه، ص: 190.

[3] – نفسه، ص: 83.

[4] – صلاح صالح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، ص: 48.



مستحسنة منها جريان الماء بجدرانها."[1] وذلك في مدينة أرنخويث إحدى إقامات الملك الأسباني. وهكذا تتسم نظرات السارد بالدقة في نقل ما يتعلق في رصد المياه وكيفيات الاستفادة منها، على مستوى الصناعة والفلاحة والشرب، والتسلية والترفيه.

- المدن: وصف المدن هو صلب المكان في هذه الرحلة. وقد سبق أن أشرنا إلى عددها البالغ "خمس وستين مدينة " والحديث عنها ينصب أساسا على الموقع والسور والقصبة والأزقة. فبعد الخروج من طنجة يحاول السارد أن يتقدم مع الآخر، فإذا انتقل إلى أسبانيا عن مضيق جبل طارق أخذ في تجاوز المفارقة بين الماضي والحاضر، و تحول المكان إلى منطقة للحفر التاريخي كما الحفر الجيولوجي، ويبدأ البحث عن التاريخي المتراكم كما يتم البحث عن المعالم المتبقية في الناس والعادات والقصبات والقناطر، ويصبح كل مكان يحمل بصمة من بصمات ماضي المسلمين، حتى الحروف ما زالت قائمة على بعض اللوحات، وقائمة على رخامات القبور، لكن الكل أيضا يتنكر لهذا الماضي، وقد يدوسه بأقدامه. إنه الصراع الذي كان محتدما علنا، والآن صار خفيا.

ومن ذلك وصف الجزيرات قال: " المدينة فسيحة الشوارع متسعة المسالك مرصفة الأزقة، ديارها متقنة البنيان، غير أنه غير شاهق وسطوح الديار لم تكن منبسطة...مسقف جميعها بالقرميد ولم تكن بها دار شاهقة إلا ديار الفرايلية والديور الحاملة للنواقيس، والمدينة لا سور لها،ومن ناحية غربها يجري واد قريب منها جدا...وبخارجه أرجاء وأجنة وبحائر، ولا ماء بالمدينة إلا الآبار، وترابهم من الوادي لقربه وجودته، وعن يمين مرساها داخل في البحر جزيرا شيدوها بيوتا للعسة هي مقابلة لجبل طارق..."[2]

فالوصف شامل "بانورامي" ولكن الرؤية ابتدأت من داخل المدينة "الشوارع" ثم أخذت تعلو إلى الدور والسقوف، ثم المحيط بها فكأن السارد، دخل المدينة أولا ثم خرج بعد ذلك لتقديم هذا الوصف الجغرافي، فالمنظور اتخذ نقطتين، داخلية وخارجية إحداهما تقدم الأجزاء، والثانية تقدم المنظر العام بحدوده الجغرافية" التي يتقاطع فيها الوادي بالبحر والسطحي بالعميق والعالي بالمنخفض.

---

[1] – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 159.

[2] – المصدر نفسه، ص: 57.

ينتقل السارد بين مواقف متعددة ومسافات مختلفة من حيث الموصوف. ولغته لا تقتصر على التصوير مثل: "القرمود" "الترايلة" "بحائر" " العسة " ويتتبع مواقف المدن باهتمام بالغ كقوله عن مدينة "مدينة" :" هي مدينة مشيدا على قمة جبل، والأرجاء المستديرا بالجبل في غاية البسط على الجهات الأربعة، وقد استوعبتها أجنة وأغراس مما يلي الجبل، والخارج عنها زياتين وأرض حراثة."(1)

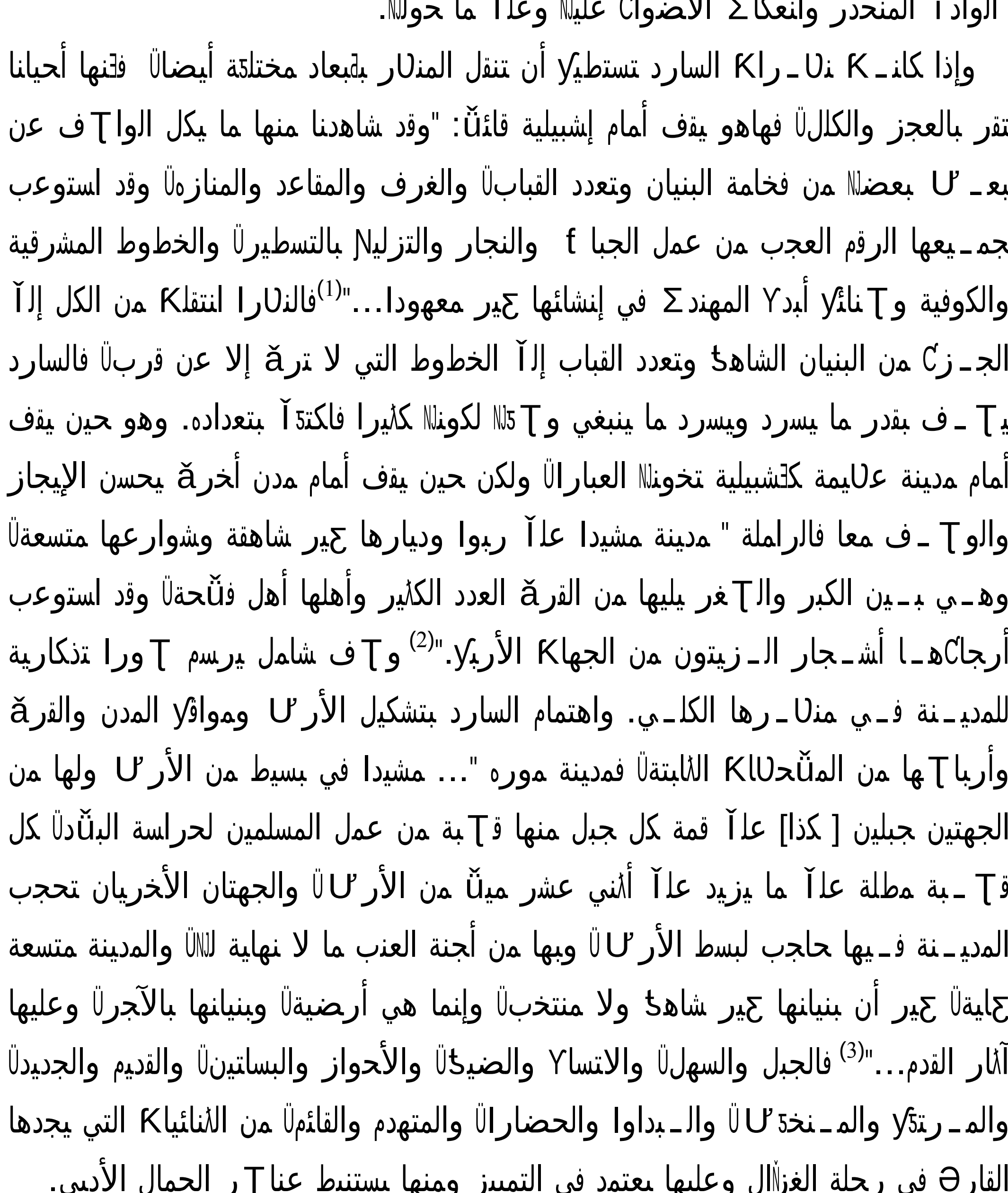
فهذا الوصف شامل أيضا اهتم بالجبل العالي"قمة" والأرجاء في غاية البسط" إذ يبرز فيه تقاطع العالي جدا بالمنبسط، العالي الذي تستوعبه المساكن والمنبسط الذي تستوعبه الأغراس، فعمل الإنسان على السطح بين بارز وكله إيجابي.وقد يتقاطع الحاضر مع الماضي في فعل الإنسان كقوله:"...لما زادوا على البنيان الإسلامي من خارج السور، بقي السور داخل بنيانهم المحدث في غاية التلاشي، وما هو من البنيان داخله وخارجه في جدا وإتقان، وأثر هذا السور أبقوه على حاله شاهدا..." (2) وقد تتقاطع المتضادات في أوصاف السارد بشكل لافت فمدينة لابريخة "مدينة متوسطة بين الكبر والصغر، والحضارة والبداوة، بل إن أهلها بادون محض، وبنيان ديارهم غير شاهق، وبها قصبة في غاية العلو بنيت بقمة الجبل، وهي من عمل المسلمين رحمهم الله، وهذا الجبل صغير في الاستدارة، عظيم في الصعود، والأرجاء المحاطة به على الجهات الأربع في غاية البسط، حتى أن سور القصبة مشيد على حافة الجبل، والحجر دونه باق على حاله، ولم يبق من سورها والأبراج إلا ما دون القامة، وبها عدا مواجن يجتمع بها ماء المطر.. وقد شاهدنا من هذه القصبة ببسط أرجاء المدينة غدرانا عديدا كالأودية، ومنها يظهر لمعان الوادي المنحدر من مدينة إشبيلية، على بعد بائن جدا. " (3)

هذه نظرا أفقية وعمودية، ممتدا بعيدا، وقريبة جدا، بارزا ومتلاشية تقاطعات كثيرا بأبعادها المختلفة وإضاءاتها المتباينة هي التي تجسد موقف المدينة بالالتفاتات السريعة الذكية والمتنقلة، فالسارد ينظر قريبا فيبصر منظر السور المتلاشي، وينظر بعيدا فيبصر

(1) – المصدر السابق، ص: 60.

(2) - نفسه، ص: 67.

(3) - نفسه، ص: 71- 72.



الوادي المنحدر وانعكاس الأضواء عليه وعلى ما حوله.

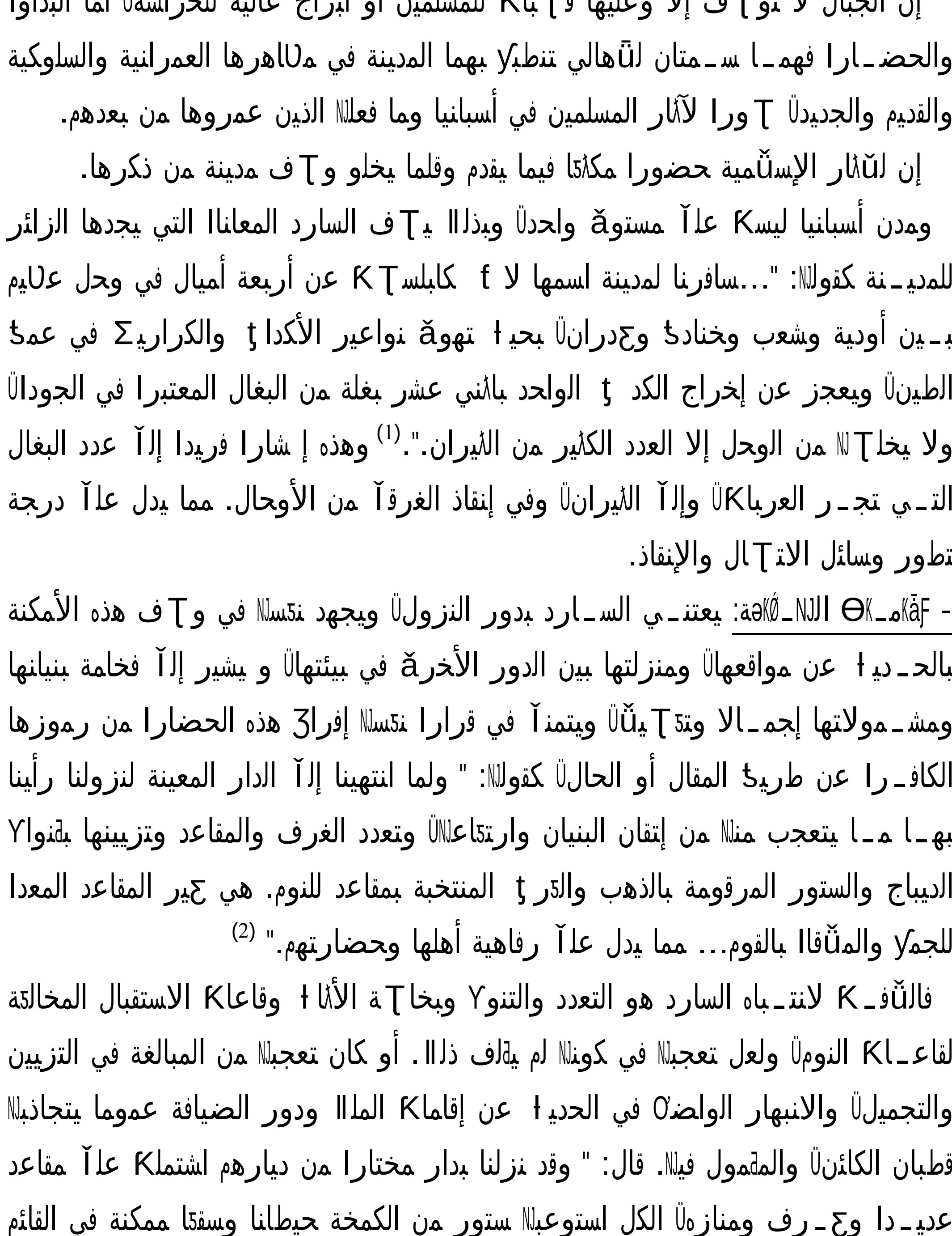
وإذا كانت صور السارد تستطيع أن تنقل المناظر بأبعاد مختلفة أيضا، فإنها أحيانا تقر بالعجز والكلل، فهاهو يقف أمام إشبيلية قائلا: "وقد شاهدنا منها ما يكل الواصف عن بعض بعضه من فخامة البنيان وتعدد القباب، والغرف والمقاعد والمنازه، وقد استوعب جميعها الرقم العجب من عمل الجبس والنجار والتزليج بالتسطير، والخطوط المشرقية والكوفية وصنائع أبدع المهندس في إنشائها غير معهودا..."[1] فالنص انتقل من الكل إلى الجزء من البنيان الشاهق وتعدد القباب إلى الخطوط التي لا ترى إلا عن قرب، فالسارد يصف بقدر ما يسرد ويسرد ما ينبغي وصفه لكونه كثيرا فاكتفى بتعداده. وهو حين يقف أمام مدينة عظيمة كإشبيلية تخونه العبارة، ولكن حين يقف أمام مدن أخرى يحسن الإيجاز والوصف معا فالرملة " مدينة مشيدا على ربوة وديارها غير شاهقة وشوارعها متسعة، وهي بين الكبر والصغر يليها من القرى العدد الكثير وأهلها أهل فلاحة، وقد استوعب أرجاءها أشجار الزيتون من الجهات الأربع."[2] وصف شامل يرسم صورا تذكارية للمدينة في منظرها الكلي. واهتمام السارد بتشكيل الأرض ومواقع المدن والقرى وأربابها من المظاهر الثابتة، فمدينة موره "... مشيدا في بسيط من الأرض ولها من الجهتين جبلين [كذا] على قمة كل جبل منها قصبة من عمل المسلمين لحراسة البلاد، كل قصبة مطلة على ما يزيد على أثني عشر ميلا من الأرض، والجهتان الأخريان تحجب المدينة فيها حاجب لبسط الأرض، وبها من أجنة العنب ما لا نهاية له، والمدينة متسعة غاية، غير أن بنيانها غير شاهق ولا منتخب، وإنما هي أرضية، وبنيانها بالآجر، وعليها آثار القدم..."[3] فالجبل والسهل، والاتساع والضيق، والأحواز والبساتين، والقديم والجديد، والمرتفع والمنخفض، والبداوة والحضارة، والمتهدم والقائم، من الثنائيات التي يجدها القارئ في رحلة الغزال وعليها يعتمد في التمييز ومنها يستنبط عناصر الجمال الأدبي.

---

[1] - المصدر السابق، ص: 75.

[2] - نفسه، ص: 93.

[3] - نفسه، ص: 109.



إن الجبال لا تخلو إلا وعليها قصبات للمسلمين أو أبراج عالية للحراسة، أما البداوة والحضارة فهما سمتان لأهالي تنطبق بهما المدينة في مظاهرها العمرانية والسلوكية والقديم والجديد، صورة لآثار المسلمين في أسبانيا وما فعله الذين عمروها من بعدهم.

إن للآثار الإسلامية حضورا مكثفا فيما يقدم وقلما يخلو وصف مدينة من ذكرها.

ومدن أسبانيا ليست على مستوى واحد، وبذلك يصف السارد المعاناة التي يجدها الزائر للمدينة كقوله: "...سافرنا لمدينة اسمها لا كابلس على أربعة أميال في وحل عظيم بين أودية وشعب وخنادق وغدران بحيث تهوى نواعير الأكداش والكراريس في عمق الطين، ويعجز عن إخراج الكدش الواحد باثني عشر بغلة من البغال المعتبرة في الجودة، ولا يخلصه من الوحل إلا العدد الكثير من الثيران."[1] وهذه إشارة فريدة إلى عدد البغال التي تجر العربات، وإلى الثيران، وفي إنقاذ الغرقى من الأوحال. مما يدل على درجة تطور وسائل الاتصال والإنقاذ.

- وصف المنازل: يعتني السارد بدور النزول، ويجهد نفسه في وصف هذه الأمكنة بالحديث عن مواقعها ومنزلتها بين الدور الأخرى في بيئتها، و يشير إلى فخامة بنيانها ومشمولاتها إجمالا وتفصيلا، ويتمنى في قرارة نفسه إفراغ هذه الحضارة من رموزها الكافرة عن طريق المقال أو الحال، كقوله: " ولما انتهينا إلى الدار المعينة لنزولنا رأينا بها ما يتعجب منه من إتقان البنيان وارتفاعه، وتعدد الغرف والمقاعد وتزيينها بأنواع الديباج والستور المرقومة بالذهب والدرج المنتخبة بمقاعد للنوم. هي غير المقاعد المعدة للجلوس والملاقاة بالقوم... مما يدل على رفاهية أهلها وحضارتهم."[2]

فاللافت لانتباه السارد هو التعدد والتنوع وبخاصة الأثاث وقاعات الاستقبال المخالفة لقاعات النوم، ولعل تعجبه في كونه لم يألف ذلك. أو كان تعجبه من المبالغة في التزيين والتجميل، والانبهار الواضح في الحديث عن إقامات الملوك ودور الضيافة عموما يتجاذبه قطبان الكائن والمأمول فيه. قال: " وقد نزلنا بدار مختارة من ديارهم اشتملت على مقاعد عديدة وغرف ومنازه، الكل استوعبته ستور من الكمخة حيطانا وسقفا ممكنة في القائم

---

(1) - المصدر السابق، ص: 216.

(2) – نفسه، ص: 61.

والمبسوط بمسامير مذهبة والمبسوط في جميعها من عمل التراك." [1] والملاحظ أن السارد يستعمل ألفاظا متداولة على عهده أو هي من إنتاجه ويصعب إدراك مدلولها بالضبط. وفي هذا النص أعجب بالستائر المختلفة المسبوكة بمسامير مذهبة كما أشار إلى البسط التركية التي فرشت بها الأرض . ويمكن اعتبار دار النزول بمثابة المسبر الذي يقاس به ثراء المدينة وغناها وتحضرها وبداوتها. وهي قد تكون دارا عامة مخصصة لمثل هذه الأغراض أو تكون للحاكم أو لبعض الأثرياء كما في قرطجنة وفي قرية بنيليه.

وفي مدريد ينزل الوفد بدار خاصة للملك فيصفها السارد باستفاضة غير معهودة قال: "... فتنا نشر في الكلام عن الدار التي نزلنا بها وذكر ما اشتملت عليه من فخامة البنيان وارتفاعه في الجو وما يضاف لذلك مما يضيق عنه التكييف ويعجز عنه التعبير..."[2] اعترف الواصف بعجزه لكون الموصوف ضخما ثم قال: " هي دار تسع دائرتها مائتي دار من الديار الكبار المعتبرة قبابها ومقاعدها لا تحصى ولا تستقصى كل مقعد أو قبة تشتمل على أربعة أبواب وقوائم الأبواب في البنيان ثم عتبتها العليا والسفلى من حجر واحد غير منقسم منها ما هو من المرمر ومنها ما هو من الحجر الأبيض ومنها ما هو بالأصفر الذي يشاكل اللوبان..."[3] إنه وصف شامل يدل على الانبهار الشديد فبعد أن سجل تعجبه أخذ في تفصيل وصف الرخامات والحيطان ودور الاستقبال والأبواب إلى أن يقول: "...وجنب القبة صناديق الموسيقى ونواعير وأكدا [illegible] وغير ذلك من الأشياء التي يعبر عنها ولا ندري ما تسمى به منها فرد خشب طوله عشرا أشبار وعرضه ثلاثة أشبار على الاستدارة فإذا أوقدوه يتولد منه صوت هائل يشبه صوت السيل العظيم الممطر بالحجارة ولا يزال يصوت مدا وقوفه فإذا ضعف صوته يجعلون عالية سافلة فيشتد صوته...فسألنا عن ذلك فإذا القبة معدا للفرجة...هي محل جلوس الطاغية مع زوجته وأولاده وخواصه للفرجة وهي المسماة عندهم بالكوميدية.[4] وقد اعتنى السارد في وصفه لهذه الدار بالملموسات والمرئيات والمسموعات كما اعتنى بالمكان وما يملؤه

---

(1) - المصدر السابق، ص: 68.

(2) - نفسه، ص: 114.

(3) - نفسه، ص: 115.

(4) - نفسه، ص: 118.

من مجسمات وتماثيل وأغراض متعددة. ولقد استغرق الوصف في وحدة مدريد التي يبلغ حجمها ثلث عشرة صفحة ونصف الصفحة أكثر من عشر صفحات. فالوصف لإقامات المدن يقوم على الاستقصاء ويعنى بالجوانب الهندسية تشكيلا وتجسيما وإضاءة وتصفيفا كما يعتني بما يراه غريبا وغير مألوف وفي كل ذلك نجد السارد يغير مكانه فتتعدد رؤاه قربا وبعدا واتساعا وضيقا. فوصفه للقصور والقاعات والبساتين والصهاريج وغيرها من مشمولات إقامات المدن من النماذج الرائعة ونعجب كيف تطاوعه اللغة رغم تصريحه بالعجز في أكثر من موضع.

وإذ تحدثنا عن أماكن الإقامة فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن أماكن أخرى جذبت السارد ووقف عندها في استغراب ويمكن أن نطلق عليها الإقامة الجماعية.

الإقامات الجماعية: وتشتمل على المستشفيات والثكنات والداخليات والسجون رغم اختلاف الوظائف و تنوعها من صحية واجتماعية وأمنية وتأديبية.

المستشفيات: يمدنا السارد بمعلومات تصور الحياة الاجتماعية وما فيها من جديد أو غريب كالحديث عن الأسبيطال: "... الذي تعالج فيه مرضاهم، فعبرناه فإذا هو به عدة بيوت مستديرا بصحنه، وبالصحن أشجار عديدة، إذ كان في غاية الطول والعرض، والبيوت ما هو معمور بالأدوية معاجن وأشربة وأدهان، وأوعية الأدوية محمولة على مراقٍ من الأرض إلى السقف، وبيوت أخرى مملوءة بالأعشاب، ثم البيوت يسكنها القائمون بشؤون المرضى من الطباب والنساء والمباشرون لهم في جميع أمورهم، وباقي البيوت بالطبقة السفلى وهي خاصة بالمرضى بالبلغم والعياذ بالله وبالطبقة العليا مقاعد ممتدة نافذا بعضها لبعض على الجهات الأربع، وقد استوعبها سرائر... وما يغطى به ولباسهم الذي كان حال الصحة مضمون عنه القيم. ولباس العلاج معين من الأوقاف يلبسونه عند دخولهم... فإذا عوفي الشاكي يلبس ثوبه... وينزع عنه ثوب العلاج، فيبقى ويدخر لغيره"[1]

هذه الدقة في الوصف تجعلنا نشاهد البناية ونطلع على نظامها الإداري والصحي.

ثم أخبر أن العلاج بالمستشفى للجميع بما في ذلك الأسرى المسلمون "...وقد اشتكى من أسارى المسلمين أربع وعشرون في الزمن الذي حللنا فيه مدريد، ولما أخبرنا أنهم

---

(1) - أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 53- 54.

الأسبيطال بعضنا لهم في الحال، بعض أصحابنا للأعادات و أصحبناهم صلة ووعدناهم بخير..." (1)

ولم ينس السارد أن يخبرنا بأن للنساء مستشفيات خاصة:"...فإذا بالطريق المعبورا نافذا الأسبيطال في غاية الكبر..فإذا فيه بيوت عديدا ومقاعد طويلة و بصحنه أشجار النارنج وخصص بالماء العذب وقد استقل بالنسوا المرضى، والقيم عليهن مثلهن من النسوا اللواتي لا أهل لهن ولا مال..."(2)، والملاحظ أن الحديث عن المكان لا يكون وصفا باستمرار، فقد يأتي بالسرد عن طريق الإخبار عن الأجزاء والمحتويات وهكذا يتآزر الوصف والسرد في تجسيد الأماكن التي ذات القيمة الفنية أو الاجتماعية أو العمرانية، مما يساعد في استثارة مخيلة المتلقي لتصور أسبانيا وأهم أماكنها الدالة على رقيها.

-<u>السجون</u>: ومما أشار إليه السارد من الأماكن المغلقة السجون، وإن كان لم يفصل القول فيها، ولكن القارئ يمكن أن يتصور المواقف من خلال وصفه لها فهم مقيمون في أعلى قمة جبل داخل قصبة شغوبية :"...وبقنة الجبل قصبة من عمل الروم في غاية الضخامة والعلو...وداخل هذه القصبة إخواننا الأسارى المذكورون... "(3). وهناك مدينة الكراكة "...وهي عندهم بمثابة السجن لأهل الجنايات، وبقي بها من أسارى المسلمين في الوقت سبعة عشر..."(4) وقد سرح منهم العديد.

- <u>الثكنات:</u> ذكر السارد أن هناك مدينة خاصة بالجنود يقال لها الخطاف "Getaf" يسكنها الشلاطين وعليها أثر القدم، والطريق الموصل لمدريد في وسطها، وكانت تتردد عليها رسل الطاغية منذ خرجنا من قرطبة بالترحيب والسلام من طاغيتهم، ثم يعودون إليه مخبرين بمحل مبيتنا كل ليلة..." (5)

فهذه المدينة بمثابة القيادة العامة للجيش وهي تابعة للسلطان، إليها تنتهي التقارير اليومية لما يحصل في البلاد كلها، فالإقامة الخاصة بالعسكر ذات وظيفة أمنية.

---

(1) - المصدر السابق، ص: 124.

(2) - نفسه، ص: 86.

(3) - نفسه، 144- 145.

(4) - نفسه، ص: 221.

(5) - نفسه، ص: 111.

- المدارس: هذه الأماكن تسعى لتحقيق غايات ثقافية وعلمية تزود المجتمع بما يحتاجه من إطارات متعددة التخصصات، منها ما يختص بالعلوم النظرية، ومنها ما له طابع التطبيق العملي في الصناعات أو التدريبات المختلفة، وكلها تشير إلى المستوى العلمي التقني الذي كانت عليه " أسبانيا "، ومن ذلك قوله: " ثم عبرنا دارا قريبة من هذه، فإذا هي قدر قرية في غاية الطول والعرض، وبها عدا مقاعد (قاعات) كل مقعد به عدا من الصبيان على قدر الطبقات في التعلم، ممن يتعلم الحروف إلى من فوقه ثم الذي فوقه وهكذا، وعدد هؤلاء الصبيان الحاضرين في الوقت مائة وخمسون، وهذا العدد عندهم لا ينقص، وكل من استكمل علمه وذهب لما هو مهيأ إليه من السفر في البحر، يخلفه غيره..."[1]، والملاحظ أن هذه المدرسة فيها شيء من الغرابة، وغرابته تشتد أكثر من قسمها الداخلي المعد للإقامة، قال: "...والصبيان لا يخرجون من الدار المذكورة قط، وموضع نومهم له شبه الأسبيطال... وبين السرير والذي يليه قدر ما يمر به الإنسان، وتحت كل سرير صندوق به حوائج صاحبه." [2]

وهذه المدرسة مزودا بالقسم التطبيقي قال: " وبعدها المقاعد سفينة صغيرا قدر الفلوكة مشملة على جميع ما تحتاج إليه السفن إجمالا وتفصيلا بحيث يقرأ الصبي الكتب المشتملة على علوم البحر، وما يتعلق بآلة المركب، وكل مسألة ترسخ في ذهنه عن طريق القراءة تؤديها مباشرته للمركب الحاضر معه، فيحصل على اليقين علما ومباشرا..." [3]

فالوصف ركز على نظام التعليم في مدرسة خاصة للبحرية حيث يدعم التكوين النظري بالتطبيق الميداني مباشرا، ويبدو أن السارد يعتني بالصناعات التطبيقية مثلما فعل حين بين كيفية صناعة أنواع البلور، والزجاج في دقة متناهية

المعالم المقدسة: ندرج ضمن هذه النقطة: المساجد، والكنائس، ثم نتبعها بالقبور.

المساجد: ومن ذلك مساجد غرناطة التي وقف السارد عندها كثيرا قال: " كان عبورنا لعدد مساجد، فالأول منها وهو الأكبر، وله خمس بلاطات من كل جهة من الجهات

---

(1) - المصدر السابق، ص: 88.

(2) - نفسه، ص: 88.

(3) - نفسه، ص: 88. وأنظر ص: 144- 145.

الأربعة وبوسطه ابرازه* بنية فيه قبة مثمنة محمولة على سوارٍ ثمانية وبين كل سارية والتي تليها قوس في غاية العلو وما تحت الأقواس شبابيك مستدير بالسواري الثمانية والسارية الواحدة من الثمانية عرضها ستة عشر شبرا من كل وجوهها الأربعة وما بين السارية التي تقابلها المنقعد عليها القوس المذكور ثلاثمائة وأربعون قوسا وأما الطول بالتقريب خمس قامات..." (1)

ركز السارد في هذا الوصف على الأبعاد الهندسية وهو قريب من الموصوف ينظر إلى الإمام والخلف وإلى الأعلى لتحديد المسافات ولا يبعد أن يكون قد قاس بعضها.

وفي المساجد يقف السارد طويلا عند المحاريب باعتبارها النقطة المركزية كما في محراب قرطبة: " ولما انتهينا إلى المحراب الإسلامي فإذا هو باق على حاله لم يحدث فيه تغيير غير أن الكفرة حجروه بشباك من النحاس بحيث لا يدخله أحد ولم ندر ما السر في ذلك..." (2) وفي الجامع الأعظم بإشبيلية يقول: "... فعبرنا المسجد من آخر أبوابه الذي هو السابع فإذا بالمسجد محمول على مائة وعشرين سارية كل سارية مشطرا على أربعة وعشرين سطرا وبزوايا المسجد قباب اشتملت على تصاوير قائمة على أقدامها ومنها ما اختص بجميع ذخائر النصارى... وغير ذلك مما لا يعبر عنه لعدم المعرفة بما يسمى به والكل من الذهب المرصع باليواقيت..." (3). ويشير إلى أن رجال الدين المسيحي يسكنون في المساجد الإسلامية كقوله: "... وبه بيوت يسكنها الرهابين وصومعة خارجة عن المسجد...وعدد النواقيس التي بها الآن خمسة وعشرين ناقوسا أحدها وهو الأكبر وزنه مائة وخمسة وثمانون قنطارا قيل أنه يسمع صوته مسيرة يوم."(4) فوصف المساجد هندسي يتعلق بالأطوال والأحجام وما إلى ذلك ثم يضمنه السارد بعض التعليقات الذاتية التي تبرز التأسف على ما ضاع أو على ما آل إليه الأمر.

-المقابر: يكثر السارد من زيارة مقابر المسلمين مما يدل على اهتمامه الكبير بأمر الأندلس بخلاف ما يبدو في ظاهر الرحلة قال: "... وركبت في الحال مع الحاكم

---

(1) - المصدر السابق، ص: 198.

(2) - نفسه، ص: 97.

(3) - نفسه، ص: 84.

(4) - نفسه، ص: 85. [أنظر أيضا مسجد طليطلة ص: 163-166.]

للمواضع التي أرشدنا إليها الشيخ فإذا بمقبرة للمسلمين رحمهم الله، وهي سارية من الرخام مكتوب عليها بخط كوفي: " بسم الله الرحمان الرحيم، يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور. هذا قبر أحمد بن أحمد بن مغيث، كان يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. توفي رحمه الله ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الثاني سنة تسع وأربعين وأربعمائة " [1]

-الكنائس: وكما وقف السارد المساجد المحولة إلى كنائس، وزار مقابر المسلمين، وقف أيضا الكنائس التي أنشئت أساسا لهذا الغرض، ومن ذلك كنيسة الأسكوريال، قال: " وبناء هذه الكنيسة هو شيء يتعجب منه، بحسب المعبر عنه، نقول: هي مدينة مشيدا من حجر واحد أرضا وحيطانا وسقفا، ولم تكن بها خشبة إلا الأبواب، وهذا الحجر الذي بنيت به كاد أن يكون من الرخام..." [2].

ولقد زار مقابر الملوك ورجال الدين في أقباء كنيسة الأسكوريال، فوصفها قائلا: "...صناديق مستديرا على كراسي من الرخام ... وبعض الصناديق مكتوب عليها، وجلها من غير كتابة، فسألنا عن ذلك فإذا هي مقبرة ملوكهم، وقبر الطاغية الموجود الآن مميز عندهم قرب قبر والده..." [3]، ثم علق قائلا: " وقد ألم بنا ألم وضيق في النفس حتى خشينا التلف، ولم ندر ما السبب، فبادرنا من الصعود [كذا] من الهواة*، وقد سرى عني، وذهب في الحال ما كنا نجد من الألم، فعلمنا أن موجب ذلك العارض هو نزولنا وحلولنا في تلك الهواة التي هي حفرا من حفر جهنم..."[4]

وهكذا يكون السارد قد صعد إلى قنن الجبال والمآذن، وعبر المساجد والكنائس، وزار المقابر التي على سطح الأرض، والتي تحت الأرض لها أماكن في أقباء الكنائس وفي أسافلها ويقدم أوصافها مستعملا قياسات خاصة، مثل الشبر والذراع والقامة... وهي قياسات

---

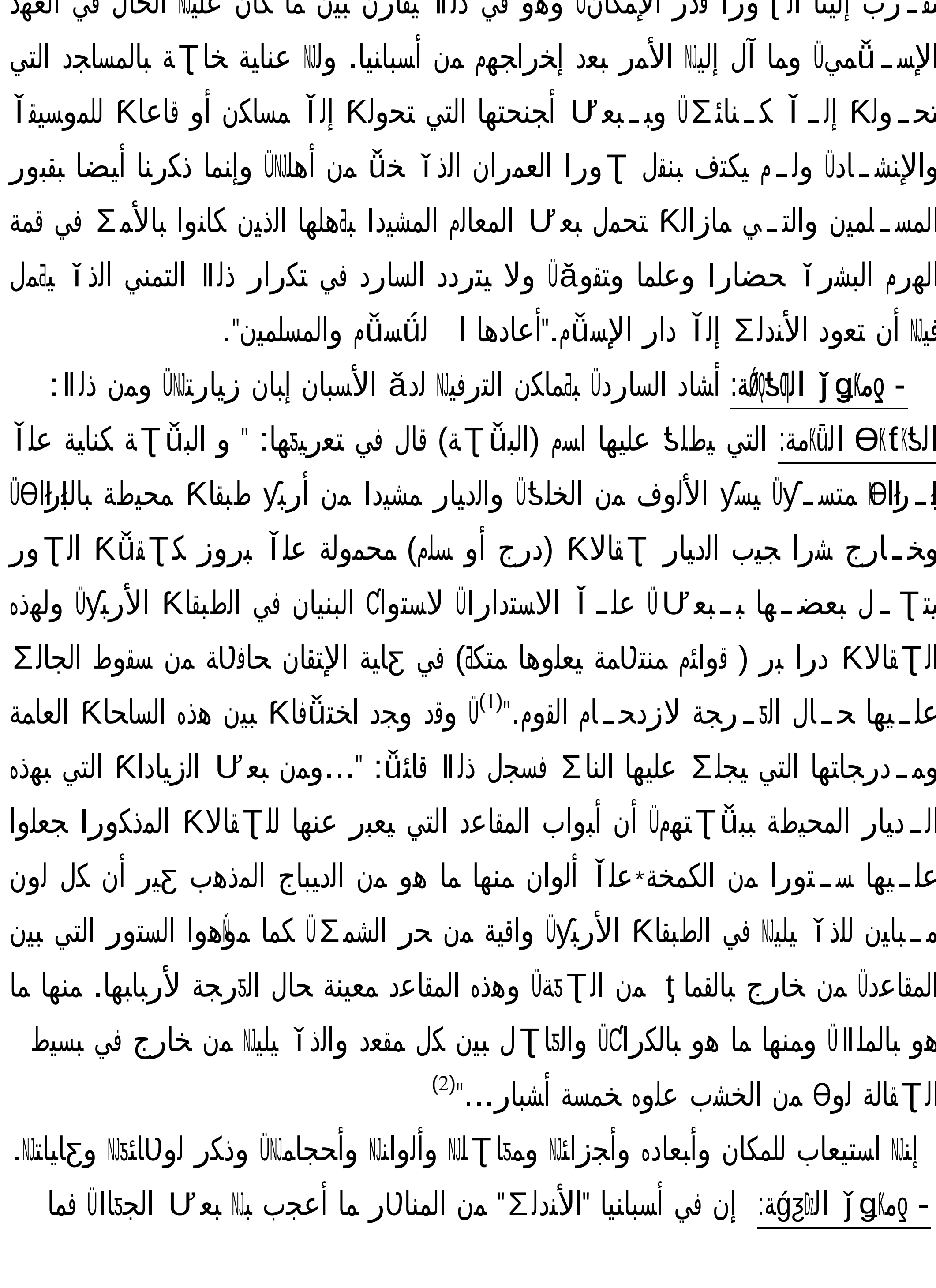
[1] – المصدر السابق، ص: 167.

[2] - نفسه، ص: 147.

[3] - نفسه، ص: 151.

*- الهواة: الحفرة البعيدة القعر، ج هواء، وهوى، وهوة، وهوّى (م. وسيط) جمعت جمعا مؤنثا سالما.

[4] - نفسه، ص: 151- 152.



تقـرب إلينا الصورة قدر الإمكان، وهو في ذلك يقارن بين ما كان عليه الحال في العهد الإسـلامي، وما آل إليه الأمر بعد إخراجهم من أسبانيا. وله عناية خاصة بالمساجد التي تحـولت إلـى كـنائس، وبـبعض أجنحتها التي تحولت إلى مساكن أو قاعات للموسيقى والإنشـاد، ولـم يكتف بنقل صورة العمران الذي خلا من أهله، وإنما ذكرنا أيضا بقبور المسـلمين والتـي مازالت تحمل بعض المعالم المشيدا بأهلها الذين كانوا بالأمس في قمة الهرم البشري حضارا وعلما وتقوى، ولا يتردد السارد في تكرار ذلك التمني الذي يأمل فيه أن تعود الأندلس إلى دار الإسلام."أعادها الله للإسلام والمسلمين".

- معالم الترفيه: أشاد السارد بأماكن الترفيه لدى الأسبان إبان زيارته، ومن ذلك:

الحلقة المسماة: التي يطلق عليها اسم (البلاصة) قال في تعريفها: " و البلاصة كناية على رحـبة متسـعة يسع الألوف من الخلق، والديار مشيدا من أربع جهات محيطة بالرحبة، وخـارج شرا جيب الديار صالات (درج أو سلم) محمولة على بروز كصالات الدور يتصـل بعضـها بـبعض، علـى الاستدارة، لاستواء البنيان في الطبقات الأربع، ولهذه الصالات درابز (قوائم منتظمة يعلوها متكأ) في غاية الإتقان حافظة من سقوط الجالس علـيها حـال الضـرجة لازدحـام القوم."[1]، وقد وجد اختلافات بين هذه الساحات العامة ومـدرجاتها التي يجلس عليها الناس فسجل ذلك قائلا: "...ومن بعض الزيادات التي بهذه الـديار المحيطة ببلاصتهم، أن أبواب المقاعد التي يعبر عنها للصالات المذكورا جعلوا علـيها سـتورا من الكمخة* على ألوان منها ما هو من الديباج المذهب غير أن كل لون مـباين للذي يليه في الطبقات الأربع، واقية من حر الشمس، كما موهوا الستور التي بين المقاعد، من خارج بالقماش من الصفة، وهذه المقاعد معينة حال الضرجة لأربابها. منها ما هو بالملك، ومنها ما هو بالكراء، والفصل بين كل مقعد والذي يليه من خارج في بسيط الصالة لوح من الخشب علوه خمسة أشبار..."[2]

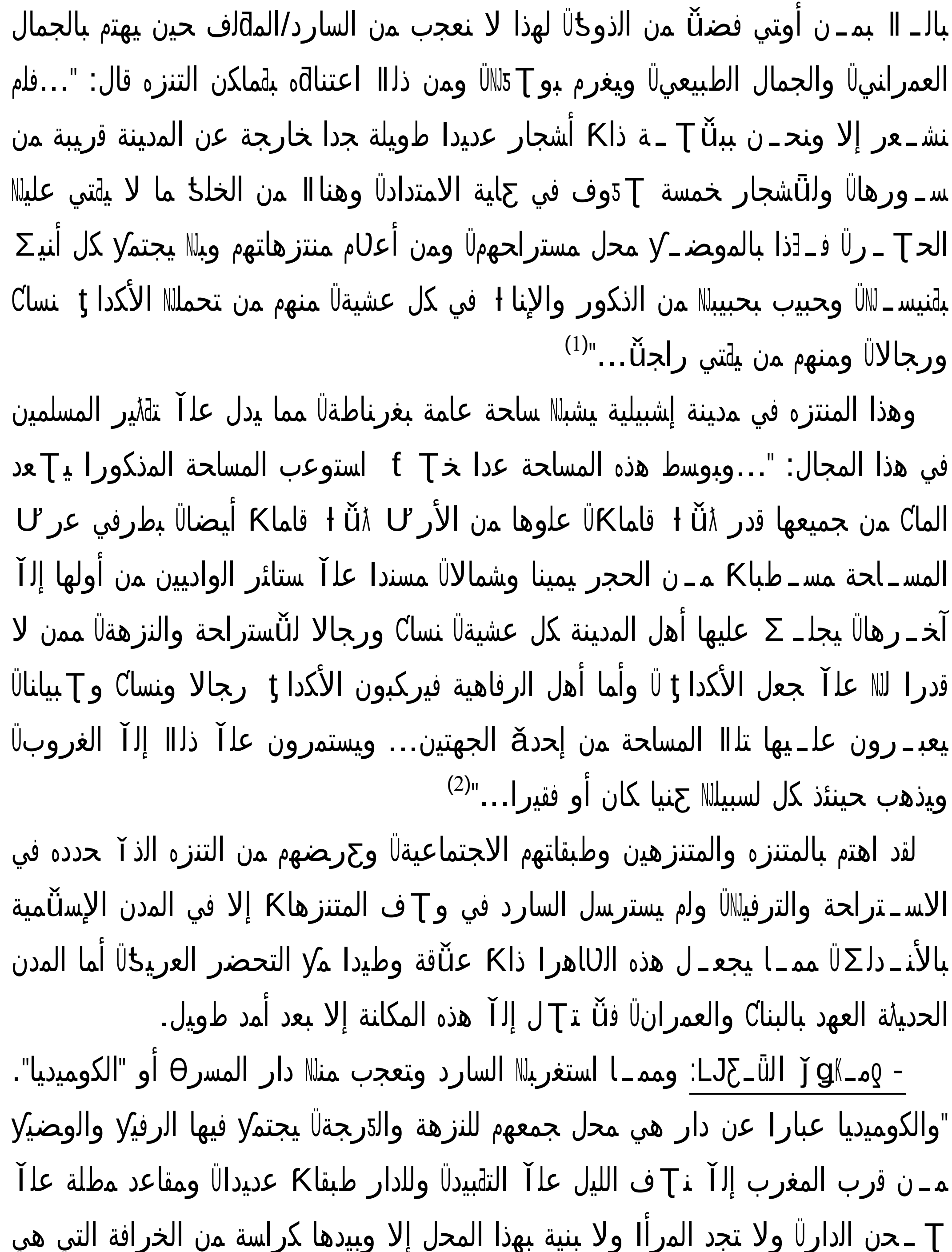
إنه استيعاب للمكان وأبعاده وأجزائه ومفصله وألوانه وأحجامه، وذكر لوظائفه وغاياته.

- معالم الثقافة: إن في أسبانيا "الأندلس" من المناظر ما أعجب به بعض الجفاة، فما

---

(1) - المصدر السابق، ص: 63.

(2) - نفسه، ص: 68.



بالذي هو من أوتي فضلاً من الذوق، لهذا لا نعجب من السارد/المؤلف حين يهتم بالجمال العمراني، والجمال الطبيعي، ويغرم به، ومن ذلك اعتناؤه بأماكن التنزه قال: "...فلم نشعر إلا ونحن بروضة ذات أشجار عديدة طويلة جدا خارجة عن المدينة قريبة من سورها، وللأشجار خمسة صفوف في غاية الامتداد، وهنالك من الخلق ما لا يأتي عليه الحصر، فإذا بالموضع محل مستراحهم، ومن أعظم منتزهاتهم وبه يجتمع كل أنيس بأنيسه، وحبيب بحبيبه من الذكور والإناث في كل عشية، منهم من تحمله الأكداش نساء ورجالا، ومنهم من يأتي راجلاً..."[1]

وهذا المنتزه في مدينة إشبيلية يشبه ساحة عامة بغرناطة، مما يدل على تأثير المسلمين في هذا المجال: "...وبوسط هذه المساحة عدا خصص استوعب المساحة المذكورة بعد الماء من جميعها قدر نصف قامة علوها من الأرض، قامة ونصف أيضا، بطرفي عرض المساحة مسطبات من الحجر يمينا وشمالا، مسندا على ستائر الواديين من أولها إلى آخرها، يجلس عليها أهل المدينة كل عشية نساء ورجالا للاستراحة والنزهة، ممن لا قدرة له على جعل الأكداش، وأما أهل الرفاهية فيركبون الأكداش رجالا ونساء وصبيانا، يعبرون عليها تلك المساحة من إحدى الجهتين... ويستمرون على ذلك إلى الغروب، ويذهب حينئذ كل لسبيله غنيا كان أو فقيرا..."[2]

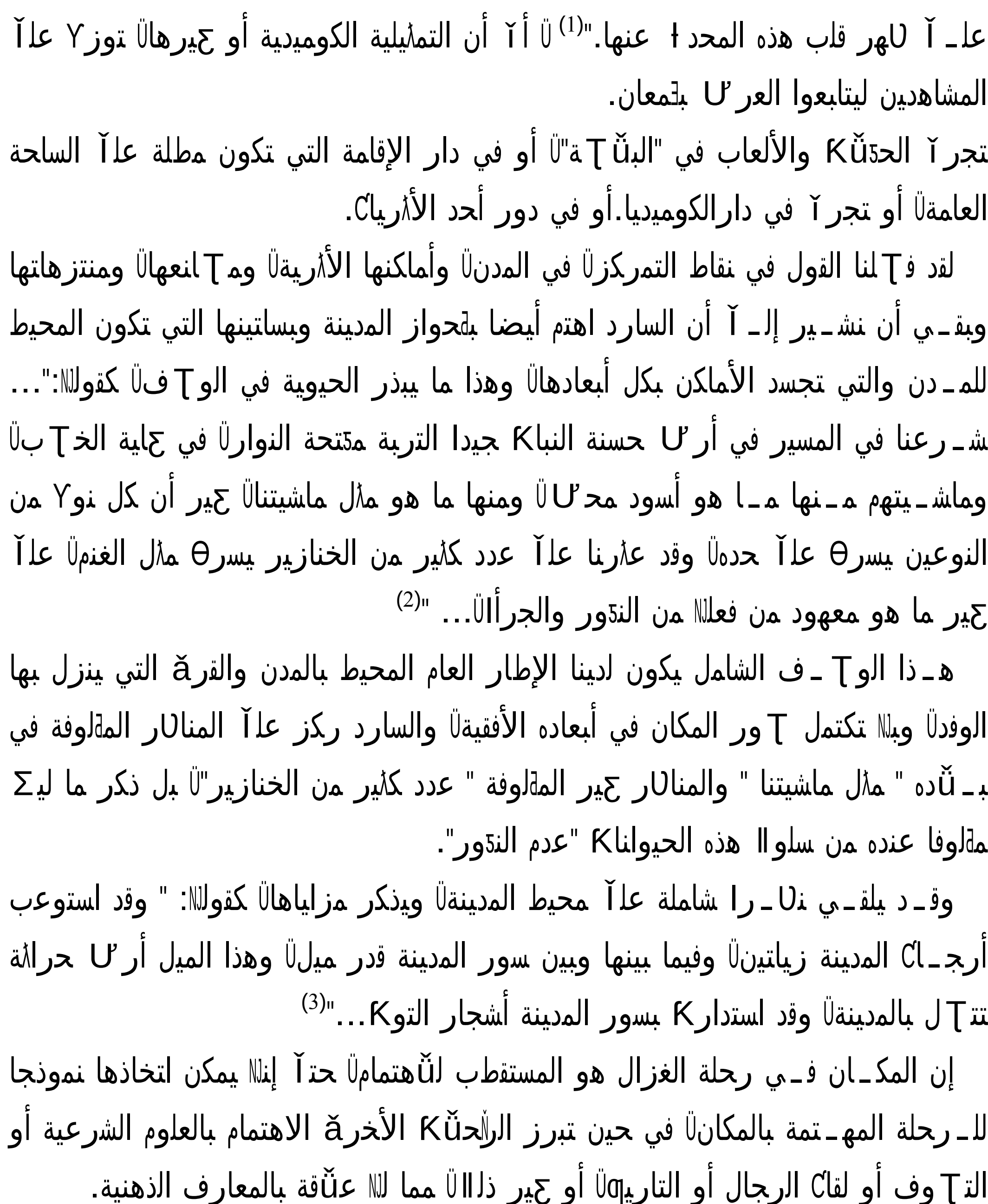
لقد اهتم بالمتنزه والمتنزهين وطبقاتهم الاجتماعية، وغرضهم من التنزه الذي حدده في الاستراحة والترفيه، ولم يسترسل السارد في وصف المتنزهات إلا في المدن الإسلامية بالأندلس، مما يجعل هذه الظاهرة ذات علاقة وطيدة مع التحضر العريق، أما المدن الحديثة العهد بالبناء والعمران، فلا تصل إلى هذه المكانة إلا بعد أمد طويل.

- مسرح الكوميديا: ومما استغربه السارد وتعجب منه دار المسرح أو "الكوميديا". "والكوميديا عبارة عن دار هي محل جمعهم للنزهة والفرجة، يجتمع فيها الرفيع والوضيع من قرب المغرب إلى نصف الليل على التأبيد، وللدار طبقات عديدة، ومقاعد مطلة على صحن الدار، ولا تجد المرأة ولا بنية بهذا المحل إلا وبيدها كراسة من الخرافة التي هي

---

(1) - المصدر السابق، ص: 85.

(2) - نفسه، ص: 196.



علـى ظهر قلب هذه المحدث عنها."[1]، أي أن التمثيلية الكوميدية أو غيرها، توزع على المشاهدين ليتابعوا العرض بإمعان.

تجرى الحفلات والألعاب في "البطحة"، أو في دار الإقامة التي تكون مطلة على الساحة العامة، أو تجرى في دارالكوميديا.أو في دور أحد الأثرياء.

لقد فصلنا القول في نقاط التمركز، في المدن، وأماكنها الأثرية، ومصانعها، ومنتزهاتها وبقـي أن نشـير إلـى أن السارد اهتم أيضا بأحواز المدينة وبساتينها التي تكون المحيط للمـدن والتي تجسد الأماكن بكل أبعادها، وهذا ما يبذر الحيوية في الوصف، كقوله:"... شـرعنا في المسير في أرض حسنة النبات جيدا التربة مفتحة النوار، في غاية الخصب، وماشـيتهم مـنها مـا هو أسود محض، ومنها ما هو مثل ماشيتنا، غير أن كل نوع من النوعين يسرح على حدة، وقد عثرنا على عدد كثير من الخنازير يسرح مثل الغنم، على غير ما هو معهود من فعله من النفور والجرأة... "[2]

هـذا الوصـف الشامل يكون لدينا الإطار العام المحيط بالمدن والقرى التي ينزل بها الوفد، وبه تكتمل صور المكان في أبعاده الأفقية، والسارد ركز على المناظر المألوفة في بـلاده " مثل ماشيتنا " والمناظر غير المألوفة " عدد كثير من الخنازير"، بل ذكر ما ليس مألوفا عنده من سلوك هذه الحيوانات "عدم النفور".

وقـد يلقـي نظـرا شاملة على محيط المدينة، ويذكر مزاياها، كقوله: " وقد استوعب أرجـاء المدينة زياتين، وفيما بينها وبين سور المدينة قدر ميل، وهذا الميل أرض حراثة تتصل بالمدينة، وقد استدارت بسور المدينة أشجار التوت..."[3]

إن المكـان فـي رحلة الغزال هو المستقطب للاهتمام، حتى إنه يمكن اتخاذها نموذجا للـرحلة المهـتمة بالمكان، في حين تبرز الرحلات الأخرى الاهتمام بالعلوم الشرعية أو التصوف أو لقاء الرجال أو التاريخ، أو غير ذلك، مما له علاقة بالمعارف الذهنية.

---

(1) – المصدر السابق، ص: 175.

(2) - نفسه، ص: 60.

(3) - نفسه، ص: 105.

يمدّنا السارد المكان بمجموعة من الكلمات التي توهمنا بأننا نرى المواقع التي رآها، فهذا المكـان حي بالحركة مليء بالنشاط، عامر بالمساجد، إنه صورة العمران في أسبانيا بعد مضـي قـرنين وثلاثـة أرباع القرن من إخراج المسلمين منها، ولم تزل آثارهم باقية، ودورهم عامرة، ومآذن مساجدهم عالية.

إن الـرحلة الغزالية في تعاملها مع الآخر تتفاعل مع الجديد، وتبذل الوسع في الإشارة إلـيه، وبذلك جاء معجمها أحيانا متعدد اللغات ويحمل الكثير من اللفظ الدخيل، وقد أدت دورا في التشخيص رغم أن السارد يلجأ إلى الإقرار بالعجز في مواضع كثيرا.

ثانيا- فضاء الرحلة الورتيلانية

الخط الذي تقع فيه أحداث الرحلة ممتد من الجزائر، إلى مكة المكرمة مرورا بمدن وقرى وأوديـة وجـبال، وسـهول وصـحاري، وفي تلك الأماكن يلتقي الرحال بناس عاديين وعلماء، وبآخرين مستقرين ومنتقلين، يلتقي بالأحياء والأموات، بالخيرين وقطاع الطرق، والأمـاكن التـي يتحدث عنها السارد حقيقية فعلية، والرحلة حركة مصحوبة بسرد أخبار وقصص ومناقشات ومناظرات، إنها الحركة الواعية من أجل العبادة والبحث والمعرفة.

ونـدرس المكان من خلال ما تشير إليه اللغة من ذكر عابر، أو وصف دقيق مع ذكر العلاقات الجمالية التي يمكن أن تحملها المقاطع الوصفية.

فالـرحلة تفتح لنا أفقا واسعا للمكان الذي يتجلى فيه الوجود الأصيل للذات مع الآخرين، وعـالم الـذين عاشوا قبلنا ويعيشون معنا، ويثري معرفتنا وتغني تجاربنا بتشكيل صور ننحتها بها للأماكن المختلفة إلى حين الحاجة إليها، كما تساهم في نقل القارئ إلى عالمها الخـاص، ولقد قال بوتور: " هذا الكتاب الذي بيدي، يمرر تحت مراقبة انتباهي، إيحاءات تعـرض نفسها وترتاد المكان الذي أنا فيه، وتنقلني إلى مكان آخر، وهذا المكان الآخر لا يثيـر اهتمامـي، ولا يمكن أن يستقر إلا بمقدار ما أكون غير راغب في المكان الحقيقي الـذي أنـا فـيه..."[1]. والورتيلاني كغيره مولع بالوقوف عند الأماكن، وبعض المظاهر الطبيعية، وطبائع السكان، يفعل ذلك قبل أن ينطلق إلى أهدافه الأخرى. و محطات المكان في الرحلة الورتيلانية تتجلى فيما يلي:

---

[1] - ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد أنطونيوس، ص: 41.

المـدن والقرى: يبدأ السارد في التعريف بالقرى والمدن التي يمر بها بعد الخروج من محل إقامته. وأول قرية عرف بها هي زمورا، قال: " زمورا كثيرة المياه، وأرضها ذات زرع وضرع بها اشتباه، طعامها جيد، وسوقها عامر مفيد، وفيها برج للنوبة من الترك...وفيها قائد، ولأهلها سائد، بهم يلم..."[1]

فالوصف انتقى العناصر الدالة عن القرية وما يشتغل به أهلها من زرع وضرع، وتسويق، ولم ينس الجانب الأمني والإداري.

أما" قصر الطير" فـ ".. بادية وهو من الأحسن الأوطان، وأكرمها، قل أن لا يكون فيها الخصب، وعشبه أخضر، ولو في الصيف والخريف، وفيه مكان يقال له المرجة، من حفر فيه مقدار ذراع وجد الماء، عذبا سائغا شرابه، وزرعه كثير، وكذا ضرعه، و بالجملة فخير هذا المكان منتشر مشهور، وأهل الخير فيه كذلك، غير أنهم من العامة... "[2]

فالوصف انتقائي أيضا، يركز على المميزات وهي العناصر الأولى التي ذكرها في زمورا مما يشير إلى اهتمامات السارد. فإذا تصورنا نقيض هذه المميزات أدركنا المجال الذي سيركز عليه السارد في وصفه للمكان، والجديد هو أثر المكان على الناس، فهم خيرون غير أنهم من العامة.

فمثل هذا الوصف الانتقائي هو الذي سمح لأحد المنظرين أن يقول: " كل وصف إذا طال انحط إلى حشو... "[3]

وحينما يصل إلى بسكرة يقول: "... بسكرة كثيرة المياه بين خلال البيوت، فكل باب عنده ساقية من الماء تجري من ماء حلو كالعسل، ونخلها عظيم وغلتها كثيرة أيضا، أي زرعها، وكذا الفواكه خصوصا الزيتون، فإنه كثير جدا.

وهذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان، والجامع الأعظم يدل على ذلك، فإنه لا نظير له وصومعته ما أحسنها وما أوسعها غير أن المدينة القديمة قد خربت وصارت دكا، وسبب ذلك فتنة بينهم، فأدخلوا الترك فأهلكوها... حاصله أن الناس قد خرجوا إلى

---

(1) - الورتيلاني، الرحلة، ص: 81.

(2) - نفسه، ص: 83.

(3) -جان ريكاردو، قضايا الرواية الحديثة، ترجمة صباح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط1، 1977م، ص 142

البساتين فبنوا هناك من ذلك العهد إلى الآن، ثم نزل عليهم الوباء، فلم يبق فيها إلا حثالة من الناس، وفيها برجان للترك عامران
أحدهما في البلد والآخر خارجها..." [1]

فهذا وصف بانورامي، فيه الكثير من تفاصيل الأشياء والأحداث، ومتحرك يشمل أزمنة ماضية وهو بمثابة لوحة لمناظر طبيعية، فالمياه خلال البيوت، والنخل عظيم، والفواكه كثيرة، وأشجار الزيتون ضخمة وافرة، ومسجد كبير، وصومعته واسعة ذات حسن وجمال. كل ذلك يشكل إطارا طبيعيا بديعا، ثم هناك حال عظمة المدينة، وحال خرابها من جراء الفتن والأوبئة، وتغلب الأتراك عليها. مما دفع الناس إلى هجر المدينة القديمة، وإنشاء المساكن في المزارع، ثم أبرز السارد معلما جديدا للغرباء عن البلد "برجان للأتراك" إنه يرسم فضاء المدينة بجمالها وأهوالها وفتنها ومعاركها، والناس، وحركة عمرانها، بين ذلك وإن لم يصفوا فهم الفاعلون في كل هذه الحركة. ولذا تمثل بهم الفجوات المسكوت عنها.

إنه وصف متقطع لأجزاء يمتزج فيها الواقع بالتاريخ، ومخزون الذاكرة بما تراه العين الباصرة على امتداد المسافة الزمنية المدركة من قبل السارد.

وفي سيدي عقبة يقول: " لما فرغنا من زيارته، رجعنا إلى الركب وأقمنا تلك الليلة في حضرته وعنايته إلى أن تنفس الصبح، قام الركب لتجهيز الرواحل من هذه القرية، نعم هذه القرية ليس لها نظير، فهي أحسن ما وجد في البلاد مزارع وأشجار ومياهها كما تقدم وحسنها في المعنى أكثر بالسيد عقبة..." [2]

والجديد في هذا الوصف هو تشرف المكان بشرف قبر فيه، إذ ركز على منزلة "سيدي عقبة " بالخصوص، وما ذلك إلا لأمر المعتقد، فلو مر بهذا المكان شخص ذو عقيدة أخرى، لاكتفى بالجمال الطبيعي، أما الرحالة فقد بات في حضرة سيدي عقبة وعنايته إلى أن تنفس الصبح، ولذلك قال:" وحسنها في المعنى أكثر بالسيد عقبة..." فالتواصل بين الأجيال يضفي إحساسا جماليا خاصا بالأمكنة فتزداد قيمها. وقد يركز الوصف للأماكن على المناظر الطبيعية، ومن ذلك قوله:

---

[1] - الورتيلاني، الرحلة، ص: 86-87.

[2] – نفسه، ص: 116.



" والخنقة قرية مباركة طيبة ذات نخل وأشجار في وسط واد بين جبلين، وقد قيل إنها تشبه مكة في وضعها وفي البركة، غير أن التشبيه فيه بعض التغالي..." [1]

فهذا وصف سريع شامل اكتفى فيه بالمظهر الخارجي الذي يبرز فيه الوادي بين جبلين ونخل وأشجار، وعلى هذا السفح المطل على الوادي بناءات متعددة ومساكن كثيرة، والحركة البشرية هنا لا تظهر ممتزجة مع الوصف، وإنما ستأتي منفصلة عنه.

ومن المدن التي وقف عندها معجبا، توزر إذ قال: " وهي بلدا عظيمة من قواعد الجريد كثيرا النخل مع جودة تمرها إذ لا نظير له في سائر بلد الجريد، قوية المياه، فيها أنهار ومياهها عذبة، وبناؤها شامخ مستحسن، مرونق فهي أفضل من بسكرا لأن بناءها بالطوب، وهي بناؤها بالآجر والجير والجبس في غاية الإتقان مع طول البنيان إلى العلو، وسعة عرضه، حاصله أنها قرية طيبة جيدا، وذلك عام في الدور والمساجد بخلاف بسكرا، فإن حسنها في مسجدها فقط." [2] فالسارد لا يتموقع في مكان معين واضح، إنه ينظر إلى مدينة توزر، ويستحضر مدينة بسكرا، ويوازن بينهما. ومقياس المفاضلة قائم على معطيات عمرانية من حيث مواد البناء وتشكيلها في الارتفاع والعرض، وإتقان الصنعة فيها، والأهم من ذلك كون الجمال في توزر عام في كل الدور بينما في بسكرا مقتصر على مسجدها. ولعل التركيز على المياه ووفرتها وعذوبتها مما يلفت الانتباه، فأساس عمران المدن توافر المياه فيها.

وقد يركز في أوصافه على نوع من الفواكه كميزة خاصة للمكان مثل قوله: " وتاجراء هذه قرية طيبة فيها أشجار وفيها فاكهة ونخل ورمان، نعم لا نظير له فيما رأيت إلا في مواضع قليلة، وقد وجد عندنا في قرية تسمى بقرية "أمالو" فإن رمانها أولى من هذا وأحلى..." [3] لقد اكتفى بذكر صفات عامة للقرية من حيث طيب الهواء وتوافر الأشجار المثمرة، ثم وقف عند فاكهة واحدة وجعلها رمزا للمدينة كلها، ولتقريب مذاق الرمان وحلاوته أشار إلى قرية أمالو في بلده، التي تنتج رمانا أحلى، مما في تاجراء.

---

(1) - المصدر السابق، ص: 117.

(2) – نفسه، ص: 122.

(3) – نفسه، ص: 172.

وقـد يهـتم بالغطاء النباتي للمكان والجمال المنسجم العناصر كقوله: " نزلنا الزعفران فوجدنا فيه الخصب العظيم ما رأيناه قط، وأنوار النبات تغشي الناظر، فلما نزلنا به ورأينا ذلك اطمأنت قلوب الحجاج، لأن رؤية الخضرا والبحر والوجه الحسن، تزيل الهم والغم والأحـزان، ومـاؤه أطـيب المياه وأحسنها، وهو أبيض كاللبن لكونه في رمل صاف ما علمت ماء في برقة كهوفي جملة آبارها." [1]

وقد اكتفى بإشارات قليلة إلى خصوبة المكان وجماله، وأبرز أثره على النفوس البشرية وبخاصة حين تجتمع العناصر الثلاثة " الماء والخضرا والوجه الحسن" ونلحظ الإصرار الشـديد علـى ذكر الماء وخصائصه في كل وصف، و حينما تكون الطريق قرب البحر، فإنه يهتم بالمياه العذبة، وحينما يقترب من الأماكن المقدسة يزداد أثر المكان على النفوس، ومـن ذلك قوله: " هذه المنزلة شذاؤها طيب، وأنوارها بينة، والعارف تجده فيها منشرح الصـدر، طـيب الوقت، منبسط الظاهر والباطن، لأن آثار المحبوب حاصلة فيها، إلا من أصـابه زكـام محبة الدنيا، فهو لا يشم شيئا من هذه العواطر الإلهية، والروائح النبوية، وذلك معلوم في الشاهد..." [2]

فالواضح أن تأثير المكان مرتبط بوجود الحبيب فيه، وهي علاقة متعدية أثرت في المكان ثـم أثـرت فيمن حل بالمكان، وهذه العواطر والروائح يشمها من له تعلق بساكن المكان بالرسول *صلى الله عليه وسلم*، أما غيره فلا يدركها لتعلقه بالأغيار الدنيوية.

إن الانشـراح بهذا المكان كناية عن الحال وليس عن الوصف، والسارد قد ينشرح بما هو مادي أيضا، كقوله: "وفي هذا المنزل تنشرح النفوس وتمرح فيه لطيب مائه وحلاوة مكانه وطلاوة منظره، وقربه من الأماكن الشريفة، والمشاهد الطيبة..." [3]

الإحسـاس بالجمـال الروحي والمادي خاصية يتمتع بها ذوو الأذواق الرفيعة، وحين يمتزج جمال الطبيعة وشرفها بمن فيها يكون التأثير أشد وأبلغ. ورغم اقتضاب الأوصاف إلا أن السـارد لا يسهو أبدا عن بعض النقاط التي تحدد الخصائص، وقد لا يهتم بالأثر

---

[1] – المصدر السابق، ص: 216.

[2] – نفسه، ص: 270.

[3] – نفسه، ص: 373.

بقـدر مـا يهتم بمكونات المنظر كقوله : " وبركة الحاج المذكورة هي بركة واسعة مدى البصـر يـتموج فـيها مـاء النيل العذب الفرات تنصب فيها الأسواق الحافلة بشاطئها القهـاوي المزخرفة والفساطيط المونقة ويخرج غالب أهل مصر لوادي الحاج والفرج هناك والتنزه في بساتين ومقاصير على شاطئ النيل المنصب إلى تلك البركة وفي جانبها الغربي قرى متعددة في إحداها مسجد لسيدي إبراهيم المتبول..."[1]

هـذا من الوصف الشامل الذي يحدد المنظر ثم يملأ المكان بالناس والأشياء وكل ذلك في حركة دائبة وألوان متعددة وخيام وقصور ومحلات بيع وشراء ومقاهي على شاطئ النيل وبساتين وماء يتجمع على مدى البصر.

إن السـارد واقف في المكان ويحرك بصره ليستجمع عناصر المنظر الممتد الآفاق و كأنـه ينظر إليه من نقطة عالية تمكنه من الإشراف على البركة وما حولها. وقد لا يكون الوصـف مـن إبداع الرحالة وإنما يورد نصوص غيرها ويوظفها في متنه لكونها تكفي للتعبيـر عن مشاعره وبذلك تحقق الرحلة تفاعلات مع الرحلات التي كانت قبلها في توظيف خطاباتها والتحاور معها أحيانا وتجاوزها أحيانا أخرى كما أن الورتيلانية تتعالق مـع نصوص أخرى غير رحلية كتبت في أزمان بعيدا من زمنها أو قريبة وحين تبرز الفروق بين النصوص عليها بالتقييد أو المعارضة وهذا ما يشار إليه بالتحاورية أو التناص .

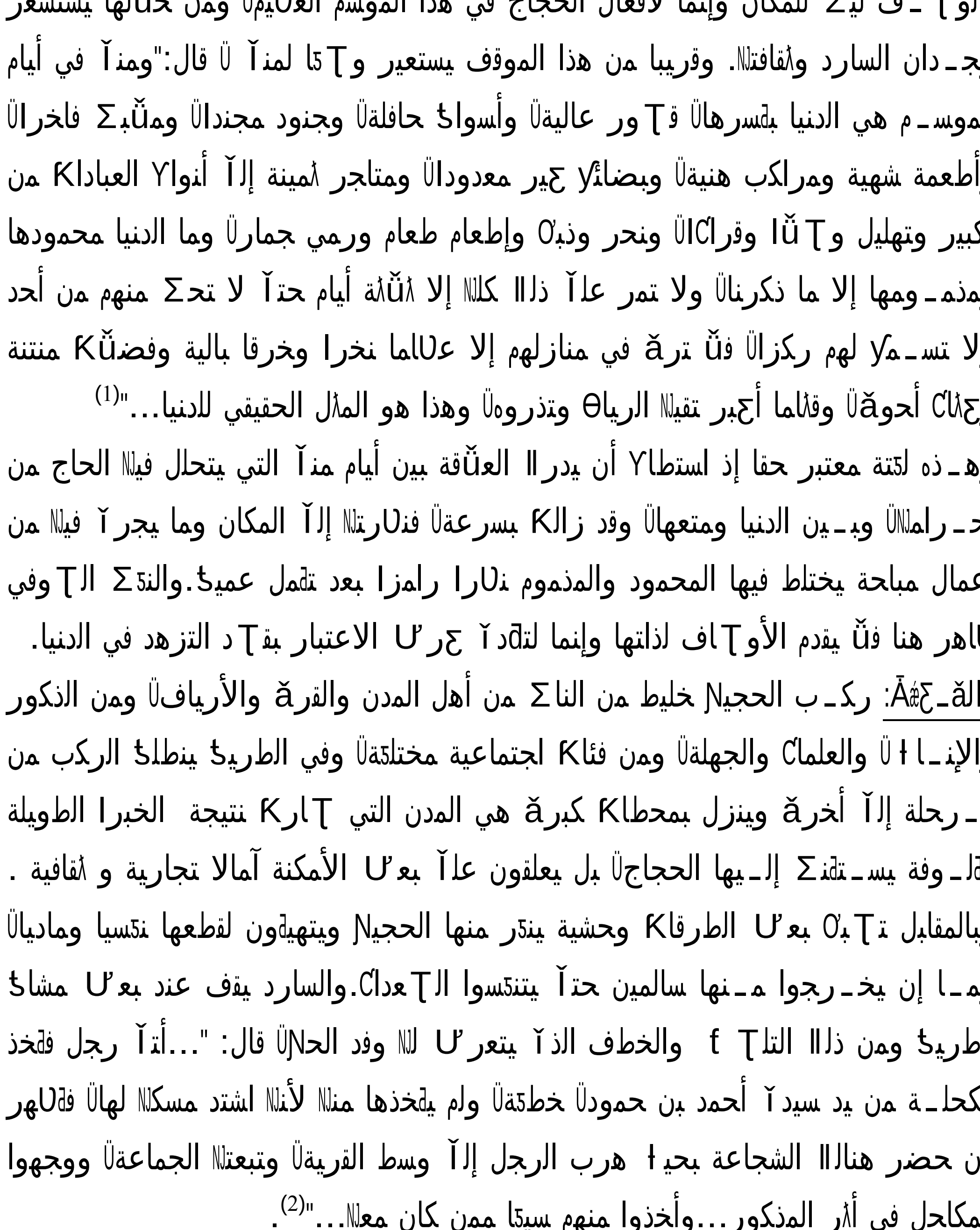
وقد يصف الفعل في المكان بدل المكان نفسه ومن ذلك "الوقوف بعرفة" قال:

"...توجهـنا إلى محل الوقوف والمشاهدة ومكان التضرع والمساعدة زاد الاشتياق إلى الجليل والتعلق بكل حبيب وخليل فقصاب الناس شدة الحر والوهـج حتى كاد أن يذيب الأكـباد والمهـج فتفـرقت الناس على رفع أحمالها وسلكت مسالك جمالها فركب من ركب ومشى الماشي والغريب وساق الإبل كل أجير ونقيب وقد انفصل الجميع بالتوجه والأدب إلـى محل الاعتراف من فيض القرب وعند ذلك تظهر زفرات المحبين ولوعة المخبتـين والمشـتاقين...فـد خلنا محل الوقوف بالذل والمهابة والروع والخوف والإنابة والدعاء والتضرع والاضطرار لتقبل الإجابة فوقفنا راكبين..."[2]

---

(1) – المصدر السابق، ص: 281.

(2) – نفسه، ص: 411.



فالوقوف ليس للمكان وإنما لأفعال الحجاج في هذا الموسم العظيم، ومن خلالها يستشعر وجدان السارد وثقافته. وقريبا من هذا الموقف يستعير وصفا لمن ذكر قال:"ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بحسرها، قصور عالية، وأسواق حافلة، وجنود مجندة، وملابس فاخرة، وأطعمة شهية ومراكب هنية، وبضائع غير معدودة، ومتاجر ثمينة إلى أنواع العبادات من تكبير وتهليل وصلاة وقراءة، ونحر وذبح وإطعام طعام ورمي جمار، وما الدنيا محمودها ومذمومها إلا ما ذكرنا، ولا تمر على ذلك كله إلا ثلاثة أيام حتى لا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا، فلا ترى في منازلهم إلا عظاما نخرا وخرقا بالية وفضلات منتنة وعظاما أحوى، وقلما أكبر تقيه الرياح وتذروه، وهذا هو المثل الحقيقي للدنيا..."(1)

وهذه لفتة معتبر حقا إذ استطاع أن يدرك العلاقة بين أيام منى التي يتحلل فيها الحاج من إحرامه، وبين الدنيا ومتعها، وقد زالت بسرعة، فنظرته إلى المكان وما يجري فيه من أعمال مباحة يختلط فيها المحمود والمذموم نظرا رامزا بعد تأمل عميق. والنص الصوفي ظاهر هنا فلا يقدم الأوصاف لذاتها وإنما لتأدية غرض الاعتبار بقصد التزهد في الدنيا.

القافلة: ركب الحجيج خليط من الناس من أهل المدن والقرى والأرياف، ومن الذكور والإناث، والعلماء والجهلة، ومن فئات اجتماعية مختلفة، وفي الطريق ينطلق الركب من مرحلة إلى أخرى وينزل بمحطات كبرى هي المدن التي صارت نتيجة الخبرة الطويلة مألوفة يستأنس إليها الحجاج، بل يعلقون على بعض الأمكنة آمالا تجارية وثقافية . وبالمقابل تصبح بعض الطرقات وحشية ينفر منها الحجيج ويتهيبون لقطعها نفسيا وماديا، وما إن يخرجوا منها سالمين حتى يتنفسوا الصعداء. والسارد يقف عند بعض مشاق الطريق ومن ذلك التلصص والخطف الذي يتعرض له وفد الحجيج قال: "...أتى رجل فأخذ مكحلة من يد سيدي أحمد بن حمودة خطفة، ولم يأخذها منه لأنه اشتد مسكه لها، فأظهر من حضر هناك الشجاعة بحيث هرب الرجل إلى وسط القرية، وتبعته الجماعة، ووجهوا المكاحل في أثر المذكور...وأخذوا منهم سيفا ممن كان معه..."(2).

يصف السارد هذه الأحداث لتشارك في تشخيص فضاء ركب الحجيج والطريق المتسم

---

(1) – المصدر السابق، ص: 443.

(2) – نفسه، ص: 106.

بالرعب وانعدام الأمن. وقد يقف السارد عند حركة الركب وضخامته كقوله: "الطريق التي تهبط الناس معها ضيقة إلى الوادي والركب - والحمد لله - لم يكن أعظم منه وما طلع ركب من المغرب مثله في الكثرة، فلما ضاق الطريق ذهب الناس واحدا بعد واحد، ومرحولا بعد مرحول، وقد تقدمت أنا وجماعة من الفضلاء إلى أن وصلنا روضة الشيخ سيدي حسن الكوفي الذي قبره قرب الوادي..." (1)

فالوصف متحرك، ونقطة ارتكاز السارد هي حركة الهبوط وكيفيته ثم تصدره للركب هو وجماعة من الفضلاء. إن الطريق في الرحلة يختفي باستمرار مفاجآت يتوجسها الرحال ولا يدرك كنهها، فقد تكون خطفة أو هجوما مباغتا أو عطشا أو حرارا أو ما إلى ذلك قال: " وتوزر وقابه محل الخطفة، بل توزر أعظم، فكل من تخلف عن حاجة في يده إلا وخطفوها، فإياك والغفلة فيهما بل وفي غيرهما فإن الغفلة فيهما مظنة التلاف..."(2)

والطريق أيضا مسرح لأحداث المشاجرات والمشاحنات قال: " وفي ذلك اليوم حصل بعض التشاجر لأهل الركب ووقعت معركة عظيمة بين أهل عامر وأهل قصر الطير بالحجر والعصي... وبعد ذلك حصلت الفرقة في الركب وتقوى الغيظ بينهم ثم اجتمع أهل الفضل وأصلحوا بينهم أصلح الله حال الجميع بمنه وكرمه."(3). فالقارئ يتخيل المعركة الدائرة في الطريق وما يمكن أن يجري فيها. ويتخيل أيضا الغيظ بعد هذه المعركة ثم اجتماع أهل الفضل وإصلاحهم ذات البين. وحركة الحجيج حركة جماعية لا تخلو من إشاعات هنا وهناك وفيها كثير من التشوق إلى الغريب، وقد تتلاقى الأركاب من هنا وهناك "...وكانت المطايا من سرعتها تحكي الطير حتى أوصلتنا قرب الظهر رابغ، وكم لها علينا من فضل شائع سابغ ووجدنا بها الأركاب المصري والشامي قد خيموا، فإذا الشاميون على الرحيل قد صمموا فنقضوا أخبيتهم وعانقوا أرديتهم فارتحلوا ملبين، ووجدنا واديه قريب العهد بالسيل ... ولما حان للشمس أفول شمر الركب المصري الذيول، فقام وارتحل وعن رابغ انتقل وبتنا هنالك وفي غد تهيأنا للإحرام فاغتسلنا وأزلنا ما في إزالته فضل

---

(1) – المصدر السابق، ص: 106.

(2) – نفسه، ص: 128.

(3) – نفسه، ص: 128.

ورغـبة مـن الشعث وأخرنا الإحرام..." [1]. فالمكان واسع جدا يستطيع أن يشمل ركب الجزائـر، ومصـر والشـام وكل ركب فيه عدد ضخم من الناس ودوابهم وأمتعتهم أنا والكل في شغل بإقامة سنن الإحرام وكما أنهى ركب شعائـره غادر المكان، فاللوحة حية مـفعمة بالحـركة، اشـترك فـيها الحجيج من مختلف البلدان ومعهم الحيوانات المختلفة والأمـتعة، وهـم بـين الحـين والآخر يرددون بصوت واحد " لبيك..." وعلى المنظر إضـافة مخـتلفة منها ضوء منتصف النهار " قرب الظهر"، وإضافة غروب الشمس، فالمنظـر ممتد في الزمان، مما يعني أن السارد لم يصفه دفعة واحدة. فقد ألفه من لقطات متتابعة وفي مثل هذه المشاهد يقوم القارئ بتجميع أوصال الوصف في صورة متماسكة،

ومن مخاطر الطريق، قوله: "... ثم سرنا كذلك إلى أن دخلنا وادي النار وهذا الوادي قد وافـق فيه الاسم المسمى، إذ لا يخلو من شدة تقع للحجاج فيه من عطش وموت ومرض وهـو واد كبير قد انطبق عليه الجبلان من النبط إلى الخضيرة فلا ينفذ فيه الهواء غالبا، لأن الهـواء إذا تحرك بالرياح انطبق عليه الجبلان فينعكس الريح إلى وراء... وتحدث الحـرارة والسموم في الهواء، فينشأ الهلاك منه، ولا ماء هناك من النبط إلى الينبع، فإذا قـبض الهواء مع الحرارة مات من الناس ألوف مؤلفة في أسرع مدة، فيأخذ الرجل الماء، فـلا يضـعه مـن يـده حتى يموت، وقد صار ذلك في رجوعنا." [2] هذه مخاطر حقيقية يتعـرض لهـا الركب في هذه المرحلة من السير، الذي يشبه مغامرة قلما ينجو منها أحد ومـن نجـا فبمشقة وإرهاق شديدين، فإذا وصل إلى أرض واسعة، شعر بالراحة " وهذا المحـل تزهو فيه النفوس، وهو روضة من رياض الله تعالى، تحصل للمنقطعين وللغرباء والمسـاكين لأنهـا مرسى، وفيها أسواق كثيرة فلا تكاد تنعدم فيها الخيرات، وتقضى فيها جمـيع الحاجـات، وفيها غالب الحبوب والثمرات، وكذا... أعني الدلاع وجميع الأقوات والمشـتهيات. فأقمنا فيها ما شاء الله ثم ارتحلنا..." [3]. وكأن السارد تعمد إيراد منظرين متقابلـين لـيقول :إن بعد العسر يسرا. وبعد وادي النار، قرية فيها كل الثمار، وبعد هذا

---

(1) - المصدر نفسه، ص: 358.

(2) - نفسه، ص: 373.

(3) - نفسه، ص: 374.

الضيق الشديد سعة في الأرض والعيش، وبعد مراقبة الأنباء خوفا من فجاءة الموت تمتد الآمال.

إن صور الطريق عديدا يصعب استقصاؤها، ولكنها تتآلف جانب المغامرة في الرحلة إذ المفاجأة كامنة في كل منعطف من منعطفاتها.

ومما اهتم السارد بذكره في الطريق ظاهرة التنافس بين الأركاب "...والركب المصري نازل هنالك إذ سبق من المدينة، ونحن ركب الجزائر وراءه، وإن كان عادة المغربي السبق في الإياب، وإنما سبقناه عند الينبع، ثم خلفنا تلك المنزلة وسبقناه وتركنا الركب المصري هنالك إلى أن تجاوزنا العشاء الأخيرة، فنزلنا في الوادي، ثم إن الركب المصري سبقنا في الليل وأصبح في الصحراء، وقد بتنا هنالك في عافية، ثم بكرنا قبل طلوع الفجر ووصلنا الصحراء عند الزوال ونزلنا وراء المصري لتعذر المرور في وسطه من شدة الضيق..."[1].

فهذه الحركة تخلق نوعا من المنافسة بين الحجيج وبخاصة في العودة، كما تخلق نوعا من التبادل البري الداعي إلى مواصلة السير ليلا، مما يزيل الفتور، إلا أن هذه الحركة قد تتحول إلى مشاجرة خطيرة لا تليق بمقاصد الركب.

هذه بعض صور الطريق تشارك في فضاء الرحلة، وهي عينة تغني عن غيرها، وما يميزها أنها تتسم بالحركة والحيوية مما يجعلها قريبة من الصور السردية رغم أنها وصفية.

- المسكن: لا يهتم السارد بتفاصيل المنازل التي يدخلها ويحدثنا عنها، وقد يكون ذلك بسبب طغيان النمط الواحد على العمران في المناطق التي مر بها، إذ لم يجد فيها جديدا، فحينما كان يسير مع شيخ الركب في توزر أدخل الشيخ إلى أحد المنازل وبقي السارد/ المؤلف في الخارج ينتظر "...إذا برجل من القرية عزم علي، وذهب بي إلى بيته بعد امتناعي خوفا من المكر، ولما وصلت بيته وجدته أحسن البيوت، ووجدت زوجته من أحسن النساء دينا وحالا وصيانة... فإذا تكلم أحدهما أجابته عبرا من انسجام الدمعة وانهمارها...وما رأيت مثلهما أصلا، ثم قامت المرأة وجعلت لي خبزا ثم كسرتها في

(1) - المصدر السابق، ص: 533.

الحليب أعني لبن الغنم ووضعه عليه شيئا من الزبدة ثم أخذه في الأكل فما وجده أحلى من ذلك الطعام، ولا أذوق منه طعاما كثيرا من الجنة، فلما كنت في أثناء الأكل، وإذا بصاحب البيت قال لي كل هذا طعام بلادك فقلت من أي بلاد أنه قال من ميلة..."[1]

- المدارس: إن مراكز العلم تشغل الحيز الأكبر من اهتمامات السارد، إذ كلما دخل قرية أو مدينة بحث فيها عن العلم والعلماء ومن أهم ما أشار إليه في رحلته هذه زاوية خنقة سيدي ناجي، إذ قال بعد أن وصفها "...لها فضل عظيم سيما إظهار العلم فيها، فإنهم مشتغلون بالنحو والفقه والحديث خصوصا مختصر البخاري لابن أبي جمرة، وأما علم الكلام والمنطق فمنعدم في محلهم رأسا، وقد سألتهم عن عدم الاشتغال بعلم التوحيد فقالوا وهل يحتاج للشمس إلى دليل، في قول قضية قائلة: " إن الله لا يحتاج في معرفته إلى دليل وبرهان..." [2]

وقد أفاض في ذكر ما تشتهر به هذه المنطقة والتخصصات المعتنى بها، وقدم رأيه كالمعترض عليهم في عدم الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام بإيراد تعليق حول أهمية دراسة علم التوحيد لمعرفة صفات الكمال لله تعالى وأفعاله جل جلاله.

ولما وصل إلى طرابلس مدح قائد عمورا قائلا: " فقد خرج عن أجناسه من العمال إذ بنى مدرسة عظيمة متقنة ما رأيت أظرف منها وأحسن من صنعتها، وجعل أيضا بيتا للتدريس وغرس النخل الجيد وحبسها على المدرسة...وحاصل خدمته إنما هي على طلبة القرآن وطلبة العلم بأن جعل معلما للقرآن، ومعلما للعلم، وهو الفاضل والتقي الكامل تلميذ الشيخ النوراني، سيدي إبراهيم الجمني... الذي هو تلميذ الشيخ الخرشي، وهو نور جربة إذ غالبها خوارج، فإن الشيخ سيدي إبراهيم شمس الحق في هذه البلاد."[3].

فهذا توثيق حسن إذ بين لنا الاهتمام بإنشاء المدارس وتخصيص الأقسام للدراسة، وتوفير المداخل عن طريق الأوقاف، وإنما كان ذلك قبل للمساجد والزوايا، ولم تستقل بنفقاتها. ويبدو أن المدارس في هذه الفترة كانت منتشرا فيما بين تونس وطرابلس، ومن ذلك

---

[1]- المصدر السابق، ص: 124.

[2]- نفسه، ص: 117.

[3]- نفسه، ص: 131.

المدرسة التي قرب قبر الصحابي أبي لبابة " وبجوارها مدرسة بناها محمد باي في غاية الجودة والإتقان والحسن، ومسجده كذلك، وجعل لهذه المدرسة أحباسا ورتب فيها عشرين طالبا يعطي كل واحد منهم ريالا على رأس كل شهر، واستأجر فقيها يعلمهم ويصلي الصلوات الخمس في المسجد..." [1]

وهكذا تظهر البدايات الأولى لانتشار المدارس ببناياتها وبروز المرتبات الممنوحة لطلبة العلم، بالإضافة إلى مجانية التدريس التي يتكفل بها ذوو الأمر.

المنشآت المقدسة: مما اهتم به السارد في رحلته ووقف عنده كثيرا بيوت العبادات والأضرحة، وما يقام حولها من بنايات:

المساجد:

المساجد الجامعة، فقد قال في مسجد بسكرا: "...ثم دخولنا المسجد الجامع الأكبر الواسع ذي البنيان الشامخ، فلم يوجد فيما علمت أحسن منه أوسع ولا أعظم في المساجد المعلومة غير أنه كالمعدوم في زماننا لا ندارس العلم وأهله إذ لا تجد طالبا يقرأ القرآن أو يتعلم مسألة..."[2]، فمع علو البنيان وشموخه فراغ من العلم وأهله وممن يطلبه بسبب ما حل ببسكرا آنئذ.

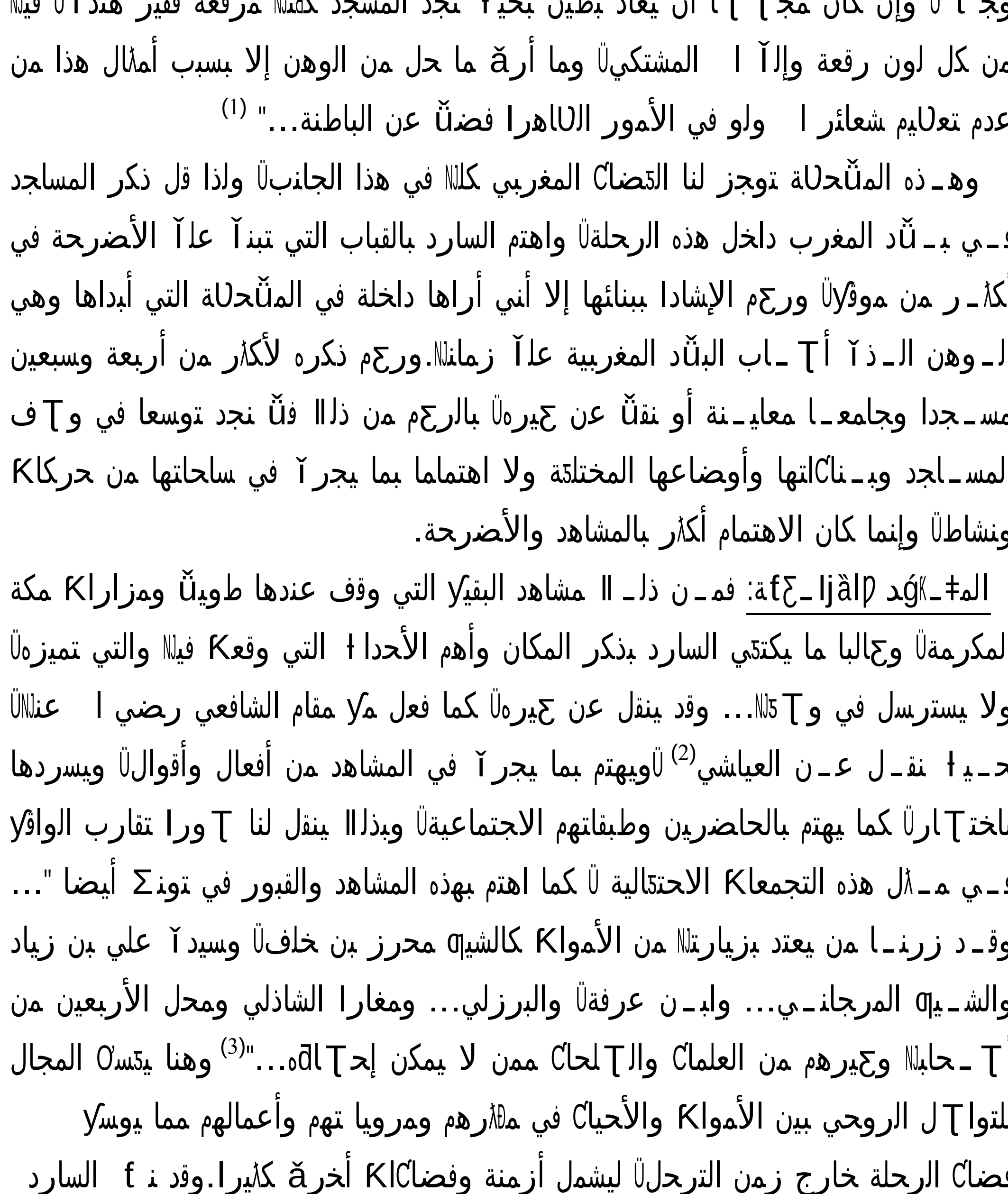
ومن المساجد التي وقف عندها: مسجد السلطان حسن بمصر "...وهو مسجد لا ثاني له في مصر، ولا في غيرها من البلاد في فخامة البناء ونباهته، وارتفاعه وإحكامه واتساع بناياته، وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة، تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه كما تفعل في شواهق الجبال . وفي أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى، وفيها نقوش عجيبة..."[3]، فالوصف شمولي يعتمد على إدماج المأثور الشعبي للمبالغة والتعظيم ولكنه خال من الدقة التي تقرب الواقع لذهن القارئ، إنه يعتمد على المبهم من اللفظ ليترك أثرا ويترك التجوال ليشكلها القارئ كما يحلو له. ومما يجدر تسجيله ملاحظته التي وردت تعليقا على مسجد السلطان حسن " وأما أهل مغربنا، فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما أحدث ولا مهدما قد جدد أو واهيا قد أصلح، بل

---

(1) - المصدر السابق، ص: 128.

(2) - نفسه، ص: 109.

(3) – نفسه، ص: 265.



لو سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنيا برخام يعاد بحجر وجص وإن كان مجصصا أن يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندي فيه من كل لون رقعة وإلى الله المشتكي وما أرى ما حل من الوهن إلا بسبب أمثال هذا من عدم تعظيم شعائر الله ولو في الأمور الظاهرة فضلا عن الباطنة..." (1)

وهذه الملاحظة توجز لنا الفضاء المغربي كله في هذا الجانب، ولذا قل ذكر المساجد في بلاد المغرب داخل هذه الرحلة، واهتم السارد بالقباب التي تبنى على الأضرحة في أكثر من موقع، ورغم الإشادة ببنائها إلا أني أراها داخلة في الملاحظة التي أبداها وهي الوهن الذي أصاب البلاد المغربية على زمانه. ورغم ذكره لأكثر من أربعة وسبعين مسجدا وجامعا معاينة أو نقلا عن غيره، بالرغم من ذلك فلا نجد توسعا في وصف المساجد وبناءاتها وأوضاعها المختلفة ولا اهتماما بما يجري في ساحاتها من حركات ونشاط، وإنما كان الاهتمام أكثر بالمشاهد والأضرحة.

المشاهد والمزارات: فمن ذلك مشاهد البقيع التي وقف عندها طويلا ومزارات مكة المكرمة، وغالبا ما يكتفي السارد بذكر المكان وأهم الأحداث التي وقعت فيه والتي تميزه، ولا يسترسل في وصفه... وقد ينقل عن غيره، كما فعل مع مقام الشافعي رضي الله عنه حيث نقل عن العياشي(2)، ويهتم بما يجري في المشاهد من أفعال وأقوال، ويسردها باختصار، كما يهتم بالحاضرين وطبقاتهم الاجتماعية، وبذلك ينقل لنا صورا تقارب الواقع في مثل هذه التجمعات الاحتفالية ، كما اهتم بهذه المشاهد والقبور في تونس أيضا "...وقد زرنا من يعتقد بزيارته من الأموات كالشيخ محرز بن خلف، وسيدي علي بن زياد والشيخ المرجاني... وابن عرفة، والبرزلي... ومغارة الشاذلي ومحل الأربعين من أصحابه وغيرهم من العلماء والصالحين ممن لا يمكن إحصاؤه..."(3) وهنا يفسح المجال للتواصل الروحي بين الأموات والأحياء في مآثرهم ومروياتهم وأعمالهم مما يوسع فضاء الرحلة خارج زمن الترحل، ليشمل أزمنة وفضاءات أخرى كثيرا. وقد نص السارد

(1) – المصدر نفسه ص: 266.

(2) - نفسه ص 275، والعياشي، ج2، ص: 151.

(3) - نفسه ص 668.



علـى هـذا التواصل قائلا: "... فإن الحواس الباطنة تشهد بذلك وتخيل روحانية الداخل، روحانـية المزار، فإنها تتلقاه بغير حجاب، في حضرة الشهود، في مرقاة الصعود بتقييد الرب المعبود، فتستـمد النفس الزيارة من الروح المزارة من الإمدادات الإلهية، والأنوار الصـمدانية، واللطـائف الرحمانية، والعلـوم اللدنية ما كتب لها..."[1]، فمن كان هذا حالـه أو بتعبيـر أدق فمن كان هذا اعتقاده، فلا شك أنه سيجد في زيارة هذه المقامات والمشاهد راحة نفسية، وربما حركته مواجيد خاصة فيفقد الإحساس بواقعه.

<u>مصـادر المـياه</u>: وممـا اهتم به السارد مصادر المياه باعتبار الرحلة تمر على مسالك صـحراوية في غاية الصعوبة، لهذا نجد حضورا مكثفا لذكر أماكن وجود الماء من منابع وآبار وأحساء وغيرها .

<u>- الـوديان</u>: يصـف السـارد المياه من حيث العذوبة والملوحة وصلاحية الشرب أو عدمـه، ويذكر المسافة التي تفصل موقعا فيه وفرة ماء عن موقع آخر مثله أو أقل منه أو أكثـر، وله عناية خاصة بالأودية كقوله: " إننا نزلنا في وادي المسيد، فوق المسجد، وهو واد متسع، والركب سبقنا ونزل في وادي الرمل، وهو واد متسع ماؤه لا ينقطع في جميع الأزمـنة الأربعـة..."[2]، فالتركيز على ما يبدو هنا على عدم انقطاع الماء في الفصول الأربعـة، ممـا يشيع الطمأنينة لدى سالكي الطريق، إذ أن الوظيفة الإخبارية أساسية في الـرحلات، وبخاصـة على الطريق الصحراوية، حيث تعتبر نقاط تواجد الماء في غاية الأهمية للقوافل المتتابعة ولأركاب الحج، وزوار البقاع المقدسة خاصة.

<u>الآبار</u>: ومما اهتم به السارد الآبار التي بالمدينة المنورة وما حولها باعتبارها ذات فضل ومنـزلة خاصـة تبعا لأفعال خاصة قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآبار، فصـارت مقصـودا بتلك الأوصاف.كما اهتم بذكر الأودية التي حول المدينة، أو التي لا تسـيل إلا وقت الأمطار الغزيرة، فيخرج الناس للتنزه بها[3]، وقد نقل معظم ما قيل فيها عـن العياشي وغيره، وقد يشير إلى الآبار الخالية أو التي لا تفي بالغرض المقصود "...

---

[1] - المصدر السابق، ص: 198.

[2] - نفسه، ص: 173.

[3] - نفسه، ص: 523- 528.

مررنا على قرية معلومة وفيها آبار لا ماء فيها وآثار بنيانها ظاهرة وأسوارها متطاولة وأزقتها مشهورة وفي أسفلها واد كبير يجري السيل إليه ومن ساقية لا تصل بتلك القرية عظيمة عند وجود الأمطار فليس شربهم ولا استقاؤهم إلا من ماء الأمطار المجتمعة فيها، ثم إن الحجاج تسابقوا إلى ذلك الوادي فوجدوا فيه كثيرا صغيرا لا يكفي لدوابهم فازدحموا عليه وخوضوه إلى أن صار طينا، فلم يبلغ أحد قصده منه، وبعد ذلك بمرحلة تفضل الله على الحجاج فوجدوا ماء مستبحرا في مواضع عديدا يكفي أركاب الدنيا كلها سقيا واستقاء ورفعا..." (1).

فالمشهد هنا يساعد على تصور ما يحدثه الجفاف في أماكن العمارة إذ يرحل الناس من القرى والمدن فتبقى خاوية بعد عمران، وتنعدم الحياة بعد الحركة والاضطراب، كما يصور موكب الحجيج وهم يتسابقون إلى أماكن يتوقعون وجود الماء فيها، وقد يزدحمون إلى درجة تفسد عليهم الاستفادة من الأحساء والآبار، والغدران كما حدث، وهذه الصور تسعفنا بأن نرسم فضاء الرحلة الواسع في مشاهد مختلفة.

الغدران والأمطار:

ويقدم لنا صورا أخرى عن الغدران التي تتجمع فيها مياه الأمطار، قائلا: "...فوجدنا آبارا مملوءة بماء المطر فشرب الناس وسقوا دوابهم واستقوا، بل حصل المطر بالفعل، فأغنانا عن المعاطن بل كل يوم أو يومين نجد كثيرا من الماء..." (2) وقد يستطرد في وصف هذه الغدران كقوله: " وفي اليوم الرابع وجدنا ماء كثيرا، أعني ماء المطر إذ وجدنا بئر ماجل كبير عظيم، فاستقى منه جميع من كان في الركب، وسقوا منه جميع دوابهم، فلم يؤثروا فيه لكبره ووسعه... وبعد انصراف الركب تأخرنا في جماعة فرأينا كأنه لم يغرف دلو، ولم يستق منه بشر..." (3)

هذا الاندهاش من سعة الماجل وغزارة مائه، بحيث استقى منه هذا الركب الضخم، أثار السارد، فاستغرب ذلك، واعتمد على الوصف الاستقصائي نوعا ما لينقل المشهد للقارئ،

(1) - المصدر السابق، ص: 228.

(2) - نفسه، ص: 233.

(3) - نفسه، ص: 233.



وإن كنا لا نشعر بهذا الاندهاش الذي أحس به السارد، ذلك أننا لم نعاصر المخاطر التي تهدد حياة القوافل في الصحراء من جراء فقدان الماء، حتى أن الآلاف من الناس ودوابهم يموتون عطشا. وذلك هو سر الاهتمام البالغ بهذا المصدر الحيوي في الرحلة المغربية.

- السبخات: اهتم السارد بالسبخات التي تمر بها القوافل، يذكرها بالتفصيل أو يكتفي بالإشارة، ويرسم المنظر العام، وخصائصه المناخية والعمرانية، وقد يسمي هذه السبخات ويسترسل في خصائصها كقوله: "...مررنا على سبخة مقطع الكبرى، وفي أعلاه معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين، من هناك يحمل إلى طرابلس، وكذلك إلى مصر والإسكندرية، ويذهب منها مع الركب إلى مصر في كل سنة أحمال كثيرة..."(1) وهذه الإشارة تعين على تصور الجانب الصناعي والتجاري، وهو جانب غالبا ما تغفله الرحلة.

الآثار: كما يهتم السارد بالآثار أحيانا كقوله: "...وفي هذا المورد صنمان متقاربان مبنيان بطوب بناء يترك الناس فيها ما استثقلوه من الأزودة والأمتعة إلى الرجوع، وكثيرا ما تعطب المطي من الإبل في هاتين المرحلتين بجد السير وثقل الأحمال..."(2)

وقد لا يصف الآثار بنفسه وإنما ينقل ذلك عن غيره: " تاجوراء... وهي قرية عامرة وبها قصر متسع يجتمع على دور كثيرة، وفي وسط هذا القصر حصن أقدم منه بناء..."(3) أو كقوله: "... ومررنا على آثار ساقية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين هناك يقال لها عين كعام، وفيها صنعة عجيبة، وأبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة، تحار فيها العقول، منها أحجار من أربعة أذرع فأكثر منقورة في وسطها نقرا متقنا، والحجر في غاية الصلابة قريب من حجر الصوان. (4) ويمكن القول أن الورتيلاني يحسن تقديم الآثار، وقد ينقل الأوصاف عن غيره، ولكنه ليس من المغرمين بالآثار والتحقق منها، كما يفعل العبدري والعياشي.

---

(1) - المصدر السابق، ص: 218.

(2) – نفسه، ص: 318.

(3) - نفسه، ص: 173.

(4) – نفسه، ص: 184.

ولا ينسى السارد أن يخبرنا عن بعض الشعائر النصرانية: عن طريق وصف أديرتهم قـال: " ووادي الـرهبان واد كبير ذو رمل وفيه شجر النخل وماؤه كثير وبه من أنواع الـوحش والبقـر... وغير ذلك من أنواع الصيد وإنما أضيف هذا الوادي للرهبان لأن به النصارى ويتعبدون في ديار كل طائفة في دير لا يدخل إليهم أحد من غير جنسهم وليس لهـم زرع ولا ضرع وأهل الذمة من النصارى بمصر يعاملونهم ويبعثون إليهم بالنذور والصدقات من الطعام والكسوا..." [1]

إن المكـان الممـثل للرحلة في المدن والقرى بآفاقها وأسواقها والمساجد بعمارتها والمسالك العسيرة بمشاقها والأضرحة وما بني عليها تزار لبركاتها ومياه مالحة وأخرى عذبـة تقصـد لاستسـقاء مـنها وأماكن مقدسة تعمر القلوب بمن فيها فترف الأرواح لاتصـال العلـوي للمكاشـفة والـتلذذ بحقائقها كل ذلك يرسم لوحة للمكان في الرحلة الورتيلانية بمتغيراته وتناقضاته.

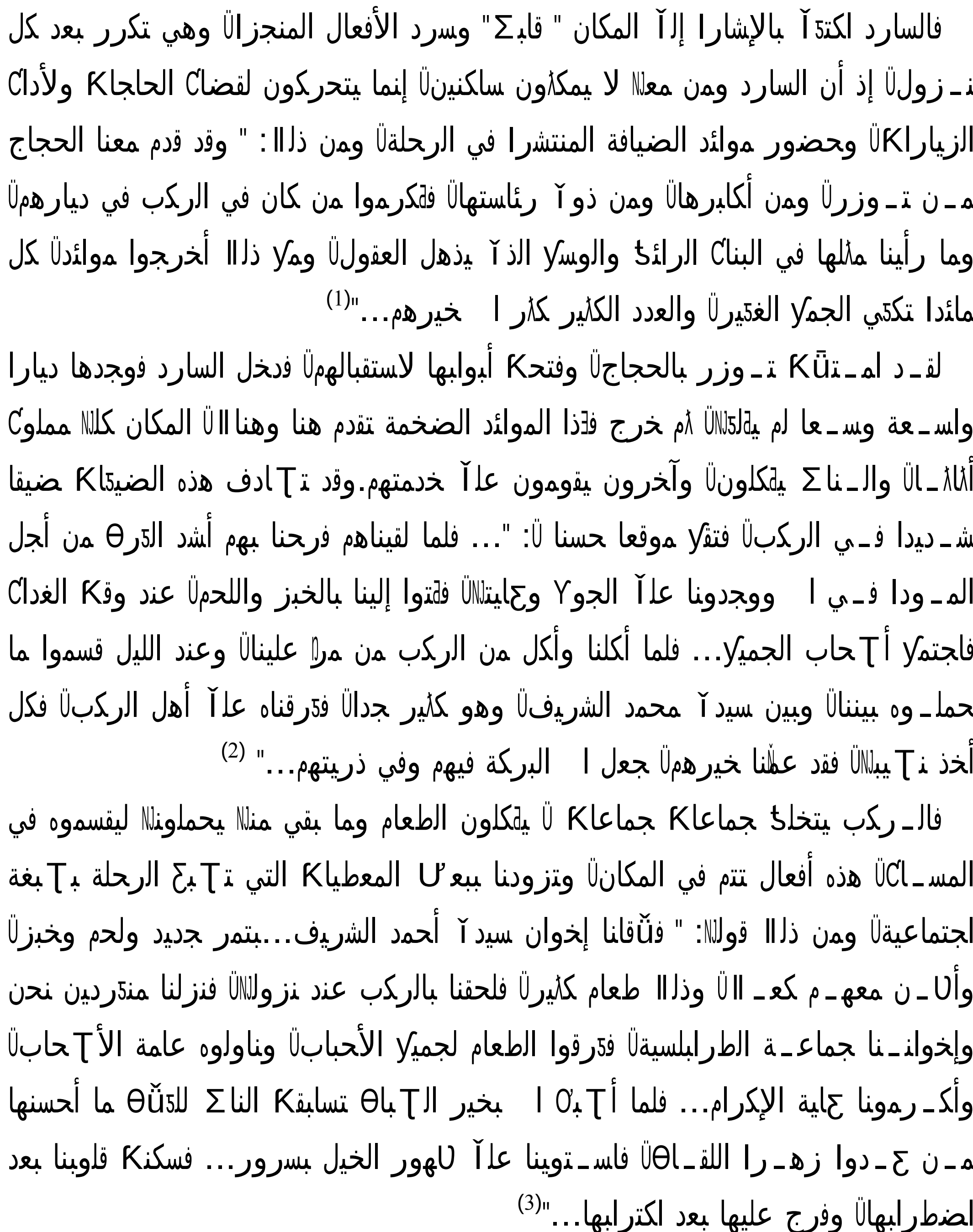
مفهوم الزمان: تسكت الرحلة عن كثير من الأفعال اليومية التي تنجز مما يجعلها تفـتقد إلى ما يميز مسيرتها باستثناء أفعال الارتحال والنزول وظروفهما وحينما نعثر على بعض هذه الأفعال نسر بها. ومن ذلك قوله: "... فلما وصلنا إليها قرية (سيدي عقبة) نـزلنا تحـتها وفرغنا من أشغالنا المتعلقة بالنزول من بناء الخيام وحط الرحال ورعي الإبـل والصلاة وشروطها إذ نزلنا فيها عند الظهر أوائل رجب 1179هـ... ذهبنا إلى زيـارة المشـار إليه..." [2] تجري هذه الأفعال على مساحة من الأرض تتكرر عند كل نزول غالبا ويسكت عنها السارد وبالتأكيد تساعد على التصور الواسع للفضاء الرحلي ولا يكـرر السـارد مـن هذه الأفعال إلا ما يتعلق بالنزول والارتحال والأوقات الزمنية كالصباح والمساء أو الظهر والعصر وما في دلالتها.كما يشير أحيانا إلى بعض الأفعال التي تنجز في المكان مع تحديد الزمان كقوله:...أقمنا يومين في قابس وزرنا أبا لبابة... وزرنا جميع من فيها ...واجتمعنا مع بعض فضلائها من طلبة العلم وصلحاء البلد.."[3]

---

[1] - المصدر السابق ص: 243- 244.

[2] - نفسه ص : 112.

[3] - نفسه ص: 129



فالسارد اكتفى بالإشارة إلى المكان " قابس" وسرد الأفعال المنجزة، وهي تتكرر بعد كل نزول، إذ أن السارد ومن معه لا يمكثون ساكنين، إنما يتحركون لقضاء الحاجات ولأداء الزيارات، وحضور موائد الضيافة المنتشرة في الرحلة، ومن ذلك: " وقد قدم معنا الحجاج من توزر، ومن أكابرها، ومن ذوي رئاستها، فأكرموا من كان في الركب في ديارهم، وما رأينا مثلها في البناء الرائق والوسع الذي يذهل العقول، ومع ذلك أخرجوا موائد، كل مائدة تكفي الجمع الغفير، والعدد الكثير كثر الله خيرهم..."[1]

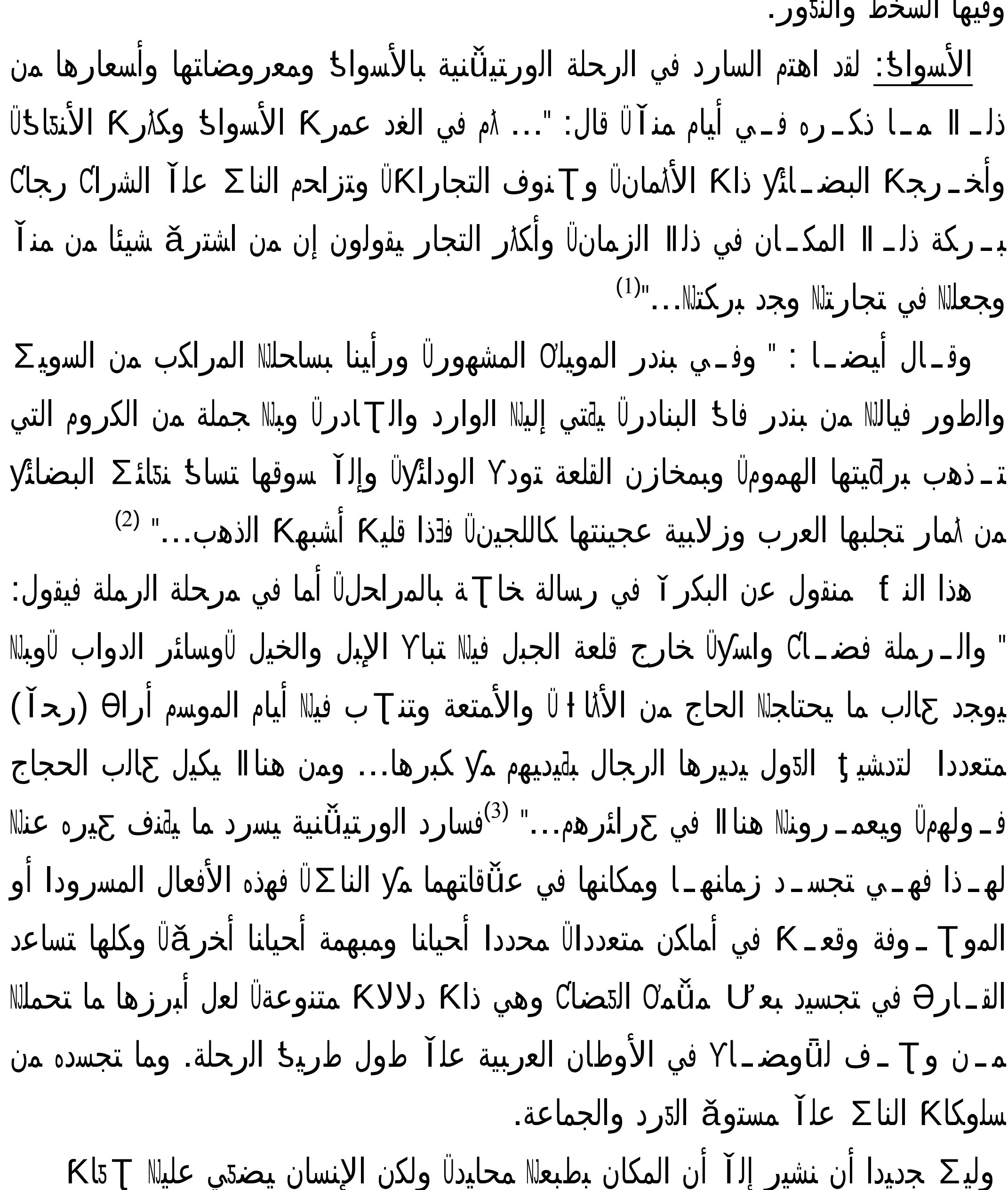
لقد احتفت توزر بالحجاج، وفتحت أبوابها لاستقبالهم، فدخل السارد فوجدها ديارا واسعة وسعا لم يعهده، ثم خرج فإذا الموائد الضخمة تقدم هنا وهناك، المكان كله مملوء أناسا، والناس يأكلون، وآخرون يقومون على خدمتهم. وقد تصادف هذه الضيافة ضيقا شديدا في الركب، فتقع موقعا حسنا، :"... فلما لقيناهم فرحنا بهم أشد الفرح من أجل المودة في الله ووجدونا على الجوع وغايته، فأتوا إلينا بالخبز واللحم، عند وقت الغداء فاجتمع أصحاب الجميع... فلما أكلنا وأكل من الركب من مر علينا، وعند الليل قسموا ما حملوه بيننا، وبين سيدي محمد الشريف، وهو كثير جدا، ففرقناه على أهل الركب، فكل أخذ نصيبه، فقد علمنا خيرهم، جعل الله البركة فيهم وفي ذريتهم..." [2]

فالركب يتخلله جماعات جماعات يأكلون الطعام وما بقي منه يحملونه ليقسموه في المساء، هذه أفعال تتم في المكان، وتزودنا ببعض المعطيات التي تصبغ الرحلة بصبغة اجتماعية، ومن ذلك قوله: " فلقانا إخوان سيدي أحمد الشريف...بتمر جديد ولحم وخبز، وأتى من معهم كعك، وذلك طعام كثير، فلحقنا بالركب عند نزوله، فنزلنا منفردين نحن وإخواننا جماعة الطرابلسية، ففرقوا الطعام لجميع الأحباب، وناولوه عامة الأصحاب، وأكرمونا غاية الإكرام... فلما أصبح الله بخير الصباح تسابقت الناس للخيل، ما أحسنها من غدوة زهرة اللقاء، فاستوينا على ظهور الخيل بسرور... فسكنت قلوبنا بعد اضطرابها، وفرج عليها بعد اكترابها..."[3]

[1] - المصدر السابق، ص: 123.

[2] – نفسه، ص: 618- 619.

[3] - نفسه، ص: 625.



فالسارد يحدثنا عن الأمور المألوفة اليومية ويجعلها رحلة إنسانية فيها الفرح والسرور وفيها السخط والنفور.

<u>الأسواق:</u> لقد اهتم السارد في الرحلة الورتيلانية بالأسواق ومعروضاتها وأسعارها من ذلك ما ذكره في أيام منى قال: "... ثم في الغد عمرت الأسواق وكثرت الأنفاق وأخرجت البضائع ذات الأثمان وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان في ذلك الزمان، وأكثر التجار يقولون إن من اشترى شيئا من منى وجعله في تجارته وجد بركته..."[1]

وقال أيضا: " وفي بندر المويلح المشهور، ورأينا بساحله المراكب من السويس والطور فيأتيه من بندر فاق البنادر، يأتي إليه الوارد والصادر، وبه جملة من الكروم التي تذهب ببرقيتها الهموم، وبمخازن القلعة تودع الودائع، وإلى سوقها تساق نفائس البضائع من ثمار تجلبها العرب وزلابية عجينتها كاللجين، فإذا قليت أشبهت الذهب..." [2]

هذا النص منقول عن البكري في رسالة خاصة بالمراحل، أما في مرحلة الرملة فيقول: " والرملة فضاء واسع، خارج قلعة الجبل فيه تباع الإبل والخيل وسائر الدواب، وبه يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة وتنصب فيه أيام الموسم أراح (رحى) متعددة لتدشيش الفول يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها... ومن هناك يكيل غالب الحجاج فولهم، ويعمرونه هناك في غرائرهم..." [3]فسارد الورتيلانية يسرد ما يغفل غيره عنه لهذا فهي تجسد زمانها ومكانها في علاقاتهما مع الناس، فهذه الأفعال المسرودة أو الموصوفة وقعت في أماكن متعددة، محددة أحيانا ومبهمة أحيانا أخرى، وكلها تساعد القارئ في تجسيد بعض ملامح التضاد وهي ذات دلالات متنوعة، لعل أبرزها ما تحمله من وصف للأوضاع في الأوطان العربية على طول طريق الرحلة. وما تجسده من سلوكات الناس على مستوى الفرد والجماعة.

وليس جديدا أن نشير إلى أن المكان بطبعه محايد، ولكن الإنسان يضفي عليه صفات

---

(1) – المصدر السابق، ص: 400.

(2) - نفسه، ص: 343.

(3) - نفسه، ص: 265.

الألفة أو النفور، مما يولد تعاطفا إيجابيا أو سلبيا نحوه مما يعكس البعد النفسي الذاتي.

وقد يضفي السارد على بعض الأماكن صفة قاسية نتيجة لقسوة الطبيعة، وقلة مواردها، أو بسبب صعوبة المسالك أو شراسة السكان، مما يولد النفور، وقد يضفي صفة الرضا والطمأنينة بناء على ما وجد من خصوبة أو وفرة ماء وطعام، أو حسن معاملة، وفي كل ذلك تحاول الرحلة تقريب الواقع كما كان السارد يراه في حين تجنح الأعمال المتخيلة إلى تكسير الواقع رغم استنادها إليه.

ويشير المؤلف إلى علاقته مع عامة الناس وخاصتهم، وإقبال الكثير عليه، وعلى أمثاله يلتمسون النصح والإرشاد والبركة، وقد يلقنون الأذكار وأصول الطريقة من ذلك إقبال "علي باشا نجل الوالي محمد باشا، نجل الوالي أحمد باشا، وفي الحجة الأولى أدركه جده، وفي الثانية أدركه أباه في الطلعة، وفي الرجعة أدركته هو، جعل الله عاقبته خيرا..."[1] ومن المؤكد أن عامة الناس حين يرون مسؤولا يقبل على شخص ما ويعظمه سيقبلون هم أيضا جماعة جماعة، وخاصة إن أتيحت لهم الفرصة.

وهذا ما حصل الورتيلاني في ليبيا وجنوب تونس، فالناس يكبرونه ويعظمونه في كل مكان يحل به. كما يحدثنا السارد عما يحمله الحجاج في أكثر من موضع قصد التزود أو التجارة إلى درجة يعسر معها نقل هذه الأحمال مما يدفع ببعضهم أن ينقلها عن طريق البحر إلى الإسكندرية أو غيرها من موانئ مصر، اتقاء لمصاعب الطريق في الذهاب فيما بين طرابلس وبلاد مصر ومن بينهم السارد نفسه قال: " ونحن قد تخلفنا عن بعض أفاضل أصحابنا إلى صبيحة يوم السبت مشتغلين بأمر الزاد المبعوث إلى السفينة، ومن يركب فيها من أصحابنا فلم ننفصل عنهم حتى خف الركب بوضعه في السفينة... إذ عادة السفن في تلك المدينة (طرابلس) تتأخر إلى آخر رمضان، فربما عاقهم ذلك عن الحج..."[2] وهنا يدخل السارد البحر في فضاء رحلته بسفنه ومحمولاتها، ومراسيها ومستقليها، وقد تولى السارد تحريض الوالي علي باشا إعطاء الأوامر للسفينة بالانطلاق و "...انفصالها من غير تراخ بعد ذهابنا وأخذنا العهد منه على ذلك، وقد أحسن إلينا هو وأصحابه بأن

---

(1) - المصدر السابق، ص: 144.

(2) - نفسه، ص: 169.

ركبوا فيها الفقراء والصعاليك بغير عوض وإنما ذلك لوجه الله ثم لوجهنا نحن الخمسين رجلاً... والحمد لله لم يمكثوا في البحر إلا اثني عشر يوما ونزلوا الإسكندرية عند الحاج أبي القاسم القراوي صاحب ولاية طرابلس، إذ زبر له الأمير كتابا على ذلك فأكرمهم وأحسن إليهم جزاه الله أحسن الجزاء..."[1]

ومما يعين على تصور فضاء الرحلة، ذكر كثير من عادات المدن والأقطار وأهمها ما سجله عن عادات الحجازيين، ويمكن الاكتفاء بعقد الزواج. قال: " ومن عاداتهم في الإملاك أن يكون عقد النكاح في المسجد الحرام، فيأتي أكابر المدينة من أرباب المراتب والمناصب والخطيب فيجلسون صفين من المنبر إلى الحجر الشريف فيشرع في الخطبة فيثني على الله بما هو أهله وعلى رسول الله *صلى الله عليه وسلم*، ثم يذكر المتعاقدين ويشير إليهما، ويرضيان بذلك، ثم يؤتى بأطباق الرياحين، وتوضع بين الصفين، وأطباق اللوز والسكر، ويفرق ذلك على الحاضرين، ويقوم المنشد ينشد قصيدا أو قصيدتين في مدح النبي *صلى الله عليه وسلم*، فيفترق المجلس ويقوم الحاضرون إلى المتعاقدين ويهنئونهما..."[2] وهذا مشهد رائع، فيه كثير من البهجة والسرور. وإلى هنا ليس في المشهد شيء مما يستغرب وبخاصة في زماننا. إلا أن الدخول بالمرأة يتم دخولا على المرأة في منزلها. "فإذا كان ليلة الدخول أتى بالرجل ومعه جماعة كبيرة من أصحابه وأقاربه ومعهم الشموع حتى يوقف به على باب المسجد بعد العشاء الأخيرة فيدخل ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، ويدعو، فيخرج ثم يذهب به كذلك يزفونه إلى بيت المرأة في دار أهلها عكس المعتاد في كثير من البلاد... فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تنتقل الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج، ولكل قطر عادات، ولكل قوم سادات وعادات السادات سادات العادات." [3] فالمشهد هنا هو هذه المواكب التي تحضر المسجد ثم تنصرف ثم تسير ليلا بالشموع إلى المسجد ثم إلى بيت الزوجة، وفي النهار تتم الوليمة في

---

[1] - المصدر السابق، ص: 169.

[2] - نفسه، ص: 509- 510.

[3] - نفسه، ص: 510.

دار الـزوج ثـم يسـير مـوكب آخر إلى بيت الزوج في الليلة الثانية فالحركة مستمرة، والبهجة شاملة والتهنئة لكل الأطراف عامة .

، ورحلـة الورتيلاني خالية مما يزين فضاءها خلوا تاما باستثناء مظاهر الاستقبال هنا وهـناك، فكـل مـا ذكـره يتعلق بالعناصر المعينة له من مطعوم ومشروب ومركوب وملبوس، وبعض ما يحدث للذات من الاعتداءات الخارجية كالبندقية والعصا.

وإذا كـان الفضـاء أرحب من المكان بل حتى من مجموع الأمكنة، فإن فضاء الرحلة يشير باستمرار إلى مرجعه، ويوحي بشيء آخر هو المتخيل الذي ينشأ عن التواصل بين الأحياء والأموات، وبين الخراب والعمران، وبين المقيمين والراحلين، وهدف الرحلة هو السعي لرسم الواقع كما هو وليس الإيهام به. إننا نقرأ الفضاء " بالحدس الكامن في أعماق النفس بالمخيلة المتجهة إلى حركة الأشياء والعلائق، والأفعال، والأصوات، والروائح، والوجوه، والألوان، هكذا يمكننا أن ننقذ القراءة من ثقل المعيش . هكذا تتشكل إرادة التقاط معنى العالم أم معنى التاريخ..."[1] فتاريخ الإنسان هو تفاعلاته المختلفة مع الفضاء للتأثير والتأثر في الأخذ والعطاء، والسلب والإيجاب، فالمعرفة الإنسانية هي " الفضاء الذي تتخذ فيه الذات وضعا لكي تتكلم عن الموضوعات التي لها صلة بها في خطابها..." [2] وهذا مـا يفعلـه الرحال وهو يقدم متنه، إذ أن دلالة الفضاء سياقية بقدر ما هي مرجعية وهو فضـاء منتظم حول شخصية مركزية، هي شخصية السارد/ المؤلف الذي يتفاعل ويحكي عن الموضوعات التي يهتم بها في خطاب ينسقه وفق رآه، ونعتقد أن الفضاء الورتيلاني ممتزج مع أحواله النفسية.

(1) - المرجع نفسه، ص: 41.

(2) - نفسه، ص : 33.

الفصل الرابع

[illegible]

مقدمة

يهـتم دارسـو العلوم الإنسانية بالزمن اهتماما بالغا، وكلٌّ ينظر إليه من الزاوية التي تسـاعده علـى أداء أهدافه، وهم على اختلاف رؤاهم يركزون على وعي الإنسان لهذا الكائن الموهوم. الظاهر/الخفي/ فيقف بعضهم عند التصورات الميتافيزيقية، ويقف آخرون عند تجلياته الطبيعية، بينما يهتم غيرهم بالمشاعر الإنسانية في تقاطعاتها مع الزمن. وفي الأدب تتخـذ الدراسـات الزمنية أشكالا متعددة، إذ يرى الدارسون أن الأدب فن زمني،

وبخاصة الرواية، فهو وسيط الرواية كما أنه وسيط الحياة [1]، ولاهتمام الدراسات بوعي الإنسان لهذا الكائن اللطيف جدا برزت اتجاهات عديدة، منها ما يسعى إلى ضبطه ضبطا عقليا موضوعيا، ومنها ما يركز على الوعي النفسي الذي يختلف من شخص لآخر، ووفق الحالات الشعورية التي لا تستقر بحال، ولكون الإحساس البشري بالزمن قائم، فإنه يتخذ "...صفة " السيلان " وهذه الصفة هي عنصر دائم، وسط لحظات الزمن المتتابعة في تغيرها المستمر..."[2]

وهذا الامتداد هو الذي يكون لدينا بعض المفاهيم عن "الماقبل" "المابعد" و"السابق" و"اللاحق" و "الماضي"و"الحاضر"و "الآن"، وهي تقسيمات أساسها الذاكرة والتوقع فالذات في الحاضر تبني تمييزها للزمن على أساس تذكر "الماضي" وتوقع "المستقبل"، إلا أنها تتعرض للخطأ والنسيان وغير هما من معيقات جودة التذكر الذي ينتج عنه عدم دقة الحكي أو الكتابة، لهذا تستعمل الصيغ اللغوية الدالة على الزمن، وهي المؤشر الفعلي الذي يعين الدارس على فك الزمن في سروده كما قدمت للقارئ مروية أو مكتوبة، إلا أن السارد حين يسرد حكايته لا يفعل ذلك بفضل ذاكرة جيدا " بل يرى الماضي كحاضر بفضل ملكة تفوق الملكة الإنسانية "[3] العادية، ويمكن القول أن أساس الحديث عن الماضي أو المستقبل أو الحاضر، ليس مرتبطا بالصيغ اللغوية فقط، وإنما هو مرتبط بالسياق الذي كتب فيه السرد من خلال الخطاب، وبخاصة في نقطة الانطلاق التي تشكلها الافتتاحية أو ما يسميه "جنيت G.Genette" الحكي الأول، وبهذه النقطة يتحدد ما هو قبل وما هو بعد، في علاقته بهذا الحكي الأول، وضمن ذلك يدرس ترتيب الأحداث أو المفارقات الإرجاعية/ والاستباقية التي تتم على مستوى الحكي،[1] ويمكن تحديد السياقات على المستوى الخارجي في نقطة البداية والنهاية فنتحدث عن الاستباق الداخلي أو

---

(1) – ينظر هانزميير هوف، الزمن في الأدب، تر: أسعد رزوق، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة/ نيويورك 1972 ص: 13.

(2) - نفسه ص: 22.

(3) – فولفغانغ كايزر، من يحكي الرواية، تر: محمد اسويرتي، طرائق تحليل السرد الأدبي، ص 114.

(1) – أنظر سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير) المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط3، سنة1997م، ص 91.

الخارجـي بالقـياس إلى النهاية، وعن الاسترجاع الداخلي أو الخارجي بالقياس إلى نقطة الانطلاق.

ورغـم الخصوصـيات السياقية للزمن، فإن النصوص لا تفقد دلالاتها، إذ أن القدرة على الترهين والتحيين الزمني الذي يقدمه السارد بناء على نقطة الانطلاق والقفزات إلى الأمام والاسـترجاعات إلى الوراء. تتعدد الزمن اللساني في حدوده اللغوية ولكن لا تلغيه، وهذا ما يدفعنا إلى أن نثير قضية الزمن السردي، والزمن الطبيعي، أي الزمن التاريخي، وزمن السرد أو الكتابة.

وتتصـل مقـولة الـزمن في السرد بالعلاقة بين خطين زمنيين خط الخطاب التخيلي (الـذي يصور لنا بواسطة التسلسل الخطي للحروف على الصفحة والصفحات في المجلد) وخـط العـالم التخيلـي وهو أشد تعقيدا " [2] أي خط الأحداث كما وقعت بالفعل أو كما نتصور وقوعها بالفعل في الواقع وخط تقديمها في الخطاب المكتوب أو المسموع.

ويـرى الدارسون أن الزمن السردي المتصور "كتتابع خطي للأحداث ليس إلا تشييدا اصـطلاحيا ملائمـا على نحو تداولي على حد سواء، فزمن النص إشكالي إنه بعد مكاني وليس بعدا زمانيا... فليس للنص القصصي سلطة زمنية سوى تلك التي يستقيها على نحو كنائـي من عملية القراءة في الواقع إذ أن ما تحيل عليه مناقشات زمن النص هو التنظيم المكاني الخطي للقطع اللسانية ضمن السلسلة المتصلة للنص ..." [3]

وفـي دراستنا لزمن الرحلات، نهدف أساسا إلى تفعيل الوسائل الإجرائية المعتمدة في تحليل السرد المتخيل، وتوظيفها في السرد القريب من الواقع، وهي نصوص نظرية متكاملة من التراث، كانت تؤدي دورها في التثـقيف والتوعية والتوثيق على مدى أزمان.

ولقـد درج الدارسون للتشكيل الزمني أن يتناولوه إما بنظرة كلية في الوحدات السردية الكبـرى للمـتن السردي كالفصول مثلا، أو بنظرة جزئية في الوحدات السردية للمتن مثل فصل من عدة فصول أو فقرة في فصل أو غير ذلك.

---

[2] – تزفيطان طودوروف، الشعرية، ص 45.

[3] – شلوميت ريمون كنعان، التخييل القصصي، ص 71.

وفي النصوص القديمة يفضل النوع الأول من التحليل[1]، على أن لا نغفل الاستفادة من الثاني كلما سنحت الفرصة. ولا تتناول الزمن بطريقة مختلفة إذ أن العمل المسرود يشتمل على عدة أزمنة منها الأزمنة الخارجية (خارج النص) كزمن الكتابة وزمن القراءة، ووضع الكاتب بالنسبة للفترة التي يكتب عنها، والقارئ بالنسبة للفترة التي يقرأ عنها[2]. والأزمنة الداخلية (داخل النص) وهي الفترة التاريخية التي يجري فيها النص من البداية إلى النهاية، من حيث ترتيب الأحداث ووضع الراوي بالنسبة لوقوع الأحداث، وتزامنها وتتابعها. والزمن الداخلي هو الذي شغل الدارسين أكثر من غيره.

ج- الزمن في الرحلة المغربية:

إن الزمن الطبيعي خاصية موضوعية ولها جانبان:

- الزمن التاريخي الذي يتم فيه إسقاط الخبرة البشرية على خط الزمن الطبيعي وهو يمثل ذاكرة البشرية.
- الزمن الكوني أو الفلكي وهو إيقاع الزمن في الطبيعة ويتميز بالتكرار واللانهائية...[3]

والرحلات المغربية تختلف من حيث إدراك الرحالين للزمن وكيفية التعامل معه.

1. فالرحلة العبدرية

تبتدئ في "الخامس والعشرين من ذي القعدة من عام ثمانية وثمانين وستمائة" [4]، وقد انطلق الرحال فيها من بلده حاحة بالمغرب الأقصى متجها إلى البقاع المقدسة، ووصل مكة المكرمة يوم الاثنين سابع ذي الحجة[1]، وابتدأ بأعمال الحج، ووصل إلى المدينة في الثامن والعشرين من الشهر نفسه، ثم خرج من المدينة في الثلاثين منه ليصل إلى رباط تازا بالمغرب الأقصى في آخر رمضان من السنة الموالية، ويدركه عيد الفطر

---

(1) – د.ناصر عبد الرزاق الموافي، السرد القصصي في نثر القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه، إشراف: أ.د.محمود علي مكي، وأ.د.طه وادي، جامعة القاهرة كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، 1415هـ/1994م. رقم:6659، ص 141.

(2) – سيزا قاسم، بناء الرواية، ص: 26.

(3) – المرجع السابق، ص: 46-48.

(4) - العبدري، الرحلة، ص: 7.

(1) – المصدر السابق، ص 100.

بفاس[2]، وتنتهي الرحلة في شوال من عام تسعة وثمانين وستمائة، وقد استغرقت ما يقارب العامين، وقد تخللتها أعمال المناسك وزيارة القدس، وبعض مدن فلسطين مع ذكر مراحل الطريق البري من تلمسان إلى عنابة فتونس، فطرابلس فالقاهرة ذهابا وإيابا. وهو في ذلك لا يهتم كثيرا بالمؤشرات الزمنية من صباح ومساء وليل ونهار، كما لا يهتم أيضا بالفترات التي يقضيها في الأماكن إلا قليلا.

2. *أما الرحلة التجانية*: فتبتدئ عند الخروج من تونس يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأولى عام ستة وسبعمائة(706هـ)، وتنتهي يوم دخول السارد تونس صباح يوم الجمعة السادس عشر من شهر عام تسعة وسبعمائة (709هـ) وقد استغرقت الرحلة "عامين اثنين وثمانية أشهر وأياما التي هي بحسب كمال الأشهر ونقصها تسعمائة يوم وخمسة وسبعون يوما "[3]

ويتحدد تسجيل السارد للزمن من يوم الخروج من تونس إلى يوم الدخول إليها. ولما شرعنا في الدراسة الزمنية لهذه الرحلة تساءلنا عن مدى اهتمام السارد بالزمن التاريخي، فلما استقصينا المسألة تبين لنا أنه يسجل تاريخ كل تنقل أو نزول مما جعل الرحلة أقرب إلى المذكرات اليومية، وقد يغفل تاريخ اليوم أو يتجاوز ذكر الشهر والسنة بناء على نباهة القارئ الذي يدرك ذلك بالقرائن. وأيام الحركة والسير مؤرخة بدقة، أما أيام الإقامة فلم تأخذ الاهتمام نفسه ولكنها محسوبة بدقة أيضا. إذ يجملها السارد إجمالا كأن يقول: " فأقمنا بطرابلس ساكنين في قصبتها ... عاما كاملا، ونصف عام وأياما..."[4] ورغم الحضور للزمن التاريخي في الرحلة التجانية بشكل تفصيلي فإننا لا نشعر بثقله. وقد أورده السارد لحرصه الشديد على " إمداد القارئ بوقائع حقيقية ذات مرجعيات مضبوطة لا متخيلة."[1]

3. الرحلة العياشية:

(2) – نفسه، ص: 279.

(3) - التجاني، الرحلة، ص 393.

(4) – نفسه، ص: 280.

(1) – شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص : 227.

انطلقت الرحلة العياشية من منزل الرحالة الكائن بمراكش، وذلك يوم الخميس أول ربيع الأول من عام1072هـ وسلك الطريق الجنوبية مارا بسجلماسة فور قلة فطرابلس، فالقاهرة إلى البقاع المقدسة، ووصل إلى مكة يوم السبت خامس ذي الحجة[2] من عام 1072هـ ـ وبعد أداء مناسك الحج قام بزيارة الروضة الشريفة فدخل المدينة ليلة الخميس الثاني من محرم عام 1073هـ بنية المجاورة وبعد التردد بين مكة والمدينة خرج عائدا في الثاني من محرم عام 1074هـ مارا بالقدس، ثم القاهرة فالطريق الأولى، ووصل إلى بلده ظهر يوم الأربعاء السابع عشر من شوال سنة 1074[3].

وقد استغرقت الرحلة عامين وسبعة أشهر ونصف الشهر، و العياشي واع للزمن الطبيعي وعيا جيدا، ويهتم به كثيرا، فهو من جانب يرصد التواريخ الطبيعية ويهتم بها، ولكن ليس بالدرجة التي تدخل رحلته في المذكرات، فقد أحصيت له ما يقارب خمسين موضعا يمكن اعتبارها معالم زمنية. ومن جهة أخرى نجده يستعمل مؤشرات زمنية أخرى كالصباح، والضحى، والمساء، والمبيت، والعصر، مما يساعد على تصور واقع الأحداث تصورا حسنا، فكأنه حين يستعمل التاريخ المحدد يشير إلى معالم كبرى وما بين كل معلمين يوظف مؤشرات زمنية مكانية حدثية تصور الواقع وتربطنا به، كما يعتمد على التاريخ الطبيعي وظواهره كحلول الشتاء والصيف، وأنواع الرياح ونضج الثمار...

وهذه الظاهرة وإن كانت متوفرة، فليست واسعة الانتشار ولا ترصد كل التغيرات.

4. *الرحلة الغزالية:* هي رحلة قام بها أحمد بن المهدي الغزال بصفته سفيرا للسلطان المغربي محمد بن عبد الله (بويع سنة:1171هـ-1757م) بين مراكش وأسبانيا وكان ملكها هو كارلوس الثالث وتمخض عن هذه السفارة معاهدة عقدت بين الجانبين سنة: (1181هـ / 26مايو 1767م) وحرر نصوصها أحمد بن المهدي الغزال.[1]

لقد انطلق الوفد من مراكش العاصمة ولكننا لا نعرف يوم الانطلاق وشهره وسنته وندركه من خلال دخول السفير مدينة سبتة- التي كانت في يد الأسبان- في الخامس

---

[2]- أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص :190.

[3]– نفسه، ج1، ص : 422.

[1] – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص : 11 (مقدمة المحقق).

عشر من ذي الحجة عام 1179هـ/مايو 1766م، ولعل ذلك أن يكون في أوائل ذي الحجة أو بعد عيد الأضحى مباشرة، وانتقل من سبتة إلى مدن أسبانيا أولا بأول وفق خطة مرسومة يصحبهم فيها وفد خاص مكلف من ملك أسبانيا، فلما وصلوا إلى مدريد قابل الوفد الملك، ثم واصل الرحلة إلى مدينة شغوبية وهي أبعد نقطة وصلها السفير، ثم عاد إلى المغرب تاركا مدريد في الثامن والعشرين من جمادى الأولى من عام 1179هـ ووصل الوفد إلى مراكش في الثالث من عيد الأضحى من عام 1180هـ. وبذلك تكون الرحلة قد استغرقت عاما إلا اثنين وعشرين يوما وهذا التقدير مستفاد من تتبع الملاحظات المتفرقة، إذ يلاحظ عدم الاهتمام بالتاريخ الواضح حتى أنه ذكر يوم الوصول بالعبارة التالية: " وفي اليوم التالي استكملنا السير بصحبتهم لحضرة مراكش، وكان رواحنا إليها ثالث عيد الأضحى من عامنا ".[2]

فالمعلومات التاريخية نادرا في رحلة " نتيجة الاجتهاد..." . واستغنى عن ذلك بذكر الأيام والليالي التي يقضيها في الإقامة والسفر بين مرحلة وأخرى، مما يزيل الالتباس إلى جانب ذكر المسافات بين المدن بالأميال، وقد استغرقت الرحلة عاما كاملا[3]، إذ انطلقت الرحلة في ذي الحجة ووصل إلى سبتة في الخامس عشر منه عام 1179هـ، وكان الوصول إلى مراكش في الثاني عشر من ذي الحجة عام 1180هـ.

<u>*5. الرحلة الورتيلانية:*</u> الرحلة الورتيلانية تحمل عنوان " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" وبخلاف ما يشير إليه العنوان فإنها لا تهتم بالتاريخ للأحداث، وإنما يفضل ساردها ذكر الأحداث مجردة، مما يرفع عنها الصبغة التاريخية المذكراتية...

فهو يذكر الخروج من بلده يوم الخميس، ويهمل الشهر إهمالا... ويحدد الخروج من بسكرا بيوم الثلاثاء الخامس والعشرين من رجب الموافق للعشرين من شتنبر[1]، ومن هنا يمكن التوقع بأن بدأ الرحلة كان أوائل رجب وسبتمبر عام 1179هـ. بناء على ما ذكره من معطيات في مواضع متفرقة. وبالتخمين يكون الخروج يوم الخميس الثامن من

---

(2) – نفسه، ص: 228.

(3) – الانطلاق كان من مكناسة إلى طنجة مع الرفق في السير بالقوم، الرحلة، ص: 45.

(1) – الورتيلاني، الرحلة، ص: 94.

سبتمبر الموافق لـ الثالث عشر من رجب، أو يوم الخميس الأول من سبتمبر الموافق للخامس من رجب، والأول أقرب، وكان وصوله إلى داره بعد أداء المناسك والعودة يوم الخميس التاسع من ذي الحجة عام 1181هـ[2]. واستغرقت الرحلة عامين وأربعة أشهر.

وذكر المعالم الزمنية الواضحة لا يتجاوز سبعة عشر موضعا، مما أوجد صعوبة بالغة في تحديد السير التتابعي للزمن الطبيعي. فهو لم يشر إلى سنة 1180هـ تماما مما سبب الخلط، بل لم يذكر أي تاريخ واضح وصريح بعد الرابع عشر من ذي الحجة الموافق للثالث فبراير/ ولم يشر إلى العام/ باستثناء تاريخ الوصول إلى منزله.

و نستطيع القول أن هذه الرحلة تنزع نحو التحرر من قيود الزمن الطبيعي حتى أن السارد فيها يؤرخ بجذاذ التمر[3]، وبالسوق الأسبوعية كما يفعل عامة الناس.

ويستعمل الرحالون العلامات الزمنية للدلالة على وقت معين مثل الظهر، العصر، العشاء، مما يتعلق بالصلوات ومن العلامات أيضا الأزمان العامة الليل، النهار، المساء، الصباح، الفجر، الأصيل، الضحى، الظهر... وتستعمل معرفة أو نكرا وقد تسبق بظرف مثل: قرب، قبل، بعد، أوان، أول، آخر، أو تستعمل الأفعال المشتقة من الزمان مثل: بتنا، أمسينا، أصبحنا. أو تستعمل أسماء: مدة، شهر، سنة، وقد تسبق بالعدد فتحدد...وهذه الصيغ تساعد على إدماج زمن القراءة في زمن الخطاب. و بالإمكان قياس هذا الزمن، ولكنه لا يحمل دلالات جمالية إلا إذا كان مصحوبا بشيء من التوتر كالإحساس بالخطر أو طول الانتظار أو الإقدام على شيء أو صعوبة المسالك أو شدة العطش أو الانقطاع عن الركب، فحينئذ تؤدي العلامات الزمنية دورا في حبك السرد، وربط القارئ بالمقروء.

ب - زمن الكتابة:

نتحدث فيه عن مولد السرد وإعلانه عن ذاته، ذلك أن زمن التلفظ "زمن الكتابة" يصبح أدبيا منذ اللحظة التي يتم فيها إدخاله في القصة، أي في الحالة التي يحدثنا فيها السارد عن سرده الخاص عن الزمن الذي يتوفر لديه لكتابة هذا السرد وحكايته لنا.[1]

---

(2) – نفسه: ص 702.

(3) – نفسه: ص 628- 636.

1)- الرحلة التلمسانية:

يقول العبدري: "هذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان ولم يمكنني إظهارها هنا، وأظهرتها بعد خروجنا منها، ووقف عليها شيوخنا بمصر وغيرها." [2]

ولما التقى في القاهرة بابن دقيق العيد قال: "ووقف على ما تقيّد من هذه الرحلة، واستحسنه، وأفادني فيها أشياء..." [3]

من خلال هذين النصين وغيرهما ندرك أن العبدري كان يكتب رحلته أثناء الإنجاز مباشرة، ورغم هذه التصريحات فإن العبدري يقول أيضا: " وقد أكملتها والحمد لله منظمة على نسقها مستنة في سننها جاريا معها حسب ما جرى مستمليا لها فيما قدمت وأخرت حتى استوفى الغرض المطلوب وحصل المراد منه والمرغوب...". [4]

وهذا يعني أن الرحال كان يكتب رحلته ويسجل ما استقام تسجيله منه، وكان ينسق بين أجزائها بالتقديم والتأخير والحذف والإضافة على ما تقتضيه قوانين التأليف (سننها) حتى إذا بلغت حدا من الكمال يرتضيه نشرها وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن زمن الكتابة الأولية فيه شيء من التعاصر مع زمن الفعل، أما زمن نشر الخطاب فيكون بعد الإنجاز.

2)- الرحلة التجانية:

والرحلة التجانية هي الأخرى استرجاعية، في معظم أجزائها، ولكنها لا تخلو من مشاهد تزامنية، كان التجاني ينجز رحلته، و أثناءها ترد عليه مراسلات شعرية ونثرية، ويرد عليها، قال: "...مما ورد في هذه السفرة إليّ أو صدر عني استدعاء خطاب، أو رد جواب، ما تحسن المحاضرة به، وتحصل الإفادة إن شاء الله تعالى بسببه." [1]، وفي آخر الرحلة قال: " وهنا انتهى الغرض المقصود من هذا التقييد والحمد لله ... ورأيت أن أختمه بقصيدة كنت نظمتها بطرابلس لما طال بي هنا أمد المقام" [2] وهذا ما يعني أن زمن

---

[1] – تزفيتان تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ص: 57

[2] - العبدري، الرحلة، ص: 6.

[3] - نفسه، ص: 139.

[4] – نفسه، ص: 6.

[1] – التجاني، الرحلة، ص 3.

[2] – نفسه، ص: 393.

سـردها لـيس خالصـا لـه أي أنه مختلط فيه البعدي والقبلي والتزامني حسب ما يقتضيه السـياق ويمكـن أن نقرر أن الرحلة المكتوبة أنجزت معظم أجزائها في التاريخ المحدد للـرحلة ولم يضف إليها بعد انتهائها زمنها إلا لمسات خفيفة لتطاول زمن الرحلة والقصر النسبي للمسافة ووجود فراغ للأديب أبي محمد التجاني للمراجعة والتنسيق.

3)- الرحلة الثالثة:

قـام العياشي بثلاث رحلات إلى الحجاز الأول عام 1054هـ والثاني عام 1064 هـ والثالث 1072هـ وهـو ما شكل هيكل الخطاب السردي وإن كان للرحلتين الأوليـين حضـور استرجاعي في أكثر من موضع. عن طريق الموازنة أو التوضيح أو التداعي أو غير ذلك. وأما الهيكل فيشمله الحكم العام في أن لسارد الرحلة سرودا متزامنية وأخـرى بعديـة ولكن الرحلة في مجملها لم تتزاوج بين القراءتين إلا بعد التنسيق والإضافة والحذف على ما تقتضيه صنعة التأليف.

4)- الرحلة الرابعة:

الغزال كان يجمع مادته وهو يمارس فعل السفر فيقيد المشاهد ويسجل المناظر ذات الخصوصـية ثم قام بفعل التنسيق بين المراحل وما تقتضيه كل مرحلة وهو مدرك لما يقـدم ويؤخـر إذ يسـتعمل مؤشرات دالة على ذلك كقوله: " وقد مر معنا هذا الأمر" أو كقوله: "كما سيأتي".

و لم يتمكن الدارس من تحديد الزمن الفاصل بين فعل السفر وفعل التنسيق رغم التأكد علـى أنـه لـيس متـراخيا لكون السلطان كلف الرحال بإنجاز خطاب مكتوب يقيد فيه مشاهداته ويعرضه على السلطان بعد عودته وقد يأخذ ذلك وقتا للمراجعة والتنسيق.

5)- الرحلة الخامسة: جمعت مادة الرحلة الورتيلانية من أزمان متباعدة ثم رتبت على ما تبدو عليه في خطابها المقروء الآن فزمن ميلاد السرد بعدي في معظمه. ولكن الأحداث مـنها ما هو غير واضح الأزمان كما في التمهيد أما الرحلة إلى البقاع المقدسة فينتظمها زمـنان متـباعدان أحدهما سنة 1153هـ وثانيهما سنة 1179هـ والأخير هو المدون والمشكل لهيكل الرحلة أما الأول فيدمج بين الحين والآخر عن طريق التذكر أو غيره من مثيـرات موضـوعية أو ذاتية أو مكانية. هذه الأزمان الخارجية تحولت إلى زمن داخلي

جـاءت استرجاعيا في معظم أجزاء الرحلة، وإن كانت لا تخلو من مشاهد تزامنية أو قبلية، كما سيتضح ذلك أثناء التحليل.

لهذا يمكن القول أن الأزمان في الرحلات واضحة البداية والنهاية، والرحالون ينجزون أفعالهم داخلها وهم على دراية بمشروعهم مما يفرض عليهم أن يهيئوا المادة التي تستحق أن تسـرد أو تكـتب، ويقومون بما يقتضيه ذلك. من وصف الأماكن، وتسجيل الأحداث، وقـد يكتـبون بعـض الأجزاء من الرحلة فيعرضونها على غيرهم ملتمسين من القراء التشجيع أو التوجيه، حتى إذ انتهى فعل الرحلة تولى الرحال عمله بالتنسيق والمراجعة.

ثـم ينشر العمل المسرود بين القراء، وبعدها قد يحظى العمل بالتوجيه أو التقريظ، كما حصل للرحلة العياشية التي نالت بكثير من آراء القراء. [1]

2- الشكل الزمني:

فـي دراسة التشكيل الزمني يشدد الدارسون على نقطتين أساسيتين هما زمن الأحداث كما جـرت بالفعل وزمن حكايتها أو روايتها، وهل الزمنان متزامنان أم منفصلان، ففي حالة الانفصال يتأخر زمن الحكي عن زمن وقوع الأحداث في السرد البعدي، ويتقدم في السرد القبلـي، إلا أن الفصل النوعي لا ينسحب على جميع العمل السردي، و قد يقع الخلط بين الأنواع الثلاثة ويسمى السرد المدرج[2] أو المختلط .

إن زمن الخطاب طولي، في حين يكون زمن القصة متعدد الأبعاد ويمكن فيه لأحداث متعددة أن تجـرى فـي وقـت واحد، أما في الخطاب فلابد من التعاقب أو التناوب، أو التعاصر.

والرحلة قريبة في بعض مكوناتها من الكتابة الوثائقية. والعلاقة بين العناصر المقدمة فـيها قائمة على التتابع المكاني، وهذا ما يميز هوية السرد في الرحلة عموما لكون علاقة السـرد بمرجعه علاقة حميمة جدا، ويجتهد السارد/ المؤلف في أن يجعلها كذلك، بخلاف المسـرودات المتخـيلة التي تركز أساسا على إعادة إنتاج خصائص المرجع في علاقة

---

(1) – أبو سالم العياشي، الرحلة، ج2، تعليقات في آخر الرحلة في صفحات.

(2) – أنظر سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا، الدار التونسية للنشر، ديوان المطبوعات الجزائرية، ط، د ت، ص 103.

جديدا من خلال اللغة[1]. وإن كان المتخيل غير غائب في الرحلة إذ كثيرا ما يعيد الرحال إنتاج النص إنتاجا إبداعيا وبخاصة في الوقفات التأملية والوصفية وفيما له علاقة بالذاتية المبثوثة في حنايا الرحلة وفي المقاطع الشعرية والرسائل النثرية بالخصوص.

ويدرس التشكيل الزمني من خلال مقولات ثلاث كما يرى جيرار جنيت وهي: النظام أو الترتيب، والمدة أو الديمومة أو الاستغراق، والتواتر أو التكرار.

1 – الترتيب: (Lordre temporel)

هذه المقولة متعلقة بنظام الأحداث في العمل المسرود وفق ما يراه السارد الذي أعاد ترتيبها في الخطاب كما يتصورها، وليس كما وقعت بالضرورة.

إن هذا التذبذب في السرد بالقفز إلى الأمام وبالعودة إلى الوراء ليس من إبداعات السرد المعاصر، وإنما كان معروفا في السرود القديمة، ولدراسته يجب معرفة نقطة الانطلاق أو نقطة الصفر التي يتطابق فيها زمن الأحداث مع زمن الخطاب، وهذا أمر افتراضي ليس غير، قلما يوجد في الواقع[2].

ورغم ذلك فإن الدارسين يعتمدون نقطة البدء في السرد هي المعلم الذي يتحدد به الزمن الخارجي والداخلي والتزامني يقول جنيت (G.Genette):"... ندل بمصطلح استرجاع على كل ذكر لاحق لحدث سابق للنقطة التي نحن فيها من القصة، ونحتفظ بمصطلح المفارقة الزمنية، الذي هو مصطلح عام للدلالة على كل أشكال التنافر بين الترتيبين الزمنيين." [1]. فنقطة بدء السرد، هي المقياس الذي يبنى عليه ما يقع من الأحداث في الحال، وما يقع قبل أو بعد، ومقولة الترتيب هي الأكثر وضوحا لدارس الزمن السردي،

وتدرس من خلال العناصر المذكورة آنفا وهي:

أ- التزامن: إن التزامن في الأحداث كما يقع في الزمن الطبيعي، تترجم في العمل السردي إلى تتابع؛ إذا لا وجود لتزامن حقيقي في السرد. لكون السارد لا يستطيع أن يسرد حادثين في اللحظة نفسها، فيلجأ إلى تقنيات التعاقب والتناوب، ولكننا سنقف عند نقطة الانطلاق "نقطة الصفر" باعتبارها تشكل معلما أساسيا في قياس ما بعد، وما قبل،

---

(1)– حسن نجمي، شعرية الفضاء، ص: 155-156.

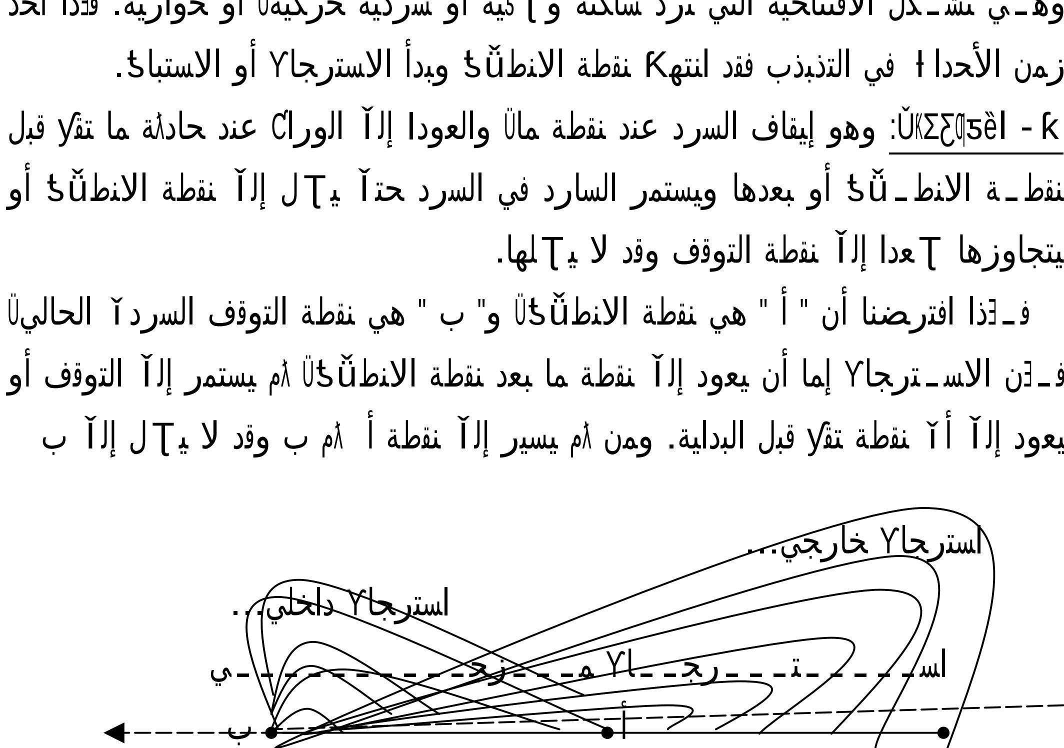
(2)- نفسه، ص: 47.

(1)– خطاب الحكاية، تر: محمد معتصم و...، ص: 51

وهي تشكل الافتتاحية التي ترد ساكنة وصفية أو سردية حركية، أو حوارية. فإذا أخذ زمن الأحداث في التذبذب فقد انتهت نقطة الانطلاق وبدأ الاسترجاع أو الاستباق.

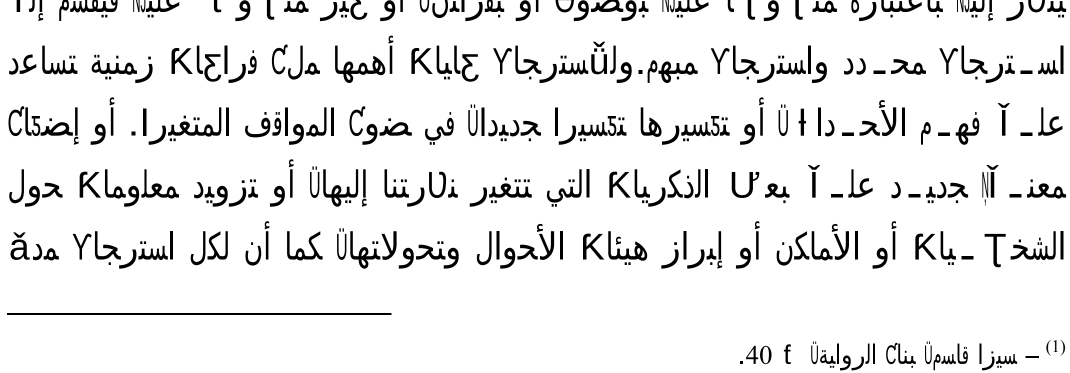
ب - الاسترجاع: وهو إيقاف السرد عند نقطة ما، والعودة إلى الوراء عند حادثة ما تقع قبل نقطة الانطلاق أو بعدها ويستمر السارد في السرد حتى يصل إلى نقطة الانطلاق أو يتجاوزها صاعدا إلى نقطة التوقف وقد لا يصلها.

فإذا افترضنا أن " أ " هي نقطة الانطلاق، و" ب " هي نقطة التوقف السردي الحالي، فإن الاسترجاع إما أن يعود إلى نقطة ما بعد نقطة الانطلاق، ثم يستمر إلى التوقف أو يعود إلى أي نقطة تقع قبل البداية. ومن ثم يسير إلى نقطة أ ثم ب وقد لا يصل إلى ب



(شكل يمثل الاسترجاع)

يحدد الاسترجاع بنقطة التوقف ونقطة الانطلاق فإن كان الاسترجاع عائدا إلى أي نقطة بعد الانطلاق سمي داخليا، وإن كان إلى ما قبل الانطلاق سمي خارجيا وإن شمل الخارج والداخل معا سمي استرجاعا مزجيا.[1]

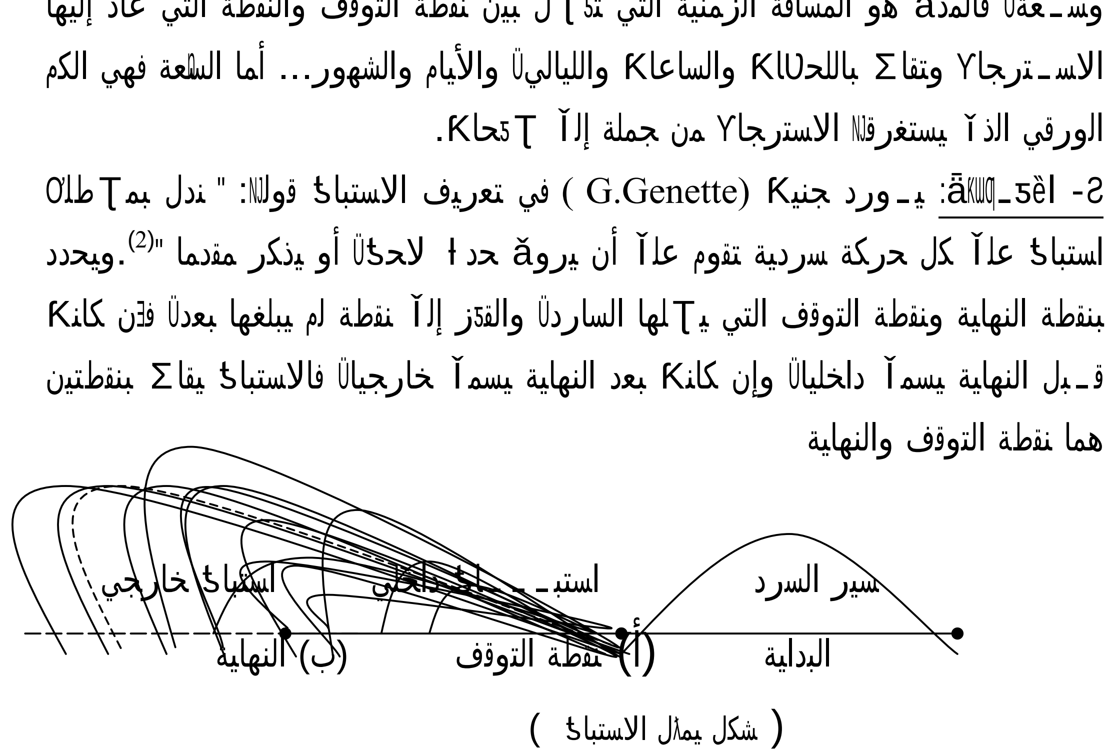


والاسترجاع قد يتعلق بالموضوع فيسمى موضوعيا أو يتعلق بالشخصية فيسمى ذاتيا ينظر إليه باعتباره منصوصا عليه بوضوح أو بقرائن، أو غير منصوص عليه فيقسم إلى استرجاع محدد واسترجاع مبهم. وللاسترجاع غايات أهمها ملء فراغات زمنية تساعد على فهم الأحداث، أو تفسيرها تفسيرا جديدا، في ضوء المواقف المتغيرا. أو إضفاء معنى جديد على بعض الذكريات التي تتغير نظرتنا إليها، أو تزويد معلومات حول الشخصيات أو الأماكن أو إبراز هيئات الأحوال وتحولاتها، كما أن لكل استرجاع مدى

(1) – سيزا قاسم، بناء الرواية، ص 40.

وسعته فالمدى هو المسافة الزمنية التي تفصل بين نقطة التوقف والنقطة التي عاد إليها الاسترجاع وتقاس بالثواني والساعات والليالي والأيام والشهور... أما السعة فهي الكم الورقي الذي يستغرقه الاسترجاع من جملة إلى صفحات.

2- الاستباق: يورد جنيت (G.Genette) في تعريف الاستباق قوله: " نطلق تسمية استباق على كل حركة سردية تقوم على أن يروى حدث لاحق أو يذكر مقدما "[2]. ويحدد بنقطة النهاية ونقطة التوقف التي يصلها السارد والقفز إلى نقطة لم يبلغها بعد، فإن كانت قبل النهاية يسمى داخليا، وإن كانت بعد النهاية يسمى خارجيا، فالاستباق يقاس بنقطتين هما نقطة التوقف والنهاية



(شكل يمثل الاستباق)

ويقسم إلى كونه استباقا مؤكدا أو مزيفا، فالمؤكد هو الذي يجده القارئ في المكان الموعود، أما المزيف فهو الذي لا يتحقق في مكانه. والاستباق يقوم " بوظيفة الإعلان عندما يخبر صراحة عن سلسلة الأحداث التي سيشهدها السرد في وقت لاحق " [1] ودور الإعلان في تنظيم السرد هو خلق حالة انتظار في ذهن القارئ، هذا الانتظار الذي قد يحسم فيه بسرعة في حالة الإعلانات ذات المدى القصير مثل تلك التي توجد في نهاية الفصول، وتشير إلى ما سيحدث من أحداث في الفصول الموالية، كما أن فترات الانتظار تلك قد تطول في حالة الإعلانات ذات المدى البعيد لتستغرق مئات الصفحات... ومن شأن هذا الصنف الأخير أن يخلق نوعا من سوء التفاهم لدى القارئ بسبب طول المسافة التي تفصل بين الإعلانات عن حدث ما ومكان تحققه فعليا في السرد.

---

[2] – خطاب الحكاية ص: 51.

[1] – حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص: 137.



إن الدور الأساسي الذي يلعبه الاسترجاع والاستباق هو خلخلة ترتيب الأحداث وربط العناصر ببعضها، إلا أن الاستباق لا يعتمد على التفصيل وإنما غالبا ما يأتي كإشارات سريعة، في حين يشغل الاسترجاع حيزا غير منضبط في الطول والقصر والغايات.

إن الاسترجاع والاستباق مظهران للحركة الزمنية المتصلة بالأحداث، وهما يحيلان على الشخصية والأحداث في سياق النص أو شخصيات وأحداث مماثلة أو مباينة، وقد تكون خارجية عن البداية والنهاية أو داخلية، وقد تكون في الخط نفسه وقد تشير إلى ما استبعد قبل. وسندرس مقولة الترتيب أو النظام كما تتجلى في الرحلات المختارة

1- الرحلة العبدرية: إن نظام الأحداث في الرحلة العبدرية يخضع في شكله العام للترتيب الذي يقدمه لنا الخطاب السردي، أي أنه نظام أفقي كما أنجز بالفعل من قبل الرحالة انطلاقا من البداية (نقطة الانطلاق) ووصولا إلى البقاع المقدسة، ثم العودة إلى نقطة الانطلاق، وهكذا يمكن القول أن القصة والخطاب متوازيان كالتالي:

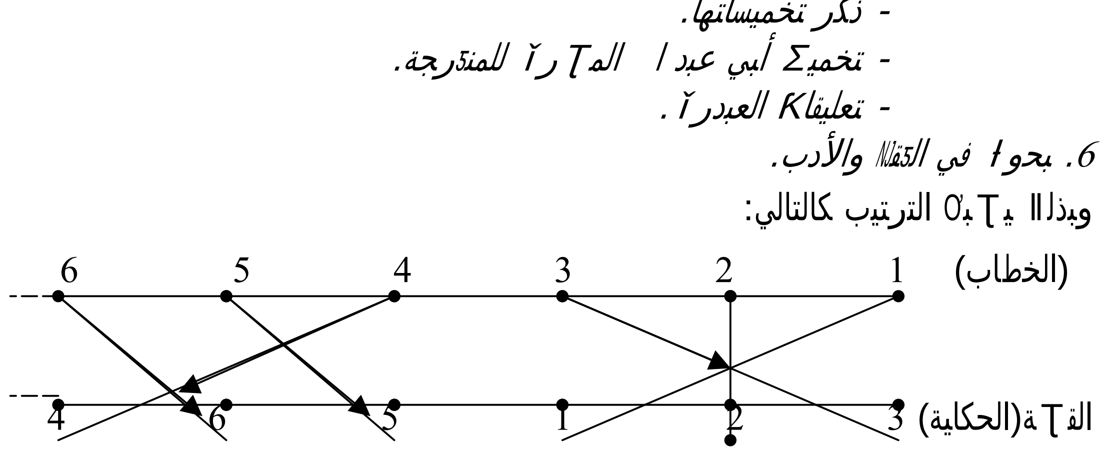
ولكون الرحلة ينتظمها نوعان من الوحدات أو أكثر، فإن الوحدات الكبرى: (الذهاب، الوصول، العودة) خاضعة للتتابع الأفقي، أما الوحدات المتفرعة فلها ترتيب آخر، ولنأخذ مثالا على ذلك الوحدة الثامنة "الوصول إلى تونس" فقد رتب خطابها كالتالي:

ترتيب الخطاب	*ترتيب الوحدات زمنيا (قصة)*
1. جمال تونس.	*1. آثار تونس.*
2. جامع الزيتونة.	*2. جامع الزيتونة.*
3. آثارها.	*3. جمال تونس.*
4. أهل تونس وطيبتهم.	*4. أهل تونس وطيبتهم.*
5. لقاء علمائها:	*5. لقاء علمائها.*
أ- أبو محمد القرطبي الطائي.	*6. بحوث في الفقه والأدب.*
ب- أحمد بن يوسف الفهري اللبلي.	
ج- الفقيه أبو عبد الله محمد التوزري ابن هريرا.	
- قاضيها الشقراطسي.	

- *ذكر تخميساتها.*
- *تخميس أبي عبد الله المقري للمنفرجة.*
- *تعليقات العبدري.*

6. بحوث في الفقه والأدب.

وبذلك يتضح الترتيب كالتالي:



ويتبـين لـنا مـدى التداخل السردي رغم حذفنا لترتيب العلماء وما رووه من أشعار وأقـوال وأخـبار فلو أضفنا ذلك لكان الأمر أشد تداخلا وتشابكا، ومن هنا نستخلص أن التـرتيب فـي الرحلة عموما يخضع لنظامين: الترتيب التتابعي والخاضع للزمن الطبيعي والمكـان الجغرافـي وهـو خـاص بالوحدات الكبرى. والترتيب الذي ينشئه السارد في الـوحدات الصغرى والذي لا يخضع إلا لما يراه السارد من ترتيب جديد وفق اهتماماته وما يتوفر لديه من معطيات. وهذا هو المستوى التقني الذي يجعلنا ندرس الرحلة في العلاقة الزمانية بين الخطاب والقصة (أحداث) ولنبدأ أولا بـ :

أ- <u>الاسترجاع</u>: حينما رحل العبدري من تلمسان، مر بمليانة فلم يجد بها ما يمكن تقييده، فـأورد حكاية كانت قد جرت في زمن خارج زمن الرحلة، فلما شعر الرحال بعجزه أراد أن يملأها فقال:

" قـد استفدنا بها حكاية، وهي أن بعض الكتاب كان يكتب كتابا عن أميره، فلما قرأه عليه لم يرضه فمزقه، فكتبه ثانية فمزقه، فلما رأى تعسفه أخذ قرطاسا وقام فيه ارتجالا:

رأيتك [illegible] ويلقي بـ[illegible] ... كذلك أنت اليوم علة تكويني

وتلقي الحظ الذي أنا أهله ... وتمطلني فيه بعلل وتلويني

فاقصر عني العتاب الطويل فبلغة ... من العيش تكفيني إلى حين تكفيني[1]

---

[1] العبدري، الرحلة، ص: 25.

إن الاسترجاع خارجي غير محدد كما هو واضح والغرض منه إمتاع فراغ سردي ولكننا إذا حملنا النص محمل التأويل فيمكن أن يكون الاسترجاع مخاطبا لذات السارد ليكف عن لوم مليانة ومن فيها في بث البيت لهذه الأبيات وكأنه ينطق على لسان مليانة كما نطق على لسانها الرجال في الموضوع نفسه.

وفي معرض حديثه عن الإسكندرية وذكر الإهانات التي يتعرض لها الحجاج المغاربة على يد الحرس الذين يفتشون الرجال والنساء ويأخذون منهم الأموال. قدم لنا العبدري استرجاعين:- أحدهما داخلي حدث له ولمن معه يوم وصولهم الإسكندرية وهو استرجاعي موضوعي يتعلق بالجمارك والغرض منه الإخبار مع الاستنكار لمثل هذه الأفعال - لا حصرا - مهجتهم الخسيسة[2]- ورغم هذا الدعاء فإن انفعال الانتقام لم ينطفئ بل زاد تأججا في عمقه حتى روى لنا ابن حباسة حادثة ذكرها ابن جبير في رحلته وهكذا انتقل بعد سرد طويل إلى استرجاع خارجي قال: " حدثني نور الدين أبو عبد الله زين الدين ابن حباسة... بمدرسة جده حكاية اقتضت أن لهم في هذه القضية سلفا غير صالح وذلك أنه حدثني إملاء من كتابه قال حدثني...السبتي الحافظ بثغر الإسكندرية...قال حدثني الشيخ...من جبير لكناني بثغر الإسكندرية سنة إحدى عشرا وتسعمائة أنه ورد الإسكندرية و في ركب عظيم من المغاربة برسم الحج فأمر الناظر على البلاد بمد اليد فيهم للتفتيش والبحث عما بأيديهم ففتش الرجال والنساء وهتكت حرمة الحرام ولم يكن فيهم إبقاء على أحد قال: فلما جاءتني النوبة وكانت معي حرم ذكرتهم بالله ووعظتهم فلم يعرجوا على قولي ولا التفتوا إلى كلامي وفتشوني كما فتشوا غيري فاستخرت الله ونظمت هذه القصيدة ناصحا لأمير المسلمين صلاح الدين يوسف ابن أيوب ومذكرا له بالله في حقوق المسلمين ومادحا له فقلت "...[1] " (ثم ذكر قصيدا من56بيتا).

إن هذا الاسترجاع ذا الصبغة التوثيقية من حيث تعدد الرواة الخارجيين هو استرجاع موضوعي أتى به السارد للتأكيد بأن هذه العادة متأصلة وليست عرضية في هذه البلاد و تتداعى والاسترجاعات بسبب المكان أو الموضوع ويأتي بها غالبا للتوكيد أو للتفسير

---

(2) - نفسه: ص 93- 94.

(1)- المصدر السابق: ص 146-147.

أو لمـتعة الخبـر. ومن ذلك أن العبدري ذكر غرابة الأهرامات و أشاد بما تضمنته من العلـوم والحكمة، فدفعه ذلك إلى النقل عن القاضي صاعد في كتابه الطبقات " أن جماعة مـن العلمـاء زعموا أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صارت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، هو الذي يسميه العبرانيون خنوخ، وهو إدريس النبي علـيه السلام، وأنه أول من تكلم في الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وأول من بنى الهـياكل، ومجّـد الله تعالى فيها، وقالوا إنه أول من أنذر بالطوفان ورأى أن آفة سماوية تلحـق الأرض مـن المـاء أو الـنار فخاف ذهاب العلم، ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابـي التـي فـي الصعيد وصور فيها جميع الصناعات و الآلات ورسم فيها العلوم حرصا منه على تخليدها..."[2]

فالغرض من هذا الاسترجاع هو الإخبار، ثم التفسير على أن سبب بناء الأهرامات هو الخوف من ذهاب العلم ودروس الصنائع، ولكون هذه الأخبار كلها تحتمل الصدق والكذب فقد اعتمد فيها على منهج المحدثين في الإسناد والنقل.

يأتـي السـارد بالاسـترجاعات المتعددة الأغراض على شكل حكايات أو أخبار متبوعة بتعليقات تبين رأيه. وقد تأتي بمثابة نواة سردية مغلقة بكلمة(وبالله التوفيق) أومفتوحة.

ب- الاسترجاعات الداخلية: والاسترجاعات الداخلية هي التي تعود إلى نقطة بعد نقطة البدء وكلهـا تملأ فجوات يقتضيها السياق، وقد تتداخل هذه الاسترجاعات من حيث الزمن بين مـاض بعـيد وقريب، ومنها ما يتعلق بالموضوع ومنها ما يتعلق بالمكان ومنها ما يتعلق بالشخصيات وقد تتخللها استباقات، ووعود كقول السارد (حسب ما يأتي ذكره إن شاء الله) وهذا السرد غالبا ما يقوم على التداعي، وهو كثير في متون الرحلات.

قـد ينتقل السارد من زمنه إلى أزمان متداخلة كهذا النص " فلم أر بالقيروان ما يذكر ولا مـا يـتهمم بـه سوى جامعها ومقبرتها. أما جامعها فهو من الجوامع الكبار...وكان المؤسـس له والمقيم لقبلته الرجل الصالح عقبة بن نافع الفهري المعروف بالمستجاب... ويحكـي أنه لما أمرهم ببنائه قالوا إنك أمرتنا أن نبني في شعراء وغياض، ونحن نخاف من السباع والهوام فمضى معهم حتى وقف عليها، وقال: أيتها السباع والهوام إنا أصحاب

(2)- نفسه، ص: 146-147.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، أردنا أن ننزل هنا فارحلن عنا، فرأى الناس عجبا، رأوا الأسـود تحـول أشبالها و... ويقال انه قد مر عليها أربعون سنة لم تر فيه حية لدعوته، فلمـا بـنوها طـاف حولها عقبة وأصحابه، دعوا الله وأسسوا مسجدها، وأقام عقبة قبلتها بـرؤيا رآهـا، وقـد سدّد إمام جامعها، ومن حضر...، ودخلنا بيت الكتب فأخرجت لنا مصـاحف كثيـرا بخـط مشرقي، ومنها ما كتب كله بالذهب، وفيها كتب محبسة قديمة الـتاريخ مـن عهـد سحنون وقبله، ورأيت بها مصحفا كاملا مضمونا [كذا] بين لوحين مجلدين غير منطوع ولا مشكول وخطه مشرقي بيّن جدا... وذكروا أنه الذي بعثه عثمان رضي الله عنه إلى المغرب، وأنه بخط عبد الله بن عمر رضي الله عنهما." [1]

فـي هـذا الـنص نجد أنفسنا أمام تداخل زمني، فمن زمن رحلة السارد ووصوله إلى القيروان إلى زمن التأسيس مع عقبة بن نافع، ثم ما بعد عقبة ثم عودا إلى زمنه، ثم قفز إلى زمن السارد، ثم استرجاع لزمن بعيد أقصاه زمن كتابة المصاحف الأولى...

إننا أمام انتقال أفقي سريع وقد ألغيت فيه المسافات والحواجز كالحلم تماما، ورغم السـرعة فإن هنالك انتظاما مبنيا على قرائن لفظية تربط القارئ بوقائع وأحداث وفواعل، مما يؤدي إلى هذا التناسق الموضوعي وفق مقتضيات الانتظام والتباطؤ[1].

فإذا رتبنا الخطاب كما ورد، والأحداث كما وقعت في التاريخ صار النص كالتالي:

1. السارد في القيروان.
2. عقبة التأسيس ومؤسس الجامع.
3. السارد في المسجد.
4. سحنون في القيروان.
5. عثمان والمصحف.
6. المسجد في زمن السارد سنة 689هـ.
7. المقبرة.

---

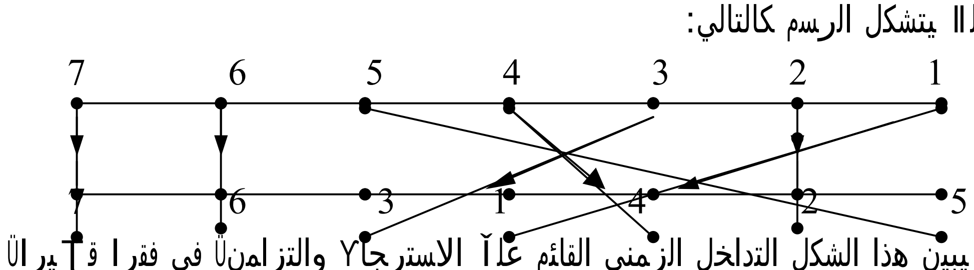
(1) – المصدر السابق، ص: 65.

(1) – أنظر غاستون باشلار، جدلية الزمن، ترجمة خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:2، سنة 1982، ص 117.

وعلى مستوى الأحداث (زمنيا) تترتب كالتالي:

1. عثمان والمصحف.
2. عقبة الفاتح ومؤسس المسجد.
3. سحنون في القيروان.
4. السارد في القيروان.
5. السارد في المسجد.
6. المسجد زمن الرحلة 689هـ.
7. في المقبرا.

وبهذا يتشكل الرسم كالتالي:



يبين هذا الشكل التداخل الزمني القائم على الاسترجاع والتزامن في فقرات مما يجسد مقولة الترتيب على أكثر من مستوى. وكأن السارد يدمج الأزمان إدماجا بل قد نشعر أحيانا أن لحمة السرد هي اللعب بالزمان تقديما وتأخيرا وتعاصرا.

ب- الاستباق:

الاستباق هو التقنية الثانية التي تكسر ترتيب الأحداث من حيث الزمن وغالبا ما يشير إليه السارد/ المؤلف صراحة قصد الإخبار عن شيء قبل أوانه وقد يأتي بما أخبر عنه فيه أو لا يأتي به ذلك أن الاستباقات تأتي ممهدا لما سيفعله السارد وبها يكشف بعض مخططه أمام القارئ ليشوقه أو ليربط أوائل النص بأواخرها فينتظم التأليف.

كما فعل في معرض التعليق على بيت:

أجلهم العلماء الحمر والكملة ... هذا لأنهم أولوا تلك السابقة

إذ علق قائلا: "خفف القاضي رحمه الله الحمرة والتخفيف في مثل هذا إلا فيما يلتبس وهو هنا يلتبس بجمع أحمر فينبغي ألا يخفف ولم يقرأ في السبع "حمر مستنفرة..." إلا بالتثقيل ومن هذه الجهة أنكر المحققون إسكان الباء في قوله صلى الله عليه وسلم:

" اللهـم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " لما كان إسكانه يلتبس بالمسرد وسيأتي ذكر هـذا الحـديث إن شـاء الله تعالـى..."[1] وهكـذا يشير مسبقا بأن السارد سيعود لهذا الموضـوع، ولكـنه لا يحدد مكان هذا الاستباق. والقارئ بعد ذلك ينسى هذا العقد الذي أنشئ بينه وبين النص بطول المسافة.

وقـد يأتي هذا الوعد التمهيدي الذي ينشئ انتظارا متراخيا لدى القارئ كقوله متحدثا عـن لقائه مع الشيخ أبي عبد الله الكناني الشاطبي إذ وعد انه سيأتي برنامج شيوخه قال وقـد جمـع ذلك في برنامج قرأته عليه حين لقيته المرة الثانية حسب ما يأتي ذكره إن شـاء الله تعالى[2]، وبين هذا الموضع والموضع الذي ورد فيه التفصيل مسافة طويلة جدا من حيث الزمن الطبيعي، إذ حج وعاد فمر ببجاية وحينها ذكر البرنامج، ومن حيث المدى تحقـق الـوعد في الصفحة السادسة والسبعين بعد المائتين، أي أن المسافة الورقية تعد بـثمان وأربعين ومائتي صفحة، ومن شأن هذا الصنف من الاستباقات أن يخلق نوعا من سوء التفاهم لدى القارئ بسبب طول المسافة بين الإعلان والتحقق[1] الفعلي في السرد.

وهـذه الوعود كثيرا في الرحلة [2]، وهي استباقات تمتن التأليف، وحينما يفي السارد بـوعده وإن كان بعيدا، تمتن الثقة بين السارد والقارئ فيسلم القارئ أمر التوثيق للسارد، ولا يشك في وعوده.

إن هذه الصيغ الإعلامية التي تربط مرحلة الذهاب بمرحلة الإياب تجزم لنا أن الرحال قـد جمع رحلته أولا ثم رتبها، فهو يدرك تفاصيلها، كما تدل أيضا على أن السارد ينظر إلى رحلته كعمل متكامل الأجزاء موحد الأهداف والغايات، وهو يضع كل جزء في مكانه المناسـب الـذي تقتضيه صنعة التأليف المنبثـقة عن رؤية المؤلف لعمله، هذه غاية نود إثـباتها لئلا ينظر إلى الرحلات كأنها أعمال متقطعة الأوصال ومن هنا يدخل السارد في نطاق " رؤية العليم ".

---

(1)- العبدري، الرحلة، ص 22- 23.

(2) – نفسه، ص 28.

(1) – انظر جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص 81-82.

(2) – انظر الرحلة، ص (42-271) (43-274)، (87-234) أي بعد 147 ص .

(3) – المرجع السابق، ص 61.

ومـن الاسـتباقاƘ الǼعائية التشويقيةǓ ƹير البعيدا ما ذكره في معرƯ الحديƭ عن تـƾويǨƘ فرار الشيطان من الأذانǓ وعدم فراره أƯناƔ الƴǨǐ إذ رأă السارد/المƚلف أنǽ يمكـن القـول: " إن طاعـة اŸ بالجملة محاربة للشيطان وجهاد لǾ والعدو إنما يǨر عند كشف الغطاƔ وبلوƷ الغاية في المجاهرا بالعداوا وليƩ في العباراƘ أبلƸ في هذا المعنă مـن الآذانǓ وقد عرضƘ هذا الوجǾ علă الشيƺ الǨقيǾ الƴǐƟ أبي محمد عبد اŸ بن عبد السـيد بمديـنة أطـرابلƩ فاستحسـنǾǼ وقال لي إن هذا يƚكد قولǾ ǐلă اŸ عليǾ وسلم: سـاعتان تǨـتƠ لهمـا أبـواب السماƔǓ وقل داƳ ترد عليǾ دعوتǾǼ حضرا النداƔ للƴǐا والǐف في سبيل اŸ Ǔ يعني أنهما ساعتا جهاد." (3)

وهـذا الـنƫ اسـتباقي بالنƲار إلă سياƼ الرحلةǓ إذ ذكر هذا العرƯ والتǨسير وهو مـازال بتونƩ لم يبرحها بعدǓ أما بالنƲار إلă الأفعال النحوية فƎنها ماضية " وقد عرضƘ هـذا الـوجǾ..."ومن هذا النوƳ ما ذكره السارد/المƚلف حين لقي أبا زيد الدباƷǓ ƭم ذكر كـتابǾ " معـالم الإيمان..." إذ قال: " وقد ذكر لي شيخنا الǨقيǾ العالم إمام ديار مǐر أبو الǨـتƠ محمـد بـن علـي بن وهب...أنǾ كاف الǨقيǾ الأوحد الǨاضل أبا العباƩ الغمارă التونسـي رحمǾ اŸ استنساƻ هذا الكتاب لǾ حين ǐدر من المشرƼǓ وأنǾ لما وǐل إلă تـونƩǓ اعتنă باستنساخǾ حتă كملǓ ƭم اعتنă بتǐحيحǾǼ ومقابلتǾǼ فلما فرƷ منها توفيǓ فبـƣيƳ فـي تركتǾǼ وأƯنă علă مƚلǨǾ المذكور كما ينبغي..."(1) يدل سياƼ الرحلة والقرينة المكانية أن السارد/ المƚلف لم يǐل بعد إلă مǐر. وهذا ما يجعل النƫ استباقيا تƘكيديا. ولـولا تلـƁ القرائن لاعتبر هذا النƫ استرجاعيا إذ يحيلنا إلă أكƯر من راو حقيقيƭǓ م يدخلنا في أكƯر من حكاية توليدية.

ومـن الاسـتباقاƘ عن طريƼ الإشارا العارضة التي لا يعود إليها السارد ليشرحها أو يǨǐـلها قولǾ متحدƯا عن فǐاحة عرب برقة بالموازنة مƳ عرب الحجازǓ ذكر ذلƁ وهو ببرقة: " وعرب برقة اليوم من أفǐƠ عرب رأيناهمǓ وعرب الحجاز أيضا فǐحاƔǓ ولكن عـرب بـرقة لـم يكƯر ورود الناƩ عليهم فلم يختلط كǘمهم بغيرهǓ وهم إلă الآن علă

(1) – المǐدر السابƼǓ ƫ : 67.

عـروبتهم..."[2]. هذا العقد الذي أبرمه الرحالة مع القارئ في هذه المرة قد غير ملزم[3] ذكـر فـيه التماثل الموجود بين عرب برقة وعرب الحجاز بالنظر إلى بقية العرب في نهاية القرن السابع الهجري والسارد إن كان قد أشاد بسماحة أهل برقة وقدم نماذج على ذلـك فإنه حين وصل إلى الحجاز لم يلزم نفسه بفعل ذلك ولعل انشغاله بالسفر وأتعابه حال دون ما يريد.

ومـن الاسـتباقات المندمجة مع الحاضر ما سجله في وداع الشيخ المحدث تاج الدين الغرافي وقد جمع توديعه إياه في الذهاب إلى الحجاز وتوديعه في العودة إلى المغرب في موقـف واحد قال: " ولما ودعني في منصرفي في الحجاز أخذ بيدي وقال لي أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ثلاث مرات ثم قال لي: رأيت مثلها فعلت وأنشدني مودعا باكيا في انصرافي عنه إلى المغرب قائلا:

أودعكم وأودعكم جناني ... وأنثر عبرتي نثر الجمان

وقلبي لا يريد لكم فراقا ... ولكن هكذا حكم الزمـان[1]

فالحـركة الذهنـية تقـوم بقفز زمني بعيد ففي الوقت الذي يستغرق الذهن في ترديد مضمون حديث الوداع وينتظر المزيد من القول إذ بالسارد يفاجئنا بإنشاد الغرافي لأبيات فـي توديـع السارد/المؤلف وهو عائد إلى دياره وبذلك تختصر المسافة بين الذهاب إلى الحجـاز والعـودة مرورا بالإسكندرية حيث التقى الغرافي مرة ثانية وودعه باكيا بهذه الأبيات وهذا النوع من الاستباق يسد ثغرا هامة في السرد اللاحق حين عاد الرحالة إلى الإسـكندرية إذ لـم يذكر أنه التقى بالغرافي وإنما أشار إلى الشيخ زين الدين والإقامة سبعة أيام بها ولم يذكر التفاصيل[2] ولا بمن التقى.

ويمكـن القـول أن الاستباقات التي يوردها العبدري ذات طبيعة إعلانية وما يؤدي إليها غالـبا هـو الموضوع المتماثل أو الشخصيات وقد تهدف الاستباقات إلى التأكيد أو سد بعض الثغرات في حينها خوفا من نسيانها أو تبيانا لأهميتها.

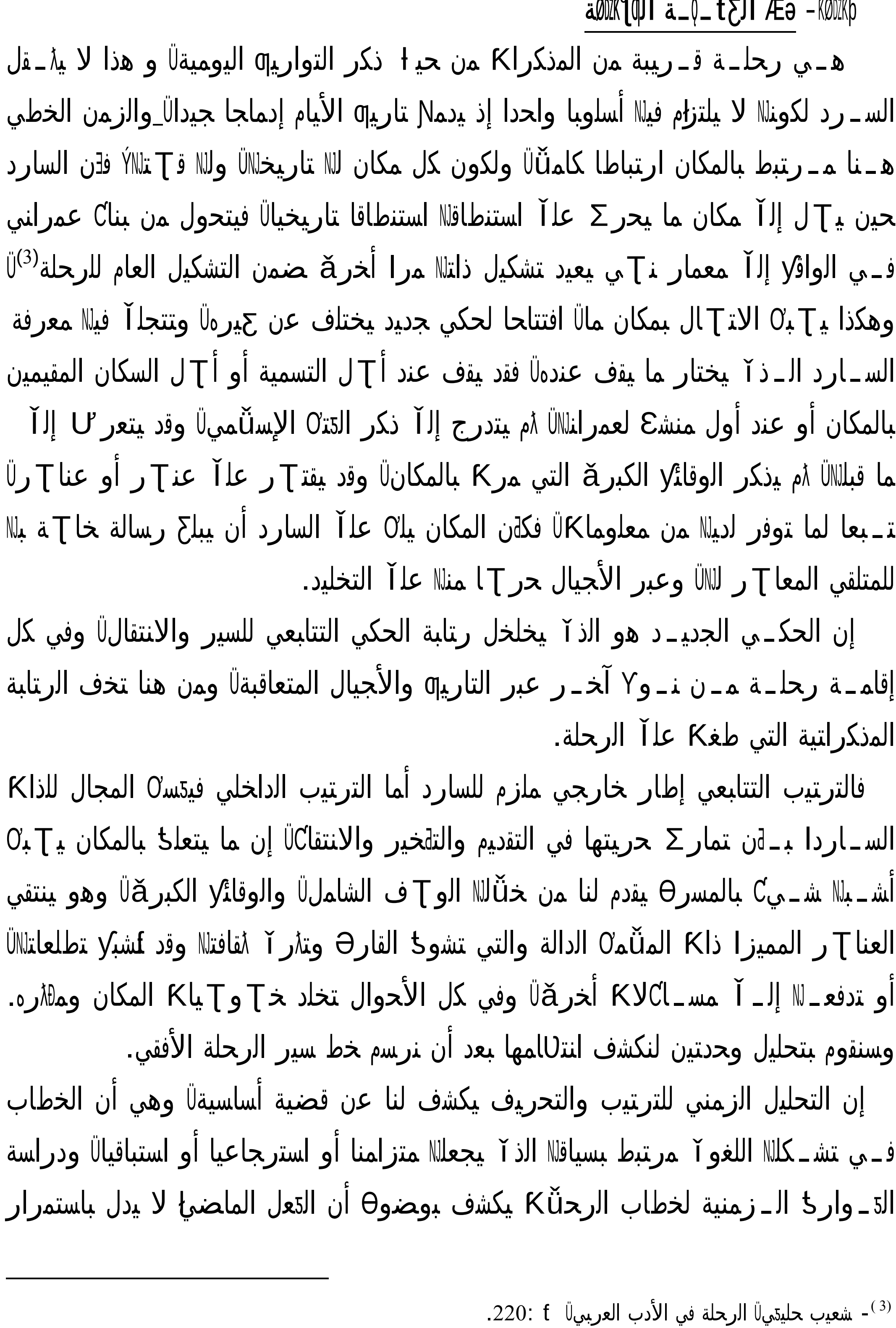
---

[2] – نفسه، ص: 88.

[3] – انظر ناصر عبد الرزاق الموافي – القصة العربية... عصر الإبداع، ص: 155.

[1] – انظر العبدري، الرحلة، ص: 120.

[2] – نفسه، ص: 235.



[illegible]

هـي رحلـة قـريبة من المذكرات من حيث ذكر التواريخ اليومية، و هذا لا ينقل السـرد لكونه لا يلتزم فيه أسلوبا واحدا إذ يدمج تاريخ الأيام إدماجا جيدا، والزمن الخطي هـنا مـرتبط بالمكان ارتباطا كاملا، ولكون كل مكان له تاريخه، وله قصته فإن السارد حين يصل إلى مكان ما يحرص على استنطاقه استنطاقا تاريخيا، فيتحول من بناء عمراني فـي الواقع إلى معمار نصي يعيد تشكيل ذاته مرة أخرى ضمن التشكيل العام للرحلة[3]، وهكذا يصبح الاتصال بمكان ما، افتتاحا لحكي جديد يختلف عن غيره، وتتجلى فيه معرفة السـارد الـذي يختار ما يقف عنده، فقد يقف عند أصل التسمية أو أصل السكان المقيمين بالمكان أو عند أول منشئ لعمرانه، ثم يتدرج إلى ذكر التاريخ الإسلامي، وقد يتعرض إلى ما قبله، ثم يذكر الوقائع الكبرى التي مرت بالمكان، وقد يقتصر على عنصر أو عناصر، تـبعا لما توفر لديه من معلومات، فكأن المكان يلح على السارد أن يبلغ رسالة خاصة به للمتلقي المعاصر له، وعبر الأجيال حرصا منه على التخليد.

إن الحكـي الجديـد هو الذي يخلخل رتابة الحكي التتابعي للسير والانتقال، وفي كل إقامـة رحلـة مـن نـوع آخـر عبر التاريخ والأجيال المتعاقبة، ومن هنا تخف الرتابة المذكراتية التي طغت على الرحلة.

فالترتيب التتابعي إطار خارجي ملزم للسارد أما الترتيب الداخلي فيفسح المجال للذات السـاردة بـأن تمارس حريتها في التقديم والتأخير والانتقاء، إن ما يتعلق بالمكان يصبح أشـبه شـيء بالمسرح يقدم لنا من خلاله الوصف الشامل، والوقائع الكبرى، وهو ينتقي العناصر المميزة ذات المعاني الدالة والتي تشوق القارئ وتثير ثقافته وقد تشبع تطلعاته، أو تدفعـه إلـى مسـاءلات أخرى، وفي كل الأحوال تخلد خصوصيات المكان ومآثره. وسنقوم بتحليل وحدتين لنكشف انتظامها بعد أن نرسم خط سير الرحلة الأفقي.

إن التحليل الزمني للترتيب والتحريف يكشف لنا عن قضية أساسية، وهي أن الخطاب فـي تشـكله اللغوي مرتبط بسياقه الذي يجعله متزامنا أو استرجاعيا أو استباقيا، ودراسة الفـوارق الـزمنية لخطاب الرحلة يكشف بوضوح أن الفعل الماضي لا يدل باستمرار

---

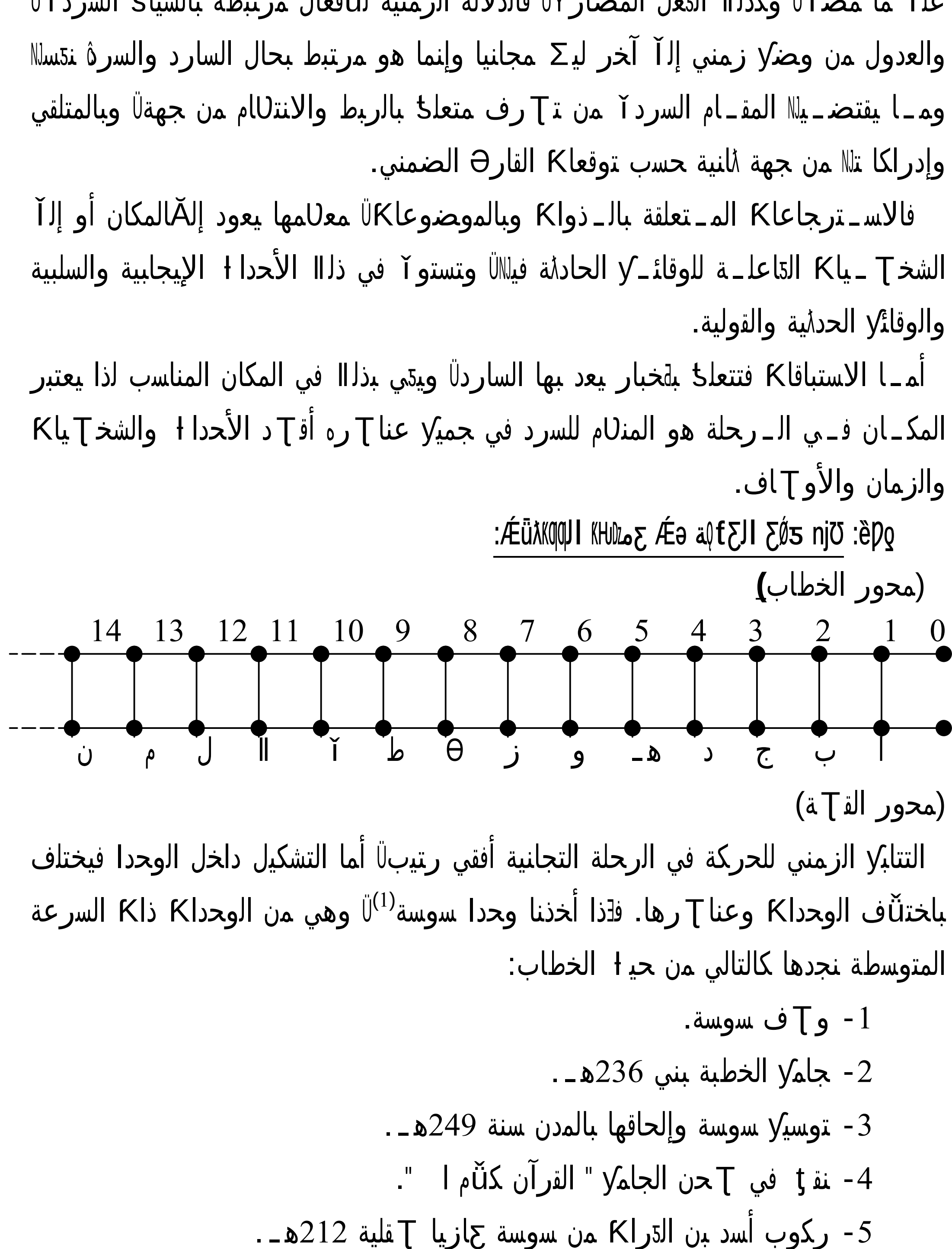
(3)- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص: 220.

علاً ما مضى، وكذلك الفعل المضارع، فالدلالة الزمنية للأفعال مرتبطة بالسياق السردي، والعدول من وضع زمني إلى آخر ليس مجانيا وإنما هو مرتبط بحال السارد والسرد نفسه وما يقتضيه المقام السردي من تصرف متعلق بالربط والانتظام من جهة، وبالمتلقي وإدراكه له من جهة ثانية حسب توقعات القارئ الضمني.

فالاسترجاعات المتعلقة بالذوات وبالموضوعات، معظمها يعود إلى المكان أو إلى الشخصيات التابعة للوقائع الحادثة فيه، وتستوي في ذلك الأحداث الإيجابية والسلبية والوقائع الحدثية والقولية.

أما الاستباقات فتتعلق بأخبار يعد بها السارد، ويفي بذلك في المكان المناسب لذا يعتبر المكان في الرحلة هو المنظم للسرد في جميع عناصره أقصد الأحداث والشخصيات والزمان والأوصاف.

[illegible]:



التتابع الزمني للحركة في الرحلة التجانية أفقي رتيب، أما التشكيل داخل الوحدات فيختلف باختلاف الوحدات وعناصرها. فإذا أخذنا وحدة سوسة[1]، وهي من الوحدات ذات السرعة المتوسطة نجدها كالتالي من حيث الخطاب:

1- وصف سوسة.
2- جامع الخطبة بني 236هـ.
3- توسيع سوسة وإلحاقها بالمدن سنة 249هـ.
4- نقش في صحن الجامع " القرآن كلام الله ".
5- ركوب أسد بن الفرات من سوسة غازيا صقلية 212هـ.

(1) – التجاني، الرحلة، ص: 25-55..

6- نزول الروم في على سوسة وانهزامهم على يد عبد الله بن الزبير.

7- امتناع سوسة على من رامها.

8- سوسة في عهد أبي يزيد بن مخلد الكيدادي.

9- حصارها من قبل أبي يزيد.

10- أشعار في الحصار.

11 - خروج أهل سوسة على المعز بن باديس سنة 445هـ.

12- قتل جيوش المعز.

13- استقرارها تحت ملك الأعراب.

14- رواية أبي العرب عن المنستير. محرس سوسة.

15- دعوى ابن شرف في كون أهل سوسة عبيد لأهل القيروان.

16- من شعراء سوسة: 1. محمد بن الحسين بن أبي الفتح – القرشي.

2. علي بن أحمد الحتار السوسي.
3. أبو الفتوح بن محمد.
4. أبو موسى عيسى ابن إبراهيم " القطان"
5. عبد الوهاب بن خلف بن القاسم السوسي "ابن الغطاس"
6. محمد بن عبدون السوسي.
7. عبد الحليم بن عبد الواحد بن عبد الحميد السوسي.
8. التراب السوسي.
9. محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي.

17- حكاية عن عاشق في سوسة " رواها الحميدي"

18- الإقامة بظاهر سوسة... والانتقال عنها.

فإذا أردنا تمثيل خط سير الخطاب كما ورد في الرحلة وخط تتابع الأحداث كما وقعت تاريخيا يمكن أن نحصل على الشكل التالي:



(القصة)

1 18 17 16 15 13 12 11 10 9 8 7 3 2 5 4 14 6

هذا الشكل يتسع المجال للسارد في أن يقدم أو يؤخر، وفق ما يقتضيه السياق أو وفق ما يتوافر لديه من معلومات، فهو ينتقل من الحاضر الذي هو وصف سوسة كما يشاهدها وينهي سرده بالغياب عن سوسة، حيث يقيم في ظهرها، وما بين ذلك يقوم بالحفر الزماني في ذاكرة التراث ليقدم ما جرى من أحداث على خشبة مسرح سوسة، فإذا بها أقرب ما تكون إلى ذاكرة المنطقة كلها، إذ الأحداث الكبرى كلها تترك أثرها: الفتح، الانطلاق إلى الفتوح الأخرى، الفتن المذهبية: الخوارج، الشيعة، أهل السنة، خلق القرآن، الازدهار، الانحطاط...

فإذا وصلنا إلى الوحدة السادسة عشرة الخاصة بشعراء سوسة وجدناها تتفرع وتتولد منها وحدات هي هؤلاء الشعراء التسعة، ولم يذكر السارد تواريخهم لنحكم على نظام التقديم أهو تقديم تصاعدي أو تنازلي أو مختلط، لكن إيراده للرعيني السوسي المعاصر للرحالة في آخر ما ذكره بمثابة قرينة على أن الترتيب خطي تصاعدي من الأقدم إلى المعاصر، ثم تنغلق الوحدة الصغرى ليعود إلى الترتيب الذي اختاره لوحدة سوسة فيحكي نادرة رواها الحميدي الذي عاش بعد ابن رشيق، وهي بمثابة معبر للانتقال من الشعر إلى الخبر الشعري، ونصل إلى قانون يحكم مثل هذه الوحدة وهو أن السارد يسرد حاضر الرحلة، حتى إذا وصل إلى مكان ما، فتح نافذة للاسترجاع، فيشكل الأحداث كما يبدو له من غير ترتيب، لكون الجانب التاريخي هو البارز في ثقافة السارد، فإنه قد يرتب الأحداث مرة أخرى ترتيبا تصاعديا. حتى إذا وصل إلى نقطة أخرى ثرية، فتح نافذة للسرد، فيفرع العناصر، ثم يرتبها الأقدم، فالذي يليه إلى عصره...

وكما انطلق من الحاضر ليغوص في الماضي، فإنه يغلق الوحدة إغلاقا تاما بالعودة إلى الحاضر لينتقل إلى مكان موال...وهكذا.

وسنقوم بإنجاز تحليل لوحدة يرد فيها كثير من السرد الآني على زمن السارد لنخرج بخلاصة كلية للترتيب، ولتكن العينة الآن " قابس" وهي وحدة تشتمل على إحدى وثلاثين صفحة[1] منسقة في خطابها كالتالي:

---

(1) –التجاني، الرحلة، ص 86-118.

1- وŢف قابΣ

- سورهاŰ ساحتهاŰ ماƏها و هواƏهاŰ بيعهم لƧضƞتهم

- شعر أبي المطرف بن عميرا في قابΣ

- شعره في عقاربها

2- قبر أبي لبابة "الŢحابي"

- بعƈ الأخبار الخاŢة بŇ- قŢيدا أبي المطرف بعد زيارتŇ لقبره

3- منار قابΣ

- علوهŰ خرابŇŰ ما قيل فيŇ.

4- مسجد قابΣ ومئذنتŇ المائلة

5- قŢر العروسين

- أول من بنƑ العروسين

- نقş علƑ أحد أبواب القŢر رجب 500هـ

- Ţنهاجة أول من ابتدأ بنيانŇ

6- تملاا بني جامƴ لقابΣ

- ولاا قابΣ أيام الشيعة

- ولاا قابΣ أيام الŢنهاجيينŰ وقائƴ مرƺ علƑ قابΣ

- ولاتها أيام استيƜƅ العرب

- أسطول الروم وأسطول المسلمين في مواجهة

- تغلب المسلمين علƑ لجارŰما قيل في هذا الƟتƠ.

– ولاا وأحداŧ - حنين من دمشƾ إلƑ قابΣ "..."

7- قابΣ في عهد الموحدين

8- تغلب قرقوş علƑ قابΣ

9- الميورقي وأفعالŇ في قابΣ

10- "الآن" نقل لكتاب بطرابلΣ "يخبر عن أحداŧ "

11- قŢيدا لابن عبد البر في فتƠ طرابلΣ

12- موƘ قرقوţ 609هـ.

13- ذكر ŢƟǚ الدين وأخبار قرقوţ

14- عƋمة الميورقي "وƿـقـƘ با "

15- موافقة معالم قابΣ لمعالم قلعة بني حماد

16-الإقامة بقابΣ

17 - وŢول كتاب من الوالد

هـذا هو ترتيب الوحداƘ الŢغرƋ في الخطاب المخŢ ƒ لوحدا " قابΣ" مƳ توƿيف مبدأ الضم في كƙير من الأحداƚ . فƎذا رتبناها وفƑ التتابƳ الزمنيƋ كانƘ كالتالي تقريبا:

1- قبر أبي لبابة

2- أŢل تماƒ بني جامƳ لقابΣ

3- قابΣ في عهد الموحدين

4- الميورقي وأفعاƋ في قابΣ

5- عƋمة الميورقي "وƿـقـƘ با "

6- ذكر ŢƟǚ الدين وأخبار قرقوţ

7- تغلب قرقوţ علƑ قابΣ

8- موƘ قرقوţ

9- ذكر إبراهيم بن...

10- وŢف قابΣ

11- وŢف المنارا

12- وŢف المسجد

13- قŢر العروسين

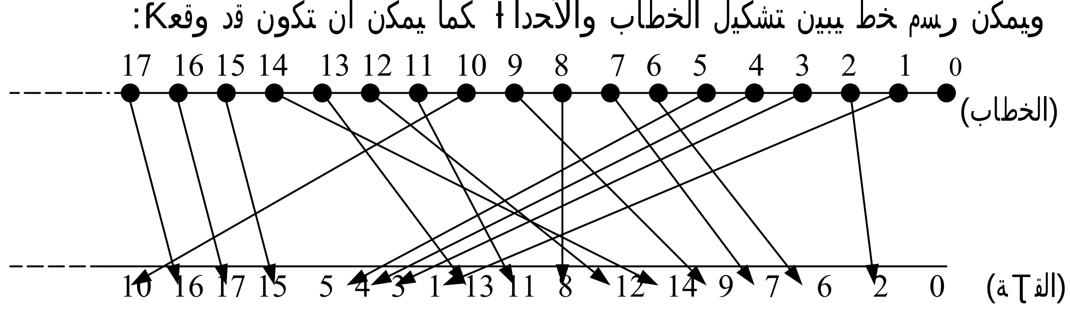
14- موافقة معالم قابΣ لمعالم قلعة بني حماد

15- وŢول كتاب من الوالد

16- الإقامة بقابΣ والرحيل عنها

17- نقل لكتاب بطرابلΣ من خط الشيƣ " أبي فارΣ "

ويمكن رسم خط يبين تشكيل الخطاب والأحداث كما يمكن أن تكون قد وقعت:



إن قراءة الرسم تبين أن السارد حين يقتطع وحدات ما بناء على مؤشر المكان فإنه يملؤها بسرود تمتاز بحرية الانتظام من حيث التقديم والتأخير والتوازي.

فمـن التوازي نجد الوحدة السادسة عشر "الإقامة بقابس" سردت بشكل متواز من حيث الخطاب والحكاية.

ونجد الوحدة الصغرى "2" تعتبر الأولى من حيث الترتيب الزمني للأحداث، في حين نجـد أن الـوحدة "العاشرة" في الخطاب هي السابع عشرة في الأحداث. وهي استباقية لم تحدث بعد بالنسبة لزمن سرد النص، إذ أن السارد سينقل الأحداث من رسالة وجدها عند أحد الشيوخ وهو بطرابلس. وهكذا مع بقية الوحدات الأخرى.

ونشـير إلى أن الوحدة الصغرى، هي الأخرى تنتظم إلى وحدات أصغر يملؤها السارد بما يناسب من أخبار وأقوال. وهي أيضا يمكن أن نجري معها نفس التحليل لنجدها تسرد في حرية تامة من حيث الترتيب.

ولكون السرد في سيره العام خطيا، وفي وحداته الصغرى يخضع للترتيب الذي يرتئيه السـارد فإنـنا سـنقف عند هذه التشكيلات التي تحدث انكسارا في النص، لنكشف عن أهدافها وغاياتها ومدى انتظامها وما نوع هذا الانتظام.

1- المطابقة: نعني بها نقطة البدء في السرد حيث تتطابق القصة مع الخطاب، وهذا ما نجده في افتتاحيات الوحدات التي تنجز بالوصف غالبا " فأشرفنا على غابة قابس، ووصلنا إلـيها ضحى، فرأينا بلدا قد استوفى المحاسن واستغرقها، وأخذ بمنظاره الأنضر، وورقه الأخضـر جـنة الخلـد، وإستبرقها وقد أحدقت غابته من جميع جهاته، وبهذه الغابة من

الجواسق* والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف ويستوفي الحسن والظرف.."[1]
فالاعتبار ليس للفعل اللغوي الذي ورد ماضيا ولكن باعتبار الزمن الداخلي للسرد فهذا الوصف كان كذلك زمن رؤية السارد له وليس قبله ولا بعده.

وهذا ما يرد في معظم افتتاحيات الوحدات التي تبدأ بالوصف "... وهو منزل فيه مبان قليلة وعليه غابة زيتون متسعة وكانت به قبل هذا غابة نخل فقطعت... ولم يبق منها إلا نخيلات قليلة في مواضع متنافرا منه..." [1] والخطاب التزامني هو خطاب وصفي سواء للمكان أو للأشخاص أو هما معا. ففي حديثه عن زواره قال: "... وهي قرية ذات نخل كثير باسق الارتفاع ومياهها في غاية العذوبة وقد استولى ***الآن*** الخراب على هذه القرية فليس العامر منها إلا بعض الغامر وأهلها قوم من الخوارج غلاة في مذهبهم موصوفون بتصميم في دينهم وأمانة فيما يودع عندهم... ورأيت منهم أقواما قد نحلت من العبادة أبدانهم واصفرت ألوانهم..." [2] ويتضح لنا أن السرد في الرحلة لا يخضع للتتابع إلا في هيكله الخارجي أما في خطاب الوحدات ففيه كثير من التحريفات وكأننا أمام سردين أحدهما تتابعي محض والآخر حر يعتمد على المفارقات الزمنية.

2- الاسترجاعات: السرد في الوحدات السابقة منه الاسترجاعي والاستباقي والتزامني، فالاسترجاعات تتعلق بما مضى، كذكر قبر أبي لبابة الصحابي للتدليل على فضل قابس بما تختص به دون غيرها من مدن الشمال الإفريقي. وكذكر ما يتعلق بالمنار مما يزودنا بمعلومات تتعلق بالمكان ومميزاته. أما حين يقدم الاسترجاعات الخاصة بقصر العروسين فإنه يود تدعيم القول بأن القصر تحفة فنية وأنه مما تفخر به قابس، وأما المعلومات التاريخية المتعلقة بأولوية بنائه وإتمامه فهي ذات قيمة عالية بالنسبة للمؤرخ إذ أنها بمثابة إضاءة تاريخية لنقطة ما، وحين يشير إلى تماثل عمران قابس بعمران قلعة

---

* - الجوسق: القصر الصغير (مع) الحصن، ج جواسق.

[1] – التجاني، الرحلة، ص: 86.

[1] – المصدر السابق، ص: 180.

[2] – نفسه، ص: 207.

بني حماد، فإنه يمدنا بالنموذج الحضاري العمراني السائد في الدولة الصنهاجية، وهي إضافة تثري الإدراك التاريخي العمراني للمتلقي.

وهكذا نجد الاسترجاعات المتعلقة بالمكان تثريه وتميزه، وقد تخصصه أو تقارنه بمماثله. أما الاسترجاعات المتعلقة بالشخصيات فتزودنا بمعلومات في أشد الحاجة إليها لكونها متعلقة بالذوات التي نجهلها، فحينما ذكر تردد قرقوش على قابس والاستيلاء عليها، استرسل في الحكي إلى حين وفاته، وكأنه أدرك أن المتلقي لا يعرف الخلفية التاريخية لقرقوش، فذكر دولة صلاح الدين وما يتعلق بالمخابرة إلى أن وصل إلى قرقوش، فملأ فراغا يشعر به القارئ، وأنار خلفية متعلقة بالشخصية، فالاسترجاعات كلها ذات أهداف، تخدم السرد نفسه في إحكام ترابطه، وتخدم القارئ في الإجابة عن أسئلته المتوقعة التي قد تزيل غموضا أو توضح إبهاما، أو تثير إعجابا، أو نفورا.

3- الاستباق:

قد يكون بمثابة وعد يقطعه السارد على نفسه تشويقا أو تحريضا، وقد يأتي بمثابة إخبار على ما لم يصله السارد بعد بالقياس إلى زمن الخطاب، ومن ذلك ما فعله السارد في وحدا قابس إذ أخبرنا أنه وجد رسالة لها علاقة بقابس حين وصل إلى طرابلس عند الشيخ أبي فارس فلخصها[1]، ونحن من خلال سير الأحداث ندرك أن السارد لم يصل بعد إلى طرابلس، وهذا الاستباق دليل على كون السارد أنجز رحلته أولا ثم صاغها خطابا مكتوبا. ضمنه السابق باللاحق حسب ما يقتضيه السياق، وهناك استباقات أخرى من نوع الوعد السردي، قد تكون طويلة الأجل أو قصيرة، فحينما تحدث عن الميورقي و قرقوش وعد القارئ بأن سيزوده بمعلومات تتعلق بقرقوش قائلا:" وسنذكر سبب وصوله إلى هذه البلاد بإثر التراجم من خبره هذا إن شاء الله."[2] فلما أراد أن يفي بوعده ذكرنا أولا: " وقد كنا وعدنا بذكر السبب في وصول قرقوش إلى هذه البلاد ونحن الآن نذكر ذلك"[3]، فهو استباق مؤكد بعد حوالي ثماني صفحات، مما يربط عناصر السرد ويقوي الثقة بين المتلقي والسارد.

---

(1) – المصدر السابق، ص: 106.

(2) – نفسه، ص: 103.

(3) – نفسه، ص: 11.

وقـد يعد السارد بشيء من التحديد كقوله "... قتل إبراهيم المذكور...حسبما نشرحه إن وجدنا محلاً لذلك إن شاء الله ." [4].فهو استباق مشكوك فيه، ولما وجد له محلاً أزال الشك بعد أربع وعشرين صفحة [5].

تبـين الاستباقات أن السارد له مخطط ينجزه فهو يعد ويفي بوعده في كل حين. ويراقب الإنجـاز بإتقان و هذا ما يسم الرحلة التجانية بالتماسك، ويجعلها متميزا من حيث إحكام الصـنعة فيمتزج فيها الأدب بالتاريخ والدراسة الاجتماعية بالعمرانية، فالحركة إلى الأمام والخلـف والسـكون النسـبي بالإضافة إلى إحساس القارئ بالآنية والفورية أمور ليست مجانـية في عملية التشكيل، والكشف عنها هو الذي يثمنها. فهي التي تجعل القارئ يروح ويجـيء ويقف مكانه ويتحرك مع الحركة السردية، فينسى نفسه ويعيش مع ما في النص بواسطة الخطاب.

يخـتلف المؤلفون في التعامل مع الزمن فمنهم من يختار مقاطع طولية، ومنهم من يختار مقاطـع عرضـية مكانية في فترا زمنية قصيرا، وقد يكون الاختيار عموديا يغوص في العمق حتى يصل اللحظات التي تضم في ثناياها الماضي كله[1]، والتجاني لا يبعد عن هذا القـول فهو يتخذ نقطة في المكان ويغوص فيها واصفا، ومذكرا حتى يمثل تاريخ المكان أمام القارئ في المجالات المتعددا.

ب- الزمن النفسي للرحلة:

الـرحلة كغيرها من الأعمال السردية قد تشمل حكايات كثيرا وأخبارا متعددا يتصل بعضـها بـبعض ويتولد من بعضها الآخر سرد ذو امتداد طولي متزامن أو ينحرف إلى الـوراء أو يـثب إلى الأمام،وهذا ما يجعل السير الزمني غير منضبط بشكل حصري، إذ يصـبح متذبذبا، بوعي وإدراك من السارد أو بغيرهما، ذلك " أن الزمن وعي خفي، لكنه متسـلط، ومجـرد لكـنه يتمظهر في الأشياء المجسدة "[2]. وهذا التسلط هو الذي يجعله يفـرض نفسـه حتـى على من لا يعيه، ولكن الزمن في الرحلة خاص بشخصية ما، لها

---

(4) – نفسه، ص: 114.

(5) – نفسه، ص: 138.

(1) - أ.أ.مندولا، الزمن والرواية، تر: بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط1، سنة 1997، ص 100.

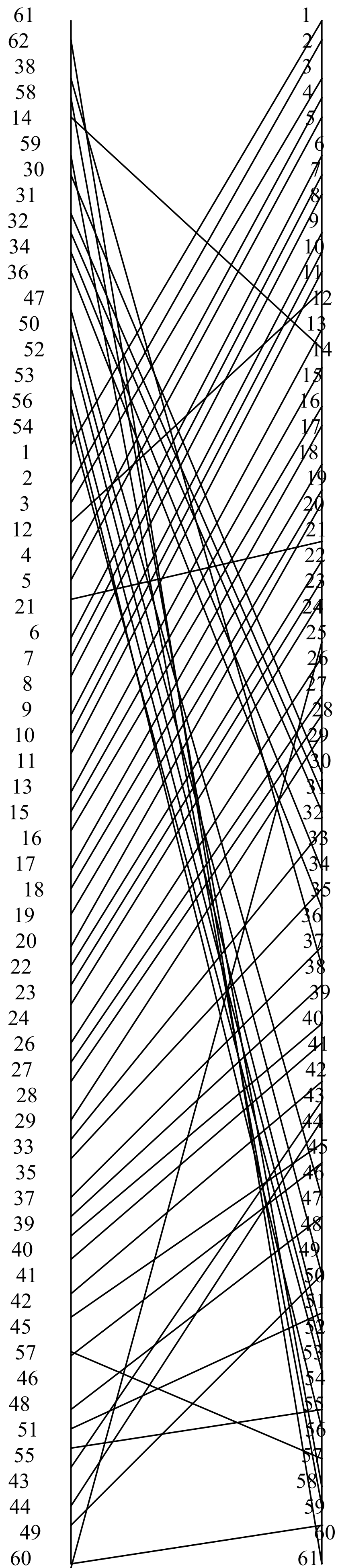
(2) – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص: 201.

وجـود خارجـي، تحيا بين الناس، وهذه الشخصية ركزت اهتمامها على فترة من زمنها فاقتطعتها وحددت بدايتها ونهايتها، وما بين البداية والنهاية تقع المسرودة. لذا تكون الدراسة الزمنية للرحلة تابعة للأحوال التي تتصف بها الشخصية، وما تنجزه من أحداث أو ترويه مـن أخبار، أو تنشده من أشعار، وهي في مكان ما، لكون الرحلة إنجاز حدثي في فضاء مكاني معين، وليست بنية زمنية خالصة.

التمهيد: نجـد التشـكيل الزمني مرتبا ترتيبا أفقيا في **الوحدات الكبرى** (الانطلاق، الذهاب، الوصول إلى البقاع المقدسة، العودة، الوصول إلى نقطة الانطلاق) وليس فيها أي مفارقة زمنية بين خط سير الأحداث وخط قراءة الخطاب، كالشكل التالي:



أما ***الوحدات الصغرى*** فتشكل السرود الرحلية، ويبلغ عددها اثنتين وستين وحدة يمكن أن تـنقص بالإدمـاج وتـزيد بالتفصـيل. فإذا نظرنا إلى هذه الوحدات من حيث ترتيبها العـددي، فإنهـا كالأولى مرتبة ترتيبا تتابعيا مثل: {دخول توزر، الخروج منها، دخول بسـكرة، الخـروج مـنها، ... الوصول إلى البلد.}، فهذا الترتيب من أعراف الرحلة التي تسـعى إلـى تحديـد منازل طريق الحج ومميزات كل مرحلة من حيث المسافة والزمن، وتوافـر المـاء، والصـعوبات التي تعترض المسافر... أما ما تميزت به هذه الوحدات من خطـاب فيمـتاز بالحرية التامة للسارد في تشكيل سرده كما يراه، فإذا عمدنا إلى الوحدة الثانية والثلاثين المعنونة بـ: "الدخول إلى مكة" وفككناها إلى وحدات أصغر تبين مايلي:



نزول الركاب
ما لاقوه من الأعراب
النزول بالمقابر
الذهاب إلى المسجد الحرام
النظر إلى الكعبة
الطواف في ... المغرب وركعتي الطواف
السعي بين الصفا والمروة و... العشاء
العودة إلى الحجون
اكتراء محل بالقرب في المسجد
اللقاء مع الشيخ مهدي عيسى
المبيت في المنزل المكترى
ترك الإبل والأثقال في المحجون وهجوم السراق
الارتحال إلى منى
قول الحطاب في سند المبيت لمنى وقول ابن رشد العبدري
الخروج عند الصباح
الوقوف بعرفات
الخروج منها
الرمي
العودة إلى مكة
طواف الإفاضة
... البيت العتيق
العودة إلى منى
النزول قرب الغار الذي نزلت به الرسالات
ما ذبح في ذلك اليوم
المرور على الذباح بعد سنة قبل ذلك العام
الأسواق بمنى
رمي الجمرات
اللقاء مع أولاد الشيخ تاج الدين المالكي
ركب أمير مكة يرمي الجمرات
أمارتهم وبدؤها إلى الآن...
ما يحكى عن أمير مكة
الاستمرار من الحليم
الليلة الثانية بمنى وأهل مصر والشام
قصيدة للسارد 1064هـ
الإشراف على منازل الحجاج من أعلى الجبل
قصيدة في ليالي منى
لقاء الشيخ عبد العزيز الحبشي
مسجد الخيف
الخروج من منى والنزول بالشبكية
العمرة
لقاء الشيخ جمال الدين الهندي
تلقي الطريقة النقشبندية
نية الانقطاع بالحرمين
الوعد بذكر مصطلحات النقـشبنـديـة
اللقاء مع زين العابدين الطبري
أخذ الذكر والخرقة الثانية
الإجازة قبل
نية المجاورة
عزم عبد الرحمن في بداية السفر
لقاء عيسى الثعالبي ثانية
تلقينه الرحالة الذكر والخرقة ثانية
وسائط الخرقة الثانية
إجازة الهندي للثعالبي
تعليق أبي سالم وإقراراته
سند الهندي في الطريقة
تعليق العياشي
نسب الإمام جعفر من جهتين
النقشبندية
وعد بذكر أماكن الزيارة
الدار التي ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم
مولد فاطمة في دار خديجة

مـن خلال عناوين الوحدات الصغرى المكونة للوحدات الكبرى "الدخول إلى مكة" ومن خـلال محاولـة معـرفة ما وقع قبل، وفي الحين وما سيقع بعد، تتضح لنا النقاط الثلاثة الخاصة بالترتيب وهي: التزامن، والاسترجاع، والاستباق.

1- التزامن:

وهـو ذلـك الخطـاب المسرود زمن وقوع الأحداث قياسا بالأزمنة الداخلية للرحلة، وباعتـبار ما يدركه القارئ، لكونه يرتب المعلومات والمفاهيم التي يستقبلها ويبني عليها ليصل إلى فهم المقروء.

فمـن الـتوازي في الوحدات الثانية والثلاثين (ج1، ص: 190) نجد الوحدات الصغرى التالية "النزول بالمقابر"، قال السارد: " ولما نزلنا من الثنية أنخنا الركاب بالحجون وسط المقبرة للضرورة، وحططنا الرحال بين القبور، إذ لم نجد مكانا سواها، و الأركاب قد ملأت خـيامهم السـهل والوعر، ولم يسلم إلا أماكن القبور المبنية أو المحوط بها..."[1]، وأمام الكعبة الشريفة قال: " فلما وقعت عليه أبصارنا وافتضح ما أكنت من الشوق إليه أسرارنا، اقشـعرت جلـودنا من هيبته، وذهلت العقول من عظمته، فلم نزد على أن بسلمنا وسلمنا وهللـنا، فقصدنا باب بني شيبة للدخول منه ولم نحد يمينا ولا شمالا عنه، وتيممنا الحجر الأسود فقبلناه وطفنا طواف القدوم وأتممناه..." [2]

أو كقوله: " وبعدما أخذنا في الاستغفار والدعاء، ونحن واقفون على إبلنا، واشتد الحر، ثم من الله علينا بسحابة صبت على الواقفين سجلا من ماء كسرت سورة الحر، وابتلت منها الأرض والثـياب وانطفت جمرة الحر، وأعقبها نسيم بارد بقية اليوم، ولم نزل واقفين في محلـنا حتى جاء الخطيب وذهبنا إلى محل الخطبة لاستماعها، فلم نتمكن من سماع حرف مـنها لكثـرة الأصـوات واخـتلاطها، وازدحـام الخلائق على اختلاف لغاتها، وتباين مطالبها..."[3]، فهذه الأفعال الماضية تدل على أن السرد وقع بعديا، ولكنه من حيث الزمن الداخلـي فهـو خطاب تزامني يصف فيه السارد الحال التي كان عليها هو أو من يسرد

[1] – أبو سالم العياشي، ج1، ص: 190.

[2] – نفسه، ص: 191.

[3] – نفسه، ص: 194.

* - المستوطرة من الوطر، أي طالب الحاجة.

أحداثهم، ومن ذلك قوله: " وقد طلعنا إلى فوق منزلنا بسطح الجبل نشرف منه على منازل الحـاج كلها وبقينا هناك في ليلة مقمرا مطربة مزهرا كأنها نهار مشمس، قد شابه زهر الربـى نتمـتع بـرؤية تلك العجائب، ونستمطر رحمة الله من كل جانب، وصلينا هناك المغرب والعشاء ولم ننزل من ذلك المحل حتى ذهب هزيع من الليل، وبتنا تلك الليلة في أرغد عيش بارد، وأصفى سرور وارد لولا تشويش السراق علينا..." [1].

2- الاسترجاع: في هذه المتتالية نجد أنواعا من الاسترجاعات منها:

أ- الاسترجاع الداخلي: قـال السارد: " دخلنا مكة عشية يوم السبت خامس يوم من ذي الحجـة وأول يوم من السمائم كفانا الله شر حرها، ودخل الركب المصري قبلنا في اليوم الـرابع ودخـل الركب الشامي في السادس، وبعضه في السابع. وكانوا لقوا من الحرامية شـدة في الطريق حتى كادوا أن يتعوقوا، ودفعوا للأعراب مالا كثيرا نحوا من مائة ألف بعدما انتهب من ركبهم كثير، وقتل أناس..." [2]

بعـد الدخول إلى مكة عاد إلى ما وقع قبلها عن طريق الاسترجاع، فذكر زمن دخول الأركـاب ثـم ذكـر الأهـوال التـي لقيتها الأركاب في الطريق من قبل قطاع الطرق واللصـوص ... وكل ذلك وقع في الزمن الداخلي للرحلة، لذا نعتبره استرجاعا داخليا يسد ثغرا تخص أهوال الطريق وما يعانيه ركب الحج من متاعب بدنية ومالية...

ب- الاسترجاع الخارجي: قد يرد الاسترجاع ويمتد إلى ما قبل زمن بداية الرحلة كقول السـارد: "... ولم تزل الإمارة في أسلافه منذ أعصار متطاولة، وأسلافه هم المشهورون بـآل أبـي نمـي، وهو بطن من أبي حسن، وإخوانهم بنو حسن لهم إمرة المدينة، وولاية الحجاز الآن بأطرافه من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة..."[3]

فهذا الاسترجاع يمتد إلى زمن خارج زمن بدء الرحلة، ثم إلى النقطة التي توقف عندها السـرد ثم يمتد إلى ما بعدها، وهو يزودنا بمعلومات تخص شخصية أمير مكة، فبعد أن وصفه وأثنى عليه ذكر أسرته وعلاقتها بسياسة البلاد منذ أزمان بعيدا لئلا يتوهم القارئ

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 202.

(2) – نفسه، ج1، ص: 190.

(3) – نفسه، ج1، ص: 200.

أنه أمير حديث العهد بالحكم...

ومـن الاسـترجاعات الخارجية الممتدة قوله: "...وبتنا تلك الليلة بمنى ولم يبت بها إلا المغاربـة وقليل من غيرهم، وكثير من الناس ذهبوا إلى عرفات، وذلك دأبهم منذ أزمان. فقـد قال الحطاب وهذه السنة أعني المبيت بمنى هذه الليلة قد أميتت منذ أزمان، وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين كابن رشيد والعبدري، ومن بعدهما، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك..." (1)

يـتحدث السارد عن المبيت بمنى ليلة التاسع، وليؤكد أن ذلك سنة تكاد تنسى رجع إلى التقـييد الحطاب ليثبت سنيتها، ثم أشار إلى ما ذكر الرحالة منذ القرن السابع والثامن وقد امـتد الأمـر إلى زمن العياشي في القرن الحادي عشر من الهجرة، فالاسترجاع خارجي ممتد يهدف إلى توضيح ما يتعلق بموضوع ما " وهو المبيت بمنى ليلة عرفة "

ومـن الاسترجاعات ذات العلاقة المكانية قوله: "... وهذا المسجد أعني مسجد الخيف يسـمى مسجد علي، قيل إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من بناه، وهو موضع منـزل النبـي صـلى الله عليه وسلم وأصحابه في حجة الوداع، وطول هذا المسجد من المحـراب إلى الباب الذي يقابله أربعمائة قدم وعرضه ثلاثمائة وأربعون، وقد رأيت قبل هذا [أي هذا العام] في إحدى سواري هذا المسجد مكتوبا ما أظن أن نصه هذا:

أيها الغـائبون بالـجـودوا لغـريب بدعوا إن قدمتـم

كان من قبل هاهنا مثل ما قد كنتم حاضرا كما قد حضرتم

وتحته مكتوب ما نصه:

قد حضرنا بذا المكان وغبتم وشهدنا به كما قد شهدتـم

وذكرناكـم بكل جميـل فاذكرونا بمثله إن حضرتـم(2)

فهذا الاسترجاع خارجي محدد بالنظر إلى المعلومة الخاصة بالإمام علي وكونه موضع نـزول النبـي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حجة الوداع، ذلك أن زمن حجة الوداع معروف، أما قوله: " وقد رأيت قبل في إحدى سواري هذا المسجد..." فهو استرجاع مبهم

(1)- المصدر السابق، ج1، ص: 193.

(2)- نفسه، ج2، ص: 204-205.

لأن الظرف قبل مبهم وسواء فهمنا " قبل في إحدى السنوات" أو في" إحدى الزيارات" في هذه الحجة فالإبهام قائم لذا يمكن تسميته بالاسترجاع المزجي، وهذا النوع كثير.

والملفت للانتباه فيه هو التواصل والتناص عن طريق أبيات مكتوبة على سارية داخل هذا المسجد، وهذه التقنية توجد في رحلة العياشي بشكل واسع قياسا على غيرها. وهذا الاسترجاع الشعري يدور حول موضوع الحضور والغيبة والدعاء في هذا المكان الشريف لهذا نجد تقنيات السرد تتداخل وتتعالق بشكل يصعب على الدارس تتبعه.

من خلال هذه المتتالية وجدنا أنواعا من الاسترجاع منها الداخلي والخارجي والمزجي ومنها المتعلق بالمكان وبالشخصية وبالموضوع. وكل استرجاع أدى أغراضه المتوخاة منه وإن كانت لا تتعلق باستمرار مسار السرد المتخيل وهي استرجاعات ذات علاقة متينة جدا بالبنية ونظامها في الربط بين أجزاء السرد.

3- الاستباق: لم يكتف السارد/ الشخصية في هذه المتتالية بالاسترجاع و إنما سرد خطابات استباقية من ذلك ما ذكره من كثرة الذبائح يوم العاشر وما يتخذه الفقراء من اللحوم وما يبيعونه بأزهد الأثمان... قال : "...فأقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريبا من ذلك في قفولي من الطائف فوجدت به عددا كثيرا من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تمس إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها..." (1).

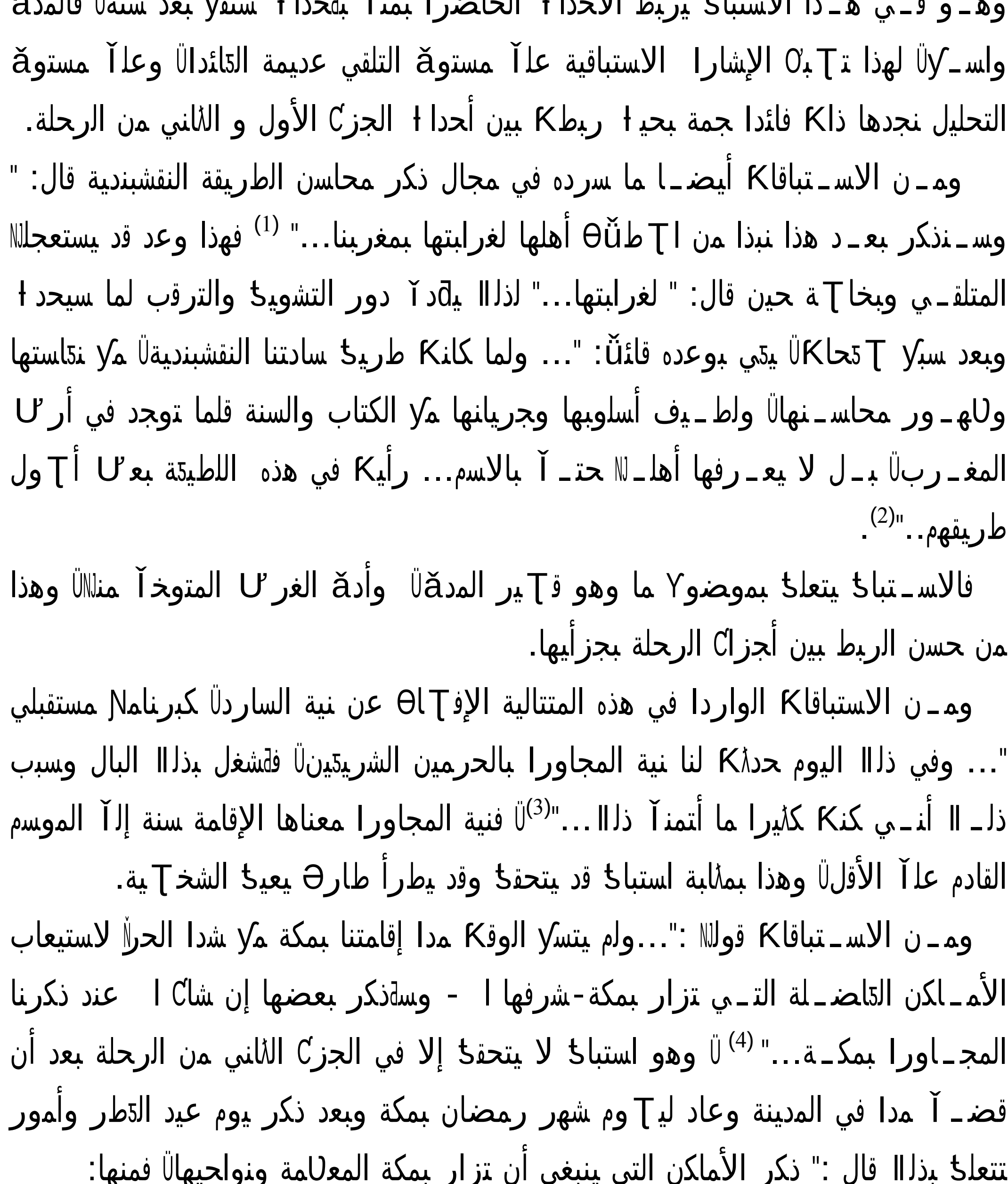
فالنص مسرود بالأفعال الماضية " لقد مررت " ولكن بعد سنة أو قريبا من ذلك يجعل النص خاصا للمستقبل وبخاصة حين ذكر الرجوع من الطائف، وهذا وقع بعد أن قرر المجاورة وخلالها زار الطائف، فالسرد على مستوى الرحلة لم يصل إلى هذه المرحلة بعد. فهو استباق داخلي يشير إلى أحداث ستقع بعد في الجزء الثاني(2) أي بمدة ثلاثمائة وثلاث وسبعين صفحة، ولا يذكر هذه الحادثة في الجزء الثاني مباشرا وإنما يقول: " ومن رأى منى وما حولها من الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تنبيه من قال : " من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الركب بعد ارتحاله..." (3)

---

(1) – المصدر السابق، الرحلة، ج1، ص: 198.

(2) – نفسه، ج2، ص: 125.

(3) – نفسه، ج2، ص: 125.



وهـو فـي هـذا الاستباق يربط الأحداث الحاضرة بما ستحدث بعد سنة، فالمدة واسعة، لهذا تعتبر الإشارات الاستباقية على مستوى التلقي عديمة الفائدة، وعلى مستوى التحليل نجدها ذات فائدة جمة بحيث تربط بين أحداث الجزء الأول و الثاني من الرحلة.

ومـن الاسـتباقات أيضـا ما سرده في مجال ذكر محاسن الطريقة النقشبندية قال: " وسـنذكر بعـد هذا نبذا من أخبارهم أهلها لغرابتها بمغربنا..." [1] فهذا وعد قد يستعجل المتلقـي وبخاصة حين قال: " لغرابتها..." لذلك يؤدي دور التشويق والترقب لما سيحدث وبعد سبع صفحات، يفي بوعده قائلا: "... ولما كانت طريق سادتنا النقشبندية، من نفاستها وظهـور محاسـنها، ولطـيف أسلوبها وجريانها على الكتاب والسنة قلما توجد في أرض المغـرب، بـل لا يعـرفها أهلـه حتـى بالاسم... رأيت في هذه اللطيفة بعض أصول طريقهم.."[2].

فالاسـتباق يتعلق بموضوع ما وهو قصير المدة، وأدة الغرض المتوخى منه، وهذا من حسن الربط بين أجزاء الرحلة بجزأيها.

ومـن الاستباقات الواردة في هذه المتتالية الإفصاح عن نية السارد كبرنامج مستقبلي "... وفي ذلك اليوم حدثت لنا نية المجاورة بالحرمين الشريفين، فتشغل بذلك البال وسبب ذلـك أنـي كنت كثيرا ما أتمنى ذلك..."[3]، فنية المجاورة معناها الإقامة سنة إلى الموسم القادم على الأقل، وهذا بمثابة استباق قد يتحقق وقد يطرأ طارئ يعيق الشخصية.

ومـن الاسـتباقات قوله :"...ولم يتسع الوقت مدة إقامتنا بمكة مع شدة الحر لاستيعاب الأمـاكن الفاضـلة التـي تزار بمكة-شرفها الله - وسنذكر بعضها إن شاء الله عند ذكرنا المجـاورة بمكـة..." [4]، وهو استباق لا يتحقق إلا في الجزء الثاني من الرحلة بعد أن قضى مدة في المدينة وعاد ليصوم شهر رمضان بمكة وبعد ذكر يوم عيد الفطر وأمور تتعلق بذلك قال :" ذكر الأماكن التي ينبغي أن تزار بمكة المعظمة ونواحيها، فمنها:

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 206.

(2) - نفسه، ج1، ص: 213.

(3) – نفسه، ج1، ص: 206

(4) - نفسه، ج1، ص: 242.

غار جبل ثور..."[1].

ونلاحظ أن السارد لم يذكر بوعده السابق بل شرع مباشرا في ذكر الأماكن التي ينبغي أن تزار. ومن جهة أخرى نلاحظ أن المدى واسع جدا بين الاستباق في نقطة وعده ونقطة تنفيذه إذ يبلغ الحجم الورقي 316 صفحة وهذه المسافة بعيدا جدا مما يجعلنا نستنتج نقطتين الأولى: أن وظيفة الإدارا والتنسيق محكمة يضبطها السارد بدقة وهو على دراية بما يجري في متن رحلته فيقدم ما ينبغي تقديمه ويؤخر ما يراه أهلا لذلك.

ثانيا: الاستباق يفقد الوظيفة الإيثارية " التشويقية " لكون القارئ يكون قد نسي هذا الوعد ولكنه يقوي الثقة بينه وبين القارئ فيسترخي لهذه الوعود التي تتحقق باستمرار ويصعب على الدارس تحليل الوحدات بالكيفية نفسها لذا يمكن الاقتصار على ما قدم للدلالة على أن تقنية التشكيل الزمني في عنصر الترتيب الخاص بالتوازي والاسترجاع والاستباق ظاهرا عامة يمكن إيجادها في كل نص مسرود وتؤدي أغراضا متعددا.

أما على المستوى الكلي للرحلة فإن التتابع هو القانون الزمني المتحكم في السرد لكونه يرسم خط السير الأفقي.

ب- التتابع في الرحلة الغزالية:

تنطلق الرحلة الغزالية على مستوى الأحداث والخطاب في خط أفقي. على مدى سبعين "70" وحدا تخضع للزمن الطبيعي كما أنجز في الواقع ماعدا هذه الأخبار التي يوردها السارد عن جهود السلطان الإعمارية والجهادية فقد كانت سابقة من حيث الفعل والخطاب ووقعت كمقدمة.

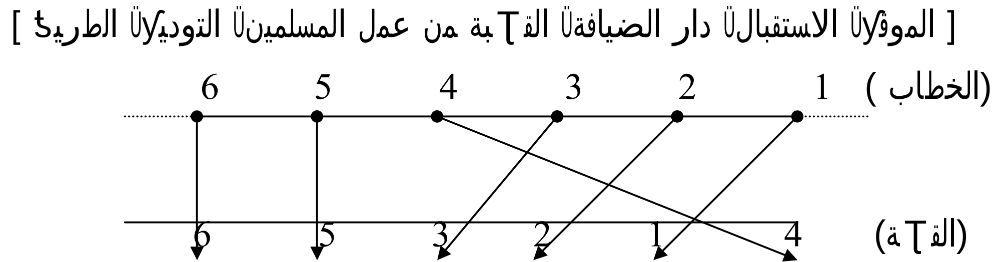
الحدث --◄

الخطاب ....◄

أما المفارقات الزمنية فموجودا داخل الوحدات إذ كل وحدا صغرى تشتمل على وحدات أصغر ففي هذه الوحدات الأصغر يمكن أن تحدث المفارقات الزمنية كما في الوحدا الثالثة " الخبر عن مدينة طريفة "

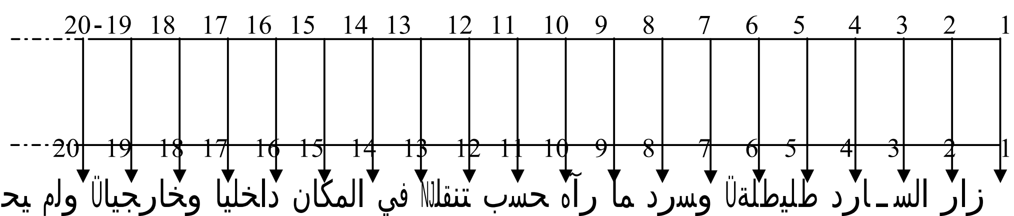
---

(1) – المصدر السابق ج2 ص: 102.



ولكـون الخط قد انكسر بالعودة إلى الوراء فإن الترتيب في معظمه قد اختل ماعدا رقم [5 و6] والعودة إلى الزمن الماضي تشمل غالبا الإشارة إلى ساكني الأندلس من قبل عن طـريق الآثـار التي تركوها. ففي هذا الشكل لا نستطيع أن نحدد تاريخا معينا نعود إليه ولكـن بناء القصبة من قبل المسلمين كان قبل زيارة السارد للمنطقة، وحتى هذه الوحدات التـي تشـتمل شـيئا من أعمال المسلمين قد لا يسردها السارد بتقنية الاسترجاع، وإنما باعتـبار أنـه زارها وزيارته حدث من الأحداث مثل الوحدات الثلاثين " الخبر عن مدينة طليطلة " ص (163-170)

1- مـوقعها 2- طـبقات دورها 3- أزقتها 4- مثقفا أهلها 5- النزول بدار خيرات 6- زيـارة جامعهـا 7- بـناؤه وسواريه 8- قبة بالوسط 9- صور وآلات موسيقية وخـزائن 10- تماثـيل فضـية 11- منارات 12- زجاج النوافذ عراقي 13- أبواب الجامع 14- منارة المسجد 15- الناقوس المستعمل في المسجد 16- أشجار بصحن المسـجد 17- زيارة لآثار المسلمين المختلفة: [أ- المقبرة ب-الديارة ج- القصبة د- المـنارات هـ - صـعود الماء.] 18- أرجاء المدينة 19- الأهالي وصناعة الحرير 20- ميلهم للمسلمين. هذه الوحدات يمكن أن نرسم لها الشكل التالي:



زار السـارد طليطلة وسرد ما رآه حسب تنقله في المكان داخليا وخارجيا، ولم يحدث أي انقطـاع، وحتى الوحدة الواحدة والعشرين هي حدث أنجزه ضمن النسق الزماني في المتوالـية كلها، وما العودة إلى ذكر ديار المسلمين إلا كقصة متضمنة من الدرجة الثانية وقعت من حيث زمانها قبل الرحلة وأحداثها [أ، ب، ج، د، هـ] وهذا التضمين كثير في



الرحلة بهذا الاعتبار المذكور، وليس من باب الاسترجاع التاريخي.

ومـن خلال النموذج السابق نستنتج أن الترتيب في هذه الرحلة تتابعي خطي أما داخل الوحدات فيخضع لنوع آخر من التنظيم.

1- الحـاضـر: يشـير السارد كثيرا إلى الزمن الحاضر بالألفاظ الدالة على ذلك كقوله: " ومـنذ ذلك الوقت وهم مجدون في العسة والحراسة إلى ***الآن***..."[1] ، أو كقوله:"فنمر في الحـال بمكاتبة عمال المدن التي نمر بها، وأمرهم بمباشرتنا والبر بنا أكثر مما كان في العبور الأول..."[2] فالأمر صدر إلى العمال في الوقت الذي يتواجد فيه السارد مع الحاكم، وبذلك نعتبره سردا متزامنا.

ويكثـر السـرد المتزامن فيما يتعلق بالاستقبالات واللقاءات مع الشخصيات الهامة في البلد كقوله حين استقبل الوفد من قبل الملك الأسباني: "... فلم نلبث إلا والطاجية مقبل هو وأخـوه في كدش واحد، وفي إثره أكداش حاملة لأولاده، فنزل عن الكدش * وأخذ بيدي وهش وبش وجعل يرحب على لسان الترجمان، ومن جملة ما قاله أن هذا اليوم..."[3]

كما يرد التوازي في أوصاف الأوضاع والهيئات والآثار، ومن ذلك قول السارد: "ولنذكـر كيفية تسراد الشلالات... على ما شاهدناه عيانا... " واضح أن مثل هذه السرود آنـية، ومثلها السرود الخاصة بالحفلات التي تقام على شرفه كقوله: " وقد بعث في الحين لأهـل الموسيقى، وأحضر أعيان البلد، الحاكم والقاضي، ومن دونهما، وأوقدوا من الشمع العدد الكثير، فما شعرنا إلا ودخل علينا من النسوا والبنات ما يقرب من المائة وقد أخذن نصيبهن من الحسن، وفيما يغلب على الظن أنهن منتخبات من بنات المدينة..." [4] والسرد التزامني ممتع في الرحلة الغزالية ومتعدد وبخاصة في المواقف المباشرا كقوله:"...وجعل يسـألني: هل أعجبني غناؤهما، وكيف كانت المغنيتان، فشكرتهما له حتى أني قلت له: لم

---

(1) – المصدر السابق، ص: 51.

(2) – نفسه، ص: 43.

(3) – نفسه، ص: 138.

* - أكداش، جمع كدش: عربة.

(4) – نفسه ص: 62.

أسماء وتأمل وتهمان ولا رأيت من يشاكلهما في الحسن، فانشرح لذلك وجعل يعرف الحاضرين بما أجبته به..." [1].

ويمكن القول أن الزمن في الرحلة، فيه ما يجعلنا نعيش الحدث كأننا حاضرون، ومنه ما ينقلنا إلى المستقبل البعيد أو القريب، ومنه ما يرجعنا إلى الماضي، وقد تختلط هذه الأزمنة في خطاب قصير، والسياق هو الذي يحدد الصيغة الزمنية للسرد، إذ أن الصيغ الزمنية اللغوية، لا تحمل دلالاتها باستمرار، وإن كانت من المؤشرات التي يعتمد عليها في التحديد، بالإضافة إلى القرائن السياقية.

2 - الاسترجاع:

ويتعلق الاسترجاع بالترتيب السردي وهو عودة إلى أحداث قبل النقطة التي وصلها السرد، ويكون ذلك لأغراض سردية، إلا أننا حين نتحدث عن الاسترجاع نقصد به ما يظهر وكأنه عودة إلى الوراء. وليس ما يتعلق بالماضي كله، ذلك أن الغزال قد يسرد ما وقع في المستقبل سردا ماضيا كقوله: " ومن الغد ذهبنا لإخواننا المؤمنين بخمسة أعربات مشحونة بأسارى المؤمنين فلما أقبلنا عليهم ضجوا ضجة واحدة معلنين بالشهادات، ناصرين مولانا المؤيد بالله تعالى فنزل من الغراب الأول من فيه من المسلمين فسلمنا عليهم ورحبنا بهم وأخبرناهم بأن سيدنا مجتهد في خلاصهم..." [2]

فقوله "ومن الغد" يجعل الخطاب استقباليا، وهذا باعتبار زمن الكتابة الذي وقع بعد الرحلة. وليست من الاستباق كما يفهم من هذه الألفاظ التي كثر ورودها في الرحلة.

ومن الاسترجاع الفعلي قوله:

" ومنذ ذلك الزمن وهم مجدون في العسة والحراسة إلى الآن، ومما يتعجب به أن العسة داخل أبواب المدينة لا ينامون ولا تفارقهم عدتهم... خوفا من الإسلام. والسور الموالي للبحر فائدته ونتيجته بينة ظاهرا وأما فائدة للعاس داخل الأبواب الموالية للمدينة، والأبواب مغلقة أمامه وخلفه ومبيته على قدميه ويده على زناد مكحلته متهيئ لإخراجها، فهذا واضح دليل على ما هم فيهم من الجزع والفزع..."[1]

---

[1] – المصدر السابق، ص: 70.

[2] – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 182.

[1] – المصدر نفسه، ص: 51.

والغرض من هذا الاسترجاع الخارجي، أن يخبرنا عن الصراع بين الأسبان والمغاربة حول مدينة " سبتة "، من عهد بعيد. فالاسترجاع يذكر بتاريخ قديم حافل بالأحداث ترمز إليه حادثة رمي الأبواب بمدافع مولانا إسماعيل حيث أبقى الأسبان " أثر كرا حرقت الباب " وسموا الباب بباب الكرا ويذكرون أبناءهم بذلك ليربوهم على عداوة الإسلام "[2].

ومن الاسترجاعات قوله: " ومن جملة ما أخبر به عن طاغيته أنه أمره أن يقيم بنا في كل مدينة ثلاثة أيام للاستراحة وعين له المدن التي يكون المرور عليها، وأن يسير بنا ليلا خشية الحر..." [3]

الغرض من هذا الاسترجاع الداخلي هو كشف خطة الملك الأسباني في استقبال وفد المغرب وكيفية الترحاب به وما إلى ذلك، أما من حيث المدة فهو قصير إذ وقع الكشف عن هذه الخطة فور لقاء الضابط المكلف بالمهمة بالوفد وبعد الاجتماع مباشرا.

ومن الاسترجاعات التي يكثر نوعها قوله: " ولما زادوا على البنيان الإسلامي من خارج السور، بقي السور داخل بنيانهم المحدث، في غاية التلاشي، وما هو من البنيان داخله وخارجه في جدا وإتقان، وأثر هذا السور أبقوه على حاله شاهدا على أن البلاد كانت للمسلمين.." [4]، يعود الاسترجاع الخاص ببناء السور إلى زمن خارجي غير محدد، ولكنه يشير إلى فترة وجود المسلمين في هذه المدينة " شريش " فالمدة بعيدة، والغرض التذكير بما كان للمسلمين، وبموقف الأسبان من آثارهم. ومثل هذه الإشارات إلى الآثار مستفيضة وهي غير مثقلة بالتاريخ تؤدي غرضا تبليغيا لما هو عليه الوضع بعد زمن الإسلام. وقد يشير إلى تلك الفترة بشيء من الافتخار المكسو بالأسى العميق كقوله : " قيل إنه كان على شط هذا الوادي مقاعد وأخبية معدا للنزهة على عهد المسلمين رحمهم الله وبعدهم، وقد اندرست تلك المراسم وبادت ولم يبق إلا الآثار من الجدران فقط..." [5]

إن الغرض من الاسترجاع هو الاعتزاز بأن للمسلمين ذوقا رفيعا في إقامة حدائق النزهة على شواطئ الأودية، ويتأسف لذهاب تلك الحدائق التي بقيت أطلالا، والسارد في

---

[2] – نفسه، ص: 51.

[3] – نفسه، ص: 61.

[4] - نفسه، ص: 67.

[5] – نفسه، ص: 92.

استرجاعا تاريخيا بالحجاز فهو يسترجع ما للمسلمين وما لغيرهم كقوله عن مدينة لاكرانخة(Lagraja) " هي إحدى الديار الأربعة التي يسكنها الطاغية في الفصلين المعلومين. في الصيف والخريف لطيب هوائها وعذوبة مائها. غير أن هذه أفضل عنده إذ أن والده هو الذي ابتدعها بعد أن تخير في الأرض الطيبة الهواء فلم يجد بدا من هذ شواهق عظيمة وقد برع المهندسون في التشييد بجزائها..." [1]

يعود الاسترجاع إلى خارج زمن الرحلة ويتعلق بمكان لاكرانخة والغرض منه إمداد فجوا وتزويد بمعلومات تاريخية حول هذه الإقامة الخاصة بالملك لإعجاب السارد بها. ومن هذا النوع ذكره سبب تشييد إحدى الكنائس: " ... أن أحد طغاة الإسبنيول وهو قلب كورة ذهب لحصار مدينة من مدن الإفرنص أقام على حصارها زمانا ولم يحصل منها على مراده وقد نصب عليها مهاريس ومدافع فحالت بين المدافع وبينها كنيسة عظيمة ولما طال حصاره لها ولم يجد بدا من هدم الكنيسة الحاجبة للمدينة عن رمي المدافع بعد أن نذر أنه يجعل كنيسة عوضا عنها على صفة لم تعهد من قبله ولا يقدر أحدا أن يشيد مثلها بعده. ولما حصل على مراده شرع في تشييد هذه الكنيسة وسماها باسم البرايلي الذي كان بها في الوقت اسمه إشكوريال وصوره على أحد أبوابها." [2]

إن السارد رجع إلى ذكر أسباب بناء مدينة "الأسكوريال" وهو رجوع إلى خارج زمن الرحلة يفيد الإشادة بعظمة بنيان هذه الكنيسة ومدى إخلاص الأسبان لنذورهم الدينية كما يشير إلى كونهم يستبيحون المقدسات إذا اعترضت مصالحهم الدنيوية ولكون الأسكوريال سارت في الآفاق شهرتها سد ثغرا تاريخية يرى فيها شيئا من الطرافة التي يحسن إيرادها وتذكير القارئ بها.

من هذه النماذج يمكن القول أن السارد اعتمد على تقنية الاسترجاع لغايات فنية وغالبا ما يكتفي بالإشارات السريعة كما ضمن رحلته استرجاعات خارجية وداخلية وهي في معظمها موضوعية متعلقة بالمكان لأن المتن الرحلي يقوم في تغيير بنياته على

---

(1) – المصدر السابق، ص: 125.

(2) – نفسه، ص: 147.

الانتقال من مكان إلى آخر. إن إيراد المفارقات الزمنية يلعب دورا في التنبيه والإثارات كما يؤدي وظيفة استكمال الناقص أو غيرها من الوظائف المنشطة لعملية القراءة.

3- الاستباق:

يؤدي الاستباق وظائف عديدا أهمها في رحلة " نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد..." دور الإنباء" الذي يخلق نوعا من الانتظار لدى القارئ ويعتبر بمثابة وعد يترقب إنجازه. ومن ذلك أن حاكم سبتة بذل جهده في الاحتيال ليمر الوفد "... ببلدته والورود عليه بذل الجهود في إكرامه إيانا وأن نشاهد من إكرامه ما يدل على محبة طاعته عيانا بذلك وقد شاهدنا مصداق ما حدث به لما حللنا هنالك ". فالاستباق سريع يتعلق بذلك حاكم سبتة وما قام به من إكرام للوفد تملقا لملك أسبانيا والراوي يؤكد ذلك عن طريق ما سمعه من حاكم سبتة وهو يتحدث مع الملك حينما وصل الجميع إلى العاصمة الأسبانية وهذا الاستباق بعيد المدى من سبتة إلى لاكرانخة [ص: 47-127] ولم يذكر السارد هذه الحادثة في حينها بل نسيها مما يجعل الاستباق إخباريا ويسد ثغرا تتعلق بالشخصية.

والاستباق الذي لعب دورا فنيا في الرحلة هو الذي تنتهي به كل وحدة كقوله: " فسافرنا مصاحبين السلامة قاصدين مدينة طريفة... على اثني عشر ميلا " (1). ثم يحدثنا عن مدينة "طريفة" كقوله: " أقمنا بها [مدينة] ثلاثة أيام وسافرنا مصاحبين السلامة قاصدين مدينة خرير "شريش" وذلك آخر يوم من ركوبنا الخيل لفلوات الأرض " (2) ثم يأتي الخبر التفصيلي عن مدينة خرير "شريش" والملاحظ أن الصيغة قد لا تكون استقبالية لكن التقليد المتبع من السارد هو أنه في نهاية كل مرحلة يشير إلى المرحلة القادمة وهذا شبه إعلان عما سينجزه في خطته القادمة بغض الطرف عن الصيغة اللغوية.

وفي الجملة فإن هذا النوع من الاستباق هو خلق لوحدة وفتح لأخرى فهو بمثابة الحلقة الواصلة بين قطبين ويكتسي ذلك فنية وقد التزم من أول الرحلة إلى نهايتها.

---

(1) – المصدر السابق ص: 58.

(2) – نفسه ص: 66.

وقـد يتداخل الاستباق مع الاسترجاع مثل " وسافرنا قاصدين مدينة طليطلة عن واحد وعشرين ميلًا، وقد كنا في غاية الاهتمام بها، ومنها في الخاطر شيء كثير، حيث عرجنا عليها حال العبور لمدريد، ولم يساعدنا الوقت في الدخول إليها، وكان القصد منا بالوصول إلى طليطلة أن نتعاهد الأماكن التي كانت للمسلمين، ونحيي معاهدهم، ونقف على مقابرهم، ونترحم عليهم ونعبر جامعها الأعظم، ونبحث عما هنالك من الكتب العربية وما نجـده بالموضع الذي لا يناسبه، ننقله للموضع اللائق به الحافظ له من لمس الكفرة فضلًا عـن أن يطئوه، لأن الطاغية فوض الأمر في ذلك واستحسن منا ما فعلناه بقرطبة من قلع اللوحتين من الرخام كانتا بالأرض ورفعهما بعد على سور المسجد، وقد اعتذر بعدم المعرفة بما هنالك من الرذايلة وغيرهم"[1]، نقلنا النص على طوله لما فيه من تداخل هذا الاستباق الذي يأتي كتعليق لما سيأتي " وسافرنا قاصدين مدينة طليطلة..." والخطة التي عزم على إنجازها في طليطلة " وكان القصد منا...أن نتعاهد..." ثم الاسترجاع الذي يثمن ما قام به السفير في قرطبة "واستحسن منا ما فعلناه بقرطبة..." وهو يعود بنا إلى الخلف على مدى (60 صفحة) إلى الوراء أي إلى (ص :102). ثم الاسترجاع: " وقد اعتذر بعدم المعرفة بمـا هنالك..." كان ذلك في أول لقاء مع كارلوس الثالث كما يفهم ضمنيا (ص :128) أي على مدى حوالي (30 صفحة) للخلف، وبذلك يكون هذا الاسترجاع قد أدى دور التذكير، والتثمين لما قام به السفير.

: ةǾǮÊǾơƷǸǇا ةǪƒƐال Ǽə-ĸȿمƘƱ

سردية الرحلات طبيعية في معظم أجزائها لكونها تهتم بالحدث والخبر كما وقعا وهما خاضعان للحركة والتنقل، إذ بنية السفر هي السدى الذي تنتظم فيه كل اللحم.

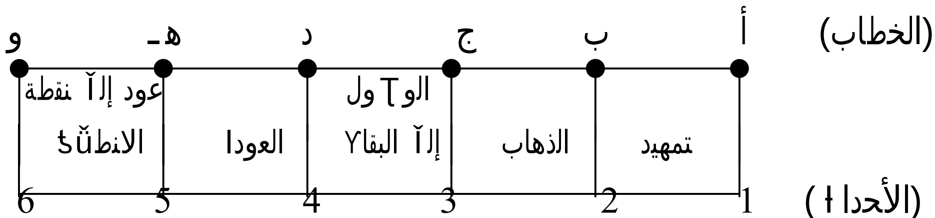
وفـي الوقت نفسه تتضمن الرحلات نصوصا تنتمي إلى السردية المصطنعة [2]، وإن كان خط التخييل ضئيلًا في الرحلات التي نحن بصددها.

ومن خلال القراءة تبين لنا أن الزمن في الوحدات الكبرى تتابعي كغيرها من الرحلات

---

[1] – المصدر السابق، ص :163.

[2]- أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط1 سنة:1996. ص :88.



ترتيبها طبيعي أفقي. أما الوحدات الصغرى فلها ترتيب وفق ما يراه السارد ويتطلبه السياق، إذ بمجرد ما يدخل السارد مدينة يبدأ في ملء وحدته بما يتوافر لديه من أحداث وأخبار وحكايات...

وكمثال على ذلك نقدم الوحدة " السادسة والعشرين " كنموذج للدراسة الزمنية من حيث الترتيب، وهي بعنوان " الخروج من المدينة والعودة إلى مصر" [1]، فهي من حيث الحجم تشتمل على ثماني عشرة صفحة، متوسطة الحجم بالقياس إلى وحدات الرحلة، ومقسمة إلى وحدات صغرى ووحدات أصغر كالتالي:

متوالية الخروج من المدينة والعودة إلى مصر

1. أبيار علي (دخول الركب) ص 532 .
2. الخروج وقت طلوع الفجر (الشوق إلى الأهالي) ص533.
3. النزول في الصفراء ص533.
4. العثور على الشيال الذي هرب منه قبل. ص533.
   - البحث عنه في بدر.
   - شكوى أمره لأمير الركب المصري.
   - وإلى آغا عسكر الركب المغربي.
   - رفض الورتيلاني لحكمهما وندمه.
   - الإمساك به وتركه في خيمة عبد الرحمن بن قرة ص534
   - فراره عندما أقاموا الصلاة واختفاؤه ص534
5. بقاء الورتيلاني وابنه وراء الركب. ص534
6. التحاقه بركب سيدي محمد بن القاضي ص535

[1] – الورتيلاني، الرحلة، ص: 532-546.

- لقائه بأحد أقاربه والتعريف بأحمد زروق ص 549
- سرد حكاية عن طفولة أحدهما
- حكاية طاجين السيد عبد العزيز ص 550

19. هجوم اللصوص وأخذهم لأموال الحجاج ومنهم تركي من بسكرة. ص 551

- البحث عن جرارة ضائعة وإعالة رجلين من زواوة ص 551
- مواجهة اللصوص بالسلاح وشجاعة الرجال ومن معهم ص 552

إن هذه الوحدة قائمة على عناصر التنقل وتداعيات الطريق ومشاقه. وما يولده ذلك من سلوكات. وقسمت إلى تسع عشرة وحدة صغرى متفرعة إلى وحدات أصغر مبنية على التوازي في معظمها والتدرج المكاني وهناك وحدات أخرى متولدة عن وحدة أساس مثل " العبور على الشيال " تتفرع إلى وحدات أصغر كلها تخص علاقة السارد وتصرفه مع الشيال بعد أن عثر عليه وما تولد عن ذلك من شكواه لأمير الركب، كما يمكن أن تشتمل وحدة صغرى على وحدات أصغر، عبارة عن خواطر وسلوكات يقوم بها السارد، فيربط الرابط بينها هو ذات السارد نفسه مثل المحافظة على الصلاة...

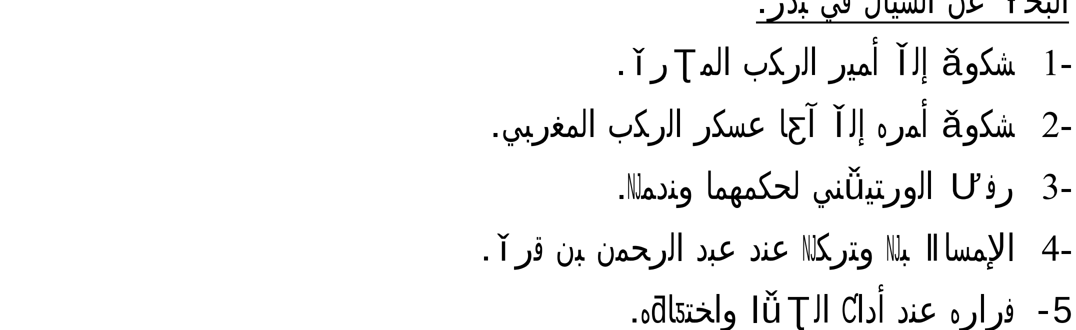
وهناك وحدات خاصة بتقييم بعض الناس مثل أهل عامر في ركب الجزائر (الوحدة الحادية عشرة)

كما توجد وحدات ضامة لعناصر تاريخية بسبب ذكرها خبر أو حادثة أو لقاء شخص كذكر عدد بايات مصر أو ذكر التعريف بالشيخ أحمد زروق وبعض الحكايات، ورغم تنوع هذه الوحدة وتفرعها فإن الرابط السببي قوي، فضلا عن رابط المكان، والمتحكم قلة الأخبار التاريخية في هذه الوحدة. مع كون الوحدات في معظمها تنغلق بالنزول، وتنفتح بالرحيل، وتملأ بما يناسب من خطابات وصفية أو سردية أو حوارية، وهي عناصر متماثلة ومتوالدة، ومتفرقة، والجامع بينها قد يكون علاقة الحال بالمحل، أو علاقة المسبب بالنتيجة أو علاقة التداعي، لذا فالوحدة في نسقها الظاهر مترابطة بشكل سليم، ولكنها لا تشتمل على الخاتمة فهي مفتوحة لأن الطريق مفتوح على الاحتمالات، ولكن الدخول إلى المدينة يغلقها.

والسارد يتفاعل مع المسافرين وهم على فئتين: فئة تشعر أنها من شاكلة الرحالة تحب الخير وتعين عليه وتقدمه للرحالة وللآخرين وفئة من شاكلة مغايرة تنظر هي الأخرى إلى فروع أهل الركب ذوو السلوكات السيئة من الحجاج والشيالين والحمالين الذين يستأجرون بجمالهم أو بدونها لحمل أمتعة الحجاج واللصوص الذين يترصدون دون عودا الركب لينقضوا على الأطراف خطفا ونهبا وربما سفكا للدماء. وقد يشنون غارات على الأفراد والجماعات والسارد يتفاعل مع كل هذه الفئات بما هو لائق به كتحدث شيوخ الركب ورعا وفقها وكتحدث فرسان القوم شجاعة وحزما ويمكن القول أن وحدات الرحلة الورثيلانية محكمة البناء عموما فتأتي ذات بداية ونهاية مغلقة أو مفتوحة تغلق مرحلة وتفتح أخرى إلا فيما يتعلق بالتمهيد الذي يتميز ببنية خاصة.

وفي هذه الوحدة نجد أن السرد يبدأ بعديا يبدأ هكذا: " قال وأما نحن فقد انفصلنا بين الظهر والعصر وفقد كل واحد منا الاصطبار وزال منا الاختيار لأن العبد مجبور في قالب الاختيار... ولما نزلنا أبيار علي إذ هي أول منزلة بعد فراق المدينة الشريفة..." [1] ورغم أن السرد استرجاعي في ولادته إلا أننا نشعر أحيانا بتزامن الفعل والخطاب فالسارد لا يستعمل إلا الماضي وبخاصة في بداية الفقرات كقوله: " ثم بتنا تلك الليلة وافترقنا عند المغرب..." ثم أقام الركب المصري فيها إلى قرب الظهر أو كقوله:" ثم قال لي أحكي لك رؤيا..." ويستمر السرد على النسق من استعمال الماضي ويشعر القارئ أن الماضي السردي مرتبط بحاضر شخصية الرحالة وهو الحاضر الذي وصل إليه السرد نفسه. فمن حيث الترتيب نجده تتابعيا ولذا انعدمت المفارقات الزمنية بين محور الحكاية ومحور الخطاب وكأن الخطاب في وضع توافق زمني مع محور الأحداث. وهذه المطابقة تنسحب على معظم أجزاء الوحدة مع وجود بعض الاستثناءات التي يمكن إدراجها في المستويات الثانية للخطاب وفي الحكايات المتضمنة. أي أن وحدة ما قد تنظر إلى عناصر حكائية وخطابية كانت قد وقعت قبل مثل: الوحدة الصغرى (رقم5) المعنونة بـ: العثور على الشيال فهي تنظر إلى:

[1] – الورثيلاني الرحلة ص: 532.



البحث عن الشيال في بدر.

1- شكوى إلى أمير الركب المصري.

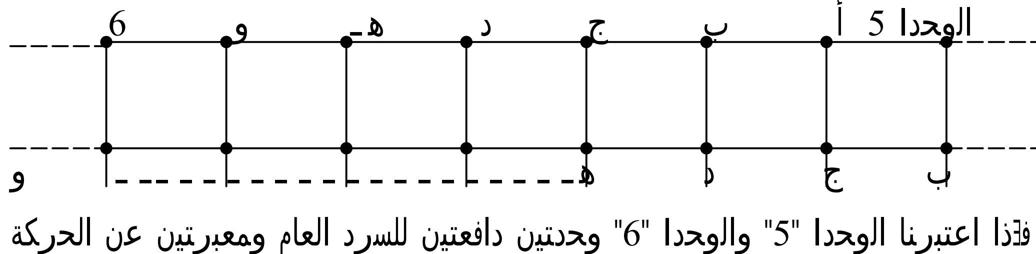
2- شكوى أمره إلى آغا عسكر الركب المغربي.

3- رفض الورتيلاني لحكمهما وندمه.

4- الإمساك به وتركه عند عبد الرحمن بن قري.

5- فراره عند أداء المناسك واختفاؤه.

فإذا وضعنا رسما تخطيطيا كان كالتالي



فإذا اعتبرنا الوحدة "5" والوحدة "6" وحدتين دافعتين للسرد العام ومعبرتين عن الحركة التتابعية الزمنية للسرد على مستوى الأحداث والخطاب، فإن الوحدات الأصغر (أ.ب.جـ.د.هـ.و) متفرعة عن الوحدة الأم (5) سردها السارد في زمن تتابعي فيما بينها، ولكنها استرجاعية بالنسبة لسير الرحلة. وهذا الاسترجاع يكسر الترتيب الزمني العام ويشتمل على مفارقة زمنية مداها هو زمن الخروج من مكة بعد أداء المناسك بفترة يسيرة، فقد ذكر هروب الشيال ***هناك*** وعاد إليه ***الآن*** بحجم ورقي بين النقطتين يساوي خمسا وثمانين صفحة من صفحات الرحلة المطبوعة. أما المساحة التي يستغرقها سرد الوحدات (أ.ب.ج.د.هـ.و) فهو صفحة. وهذا السرد المتفرع عن الوحدة الخامسة جاء هو الآخر تتابعيا ولم تحدث فيه مفارقات زمنية، وهو متعلق بشخصية الشيال ووضعيته موضوعية.

إن مثل هذه الاستطرادات كثيرا في الرحلة الورتيلانية مثل ما وقع بين الوحدة الصغرة الحادية عشر(11) والتي تليها (12) إذ طرأت على الرحال أزمة نفسية أهمته كثيرا، وهي هروب "الشيال" مما أنتج أزمة حقيقية تجلت في عدم قدرته على حمل أمتعته وأهله فهو في حاجة إلى معين. وكان الخطاب كالتالي:

- الوحدة 11 (المرور قرب الينبوع) وفيها:
  أ- المحافظة على تماسك الجماعة. ب- التقاؤه برجل.
  ج- اشتغاله بهروب الشيال. د- كرامة لولي بعود أراك.
  هـ- مفارقته له. و- بيعه للجمال دينا.
- الوحدة 12 (العزم على الإقامة بالينبوع)

ويأتي ترتيبها زمنيا هكذا: (أ. ج. ب. د. هـ. و). ويمكن تشكيلها كما يلي:



إن ما بين الوحدات قد يسرد في تتابع أو تحدث فيه بعض الانكسارات بالعودة إلى الوراء أو القفز إلى الأمام.

فما بين الوحدتين (11-12) استرجاع عن أخبار استطرادية تستغرق الماضي والحاضر والمستقبل في جملة قصيرة هي " المحافظة على تماسك الجماعة منذ خروجنا من بلادنا إلى أن رجعنا إلى بيوتنا." [1] وسرعان ما يحكي لنا حادثة وقعت في المكان نفسه إذ ظهر لهم شخص غير عادي " إنه أحد أصحاب الوقت إذ يعلوه النور..." ثم يحكي ما حصل بعد ذلك، فالحكاية المتضمنة تقع بين الوحدتين 11- 12، وتبتدئ باسترجاع مداه يعود إلى الخروج من الديار قصد الحج، ويستمر إلى نهاية سرد الرحلة فالمدى واسع جدا أما سعته فلا تتجاوز الجملتين السابقتين الممهدتين لإيراد كرامة يثبتها الورتيلاني، ويفتخر بها ويسردها بالتتابع (ب. د. هـ. و) ويتخلل ذلك هم مسيطر على السارد، وهو هروب الشيال. فكان العنصر أ-(المحافظة على التماسك) عنصر مبرر لظهور الكرامة، والاشتغال عنصر معيق لذهن السارد، فظهرت الكرامة لتخفف عنه همه قال: " كلما دنا مني [ظهور الرجل الذي يعلوه النور...] أصابني الرعب، ومع ذلك أسير مع أصحابي الفضلاء الذين أسير معهم على العادة المألوفة، والحال أني مشتغل في ذلك الوقت

(1) – المصدر السابق، الرحلة، ص: 537.

بالوÙائـف والأذكـار الواردا بعد Ţ lŭ الŢ بƠÙ نعم أخذتني شبǁ سنةÙ وأنا راكب علĬ بغلتـي متƼكر في أمر الجمال التي تركها الشيالÙ في يد Ĭ بƠن أسلمها أهلهاÙ فŢعب علي شراƇ الƼولÙ وكذا القيام بها إذ شغلني أمرها أتم شغلÙ بل تشو ţ خاطر Ĭ Ƴاية..."[1]

نƠŬÙ أن السرد في هذه ***النواة*** الŢغرă كان بالزمن الحاليÙ وهذا قليل بالنسبة لمتن الرحلة. فالزمن علĬ مستوă الوحداƘ الكبرă تتابعي كالزمن الطبيعيÙ أما داخلهاÙ فتمƠ بمـا يناسـب من سردÙ قد يكون تتابعياÙ أو متذبذباÙ وقد يكون متوازيا يسرده السارد عن طريǂ التعاقب بحيƮ يسرد متنا ما ƭم الذ Ĭ يوازيǁ حيƮ يŢعب الترتيب الزمني. كما في الوحدا الكبرă – دخول المدينة- فهي متƼرعة إلĬ تسƲ وحداƘ Ţغرă وتمهيد كالتالي:

- تمهيدÙ التهيƠ للدخول
1 . الدخول إلĬ الحرم الشريف.
2 . زيارا البقيƲ.
3 . ذكر مساجد المدينة.
4 . جبل أحد.
5 . الآبار القŢودا بالزيارا والاستشƼاƇ.
6 . Ţور من المدينة المنورا.
    - أحوال ومواجيد.
    - تعليǂ.
    - عاداƘ أهل المدينة.
7 . أودية المدينة.
8 . العزم علĬ المجاورا واحتجاج الركب علĬ ذاǁ.
9 . التوديƲ والبدƇ في الارتحال.

فالـوحدا الخامسـة والعشـرون – الدخول إلĬ المدينة- والوحدا السادسة والعشرون -العـودا مـن مŢـر- وحـدتان كبروانÙ متتاليتان زمنيا. وحين نحال الوحدا الخامسة والعشرين منƼŢلةÙ نجد زمنها Ƴير تتابعيÙ فالوحداƘ (التهيƠÙ الدخول إلĬ الحرمÙ زيارا

---

[1] – المŢدر السابǂÙ ţ :537.

البقـيع...) يمكـن أن تكون تتابعية مرتبة ترتيبا طبيعيا، لكون الوحدات الأخرى يصعب الـبت في ترتيبها من حيث زمن الأحداث، ويبقى الخطاب هو الفاصل. ذلك أنه ليس من الضـروري أن يبرزها الرحال بهذا الترتيب، وهو لم ينص على ذلك. ويبدو أنه نقل ذلك عـن غيره من الرحالين، وهكذا يمكن القول في كثير من الأحيان أن زمن الخطاب كان واضحا أما زمن القصة وأحداثها فمحاط بكثير من الالتباس.

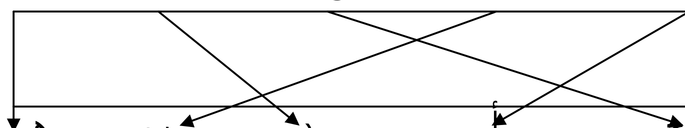
ولهذا نشير فقط إلى زمن الخطاب، وقانون التعاقب السردي الذي يتجلى في مثل هذه الأوضـاع، فحين سرد آبار المدينة ذكر: بئر أريس، بئر البصة، بير بضاعة، بير بيرحاء، بيـر رومـة، بير السير، بير غرس، آبار أخرى... وبتقليبها على عدة أوجه لم يتبين لنا سـبب تـرتيبها بهذا الشكل، ونتساءل هل كان ترتيبه تاريخيا، أم بناء على أهمية الآبار الزراعية، أم بناء على قربها من المسجد... أو كان الترتيب اعتباطيا؟

ومـثل هذا القول ينطبق على الوحدة الصغرى السادسة (صور من المدينة) في فرعها (جـ) المعنون بـ: عادات أهل المدينة. فخطابها مرتب بشكل سردي ما، ولكن أساس ترتيبها يمكن اعتباره اعتباطيا، لأنه لا يخضع للرؤية ولا للفعل سواء كان الفعل حدثيا أو حكائيا أو تاريخيا...

ونخـرج مـن ذلـك بخلاصـة مفادها أن الترتيب الزمني في الرحلة قائم بالفعل في المتتالـيات الكبرى وفي الوحدات الصغرى، أما ما تمثله الوحدات الصغرى من أقوال وأفعـال وأخـبار، فيصعب إخضاعه لمنطق منتظم، وبخاصة حين تكثر النقول وتوضع بجوار بعضها.

فـفي مـثل هذا يمكن دراسة الترتيب في الخطاب فإذا بحثنا عنه في محور "القصة" أعيانا البحث وعدنا بلا طائل، وهذا لا ينفي وجود وحدات صغرى أو وحدات أصغر تتخذ شكلا منطقيا زمنيا مما يمكن الوقوف عنده.

وفي الوحدة الثامنة – العزم على المجاورة- يمكن النظر إلى الوحدات كالتالي:



أ- العزم علآ المجاورا.

-ب مرض نسائه.

-ج تعريف بأولاد رحاب.

-د احتجاج الركب علآ عزم الورتيلاني.

هـ - تفضل كبار أهل الركب بشراء جمال للورتيلاني.

فنظـرا لكـون" الشيال " هرب من الرحال فقد اهتم في المدينة وقوة عليه الحال فأراد المكـوث بالمديـنة فدبـر الأمر باتفاق ببعض أدقائه في الحجة السابقة الذين فرحوا بقـراره ووفـروا له ما يلزم للمجاورا فلما أخبر نساءه بذلك أصابهن هم شديد ولكون إحـداهن من أولاد رحاب عرف بأولاد رحاب المتوطنين في أولاد دراج المقيمين في الو لجة تحت جبل "بو طالب" فلما سمع الركب احتجوا احتجاجا وطلبوا من الورتيلاني العودا إلـآ الجزائـر معهم ويبدو أنهم أدركوا سبب همه فحاولوا جمع دراهم له ولكنه امتنع بالقسـم ألا يأخذ درهما من أحد إلا بالسلف. وبذلك قرر ابن رحاب وسي حمود وسي عيسـآ كاتب بن قانة شراء جمال للورتيلاني تعينه علآ حمل نسائه وأهله. وهذا أمـر قـدم مختـرا ولكن إيراده بهذه الصورا في الخطاب يكون مبررا منطقيا ومع الأسـف لا يتيسـر لنا دوما العثور علآ هذا التبرير المنطقي ولا علآ التبرير الزمني ويبقآ لنا أن نشير إلآ إيراد بعض الأخبار متتابعة والعلاقة اعتباطية ويمكن النظر إليها بأنهـا علاقـة مكانـية عن المجاورا إذ حين يتناول موضوعا واحدا يستقصي أجزاءه بالـتدرج ولا يظهـر السبب.ومن الأمثلة الواضحة علآ الاسترجاع أنه حينما كان يزور مشـاهد مصـر استرجع زياراته المنجزا في الجزائر: بجاية الجزائر تلمسان مليانة البليدا دلس وبلادزواوا والمسيلة بسكرا سيدآ عقبة قسنطينة عنابة..."[1]

2-المدى: (La durèe) أو الديمومة أو الاستغراق.

وهي حركية النص بناء علآ العلاقة الناشئة فيما بين زمن الأحداث وحجم النص من أسـطر وصـفحات وفقـرات وجمل... وتطبيق هذه التقنية يأتي أحيانا سهلا بسيطا

---

[1] - الورتيلاني الرحلة ص: 291.

وأحيانا تكتنفه الصعوبة وبخاصة في المتون الطويلة. يقول جنيت "G.Genette" "ستحدد سرعة الحكاية بالعلاقة بين مدة (هي مدة القصة مقيسة بالثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين) وطول (هو طول النص المقيس بالسطور والصفحات) ومن ثم فإن الحكاية المتواقتة وهي درجة الصفر المرجعية الافتراضية عندنا تكون هنا حكاية ذات سرعة متساوية دون تسريعات ولا تبطيئات وقد تظل فيها العلاقة بين مدة القصة وطول الحكاية ثابتة دوما... مثل هذه الحكاية لا توجد..."[1] .

فالمدة المقصودة هي سير الحركة الزمنية من حيث البطء والقفز والتوافق وقياس هذه المدة عملية صعبة وبذلك يقترح بعض الدارسين التخلي عن هذا المقياس غير العلمي والتركيز على الإيقاع المرتبط بالمقاطع السردية الملحوظ باستمرار من قبل القارئ ولو تقريبيا ويرى حميد لحمداني أن مصطلح الاستغراق... أفضل " إذ يتولد اقتناع ما لدى القارئ بأن هذا الحدث استغرق مدة زمنية تتناسب مع طوله الطبيعي أو لا تتناسب وبذلك وبغض النظر عن عدد الصفحات التي تم عرضه فيها من طرف الكاتب أي أنه لا عبرة بزمن القراءة في تحديد الاستغراق الزمني"[2] ويدرس إيقاع النص من خلال أربع حركات وهي: المشهد(scène) – والوقفة(pause) – والمجمل أو الخلاصة(sommaire) – والحذف أوالإضمار (L'ellipse)

1- المشهد: حوار في أغلب الأحيان بين الشخصيات أو مناجاة ذاتية ويحقق تساوي الزمن بين الحكاية (الخطاب) والقصة (الأحداث) تحقيقا عرفيا... [3]

كما أن السرد المفصل للأحداث والوقائع أو لحدث واحد وواقعة معينة يجب اعتباره كذلك مشهديا بناء على أن ذلك البطء الذي يحققه المشهد يمنح المتلقي إحساسا قويا بالمشاركة في الحدث بما يحقق إشباعا أكثر عمقا مع السرد المقدم[1] على ألا يكون ومضة ولكنه حين يطول يحدث مللا في النفوس فتعزف عنه إن لم تشد أوتاره بإحكام.

---

(1) – خطاب الحكاية... ص: 102.

(2) – حميد الحمداني بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ط1، سنة1999، ص: 76.

(3) – جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص: 108.

(1) – أيمن بكر، السرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب(دراسات أدبية) ط سنة1998، ص: 102.

2- الـوقفـة: " وهي البطء المطلق حيث لا يوافق مقطعا ما من الخطاب السردي أي مدة في القصة."[2]

ويعنـي ذلـك أن زمـن الأحـداث قد توقف في حين يستأنف الخطاب سيره؛ بسبب الاستقصـاء فـي الوصـف أو الاستطراد في الخبر. أوالتمدد اللغوي؛ وقد يحدث بشكل مفاجـئ عند وصف شخصية أو مكان أو الانتقال من موضوع إلى آخر؛ أو يقوم بالوعظ والإرشاد؛ أو يسترسل مع حديث النفس أو يفسر ألغازا أو يشرح كلمات.

ويميـز الدارسـون بين وقفتين: الوقفة المرتبطة بلحظة معينة من القصة حيث يكون الوصف توقفا أمام شيء أو عرضا يتوافق مع توقف تأملي للبطل نفسه وبين الوقفة الوصفية الخارجة عن زمن القصة والتي تشبه استراحة يستعيد فيها السرد أنفاسه.[3]

3- الخلاصة: "Sommaire" وتعتمد الخلاصة في الحكي على سرد أحداث ووقائع يفترض أنهـا جـرت في سنوات أو أشهر أو ساعات واختزالها في صفحات أو أسطر أو كلمات قلـيلة دون التعـرض للتفاصـيل [4]؛ ومعنى ذلك أن الخلاصة تمر على أحداث كثيرا بسـرعة أو تستحضـر أحداثا ماضية كانت قد استغرقت وقتا طويلا؛ وتعرضها في جمل قصيرا تقرأ في وقت قصير جدا.

وكلمـا زادت المـدة الملخصة كلما زادت سرعة النص إذ تقدم بتركيز وتكثيف وهي أساسـا تلخص الأحداث التي قد مضت بالفعل سواء كانت متعلقة بالشخصيات أو الأماكن أو الأحـداث أو الأشياء؛ وهذا هو الأصل فيها؛ ولكن يجوز أن تلخص حدثا سيحصل في الحاضـر أو المسـتقبل ويمكـن إيجـاز الخلاصـة فـي الآتـي:[5]

1- التقديم الملخص: يكتفي فيه السارد بتقديم موجز سريع للأحداث بحيث لا تعرض أمامنا سوى الحصيلة؛ أي النتيجة النهائية التي تكون قد انتهت إليها تطورات الأحداث.

---

[2] – جيرار جنيت؛ خطاب الحكاية؛ ص: 108.

[3] – حسن بحراوي؛ بنية الشكل الروائي؛ ص: 175.

[4] – ينظر جيرار جنيت؛ صورة3؛ ص: 130. نقلا عن حميد لحمداني؛ بنية النص السردي. ص: 76.

[5] – حسن بحراوي؛ بنية الشكل الروائي؛ ص: 153- 154

2- خلاصة الأحداث غير اللفظية: وهو تلخيص يتناول أجزاء من أحداث القصة يقوم الراوي باختيارها وصياغتها من وجهة نظره هو... ويمكن تمييزها بسهولة لاتساعها، وخلوها من كلام الشخصيات.

3- خلاصة خطاب الشخصيات: ويتعلق الأمر بخطاب تلفظته الشخصيات ثم جرى تلخيصه من قبل السارد بإيجاز واقتضاب ويرد على أشكال، ولها علاقة بالأسلوب غير المباشر وبالاسترجاع إذ يختلط الاسترجاع مع الخلاصة ونفرق بينهما في الوظيفة. وكذلك الخلاصات التفسيرية والتوضيحية.

4- الحذف: " الحذف سرعة لا متناهية، حيث لا يوجد مقطع سردي يوافق مدة ما في القصة"[1]، وهو السرعة العليا ويكمن في الأحداث التي يمكن تصورها أو توقعها ولا يذكرها النص ويرى جنيت "G.Genette" أن المقصود بالحذف هو الحذف الصريح أو الحذف الزمني، أما غيرها فهو إسقاطات يحتفظ لها باسم النقصان.

فالحذف هو قفز الخطاب السردي عن مرحلة زمنية في الحكاية (الأحداث) دون أن يوازيها ولو جزء بسيط من الخطاب..."[2] ويميز بين ثلاثة أشكال من الحذف.

أ- الحذوف الصريحة... وتصدر عن إشارات محددة أو غير محددة.

ب- الحذوف الضمنية أي تلك التي لا يصرح النص بوجودها بالذات وإنما للقارئ أن يستدل عليها من ثغرات في التسلسل الزمني...

ج- الحذف الافتراضي الذي نتبينه بعد حادثة يشرحها النص، فالحذوف مهما كان عددها ونوعها تمثل جزءا من النص منعدما عمليا [3]

وبمقابلة هاتين الحركتين(الخلاصة، الحذف) بما قبلهما (الوقفة والمشهد) ينشأ إيقاع النص السردي، ونؤكد أن الحذف الصريح هو الحذف المعلن ويمتاز بكونه يكشف لنا صراحة عن مقدار لفترة محذوفة "مرت عشرون سنة " وهو لا يختلط بالحذف الضمني أو الحذف الافتراضي الذين يردان عن طريق الإختزال، كل بطريقته.

---

[1] – جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص: 108.

[2] – د. سامي سويدان، في دلالية القصص وشعرية السرد، ص: 273.

[3] – جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص: 117-120.

أولاً- في الرحلة العبدرية

ج- المشهد: في الحوار المشهدي يجعلنا السارد وجها لوجه مع الشخصيات فيجعل القارئ وكأنه يشاهد المشهد أمامه، ومن هنا يعتبر المشهد الحواري تشخيصيا، ومن بين وظائفه أنه يلقي المزيد من الأضواء على طبائع الشخصيات المتحاورة ويكشف عن دوافعها...[1]، ومادمنا في الرحلة أمام راو واحد هو المؤلف وهو الشخصية، فلا نتوقع في الحوار، تعدد مستويات اللغة، وإنما سنجد الإصرار على مستوى واحد، إنها لغة نوعية منتقاة ولم يسمح الراوي بظهور لغات الاستعمال المتداول إلا حينما علق على لغة أهل القاهرة: " وقد سمعت شخصا منهم (أهل القاهرة) في التلبية يقول: لبيك اللهم لبيك، ويجعل كافاتها كلها همزات، فلو سمعته سمعت كلاما مضحكا " [2].

كما أن الحوار الدرامي غير متوقع في الرحلة أيضا، وإنما هو حوار قريب من المحادثات العادية، لكنه يقوم بوظيفة أساسية هي التعرف عن الشخصيات وأفكارها أو مناقشاتها للكشف عن آرائها وآرائها حول موضوع ما. ومن ذلك هذه المناقشة التي جرت بين العبدري وبين الشيخ ابن عبد السيد في طرابلس قال: " ولما حضرت تدريسه مرت لهم في دولة التفسير قوله تعالى: (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) [3]

فسألته: ما الكتاب المنير الذي أراد هنا.

فأجاب: بأنه جنس وهو بمعنى الزبر قبله. بإجماع من المفسرين

فقلت له: لم كرر؟

فقال: للتأكيد (وجمد على ذلك)

فالغرض من إثبات هذا الحوار إثبات المستوى العلمي لابن عبد السيد في التفسير بالخصوص، بدليل تعليق المؤلف.

---

[1] – فرد.ب. مليت، فن المسرحية، تر: صدقي حطاب، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1406هـ/1986م، ص: 482.

[2] – العبدري، الرحلة، ص: 127.

[3] – سورة فاطر، الآية 25.

وقـد يـرد الحـوار متضمنا في قߊةՍ فحينما أراد العبدرٵ أن يݳبK السلواا السيƐ للمߊـريينՍ والمتمـݤل فـي الأكل في الأسواՎՍ أورد حكاية زيارا ملاا الروم في عهد السلطان الՍاهر. وبعد زيارا المدينة ومحاورتݛ قال لهم: إن بلادكم هذا ضعيف فقالوا: وكيف ذلااՍ أو ما ترă المخلوՎ الذٵ بݛ Þ

فقـال لهم: إن هƋلاC جميعا ما خرجوا إلا لشراCƋ عشائهم من السوՎ ولو كان في ديارهم طعام لاستغنوا عنݛՍ ولو تعذر السوՎ عليهم لماتوا جميعا." [1]

هذا الحوار يبين وضƳ سكان القاهراՍ وقد أورده السارد بالأسلوب المباشر الذٵ حاՍ فيݛ علاٵ أقوال القائلينՍ وهذا يƋدٵ وՍيՖة تحليلية إقناعية.

وقد يرد مݤل هذا الحوار في المروياK الݤابتة عن الرسول ߊلاٵ ا عليݛ وسلم أو عن أߊحابݛ[2] رضي ا عنهمՍ ومن الحوار الذٵ يشبݛ المحادݤK اليومية بين الأشخاƭ ما جرă بين السارد/ المƋلفՍ وابن دقيՎ العيد.[3]

وممـا يمكـن اعتباره تابعا للحوار الداخليՍ تلاا التƋمǙK التي ترد هنا وهنااا كقول العبدرٵ بعد ذكر مزاراK مߊرՍ وبخاߊة تربة رأƩ الحسين بن علي رضي ا عنهما. فيذكر الՖاطميين قائǙ: " وكان الذٵ حملهم علاٵ التنويݛ بƋل البيK رضي ا عنهم تحقيՎ دعـواهم الباطلة أنهم منهم فƎنهم ما تƋتاٵ لهم ما راموا في بدايتهم قبل استحكام أمرهم إلا بانـتمائهم إلاٵ البيK الشريف- زاده ا جǙلة- فلما تمكنوا جاهروا بكل كՖرՍ وՍاهروا بكـل إلحادՍ وبقوا مƳ ذلاا متمسكين بߊƋل دعواهم في انتسابهم إلاٵ أهل البيK حتاٵ أباد ا عضراCهم ودهم بالՖناC دهماC هم..." [4]

والحـوار فـي الرحǙK قلما يقدم مباشرا كما في التمݤيلՍ وإنما يدرج ضمن السردՍ ويركـز أساسـا علاٵ الربط السريƳ بين الأجزاCƋ وتلخيƭ المشاهد تلخيߊا يحاՍ علاٵ جوهر المحادݤK عن طريՎ الأسلوب Ʋير المباشر لحكاية الأقوال.مݤل سƌاK الՖقيݛ زين الدين عن معناٵ... فƎجاب ...

---

(1) – العبدرٵՍ الرحلةՍ ƭ: 128.

(2) – نՖسݛՍ الرحلةՍ عن علي ƭ: 28Ս عن عمر ƭ: 165.

(3) – نՖسݛ ƭ: 140.

(4) – نՖسݛ ƭ: 149.



وسألته عن ظروف الماء إذا حالت حالتها وكنت سألته عنها في الطريق...

فقال: إن ذلك من باب تغيير الماء لطول المكث ...

قلت: وينبغي أن ينظر...

فـإن مثل هذا الحوار المقتضب يتحول إلى خطاب ويصبح حركة سريعة بخلاف ما يؤديه المشهد لحركة مائلة نحو البطء.

ب - الوقفة:

تبـرز الـوقفات كميزة لهذه الرحلة ولكونها تعتمد على الوصف فيمكن القول أن معظم أوصـاف السـارد بمثابة وقفة وعرض[1] في الوقت نفسه مثل: " وتلمسان مدينة كبيرة سـهلية جبلـية جميلة المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور ولها جامع مليح متسع وبها أسـواق قائمـة وأهلهـا ذوو ليانة ولا بأس بأخلاقهم وبظاهرها في سند الجبل موضع يعـرف بالعـباد وهـو مدفن الصالحين وأهل الخير وبه مزارات كثيرة ومن أعظمها وأشـهرها قبر الشيخ الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين رحمه الله ... وعليه رباط مليح مخدوم مقصود والدائر بالبلاد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار..." [2]

إنهـا وقفـة عند مدينة تلمسان تعرض فيها الخطاب والحدث واحد والسارد ينقلنا من جـزئية إلـى أخرى ولم يذكر وسيلة الوصف "الرؤية" وإنما هي أشبه ما تكون بشريط مخزون في الذاكرة أتحفنا به حين وجد الفرصة مواتية ومن خلالها عرض لنا المظهر الشـامل لتلمسان. هذه الوقفات لا تقدم لنا أحداثا بل أوصافا وهي لا تتوقف كلية وإنما تتحـرك ببطء وتربو عن أربعين وقفة في الرحلة حتى أن الوحدات الأساسية تتصف بوقفة وصفية وبمنظر عام شامل وقد يتخلل بعضها وقفات أخرى كالمزارات والمساجد عدا هـيئات العلماء. وتشكل حجما يقارب ثلاثين صفحة أي ما يزيد عن تسع متن الرحلة فإذا أضفنا إلى ذلك التعريف بالعلماء وطبقاتهم وأخلاقهم أدركنا مدى الحجم الواصف في الرحلة العبدرية. ويمكن النظر إلى هذه الوقفات كالتالي:

[1] – جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص: 112.

[2] – العبدري، الرحلة، ص: 11.

أ- المنظر العام: ويشكل مظهرا بارزا فكلما حل السارد بمدينة يرسم لها منظرا شـاملا يتـناول أهم المعالم العمرانية، والموقع الجغرافي، وغالبا ما يدمج طبائع السكان مـثلما فعل حين وصل إلى بجاية قال: " ثم وصلنا إلى مدينة بجاية، مبدأ الإتقان والنهاية، وهـي مدينة كبيرا، حصينة منيعة شهيرا، برية بحرية، سنية سرية، وثيقة البنيان، عجيبة الإتقـان... موضـوعة في أسفل جبل وعر، ومقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما إشـراف الطليعة متحصـنة بهمـا منيعة، فلا طمع فيها لمحارب، ولا متسع بها لطالب وضـارب، ولها جامع عجيب منفرد في حسنه غريب، من الجوامع المشهورة الموصوفة المذكورة، وهو مشرف على برها وبحرها، وموضوع بين سحرها ونحرها، فهو غاية في الفـرجة والأنس ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس، وأهلها مواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية، ولهم في القيام به تهمم ورعاية..." [1]

هكـذا تتجلى الوقفة الوصفية إذ يعلن عن المدينة، ثم يبدأ الخطاب الوصفي في التورم بالتدريج من نقطة إلى أخرى، كأنه لوحة بانو رامية، ولا ينسى المسجد وعامريه وطلبة العلم في أركانه، ويهتم بأسوار المدن وآثارها وما آل إليه أمرها، فهو يستحضر الماضي البعـيد والقريب، ويقارنه بالحاضر المستغرب العجيب، وكأنه يستنطقها للتحاور بما يسر ويـريب. [2] يـتعاقب فـي الـرحلة العبدرية سرد الأحداث والوقائع مع وصف الأماكن والأشـياء والأشـخاص بشـكل جلي، وهذه إحدى تقنياتها لولا الاستطرادات الخاصة بالنقول واللقاءات مع العلماء.

ب- المنظر الداخلي: يقـف السـارد أمام المساجد، الأهرامات، وغيرها من الآثار الصامتة، وينقلها إلينا بلغة صامتة أيضا، وهذا النقل " يقوم بوظيفة محددا تحديدا دقيقا ألا وهـي توليد قدر لا متناه من الأحاسيس والانطباعات." [3] فالمنظر الساكن، يتحول إلى منظر مجسم ينقل إلى القارئ الانطباعات التي يمكن أن تنقلها اللوحة الفنية مع فارق بين استقبال اللون واللفظ، فالتتابع السريع للقطات ومشحوناتها الدلالية يعبر بسرعة هو الآخر

---

[1] – العبدري، الرحلة، ص: 26.

[2] - يمكن الوقوف عند ما قاله في قسنطينة ص: 32، وغيرها من المدن مثل تونس، ص: 39. والإسكندرية، ص: 90، مكة، ص: 173. المدينة، ص: 203. القدس: 222...

[3] – حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل...، ص: 110.

إلـ ﺁ أجهـزا الاستقبال والبﺎ ليحدﺎ الأﺛر المتوخﺁ من قبل الساردﭬ حين تدراﺍ الشﻋرا اللغـوية التي يرسلها السارد إدراكا جماليا ﹰ حيحا. وفي هذا المجال نجد لسارد العبدرية اهـتماما خاﹰا بآﺛﺎر **الأقدمين**ﭬ فلم يمر علﺁ أﺛر إلا ويذكره بﺈيجاز أو تﻌ يلﭬ أو يرسم ﹰورا المدينة من حيﺎ القتامة والإشراﻕﭬ أو يقف متعجبا مستغربا كما وقف عند الساقية التـي يجلـب فيها الماﺀ إلﺁ تونﺲ: " وأما الساقية... فهي من جملة ﻏرائب الدنياﭬ وهي قديمـة من عمل الروم مجلوبة من جبال بجنوب تونﺲ علﺁ مسيرا يومين أو نحوها في أوعار وأودية متقطعة وجبال وآكامﭬ فﺈذا انتهوا بها إلﺁ جبل أو تل خرقوهﭬ وسربوا الماﺀ فـيﻪ وإذا انـتهوا إلﺁ واد أو وهد بنوه قناطر بعضها فوﻕ بعﺾ حتﺁ يستوﻱ مﻊ مجرﻯ السـاقية بﹰخر منحوﻙ أتقن ما يكون من البناﺀ وأﻋربﻪﭬ وأوﺛقﻪ حتﺁ ينسرب الماﺀ منها فـي مسـتوﻯ معتدلﭬ واتﹰﻞ هذه الساقية بهذا العمل حتﺁ دارﻙ من وراﺀ تونﺲ إلﺁ الغربﭬ وانتهﻙ إلﺁ مدينة قرطجنة وبينها وبين تونﺲ ﺛنا عشرا ميلﹰ.." [1]

فالوﻗﻔة هنا وﹰف سردﻱ متحراﺍ ينقلنا من الينبوﻉ البعيد ويسير عبر الوديان والو هاد ويدخل بنا في الأنﻔاﻕ لنشاهد حركة الماﺀ المحافﻆ علﺁ " المستوﻯ المعتدل ".

ومن هذه الآﺛﺎر قبة باب البحر بطرابلﺲ التي تتﻠﻤﺬ فيها العبدرﻱ حسن إحكامهاﭬ وإبداﻉ ﹰـنعهاﭬ بوﹰف بﹰرﻱﭬ وبمسافة قريبة من الموﹰوف قائلﹰ: " ولم أر بطرابلﺲ... إلا قبة بباب البحر من بناﺀ الأوائلﭬ وهي ﻏاية في الإتقانﭬ ونهاية الإحكام مبنية من ﹰخور مـنحوتة فـي نهايـة الﻌﻈمﻆﭬ منقوشة بﺄحسن النقﺶ مرﹰوفة بﺄعجب الرﹰفﭬ متماﺛلة المقـدار علويها وسﻔليهاﭬ ولا ملﹰط بين الﹰخور من طين ولا ﻏيرهﭬ ومن العجب ترتيب تلﺍ الﹰخور ورﹰﻔها في الأساﺲ فضلﹰ عن رفعها إلﺁ السقفﭬ ورﹰﻔها هناﺍ مﻊ فرط عﻈمها ﭬ وفي مقعد القبة ﹰخرا مستديراﭬ منقوشة يحار الناﻇر في حسن وضعهاﭬ وعلﺁ القـبة قـبة أخـرﻯﭬ عاليةﭬ ومبان مرتﻔعةﭬ ورأيﻙ للقبة السﻔلﺁ بابا مسدوداﭬ وعليﻪ من خارجـﻪ ﹰـورا أسدينﭬ قد اكتنﻔاه مﹰورين من تلﺍ الﹰخور بﺄبدﻉ ﹰنعةﭬ وأﻋربهاﭬ

---

[1] – العبدرﻱﭬ الرحلةﭬ ﺹ: 40.

وهما متقابلان على الباب، وفي كل واحد منهما صور لجام قد أمسك بعنانه شخص واقفا وراءه، وقد منعه بيده أشد المنع، ولعل ذلك كان لمعنى تعطل، وجهل سره والله أعلم "[1]

إن عين السارد ابتدأت بالكل ثم انتقلت إلى الجزء، ثم عبرت بشيء من الإعجاب عن حسن الصنعة، ثم أخذت في الوصف الاستقصائي أولا بأول، ولما أتى على الوصف الخارجي الظاهري الذي تضمن دلالة باطنية، فلم يدرك شيئا أو أنه أدرك ولا يريد التصريح، فقال: " ولعل ذلك كان لمعنى تعطل وجهل سره " إنه يبحث عن العلة، عن المعنى الذي يعلل به لحيرته، ولكن الأمر يبقى صامتا لا يبوح كصانعيه الذين رحلوا ومعهم أسرارهم. إنه صمت يتشكل في المحكى لكنه أيضا يتم بصورة محايثة على المستوى السردي، صمت يستدرجه تقنية الوصف.

إن الرؤية البصرية أيقظت الرؤية القلبية، وأيقظت الاستشعار لإدراك المعنى ولكن الصمت أقوى، وقد يكون أفضل وكلما أدرك الإنسان الظاهر حاول أن يدرك العمق[2]

ومن وقفاته البديعة قوله: "...وما رأيت في أرض برقة...سوى مسكن رأيته في خرب من الأرض بين الرجل المشقوق وقصر الصعاقبة في حجر صلد بأصل جبل على صورة دار رائقة، وعلى بابها صفة، ولها بناء مليح نقر فيه عن يمين وشمال صور بيوت لم يتم عملها، وإذا دخلت من باب الدار ألفيت قبة مليحة متسعة مرتفعة السمك، مربعة منقوشة بديع النقش، وفيها محراب قد دارت بها حنايا التصقت بالباب، وقبالة الباب باب آخر يطل منه على درج إلى بيت آخر كبير، وجميع ذلك منحوت في حجر صلد يعجز الوصف إتقانه..."[3]

هذه الوقفة تدور على نقطة واحدة وتنظر إليها عين السارد من جهات مختلفة، وعن قرب، وصاحبها ينتقل من مكان إلى آخر، جاهدا في أن ينقل الصورة بدقة معبرا عن إعجابه، ولذلك يضفي بعض الصفات الانتقائية المعبرة عن ذاتية الرؤية الوصفية مثل "دار رائعة" "بناء مليح" "بديع النقش" ورغم ذلك يبقى إعجاب السارد أكبر مما لفظه،

---

(1) – العبدري، الرحلة، ص: 82.

(2) – انظر، صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 399-400.

(3) – العبدري، الرحلة، ص: 87.

فالكلمـاƘ الآن لا تسعƆƌ "يƶوƘ الوƫ فǼ إتقانƌ"Ɔ ويƌǔحƱ أن الموƫ وف ƅابƘƆ والواƫ ف هو المتحرƅ...ولكونƌ يƫ ف الأشياǗ والأشكال فƎن المنƱار يسير بالتدريƜ نحو الƅباƘ."[1]

إن العـبدرƐ مولـƲ بالتƶاƫيل المعمارية وبخاƫة حين يقف أمام الآƅارƆ حتƑ أن هذا الإعجاب بالآƅار Ɔ يشكل ƱاهرƔ فنية في الرحلة العبدريةƆ إذ يƫور الشكل بدقة متناهيةƆ ممـا يجعل القارƏ يعجب بالشكل من خƜل الملƶوƱ رƷم انتمائƌ للمرجƲƆ ولعل ذلƃ عائد إلƑ كوننا لا نجد هذه الآƅار الآن إلا في الخطاب الرƟحلي.

الƋـǊƦاǍ: يقول السارد : " والأهرام مبان من حجارƔ ƫƜارƘ لإحكامها كالحجر الواحد فـي Ʒاية العلو متسعة الأسƶل مستديرƔ الشكلƆ فكلما طلعƘ انخرطƘ حتƑ ƫƜار أعƜƋها حاƅƃ علƑ شكل المخروطƆ وليƩ لها باب ولا مدخل.." [2]

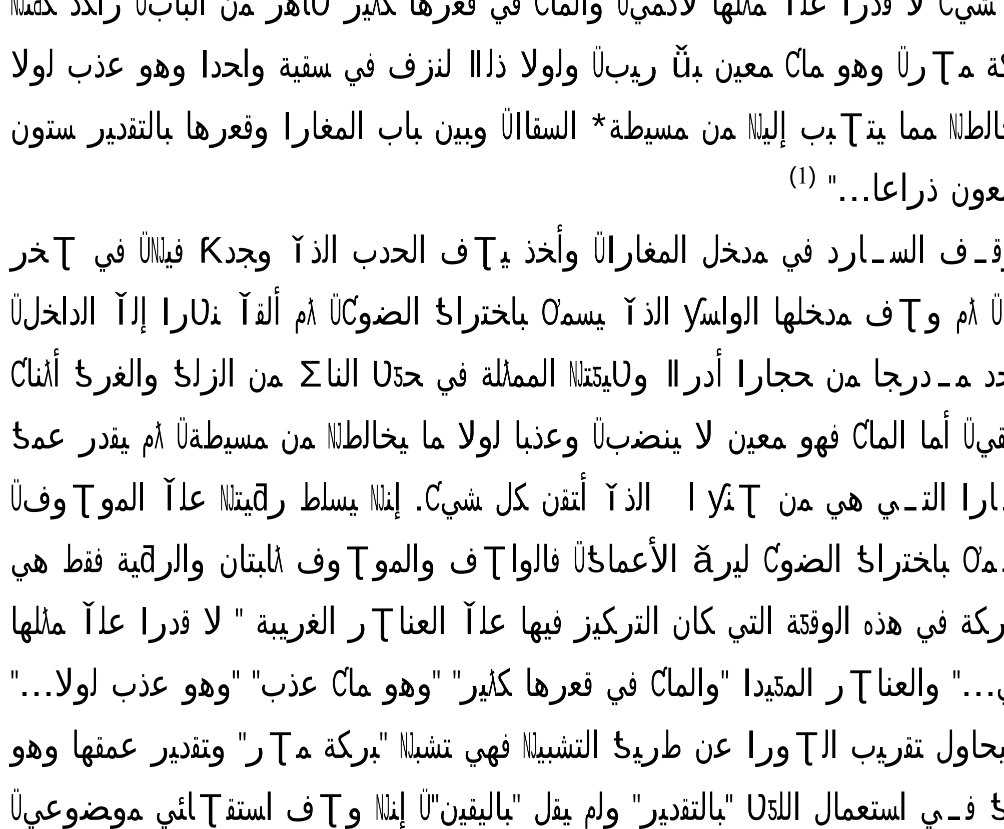
فالسـارد يعـتمد علƑ حاسة البƫرƆ ويهتم بالشكل الخارجيƆ ولما لم يتمكن من سبر أƷـوار الأهرام في ذاتها لجƋ إلƑ ما روƐ في كتب التاريƣ لاستكمال الƫورƔ عن الأƅر الموƫـوف وأنهـا " بنـيƘ لحƶƲ جƅƅ الملوƃ. " [3]Ɔ ومن هنا تدخل النقول في الوقƠة الوƫـƠية Ɔ إذ حيـنما تعجز الحواƩ يلجƋ السارد إلƑ الموروƚ فيمƆ التجواƘ من خƜل المقروǊƘ. فقارƏ العبدرية يشعر أنƌ مƲ الرحال في طريقƌ إلƑ مكةƆ و السارد هو القائد والدلـيلƆ وبين الحين والآخر يوقف السير ليلتمƩ استراحة فيما حولƌ وذلƃ في محطاƘ سـاكنة تماماƆ أو ذاƘ حركية بطيئة عن طريƀ الوƫفƆ أو الاسترسال في إنشاد الشعرƆ أو في الاستطراداƘ الإخبارية.

المƜـƦƳƘ: ومـن الأوƫاف التي نقلƘ عن العبدرƐ Ɔ واهتم بها الراحلون بعده مغارƔ شعيب التي قال فيها:" ومن هذه المنهلة إلƑ مغارƔ شعيب يومان وبعƯ يومƆ وهي مغارƔ كبيرƔ مرتƶعة السمƃ جƅƄ معجبة الƫƶة مشعة من بابها إلƑ داخلها مضيئة لأجل اتساعهاƆ معجبة الƫƶةƆ وهي في حجر أƫم بƬƫل حدب ƷليƱ وفي بابها يسير ارتƶاƳƆ فƎذا دخلتها انحدرƘ في درج من حجارƔ جعل لأجل الزلƀƆ والمغارƔ نƶسها من ƫƲƊ ا الذƐ أتقن

[1] – جان ريكاردوƆ قضايا الرواية الحديƅةƆ ƫ :153-157.

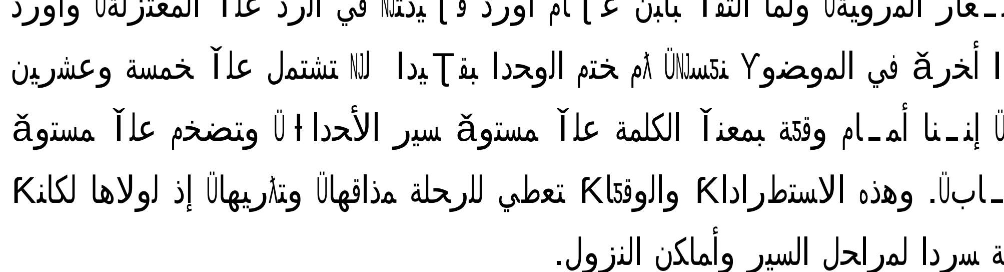
[2] – العبدرƐ Ɔ الرحلة ƫ :147.

[3] – نƶسƌƆ ƫ :147.



كل شيء لا قدرة على مثلها لآدمي، والماء في قعرها كثير ظاهر من الباب، راكد كأنه بركة مطر، وهو ماء معين بلا ريب، ولولا ذلك لنزف في سقية واحدة وهو عذب لولا ما يخالطه مما يتسرب إليه من مسيطة* السقاة، وبين باب المغارة وقعرها بالتقدير ستون أو سبعون ذراعا..." [1]

وقف السارد في مدخل المغارة وأخذ يصف الحدب الذي وجدت فيه، في آخر عظيمة، ثم وصف مدخلها الواسع الذي يسمح باختراق الضوء، ثم ألقى نظرة إلى الداخل فوجد مدرجا من حجارة أدرة وثيقة المماثلة في حسن النحت من الزلق والغرق أثناء السقي، أما الماء فهو معين لا ينضب، وعذبا لولا ما يخالطه من مسيطة، ثم يقدر عمق المغارة التي هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء. إنه يسلط رؤيته على الموصوف، ويسمح باختراق الضوء ليرى الأعماق، فالواصف والموصوف ثابتان والرؤية فقط هي المتحركة في هذه الوقفة التي كان التركيز فيها على العناصر الغريبة " لا قدرة على مثلها لآدمي..." والعناصر المفيدة "والماء في قعرها كثير" "وهو ماء عذب" "وهو عذب لولا..." ثم يحاول تقريب الصورة عن طريق التشبيه فهي تشبه "بركة مطر" وتقدير عمقها وهو دقيق في استعمال اللفظ "بالتقدير" ولم يقل "باليقين"، إنه وصف استقصائي موضوعي، انعدمت فيه الذاتية باستثناء شعور الإعجاب.



والسارد/ المؤلف حينما كان في تلمسان أورد بعض أشعار ابن خميس وعلق عليها واستغرق ذلك عدة صفحات كما أورد برنامج ابن خطاب المرسي[2] وفيه ذكر لشيوخه والأشعار المروية، ولما التقى بابن عصام أورد قصيدته في الرد على المعتزلة، وأورد قصيدة أخرى في الموضوع نفسه، ثم ختم الوحدة بقصيدة له تشتمل على خمسة وعشرين بيتا، إننا أمام وقفة بمعنى الكلمة على مستوى سير الأحداث، وتضخم على مستوى الخطاب. وهذه الاستطرادات والوقفات تعطي للرحلة مذاقها وثراءها، إذ لولاها لكانت الرحلة سردا لمراحل السير وأماكن النزول.

---

* - المسيطة: المسياط: الماء يبقى في أسفل الحوض، ونحوه، ج مسابيط

(1) – العبدري، الرحلة ص: 160.

(2) – نفسه ص: 13-21.



إنهـا وقفـات أدبية من الآثار والعلم والعلماء ومن الأدباء والفقهاء حتى إذا تحركت القافلة تحرك السرد فتبرز الخلاصات والقفزات فتتبدل السرعة إلى أقصاها.

2- الخلاصـة: وهـي تقنـية للتسـريع يلخـص السـارد فيها الأحداث الفعلية أو خطاب الشخصـيات أو يقـدم ملخصـا يعرض القارئ إطلالة على الحصيلة النهائية فمن ذلك تلخـيص المـراحل كقوله: " ومما يلي الإسكندرية من هذه الأرض العقبة الكبيرة وبينها وبين الإسكندرية عشرة أيام ثم العقبة الصغيرة وبينها وبين الكبيرة ستة أيام ومنها إلى الإسـكندرية أربعـة أيـام وكلتاهما خلاء لا ساكن بهما ولا مسكن وأكثر مواضع هذه الأرض هكـذا أسام بلا مسميات.." (1). لقد ذكر عشرة أيام ثم قسمها على معلمين ستة أيام وأربعة أيام ولكن ما الذي حدث فيها إنها أسماء بلا مسميات.

وقد تكون الخلاصة متعلقة بأقوال الشخصيات كقوله: " وقد سألت الشيخ أبا محمد ابن عـبد السـيد عـن أشياء ما قام فيها ولا قعد وما استفدت في العلم فائدة سوى ما تقدم تسطيره في قوله صلى الله عليه وسلم إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان..."(2).

ومـن الخلاصـات السريعة ما يقدمه السارد حول أفعاله الحاضرة كقوله: "... وزرت قبـر الشيخ الصالح آية زمانه أبي مدين رضي الله عنه ثم رجعت إلى البلاد فبتنا بها حتى خـرجنا مـن الغـد وأدركنا القافلة بوجدة..."(3) فهذه الخلاصة تختزل لنا أعمال السارد اختـزالا حتـى كأن الهدف هو تسجيل الأحداث فقط. فالنص المقدم في أقل من سطرين جرت أحداثه في أكثر من يومين.

تتبعـنا المراحل التي يمكن اعتمادها كمؤشرات للتاريخ الطبيعي ولم يستقم لنا ما يمكن أن نبني عليه إلا ما تعلق بالوحدات الكبرى التي كانت كالتالي:

البدء في الرحلة يوم25 من ذي القعدة سنة 688هـ ص: 7.

الوصول إلى مكة يوم الاثنين 7من ذي الحجة سنة 689 ص: 169.

الرحيل من المدينة المنورة يوم 30 من ذي الحجة سنة 689هـ ص: 220.

(1) – العبدري: الرحلة، ص: 89.

(2) – نفسه، ص: 78.

(3) – نفسه، ص: 279.

الوصول إلى المغرب الأقصى في شوال من عام 689 بعد عيد الفطر... ص :280.

فإذا اعتمدنا هذه المراحل الكبرى مقياسا وحددنا المدة الزمنية لكل وحدة وما يقابلها من خطاب اتضح لنا سرعة السرد في الرحلة العبدرية

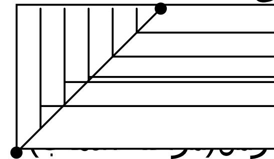
- مرحلة الذهاب ص 7-169 أي 162 صفحة مقابل 370 يوما تقريبا.
- التجوال في البقاع المقدسة ص 169-220 أي 51 صفحة مقابل ثلاثة وعشرين يوما.
- مرحلة العودة ص 220-280 أي حوالي 60 صفحة مقابل أزيد من 270 يوما.

أي أن 370 يـوما تقـريبا يقابلها من السرد حوالي 162 صفحة أي أكثر من نصف الصـفحة للـيوم و23 يوما يقابلها واحد وخمسون صفحة، أي لكل يوم صفحتان وأكثر و 270 يوما يقابلها ستون صفحة تقريبا.

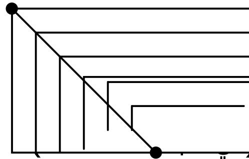
ومـن هنا نستنتج أن السرد كان معتدلا في مرحلة الذهاب وبطيئا في مرحلة الوصول إلـى البقاع المقدسة، وسريعا في مرحلة العودة، فإذا أضفنا أن هذه الاستـنتاجات تقريبية جدا، تبـين ما يمكن أن نجده من حذوف داخل السرد وبخاصة مرحلة العودة، التي يسكت فيها السارد عن كثير من المراحل، فيلجأ إلى مجرد الذكر وقد يلغيه أيضا.

إن الخلاصـة السـريعة والحذف المتعدد الأوجه هو التقنية التي اعتمدها العبدري في سرد رحلته. وبخاصة في مرحلة العودة. والأشكال التالية تجسد لنا الخطاب وفق المراحل

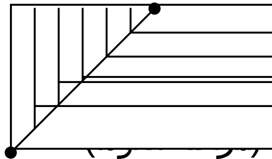
خطاب



خطاب <الزمن



خطاب >الزمن



خطاب < الزمن

فالـزمن أكثـر من الخطاب في رحلة الذهاب والإياب، ويبدو الخطاب متضخما في مرحلة البقاع المقدسة.

ثانيا: حركة المشهد:

ا - المشهد: نسميه هذه الحركة بالمشهد لكونها تعرض المتحاورين، ويغيب السارد ليفسح المجـال لهـم ،وفي هذه الحركة تتعادل مدة الزمن على مستوى الوقائع مع الطول الذي



تستغرقه على مستوى القول لكونها تعرض كما جرت فسرعة الكلام مطابقة [1] للزمن الذي قيلت فيه، ويعتبر الدارسون الحوار هو الشكل الأكثر مشهدية، ولكن يمكن اعتبار السرد المفصل لحدث ما مشهديا أيضا[2] ويبدو أنه كذلك ما لم يكن وصفا، ويمكن إدراج المراسلات والمخاطبات الشعرية ضمن هذه الحركة.

ج- الحوار المسرود:

إن الرحلة التجانية سردية وصفية بالدرجة الأولى، وأما المشاهد الحوارية المباشرة فهي منعدمة، ولكننا سنتعسف بعض الشيء لنعتبر بعض المخاطبات حوارا، لأننا نعتقد أنها كانت كذلك في الأساس، ثم حولها السارد إلى حوار مسرد كقوله: "... فخرجت إليه... فتأنست بمذاكرته تلك العشية، وطلب مني رؤية مخدومنا فلم تمكن تلك الليلة، بسبب مرض كان يشكو به، فواعدته من الغد، وأمرت البواب أن يعرفني به إذا وصل..." [3].
من الواضح أن هذا النص حوار في أساسه تحول إلى سرد واصف للقاء بين شيخ وسارد الرحلة، وهكذا تتحول الحوارات إلى سرد عن طريق الخطاب غير المباشر[4].
ومن ذلك قوله: " ...فكان فيمن رأيته منهم رجل أسود اللون اسمه إبراهيم... وحكوا عنه في ذلك عجائب فسألته عن ذلك، فأقر به، وادعى أن له رئيا من الجن يأتيه فيخبر بما يكون في أشعار يخاطبه بها، فاستخبرته عن شيء من ذلك، فذكر لي شعرا ادعى أنه أنشده إياه منذ أيام بجبل فيه على كائنة وصفها، تكون في رجب الآتي، وكنت كتبت ذلك الشعر في هذا التقييد. فلما تأخر الأمر إلى انقراض شهر رجب... ولم يكن فيه شيء مما أحال عليه وأشار إليه، بادرت إلى محو ذلك الهذيان من الكلام، وتذكرت قوله صلى الله عليه وسلم " لا كهانة في الإسلام " ... " [5]

إن هذا النص في أساسه حوار بين شخصين، وفي بعض أجزائه حوار مع الذات، إلا أن السارد سرد الحوار فصار خطابا غير مباشر حر، تصرف فيه السارد تصرفا رآه

---

(1) – ينظر يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، ص: 83.

(2) – شلوميت ريمون كنعان، التخييل القصصي، ص: 31.

(3) – التجاني، الرحلة، ص: 174.

(4) – برنار فاليط، النص الروائي، تقنيات المنهج، ص: 50.

(5) – التجاني، الرحلة، 197.

يتناسب والوضعية السردية، وهذا النوع كثير في الرحلة، بحيث يمكننا إحداث بعض التغيير على كثير من الخطابات لتصبح حوارية خالصة.

ب - الخبر المنقول:

والمقصود بها أن يكون الكم الخبري كثيرا، فقد أورد السارد أخبارا عن فتح إفريقية، وهي نقول عن مؤرخين للمنطقة [1]، وفي مثل هذه الحال يصبح الخبر المنقول عن فلان كأنه قوله ثم يردفه بخبر آخر فتتكون لدينا مجموعة أقوال تشبه الحوار الدائر بين الشخصيات.
ومن ذلك ما أورده من أخبار عن المهدية وتأسيسها، فقد نقل هذا الحوار عن معلم الصبيان:
" وأمر المهدي بقياس هذه الرمية فكانت مائتي ذراع، وثمانية وثمانين ذراعا، فقال: المهدي هذا منتهى ما تقيم المهدية في أيدينا من السنين، قال: وكان يقف على فرسه فيأمر الصناع بما يصنعون، قال: وأمر بعمل باب الحديد للمدينة، فجعل صفائح مصمتة، تم أثبتت فيها المسامير، فبقي تلقاء فقال للصناع: ما عندكم في هذا؟ فقالوا: لا ندري، فأمرهم بتسميرها كذلك، ثم أمر بإيقاد نار تحت الباب كله حتى التهب، واتصلت المسامير بالصفائح، فعادت كلها قطعة واحدة، فكان ذلك مما عد من معارف المهدي... ولما تم الباب على هذه الصفة أحب اختبار وزنه، فكلهم أخبره ألا سبيل إلى ذلك لإفراط ثقله، فأمرهم..." [2]، فهذا السرد وإن كان منقولا عن غيره فهو يؤدي وظيفة الحوار من حيث الزمن وسرعته، وليس من حيث الأسلوب.

ت - المطارحات: يمكن اعتبار المراسلات التي أنجزت بين السارد/ المؤلف وغيره من المحاورات سواء ما كان منها شعرا أو نثرا. فمن ذلك ما جرى بينه وبين أبي بكر بن فتح الغماري النفزاوي:

يـا أيهـا الـسيـد والمـستفـاد   جـوهـرا أحسـن فيها العبـاد
خـاطـبت ذلك المـجد أثنـاء ما   رفعت للمولى الأجل الـعمـاد[3]

ولما ناولنيها رسوله ارتجلت له في الحال:

يـا نسمـة الـروض سقته العهاد   وحب حيا روضة الربا والوهاد

(1)– المصدر السابق، ص: 11- 22.
(2)– نفسه، ص: 321.
(3)– نفسه، ص: 148. ذكر 10أبيات.

وحدقت أزهاره أعينا ... مرادها رؤية ذات المراد[1]

[قال]: ولما وصل إليه جوابي رجع إلي بقوله:

أراحة تجلب أليم العنا ... أم سنة من بعد طول السهاد
أم فجأة الوصل عقيب الجفا ... أم مستطاب الرضى بعد الحراد
أم رفعة من بها سيد ... طابت بها الأذكار في كل ناد
أشعرني البشرى وحسبي بما ... قرر من ود وحسن اعتقاد[2]

ومن مثل هذه المراسلات ما جرى بين التجاني وغيره وهو مقيم بزنزور، إذ استطالت المراسلات على مدى واسع.[3]

وكذا أثناء إقامته بطرابلس حيث أورد عدة مراسلات اشتملت على الشعر والنثر[4] والسارد مغرم بهذه المكاتبات بينه وبين غيره من الأدباء، فهذه المراسلات بشعرها ونثرها أدرجناها في الحوار توسعا، إذ تقوم بما يقوم به الحوار من حيث الوظيفة الإبلاغية والتعبيرية. ولكنه حوار مكتوب إذ يبادر أحدهم بالمراسلة، فيرد عليه الآخر في السياق نفسه والإيقاع، وقد تستمر المحاورة وقد تنقطع.

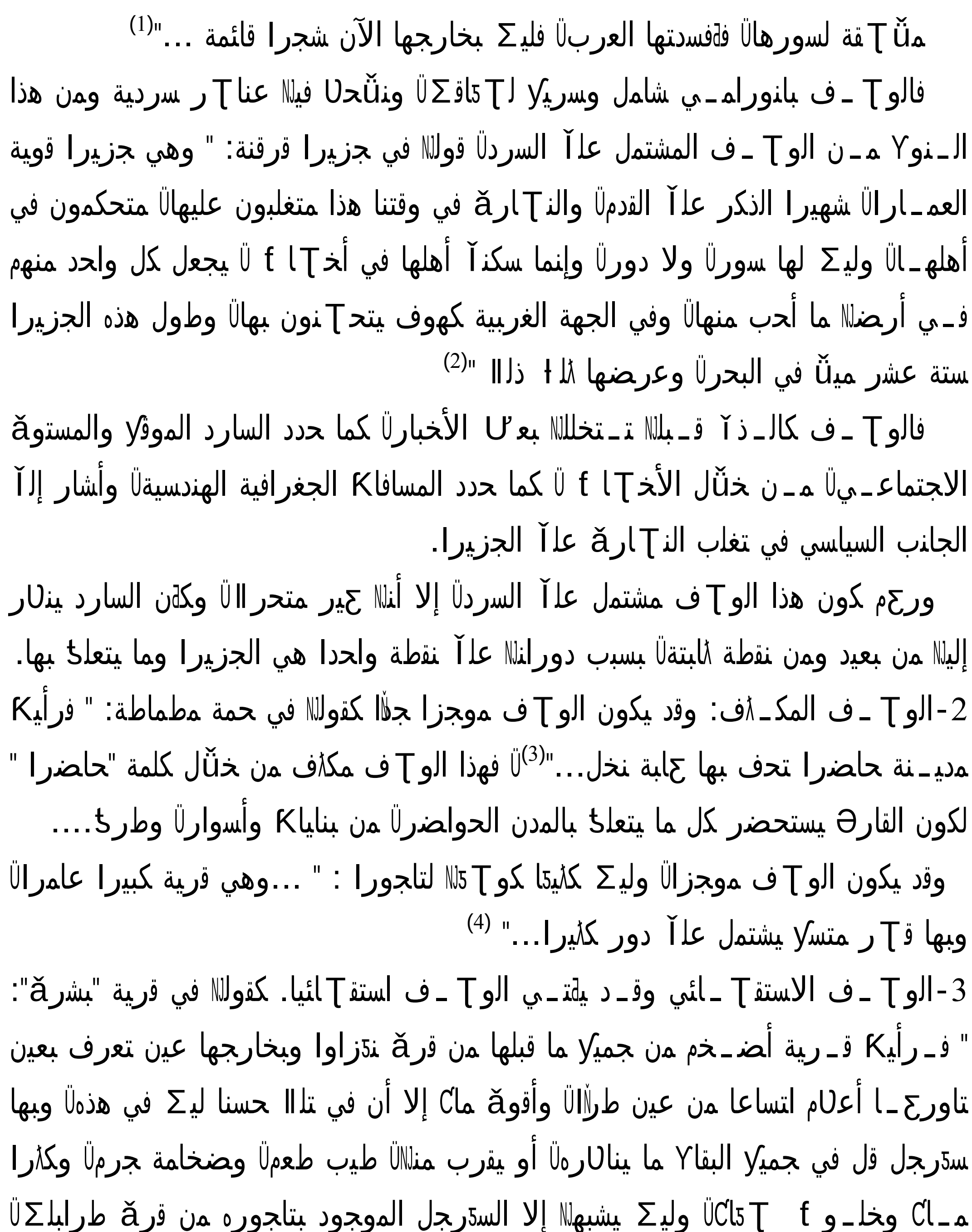
ط- الوقفة:

في المتن الذي نحن بصدده تلعب الوقفات دور الاستراحة بمعنى الكلمة، إذ يسرد السارد الأفعال المتوالية المنجزة في الطريق، فإذا نزل الركب قام بوصف المكان وصفا مكثفا انتقائيا موجزا، أو وصفا استقصائيا مفصلا، أو وصفا شاملا يتناول العناصر المكونة للمكان، ويأتي ذلك من إنشائه أو منقولا عن غيره:

1- الوصف الشامل: "ووصلنا إلى صفاقس ظهرا فرأيت مدينة حاضرة، ذات سورين يمشي الراكب بينهما، ويضرب البحر في الخارج منهما، وكانت بها قبل غابة زيتون

---

[1]- المصدر السابق، ص: 148. ذكر 15 بيتا.
[2]- نفسه، ص: 149- 150. ذكر 14بيتا.
[3]- نفسه، ص: 221- 236.
[4]- نفسه، ص: 280-306.



ملاصقة لسورها، فأفسدتها العرب، فليس بخارجها الآن شجرا قائمة ..."[1]

فالوصف بانورامي شامل وسريع لا يتصف بالتوقف ونلاحظ فيه عناصر سردية ومن هذا النوع من الوصف المشتمل على السرد قوله في جزيرة قرقنة: " وهي جزيرة قوية العمارة شهيرة الذكر على القدم والنصارى في وقتنا هذا متغلبون عليها متحكمون في أهلها وليس لها سور ولا دور وإنما سكنى أهلها في أخصاص يجعل كل واحد منهم في أرضه ما أحب منها وفي الجهة الغربية كهوف يتحصنون بها وطول هذه الجزيرة ستة عشر ميلا في البحر وعرضها نحو ذلك "[2]

فالوصف كان ذا قيمة تخللته بعض الأخبار كما حدد السارد الموقع والمستوى الاجتماعي من خلال الأخصاص كما حدد المسافات الجغرافية الهندسية وأشار إلى الجانب السياسي في تغلب النصارى على الجزيرة.

ورغم كون هذا الوصف مشتمل على السرد إلا أنه غير متحرك وكأن السارد ينظر إليه من بعيد ومن نقطة ثابتة بسبب دورانه على نقطة واحدة هي الجزيرة وما يتعلق بها.

2-الوصف المكثف: وقد يكون الوصف موجزا جدا كقوله في حمة مطماطة: " فرأيت مدينة حاضرة تحف بها غابة نخل..."[3] فهذا الوصف مكثف من خلال كلمة "حاضرة " لكون القارئ يستحضر كل ما يتعلق بالمدن الحواضر من بنايات وأسوار وطرق....

وقد يكون الوصف موجزا وليس كثيفا كوصفه لتاجورا : " ...وهي قرية كبيرة عامرة وبها قصر متسع يشتمل على دور كثيرة..." [4]

3-الوصف الاستقصائي وقد يأتي الوصف استقصائيا. كقوله في قرية "بشرى": " فرأيت قرية أضخم من جميع ما قبلها من قرى نزلوا وبخارجها عين تعرف بعين تاورغا أعظم اتساعا من عين طرابلس وأقوى ماء إلا أن في تلك حسنا ليس في هذه وبها سفرجل قل في جميع البقاع ما يناظره أو يقرب منه طيب طعم وضخامة جرم وكثرة ماء وخلوص صفاء وليس يشبهه إلا السفرجل الموجود بتاجوره من قرى طرابلس

(1) – المصدر السابق، ص: 68.

(2) – نفسه، ص: 67.

(3) – نفسه، ص: 134.

(4) – نفسه، ص: 307.

وجـد ا عـندهم في وقتنا هذا صنف من أصناف الكمثرى بديع الشكل شهي الأكل، قلما يوجد مثله طيبا وهم يضيفون إلى الطير جنسه، إذ لم يتول أحد منهم بتلك البلاد غرسه."[1]

فالسارد يدخل القرية ويهتم بالجزئيات المميزة لها وهي الماء والفواكه المتنوعة، ويختم وصـفه بسـرد حكائـي " وهم يضيفون إلى الطير جنسه..." وكأن الوصف يتوقف إلا أن يستدعي بعض السرد ليكون أكثر تأثيرا.

ووصفه الاستقصائي غالبا ما يشمل المكان والأهالي والحرف والمنتجات كقوله واصفا منـزل زنـزور: " في رأيي غابة متسعة الأقطار ملتفة الأشجار، وبها مياه عذبة، وأكثر شـجرها الـزيتون، وأكثره من الغرس القديم... وبها مع ذلك نخل كثير، ورطبه متناهي الطـيب، وبها أيضا من شجر التفاح والرمان والعنب والتين كثير، وهي كثيرا القصور وقـد استولى الرمل على أكثرها..." [2] ثم يستقصي قائلا: " وبها جامع متسع للخطبة... ويجـاور هذا الجامع قصر خرب، متسع يعرفونه بالقصر القديم، يقال إنه أول قصر بني بزنزور ولم يبق به الآن إلا سوره المحيط به... وإلى جانب هذا الحائط يكون مجتمعهم لنصـب سوقهم، وهي سوق نافقة، ضخمة، يجتمع البربر بها من الأقطار المتنائية في كل جمعة، فيبيعون هنالك جميع ما يجلبونه."[3]

فهـذا وصف استقصائي يمزج وصف المكان بالنشاط الفلاحي والتجاري والاجتماعي... وهو نمط مستفيض.

و قـد يـتجاور وصف السارد بوصف غيره للمكان كقوله في جزيرة شريك: " وهذه الجزيرة لم تزل معروفة بالخصب والبركة، وهي كما قال الشريف حيث وصفها في كتابة المؤلـف للملك رجار: " طيبة مباركة ذات دارات متصلة، وبركات وخيرات، ومياه وعيون، وبالجملة ففيها خصب زائد على غيرها من الأرضين قال أبو إسحاق..."[4]

فالسارد هنا في وقفته الوصفية تنازل عن الوصف لغيره في توظيف نص الإدريسي لما يريد قوله، وهكذا تعانق النصان لخدمة غرض واحد، وهو إبراز أهمية شريك.

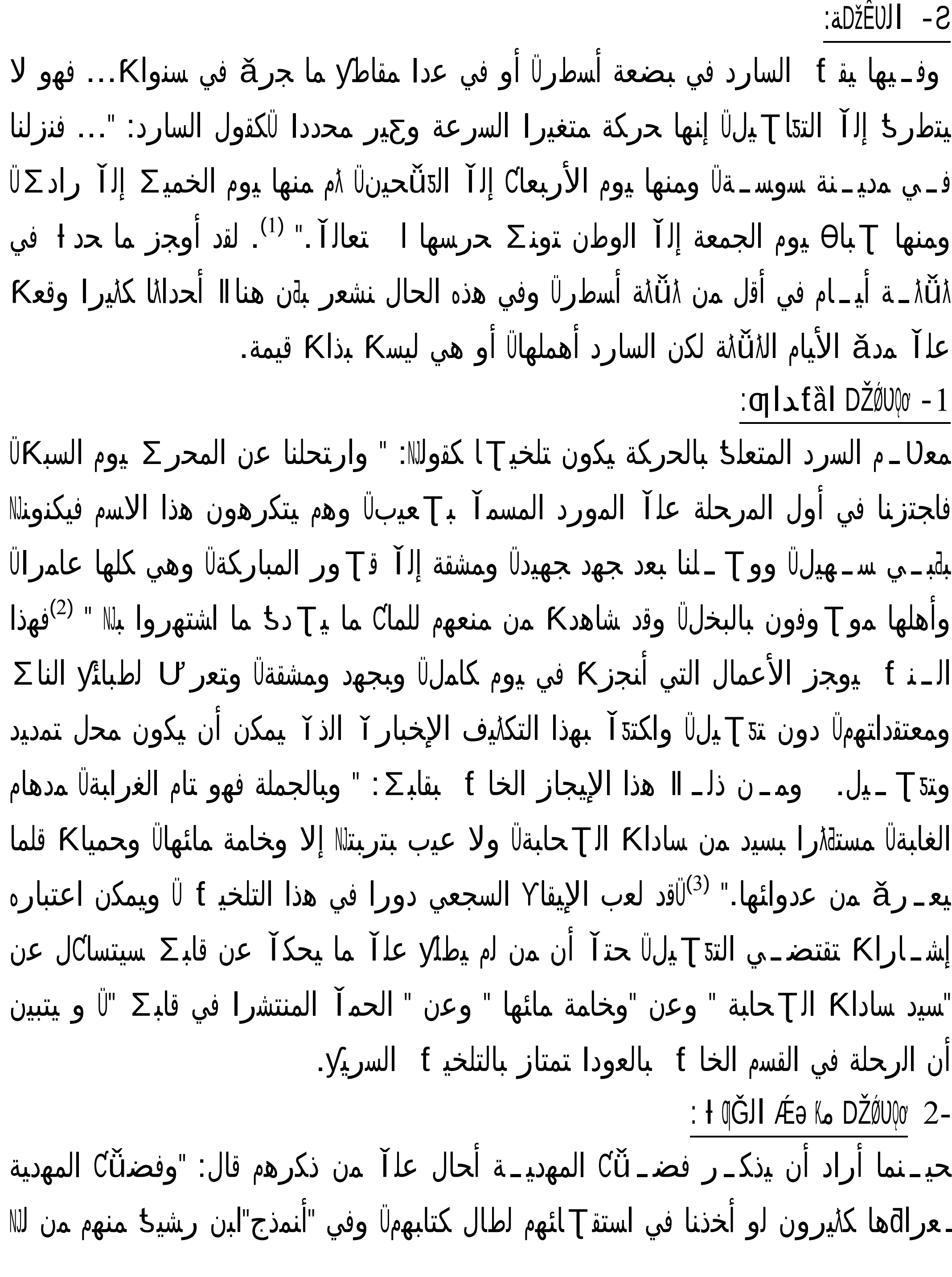
---

[1]– المصدر السابق، ص: 153- 154.

[2]– نفسه، ص: 214.

[3]– نفسه، ص: 215-216.

[4]– نفسه، ص: 11.



ƨ- اﻟǗÊŽDä:

وفـيها يقf السارد في بضعة أسطرÜ أو في عدا مقاطŸ ما جرă في سنواKا... فهو لا يتطرķ إل� التȋƮيلÜ إنها حركة متغيرا السرعة وȬير محددا Üكقول السارد: "... فنزلنا فـي مديـنة سوسـةÜ ومنها يوم الأربعاČ إلĂ الȂƞحينÜ ƆƦ منها يوم الخميƩ إلĂ رادƩÜ ومنها ƮباƟ يوم الجمعة إلĂ الوطن تونƩ حرسها ا تعالĂ." [1]. لقد أوجز ما حدƭ في ƆƞƦـة أيـام في أقل من ƆƞƦة أسطرÜ وفي هذه الحال نشعر بƋن هناƅ أحداƭا كثيرا وقعK علĂ مدă الأيام الƆƞƦة لكن السارد أهملهاÜ أو هي ليسK بذاK قيمة.

1- ƢǶǐŽDØ ǙàƒĿƩ ƥƗ:

معƮـم السرد المتعلķ بالحركة يكون تلخيƮا كقولƌ: " وارتحلنا عن المحرƩ يوم السبKÜ فاجتزنا في أول المرحلة علĂ المورد المسمĂ بƮعيبÜ وهم يتكرهون هذا الاسم فيكنونƌ بƋبـي سـهيلÜ ووƮـلنا بعد جهد جهيدÜ ومشقة إلĂ قƮور المباركةÜ وهي كلها عامراÜ وأهلها موƮوفون بالبخلÜ وقد شاهدK من منعهم للماČ ما يƮدķ ما اشتهروا بƌ " [2]فهذا الـنf يوجز الأعمال التي أنجزK في يوم كاملÜ وبجهد ومشقةÜ وتعرƑ لطباŸ� الناƩ ومعتقداتهمÜ دون تȋƮيلÜ واكتȂĂ بهذا التكثيف الإخبارĊ الذĊ يمكن أن يكون محل تمديد وتȋƮـيل.   ومـن ذلـƅ هذا الإيجاز الخاf بقابƩ: " وبالجملة فهو تام الغرابةÜ مدهام الغابةÜ مستƆƋرا بسيد من ساداK الƮحابةÜ ولا عيب بتربتƌ إلا وخامة مائهاÜ وحمياK قلما يعـرă من عدوائها." [3]Üقد لعب الإيقاŸ السجعي دورا في هذا التلخيf Ü ويمكن اعتباره إشـاراK تقتضـي التȋƮيلÜ حتĂ أن من لم يطلŸ علĂ ما يحكĂ عن قابƩ سيتساČل عن "سيد ساداK الƮحابة " وعن "وخامة مائها " وعن " الحمĂ المنتشرا في قابƩ "Ü و يتبين أن الرحلة في القسم الخاf بالعودا تمتاز بالتلخيf السريŸ.

2- ǙàƒĿƩ ƕƿƏ ƒĿǗƩ ƭ :

حيـنما أراد أن يذكـر فضـČƞ المهديـة أحال علĂ من ذكرهم قال: "وفضČƞ المهدية وشـعراČها كثيرون لو أخذنا في استقƮائهم لطال كتابهمÜ وفي "أنمذج"ابن رشيķ منهم من ƌƦ

---

[1] – المƮدر السابķÜ f :393.

[2] – نȂسƌÜ f :85.

[3] – نȂسƌÜ f :90.

البدائع كعبد الله بن إبراهيم بن مثنى، وعلي بن عبد الكريم بن أبي طالب، ومحمد بن حبيب، ولابن رشيق كتاب " الروضة الموشية في شعراء المهدية "، ذكر فيها من يطول تعداده، ولعثمان بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن حشرون المهدوي، كتاب " المختار فيما انتقاه لأهل عصره من الأشعار"،...في " [1]

3- [illegible]:

ومن التلخيص القولية قوله: " ووصل خطيب البلد فصلى، ثم أخذ في الخطبة، فلم أر رجلا أفصح منه، ولم أسمع أيضا مثل الخطبة التي خطب بها..."[2]

وكقوله حكاية ملخصة: " ... أخبرني محمد بن إبراهيم بن جامع المرداسي، قال سلكتها قافلة لنا فيها ألف جمل فند بعير منها عن الطريق، وتبعه باقي الإبل، فلم يكن أسرع من أن ساخت في الأرض وعلى فيها ألف جمل، ثم عادت الأرض كما كانت، وكأن لم يكن لتلك الإبل أثر. "[3]

لخص لنا هذه الحكاية عن السبخة المعروفة بتاكمرت كما رويت له، ومما لخصه من الأقوال ما فعل الميورقي بأهل الجريد بعد أن فتك بهم " فكان الرجل منهم ينادى عليه فإن وجد من يفديه أطلق، وإلا رمي بعد قتله في بئر هناك يسمونها بئر الشهداء "[4]

ويتصل بالتلخيص القولية ما يرويه السارد من أقوال المؤرخين الخاصة بالوقائع والأماكن، وفيها يقوم بإسناد الأخبار إلى قائليها.

ب - الحذف:

قد يمر السارد على فترات لا يود الحديث عنها ويكتفي بالإشارات الصريحة أو الضمنية أو لا يشير إطلاقا. ومن خلال السياق ندرك المحذوف من الأحداث كقوله: " فنزلنا يومنا ذلك ببرادع على ستة أميال من تونس، وأقمنا بها ثلاثة عشر يوما إلى أن استوفى

---

(1) – المصدر السابق، ص: 366-367.

(2) - نفسه، ص: 154.

(3) - نفسه، ص: 155.

(4) - نفسه، ص: 162.

الأجناد من الحضرة مرادهم."[1]

وهذا هو الحذف المعلن، فثمانية عشر يوما برادس لم تنجز فيها أفعال يهتم بها السارد فأغفلها واكتفى بالإشارة إليها. وكذلك في قوله: " فأقمنا بطرابلس ساكنين في قصبتها كما تقدم عاما كاملا ونصف عام وأياما إلى أن تهيأ لمخدومنا أعزه الله وجهته."[2]

وهذا النوع من الحذوف المعلنة تأتي في نهاية سرد الوحدة ومن خلاله ندرك أن ما سرده السارد لا يتناسب والأيام المقتضية هنالك. وقد يكون الحذف مسكوتا عنه تماما، ومن ذلك السكوت عن شهر ربيع الثاني فيما بين الإقامة بزنزور، إلى غاية وصول أمير آل سالم[3] والسكوت عن شهر رجب سكوتا تاما فيما بين الدخول إلى طرابلس يوم 19 جمادى الثانية. إلى بدء قراءة السارد لصحيح مسلم بمجلس السلطان الذي أقامه للشيخ أبي فارس عبد العزيز وذلك أول شعبان[4]

وهذا النوع من الحذف يحدث حين تطول المدة كما في قمراسن وطرابلس حيث رتابة الأحداث فلا يجد جديدا، فيسكت عن الأيام والشهور ويكتفي بذكر مدة الإقامة الإجمالية.

والواقع أن السارد لا يهتم بالأحداث كثيرا إلا فيما يتعلق بحركة الركب السلطاني، من حيث الإقامة والارتحال وبعض الاستقبالات الخاصة، وقلة من الأفعال التي يأمر السلطان بإنجازها، ويملأ وحداته بأخبار التراث والوقائع الخاصة بكل مكان، فالسارد لا يخبر عن الأوضاع الاجتماعية، ويكتفي برصد الأحداث ذات الجانب العسكري حتى أنه يمكن الزعم أن ما يتعلق بالإنسان محذوف كله، وما يتعلق بأحداث التاريخ اختصر اختصارا.

ولتجسيد خطاب الرحلة من حيث الإيقاع، أعدنا تقسيم الرحلة إلى أربع عشرة وحدة، اتضح فيها الوقت المختص بالأيام، وقابلناها بحجم الصفحات المرصودة للأيام نفسها، وبذلك ندرك مواضع السرعة و مواضع البطء في الرحلة حسب الجدول التالي:

---

(1) – التجاني، الرحلة، ص 5.

(2) – نفسه، ص: 280.

(3) – نفسه، ص: 214-220.

(4) – نفسه، ص: 221-255.

[illegible]

الأيام	حجم الصفحة	الصفحة: من...إلى	عنوان الوحدة	الرقم
32 يوما	113	117-4	-الخروج من تونس والتوجه إلى قابس والإقامة بها.	1
70 يوما	15	132-117	-الخروج من قابس إلى جربة والإقامة فيها.	2
14 يوما	2	134-132	- العودة إلى قابس والإقامة بها.	3
30 يوما	38	172-134	-التوجه إلى الجريد والإقامة بتوزر	4
12 يوما	7	179-172	-الرحيل عن توزر والعودة إلى قابس والإقامة بها.	5
7 أيام	5	184-179	-التوجه إلى قصر قمراسن	6
130يوما	20	204-184	-الإقامة بها .	7
91 يوما	17	221-204	-الارتحال عن قمراسن والتوجه إلى زنزور والإقامة بها.	8
540 يوما	85	306-221	-التوجه إلى طرابلس والإقامة بها.	9
15 يوما	9	316-307	-الخروج من طرابلس والمرور بتاجوراء وتوديع السلطان.	10
12 يوما	1	318-317	-العودة إلى طرابلس والإقامة بها.	11
18 يوما	1	320-319	-من طرابلس إلى المهدية	12
يوم واحد	73	393-320	-الإقامة بالمهدية.	13
3 أيام	3أسطر	393-393	-من المهدية إلى تونس.	14
0	3أسطر	393	- الخاتمة	
0	5+ ص 5 أ	395-393	- الذيل "قصيدة"	

إن هذا الجدول يبين المتتاليات السردية وزمنها وما يقابلها من الخطاب بعدد الصفحات وإن كان بعض الدارسين يعترض عن قياس السرعة بعدد الصفحات ويؤكد

أنه لا يعبر بزمن القراءة في تحديد الاستغراق الزمني[1]، وإنما هو اقتناء وحدس خاص بالقارئ نحو المقروء، إن كان سريعا أو بطيئا، وإذا كانت السرعة السردية عصية عن القياس فإن الإيقاع السردي يمكن إدراكه باستمرار من خلال الخطاب نفسه، لذا يصر الدارسون على دراسته من خلال الحركات، كما مر معنا.

وقد جسدنا الجدول السابق في شكل، وجعلنا مقدمة المحقق مستقلة، وللخاتمة والذيل خانتين خاصتين كالتالي:

	دراسة المحقق	المقدمة															الخاتمة و ↓		الذيل
الوحدات	/	/	1	2	3	4	5	6	7	8	9		10	11	12	13	14	0	/
عدد الأيام	/	/	32	70	14	30	12	7	130	91	540 +		15	12	18	1	3	0	/
عدد الصفحات	47	+1	113	15	2	38	7	5	20	17	85		9	1	1	73	3 أ	3 أ	2 +

لقياس الديمومة نشير إلى أن "الزمن اللازم لاستهلاك نص ما، هو زمن عبوره أو اجتيازه كأنه طريق أو حقل، وزمنية النص القصصي، وكل نص، هي هذه الزمنية التي يستعيرها من قراءته الخاصة..."[2]

فزمنية النص إذن هي الزمن الذي يقضيه القارئ العادي في قراءة نص ما، وهذا المبدأ هو الآخر إشكالية قائمة من حيث نوع القراءة وسرعتها، والأوضاع المساعدة أو المعيقة...

إننا نلاحظ أن ما جرى في اثنين وثلاثين يوما سرده السارد في ثلاث عشرة صفحة مائة (113) صفحة، مع ملاحظة أن المسرود لا يتعلق بالأيام نفسها ففيه كثير من الاسترجاعات المتعلقة بالماضي حتى أن ما يتعلق بحاضر السرد الخاص بالرحلة ضئيل جدا، ونلاحظ أيضا أن مائة وثلاثين يوما يقابلها عشرون صفحة في الوحدة السابعة، ويوما واحدا يقابله ثلاث وسبعون صفحة في الوحدة الثالثة عشر.

[illegible]:

---

(1) – حميد لحمداني، بنية النص السردي، ص: 76.

(2) – د. يمني العيد، تقنيات السرد الأدبي في ضوء المنهج البنيوي، ص: 73.

أ- المشاهد

إن المشاهد تشتمل على الحوار الذي يجريه السارد مع غيره أو مع الذات، بالإضافة إلى ما يمكن إدراجه ضمن المشهد. ومن ذلك هذا الحوار الطويل الذي جرى بينه وبين شخص آخر:" بينما أنا ذات يوم بالحرم الشريف ومعي رجل من الشرفاء من بلاد المغرب... إذ جاء إلينا رجل من أهل أصبهان، زعم أنه شريف فقال لصاحبي: أنت من طلبة العلم... فأشار له صاحبي إلي، فأخذ يسألني عن الكتب التي بين يدي، وأنست إليه حين زعم أنه شريف... وأنه مالكي، فسألته عما يقرأ بناحيتهم من كتب المذهب. فتبين لي كذبه. ثم أخذ يسألني... ما معنى ا ؟ فلم أفهم سؤاله. فقلت علم على الذات الواجب الوجود... فقال: ما معنى العلم؟ فأجبته.

وكان في كلامه لكنة أعجمية، وكان يريد غير ما أجيبه به، ثم تأملت كلامه فإذا هو يريد البحث في مسألة الاسم، هل هو عين المسمى أو غيره؟ فتكلمت معه في ذلك لأئمتنا من التفرقة بين معنى الاسم والمسمى والتسمية...

ثم انتقل إلى الكلام في مسألة إثبات الصفات، فشممت منه رائحة إنكارها... وكلما أقمت عليه حجة... يقول: لو كنت تفهم العجمية لأجبتك..." (1)

هذا الحوار لم ينقل مباشرا، إذ أن السارد يلجأ إلى التصرف في كلام محاوره مما يجعل المشهد مزجيا مع التلخيص الذي يبقي فيه السارد بعض ألفاظ متحدثه ويتصرف في بعضها، ولكنه يحافظ على الحوار عموما. ومثله ما جرى بينه وبين مدرس مالكي في مسائل التصرف بالمذهب(2)، وهو نقاش فقهي خالص حافظ فيه على النقل المباشر أحيانا، ونقل بعضه إلى الأسلوب غير المباشر.

فالحوار المباشر في الرحلة العياشية قليل، ومن ذلك محاورته مع الشيخة الصالحة السيدة نعيمة بالإسكندرية: " ... كانت نية أهل الركب ألا يقيموا بالإسكندرية إلا يومين أو ثلاثة، وعندما دخلوا عليها قالت لهم: أنتم تقولون نقيم يومين، أو ثلاثة، لابد لكم من ستة أيام أو سبعة فقالت لأصحابي: من هنا يظهر لنا صدقها أو خلافها فكان الأمر كما قالت"(1)

---

(1) – أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص: 282-283.

(2) – نفسه، ص: 296- 299.

(1) – المصدر السابق، ج2، ص: 361.

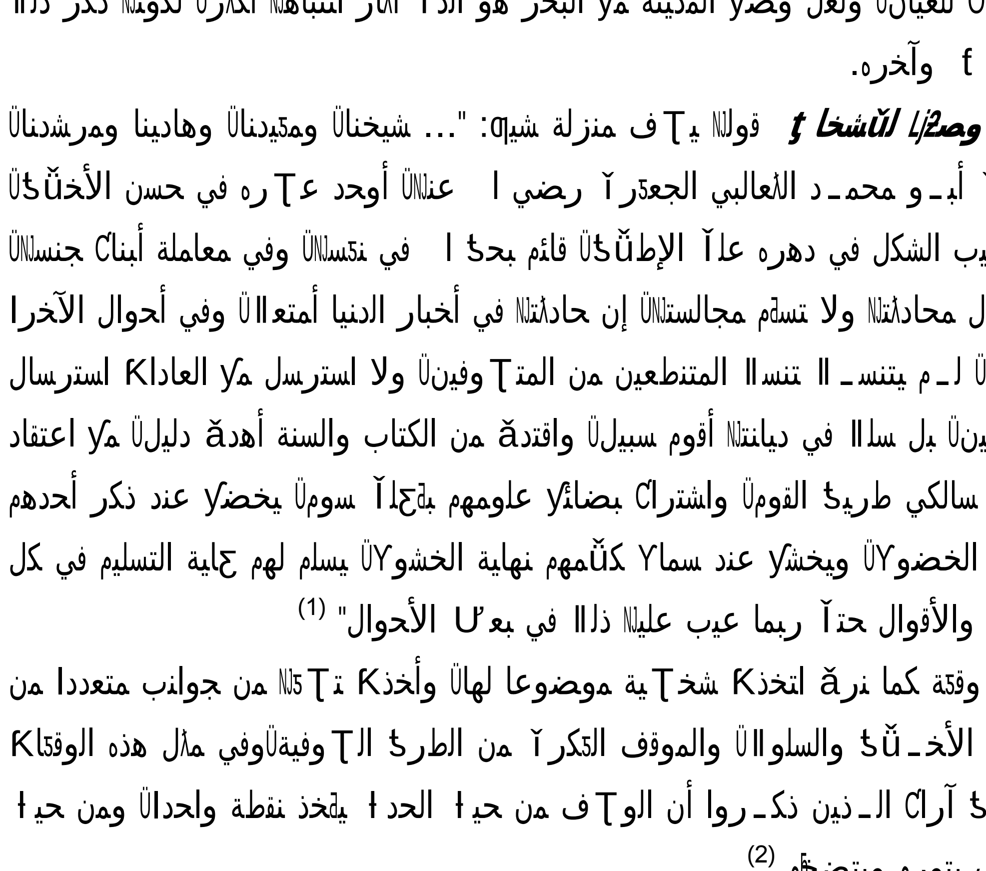
فالحـوار المباشـر لـم يؤدِّ دورا بنائيا في الرحلة العياشية إذ معظم الحوارات تسرد، فتُـبين حكايـة أقوال، وليست مشهدا، ويتعلق بالمشهد ما يجري من تحليل للمسائل من ذلك: أن السارد يورد بعض القضايا التي كانت تثار في زمانه أو تعرض عليه فيأخذ فيها، ويـتحاور مـع فقهـاء آخرين في الموضوع، وقد يستعرض الحجج والبراهين بما يدفع بالخطـاب إلـى الـتمدد. وتُـؤثر الحادثة من أكثر من وجهة، وكأنه حوار يجري بين الأشخاص .

وأعتقد أن هذا النوع من الحوار العلمي المعرفي حول قضايا عصر السارد مع الأحياء، والأمـوات باستعراض آرائهم، هو الذي يحرك الشكل المعرفي الساكن، ويبث فيه الحيوية الذهنـية، بالاستشـارة والتشـويق، وإن كنا لا نشعر بأهمية بعض القضايا ها لبعدها عن عصـرنا، ومنها ما هو قائم إلى الآن. وهذه المحاورات حينما لا تنسب إلى قائليها يمكن إدراجهـا ضمن الوقفة، لكونها أقرب إلى الاستطراد، وأما حين تقلب القضية على أوجهها المخـتلفة كمـا يتصورها السارد، فهي أقرب إلى الحوار الذاتي، وحين يستعرض حجج العلمـاء والـرد علـيها بالإثبات أو النفي أو الترجيح، فيمكن إلحاق ذلك بالحوار. وهكذا يتضح لنا أن الحوار في الرحلة قد يخرج عن مُطلقه الحوار المألوف.

ج- الـوقفة: اتضـح لنا أن الوقفات قد تكون وصفات، أو عرضا لكتاب، أو وصفا لمنظر، فمـن الوصـف يمكن أن نقف عند بعض ***الآثار:*** "... وفي هذا المحل الذي ...آثار أبنية كثيـرة، وفي سفحه الذي يلي ساحل حامد مدينة عظيمة يقال لها مدينة ***لبدة***، قد خلت في العصور الأوائل، وبقيت آثارها ورسومها، قد أكل البحر كثيرا منها، وفيها مبان عظيمة، وهياكل جسيمة، وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان، قد هرم الدهر، ومـا هرمت، وتعاقبت عليها الأزمنة، وما تغيرت، فترى الأبنية ماثلة متقابلة على رؤوس الجـبال مـد البصـر، بحيث يقضي الحدس، أن كل ما كان داخلها كان مدينة واحدا إلى البحر، وترى أعمدا الرخام وغيره واقفة في وسط البحر، قد أحاط بها الماء..." [2]

اتخـذ الوقفة آثار مدينة موضوعا لها، والسارد/الرائي يصف ما فعله البحر بالآثار، ويكتفـي بالوصـف الشـامل العام، ولا يقوم بالاستقصاء والتحري، وإنما يكتفي بما هو

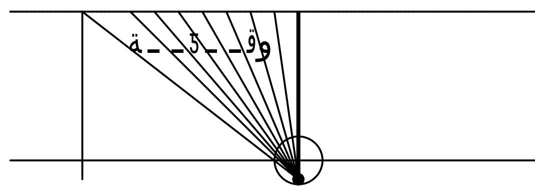
(2) – نفسه، ج1، ص: 92.



واضحا للعيان، ولعل وضع المدينة على البحر هو الذي أثار انتباهه أكثر لكونه ذكر ذلك أول النص وآخره.

ومن ***وصف الشخصية*** قوله يصف منزلة شيخه: "... شيخنا وسيدنا وهادينا ومرشدنا سيدي أبو محمد الثعالبي الجعفري رضي الله عنه أوحد عصره في حسن الأخلاق وغريب الشكل في دهره على الإطلاق قائم بحق الله في نفسه وفي معاملة أبناء جنسه لا تمل محادثته ولا تسأم مجالسته إن حادثته في أخبار الدنيا أمتعك وفي أحوال الآخرة نفعك لم يتنسك تنسك المتنطعين من المتصوفين ولا استرسل على العادة استرسال المسرفين بل سلك في ديانته أقوم سبيل واقتدى من الكتاب والسنة أهدى دليل على اعتقاد تام في سالكي طريق القوم واشتراط بضائع علومهم بغير سوم يخضع عند ذكر أحدهم غاية الخضوع ويخشع عند سماع كلامهم نهاية الخشوع يسلم لهم غاية التسليم في كل الأفعال والأقوال حتى ربما عيب عليه ذلك في بعض الأحوال" [1]

فالوقفة كما نرى تتخذ الشخصية موضوعا لها وأخذت تصفه من جوانب متعددة من حيث الأخلاق والسلوك والموقف الفكري من الطريق الصوفية وفي مثل هذه الوقفة تتحدد آراء الذين ذكروا أن الوصف من حيث الحدث يتخذ نقطة واحدة ومن حيث الخطاب يتورم ويتضخم [2]

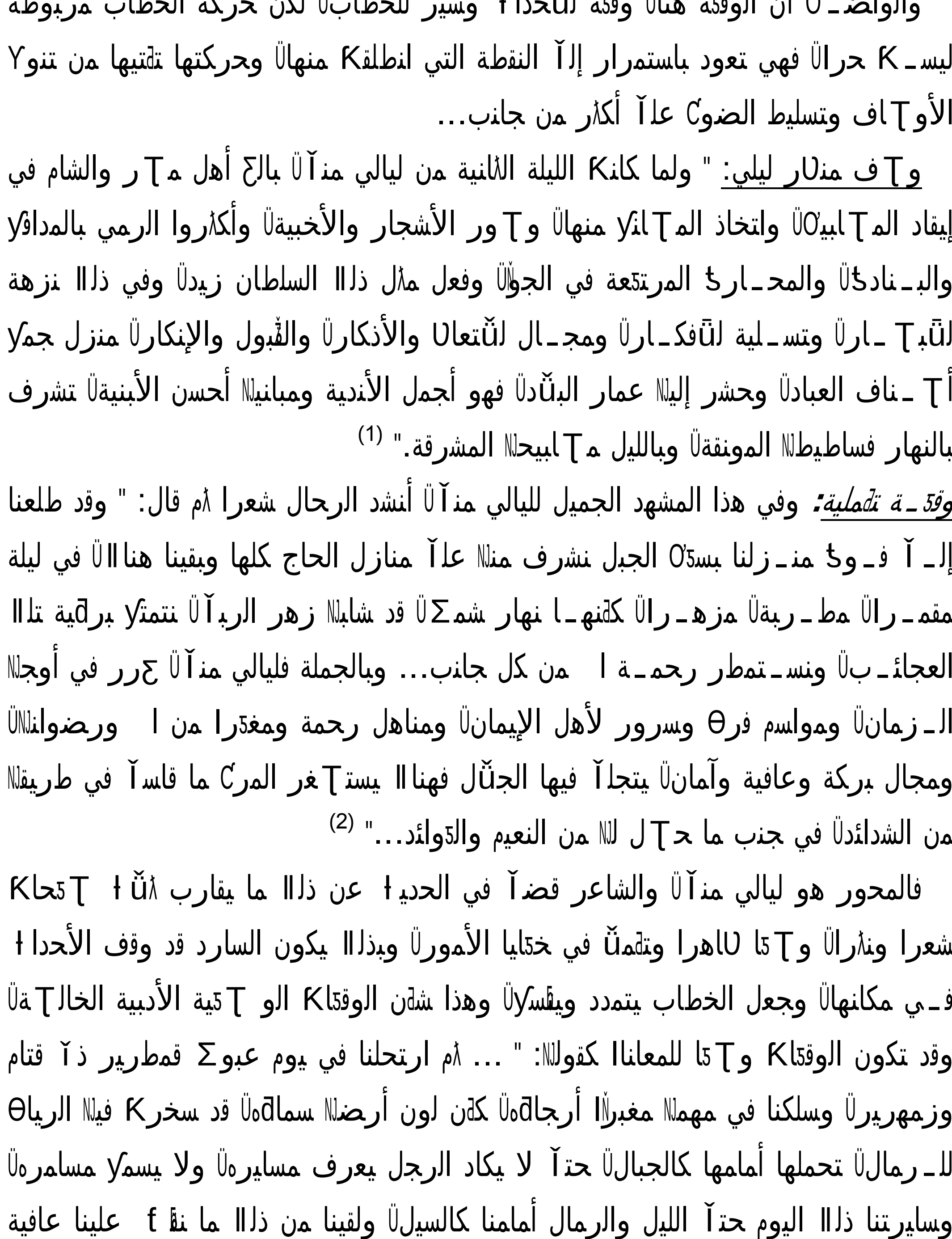


حتى أن الشكل المعروف للوقفة يتوافق وهذا النوع من الوصف غاية التوافق إذ يدور كله على نقطة واحدة هي الشخصية وأوصافها وأخلاقها وعملها..

---

(1) – المصدر نفسه، ج2، ص: 126.

(2) - جان ريكاردو، قضايا الرواية الحديثة، ص: 255.



والواضح أن الوقفة هنا، وقفة للحدث وسير للخطاب، لكن حركة الخطاب مربوطة ليست حرا، فهي تعود باستمرار إلى النقطة التي انطلقت منها، وحركتها تأتيها من تنوع الأوصاف وتسليط الضوء على أكثر من جانب...

وصف منار ليلي: " ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى، بالغ أهل مصر والشام في إيقاد المصابيح واتخاذ المصابيح منها، وصور الأشجار والأخبية، وأكثروا الرمي بالمدافع والبنادق، والمحارق المرتفعة في الجو، وفعل مثل ذلك السلطان زيدان، وفي ذلك نزهة للأبصار وتسلية للأفكار ومجال للاعتبار والأذكار، والقبول والإنكار، منزل جمع أصناف العباد، وحشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية ومبانيه أحسن الأبنية، تشرف بالنهار فساطيطه المونقة، وبالليل مصابيحه المشرقة." (1)

وقفة تأملية: وفي هذا المشهد الجميل لليالي منى، أنشد الرحال شعرا ثم قال: " وقد طلعنا إلى فوق منزلنا بسفح الجبل نشرف منه على منازل الحاج كلها وبقينا هناك في ليلة مقمرة، مطربة، مزهرة، كأنها نهار شمس، قد شابه زهر الربى، نتمتع برؤية تلك العجائب، ونستمطر رحمة الله من كل جانب... وبالجملة فليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان، ومناهل رحمة ومغفرة من الله ورضوانه، ومجال بركة وعافية وأمان، يتجلى فيها الجلال فهناك يستصغر المرء ما قاسى في طريقه من الشدائد، في جنب ما حصل له من النعيم والفوائد..." (2)

فالمحور هو ليالي منى، والشاعر قضى في الحديث عن ذلك ما يقارب ثلاث صفحات شعرا ونثرا، وصفا ظاهرا وتأملا في خبايا الأمور، وبذلك يكون السارد قد وقف الأحداث في مكانها، وجعل الخطاب يتمدد ويتسع، وهذا شأن الوقفات الوصفية الأدبية الخالصة، وقد تكون الوقفات وصفا للمعالم كقوله: " ... ثم ارتحلنا في يوم عبوس قمطرير ذي قتام وزمهرير، وسلكنا في مهمه مغبر أرجاؤه، كأن لون أرضه سماؤه، قد سخرت فيه الرياح للرمال، تحملها أمامها كالجبال، حتى لا يكاد الرجل يعرف مسايره، ولا يسمع مسامره، وسايرتنا ذلك اليوم حتى الليل والرمال أمامنا كالسيل، ولقينا من ذلك ما نسأل الله علينا عافية

(1) – العياشي، الرحلة، ج1، ص: 201.

(2) – نفسه، ج1، ص: 202.

تلك البلاد، واستسهلنا معه ذهاب الطريق والتعب... ثم بتنا تلك الليلة وقد كانت الأبدان، وتشابهت ألوان الأحرار والعبدان..." [1]

فهذا الوصف متحرك على مستوى الطريق إذ هناك سير وتوقف ومبيت ونهوض... ولكن هناك حدث أعم يشملها جميعا وهو الزوبعة التي حلت بالقوم في طريقهم إلى ورقلة، وهذه الزوبعة متحركة معهم مستغرقة للطريق ومن فيه مدا أربعة أيام بلياليها، فيها الثابت والمتحرك على مستوى الأحداث، ونلاحظ أن وصف العياشي يتخذ السجع أسلوبا، لذلك قد تجذبه السجعة إليها، فلا يسترسل في وصف المعاناة وصفا مؤثرا ومعبرا.

ومن الوقفات التي تضخم الخطاب على حساب الأحداث في الرحلة، نقل كتب كاملة أو جزء منها، أو بعض المسائل المنقولة، والتي رأى أنها ذات فائدة، من ذلك نقوله من رحلة ابن رشيد الفهري، ومن تاريخ الذهبي، ومن طبقات الصوفية للمناوي، ومن القوانين لأبي الربيع في النحو. والملاحظ أن الوقفات الخاصة بالكتب، شكلت جزءا ضخما من رحلة العياشي، وهي موجودة في أكثر من موضع، وبخاصة في الجزء الثاني من الرحلة.

ومن الوقفات الخاصة للوصف الاستقصائي المرئي، ما أنجزه في وصف مسجد الخيف: "...وطول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذي يقابله أربعمائة قدم، وعرضه ثلاثمائة وأربعون، وبوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها أربعة وعشرون قدما من خارجه، ورأيت في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاطه عليه السلام، وصحن هذا المسجد كبير، إذ المسقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف، ومن سائر الجوانب غير مسقف..." [2]

وهكذا نخلص إلى أن الخطاب في الوقفات قد يكون وصفيا أو تأمليا أو استطراديا، والأخير شكل نسبة عالية من وقفات الرحلة العياشية، وبخاصة تلك التي يتعرض فيها للشرح والتعليق، أو التي ينقل فيها رسائل الآخرين وكتبهم.

ج- <u>الخلاصة:</u> استغرقت الرحلة ما يقارب ثمانمائة وسبعة وثمانين يوما، خصص لها ما يقارب ثمانمائة وثمان وسبعين صفحة. (887 يوما مقابل 878 صفحة).

---

[1] – المصدر السابق، ص: 45..

[2] – نفسه، ج1، ص: 204.



والكتابة مهما تكن دقيقة فإنها قائمة على مبدإ الانتقاء للحدث والمواقف والأحداث والنوادر والكتب فكل ما يوضع في كتاب يخضع لمبدإ "الانتقاء" ومن هنا كانت الخطوط أكثر تواجدا في الرحلة وعليه فإننا سنقدم نماذج لتلخيص الأحداث وأخرى لتلخيص الأقوال ومن ذلك:

1- تلخيص الأحداث: يمكن أن ندرج فيها المراحل التي يقطعها الركب وهي خاوية من الملفوظات التي تمثلها فيشير إليها السارد إشارات تدل على وجودها من ذلك: "... ثم ارتحلنا من سلوا وتنكبنا طريق الجبل لوعرها وسوء خلق أهلها وتلصصهم على الحجاج وسلكنا طريق السروال عن يمين الجبل وهي مسافة سبعة أيام لا ماء فيها إلا ما غادرته الأمطار في قيعان الأرض ولكن بفضل الله ما مررنا علينا مسافة يوم إلا وجدنا من الماء فوق الكفاية ثم طلعنا إلى سفح الجبل وبتنا هنالك ثم ارتحلنا من هنالك ونزلنا ضحى لغرض لبعض أمراء الركب فيه بعض الغرض وفي قلب أكثر القافلة من الإقامة مرض ثم ارتحلنا..." (1)

نلاحظ أن التلخيص واقع على الأحداث المختلفة أحداث الحركة من الارتحال والنزول وما يصاحب ذلك من أعمال وتلخيص لأحداث يقوم بها المتلصصون على الحجاج... وقد يتخلل هذه التلخيصات بعض الأوصاف التي تضيء جانبا من جوانب المكان عن طريق الدقة أو الإضافة ومن ذلك: "...ثم ارتحلنا من العمريين وعدلنا عن طريق الإسكندرية يمينا في أرض طيبة كثيرا آثار البناء جمة المرعى وظهرت لنا عن اليسار على ساحل البحر قرية أبو صير وصومعة مسجدها إلى الآن ماثلة في الهواء وهي خالية وبتنا في مقابلة الإسكندرية ثم ارتحلنا من هنالك وفارقنا من كان معنا من الأعراب الذاهبين للبحيرا..." (2) فهذا تلخيص للأحداث تتخللها ملفوظات تحدد المكان "يمينا" و الزمان "وبتنا" و الخصوبة "طيبة" "جمة المرعى" وتصوير الأفق الذي تمتد إليه العين "عن اليسار على ساحل البحر قرية أبو صير وصومعة مسجدها..."

فالتلخيص يؤدي دور الإيجاز الذي يعطي لكل مقام مقال متناسب مع الأغراض

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 107.

(2) - نفسه، ج1، ص: 116.

البيئية، والمعطيات الجغرافية، والدلالات الاجتماعية والحضارية.

وقد تأتي هذه التلخيصات لأحداث متتابعة قريبة من الوصف الاستقصائي كقوله:
" وبعدما كملت الركائب، واجتمع بعد التفريق نجائد النجائب، وانقضى مقام المقيل، ونودي في ذلك المكان الرحب بالرحيل، وحمل المحمل الشريف، وفارق المربع والظل الوريف، وسار الركب سير السيل، وتسابقت العيس لجهات الخير، كأنها الخيل حتى وصل إلى قرب البويب، المعروف بالمصيغير، وفي الحقيقة هو باب القرب، ومنتهى السير، فاجتمع شمل الركاب في ذلك المكان، ورجع المودع في خبر كان، فاستراحت الناس والبهائم، واستيقظ بسهر الليل كل نائم..." [1]

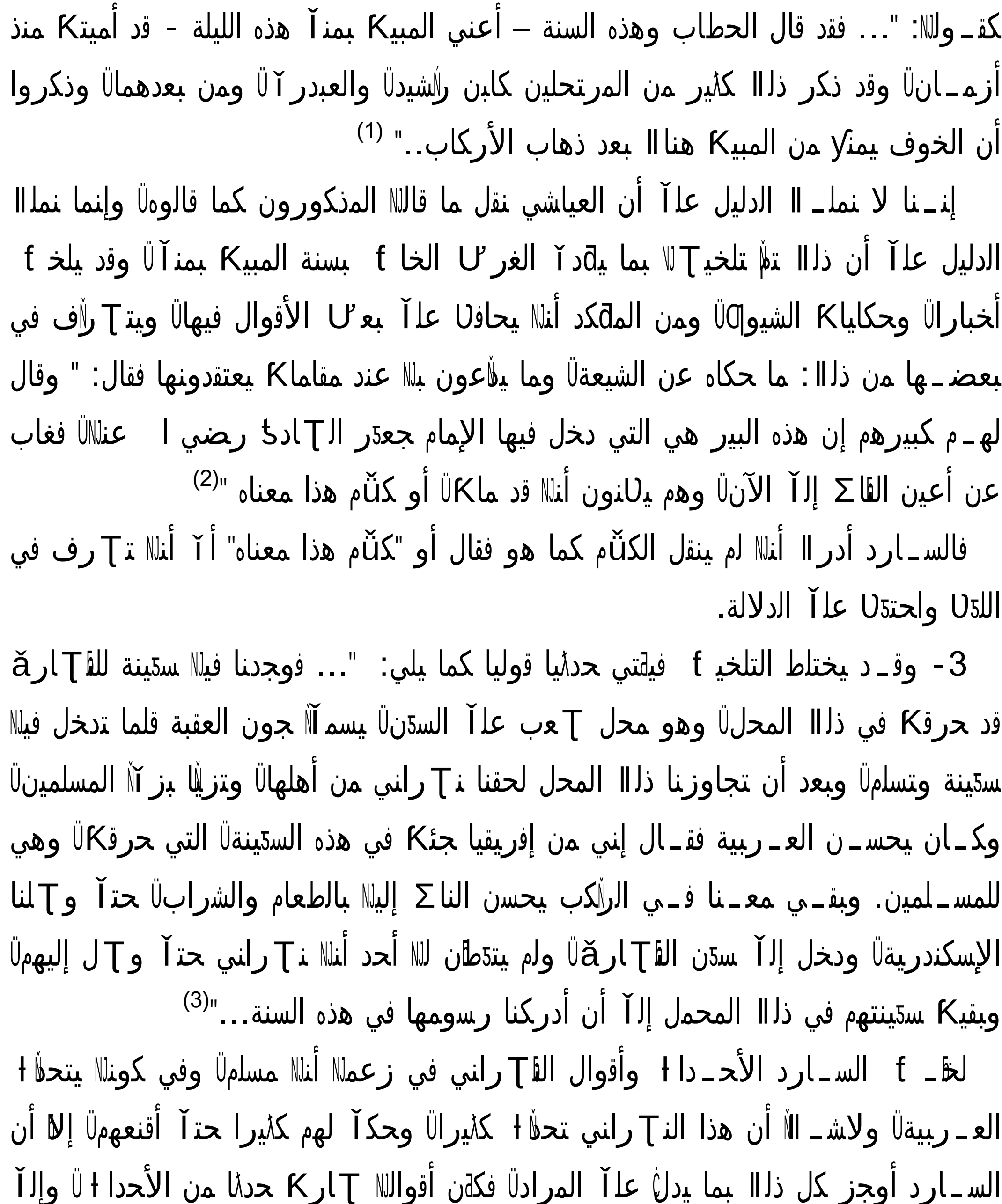
فهذا التلخيص المسجوع يوجز لنا مرحلة كاملة من السير، وما حدث فيها من أفعال، وفيه من الصور ما يستغنى به عن الوصف المستفيض، كقوله: "الظل الوريف" و "سار الركب سير السيل"، وإن كنا نشعر أن السارد قد خضع أحيانا لعسف السجع مثل " تسابقت العيس لجهات الخير، كأنها الخيل " أو " فاجتمع شمل الركاب في ذلك المكان ورجع المودع في خبر كان."

2- تلخيص الأقوال: تتناول خاصية الأقوال الأسلوب المباشر بالاختزال، والاختصار، فتتحول حكاية الأقوال إلى أحداث كلامية، ومن هذه التلخيصات التي يوردها السارد قوله:
"... وقد قيل إنهم يأخذون منهم جعلا على ذلك في أيام الموسم... وأما في غير الموسم ففي تلك البلاد الحكم التام الذي لا يوجد في بلد من البلاد، ويعتلون في أيام الموسم باختلاط الناس من جميع الآفاق، وتعدد الحكام، إذ لكل ركب حاكم، ويقولون لو أطلقنا اليد في الحكومة على كل سارق ربما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب، فيؤدي ذلك إلى الهرج في أيام الموسم، وتلك حجة ضعيفة." [2]. فمعظم ما ورد في هذه الفقرة تلخيص لأقوال أسند بعضها لمجهول، وبعضها لمعلوم، وبعضها للسارد. ولا دليل لنا على أن ما لخص حافظ عليه السارد، إلا ما نطقه هو " وتلك حجة ضعيفة " أما غير ذلك فهو تلخيص لأقوال مع التصرف في المضمون وفق ما يراه السارد.

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 161.

(2) - نفسه، ج1، ص: 192.



وقد يسند السارد الأقوال إلى أصحابها ولكن لا يوردها بنصها وإنما بما يقتضيه المقام كقوله: "... فقد قال الحطاب وهذه السنة – أعني المبيت بمنى هذه الليلة - قد أميتت منذ أزمان، وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين كابن رشيد، والعبدري، ومن بعدهما، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب.." (1)

إننا لا نملك الدليل على أن العياشي نقل ما قاله المذكورون كما قالوه، وإنما نملك الدليل على أن ذلك تم تلخيصه بما يؤدي الغرض الخاص بسنة المبيت بمنى، وقد يلخص أخبارا وحكايات الشيوخ، ومن المؤكد أنه يحافظ على بعض الأقوال فيها، ويتصرف في بعضها من ذلك: ما حكاه عن الشيعة، وما يدعون به عند مقامات يعتقدونها فقال: " وقال لهم كبيرهم إن هذه البير هي التي دخل فيها الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، فغاب عن أعين الناس إلى الآن، وهم يظنون أنه قد مات، أو كلام هذا معناه "(2)

فالسارد أدرك أنه لم ينقل الكلام كما هو فقال أو "كلام هذا معناه" أي أنه تصرف في اللفظ واحتفظ على الدلالة.

3- وقد يختلط التلخيص فيأتي حدثيا قوليا كما يلي: "... فوجدنا فيه سفينة للنصارى قد حرقت في ذلك المحل، وهو محل صعب على السفن يسمى جون العقبة قلما تدخل فيه سفينة وتسلم، وبعد أن تجاوزنا ذلك المحل لحقنا نصراني من أهلها، وتزيا بزي المسلمين، وكان يحسن العربية فقال إني من إفريقيا جئت في هذه السفينة، التي حرقت، وهي للمسلمين. وبقي معنا في الركب يحسن الناس إليه بالطعام والشراب، حتى وصلنا الإسكندرية، ودخل إلى سفن النصارى، ولم يتفطن له أحد أنه نصراني حتى وصل إليهم، وبقيت سفينتهم في ذلك المحمل إلى أن أدركنا رسومها في هذه السنة..."(3)

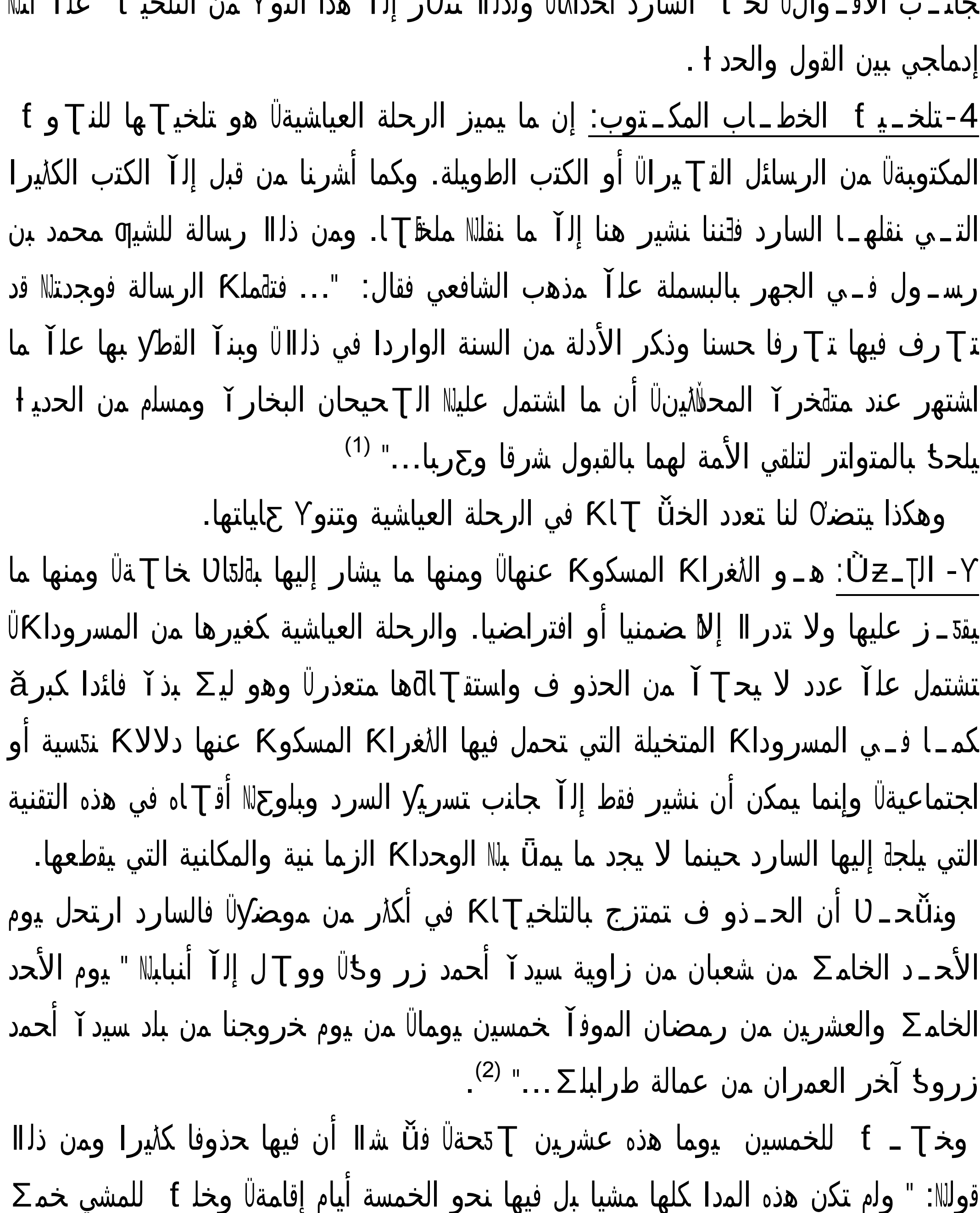
لخص السارد الأحداث وأقوال النصراني في زعمه أنه مسلم، وفي كونه يتحدث العربية، ولاشك أن هذا النصراني تحدث كثيرا، وحكى لهم كثيرا حتى أقنعهم، إلا أن السارد أوجز كل ذلك بما يدل على المراد، فكان أقواله صارت حدثا من الأحداث، وإلى

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 193.

(2) – نفسه، ص: 241.

(3) – نفسه، ص: 110.



جانب الأقوال لخص السارد أحداثه ولذلك ننظر إلى هذا النوع من التلخيص على أنه إدماجي بين القول والحدث.

4-تلخيص الخطاب المكتوب: إن ما يميز الرحلة العياشية هو تلخيصها للنصوص المكتوبة من الرسائل القصيرة أو الكتب الطويلة. وكما أشرنا من قبل إلى الكتب الكثيرة التي نقلها السارد فإننا نشير هنا إلى ما نقله ملخصا. ومن ذلك رسالة للشيخ محمد بن رسول في الجهر بالبسملة على مذهب الشافعي فقال: "... فتأملت الرسالة فوجدته قد تصرف فيها تصرفا حسنا وذكر الأدلة من السنة الواردة في ذلك وبين القطع بها على ما اشتهر عند متأخري المحدثين أن ما اشتمل عليه الصحيحان البخاري ومسلم من الحديث يلحق بالمتواتر لتلقي الأمة لهما بالقبول شرقا وغربا..." [1]

وهكذا يتضح لنا تعدد الخطابات الملخصة في الرحلة العياشية وتنوع غاياتها.

ج- الحذف: هو الفترات المسكوت عنها ومنها ما يشار إليها بعبارات خاصة ومنها ما يقفز عليها ولا تدرك إلا ضمنيا أو افتراضيا. والرحلة العياشية كغيرها من المسرودات تشتمل على عدد لا يحصى من الحذوف واستقصاؤها متعذر وهو ليس بذي فائدة كبيرة كما في المسرودات المتخيلة التي تحمل فيها الفترات المسكوت عنها دلالات نفسية أو اجتماعية وإنما يمكن أن نشير فقط إلى جانب تسريع السرد وبلوغه أقصاه في هذه التقنية التي يلجأ إليها السارد حينما لا يجد ما يملأ به الوحدات الزمانية والمكانية التي يقطعها.

ونلاحظ أن الحذوف تمتزج بالتلخيصات في أكثر من موضع فالسارد ارتحل يوم الأحد الخامس من شعبان من زاوية سيدي أحمد زروق ووصل إلى أنبابه "يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان الموافق خمسين يوما من يوم خروجنا من بلد سيدي أحمد زروق آخر العمران من عمالة طرابلس..." [2].

وتلخيص للخمسين يوما هذه عشرين صفحة فلا شك أن فيها حذوفا كثيرا ومن ذلك قوله: " ولم تكن هذه المدة كلها مشيا بل فيها نحو الخمسة أيام إقامة وخلص للمشي خمس

[1] – المصدر السابق، ج2، ص: 57.

[2] - نفسه، ج1، ص 120.

وأربعون يوما من مسراته إلى مصر..."(1) فخمسة أيام حذف مشار إليه على مستوى الخطاب، ولم يذكر من الأحداث المنجزة في هذه المدة شيئا. ومن ذلك أن فترة إقامته "مجاورا" بالمدينة امتدت من ليلة الخميس الثاني من محرم عام 1073هـ(2) إلى يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان عام 1073هـ(3) أي ما يقارب سبعة أشهر ونصف، ولم يذكر منها إلا أياما معدودات، وإنما سرد حوادث لقائه للشيوخ والمزارات بالمدينة وبعض العادات كالرجبية وغيرها، ونسخ جزء لبعض كتب التصوف، وأصحابها كابن العربي، وكبار علماء النقشبندية، ومما لا شك فيه أنه حذف أياما كثيرة ولم يسرد فيها شيئا.

ومن الحذف المؤكد أن السارد حين نزل بقنبا به ووصل القاهرة يوم 25 رمضان قال: " وبتنا تلك الليلة بالجامع الأزهر، لأنها ليلة سبع وعشرين، وفي الحقيقة كل الليالي بذلك المسجد كليلة القدر..." (4) فليلة سبع وعشرين تقام فيها أعمال، وتذكر فيها أقوال، سكت عنها السارد، وإنما لخصها بقوله: " وفي الحقيقة كل الليالي..."

وهذه دلالة قطعية على الثغرات الواسعة التي كان يمكن له أن يملأ بها نصه، ولكنه اكتفى بالإشارات السريعة. وهذا دأبه في معظم الحذف في الممزوجة بالتلخيص.

تركيب: نود أن نستجمع القول في الديمومة كالتالي:

1- مرحلة الحج: وفيها إحدى وثلاثين وحدات أنجزت زمنيا في زمن يقارب خمسة وأربعين ومئتي يوم وبحجم ورقي قدره ثلاثة وثمانون ومائة صفحة باستبعاد صفحات المقدمة والتمهيد. فإذا اتخذنا مقياسا افتراضيا وهو صفحة لكل يوم مثلا، فإننا سنجد أن الزمن أكثر من الحجم الورقي، أي أن الرحلة تتسم بنوع من الإيقاع السريع.

2- مرحلة [illegible] المقدسة:

اشتملت على عشر وحدات يقابلها من حيث الزمن تسعة وتسعون وثلاثمائة يوم، وبحجم ورقي قدره ثلاثة وثمانون وأربعمائة صفحة، أي أن الخطاب فيها أكثر من الزمن مما يجعلها تتسم بالبطء النسبي.

---

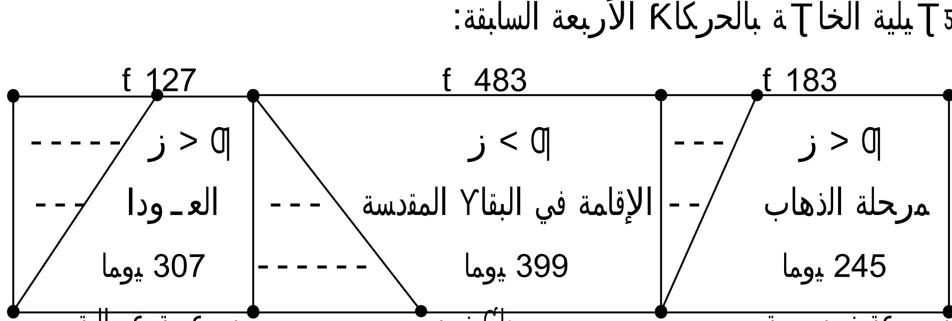
(1)- المصدر السابق، ج1، ص: 120-121.

(2)- نفسه، ج1، ص: 235.

(3)- نفسه، ج2، ص: 92.

(4)- نفسه، ج1، ص:126.

3- مرحلة العودة: وتشتمل على عشر وحدات ذات معالم زمنية واضحة، أنجزها السارد في زمن يقارب سبعة وثلاثمائة يوم، بحجم ورقي قدره سبع وعشرون ومائة صفحة، أي أن خطابها أقل من زمنها، مما يجعلها تتسم بسرعة إيقاعية أعلى بكثير من مرحلة الذهاب، وهذا الإجمال لا يعكس بالضرورة نوع الخطاب، لأن ذلك لا يتجلى إلا في النماذج التفصيلية الخاصة بالحركات الأربعة السابقة:



هذا المظهر العام لإيقاع الخطاب في علاقته مع الزمن، وهو يعكس المظهر الخارجي للرحلة، ولكن ما يميز خطاب الرحلة العياشية ليس هو الوصف، كما قد يتبادر إلى الذهن، وكما وجدناه في العبدرية، وإنما هو النقول المختلفة من كتب ورسائل اشتملت على موضوعات متعددة، إنه خطاب ينفتح على الأجناس الأدبية، وأنواع القول، و التأليف المختلفة، مما يدخل الرحلة في علاقات التناص المتعددة الجوانب. ويبين اهتمامات السارد/المؤلف.

تقنيات الحركة الزمنية

أ- المشهد:

إن المشاهد تمثل بشكل عام اللحظة التي يكاد يتطابق فيها زمن السرد بزمن القصة من حيث مدى الاستغراق " ولكن الحوار نفسه قد يأتي بطيئا أو سريعا حسب طبيعة الظروف المحيطة، كما أنه ينبغي مراعاة لحظات الصمت أو التكرار، مما يجعل الاحتفاظ بالتطابق بين زمن حوار السرد، وزمن حوار القصة قائما على الدوام..." [1]

وتتسم الرحلة بالسرد والوصف أكثر من الحوار، وكأن الحوار ليس من خصائصها المميزة، حتى حين يرد الحوار فإنه يسرد، ورغم ذلك فلا تخلو رحلة من هذه التقنية التي تجعل شخصين أو أكثر في مواجهة كلامية مباشرا.

ومن ذلك هذا الحوار بين قائد المرسى والسفير المغربي: " فذهبنا لقائد المرسى عند تعيين سفرنا وأكدنا عليه في الاعتناء بالأسارى وحملهم على الفور... فقال: حبا وكرامة فالأمر سهل والأشياء مقضية، وما نحن إلا في انتظار الريح الشرقية، فلتطب نفسا من ذلك، فإننا مأمورون من عظيمنا ببعث الأسارى على الفور.

ثم أخذنا في استنجاده في حمل النساء من الأسارى بأولادهم مع إخوانهم [كذا] المؤمنين... فقال: " لا سبيل إلى ذلك لأن مركب الكراء مشحون بالشطوط، لا يمكن حمل النساء معهم بالكلية... فاستحسنا كلامه، وقبلنا عذره، وألححنا عليه في كراء مركب يحمل فيه هؤلاء القوم... فأجاب لذلك وبعث في الحال لصاحب مركب كان حاضرا بالمرسى...

فلما بعثه له بالمال رده علينا، وأقسم بدينه المعوج: لا يأخذ واجب الكراء إلا من ماله فكثرنا خيره، ودعونا له بالهداية..." [2]

فالحوار كما يتجلى في هذا النص يتسم ببعض الطول في الرحلة، مما يجعله بطيء الحركة في ذاته، وثانيا يتخلله سرد أي خطاب غير مباشر يلجأ فيه السارد إلى نوع من تلخيص ما جرى، ومن أحداث وقولية بين المتحاورين، وهذه إحدى السمات الأساسية للحوار في الرحلة الذي لا يحتفظ فيه بالخطاب المباشر.

---

(1) – جيرار جنيت، صور III، ص: 133- نقلا عن حميد لحمداني – بنية النص السردي، ص: 78.

(2) – الغزال، الرحلة، ص 186-187.

وسرد الأقوال وتحويلها إلى خطاب غير مباشر سمة مميزا للرحلةŮ من ذلك قوله: " وقد أحضر حال التشيير الموكلين بهم Ů وأوصيته بالرفق بهمŮ والاعتناء بأمورهمŮ ووعدته أن أذكـره عند طاغيته بخيرŮ وقد كان له حاجة عند الوزير في الوقتŮ تحمل له بقضائها فـي مقابلة إحسانه لإخواننا فانبسط اللعين لذلكŮ وألزم نفسه المبرا... وعند التشيير معهم قال جميعهم: لقد أحبكمŮ ولم يبق لنا طمع في مخلوق إلا في ولد سيد المرسلينŮ صلى الله عليه وسلمŮ إما أن يكون عتقنا على يده الكريمة أو نحن إلى الهلاك أقرب..."Ů[1] فما جرى بـين السـفير والمشـرف على الأسرى المسلمينŮ وبينهم وبين السفير نفسهŮ كان قد تم بالحـوار المباشـرŮ إلا أن السـاردŮ حـول كل ذلك إلى خطاب غير مباشر عن طريق التصـرف فيهŮ ومن ذلك هذا الأسلوب غير المباشر الحر الذي أجرى عليه السارد بعض التصـرفŮ مع الحفاظ على بعض الأصل: "...فلم نلبث إلا والطاغية مقبل هو وأخوه في كـد واحدŮ وفي إثره أكدا حاملة لأولادهŮ فنزل عن الكد وأخذ بيدي وهو يـ Ů وجعل يرحب على لسان الترجمانŮ ومن جملة ما قال أن هذا اليوم عنده أعظم عيد فرحا بما تفضل به علينا سيدنا المنصور باŮ إلى غير ذلك مما في معناهŮ وقد قدم لنا اثنين من أولاده... Ůوتكلمـا بكـلامŮ قـال الطاغـية للترجمان: " عرف ما يقولون لصاحب سيدنا السـلطان أعزه ا "Ů فقال الترجمان: إن معنى كلامهما " ا ينصر سلطان مراكش Ů ا يعـيش الباشـدورŮ وإن لـنا محبة فيه كثيرا " فضممتهما إلي فرحا بهماŮ وجعل الطاغية يضـحك مـن قولـيهماŮ ولاشك أنه هو الملقن لهما ذلك فقلت: " محبة الآباء تظهر على الأولادŮ ومحـبة الملـوك تظهر في الرعيةŮ وقد شاهدنا ذلك في أولادك وفي رعيتك " Ů فانبسـط مـن جوابـنا غايةŮ وجعل يتهم خاصته بما أجبته بهŮ وطأطأوا رؤوسهم أمامنا بـأجمعهم مجـازاة لنا على ما خاطبته به عظيمهمŮ ثم قال الطاغية: " أنا واحد من خدام سلطانك ومن جملة عبيدهŮ وأمره ممتثل فيناŮ فليأمر بما شاءŮ وهذه المواصلة التي أنعم بها علـيّ...لا يساويها مال أصبانيه فهي عندي أعظم وأعظم.... " Ů[2] فهذا مشهد اللقاء بين السـفير والملـك الأسباني وتسليمه الهدية؛ وهو حوار شيقŮ تصرف السارد في بعضه

---

[1] - المرجع السابقŮ f : 143- 144

[1] - نفسهŮ f :138-139.



وينقل بعضه حرفيا، كما تخلل ذلك بعض السرد الذي يحرك المشهد الساكن، وحرف العطف "ثم" هي الرابط بين الأقوال والأفعال، إلا أن المشهد في عمومه بطيء بالقياس إلى التلخيص والحذف، والبطء مختلف بين مشهد وآخر.

وقد ينقل السارد المشاهد الحوارية كما هي (على قلتها)، قال الطاغية للوزير: " إن هواء هذا البلد لم يساعد أصحاب السلطان، وقد خفنا عليهم، فإنني أحب أن أبعث بهم إلى مدريد يقيمون بها في عز وكرامة..."

ولما قص علينا الوزير ما حدثه به طاغيته قلنا للوزير: " إن كان مراده وغبطته في إقامتنا بمدريد البرور والإكرام، فلا مزيد على ما تقدم به من فرحه بنا وإكرامه إيانا، وإن كان مراده شيئا آخر بينه لنا أجاوبه عليه "

فقال: " إنه يريد أن يبعث معكم بالشدور ويصحب معه هدية للسلطان، ورأى من الرأي بعثه معكم، ونحن مجتهدون في جمع الهدية، وقد بقي منها مسائل بعض بعيدا، نحن في انتظار قدومها علينا."

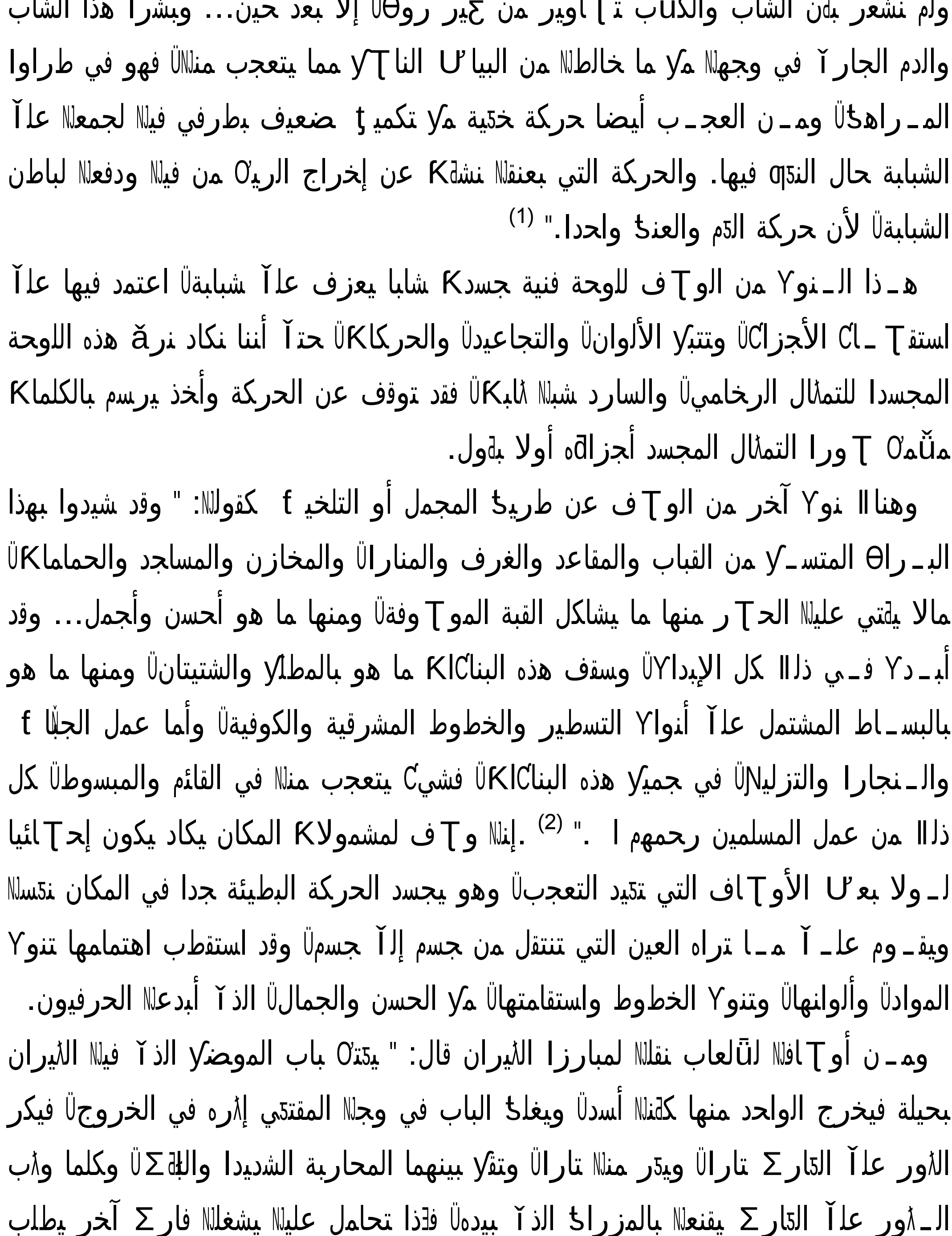
فقلنا: " هذا أمر أكيد، يجب علينا مراعاة الرأي فيه..." (1)

ورغم هذا فإن المواقف الحوارية قليلة على مستوى الرحلة، وهذا المشهد أفضلها، ولكننا لا ندري أكان الكلام بين السفير والوزير مباشرا باللغة العربية، أم كان كل منهما يعرب بلغته والترجمان واسطة بينهما.

ب - الوقفة: تظهر الوقفة في المواقف التي يهتم فيها السارد بالوصف فيتضخم الخطاب على حساب سير الأحداث، فالسارد يصف ما بداخل إحدى القباب التي زارها قائلا: "...وبصدر القبة كرسي من الرخام، علوه من الأرض نصف قامة بأطرافه صفائح من الذهب، وقد علاه شاب ما فتحت عيني على أحسن منه صورة قط، وبيده شبابة متصلة بفيه، وأنامله على ثقب الشبابة تتحرك بما تقتضيه النغمات، ترتيبا وتنخفيضا، وقد توسد ركبتيه كلبان أحدهما باسط ذراعيه على ركبته اليمنى، وعينان شاخصتان للشاب، ولسانه وذنبه يتحركان بحركات ضابطا للميزان، فهو بمنزلة الوسادة من أهل الموسيقى، والكلب الآخر باسط يديه على ركبته اليسرى يحرك ذنبه فقط، وحالهما في الميزان واحد،

---

(1) – المصدر السابق، ص: 140.



ولم نشعر بأن الشاب والكاتب تحاور من غير روح إلا بعد حين... ويشرا هذا الشاب والدم الجاري في وجهه مع ما خالطه من البياض الناصع مما يتعجب منه فهو في طراوا المراهق ومن العجب أيضا حركة خفية مع تكميش ضعيف بطرفي فيه لجمعه على الشبابة حال النفخ فيها. والحركة التي بعنقه نشأت عن إخراج الريح من فيه ودفعه لباطن الشبابة لأن حركة الفم والعنق واحدا." (1)

هذا النوع من الوصف للوحة فنية جسدت شابا يعزف على شبابة اعتمد فيها على استقصاء الأجزاء وتتبع الألوان والتجاعيد والحركات حتى أننا نكاد نرى هذه اللوحة المجسدا للتمثال الرخامي والسارد شبيه بآلة فقد توقف عن الحركة وأخذ يرسم بالكلمات مصورا التمثال المجسد أجزاءه أولا بأول.

وهناك نوع آخر من الوصف عن طريق المجمل أو التلخيص كقوله: " وقد شيدوا بهذا البر المتسع من القباب والمقاعد والغرف والمنارات والمخازن والمساجد والحمامات مالا يأتي عليه الحصر منها ما يشاكل القبة الموصوفة ومنها ما هو أحسن وأجمل... وقد أبدع في ذلك كل الإبداع وسقف هذه البنايات ما هو بالمطلي والشتيتات ومنها ما هو بالبساط المشتمل على أنواع التسطير والخطوط المشرقية والكوفية وأما عمل الجبص والنجارا والتزليج في جميع هذه البنايات فشيء يتعجب منه في القائم والمبسوط كل ذلك من عمل المسلمين رحمهم ا ." (2) .إنه وصف لمشمولات المكان يكاد يكون إحصائيا لولا بعض الأوصاف التي تفيد التعجب وهو يجسد الحركة البطيئة جدا في المكان نفسه ويقوم على ما تراه العين التي تنتقل من جسم إلى جسم وقد استقطب اهتمامها تنوع المواد وألوانها وتنوع الخطوط واستقامتها مع الحسن والجمال الذي أبدعه الحرفيون.

ومن أوصافه لألعاب نقله لمبارزة الثيران قال: " يفتح باب الموضع الذي فيه الثيران بحيلة فيخرج الواحد منها كأنه أسد ويغلق الباب في وجه المقتفي أثره في الخروج فيكر الثور على الفارس تارة ويفر منه تارة وتقع بينهما المحاربة الشديدة والفارس وكلما وثب الثور على الفارس يقنعه بالمزراق الذي بيده فإذا تحامل عليه يشغله فارس آخر يطلب

---

(1)– المصدر السابق، ص: 130.

(2)– نفسه، ص: 81.

مبارزته من خلف وأمامه فيسلمه الثور ويقبل على مبارزة الثاني فإذا وثب عليه وزاحمه يطلب مبارزته الأول فيترك الثاني ويعود إلى الأول وهكذا فإذا ضعفت قوته تتأخر عنه الفرسان وتتقدم عليه عدة نفار راجلين وبأيديهم حراب طولها قدر ذراع أسنتها على قدر السنان يختلسون الثور ويمكنونها من الموضع الذي أمكنهم منه ظهره أو جنبه فإذا زاحمهم الثور يرمون بالشمر ير أمامه فيقع وتارة يتولى والمتصدي لقتله رجل واحد يطعنه بسيف تحت قرنه من جهة رقبته فيخر ميتا من حينه ويأتي بثلاثة بغال مزينة تجره من فوره ثم يخرجون ثورا آخر يفعل به مثل الأول وهكذا." [1]

أجاد السارد في تتبع الحركة بين اللاعبين والثور وتجسيد اللعبة تجسيدا جيدا بالألفاظ مما يدل على تمكن السارد في تشكيل اللغة والتصرف فيها وفق ما يتطلبه المقام.

وبالإجمال يمكن القول إن سارد رحلة "الغزال" وصاف ممتاز وقد وصف الأحياء والأماكن العامة والمدن والطرق والقناطر والقباب والمساجد والأقواس واحتفالات الاستقبال وغيرها. فالبنية الوصفية تشكل كما واسعا من الرحلة.

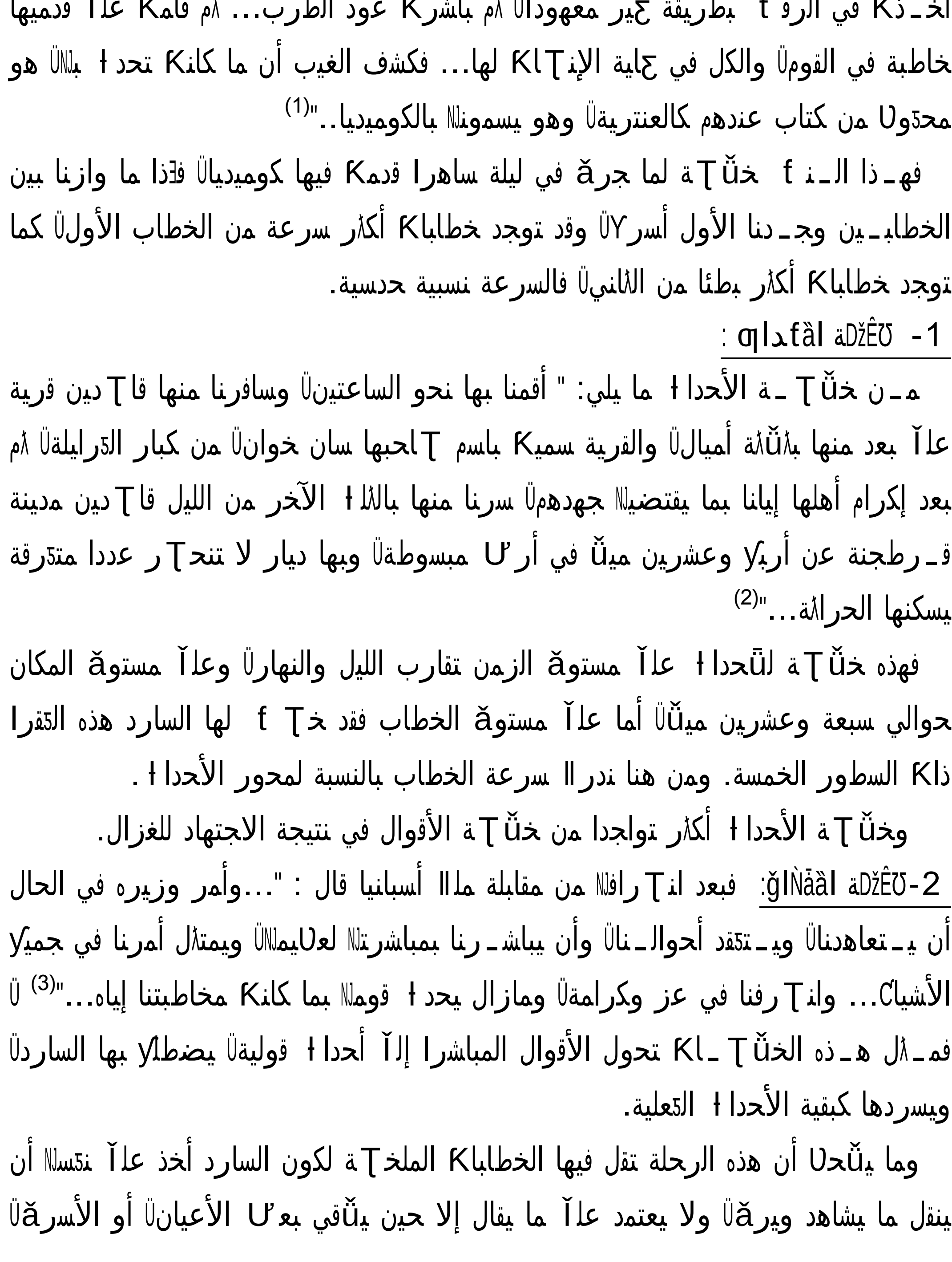
ويمكن القول أن الوقفات الوصفية تأخذ قسطا وافرا من متن الرحلة فكلما دخل مدينة أخذ الوصف في التضخم حسب مشاهدات السارد وزياراته حتى أننا لا نعدم الصواب إذا قلنا كل حديث عن مدينة يشكل وقفة سردية تتعدد تقنياتها وتتنوع وهي مرتبطة بوجود السارد في المدينة حيث ينقل مناظر الاستقبال أو يخلد للراحة ويبدأ في استكشاف المكان فيصف الآثار أو الحفلات التي تقام على شرفه فالوقفات راحة على مستوى الرحلة وعلى مستوى الراحل.

3- الخلاصة:

هي حركة نشعر بها ويصعب قياسها فإذا وقفنا عند هذا النص: " ومن غدا ليلتنا سافرنا قاصدين مدينة إيلشي عبرنا إليها عن اثني عشر ميلا."[2] نشعر أن الخطاب سريع جدا بالقياس إلى الذي يلي: " هي بين الحضارة والبداوة ومن أعجب ما رأيت عندهم طفلة ما ناهز في عمرها تسعة أعوام وقد أحيت الليل كله بالغناء بين أهل الموسيقى ثم

(1)- الغزال، الرحلة، ص: 65.

(2)- نفسه، ص: 175.



أخـذت في الرقص بطريقة غير معهودة، ثم باشرت عود الطرب... ثم قامت على قدميها خاطبة في القوم، والكل في غاية الإنصات لها... فكشف الغيب أن ما كانت تحدث به هو محفوظ من كتاب عندهم كالعنترية، وهو يسمونه بالكوميديا.."[1]

فهـذا الـنص خلاصة لما جرى في ليلة ساهرا قدمت فيها كوميديا، فإذا ما وازنا بين الخطابـين وجـدنا الأول أسرع، وقد توجد خطابات أكثر سرعة من الخطاب الأول، كما توجد خطابات أكثر بطئا من الثاني، فالسرعة نسبية حدسية.

1- خلاصة الأحداث :

مـن خلاصـة الأحداث ما يلي: " أقمنا بها نحو الساعتين، وسافرنا منها قاصدين قرية على بعد منها بثلاثة أميال، والقرية سميت باسم صاحبها سان خوان، من كبار الفرايلة، ثم بعد إكرام أهلها إيانا بما يقتضيه جهدهم، سرنا منها بالثلث الآخر من الليل قاصدين مدينة قـرطجنة عن أربع وعشرين ميلا في أرض مبسوطة، وبها ديار لا تنحصر عددا متفرقة يسكنها الحراثة..."[2]

فهذه خلاصة للأحداث على مستوى الزمن تقارب الليل والنهار، وعلى مستوى المكان حوالي سبعة وعشرين ميلا، أما على مستوى الخطاب فقد خصص لها السارد هذه الفقرة ذات السطور الخمسة. ومن هنا ندرك سرعة الخطاب بالنسبة لمحور الأحداث.

وخلاصة الأحداث أكثر تواجدا من خلاصة الأقوال في نتيجة الاجتهاد للغزال.

2- خلاصة الأقوال: فبعد انصرافه من مقابلة ملك أسبانيا قال : "...وأمر وزيره في الحال أن يـتعاهدنا، ويـتفقد أحوالـنا، وأن يباشـرنا بمباشرته لعلاجنا، ويمتثل أمرنا في جميع الأشياء... وانصرفنا في عز وكرامة، ومازال يحدث قومه بما كانت مخاطبتنا إياه..."[3]،

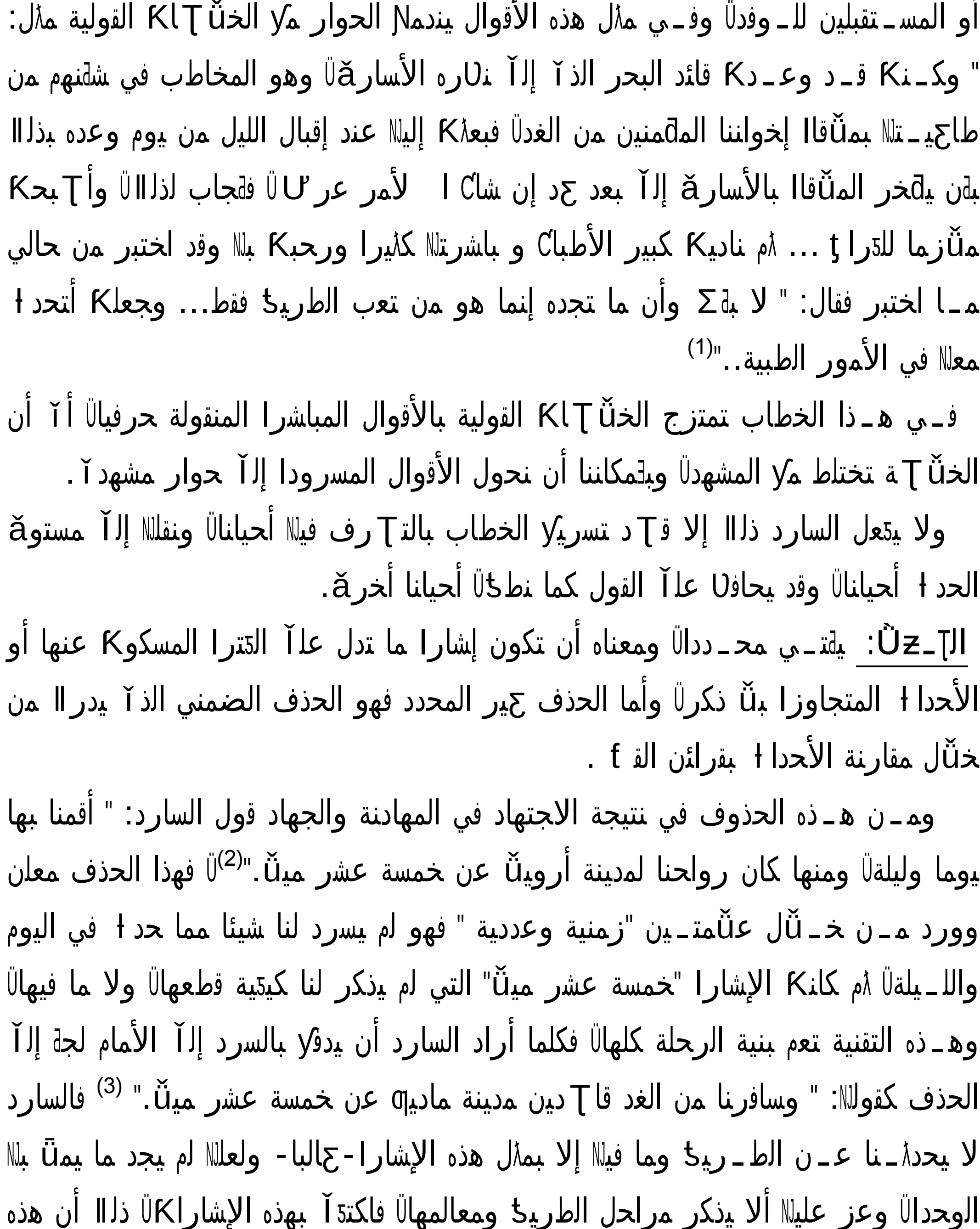
فمـثل هـذه الخلاصـات تحول الأقوال المباشرة إلى أحداث قولية، يضطلع بها السارد، ويسردها كبقية الأحداث الفعلية.

وما يلاحظ أن هذه الرحلة تقل فيها الخطابات الملخصة لكون السارد أخذ على نفسه أن ينقل ما يشاهد ويرى، ولا يعتمد على ما يقال إلا حين يلتقي بعض الأعيان، أو الأسرى،

(1) – المصدر السابق، ص: 174.

(2) – نفسه، ص: 177.

(3) – نفسه، ص: 129.



أو المستقبلين للوفد، وفي مثل هذه الأقوال يندمج الحوار مع الخطابات القولية مثل: " وكان قد وعد قائد البحر الذي إلى نظره الأسارى، وهو المخاطب في شأنهم من طاغيته بمثقال إخواننا المؤمنين من الغد، فبعث إليه عند إقبال الليل من يوم وعده بذلك بأن يؤخر المثقال بالأسارى إلى بعد غد إن شاء الله لأمر عرض، فأجاب لذلك، وأصبحنا ملتزما للسرى ... ثم ناديت كبير الأطباء و باشرته كثيرا ورحب بنا وقد اختبر من حالي ما اختبر فقال: " لا بأس وأن ما تجده إنما هو من تعب الطريق فقط... وجعلت أتحدث معه في الأمور الطبية.."[1]

في هذا الخطاب تمتزج الخطابات القولية بالأقوال المباشرة المنقولة حرفيا، أي أن الخطابة تختلط مع المشهد، ويمكننا أن نحول الأقوال المسرودة إلى حوار مشهدي.

ولا يفعل السارد ذلك إلا قصد تسريع الخطاب بالتصرف فيه أحيانا، ونقله إلى مستوى الحدث أحيانا، وقد يحافظ على القول كما نطق أحيانا أخرى.

الحذف: يأتي محددا، ومعناه أن تكون إشارة ما تدل على الفترة المسكوت عنها أو الأحداث المتجاوزة بلا ذكر، وأما الحذف غير المحدد فهو الحذف الضمني الذي يدرك من خلال مقارنة الأحداث بقرائن النص .

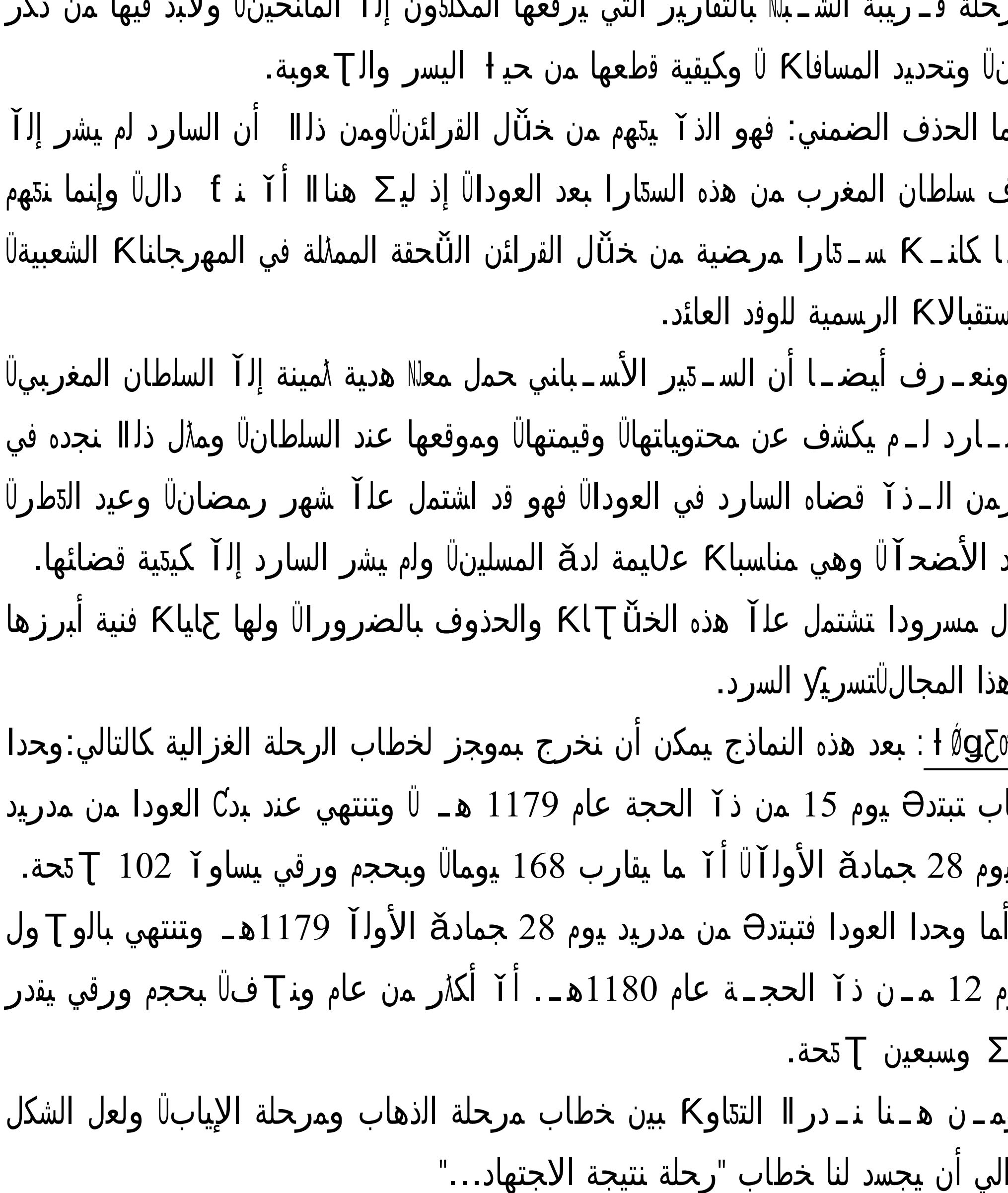
ومن هذه الحذوف في نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد قول السارد: " أقمنا بها يوما وليلة، ومنها كان رواحنا لمدينة أرويلا عن خمسة عشر ميلا."[2]، فهذا الحذف معلن وورد من خلال علامتين "زمنية وعددية " فهو لم يسرد لنا شيئا مما حدث في اليوم والليلة، ثم كانت الإشارة "خمسة عشر ميلا" التي لم يذكر لنا كيفية قطعها، ولا ما فيها، وهذه التقنية تعم بنية الرحلة كلها، فكلما أراد السارد أن يدفع بالسرد إلى الأمام لجأ إلى الحذف كقوله: " وسافرنا من الغد قاصدين مدينة ماديرا عن خمسة عشر ميلا." [3] فالسارد لا يحدثنا عن الطريق وما فيه إلا بمثل هذه الإشارة -غالبا- ولعله لم يجد ما يميز به الوحدة، وعز عليه ألا يذكر مراحل الطريق ومعالمها، فاكتفى بهذه الإشارات، ذلك أن هذه

---

(1) – المصدر السابق، ص: 180.

(2) – نفسه، ص: 175.

(3) - نفسه، ص: 170.



الـرحلة قـريبة الشـبه بالتقارير التي يرفعها المكلفون إلى المانحين، ولابد فيها من ذكر المدن، وتحديد المسافات، وكيفية قطعها من حيث اليسر والصعوبة.

أما الحذف الضمني: فهو الذي يفهم من خلال القرائن،ومن ذلك أن السارد لم يشر إلى موقف سلطان المغرب من هذه السفارة بعد العودة، إذ ليس هناك أي نص دال، وإنما نفهم أنهـا كانـت سـفارة مرضية من خلال القرائن اللاحقة الممثلة في المهرجانات الشعبية، والاستقبالات الرسمية للوفد العائد.

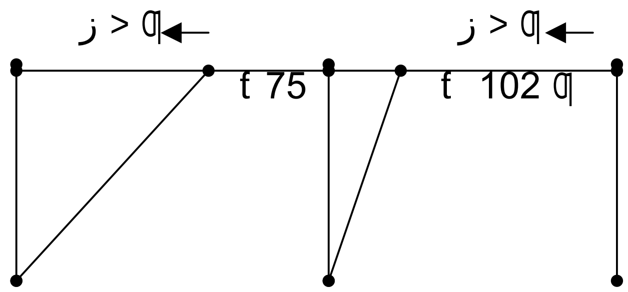
ونعـرف أيضـا أن السـفير الأسـباني حمل معه هدية ثمينة إلى السلطان المغربي، والسـارد لـم يكشف عن محتوياتها، وقيمتها، وموقعها عند السلطان، ومثال ذلك نجده في الـزمن الـذي قضاه السارد في العودة، فهو قد اشتمل على شهر رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، وهي مناسبات عظيمة لدى المسلين، ولم يشر السارد إلى كيفية قضائها.

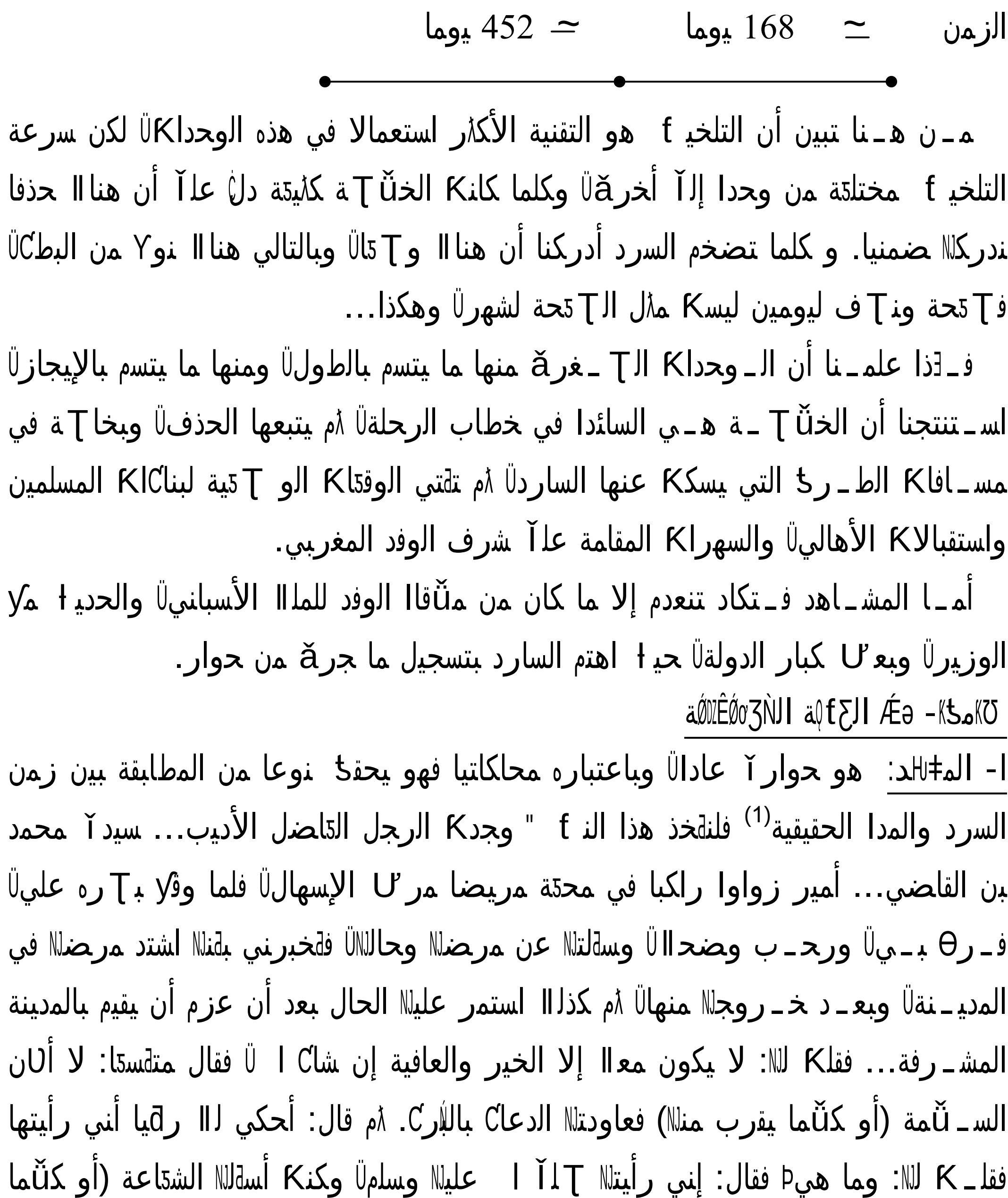
فكل مسرودة تشتمل على هذه الخلاصات والحذوف بالضرورة، ولها غايات فنية أبرزها في هذا المجال، تسريع السرد.

ŀ ǾĝƸƠ: بعد هذه النماذج يمكن أن نخرج بموجز لخطاب الرحلة الغزالية كالتالي: وحدة الذهاب تبتدئ يوم 15 من ذي الحجة عام 1179 هـ ، وتنتهي عند بدء العودة من مدريد أي يوم 28 جمادى الأولى، أي ما يقارب 168 يوما، وبحجم ورقي يساوي 102 صفحة.

أما وحدة العودة فتبتدئ من مدريد يوم 28 جمادى الأولى 1179هـ وتنتهي بالوصول يـوم 12 مـن ذي الحجـة عام 1180هـ. أي أكثر من عام ونصف، بحجم ورقي يقدر بخمس وسبعين صفحة.

ومـن هـنا نـدرك التفاوت بين خطاب مرحلة الذهاب ومرحلة الإياب، ولعل الشكل الموالي أن يجسد لنا خطاب "رحلة نتيجة الاجتهاد..."





مـن هـنا تبين أن التلخيص هو التقنية الأكثر استعمالا في هذه الوحدات، لكن سرعة التلخيص مختلفة من وحدا إلى أخرى، وكلما كانت الخلاصة كثيفة دل على أن هناك حذفا ندركه ضمنيا. و كلما تضخم السرد أدركنا أن هناك وقفات وبالتالي هناك نوع من البطء فسحة ونصف ليومين ليست مثل الفسحة لشهر، وهكذا...

فـإذا علمـنا أن الـوحدات الصـغرى منها ما يتسم بالطول، ومنها ما يتسم بالإيجاز، اسـتنتجنا أن الخلاصـة هـي السائدا في خطاب الرحلة، ثم يتبعها الحذف، وبخاصة في مسـافات الطـرق التي يسكت عنها السارد، ثم تأتي الوقفات الو صفية لبنايات المسلمين واستقبالات الأهالي، والسهرات المقامة على شرف الوفد المغربي.

أمـا المشـاهد فـتكاد تنعدم إلا ما كان من مقابلة الوفد للملك الأسباني، والحديث مع الوزير، وبعض كبار الدولة، حيث اهتم السارد بتسجيل ما جرى من حوار.

ثانيا - الزمن النصي (المدة)

ا- المشهد: هو حوار عادة، وباعتباره محاكاتيا فهو يحقق نوعا من المطابقة بين زمن السرد والمدا الحقيقية[1] فلنأخذ هذا النص " وجدت الرجل الفاضل الأديب... سيدي محمد بن القاضي... أمير زواوا راكبا في محفة مريضا مرض الإسهال، فلما وقع بصره علي، فـرح بـي، ورحـب وضحك، وسألته عن مرضه وحاله، فأخبرني بأنه اشتد مرضه في المديـنة، وبعـد خـروجه منها، ثم كذلك استمر عليه الحال بعد أن عزم أن يقيم بالمدينة المشـرفة... فقلت له: لا يكون معك إلا الخير والعافية إن شاء الله، فقال متفائلا: لا أموت في السـنة (أو كلاما يقرب منه) فعاودته الدعاء بالبرء. ثم قال: أحكي لك رؤيا أني رأيتها فقلـت له: وما هي؟ فقال: إني رأيته صلى الله عليه وسلم، وكنت أسأله الشفاعة (أو كلاما

---

[1] – برنار فاليط، النص الروائي تقنيات ومناهج، ص: 11.

هذا معناهٳ وأعيد ﻟﻪ ذﻟﻚ المرا بعد المرا) حتﻰ قال لي: إنني شﻬﻌﮐ فيﻚ أو أﻧﻚ مغﻬور لك أو لا تخف (مما هو حاﺻل هذا المعنﻰ) فسرني ما رأﻳā وطمعﮐ في الأﺟرĆ..." [1]

إﻧﻪ حوار جرā بين السارد/المﺆلف وﺻديقﻪ ابن القاضيٳ وقد ورد فيﻪ كﻼم كل واحد مـنهما علﻰ ما نطﻖ بﻪ ﻏالباٳ وتﺻرف في بعﺾ الأقوال ولم ينقلها حرفياٳ ولكنﻪ حافﻆ علـﻰ ما قال ﻟﻪ المتكلم مﻊ إدخال التغيير علﻰ بعﺾ الألﻔاﻆٳ ولخ ﺺ أقوالا أخرā مﺜل: "فعاودتﻪ الدعاĆ"ٳ ﺛم إن السارد لم يجعلﻪ كﻼما مباشراٳ وإنما سرد الحوار بين المتكلمينٳ بالإضافة إلﻰ حكاية رﺆيا الرسول ﺻلﻰ ا عليﻪ وسلم.

وهذه المشاهد قليلة في الرﺣلﮐٳ وعلﻰ قلتها تبﻴن لنا ﺻورا المشاهد الحوارية عموماٳ فمـن خﻼل مسيرا شهرين من الزمن بعد العودا من المدينة إلﻰ مﺻرٳ سرد لنا المﺆلف حوالـي إحـدā وعشرين ﺻﻔحة[2]ٳ درسناهاٳ ورسمنا لها جدولا يبين الأنساﻕ الخطابية المـرتبطة بالـزمن (مشهدٳ حذفٳ وقﻔةٳ تلخي ﺺ) وسبب تحليلنا لهذه الوحدا خلوها من النقل عن ﻏيرهٳ فتبين لنا الآتي:

مجمـوﻉ الأسـطر المنسوخة علﻰ مدā إحدā وعشرين ﺻﻔحةٳ يقدر بـ: سبعة عشرا وأربﻊ مائة سطرا (417)

26 سطرا ذاﮐ حوار مسرد = ﺻﻔحة ونﺻف للحوار تقريبا.

80 سطرا وقﻔاﮐ وﺻﻔية = 4 ﺻﻔحاﮐ للوﺻف تقريبا.

317 سطرٳ خﻼﺻاﮐ سردية = سﮐ عشرا ﺻﻔحة للتلخي ﺺ تقريبا.

. إشاراﮐ قليلة للحذف المعلن.

ونﻈـرا لانعدام الزمن المخﺻ ﺺ لكل خطابٳ فﺈننا نكتﻔي بالتعليﻖ. فالمشهد قليل جﺪاٳ أمـا الوقﻔاﮐ فهي انتقائية تكتﻔي بالمﻼمﺢ الدالةٳ ولا تلجﺄ إلﻰ الاستقﺻاĆٳ وكﺜيرا ما ترد الوقﻔاﮐ الو ﺻﻔية مختلطة مﻊ الخطاباﮐ الأخرāٳ ولا نجدها خاﻟﺻة إلا في النادر بخﻼف رحلة العبدرﻱ الذﻱ شغف بالوقﻔاﮐ الوﺻﻔية. أما التلخي ﺺ فهو الخطاب الأكﺜر ورودا في الرﺣﻼﮐ عموما وفي الورتيﻼنية بالخﺻو ﺺ .

---

[1] – الورتيﻼنيٳ الرحلةٳ ﺺ :535.

[2] - نﻔسﻪٳ ﺺ : 533- 554.

1- الوقفة: تختلف الوقفات الوصفية فمنها ما يصف الأشخاص، ومنها ما يصف الأماكن، ومنها الوقفات التأملية أو غير ذلك.

فمن الوقفات الوصفية لشخص ما يلي: "...وإذا بواحد من العرب لقينا بقربة من الماء فاستقى جميعنا، كأنا منا أن هذا الشخص لم يرد منا إلا الحلوان، فشربنا الماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج، فلم نعلم أنه من ماء المطر، أو من ماء العيون التي في الجبال، فلما أتى عن آخرنا، ارتقبنا منه أن يتكلم ويسأل الدراهم كما هي عادة عرب الحجاز... فلم يطلب من أحد دعاء ولا سأل شيئا منه، بل رفع قربته، ولم يلتفت إلى أحد منا فعجب جميعنا منه، ووقع في قلوبنا أن هذا الرجل من أهل الله... إذ يعلوه جلال وهيبة ونور، فندم الكل من حيث أنهم لم يسألوا منه الدعاء..." (1)

فالوقفة هنا ابتدأت بوصف ماء متناول من قبل رجل أعرابي غير معروف، ثم انتقلت إلى وصف الرجل نفسه بعد أن تبينت غرابته، ولكون أصحاب الركب ألفوا مثل هذا السلوك فقد توقعوا أن يطلب منهم الساقي الدعاء، ولكنه لم يفعل، وبذلك تغيّر تقييمهم للرجل حتى كأنوا أنه من أولياء الله، وتأسفوا عن غفلتهم إذ لم يغتنموا الفرصة بالتماس دعائه لهم بالتوفيق والرّعاية.

وإذا كانت هذه الوقفة تريح القارئ من عناء السرد السريع، فليست كل الوقفات كذلك. ومن الوقفات الواصفة للركب قوله: "...فلما قرب الصباح كأنا منه، ووصلنا المضيق الوعر... فسرنا في ذلك الوعر رويدا رويدا، وخرجنا منه على سلامة وعافية، ومع ذلك دارت العرب ببنادقها مع ضرب البارود في أطراف الركب، فعلا النداء والصياح فانحجم أول الركب وربضوا إلى أن وصل سلطان فزان في تخته فسلم الحجاج..." (2)

فالوصف هنا ليس خالصا؛ إذ فيه شيء من الحذف والتلخيص، ولكنه وصف يشبه أن يكون بانو راميا يرسم مشهد الركب، واللصوص المتربصين به، وحال الحجاج، وإنقاذ الموقف من قبل سلطان فزان بركبه.

وقد اشترك في هذا الوصف البصر والسمع، وأدى وظيفة إخبارية بصفاته الحسنة،

(1) – المصدر السابق، ص: 543.

(2) – نفسه، ص: 536.

ومـن الوقفات الشيقة قوله: "... وأما الأسواق والأخبية والأطعمة المختلفة الأواني من الـذهب والنحاس والنساء المخدرات والأسواق العامرات مما لا يحصى كثرة يكاد العقل يحـيل فـناءها وذهابهـا وانعدامها فلا تسأل عنها ومن عجائب ذلك أن أرزاقها أكثر مـنها فـنحن أهل وطننا بل سائر المغاربة يعلمون أنهم ليسوا من أهل الدنيا بل أموال بالنسـبة إلـى مـا رأوا من زخارف لمن خرج من مصر بحيث لا يحيط ديوان بتفاصيل ذلك..." [1]

وجمـلة القول أن الوقفات الوصفية في رحلة الورتيلاني وقفات شمولية لا تعتمد على الاستقصـاء وقليل ما تكون خالصة للوصف إذ يخالطها كثير من السرد وهي أوصاف موضوعية لا تتعلق في غالبها بذات السارد وتتحدد وظيفة التعريف ببعض الظواهر في المـرجع "الواقـع" إلى جانب الإخبار ببعض الأحداث الموصوفة فالوقفة حركية وليست ساكنة.

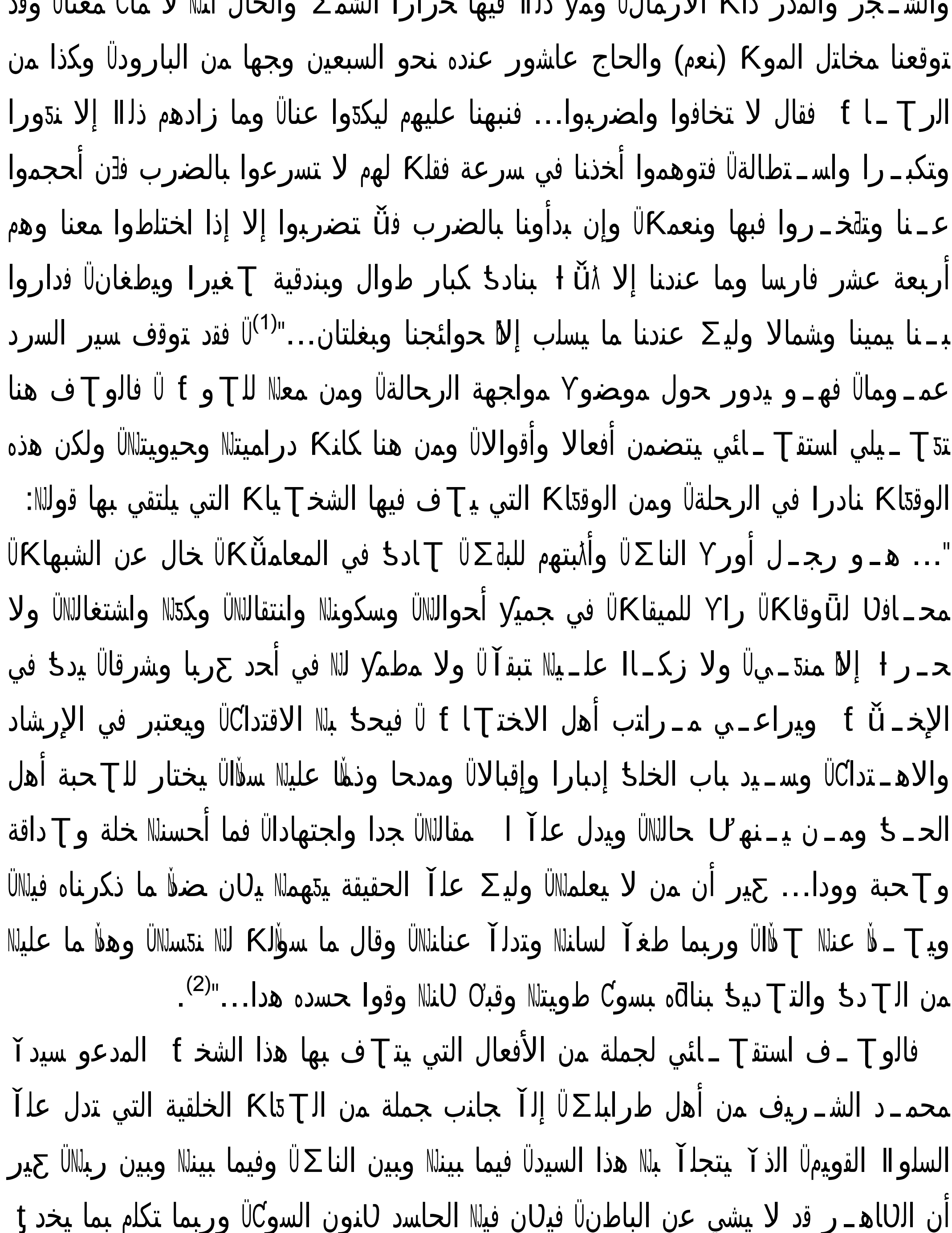
أما الوقفات الذاتية ضمن الرحلة فقليلة ولكنها موجودة كقوله: "... رجعت إلى توديعه صـلى الله عليه وسلم وعظم علي أمر التوديع حتى غلب صوتي وارتعدت وكاد أمري إلى العويل بل أنوح عليه نياح الثكلى لولدها وكيف لا وهو أن فراقه أعظم المصائب ولم أنفصل عنه إلا بصبر عظيم وهول جسيم وحزن شديد. فلم أملك نفسي عند ذلك فعظمت المصيبة وعز الصبر غير أني تسليت بانتقاله من دار الدنيا..." [2].

فالوصـف الذاتـي هـنا يرسم موقف وداع الروضة الشريفة ونلاحظ فيه اضطراب العبارات كما نلاحظ تكرار- ما يتعلق بالبكاء وانعدام الصبر- فهذا المقطع من الوصف يعبـر عن تجربة خاصة في موقف خاص ويمكن اعتبار هذا النوع من الوصف إيجابيا جـدا لكونه يحرك الأحداث أيضا فلا يشعر القارئ بالجمود فتختلط الأحداث بالأوصاف كمـا فعـل في مواجهته مع أصحابه لقطاع الطرق: " فتحولوا إلينا وداروا بنا دور الخاتم يميـنا وشـمالا ونحـن واقفون ننتظر منهم الفرصة والتمكين فقلنا لبعضنا بعضا ليس إلا المـوت ولا مهـرب ولا حصن فهي سبخة عظيمة واسعة الأطراف خالية من الأحجار

---

(1) – المصدر السابق، ص: 555.

(2) – نفسه، ص: 531.



والشجر والمدر ذلك الأرمال، ومع ذلك فيها حرارة الشمس والحال أنه لا ماء معنا، وقد توقعنا مخاتل الموت (نعم) والحاج عاشور عنده نحو السبعين وجها من البارود، وكذا من الرصاص فقال لا تخافوا واضربوا... فنبهنا عليهم ليكفوا عنا، وما زادهم ذلك إلا نفورا وتكبرا واستطالة، فتوهموا أخذنا في سرعة فقلت لهم لا تسرعوا بالضرب فإن أحجموا عنا وتأخروا فبها ونعمت، وإن بدأونا بالضرب فلا تضربوا إلا إذا اختلطوا معنا وهم أربعة عشر فارسا وما عندنا إلا ثمان بنادق كبار طوال وبندقية صغيرة ويطغان، فداروا بنا يمينا وشمالا وليس عندنا ما يسلب إلا حوائجنا وبغلتان..."[1]، فقد توقف سير السرد عموما، فهو يدور حول موضوع مواجهة الرحالة، ومن معه للصوص، فالوصف هنا تصويري استقصائي يتضمن أفعالا وأقوالا، ومن هنا كانت دراميته وحيويته، ولكن هذه الوقفات نادرا في الرحلة، ومن الوقفات التي يصف فيها الشخصيات التي يلتقي بها قوله:

"... هو رجل أورع الناس، وأتبعهم للسنة، صادق في المعاملات، خال عن الشبهات، محافظ للأوقات، راع للميقات، في جميع أحواله، وسكونه وانتقاله، وكذا واشتغاله ولا حرص إلا منه في، ولا زكاة عليه تبقى، ولا مطمع له في أحد غربا وشرقا، يدق في الإخلاص ويراعي مراتب أهل الاختصاص فيحق به الاقتداء، ويعتبر في الإرشاد والاهتداء، وسد باب الخلق إدبارا وإقبالا، ومدحا وذما عليه سواء، يختار لصحبة أهل الصدق ومن يدنيه حاله ويدل على مقاله جدا واجتهادا، فما أحسنه خلة وصداقة وصحبة وودا... غير أن من لا يعلمه وليس على الحقيقة يفهمه يكون ضد ما ذكرناه فيه ويصد عنه صدا وربما طغى لسانه وتدلى عنانه وقال ما سولت له نفسه وهو ما عليه من الصدق والتصديق بناء بسوء طويته وقبح لونه وقوا حسده هذا..."[2].

فالوصف استقصائي لجملة من الأفعال التي يتصف بها هذا الشخص المدعو سيدي محمد الشريف من أهل طرابلس، إلى جانب جملة من الصفات الخلقية التي تدل على السلوك القويم، الذي يتجلى به هذا السيد، فيما بينه وبين الناس، وفيما بينه وبين ربه، غير أن الظاهر قد لا يشي عن الباطن، فيكون فيه الحاسد يكنون السوء، وربما تكلم بما يخدش

[1] – المصدر السابق، ص: 552.

[2] - نفسه، ص: 628- 629.

كـ رامته. فالسـارد يروي هذا المقطع الوصفي بتقنية لا يتوفر في كل أوصافه وكثافته تتركز لهذا الشخص تتراجع وأعلى هذه الأسجاع إعدادا ورغم أنها جمل قصيرة يمكنها أن تتوفر إيقاعا سريعا إلا أنها ولكونها تدور حول محور واحد فإنها تزيد في التريث والبطء.

ج- الخلاصة:

التلخيص تقنية لتسريع السرد ويبدو أن العمل المسرود قائم على الصراع بين الرغبة في الاسـتطراد وإلحـاح الاقتضـاب. فإذا كانت الوقفة تجليا للاستطراد فإن التلخيص تجل للاقتضـاب المعقـول ولكنه يصل أقصاه فيما يعرف بالحذف كقول السارد: " فلبثنا عند الظهـر ولم نزل كذلك إلى قرب الصبح وإذا بزوجته أي السلطان المذكور توفيت فنزلوا عند الغيضة المعلومة بين عسفان و الجبل فلما دفنوها ارتحلنا عند الضحى"(1)

1-تلخيص الأحداث:

فهـذا تلخيص لأحداث فعلية شملت ما يقارب عشرين ساعة أو أكثر في سطرين ويقول أيضـا: " ثم بتنا تلك الليلة وافترقنا عند المغرب لإتيان ما تتعشى به الإبل فصلينا المغرب في تلك البساتين إلى العشاء فرجعنا إلى الأخبية وبتنا خير مبيت إلى الفجر..."(2) فهذا تلخيص دقيق ومكثف جدا فمن غروب الشمس إلى طلوع الفجر لخص ما أنجز من أفعال وسكت عن بعضها بإيجاز شديد.

2- تلخيص الأقوال: هناك تلخيصات تنصب على الأقوال ومن ذلك قوله: "... ثم اشتكيت لأميـر مصـر حالـه حين نزولنا الصفراء فوعدني بالاستخلاص منه عند المدينة ولما وصـلنا المديـنة ذهـبت إلـيه فأمرنا إلى كيخة الصوان إذ هو الذي يحكم بين العرب وغيـرهم فأمرنـي بتـرك الثلث من الكراء فلم أرض إلا بالربع فاختفى عند ذلك فلما شـكوت المرا بعد المراء أمرني بالذهاب إلى آغا عسكر المغربي فأمرني بترك الثلث أيضا..."(3) فهذا تلخيص يجمع بين الأقوال والأفعال على مراحل زمنية طويلة وما ركز علـيه هـو تلخـيص الأقـوال فعل "شكوت" يتضمن حوارا بين الشاكي والمشتكي إليه

---

(1) – المصدر السابق، ص: 449.

(2) – نفسه، ص: 533.

(3) – نفسه، ص: 533-534.

"شكوت" وكذلك فعل "وعدني" يتضمن قولا يطمئن النفس ويضرب موعدا ما كما يقتضي الرد بما يدل على الرضا والشكر، وفعل"أمرنا" و"أمرني بترك الثلاث"... ويمكن أن نتساءل: ما الحديث الذي جرى حتى وصل إلى الحكم؟ وما هي الألفاظ المستعملة في الأمر؟ فالرحالة حافظ فقط على "الثلاث" وتصرف في الباقي، مما يجعل القول موجزا.

ومن هذا النوع قوله: " جاءنا نذيرا ومحذرا منهم فقال اجمعوا أمركم ولا تهملوا رحالكم، وأظهروا شوكتكم، فإن العرب قد استعدوا لكم وأرادوا شركم، وقال حسبنا الله ونعم الوكيل، أو كلاما هذا معناه." [1]

4-الحذف : الحذف هو السرعة العالية غير المحددة "التي يتطابق فيها مقطع حكائي صغير مع مدة ما من القصة."[2]، وتقنية الحذف واسعة الانتشار في الرحلة، فمن *الحذوف المعلنة* قوله:"... فلما حان وقت الظهر صلينا، فاختلف الحجاج، فمنهم من يريد الارتحال، ومنهم من يريد المبيت فراودناهم الاتفاق أنا والفاضل سيدي عبد الله بن رحاب، فلم يساعدنا للارتحال سلطان فزان، فارتحل جميعنا، فلم يبق إلا ركبنا، ثم ارتحل وراءنا آخر الليل، ونحن سرنا كذلك إلى الليل فبتنا ثم ظعنا آخر الليل، ثم سرنا كذلك إلى أن مررنا ببئر العثماني المسماة الآن بئر الصعاليك... ثم تجاوزها إلى الليل فبتنا خير مبيت، ثم ظعنا ونزلنا الخيل عند الظهر أو قربه والله أعلم..." [3]

فيبدو جليا أن هذا المقطع تلخيص سريع للأفعال، والأقوال أيضا، يشمل في الوقت نفسه حذوفا فقوله: "فنحن سرنا لذلك إلى الليل"، حذف معلن يذكر فيه على مستوى الأحداث حركة الركب: من... إلى... ثم من... إلى، دون أن يقابل ذلك على مستوى الخطاب شيء، فهو زمن مسكوت عنه، أو أنه لا تجري فيه أحداث مثيرا جديرا بالتسجيل.

ونجد أيضا حذفا معلنا في قوله: " فسرنا آخر الركب رويدا رويدا إلى أن صلينا المغرب، ثم كذلك إلى أن صلينا العشاء، ثم كذلك إلى أن سرنا سويعة بعدها..."

هذه الحذوف معلنة، والزمن على مستوى الأحداث مذكور، ولكنه لم يملأ بما يناسبه من

---

(1) – المصدر السابق، ص: 450.

(2) – برنار فاليط، النص الروائي، تقنيات ومناهج، ص: 111.

(3) – الورتيلاني، الرحلة، ص: 549.

خطاب، وهو كثير جدا في الرحلة ولعله يشكل النسبة الأعلى في تقنيات الحركة، ولكن قياسه صعب للغاية إذ هو كلمة أو جملة أو سكوت تام، ولهذا نفضل الإشارة إليه.

ولعل الحذف الواسع تحصل في مثل هذا النص: "... فمن سيدي أحمد زروق الزعفران خمسة أيام، ومنه إلى النعيم يومان، ومنه إلى المنعم خمسة أيام أو صبيحة السادس، ومنه إلى أجدابية ثلاثة أيام غير أن الثالث وصلنا عند الظهر ومنه إلى سلوا يومان... ومنه إلى التميم سبعة أيام..." [1] وهكذا يعدد المراحل وما يقضي فيها من الزمن، وعلى مستوى الخطاب اكتفى بإشارات النزول والارتحال.

تركيب: تبدأ الرحلة بتمهيد طويل مختلط الزمن وحجمه الورقي 76 صفحة ونصف.

- مرحلة الذهاب وفيها عشرون وحدة وحجمها 308 صفحة تقريبا.
- الوصول إلى البقاع المقدسة وفيها خمس وحدات وحجمها الورقي147 صفحة.
- مرحلة العودة وفيها خمس عشرة وحدة وحجمها حوالي170 صفحة.
- الخاتمة والتذييل، وفيهما ثماني صفحات تقريبا.

فإذا عرفنا أن الرحلة في النسخة المطبوعة، ممتدة على مساحة ورقية قدرها713 صفحة تمكنا من معرفة إيقاع الرحلة بصفة إجمالية.

فالرحلة تمتد على مسافة زمنية تقدر بعامين وأربعة أشهر أي حوالي 840 يوما سردت أحداثها في 713 صفحة، أي أن عدد الأيام أكبر من عدد الصفحات، لهذا نستنتج أن الخلاصة والحذف هي الأكثر ورودا، والتمهيد يكاد يكون كالوقفات الإخبارية المفصلة التي يغلب عليها الاستطراد، لكن المعالم الزمنية غير واضحة، ويشعر فيها القارئ بالإطالة

ومن خلال حصر الصفحات المكتوبة، تبين لنا أن مرحلة الذهاب تستغرق أكثر من نصف الرحلة الفعلية بلا تمهيد ولا خاتمة.

أما المدة المخصصة للبقاع المقدسة فيقارب ربع المتن. وأما مرحلة العودة فهي سريعة أكثر إذ تفوق مرحلة البقاع المقدسة بعشرين صفحة.

فإذا رسمنا الشكل التالي تبين لنا إيقاع الرحلة ذهابا وإيابا (وهو رسم افتراضي لكون الزمن ليس واضحا)

---

(1) – المصدر السابق، ص: 242.

خاتمة وذيل	العودة	البقاء المقدسة	الذهاب	تمهيد
ص 8	ص 170	ص 147	ص 308	ص 75

إن الإيقاع بطيء في التمهيد، سريع في العودة، بطيء في الذهاب، وأبطأ من ذلك في البقاء المقدسة، رغم اعتماد الخطاب كله على الخلاصة أكثر من أي نوع آخر، و ما يبطئ الحركة هو النقول عن الآخرين تلخيصا وتضمينا.

3- <u>التواتر</u>: التواتر مظهر من المظاهر الأساسية للزمنية السردية[1] يدرس علاقات التكرار بين الخطاب والقصة، وبالنظر إلى الحدث المكرر أو غير المكرر، والمنطوق المكرر أو غير المكرر، تتحدد الأنماط الأربعة من علاقات التواتر.

فسرد مرة واحدة ما حدث مرة واحدة يسمى ***التواتر المفرد***، وهو شائع في الإبداعات الأدبية، ذلك أن الخطاب الذي أوصل دلالته من المرة الأولى لا داعي لتكراره و إلا عُدّ حشوا[2]، وفي حالات التداعي الحر، والمناجاة النفسية، والمونولوج المباشر وغير المباشر، وغير ذلك من الحالات المرتبطة بالشعور واللاشعور، قد يروى ما حدث أكثر من مرة مرات كثيرا ويعرف بالنمط التكراري. أما في الحالة الثالثة فيروى ما حدث مرات كثيرا مرة واحدة ويعرف بالتواتر النمطي المكثف[3] و المتشابه، أما يروى مرات كثيرا وقد وقع مرة واحدة فإنه قليل في الإبداع.

والتواتر متعلق بالحياة حينا، وبالذاكرة وما يطرأ عليها من نسيان أحيانا أخرى، سواء في الذكر أو النسيان.

<u>أ- التواتر في الرحلة المفردة:</u> فمن ***النمط الأول*** ذكر الأحداث التي وقعت مرة واحدة ورواها السارد مرة واحدة على مستوى لقاء الشخصيات، أو المرور بالأماكن، أو ذكر بعض الأحداث أو غيرها.

---

(1) – جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص: 129.

(2) – مراد عبد الرحمن مبروك، بناء الزمن في الرواية المعاصرة، الهيئة المصرية للكتاب، ط1، 1998، ص: 125.

(3) - نفسه، ص: 146.

فالعـبدري التقـى بابن خميس[1] في تلمسان في مرحلة الذهاب ولم يلتق به في مرحلة الإياب، ولذلك ذكره وشيئا من أشعاره في الذهاب فقط، ومثلها ذكر حادثة غزو النصارى لعـنابة وأسـرهم لبعض الأشخاص ومطالبتهم قصد افتدائهم بالأموال[2]، فهذا النمط من السـرد هـو السائد في الرحلة، والوظيفة السردية هي الإخبار والإفادة، فإذا ما تمت فمن اللائق عدم تكرارها و إلا عد ذلك حشوا وإخلالا بحسن البناء والصياغة.

أمـا ***الـنمط الثاني*** وهو ذكر مرات كثيرا ما وقف مرات كثيرا، وهو ***الترجيعي الملحق بالتكراري***، فيمكن أن نشير إلى هذا المظهر الخارجي الذي يرويه السارد في أعقاب الأماكن التي مر بها.

فالسارد يقول في بلاد القبلة بالمغرب الأقصى: " ثم سافرنا منها على بلاد القبلة وهي بلاد مات فيها العلم وذكره، حتى صار العار في أكثرها أنهم لا يتخذون لأولادهم مؤدبا ولا تسمع في مساجدهم تلاوة.."[3]

ولمـا وصـل السارد مليانة علق على اندثار العلم فيها قائلا: " وما بقي بها من له بالعلم أدنى دراية..." [4]

وفـي مدينة الجزائر يقول: "... ولكنها أقفرت من المعنى المطلوب، كما أقفر من أهله ملحـوب، فلـم يـبق بهـا من هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب..." [5]

فـفي القيروان قال: " وقد بذلت وسعي إذ دخلت القيروان في البحث عمن بها من أهل العلم، فلم أجد بها من يعتبر وجوده ولا يسمع جهله سوى هذا الشيخ [الدباغ] " [1]

---

(1)– العبدري، الرحلة، ص: 13..

(2) – نفسه، ص: 37.

(3) – نفسه، ص: 8.

(4) – نفسه، ص: 25.

(5) – نفسه، ص: 26.

(1) – المصدر السابق، ص: 66.



وفي قابس يقول:" وأما العلم عندهم فقد ركد ريحه، والجهل لديهم لا يواسى جريحه... وهذا حكم استفدته من العيان، ونتيجة الاختبار لهم والامتحان..."(2)

وفي طرابلس يقول: " ثم وصلنا إلى مدينة طرابلس، وهي للجهل مقر وما للعلم بها عرس..."(3)

وهكذا يتكرر رصده لهذه الظاهرة، فكلما وصل مدينة بحث عن مكان العلم فيها،وحين يعييه البحث، يسجل النتيجة التي تعكس المظهر العام للحركة العلمية والثقافية من المغرب إلى الحجاز، ولم يستثن من الحكم إلا تونس، وفي مرحلة العودة لا يرصد هذه الظاهرة، ويكتفي بما سجله في الذهاب.

ومن هذا النوع من التواتر ما يذكره من الشخصيات التي التقى بها في الذهاب والإياب ويذكرها كأن يقول: "ولقيته بها ثانية الشيخ..."، وكذلك يفعل بالمدن فقد ذكر مراحل الطريق واتجاهها، كما أن لهذا النوع حضورا في الرحلة على مستوى الصيغة اللغوية مثل: قرأته عليه، وأنشدته، ثم وصلنا...حللنا، نزلنا...

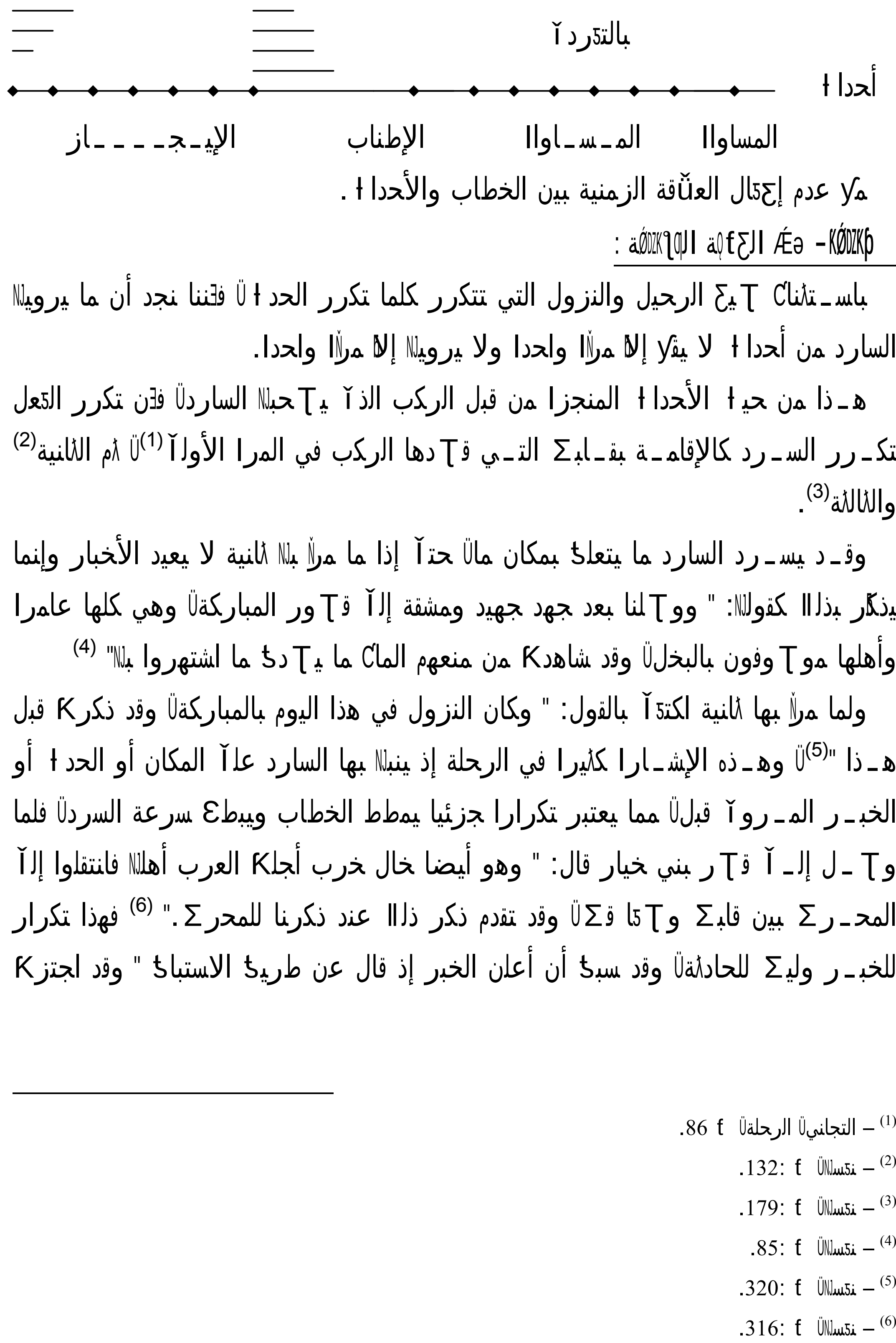
ومن النوع النمطي التكثيفي الكثير من الصيغ الدالة على التكرار النمطي كقوله:" سمعت من الشيوخ واستجازهم" (4)، وقد يستعمل بعض الألفاظ التي تدل على التكرار الجزئي كقوله: " وكان يقدمني للصلاة أحيانا " (5)، وهكذا يرصد كثيرا من الأحداث التي تتكرر نمطيا، ويمكن رصد هذه الأنواع من التواتر، ورصده بشكل واسع في الرحلة، أما النمط الذي يحدث مرا واحدا ويخبر عنه مرة كثيرا فلم أعثر عليه، وهذا ما يجعلنا نؤكد على هذا النوع من الظواهر التي يمكن درسها من جانبين في العلاقة الزمنية بين الخطاب والحدث، أو الأسلوب، من حيث الإيجاز والإطناب والمساواة، ويمكن أن نربط بينهما معا في رسم الشكل التالي:

(2) – نفسه، ص: 75.

(3) – نفسه، ص: 76.

(4) – نفسه، ص: 268.

(5) – نفسه، ص: 243.



مع عدم احترام العلاقة الزمنية بين الخطاب والأحداث .

ج- السرد في الرحلة التكرارية :

باستثناء حالتي الرحيل والنزول التي تتكرر كلما تكرر الحدث، فإننا نجد أن ما يرويه السارد من أحداث لا يقع إلا مرة واحدة ولا يرويه إلا مرة واحدة.

هذا من حيث الأحداث المنجزة من قبل الركب الذي يصحبه السارد، فإن تكرر الفعل تكرر السرد كالإقامة بقابس التي قصدها الركب في المرة الأولى[1]، ثم الثانية[2] والثالثة[3].

وقد يسرد السارد ما يتعلق بمكان ما، حتى إذا ما مر به ثانية لا يعيد الأخبار وإنما يذكّر بذلك كقوله: " ووصلنا بعد جهد جهيد ومشقة إلى قصور المباركة، وهي كلها عامرة وأهلها موصوفون بالبخل، وقد شاهدنا من منعهم الماء ما يصدق ما اشتهروا به" [4]

ولما مر بها ثانية اكتفى بالقول: " وكان النزول في هذا اليوم بالمباركة، وقد ذكرناه قبل هذا "[5]، وهذه الإشارات كثيرة في الرحلة إذ ينبه بها السارد على المكان أو الحدث أو الخبر المروي قبل، مما يعتبر تكرارا جزئيا يمطط الخطاب ويبطئ سرعة السرد، فلما وصل إلى قصر بني خيار قال: " وهو أيضا خال خرب أجلاه العرب أهله فانتقلوا إلى المحرس بين قابس وصفاقس، وقد تقدم ذكر ذلك عند ذكرنا للمحرس." [6] فهذا تكرار للخبر وليس للحادثة، وقد سبق أن أعلن الخبر إذ قال عن طريق الاستباق " وقد اجتزنا

---

(1) – التجاني، الرحلة، ص 86.

(2) – نفسه، ص: 132.

(3) – نفسه، ص: 179.

(4) – نفسه، ص: 85.

(5) – نفسه، ص: 320.

(6) – نفسه، ص: 316.

علـى القصور المذكورة المعروفة ببني خيار فرأيتها خالية خربة، وهي في جبال مسلاتة من شرقي طرابلس" (1)

ومن الأحداث التي كررها مرات ذكر أخبار الميورقي، قراقوش وأعمالهما في المنطقة، وهي كثيرة، وقد يتجدد الحدث بتجدد معه شيء، فيسترسل في الخبر كقوله:
"ولمـا حللـنا بمنـزل بشرة من خطرتنا الثانية إليه حاول جميع الجيش أن يقيموا خباء لمخدومنا ولأنفسهم، فلم يستطيعوا لقوة الريح." (2).

في حين كان قد ذكر بشرة قبل ذلك واكتفى بمنزلة القصر في المنطقة " فحللنا بظاهر بشرة وهي القاعدة الثانية من إقليم نفزاوة..." (3)

كما قد يكرر الخبر التاريخي المنقول عن المؤرخين بأوجه متعددة، مما يراكم الخطاب ويبطئ زمن السرد، ولكنه أحيانا يورد الخبر تصاعديا فلا يشعر القارئ بالتكرار، رغم أن الخبـر كله متعلق بمكان واحد، فهو يذكر مثلا " قصر الجم وهو أعظم حصون إفريقيا وأشهرها على القوم، وليس بإفريقيا بعد الحنايا التي بقرطاجنة بناء أضخم منه ولا أعجب، وشكله مستدير..."(4) والسارد يذكر بعد ذلك أخبار الفاتحين والكاهنة، وما حصل للميورقي بهذا القصر، وهذا النوع من التواتر التصاعدي يكرره حين يصل مكانا شهيرا فيستعرض ما قيل حوله كطرابلس أو غيرها، وتواتر من جانب كون الخبر متعلقا بنفس المكان.

إن التواتر بهذه الأشكال المرصودة في الرحلة يضخم الخطاب بدرجات متفاوتة، ولكنه تكرار يمتن ربط الأحداث سابقها بلاحقها.

[illegible]:

في الرحلة يصعب على الدارس أن يقف عند هذه الظاهرة بشكل دقيق، ورغم ذلك فـيمكن إيراد بعض الظواهر من ذلك: ذكر حدث السارد سنة 1059-1060. إذ قال في أول نـص ورد فـيه الحادثة: "...وكان ذلك في شهر ربيع النبوي سنة تسع وخمسين

(1) – المصدر السابق، ص: 85.

(2) – نفسه، ص: 173.

(3) – نفسه، ص: 153.

(4) – نفسه، ص: 57.

وألـف، والشـباب إذ ذاك ناعمة أغصانه والهوى شديد على القلب عنانه وقدر الشبا ناعمة أوراقه والوطن حبيب يشق فراقه..." [1]

فقـد ذكـر حجه في هذه السنة كمعلم يذكره بأحداث أكثر من مرة في مواضع مختلفة بالإشارة أو بالذكر المباشر[2]

كمـا ذكر حجه الثاني فقال:"...فيسر الله ذلك في أواخر ربيع النبوي سنة أربع وستين وألـف، وتوجهنا على بصيرة وأعددنا لفوائد الرحلة عددا كثيرا، فاتسع المجال في لقاء الرجال ومذاكرة الإخوان..." [3]

وقد يشير إلى هذه الحجة سنة 1064-1065.

واتخذ هذه السنة معلما آخر يعود إليه في الاستذكار، وفي كثير من الأحداث[4]، ويكفي أن كل رحلة وقعت مرة واحدة والسارد يذكرها مرات كثيرة لارتباطها بذكريات وأحداث حينما يصل السارد إليها يتذكر ما وقع قبلها، فيكون الموضع في الرحلة الثالثة أو الحادثة سـببا فـي الاسترجاعات المختلفة، التي تؤدي إلى ذكر إحدى الرحلتين السابقتين، وهذه الإشارة المكررة "محاطة في كل مرة بسياق مختلف"[5]

إن مـا حـدث مـرة واحـدة، ويذكره السارد مرات عديدة، يشير إلى كونه حدثا بالغ الأهمـية، لدى السارد/المؤلف، على مستوى الأحداث، والذكريات، ولقاء الرجال... وما إلى ذلك. من هنا ندرك أن العودة إلى الأحداث السابقة وذكرها أكثر من مرة، يثير كوامن النفس، وتراكمات الأحداث في مجال الذاكرة فتبوح بتجاربها السابقة نحو الشيء المذكور، ويسمى هذا النوع بالتواتر التكراري.

ومـن الملحق بالتكراري ما يسرده السارد في المراحل وقت الارتحال أو النزول: " ثم ارتحلـنا.." وهـي متكررة على مدى الرحلة كلما ارتحل الركب، وقل أن يعدل عن هذه الصيغة، ومنها قوله: "ولما نزلنا" أو "حتى نزلنا" وهي مكررة بلفظها، وقد يعدل عنها إلى

---

(1) – أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص: 4.

(2) – نفسه، ج1، ص: 56، 61، 63، 68. ج2، ص: 127.

(3) – نفسه، ج1، ص: 5، 56، 65، 110، 111. ج2، ص: 230، 125، 115.

(4) – نفسه، ج1، ص: 42، ج2، ص: 102، 211.

(5) – ترفيتان تودوروف، الأدب والدلالة، تر: نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، سنة 1996، ص: 70.

قـوله "وبتنا" أو "وأقمنا"، وهذه الصيغ تعمّ الجزأين من الرحلة، وتكرر كلما تكرر الحدث، وهكذا معظم صيغ الأداء كلها.

ومـن الشخصيات التي لقيها السارد/المؤلف مرات وذكرها مرات عديدة، أبو مهدي عيسـى ابـن محمـد الثعالبي (شيخ المؤلف). فقد ذكره أكثر من خمسين مرة، إشادة به، واستشهادا بآرائه، ونقلا لمؤلفاته... وأخذا لطريقته...

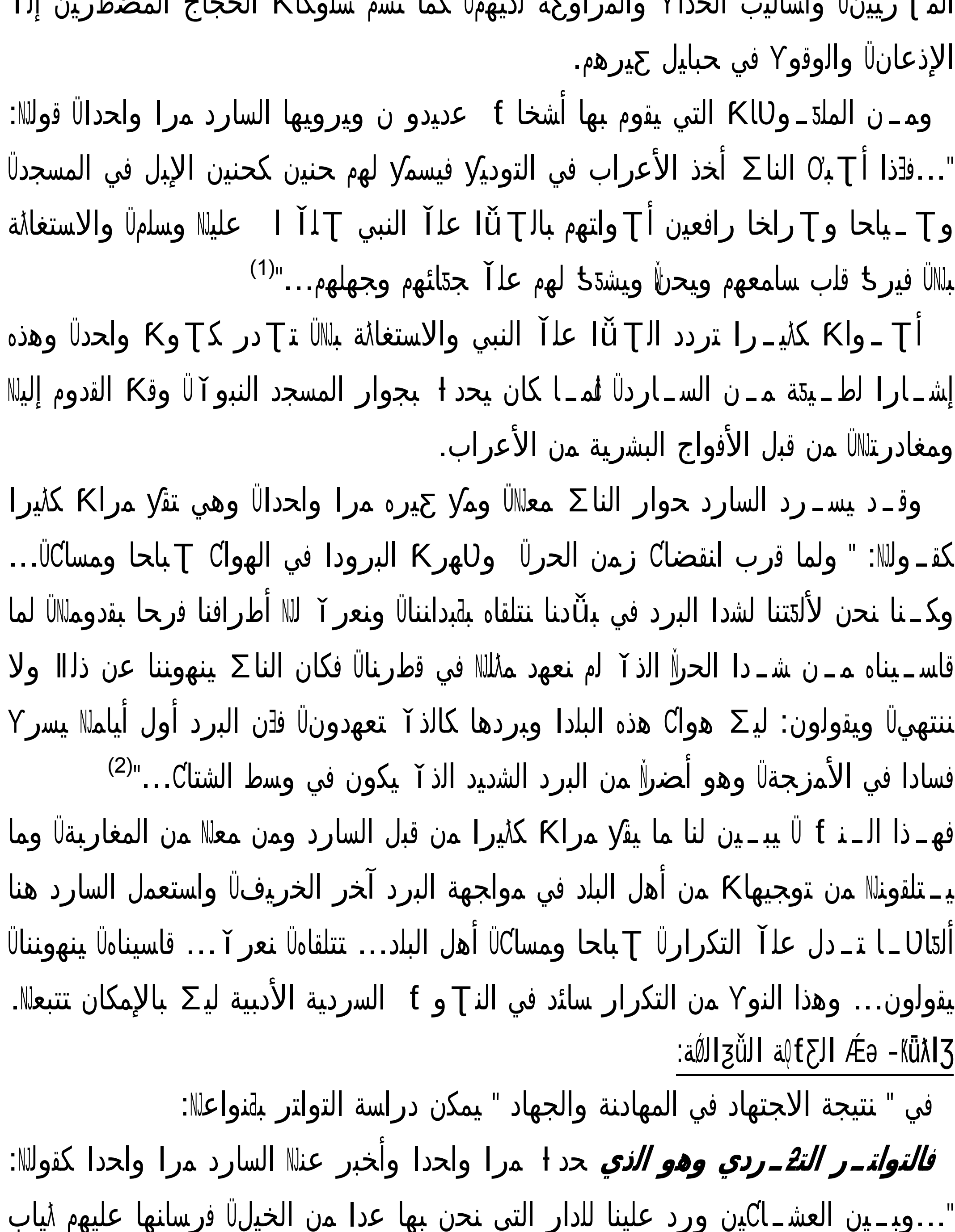
وكذلك شيخه أحمد بن محمد القشاشي، صفي الدين شيخه، فقد ذكر ما يقارب الخمسين مـرة أيضـا، والشيخ "الملا" إبراهيم بن حسن الكوراني، شيخه فقد ذكره أكثر من خمسين مرة، وهكذا يكرر ذكر شيوخه الذين لقيهم وأخذ عنهم، وهو يشيد بفضلهم، ويشير إلى ما أخـذه عنهم، وما اختصوا به من دقائق الأسرار، وقد يشير بين الحين والآخر إلى بعض خصائصهم التي تميز طبائعهم، سلبا أو إيجابا.

ومـن التواتر أيضا ما نجده في الرحلة من تلك الصيغ المألوفة التي تقع مرات عديدا وتوجز لتذكر مرة واحدة، ويعرف هذا النوع ***بالتكرار النمطي***، أو ***التكراري*** كقوله: " وبها [المنشية] بعض أصحابنا من الفلاحين، وقد تعرضوا لنا بالمنصورية، وتلك عادة الفلاحين عند قدوم الركب يتعرضونه، ويتخذون الأصحاب ليودعوا عندهم الإبل، ويتركوها عندهم أمـد الإقامـة، طلوعا ورجوعا، وهم كما قيل الحرص على الأمانة يدل على الخيانة، فلا ترى أعجب من تلطفهم ولين خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج فيحلفون بالأيمان المغلظة على أداء الأمانة، وبذل المجهود في النصيحة، حتى يركن إلى قولهم ولو مـن جربهم مرارا، ثم عند المقابلة، قل ما ينفصل معهم أحد بطيب نفس" [1] فهذا النص ذكـره السـارد/المؤلف مرة واحدة ولكنه يشخص ما يحدث لعدد كثير من الحجاج وفي سـنوات كثيـرا، مع عدد كثير من الفلاحين، وفي سنوات كثيرا، وما ينشأ من ذلك من مخالطـات كثيـرا فـي رحلة الذهاب يجري فيها كثير من الأقوال، وعند الإياب تجري مخاصـمات أكثـر بالأقوال والأفعال، وقد جربوا مرارا، " وقلما ينفصل معهم أحد بطيب نفس... "

فمثل هذه النصوص تحمل دلالات اجتماعية وسلوكية معينة تسم مجتمع الفلاحيـن

---

(1) – أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص: 124.



المصريين، وأساليب الخداع والمراوغة لديهم، كما تسم سلوكات الحجاج المضطرين إلى الإذعان، والوقوع في حبايل غيرهم.

ومن الملاحظات التي يقوم بها أشخاص عديدون ويرويها السارد مرة واحدة قوله: "...فإذا أصبح الناس أخذ الأعراب في التوديع فيسمع لهم حنين كحنين الإبل في المسجد، وصياحا وصراخا رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والاستغاثة به، فيرق قلب سامعهم ويحن ويشفق لهم على جفائهم وجهلهم..."(1)

أصوات كثيرا تردد الصلاة على النبي والاستغاثة به، تصدر كل وقت واحد، وهذه إشارة لطيفة من السارد، لما كان يحدث بجوار المسجد النبوي، وقت القدوم إليه ومغادرته من قبل الأفواج البشرية من الأعراب.

وقد يسرد السارد حوار الناس معه ومع غيره مرة واحدة، وهي تقع مرات كثيرا كقوله: " ولما قرب انقضاء زمن الحر، وظهرت البرودة في الهواء صباحا ومساء... وكنا نحن لألفتنا لشدة البرد في بلادنا نتلقاه بأبداننا، ونعرض له أطرافنا فرحا بقدومه، لما قاسيناه من شدة الحر الذي لم نعهد مثله في قطرنا، فكان الناس ينهوننا عن ذلك ولا ننتهي، ويقولون: ليس هواء هذه البلاد وبردها كالذي تعهدون، فإن البرد أول أيامه يسرع فسادا في الأمزجة، وهو أضر من البرد الشديد الذي يكون في وسط الشتاء..."(2)

فهذا النص يبين لنا ما يقع مرات كثيرا من قبل السارد ومن معه من المغاربة، وما يتلقونه من توجيهات من أهل البلاد في مواجهة البرد آخر الخريف، واستعمل السارد هنا ألفاظا تدل على التكرار، صباحا ومساء، أهل البلاد... تتلقاه، نعرض... قاسيناه، ينهوننا، يقولون... وهذا النوع من التكرار سائد في النصوص السردية الأدبية ليس بالإمكان تتبعه.

ثالثا- في الرحلة الثانية:

في " نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد " يمكن دراسة التواتر بأنواعه:

فالتواتر التفردي وهو الذي حدث مرة واحدة وأخبر عنه السارد مرة واحدة كقوله: "...وبين العشاءين ورد علينا للدار التي نحن بها عدة من الخيل، فرسانها عليهم ثياب

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 311.

(2) - نفسه، ص: 301.

بيض، وبرؤوسهم عمائم، وبأيديهم شموع توقد قدر كل شمعة ثلاثة أذرع، وقد تقدمهم رجلان حاملان لوحة قدرها في الطول والعرض أربعة أشبار، مكتوب عليها بالقلم العجمي اسم الباشدور وتاريخ وروده على بلادهم وعلقوها بباب الدار التي نزل بها، وانصرفوا عنا بعد أن أدوا الواجب، وقد أكرمهم رب الدار، ولم يقبلوا منا إكرام."[1]

فهذا النص تتردد في الرحلة كلها في عناصرها، الفرسان، ذوو الثياب البيضاء، والعمائم، والشموع، واللوحة التخليدية لزيارة السفير، مما يجعله نصا ذا قيمة خاصة، ويميز مدينة الرملة بهذه اللفتة التي يمكن أن تكون عائدا إلى عهد أسبق.

ومن النصوص النثرية قوله: "وأعجب ما رأيت عند صاحب الدار عدا حمار كأنها البخت، لا تخرج من اصطبلاتها إلا في وقت مخصوص بقصد النتاج، ثم تعود لمحلها، فذكر لنا أن ثمن الواحد سبعمائة ريال، وقد عبر بعض أصحابنا رأس أحد الحمر، فإذا طوله ثلاثة أشبار..."[2]

إنه تسجيل لظاهرة نادرة وهي حب الحمر ذات خصائص خاصة من أجل النتاج فقط ولندرتها صارت تحمل قيمة ثمينة على مستوى الظواهر في الرحلة. ومن النصوص التي تحمل طابعا نادرا قوله: " ومن العجب استغراقهم في محبة الإسلام على أن هذا الجنس هو أشد عداوة وبغضا للمسلمين حتى أنه يلقب بالعدو الأزرق..."[3] فالألفاظ التي تشير إلى موقف السارد من النصارى كثيرة، ولكن هذا الخطاب الذي يجسد العلاقة بين الأسبان والمغرب " العدو الأزرق" لم يسبق قبل، وإن كان السارد يود أن يبرز مدى محبة الأسبان للإسلام وللسلطان المغربي، لكن إيراده للعبارة الشائعة "العدو الأزرق" أمر يكشف عن الصراع المحتدم بين العدوتين على مر الأزمان رغم التقارب الذي يحدث بين الحين والآخر.

ومن التواتر السردي ما تشير إليه حادثة زيارة الوفد المغربي لمدرسة تعليم البحرية، وقد وجد فيها ثلاثة شيوخ طاعنين يعلمون الصبيان " وقد أوقفوا الصبيان أمامنا حال

---

(1) – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 94.

(2) – نفسه، ص: 108.

(3) – نفسه، ص: 78.

التشـييع وصوفا أدبا وتعظيما لنا فأمرناهم بتسريحهم لثلاثة أيام رحمة بهم، واستراحة مما هم فيه من السجن، وقد أجاب المعلمون لذلك فخرج الصبيان ولهم ضجيج يقول " بيبا راح مرضاه بيبا "..."(1)، فهذا النص فيه إشارة إلى الانتظام المألوف في استقبال الزائرين، من الأهالـي والمـدارس، كمـا يشـير إلى تعليم المهن التخصصية منذ الصغر، وكان من المعـروض من السارد أن يستفيد من ذلك، ولكنه طلب من المعلمين تسريح الطلبة، وهذه عادة مغاربية يقوم بها كل ذي مرتبة عند زيارته لمحضرا القرآن الكريم "الكتاب" وتعتبر في هذا الإطار من النوادر.

التـكرار المتشابه: وهو ذكر الحادثة كلما وقعت، ومن هذا النوع الصيغ الدالة على التنقل والإقامة ومن ذلك قوله: " ومن الغد سافرنا إلى ...عن كذا... مثل " فهذه صيغة لا تـتخلف بتفاصيلهـا، أو بتفاصيل قريبة منها على مدى الرحلة كلها، وبعد هذه الصيغة الثابتة يأخذ في التعريف بالمدينة التي يكون قد وصلها.

ومن الصيغ المكررا أيضا الإخبار عن الاستقبالات ومثاله الأهالي كقوله: " برز أهلها لملاقاتـنا، ولقـد اقتصوا أثر إخوانهم..."(2)، وإن كانت الصيغة أحيانا تتغير، ولكن الإخبار عـن الحادثة يتكرر بتكرر الحادثة. ويلاحظ بهذا بعض القوالب التعبيرية الدالة عن الكثرا "كأنهم الجراد المنتشر" (3) أو كقوله: "...ضاقت عنهم الأرض..." أو غيرها.

التـكرار المتناوب: وهو أن تحدث الحادثة مرات ويرويها السارد مرا واحدا ومن ذلك: "كلما رحلنا على دار يتقدم أمامنا بعض أصحاب الطاعية المصاحبين لنا في طريقنا للدار التي بها مبيتنا ليعلم لأهلها فيتهيئون للملاقاة، ويعينون الدار المناسبة لنزولنا، وينتخبوا من الفـرش مـا يـدل على امتثالهم لأمر الطاعية من التعظيم..."(4)، فهذا الخطاب لا تتكرر صـيغته على مستوى الرحلة، رغم تكراره على مستوى الحدث. وقد يتحدث السارد عن دار النـزول وتهيئتها، ولكنه لم يشر إطلاقا إلى هؤلاء المختصين بأمر الأعداد وتهيئة ما يليق بالمقام فهو تواتر تكثيفي.

---

(1) – المصدر السابق، ص: 89.

(2) - نفسه، ص: 106.

(3) – نفسه، ص: 95، 112...

(4) – نفسه، ص: 72.

ومنها النص الموالي الذي لم يشر إليه السارد إلا بعد حوالي ثلاثين صفحة من السرد قال: " ولم يأل أحد منهم جهدا في المباشرة وإظهار البشاشة حتى أنهم يسمحون بكل عزيز عندهم رغبة فيما يصل لطاغيتهم من المباشرة والإكرام، حيث أمروا بذلك لأن النصرانيين المصاحب لنا يكتب ما يصنع كل واحد من ولاة المدن على حدته فيتنافسون في ذلك."(1)، فرغبة حكام الأقاليم والمدن في الثناء الحسن عند الملك تجعلهم يتنافسون في تقديم أفضل ما عندهم، وهذا ما يتكرر عند كل استقبال، ولم يذكره السارد إلا مرة واحدا.

ومن هذا التوتر التكثيفي الذي يختصر النص والحادثة قوله: "...والطريق الموصلة لمدريد، هي وسطها وكانت تتردد عليها (مدينة الخطاف) رسل الطاغية منذ خرجنا من قرطبة بالترحيب والسلام من طاغيتهم، ثم يعودون إليه مخبرين بمحل مبيتنا كل ليلة..."(2) ويعني هذا أن المراقبة مستمرا لحركة الوفد المغربي، والمراقبون يقدمون تقريرا يوميا للملك ليكون على دراية بكل الحركات.

وهكذا نجد أن التواتر موظف بشكل واسع ويؤدي أغراضا تحمل الغرابة والاطرادا أو استباضة الحدث وتكراره، وقد يؤدي وظيفة التكثيف النصي والزمني معا.

رحلة الورثيلاني: في هذه الرحلة نجد نوعا من التواتر تخلو منه رحلة الغزال، وهو المكرر الذي يقع حدثه مرا واحدا، ويذكر مرات كثيرا، ومن ذلك الإشارة إلى حجة سابقة، كقوله: " وفي تلك الحجة وهي عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف، ذهب معنا العلامة الفاضل والمنور الكامل، تلميذ سيدي عبد الحفيظ المذكور سيدي أحمد التليلي..." (3)

وقوله: " في الحجة الأولى، عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف نزلنا بها في الرجعة فوجدناها كما يليق من كثرة الأرزاق وكثرة الخلائق..."(4)، وقد يرددها بعبارات أخرى

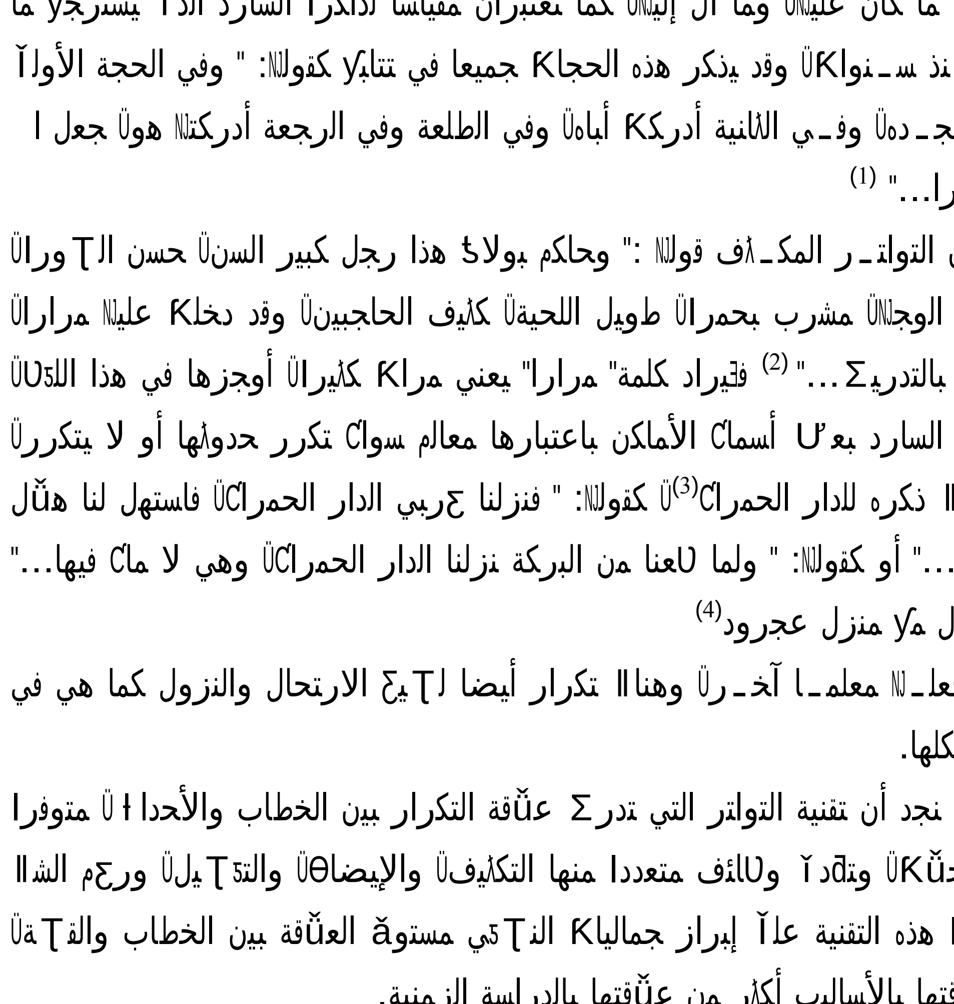
2 وهكذا يشتغل مع الحجة الثانية، إذ هما حجتان على مستوى الخطاب، بمثابة معلمين ثابتين للسرد حين يذكرهما، إما أن يراكم المعلومات أو يثمنها، أو يذكر تغير الحال،

(1) – المصدر السابق، ص: 171.

(2) – نفسه، ص: 111.

(3) - الورتيلاني، الرحلة، ص: 668.

(4) - نفسه، ص: 123.



فيشير إلى ما كان عليه وما آل إليه كما تعتبران مقياسا لذاكرة السارد الذي يسترجع ما فات منذ سنوات وقد يذكر هذه الحجات جميعا في تتابع كقوله: " وفي الحجة الأولى أدركت جده وفي الثانية أدركت أباه وفي الطلعة وفي الرجعة أدركته هو جعل الله عاقبته خيرا..." [1]

ومن التواتر المكثف قوله :" وحاكم بولاق هذا رجل كبير السن حسن الصورة عريض الوجه مشرب بحمرة طويل اللحية كثيف الحاجبين وقد دخلت عليه مرارا واشتغل بالتدريس..." [2] فيراد كلمة" مرارا" يعني مرات كثيرة أوجزها في هذا اللفظ كما يكرر السارد بعض أسماء الأماكن باعتبارها معالم سواء تكرر حدوثها أو لا يتكرر ومن ذلك ذكره للدار الحمراء[3] كقوله: " فنزلنا قربي الدار الحمراء فاستهل لنا هلال ذي القعدة..." أو كقوله: " ولما رجعنا من البركة نزلنا الدار الحمراء وهي لا ماء فيها..." وهكذا يفعل مع منزل عجرود[4]

الذي يجعله معلما آخر وهنا تكرار أيضا لصيغ الارتحال والنزول كما هي في الرحلات كلها.

وهكذا نجد أن تقنية التواتر التي تدرس علاقة التكرار بين الخطاب والأحداث متوفرة في الرحلات وتؤدي وظائف متعددة منها التكثيف والإيضاح والتفصيل ورغم الشك في قدرة هذه التقنية على إبراز جماليات النص في مستوى العلاقة بين الخطاب والقصة ولعل علاقتها بالأساليب أكثر من علاقتها بالدراسة الزمنية.

---

[1] – المصدر السابق: ص: 144.

[2] - نفسه 168.

[3] - نفسه : ص: 281، 217، 218...

[4] - نفسه : ص: 317، 318، 328، 324، 325، 353...

الفصل الخامس

الرؤية السردية

مدخـــل:

السـارد هـو المرسـل للكلام يتعين بنفسه في النص دون وسيط آخر، وهو موكول بعملـية الإخـبار وإيصال حكاية بأحداثها انطلاقا من وضعيات مختلفة."[1] ولكون سارد الـرحلة مشاركا في الأحداث فهو سارد مساو للشخصيات، وذلك أن الرحلة قريبة من السـيرة الذاتية مع اختلاف في المقاصد، ولكونها استعادية، فإن التبئير والسرد متداخلين فـي معظـم المـتون أي أن المبئـر المشارك في الحدث، والسارد الذي يروي الأحداث

---

(1) - شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، المجلس الأعلى للثقافة 1997م، ص: 131.

منفصـلان رغم أنهما يحملان الضمير نفسه، وهذا شأن النصوص المتعلقة بالسيرة الذاتية كلهـا، فالسـارد يسرد الفعل الذي صار فيه في زمن سابق، ولكون زمن السرد ليس هو زمن الفعل، فإن المسافة بينهما قد تطول أو تقصر، ورغم هذه المسألة فإن الأمر على المسـتوى التعبيـري مختلف، لأن الدارسين يؤكدون على التماثل الوظيفي " بين السارد والشخصـية في المحكي بضمير المتكلم؛ لأن الشخصية تزاول وظيفتي التصوير والفعل معـا "[2] أي أن الـراوي الذاتـي الذي يسرد بضمير المتكلم (أنا...) يشخص الشخصية فـي "أنـا" الساردة هي "أنا" المسرودة "الآن"، أنا الساردة تسرد في حاضرها عن أناها في الزمن الماضي، وهكذا تعيش "الأنا" هويتين مزدوجتين[3]، فقد عاشت مغامرتها واقعا حدثيا فـي الماضـي ثـم إذا هي تعيشه في الحاضر بعملية القص واقعا سرديا لغويا، ورغم الاندماج الظاهر فهناك مسافة زمنية تفصل الحاضر عن الماضي.

راوي الـرحلة التي ندرسها ليس خارجيا أي ليس غريبا عما يروي فهو راو داخلي يشـارك مـن داخل العمل السردي، وهو الشخصية الرئيسية، وهو المؤلف والكاتب، مما يجعله يسيطر على النص سيطرة تامة ويوفر قدرا هاما من التماسك والتناسق[4]

إن هـذا النـوع مـن الرواة وبخاصة في الرحلة يهتم أساسا بفعل التنقل ثم بملاقاة العلماء، والأقران، ويركز في هذا الإطار على ما له علاقة بالشخصية المركزية، ويقدمها من منظوره الخاص الذاتي، أما العناية بالجوانب الشخصية الوجدانية والعـاطفية فقلما يلتفت إليها إلا إذا كانت لها علاقة مباشرة بالتكوين العلمي والثقافي.

والسـارد هو الذي يقوم بدور الرحلة من موضع إلى آخر، وإذا وصل إلى مكان يتوخى فيه العثور على المقصد حط الرحال، وقام بالبحث حتى يدرك غايته فينجز شبه استجواب لمن يلقاه. وهنا يدخل في عالم آخر كثيرا ما يتحول فيه السارد مسرودا له والمسرود له سـاردا، ذلك أن: " حضور الراوي الشخصي يشخص ذاتا للسرد وموضوعا له...فهو ذات السـرد باعتباره فاعلا داخليا أو ذاتيا يقوم بدور السرد والتبئير معا، وهو موضوع السرد

---

[2] - جان لينتفلت، مقتضيات السرد الأدبي، تر: رشيد بن حدو، طرائق تحليل السارد الأدبي، ص: 96.

[3] -عبد الوهاب الرقيق وهند بن صالح، أدبية الرحلة في رسالة الغفران، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، 1999، ص 41

[4] - انظار عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، س2000، ص: 154.

عـندما يحكـي عن تجاربه والأحداث التي تطرأ له في هذا الفضاء أو ذاك"[1] وقد يسرد بضـمير المتكلم فيعطي الشخصية طابع الالتحام مع الأحداث التي يسردها سواء فعلها أو رواها، وتزول تعددية الذوات أمام القارئ فيشعر أن المؤلف هو الشخصية، وهو السارد، مما يولد لديه مصداقية ما يروي، والكل يتماهى مع اسم العلم الذي يوجد في بداية الرحلة.

المسـرود له: يرى الدارسون أن لكل سارد مسرودا له بالضرورا " إذ أن المسرود له هو أحد عناصر الوضع السردي، ويقع بالضرورا على المستوى القصصي نفسه، أي أنه لا يلتبس قبليا بالقارئ (ولوالضمني) أكثر مما يلتبس السارد بالضرورا بالمؤلف. ولسارد داخل القصة مسرود له داخل القصة..." [2]

والسـارد خـارج القصة لا يستطيع أن يتوجه إلى سارد خارج القصة رغم الزعم بأن المسـرود لا يـتوجه إلـى أحد. فإن السرد مبطن بنداء إلى المرسل إليه وإن لم يتعين، فالمسـرود له يكون ظاهرا وخفيا، فالظاهر نستطيع إدراكه وإدراك استجابته من خلال ما يطـرحه السـارد من أسئلة أو من أجوبة، أما المسرود له الخفي فهو صامت يقوم بدور الوسـيط بين السارد والقارئ، ويؤدي دور التشخيص للسرد كله بما يضفيه من واقعية أو إيهـام بهـا، وغالبا ما يشار إلى المسرود له السارد في المرجع، لهذا تتخذ الهوية التاريخية بعـدا إسـناديا يمثل فيه المسرود له حلقة من حلقات الذين لم يترددوا في تكرار تجربة الحج عدا مرات، أو الإلحاح على تحصيل العلم والفوز بإجازات الشيوخ[3]

وهكـذا يتحول المسرود له الصامت في هذا السياق إلى أفكار ومفاهيم وقيم ورسوم قبل أن يتشـكل من لحم ودم، يتغير الزمان و المكان وتظل المفاهيم ثابتة في عناصرها الدالة، ويعاد إنتاجها حسب طبيعة الرحلة بما يؤدي إلى تبليغ النص إلى الثقافة السائدا.

فالمسرود له قد يكون جماعة أو فردا وقد يكون تلاميذ الرحالة أو عشيرته[1] أو أمته.

ومما يلفت الانتباه أن السارد غالبا ما يتحول إلى مسرود له يستمع إلى مرويات الشيوخ وبـرامجهم ويشـير إلى ذلك بصيغ متعددا مثل "وقد ذكر لي " وقد حكى لي، وأنشدني،

---

(1) - سعيد يقطين الرواية والتراث السردي، ص: 64.

(2)- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص: 268 .

(3)- انظر عبد الرحيم مودن، مستويات السرد في الرحلة المغربية في القرن19، ص 182- 183.

(1) - المرجع السابق، ص : 183.

وحدثني وسمعت... وقد يكون المسرود له حلقات من العلم كقول العبدري " وسمع مني شيخنا عفيف الدين القصيدة التي نظمها بالحجاز في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وحضر لسماعه ناس..." [2]

فالسارد والمسرود له قد يتبادلان المواقع في الرحلات وما يميز بينهما هو أن السارد ثابت من البداية إلى النهاية أما المسرود له فمتغير، إذ يؤدي دورا ما ثم يختفي.

ونجد السارد يقدم سردا يكون فيه شاهدا أو فاعلا كما يقدم سردا آخر يكون فيه مستمعا مباشرا من فاعل الحدث أو من راو آخر نقل إليه الخبر.كما يمكن أن يكون راويا لما قرأ وفي هذه الأوضاع يعتبر أداة فنية تقوم بالتبليغ.

[illegible].

إن وظائف السارد تعمل في مجملها على إيصال المعرفة والمتعة الفنية للقارئ بشكل منسق يثير الانتباه ويستعمل من التقنيات ما يمتن به الثقة بينه وبين قارئه حتى يشعره بالاطمئنان من حيث المصداقية وبذلك ينقاد له فيما يقرأه.

و السارد جزء من المحكي[3] وهو يقوم أساسا بسرد إخباره أو عرض مشهده ووظائفه متعددة منها ما يتعلق بالحكاية نفسها ومنها ما يتعلق بالخطاب ومنها ما يمارسه السارد على نفسه من توجيه وكلها ذات علاقة بوظائف اللغة كما حددها ياكوبسن[4] وقد لعب ربط وظائف السارد بوظائف اللغة دورا كبيرا في التحليل السردي وأدى ذلك إلى إنتاج عدد من المصطلحات الغامضة التي يغلب عليها طابع اللبس[1] وكادت تتعدد الوظائف بتعدد المسرودات إلا أن الدارسين جمعوها فيما يمكن متابعته نظريا وتطبيقيا بغض النظر عن اختلاف المصطلح .

الوظيفة السردية :

---

[2] - العبدري، الرحلة، ص : 208.

[3] - مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد، من وجهة النظر إلى التبئير، تر: ناجي مصطفى، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط1، سنة1989م، ص : 23- 24.

[4] - برنار فاليط، النص الروائي، تقنيات ومناهج، ص : 72.

[1] –ج ب.براون ويول،تحليل الخطاب،تر: الزليطي والتريكي جامعة الملك سعود، الرياض، 1419، 1997م، ص :1.

وهي عرض الأحداث أو قصها و يتولد عنها خطاب لغوي محكوم بصيغ زمنية معينة أو كما قيل عرض "بواسطة اللغة المكتوبة"[2] وليس شرطا أن تكون هذه الوظيفة قصصية من البداية إلى النهاية، وإنما يمكن أن تتضمن وصفا وعرضا[3] وحوارا، وهي التي تحدد دور الـراوي، فإذا انصرف عنها خسر وظيفته كراو. بل لم يعد له وجود، فلو افترضنا أن أحـد الـرحالين قـرر أن لا يروي لنا أخبار رحلته فإن ما ندعوه رحلة ينعدم أصلا، ورغـم ذلـك فـإن هذه الوظيفة معقدا لكون السارد يقوم بدور التقديم والتأخير ويشخص الأوضـاع والظـروف التـي تتحرك فيها الشخصية، أو التي قيل فيها القول ليأخذ مكانه المناسب في السياق العام فتأتي الأقوال والأفعال والحركات مناسبة للمقام الذي سردت فيه وغير ناشزة، لذلك تسمى الوظيفة التصويرية.[4]

فالسـارد فـي الرحلة الورتيلانية يسرد بعض ما شاهده قائلا:"...في وجهتنا هذه كان الشراء أرخص بكثير، والتقى الناس من رخص الأسعار في جميع البنادر ما لم يخطر لهم علـى بـال، وكـان يعد من المحال، وكذا في الحرمين الشريفين فسبحان من بيده الأمر كله..."[5]

والمهـم فـي هـذه الوظيفة هو العلاقات التي ينشئها السارد بين مقاطع الخطاب ليتسنى للقارئ أن يستوعبه ضمن ما يحيل على مرجع ما أو إطار خيالي.

فالسـارد هو الذي يمهد للخطاب بما يناسب المقام ويربط العلاقات النحوية وغيرها بين الأجزاء حتى لا يحس القارئ بالانفكاك أو الفجوات وسوء التأليف وهذا ما يضمن لخطابه وحدة داخلية [1] لا غنى عنها.

فالرحلة العبدرية بعد تحديد منهجها في الكتابة المتسم بالموضوعية يقول: "... إن المسافر عـندما يخرج من مدينة فاس لا يزال إلى الإسكندرية في خوض الظلماء وخبط عشواء لا يأمن على ماله ولا على نفسه ولا يأمل راحة في غده إذا لم يره في يومه وأمسه يروع

[2] - برنار فاليط، النص الروائي، تقنيات ومناهج، ص: 75.

[3] - جيرار جنيت، حدود السرد، تر: بنعيسى بوحمالة (مقال) طرائق تحليل السرد الأدبي، ص: 75.

[4] - جان لينتفلت، مقتضيات النص السردي الأدبي، تر: رشيد بن حدو (مقال) طرائق تحليل السرد، ص: 95.

[5] – الورتيلاني، الرحلة، ص: 279.

[1] - عبد الوهاب الرقيق، و...، أدبية الرحلة في رسالة الغفران، ص: 46.

ويغـدو ولحمـ‍ه علـ‍ى وضم يـ‍ئلم ويجرى ويهتضم تتعاطاه الأيدى الغاشمة وتتهاداه الأكف الـ‍ظالمة..." [2]

إن هـذه الرؤية المسبقة عن الطريق من فاس إلى الإسكندرية تمهد لما يحكيه بعد ذلك مـن أخـبار ليست سارا باستمرار والسارد باعتباره هو المؤلف أو هو من يعبر في الرحلة عن رغبته في السفر كما يعبر عن قصد يته في الإخبار عن سفره ذلك أن عددا لا يحصـى مـن الرحالين قاموا برحلات درامية و ربما تكون أكثر إفادة ولكنها لم تصلنا لانعـدام قصـدية التبليغ السردى بل ضاعت و لم تصل إلينا لكون هذه القصدية هي التي تحول التجربة الخاصة بالرحال إلى أثر فني يخترق حجب الأزمان لينتقل إلينا بما فيه من عملـية التحويل المادى المرتبط بالمكان والأوضاع والظروف إلى أفكار ونص مكتوب له بدايـة ونهاية وباستطاعة القارئ أن يطلع عليه ويعيد إنتاج التجربة أو يفهمها بماله من إدراكـات تصورية وللوصول إلى هذه الغايات لابد من تنظيم محكم يحول ما هو خاص إلى ما هو عام عن طريق اللغة وهذا الإحكام يتجلى في الانتقال من نقطة إلى أخرى بـ فجـوات وفـي تحديد البداية والنهاية المرتبطتين بفعل الحركة والسكون وما بينهما كما يتجلـى الإحكـام فـي رصد المرئيات من آثار ومناظر وعمران وقفار وتحويل ذلك إلى محكـيات متناسـقة مع غيرها من الأخبار والأقوال الذاتية والغيرية بحيث تتلاحم تلاحما عضويا.هذه الوظيفة لا تتخذ شكلها النهائي إلا بعد إنجاز الفعل المكتوب للرحلة.إذ بعدها يتضح لنا ما سرد وما أهمل وما أجمل وما فصل وما يحكى باعتباره مسموعـا وما يحكـى باعتـباره مـرئيا ومـا يرفض أو يسكت عنه وكيف قدم كل ذلك وبأية رؤية أبرؤيةالسارد المشارك الفاعل أم المشاهد فقط أم برؤية السارد العليم.

فـفـي الرحلة التجانية نجد السارد على دراية بالهدف الاستراتيجي لخروجه مع الأمير إلى الحج ولكن الظروف حالت دون الإنجاز مما يجعلنا نعتقد أن تحويل الهدف واستبداله له تأثير في الاستراتيجية الرحلية فركز أكثر على الأخبار التاريخية للمكان واهتم بفضائله من الناس وأقوالهم فاتخذت الرحلة شكل الزيارات المحلية.ولما ضاق مجال السرد من حيث المكـان ومشـمولاته والـزمان ومراحله اتسع المجال الثقافي المعرفي التاريخي وتمكن

---

[2] - العبدري الرحلة ص :4.

السارد بمهارة أن يجعل سرده مشوقا، وذلك عبر تنظيمه داخل الوحدات الصغرى وربطه بالوحدات الكبرى، ونعني بالرحلة عن مجرد ذكر المراحل واستكشاف المواقع الجغرافية إلى استعراض للحدث التاريخي المتجذر في الأعماق والمتراكم عبر العصور إلى عمل فني يجد فيه القارئ متعة في خبره ورسالته وفي قصيدته وتعليقه.

ولكن الرحلة منذ البداية قد أسرت لنا بالهدف الحقيقي الخفي، فإن آفاق انتظارنا قد حددت قبل، والسارد يحاول أن يوطد العلاقة مع القارئ لهذا يدعم توقعاته لكسب ثقته، وقبل أن يحدث تغييرا على المستوى السردي وجدناه يشير إلى المعيقات التي يمكن أن تغير المسار، فحينما علن السلطان عن هدفه الخفي أبدى الجنود كثيرا من مظاهر الإعاقة "... واستدعى أعيان العساكر فعرفهم بذلك، وظهر من الأجناد إذ ذاك من التأسف والحزن لانصرافه عنهم ...مالا أفي بالعبارة عنه، فلا تسمع من الناس يومئذ إلا بكاء ودعاء"[1]

ولما وصل أمير ***آل سالم*** وهو أمير فيما بين طرابلس وبرقة "... فتحدث مخدومنا في السر بحضرته فلم يوافق عليه لخروج أكثر جماعته من يده... ولم يجعل في التشريق في ذلك العام سبيلا، بل قال إنه لا يتصور بحاله وجعله من أعظم ممتنع وأكبر محال..."[2]

هذه المعيقات تبين احتمالات في تغيير أفق الانتظار، وقد تراكمت هذه المثبطات من جهات مختلفة، والمتوقع أن يغير السلطان وجهته. أما حين أصر السلطان على مواصلة طريق الحج، وخرج من طرابلس بعد انتظار طويل للوفد العائد من فاس فلم يكن القارئ يتوقع مرور التجاني الذي حل فجأة مما أثر على سير السرد فانقسم الركب قسمين أحدهما واصل الرحلة وقد سكت عنه السارد سكوتا تاما، وثانيهما انقلب على عقبيه.

واستمر السارد يرصد إلى النهاية، فالوظيفة السردية هي وظيفة وجود الشيء أو عدمه.

الوظيفة التنظيمية: هي وظيفة تكمل الوظيفة الأولى وذلك "بلجوء السارد إلى التنظيم الداخلي للخطاب، مهما بدا مشتتا، انطلاقا من الربط بين الجمل والأجزاء، والتذكير بالأحداث وخلق إشراقات للدهشة و الإثارة..."[1]

---

(1) – التجاني، الرحلة، ص 177.

(2) - نفسه، ص: 220.

(1) – شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ص: 139.

إن متن الرحلة متنوع إلى درجة الاختلاف والتناص. والسارد بقدرته التنسيقية هو الذي يؤلف بين هذا الكم الضخم من الأقوال و الأفعال والأماكن والشخصيات، في عمل متكامل البناء على القوانين الداخلية للعمل المسرود، معتمدا في ذلك على الخصائص الزمنية والمكانية أو الخصائص الموضوعية والمنطقية لتأتي الأحداث المنجزة من قبل السارد غير متنافرة مع أفعال الذين سبقوه بأزمان بعيدة، وتأتي أقوال الساردين متناسقة فيما بينها مع أقوال الأولين، وذلك بإيجاد تمهيدات لنصوص قديمة فتوظف توظيفا ينم عن قدرة فائقة في إدارة السرد وفق ما يقتضيه المقام، فيصبح القديم متعايشا مع الحديث، والكل يؤلف متون الرحلات المغاربية وفق ما نقرؤه الآن.

منذ أن يشرع السارد في تقديم متنه السردي يبذل جهدا خاصا في تنظيم القصة من حيث الاسترجاع و الاستباق والتعاصر، ومن حيث الذكر والحذف والتضمين كما يبذل جهدا على مستوى الخطاب في التركيب اللغوي والتنسيق بين الفقرات وانتقاء الدال، وجهدا في مقاومة الثراء اللغوي أثناء الكتابة أو قراءته، إلى جانب الجهد الخاص بالالتزام الموضوعي أو الانسياق مع الذات، مما يكلف السارد الكثير من العناء.

فالسارد يستطيع أن ينظم مستويات السرد من أول إلى ثان إلى...كما يستطيع أن يبطئ السرد أو يسرعه، ويستطيع أن يذكر شخصية أو يهملها، فإذا أضفنا إلى ذلك الاهتمام بالجوانب المعرفية التي تميز رحلة عن أخرى، تبين لنا الدور الإداري[2] الذي يلعبه السارد في التخطيط والتنفيذ.

فالعبدري يشير إلى ما قام به من تنسيق حين قال: " وهذه الرحلة بدأت بتقييدها من تلمسان، ولم يمكن إظهارها هنالك، وأظهرتها بعد خروجنا منها، ووقف عليها شيوخنا بمصر وغيرها، وكان شيخنا زين الدين بن المنير– حرسه الله – يستحسن ما يقف عليه منها وقد أكملتها – والحمد لله – منظمة على نسقها مستنة في سننها جاريا معها حسبما جرت مستمليا لها في ما قدمت و أخرت حتى استوفى الغرض المطلوب، وحصل المراد منه والمرغوب وبالله أعتصم وأستعين" [1]

---

[2] - جيرار جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، تر: محمد معتصم و...ط2، 1997، ص: 264.

[1] – العبدري، الرحلة، ص: 6.

هذه هي الوظيفة التنسيقية الممثلة في جمع المادة وتنظيمها واستشارة أهل الخبرة فيها وقراءة المسرود وإعادة القراءة مع إجراء التعديلات المناسبة حتى يصل إلى الحد الذي يرتضيه السارد. فيذيع المتن بين الناس.

فالوظيفة التنسيقية غالبا ما تراعي جانبين: جانب الخطاب من حيث البنية القصصية الحدثية فيراعى إدراج خطاب الآخرين ضمن خطاب السارد، ويمكنه أن يمهد لخطاب الشخصيات بأفعال القول أو الشعور[2] أو غيرهما.

أما الجانب الثاني فيراعى فيه التنسيق بين المرسل والمرسل إليه بواسطة جسور لغوية تعتبر صيغا ثابتة مثل: قال، حدث، أخبرني، لاقيته، هذه الصيغ تشير إلى المرجع الواقعي وتشهد على القارئ، كما تكون بمثابة مفاتيح لسرود تملأ الفجوات الخاصة بالشخصيات والموضوعات المتعددة أو الأماكن التاريخية .

والسارد البارع هو الذي لا يغفل عما فعل أو وعد به، فها هو العبدري مثلا حين ذكر أبا عبد الله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي في الذهاب، قال: " أدركت جملة من أفاضل العلماء ورويت عنهم، منهم...وقد جمعت أسماءهم في برنامج قرأته عليه حين لقيته ثانية حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى"[3]، وحين أتى على ذكره في الإياب، قال: " ولقيت بها ثانية الشيخ الفاضل أبا محمد بن هارون، فأكثرت مجالسته والتردد إليه، وقرأت عليه برنامجه في أسماء شيوخه..."[4] فهذا التنسيق محكم رغم بعد المسافة الزمنية بين الذهاب و الإياب، والمسافة الورقية في الكتاب وهذا ما جعل الرحلة العبدرية تتبوأ الصدارة من حيث الإحكام فهي خالية من التكرار، خالية من الفجوات السردية المخلة بالتأليف، رغم أن السارد مر على الطريق نفسها وبخاصة من تلمسان إلى مصر.

أما الغزالي فهو منفذ برنامج خططه السلطان وكلفه بالسفر لذا نجد السارد يصرح قائلا: "...ذكرني مما أمرني به من الجانب المولوي – أسماه الله - من أن أقيد في هذه الوجهة الميمونة، ما سمعت ورأيت، ووعيت ودريت، وأحدث عما أشاهده من المدن والقرى

[2] – جان لينتفلت، مقتضيات النص السردي الأدبي، تر: رشيد بنحدو، طرائق تحليل السرد الأدبي ص: 93.

[3] – العبدري، الرحلة، ص: 42.

[4] – نفسه، ص: 27.

وأţ ـف مـا أبţ رتǈ في الإقامة و المسيرا... ولا فائدا بالإتيان بما هو مقرر معلوم من الأخبارÙ ومحţ ولǈ الإعادا لĤشياČ بلƔŪها والتكرارÙ وقد جاČ بما شاهده بالعيان علĎ قدر الاستطاعة والإمكان."[1]

فالسارد علĎ دراية بما سيƔعلǈ وقد حدد منهجǈ ووŪيƔتǈ خير تحديد ومارسها بنجاƟ فهو يعمـد إلĎ تقنياƘ خاţة للتنسيƾ فحينما يريد التƔţيل يقول مƛŭÙ ولنذكر كقولǈ:" ولنذكر كيƔـية تسـراد الشـاŪŪÙ في كل ضحوا بالبƜţة المذكورا علĎ ما شاهدنا عياناÙ فƌن نداČهم للتسراد ضرب بالنواقيƧ بضرب مخţ و ƒ فيǈ عƜمة للجميƴÙ ثم نداČ ثانÙ وهو ضـرب الطنـبور من البƜţة إلĎ الدار التي بها الشاŪŪÙ وهم يضربون ليƘتوا أمامهم لمحل تسرادهم..."[2]Ù وحين يشعر السارد أنǈ استطرد ƛم حديƚ ليƧ لǈ أولويةÙ يستعمل ţـيغة " ولنـرجƴ" كقولǈ:" **ولنرجŪ** لما هو الآكد والأولĎ من الكƜمÙ علĎ مباشرا القوم إيانـا وفـرحهم بنا وتردد أعيانهم علينا"[3]Ù ومن التنسيƾ الذƒ لا يتخلف إطƜقا في هذه الرحلة حسن الربط بين الوحداƘ بƌيجاز ما مضĎ و الإشارا إلĎ ما سيƘتي كقولǈ: " أقمنا بهـذه المدينة يومين...وفي اليوم الƛالƚ مررنا قاţدين مدينة...عن أربعة عشر ميƜ"[4]Ù يقول علĎ سبيل الاختţار:" لحقنا بها بين الŪهرين وحكمها حكم التي قبلها في الحضارا وإكرام الوارد عليهم من ذوƒ الأقدار."[5]

وتـتعدد ţـيƸ الربط من حيƚ الإيجاز والإطناب ومن حيƚ العناţر الزمنية المذكورا والمسـافاƘ المقطوعة والمنتŪرا وكلها ذاƘ دلالة علĎ حسن التنسيƾ السردƒ في تنŪيم الـزمان وبخاţـة من حيƚ الترتيب في عنţرƒ الاسترجاƳ والاستباƾ أو في مدتǈ من حـيƚ السـرعة والبطČÙ أو في الجوانب اللغوية من حيƚ التكرار وعدمǈ أو الانتقاČ لما ينبغي أن يكتب أو يذاƳ.

---

[1]– أحمد بن المهدƒ الغزالÙ الرحلةÙ ƫ :45.

[2] – نƔسǈÙ ƫ :45.

[3] – نƔسǈÙ ƫ :75

[4] – نƔسǈÙ ƫ :192.

[5] – نƔسǈÙ ƫ :192.

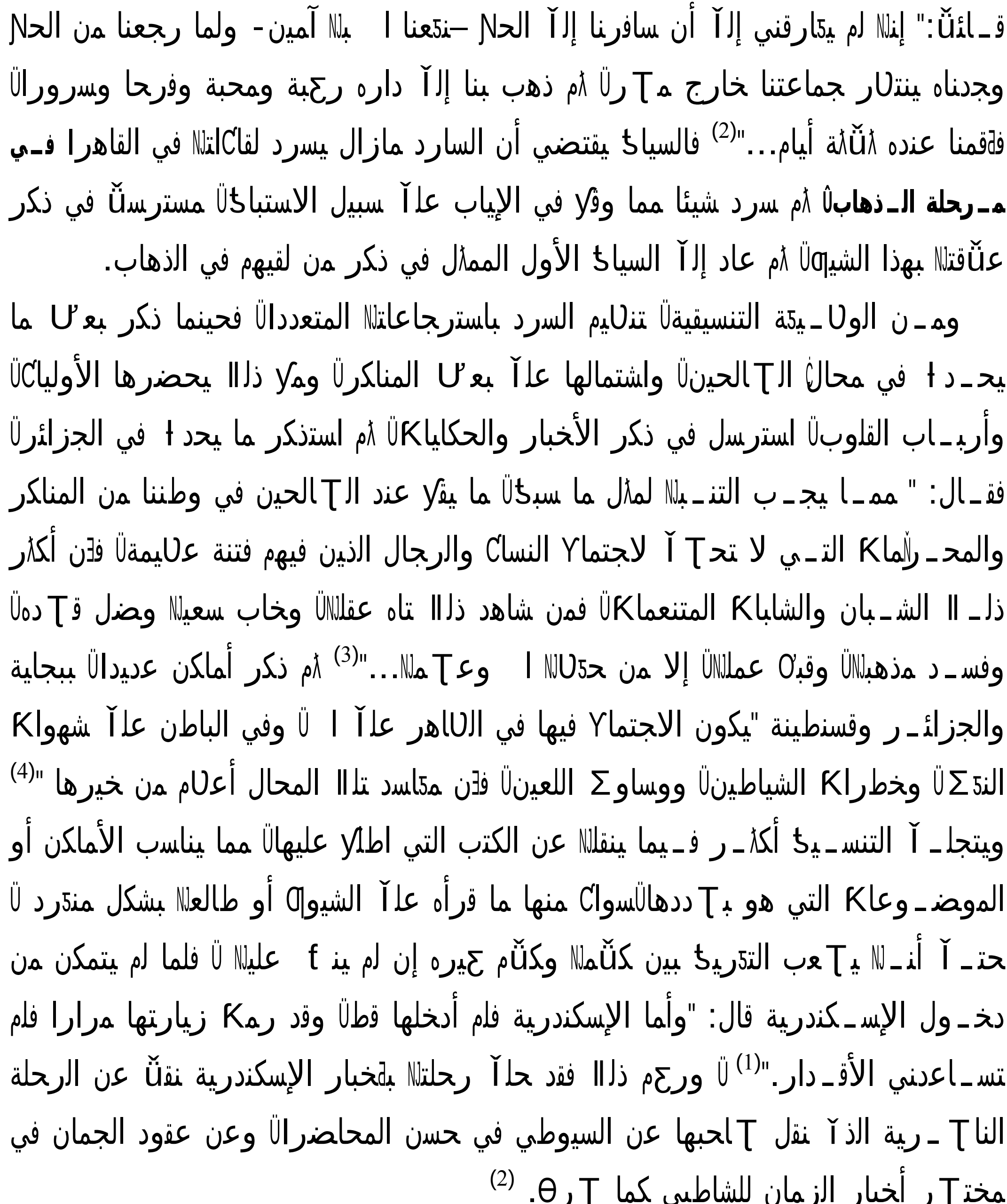
والورتيلاني يدرك هذه الوظيفة إدراكا جيدا، ويصرح بذلك في أكثر من موضع فحينما أراد أن يوقف رسالة البكري في عد المراحل إلى الأراضي المقدسة قال: " فقررت أن أقتطف منها ما يكون في أذن هذه الرحلة شنفا، إذ كلامي بالنسبة إلى كلامه لا يعد معه صنفا ولما كانت المنازل التي ذكرها قد لا تتفق مع منازلنا، ومراحله تزيد أو تنقص عن بعض مراحلنا، لم أذكر في كل مرحلة ما يناسبها من كلامه فأخرت ذلك إلى آخر مرحلتين أو ثلاث... فاخترت لإدراج كلامه المراحل التي فيها البنادر، لأنها في الغالب متفقة، فإذا جاء ذكر بندر من البنادر ذكرت من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبله ليكون ذلك أسهل لمطالعته وأبقى لرونق كلامه من التقطيع وكثير التوزيع"[1]، فبالإضافة إلى التنسيق الذي ينص عليه السارد يبرز التنصيص على فعل القراءة ومراعاة سهولتها لدى المتلقي "أسهل للمطالعة" زيادة على الجانب الجمالي الذي يحرص عليه بالمحافظة على النص المستشهد به" أبقى لرونق كلامه" وعدم تشويهه بالتفكيك، هذه المقاطع توضح إدراك السارد للوظيفة التنسيقية وحسن التصرف فيها .

ومن مظاهر التنسيق الجيد لدى الورتيلاني، احتفاظه بالذكريات التي عاشها في الحجتين الأوليين، وتوظيفهما في الحجة الثالثة عن طريق التذكر والتداعي من خلال كقوله حين ذكر الشيخ النفزاوي وعلمه العزيز وما أخذ عنه في حجاته السابقة من علوم وفنون، وما عرض له من مسائل كانت محل مناقشة في حلقته الموقرة، وذلك في حجة مع أبيه سنة 1153 هـ. ثم ذكر أنه في حجته الثانية حضر موت النفزاوي قال "وحضرنا موته في الحجة الثانية وقد ازدحم الناس على الصلاة عليه بحيث لا تجد موضعا في الجامع الأزهر إلا وهو عامر، فقد أتى للصلاة عليه أكثر أهل مصر، ومات فجأة رضي الله عنه[1]، واستطرد في وصف خروج الناس إلى القرافة، ولم يسجل ذلك كله إلا في الرحلة الثالثة 1179هـ، فالاحتفاظ بالذكريات مكتوبة أو مخزونة في الذاكرة، وتحبيرها في الموضع المناسب رغم تباعد الفترات الزمنية ليس بالأمر اليسير، وهذه الوقائع كثيرا في الرحلة الورتيلانية، ولما كان الورتيلاني يعدد الشيوخ الذين لقيهم في الأزهر، ذكر أحدهم

---

[1] – المصدر السابق، ص: 222.

[1] - المصدر السابق، ص : 216.



قائلاً: "إنه لم يفارقني إلى أن سافرنا إلى الحج –نفعنا الله به آمين- ولما رجعنا من الحج وجدناه ينتظر جماعتنا خارج مصر، ثم ذهب بنا إلى داره رغبة ومحبة وفرحا وسرورا، فأقمنا عنده ثلاثة أيام..."(2) فالسياق يقتضي أن السارد مازال يسرد لقاءاته في القاهرة **في رحلة الذهاب**، ثم سرد شيئا مما وقع في الإياب على سبيل الاستباق، مسترسلا في ذكر علاقته بهذا الشيخ، ثم عاد إلى السياق الأول المتمثل في ذكر من لقيهم في الذهاب.

ومن الوظيفة التنسيقية تنظيم السرد باسترجاعاته المتعددة، فحينما ذكر بعض ما يحدث في محال الصالحين، واشتمالها على بعض المناكر، ومع ذلك يحضرها الأولياء، وأرباب القلوب، استرسل في ذكر الأخبار والحكايات، ثم استذكر ما يحدث في الجزائر، فقال: " مما يجب التنبيه له مثل ما سبق، ما يقع عند الصالحين في وطننا من المناكر والمحرمات التي لا تحصى لاجتماع النساء والرجال الذين فيهم فتنة عظيمة، فإن أكثر ذلك الشبان والشابات المتنعمات، فمن شاهد ذلك تاه عقله، وخاب سعيه وضل قصده، وفسد مذهبه، وقبح عمله، إلا من حفظه الله وعصمه..."(3) ثم ذكر أماكن عديدة، ببجاية والجزائر وقسنطينة "يكون الاجتماع فيها في الظاهر على الله، وفي الباطن على شهوات النفس، وخطرات الشياطين، ووساوس اللعين، فإن مفاسد تلك المحال أعظم من خيرها "(4)

ويتجلى التنسيق أكثر فيما ينقله عن الكتب التي اطلع عليها، مما يناسب الأماكن أو الموضوعات التي هو بصددها، سواء منها ما قرأه على الشيوخ أو طالعه بشكل منفرد، حتى أنه يصعب التفريق بين كلامه وكلام غيره إن لم ينبه عليه، فلما لم يتمكن من دخول الإسكندرية قال: "وأما الإسكندرية فلم أدخلها قط، وقد رمت زيارتها مرارا فلم تساعدني الأقدار."(1)، ورغم ذلك فقد حلى رحلته بأخبار الإسكندرية نقلا عن الرحلة الناصرية الذي نقل صاحبها عن السيوطي في حسن المحاضرة، وعن عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان للشاطبي كما صرح. (2)

---

(2) – نفسه، ص: 300.

(3) – نفسه، ص: 481.

(4) – نفسه، ص: 482.

(1) – المصدر السابق، ص: 561.

(2) – نفسه، ص: 594.

ورغم ذلك فإن اتساع متن الرحلة الورتيلانية وتراكم أحداثها وتباعد أزمانها أوجد بعض الثغرات .

فبينما كان يذكر أفاضل بسكرا استوفى الأحياء منهم ثم انتقل إلى الموتى فقال: " فثيها العجب العجاب نفعنا الله بهم وجعلنا في زمرتهم بمنه وكرمه وهو من العارفين وقد زرت قبر الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضري ." [3] وقبره ليس ببسكرا.

وهذا ما وقع حين أشار إلى نقوله الخاصة ببسكرا عن العياشي..إذ قال في الأخير معلقا " انتهى كلامه ونقلته على طوله لحسنه في بابه "ثم أردف قائلا: " وزرنا في تلك الحجة أولاد سيدي محمد الصالح وأخرج لنا ولده ... تمرا ولبنا وأكل أصحابنا وكان في حجتنا الأولى التي حججناها مع الوالد رحم الله جميعهم عام1076هـ..." [4]

فالأمر ملتبس على القارئ من هذا الاستئناف في السرد "وزرنا في تلك الحجة..." أهذا التاريخ للورتيلاني أم لغيره ومن المؤكد أن الورتيلاني لم يكن مولودا حينئذ وهذا ما دفعنا إلى مراجعة الرحلة فاتضح أن السارد نقل عن الرحلة الناصرية التي نقل صاحبها عن العياشي والناصري هو الذي علق على العياشي ثم استأنف السرد ولم يشر سارد الورتيلانية إلى ذلك مما أحدث الالتباس وهذا كثير في التمهيد الذي سرد فيه أفاضل بسكرا والزاب في حوالي ثماني عشرة صفحة وفيها كثير من الخلط.

ومن الثغرات قوله:" وفي عام تسعة وتسعين التقينا بمكة وأكرمنا بها الشيخ الحسين العجمي والشيخ الحسين الحنفي المكي وأهدى لنا عكازا من الخيزران والشيخ علي اليمني وهما من أصحاب سيدنا الوالد –رضي الله عنه- وطلعا معنا إلى جبل أبي قبيس فجلسنا هناك سويعا للدعاء ومشاهدا البيت العتيق والمسجد الحرام ومكة كلها..." [1]

إن جملة "وهو من أصحاب سيدنا الوالد" توهم أن الحديث كان عن والد الورتيلاني وبذلك يكون المؤلف/السارد من الحاضرين وبخاصة حين ذكر "طلعا معنا ..." إلا أن عام تسعة وتسعين يجعلنا شاكين لكون الورتيلاني حج في المرة الثالثة عام1179هـ ولما عدنا إلى

---

(3) – نفسه ص: 87.

(4) – نفسه ص: 81.

(1) – قد أحصيت من هذه التواريخ ما يقارب الخمسين موضعا.

سياقات أوسع، وجدنا أن النص منقول عن الرحلة الناصرية ولم يحسن الربط والتنسيق إذ اعتمد على إشارات بعيدة مما أوقع خللا في التنظيم.

ومن تقنيات التنسيق التي يعتمد عليها سارد الورتيلانية أن يذكر الحادثة، فإذا استطرد إلى غيرها في المستوى الثاني يعود إلى المستوى الأول بقوله "انعطاف..." [2] أو "تتمة " وهما صيغتان مستفيضتان في الرحلة، وقد تستعملان معا "تتمة وانعطاف" أو "انعطاف ورجوع" "، إلا أن هذا الانعطاف قد يحيل إلى سرد بعيد، يكون القارئ قد نسيه، ومن ذلك قوله:"انعطاف وتنبيه" لما ذكرنا من كثرة حمام أرض أنا ومن تبعني من المتضلعين السفر مع الركب المصري لما اشتهر من ظلم الركب الجزائري للناس، وللهرج فيه أيضا حتى أن الإنسان يتمنى لو لم يقدم إلى الحج، وأن شيخ الركب ليس إلا يساعد الناس على ما هم عليه من ظلم غيره..."[3]، زيادة على ركاكة التعبير، فإن هناك خللا في التنظيم والتنسيق إذ أن الإشارة العابرة إلى هذا الكثرة وردت ضمن تعداد المنازل في نص سابق قبل هذا الموضع بتسع وأربعين صفحة ولن يجد القارئ هذا السياق الذي انعطف إليه إلا بصعوبة بالغة لكون السارد ذكر أمورا كثيرة تخص مصر وعلماءها، وعاداتها، وضمن ذلك أشار إلى انعطافات وتنبيهات متعددة، فلما أحال على كثرة حمام كانت الإحالة بعيدة جدا وقد ينسى القارئ المكان تماما، هذه بعض خصائص التنسيق في الرحلة الورتيلانية.

أما رحلة نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد فنجد ساردها على دراية مما سيكتبه وقد حدد منهجه والوظيفة التي سينجزها، والتزم بذلك، فهو يستعمل تقنيات خاصة للتنسيق فحينما يريد التفصيل يعمد إلى صيغة ولنذكر... كقوله: " ولنذكر كيفية تسراد الشلاظ في كل ضحوا..."[1] وينظم الزمن تنظيما تتابعيا في أغلب أجزاء الرحلة، كقوله: " وفي الغد طلب إلينا الحاكم الوصول إليه لداره...ولما وصلنا إلى دار الحاكم تلقانا بالرحب والسعة وبالغ في الإكرام، وحين انصرفنا عنه رجعنا عن طريقنا اختلاسا من القوم المنتظرين في الطريق..."[2]، وهذه الكيفية من ترتيب الأحداث هي السائدة.

---

[2] – المصدر السابق، ص: 425.

[3] – نفسه، ص: 281- 282.

[1] - المصدر السابق، ص: 50.

[2] – نفسه، ص: 52- 53.

وقد يحدثنا عن المستقبل باستعمال ألفاظ دالة على ذلك رغم كونها استرجاعية في زمن الكتابة كقوله: " ومن غد رواحنا للجزيرة، ورد على حاكمها كتاب طاغيته مخبرا أنه بعث بخمسة مراكب لمرسى سبتة لملاقاتنا بها لنعبر عليها الجواز، فإذا قطعنا قبل أن تصل مراكبه أمره بإقامتنا عنده ثلاثة أيام، في انتظار الخيل المبعوثة من عنده في البر، فإذا فاتت الثلاثة أيام ولم تصل الخيل، فليبعث من خيله ثلاثين فارسا تصحبنا في طريقنا..."[3]، فالخطاب انتظمت فيه الأزمنة الثلاثة بشكل جيد.

وقد يشعر السارد بالاستطراد في بعض الأخبار أو مما ليس له الأولوية في استراتيجيته فيستعمل صيغة "ولنرجع" كقوله: " ولنرجع للكلام عن كيفية الدار المذكورة ووصف بعض ما اشتملت..."[4] وهذا الانعطاف قريب جدا بالنسبة لنقطة التوقف. وقد يستعمل السارد الصيغة للتذكير بشيء بعيد نسبيا.

وقد يعلن السارد عن برنامجه التنظيمي فيعدنا أنه سيقدم لنا ذلك مستقبلا بقوله: " وسيأتي ذكره في..." الذي يعتبره القارئ وعدا ذا قيمة كبيرة في تمتين عرى الثقة بينه وبين المرسل السارد. ولم نجد إخلافا بالوعد. على مدى هذه الرحلة.

ويدخل ضمن سوء التنسيق ما يمكن أن نجده من فجوات سردية، وهي قليلة في هذه الرحلة. ففي الوحدة الأولى: "سبتة" تحدث السارد عن دار الاستقبال وعن الآثار وعن الكنيسة وبيوت الموتى داخلها، وتحدث عن استعراض ليلي بغرض غفران الذنوب لأهل المدينة، كل ذلك في سرد مترابط محكم، وفجأة يحدثنا عن تسراد العساكر فلا نجد المبرر المنطقي، فيشعر القارئ بفجوة سردية في هذه النقلة الفجائية، قال:"...فيها كفارة للذنوب الصادرة عن أهل المدينة في يومهم، ولهم على ذلك خراج، ولنذكر كيفية تسراد الشطار في كل ضحوة بالبلصة..."[1]

فالانتقال من وحدة جزئية إلى أخرى قسري لا يوجد ما يمهد له من قول أو فعل. وبنفس الصيغة كان الانتقال في الوحدة الثانية "الجزيرة" إذ بعد أن حدثنا عن الاستقبال

---

(3) – نفسه: ص: 57.

(4) - نفسه: ص: 79.

(1) – المصدر السابق، ص: 50

والسـهر، قـال:" ولنذكـر صفة المدينة وما اشتملت عليه من الأشياء..." [2] وإن كانت فجائـية الانتقال هنا أقل وطأة على القارئ لكون الوصف متعلقا بالمدينة التي يجري فيها الاستقبال.

وهكـذا فعـل في الوحدة الخامسة "شريش" إذ تحدث عن المشاهد ثم الوصف الشامل للمدينة وأهلها ثم قال: "...كلها العبارة عن استيفاء ما اشتملت عليه من أمور الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة" فنقول باختصار..."[3] فالتجوا هنا أحدثها السارد بتعليقه على ما يتنافس فيه من أمور لا وزن لها ثم فجأة يهبط إلى وصف عالم المدينة.

ويمكـن القول أن سارد الرحلة الغزالية متيقظ باستمرار لا ينسى ما أنجزه ولا يغفل عمـا سيفعله و بتقديرات حسنة إذ يقدر المسافة ويشير إلى الزمان وسكان المدن من حيث البداوة والتحضر، ومن حيث الغنى والفقر ومن حيث علاقتهم بالسلطان ولهم الإسلامية القديمة.

أما الرحلة العياشية فمكونة من جزأين كبيرين، وقد ضمنهما السارد متنا متنوعا جدا، فيه مشاهدات وأخبار ونكت وغرائب وأشعار للسارد ولغيره، وحكايات عن الصالحين ومقابلات العلماء ومراسلاتهم.

ومـن هـنا نقدر الجهد الذي بذله السارد في تنظيم هذا المتن من حيث التقديم والتأخير، والإخبار والذكر، والاستشهاد والتضمين، كما يبرز الجهد على مستوى الخطاب من حيث التنسـيق اللغـوي، والجـوانب المعرفية، فإذا تجاوزنا الطرف عن التتابع السردي الذي يخضع للحركة أساسا فإننا أيضا نجد بعض الصيغ الأدائية التي تعين السارد على التنسيق وتعلن ونهاية الصيغة وطبيعة الخطاب الذي يأتي بعدها.

ومن الصيغ الأدائية: نجد: ثم ارتحلنا، ثم سرنا، ثم ذهبنا، ثم تجاوزنا، ثم في الغد مـن يـوم نـزولنا، أو دخولـنا، وكان رحيلنا يوم...وكان نزولنا وبتنا، ولما خرجنا... وزرنـا...، ومما زرناه، وأصبحنا...هذه الصيغ حركية زمنية تحدد الفعل أو الزمن وهي ذات علاقة بما هو متوقع من الخطاب.

---

(2) – نفسه، ص: 57.

(3) – نفسه، ص: 67.

ƿمم ـ ﻙ ǽ ـ دǧ Ŭ ـ Ǻ ǀǼǻ ـ ǿ Ā قوله: " أخبرنا، وقد أخبرني، وقد ذكر لي، وقد ذكر فلان، وحدثني، ومن ذلك. وهي ﺗيغ إسنادية تبين السارد الخارجي، والسارد الداخلي الذي يتحول إلى مسرود له أحيانا ، والغرض هو توثيق الخبر. ويمكن أن نضيف إليها: وقد ذكر المؤرخون، وقد قال بعض العلماء.

ƿم ـ ﻙ ƒ ǿ ـ ﻙ ǽ ǕǾ ـ Ā ﺍﻟﺴ ـ ﻙ Ʒ فغالبا ما يعمد إلى الﺘيغ التالية: قلK، وقد قلK، فقلت قال فلان... وهذا ما قلته، وفي ذلك قلK.

ƿǕﻙ ǽ ﺩﺳ ǽ ǀǼǻ ﺍĀǻǅǿ يستعمل أما...، ومن ذلك...واعلم...

ƿƒ ǿ ـ ﻙ ǽ ـ ﻙ ǅ كتـبا أو نﺗ وﺗ ا له أو لغيره فإنه يستهلها بـ : ونﺗه، ونﺗها هذا في المكـتوب، أمـا في الشعر فيقول: ومما قلته شعر، أو في هذا المعنى قلK.وهذا يعني أن السـارد فـي الـرحلة المغربية على مستوى عال من إدراك الوظيفة التنسيقية المتعلقة بالتأليـف، وربـط الأجزاء، والسابق باللاحق واللاحق بالسابق. إلى جانب مراعاة تقاليد الﺗـياغة مـن حيث الخبر، والحكاية، والإنشاد، والتعليق، وهي ﺗيغ متداولة في كتب التراث، ويستوعبها المتﺗدي للتأليف استيعابا لا يشذ فيه عن المألوف غالبا.

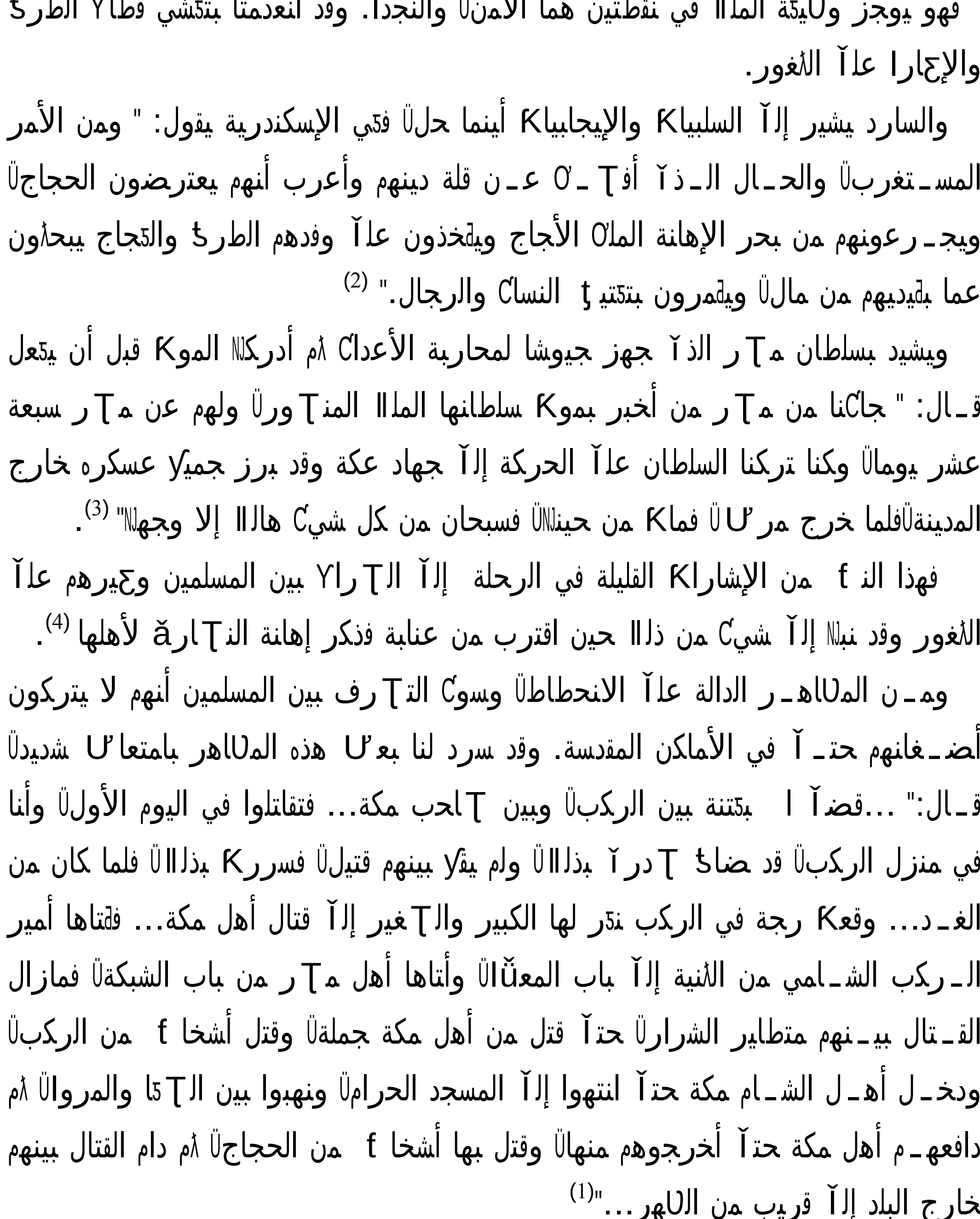
ƿǾǿǃ ﺍǀǼǻ ƿﺍǺƒǕ :

وهي من الوظائف الأساسية باعتبار أن كل رسالة لابد لها من مرسل يبلغ شيئا ما إلى المرسل إليه وهم القراء أو المتلقون وأول مظهر لهذه الوظيفة، هو تقديم المسرود نفسها، والسـارد في الرحلة يشير في أكثر من موقع إلى أنه يريد أن يفيد القارئ بما يقدمه من الأخبار والموضوعات الأدبية والفقهية والقيم الفكرية والاجتماعية وغيرها.

فـي الـرحلة العبدرية: يركز السارد على إحاطة القارئ بالأوضاع القائمة، وبخاﺗة الجـوانب السياسـية والاجتماعـية والعلمية. فهو يشير إلى أن "...الملك الذي هو نظام الأموروﺗ ـ ﺗ ـ الخاﺗـة والجمهور، في أكثر الأرض منقوض الدعائم مﺗدع القوائم، يدعـيه كل غوي كالمتنكشي وعبد القوي، رضوا باسم الملك، وإن فاتهم معناه، وادعوه وما لهم منه إلا أسماؤه وكناه لا يؤمن بهم طريق ولا يستنقذ بهم غريق..."[1].

---

[1] – العبدري، الرحلة، ص: 4.



فهو يوجز وضعية المغاربة في نقطتين هما الأمن والنجدة. وقد انعدمتا بتفشي قطاع الطرق والإغارة على الثغور.

والسارد يشير إلى السلبيات والإيجابيات أينما حل، ففي الإسكندرية يقول: " ومن الأمر المستغرب، والحال الذي أفصح عن قلة دينهم وأعرب أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال." [2]

ويشيد بسلطان مصر الذي جهز جيوشا لمحاربة الأعداء ثم أدركه الموت قبل أن يفعل قال: " جاءنا من مصر من أخبر بموت سلطانها المالك المنصور، ولهم عن مصر سبعة عشر يوما، وكنا تركنا السلطان على الحركة إلى جهاد عكة وقد برز جميع عسكره خارج المدينة، فلما خرج مرض، فمات من حينه، فسبحان من كل شيء هالك إلا وجهه" [3].

فهذا النص من الإشارات القليلة في الرحلة إلى الصراع بين المسلمين وغيرهم على الثغور وقد نبه إلى شيء من ذلك حين اقترب من عنابة فذكر إهانة النصارى لأهلها [4].

ومن المظاهر الدالة على الانحطاط، وسوء التصرف بين المسلمين أنهم لا يتركون أضغانهم حتى في الأماكن المقدسة. وقد سرد لنا بعض هذه المظاهر بامتعاض شديد، قال:" ...قضى الله بفتنة بين الركب، وبين أصحاب مكة... فتقاتلوا في اليوم الأول، وأنا في منزل الركب، قد ضاق صدري بذلك، ولم يقع بينهم قتيل، فسررت بذلك، فلما كان من الغد... وقعت رجة في الركب نفر لها الكبير والصغير إلى قتال أهل مكة... فأتاها أمير الركب الشامي من الثنية إلى باب المعلى، وأتاها أهل مصر من باب الشبكة، فمازال القتال بينهم متطاير الشرار، حتى قتل من أهل مكة جملة، وقتل أشخاص من الركب، ودخل أهل الشام مكة حتى انتهوا إلى المسجد الحرام، ونهبوا بين الصفا والمروة، ثم دافعهم أهل مكة حتى أخرجوهم منها، وقتل بها أشخاص من الحجاج، ثم دام القتال بينهم خارج البلاد إلى قريب من الظهر..."[1]

---

[2] – نفسه، ص: 93.

[3] – نفسه، ص: 166.

[4] - نفسه، ص: 37.

[1] – المصدر السابق، ص: 187.

فالسـارد بتلخيصه لوقائع ما حدث في مكة عام حجه، يشير إلى التناحر السياسي وإلى الانحطـاط الـذي آل إليه أمر المسلمين حتى أنهم لم يتمكنوا من ضبط أنفسهم، وتجاوز خلافـاتهم فـي الحرم، ولم يتورعوا من قتل بعضهم البعض، بل وقتل الحجاج الأبرياء، وسفك الدماء بلا حق في المسجد الحرام، ونلاحظ أن السارد قد اكتفى بسرد الوقائع مع تسجيل مشاعره الذاتية، فقد عبر عن موقفه الرافض لهذا الحدث بقوله : " وقد ضاق صدري بذلك..." ويقوله: "... فلم يقع بينهم قتيل، فسررت بذلك..."

أما في الجانب العلمي فنجد أن وظيفة الإخبار والتواصل تركز أساسا على" بلوغ الواقع والنفاذ إلى عمقه لإدراك الجواهر..."(2)

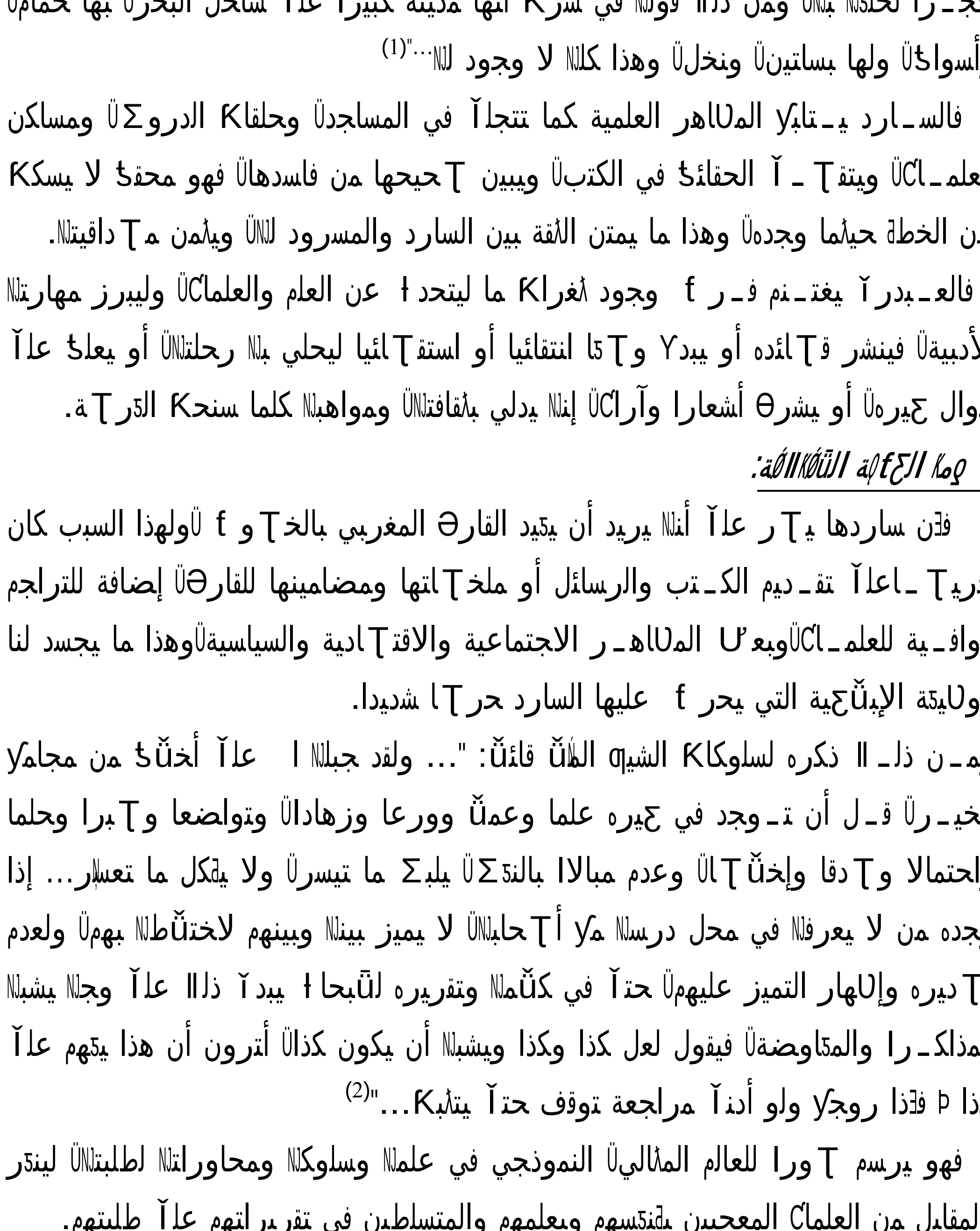
فالسارد كلما دخل بلدا أو قرية بحث عن العلم والعلماء، وقد جعل تواجد العلماء مقياسا لتقييم المدن والقرى، فتأسف منه البعض، واتهمه بالمبالغة في التهجم على البلدان.

ولقـد أصـاب السارد الحقيقة بهذا المقياس المتجلي في البحث المتواصل على العلماء بغـرض الاتصال بهم، والرواية عنهم، والاستفادة منهم، وتتبع برامجهم ورحلاتهم العلمية في الطلب، ولا شك أن تزويد القارئ بالجديد من المعلومات، والطريف من الأخبار، كان من الأهداف الأساسية التي يبتغيها السارد، قال: " وأضيف إلى ذلك ما يضطر إليه البيان فيما قصر فيه العيان من نبذ مذكورات ونتف مشهورات ونكت مرسومة في الكتب مسطورة تتمـيما لغـرض التقييد، وتعميقا لأرب المستفيد، حتى يكون التأليف في بابه مغنيا، وعن الافـتقار إلـى غيـره مسـتغنيا..."(3)، ولا يكتفي السارد/ المؤلف بالاتصال المباشر مع العلماء، بل يبحث عن الكتب التي تتقاطع مع غرضه، ويدرسها، وقد يعلق عليها، كما فعل مـع مسـالك البكري، إذ تتبعه في أكثر من نقطة، وبين أسباب غلطه، قائلا:"...فمن ذلك قـوله في إيلياء، مدينة بيت المقدس، أن الجبال محيطة بها، وأنها في نشز من الأرض... ولـيس بالقرب منها إلا رواب وتلال، وأقلها سمك بما دار بها من الوعر، وما حازها من جهـات الأوديـة... فلـنها جبالا، ومنه قوله في وصف قصر الجم بإفريقية، وهو قصر الكاهـنة، أن فـي دوره نحوا من ميل، وقد طلعته إلى أعلاه، وتأملته، ولو رمى الرامي

---

(2) – شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ص: 140.

(3) – العبدري، الرحلة، ص: 2.



حجـرا لخلوه بلده ومن ذلك قوله في سرك أنها مدينة كبيرة على ساحل البحر، بها حمام، وأسواق، ولها بساتين، ونخل، وهذا كله لا وجود له..."[1]

فالسـارد يـتتبع المظاهر العلمية كما تتجلى في المساجد، وحلقات الدروس، ومساكن العلمـاء، ويتقصـى الحقائق في الكتب، ويبين صحيحها من فاسدها، فهو محقق لا يسكت عن الخطأ حيثما وجده، وهذا ما يمتن الثقة بين السارد والمسرود له، ويثمن مصداقيته.

فالعـبدري يغتـنم فـرص وجود ثغرات ما ليتحدث عن العلم والعلماء، وليبرز مهارته الأدبية، فينشر قصائده أو يبدع نصا انتقائيا أو استقصائيا ليحلي به رحلته، أو يعلق على أقوال غيره، أو يشرح أشعارا وآراء، إنه يدلي بثقافته ومواهبه كلما سنحت الفرصة.

مع الرحلة الثقافية:

فإن ساردها يصر على أنه يريد أن يفيد القارئ المغربي بالخصوص، ولهذا السبب كان حريصـا علـى تقـديم الكـتب والرسائل أو ملخصاتها ومضامينها للقارئ، إضافة للتراجم الوافـية للعلمـاء، وبعض المظاهـر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهذا ما يجسد لنا الوظيفة الإبلاغية التي يحرص عليها السارد حرصا شديدا.

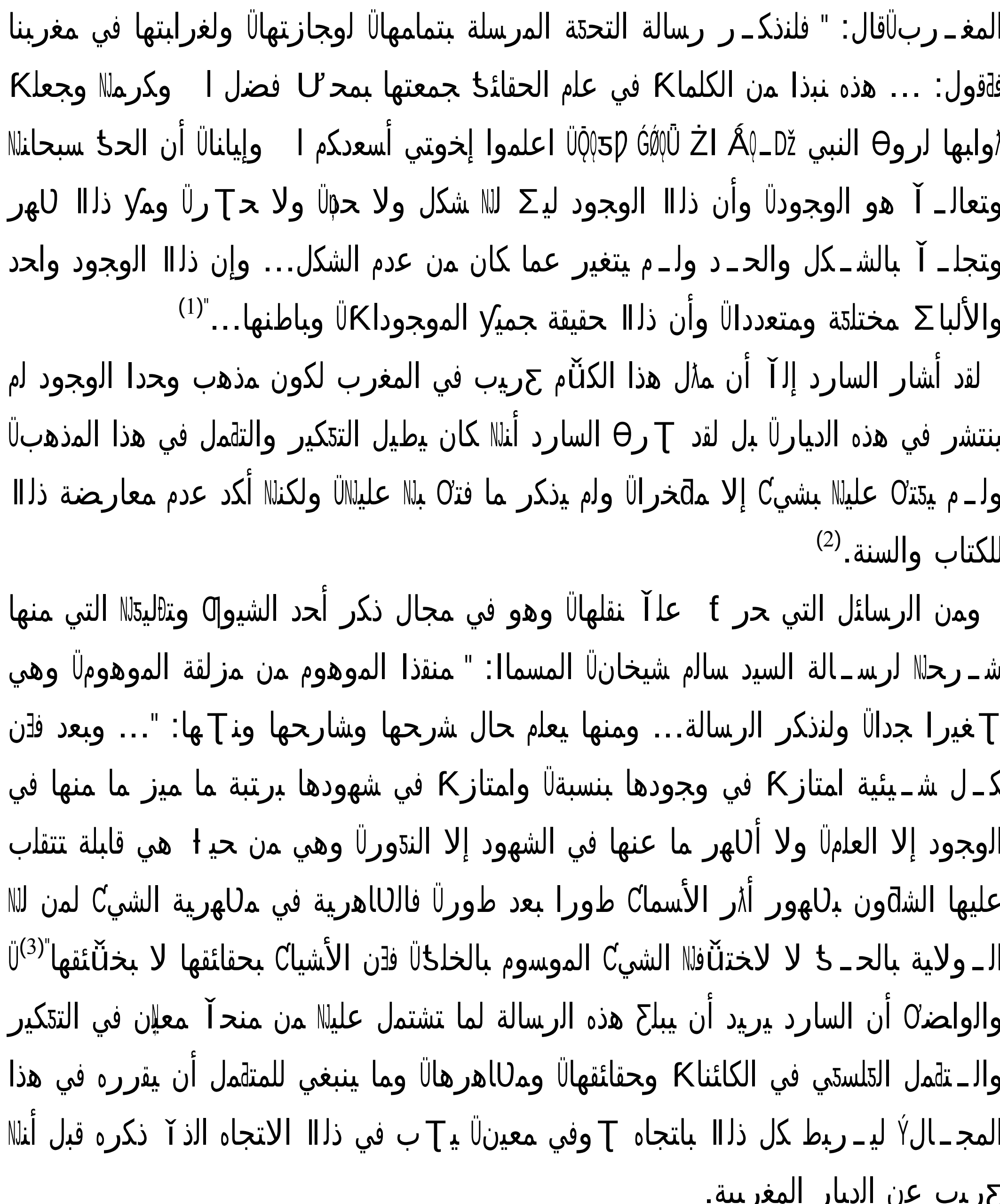
ومـن ذلـك ذكره لسلوك الشيخ الفلاني قائلا: "... ولقد جبلته على أخلاق من مجامع الخيـر، قـل أن تـوجد في غيره علما وعملا وورعا وزهادة، وتواضعا وصبرا وحلما واحتمالا وصدقا وإخلاصا، وعدم مبالاة بالنفس، يلبس ما تيسر، ولا يتكلف ما تعسر... إذا وجده من لا يعرفه في محل درسه مع أصحابه لا يميز بينه وبينهم لاختلاطه بهم، ولعدم تصديره وإظهار التميز عليهم، حتى في كلامه وتقريره للأبحاث يبدي ذلك على وجه يشبه المذاكـرة والمفاوضة، فيقول لعل كذا وكذا ويشبه أن يكون كذا، أترون أن هذا يفهم على هذا، فإذا روجع ولو أدنى مراجعة توقف حتى يتبين..."[2]

فهو يرسم صورا للعالم المثالي النموذجي في علمه وسلوكه ومحاورته لطلبته لينفر بالمقابل من العلماء المعجبين بأنفسهم وبعلمهم والمتسلطين في تقريراتهم على طلبتهم.

---

[1] – المصدر السابق، ص: 158.

[2] – أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص: 333.



وممـا حرص عليه تبليغه لقرائه المتوقعين نقله للكتب التي يرى أنها غير متداولة في المغـرب، قال: " فلنذكـر رسالة التحفة المرسلة بتمامها لوجازتها ولغرابتها في مغربنا فنقول: ... هذه نبذة من الكلمات في علم الحقائق جمعتها بمحض فضل الله وكرمه وجعلت ثوابها لروح النبي صلى الله عليه وسلم اعلموا إخوتي أسعدكم الله وإيانا، أن الحق سبحانه وتعالـى هو الوجود، وأن ذلك الوجود ليس له شكل ولا حد ولا حصر، ومع ذلك ظهر وتجلـى بالشـكل والحـد ولـم يتغير عما كان من عدم الشكل... وإن ذلك الوجود واحد والألباس مختلفة ومتعددة، وأن ذلك حقيقة جميع الموجودات وباطنها..."[1]

لقد أشار السارد إلى أن مثل هذا الكلام غريب في المغرب لكون مذهب وحدة الوجود لم ينتشر في هذه الديار، بل لقد صرح السارد أنه كان يطيل التفكير والتأمل في هذا المذهب، ولـم يعثر عليه بشيء إلا مؤخرا، ولم يذكر ما فتح به عليه، ولكنه أكد عدم معارضة ذلك للكتاب والسنة.[2]

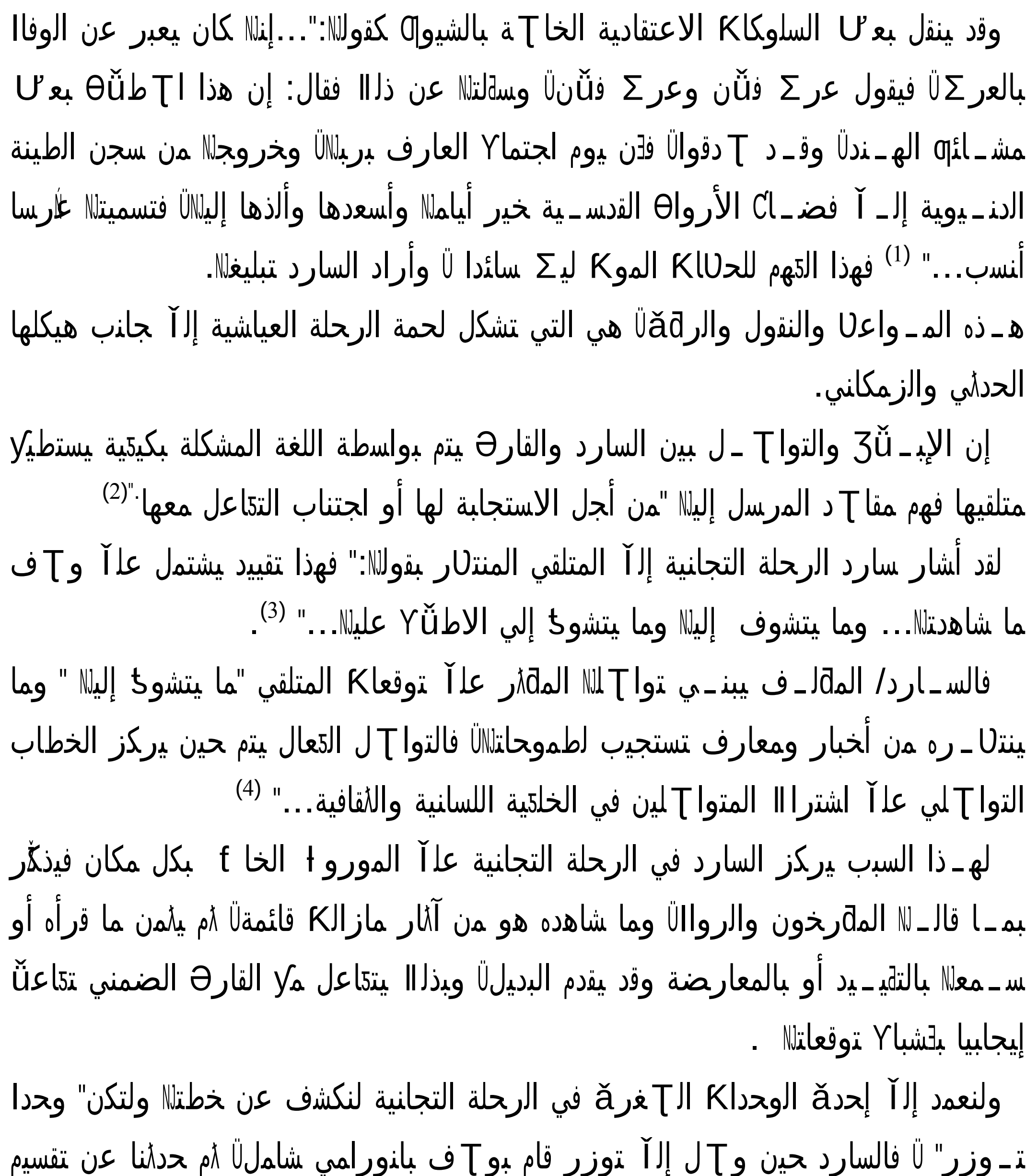
ومن الرسائل التي حرص على نقلها، وهو في مجال ذكر أحد الشيوخ وتآليفه التي منها شـرحه لرسـالة السيد سالم شيخان، المسماة: " منقذة الموهوم من مزلقة الموهوم، وهي صغيرة جدا، ولنذكر الرسالة... ومنها يعلم حال شرحها وشارحها ونصها: "... وبعد فإن كـل شـيئية امتازت في وجودها بنسبة، وامتازت في شهودها برتبة ما ميز ما منها في الوجود إلا العلم، ولا أظهر ما عنها في الشهود إلا النور، وهي من حيث هي قابلة تنقلب عليها الشؤون بظهور أثر الأسماء طورا بعد طور، فالظاهرية في مظهرية الشيء لمن له الـولاية بالحـق لا لاختصاصه الشيء الموسوم بالخلق، فإن الأشياء بحقائقها لا بخصائصها"[3]، والواضح أن السارد يريد أن يبلغ هذه الرسالة لما تشتمل عليه من منحى معين في التفكير والـتأمل الفلسفي في الكائنات وحقائقها ومظاهرها، وما ينبغي للمتأمل أن يقرره في هذا المجـال، ليـربط كل ذلك باتجاه صوفي معين، يصب في ذلك الاتجاه الذي ذكره قبل أنه غريب عن الديار المغربية.

---

[1] – المصدر السابق، ص: 339.

[2] – نفسه، ج2، ص: 123.

[3] – نفسه، ج 2، ص: 425.



وقد ينقل بعض السلوكات الاعتقادية الخاصة بالشيوخ كقوله: "...إنه كان يعبر عن الوفاة بالعرس؛ فيقول عرس فلان وعرس فلان، وسألته عن ذلك فقال: إن هذا اصطلاح بعض مشائخ الهند، وقصدوا فيه أن يوم اجتماع العارف بربه، وخروجه من سجن الطينة الدنيوية إلى فضاء الأرواح القدسية خير أيامه وأسعدها وألذها إليه، فتسميته عرسا أنسب..." [1] فهذا الفهم للحياة والموت ليس سائدا، وأراد السارد تبليغه.

هذه المواقف والنقول والرؤى هي التي تشكل لحمة الرحلة العياشية إلى جانب هيكلها الحدثي والزمكاني.

إن الإبلاغ والتواصل بين السارد والقارئ يتم بواسطة اللغة المشكلة بكيفية يستطيع متلقيها فهم مقاصد المرسل إليه "من أجل الاستجابة لها أو اجتناب التفاعل معها."[2]

لقد أشار سارد الرحلة التجانية إلى المتلقي المنتظر بقوله: " فهذا تقييد يشتمل على وصف ما شاهدته... وما يتشوف إليه وما يتشوق إلي الاطلاع عليه..." [3].

فالسارد/ المؤلف يبني تواصله المؤثر على توقعات المتلقي "ما يتشوق إليه " وما ينتظره من أخبار ومعارف تستجيب لطموحاته، فالتواصل الفعال يتم حين يركز الخطاب التواصلي على اشتراك المتواصلين في الخلفية اللسانية والثقافية..." [4]

لهذا السبب يركز السارد في الرحلة التجانية على الموروث الخاص بكل مكان فيذكر بما قاله المؤرخون والرواة، وما شاهده هو من آثار مازالت قائمة، ثم يقارن ما قرأه أو سمعه بالتأييد أو بالمعارضة وقد يقدم البديل، وبذلك يتفاعل مع القارئ الضمني تفاعلا إيجابيا بإشباع توقعاته .

ولنعمد إلى إحدى الوحدات الصغرى في الرحلة التجانية لنكشف عن خطته ولتكن" وحدة توزر"، فالسارد حين وصل إلى توزر قام بوصف بانورامي شامل، ثم حدثنا عن تقسيم

---

[1] – المصدر السابق، ج1، ص: 416.

[2] – أحمد العاقد تحليل الخطاب الصحفي، من اللغة إلى السلطة، دار الثقافة للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2002، ص: 35.

[3] – التجاني، الرحلة، ص 3.

[4] – أحمد العاقد، تحليل الخطاب الصحفي، ص: 45.

ماء السقي للمزارع، ثم انتقل إلى أحوال الجند فقال: " وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقيا قبل الفتح الإسلامي، وكذلك أكثر بلاد الجريد..." [1]

ويسعى إلى التأكد من الشائعات المروجة حولهم فيقول:" وقد اشتهر عنهم ما اشتهر من بين فضلاتهم، وهم يعيرون بذلك كما يُعيّر أهل قابس، ويعير هؤلاء أيضا بأكل لحوم الكلاب، ولم أر منهم إلا مقرا بأكلها مستطيبا للحمها..."[2].

وهكذا يحفز السارد القارئ بإثارته لقضايا خاصة، ثم ينتقل إلى فتح توزر، والوقائع التي مرت بها، وهو في ذلك لا يثقل المتلقي بالأخبار التاريخية، وإنما يحولها إلى شبه حكايات مدعمة بالأشعار تتخللها مراسلات التجاني مع غيره، فيعمد إلى إيجاد بناء تواصلي محفز للمخيلة.فالوظيفة الإبلاغية هي التي يتوخى فيها السارد إبلاغ خطاب ما للمتلقي، سواء كان الرسالة نفسها أو مغزى أخلاقيا أو إنسانيا.

وفي الرحلة الغزالية يعرف السارد قارئه، إنه السلطان ومن معه بالدرجة الأولى، ولكنه يضع في حسابه قراء آخرين؛ لهذا يسرد خطابه ليبلغ إلينا الأوضاع كما شاهدها في المكان الذي حل فيه، فكان مهتما بما يطرأ على المكان من جديد، وما بقي فيه من عهد المسلمين. كما يسرد كثيرا من العادات والتقاليد الأسبانية، ويحاول أن يجعل الحوار أكثر وضوحا بالمقارنات بين ما يجري هنا وهناك. ومن ذلك أنه حين أراد أن يعلمنا بالامتداد الأسري بين المغرب وأسبانيا قال: " والكثير من ألقابهم موجودا عندنا في الإسلام كغبريرا، وقرطناط وبريشة وابن بيدع... وأولاد خو... وغير ذلك..."[3]

وحين يريد أن يبلغ الامتداد العقائدي يشير إلى أن الأهالي لهم ميل إلى المسلمين كقوله عن مدينة إيليط :" وقد اجتمع فيها ما افترق في غيرها من عدا وجوه: أحدهما ميلهم للمسلمين بالقلب والقالب، والظاهر دال على الباطن، ولا شك أن فيهم عرقا عريقا في الإسلام، فهم يستأنسون بذلك ويقرون بأن الدين الإسلامي أشرف الأديان، وأن المسلمين هم على حق ومن سواهم على الباطل..."[4].

---

(1) –التجاني، الرحلة، ص: 159.

(2) – نفسه، ص: 160.

(3) – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 73، 212.

(4) – نفسه، ص: 175.

ولما أراد الحديث عن الامتداد العمراني بين العدوتين قال عن طليطلة: " والمدينة باقية على ما تركها المسلمون رحمهم الله، إلا ما أحدثه أعداء الله في المساجد والتصاوير وما هو معروف لهم من حمل النواقيس، وما في معنى ذلك"[1].

وقد يذهب إلى أبعد من الامتداد بين العدوتين فيصف مسجد طليطلة قائلا: " وبأعلى سور هذا المسجد من أحد نواحيه سبعون طاقة من الزجاج الملون المسمى بالزجاج العراقي"[2].

إن الامتداد هنا أبعد من فاس ومراكش إنه امتداد حضاري يشير إلى ما كانت عليه الأمة في يوم ما، وهذا ما يصر عليه السارد/المؤلف، بل يشير حتى إلى الامتداد الطبيعي في المناخ والنبات، ولا يقتصر على جوانب المشابهة والامتداد التاريخي، *وإنما* يشير إلى المستحدثات في المدن والقرى والصناعات والطرق ويبلغ القارئ النموذجي المنتظر " السلطان " بكل ذلك ثم القارئ الضمني بعده.

ويحث سارد الرحلة الورتيلانية على المعرفة وطلبها، فالرحلة تحمل في كل فقرة شيئا ما إلى القارئ، وتهدف إلى التواصل، والسارد يصر على تبليغ محاوراته مع العلماء وما يقرره في الكتب، وما يحدثه على العامة. كما يصر على طلب المعرفة في القبور والمزارات، وفي أقوال المجذوبين والأولياء، ولدى المدرسين في مختلف فروع العلوم.

فالرحلة بحث مستمر في المعارف الإنسانية، إذ المعرفة فضيلة، والفضيلة هي السعادة، والسارد/المؤلف سعيد بهذا البحث المضني، ويريد أن يسعد قارئه، ويبلغه بهذه الثمرة الطيبة اللذيذة، ويصرح بذلك قائلا: " إنما نذكر من ذكر من الإخوان والمحبين، وبيان أوصافهم ليتحقق السامع بأحوالهم، ويتصف بأوصافهم، والأقل أن تحضر عنده بركاتهم، وأما ذكر أوصاف الطريق، وبيان المواضع، ففيه اعتبار، ودلالة على آثار قدرة الله تعالى، وتسخير الأكوان لنا، والتنقل من حالة لحالة ليرتقي بذلك صاحب السلوك إن هذه الطريق أشبه شيء بطريق الآخرة، فمنها يعرف الترقي في مقامات الله تعالى، حتى يتحقق بحضرته، ويكون في دائرته، وناهيك بشيء ما يكون سببا للوصول إلى

---

(1) – المصدر السابق، ص: 169.

(2) – نفسه، ص: 165.

مرضاته وفيه أيضا التدبر والتسلي والتشفي..."[1]. فالسارد يوضح مقصده من كل ما يذكر في الرحلة حتى أنه جعل الرحلة كلها مثالا للرحلة إلى الآخرة.

" فصاحب الرحلة حين أخبره بشيء فعل كذا وكذا كقوله قال له السنة في هذا الطريق فعله..."[2]. بل إن " في كل شيء آية من الواحد القهار فمهما رأيت خيرا دليلا كان نظره رحمة وعزا ورفعة وأما إن نظرته اعتمادا وتعلقا كان نظره هلاكا وعطبا..."[3].

فالوظيفة المتوخاة من التبليغ هي الترقي في سلم الإيمان والنظر إلى المخلوقات باعتبارها دليلا على عظمة الله وقدرته وحسن صنعته فإن بلغ القارئ هذه الغاية فقد حقق المقصود وأما إن رآها من حيث وجودها نفسه منهما فذلك عطب وهلاك كما يرى.

وقد يسرد السارد خبرا أو حكاية ويلح على القارئ إلحاح المعلم على المتعلم وهذا كثير في رحلته وبخاصة ما بعد صيغة " اعلم " مثلما فعل حين ناقش موضوع طاعة الإمام فقال: " اعلم أن أشرف الولاية وأعظمها ولاية المسلمين لأنها موضوعة للخلافة النبوية في حراسة الدين وحفظ مناهج المسلمين وتمكنهم في العلم والعمل..."[4].فهذا الفهم السديد من رجل صوفي فقيه يعد رائدا لكونه أدرك حقيقة الفعل السياسي وحرص عليه ولم ينفر منه فهو حراسة للدين وحفظ لمناهج المسلمين. وهاتان الوظيفتان لا يقوم بهما إلا ولاة مسلمون فعلا ومن هنا رأى أن ولاية المسلمين أشرف ولاية على الإطلاق وحينما صدر هذه الفقرة بـ "اعلم " يريد أن يوضح حقيقة ويزيل إبهاما والتباسا من أذهان القراء ومن أذهان أولئك الذين يزهدون الناس في العمل السياسي فيتركه لغير الصالحين من الناس فتنتهك حرماته الدين وتخترق بلاد المسلمين. فالسارد حريص على أن يستفيد القارئ من محتواه لذا ينبهه في كل مرة وبخاصة في القضايا الكبرى كقوله: " قال الإمام عز الدين بن عبد السلام: كل حقيقة لا شريعة معها فهي باطلة وكل شريعة لا حقيقة معها فهي عاطلة " فإذا يجب علينا أن ننظر من نتخذه لديننا ولا نغتر بكل ناعق

---

(1) – الورتيلاني، الرحلة، ص: 414.

(2) – نفسه، ص: 143.

(3) – نفسه، ص: 556.

(4) – نفسه، ص: 691.



وبناء عليه، فتسلم في دينك وتكون من خاصة الله في عبادته بعد حسن الظن في الله وجميع المسلمين..."[1]

فهو يقول للقارئ لا تتبع في دينك غير الثقات من العلماء، ولا تسلم قياد نفسك إلا لمن يجمع بين الحقيقة والشريعة، وذلك في إشارة إلى بعض العاطلين من المتزهدين الذين يزهدون الناس في علوم الشريعة، وإلى أولئك الذين ينتقصون القائلين بمجاهدة النفس لتسلك المسالك القويمة في تنقية القلب والارتقاء في مدارج العلماء الربانيين، فإذا كانت القضية الأولى متعلقة بالممارسة السياسية، فإن القضية الثانية متعلقة بتصفية العقيدة، ومراقبة الإنسان نفسه.

وفي مسألة البن والتبغ يقول: " فإذا علمت هذا علمت الفرق بين الدخان والقهوة، فإن القهوة أقبل عليها المتلبسون بالصدق، والدخان الغالب فيه إقبال أهل الفسق عليه، بل لا تجد عارفا يشمه أو يشربه، فهي تساعد من يشربها، ولا تسمع لقوله لما علمت قبل من اتفاق أرباب القلوب على ذمه وكرهه وسلام على عباده الذين اصطفى"[2]. فوظيفة التبليغ لا تغيب عن ذهن سارد الرحلة عموما والرحلة الورتيلانية خصوصا، وهذا ما يؤدي إلى الاستطراد، فحين أراد أن يبلغ موعظة قال: "...الزهد على ثلاث مراتب، زهد العامة في الدنيا، فإنهم لا يفرحون إذا أتت ولا يحزنون إذا ذهبت وهذا الزهد أوجبه الله على كل مسلم، وزهد الخاصة، فإنهم يفرحون إذا ذهبت لأنها سم ويحزنون إذا أتت، وأما خاصة الخاصة، فهم يشاهدونها ذهابا وإيابا، لأنه إذا فرحت بذهاب أحد، فليس ذلك إلا لكونه عظيما عنده، وهذا معلوم في الشاهد."[3].

فالسارد كان يتحدث عن شخصية زاهدة، فترك ذلك وأدرج في الكلام أقسام الزهد كتمرير لرسالة معينة، خاطب بها القارئ إقناعا له واستمالة، ولما شعر أنه بلغ مراده، عاد إلى الحديث عن الشخصية التي كان بصددها، وهكذا نجد الساردين في الرحلات يدركون هذه الوظيفة التبليغية ويؤدونها أداء حسنا، بل يلحون عليها إلحاحا قويا لإدراكهم

---

(1) – المصدر السابق، ص: 642.

(2) – نفسه، ص: 271.

(3) – نفسه، ص: 180.

أن الكـتابة رسالة موجهة لقارئ يتطلع إلى مزيد من المعارف الصريحة والضمنية، وإلى تجارب بني جنسه في التعامل مع الحياة.

الوظيفة التنبيهية: هذه الوظيفة تتضح من خلال الخطاب الذي يوجد فيه السارد مكانا للقارئ يخاطبه فيه تنبيها أو سردا [1]، وكأن السارد يقوم بعملية اختبار الاتصال بينه وبين المرسـل إليـه[2]، إن هذه الوظيفة تقيم الصلة مع المتلقي عن طريق الحوار أو النداء أو ضـمائر الخطاب، وقد لا يتخذ التنبيه الطريق المباشر، فيقدم الحجج والبراهين والآراء، ممـا ينبه المتلقي ويثيره. فقد تتخذ شكل حوار بين القارئ والسارد، كقول العياشي: " فإذا فهـم معنـى التـرديد في التكليف، هل هو للروح أو للجسد، وهما معا محدثان، وإن التكلـيف فـي الحقيقة إنما هو لأمر يوجد عند تمازج الحقيقتين، لم يبعد عليه أن نور ا بصـيرته، ولم يسر إلى خياله اعتقاد الحلول والاتحاد في جانب الربوبية، أن تتهم ذلك أيضـا فـيما بـين الـربوبية والعـبودية... وإن شئت قلت هي الأثر ملحوظا نسبته إلى المؤثر..."[3]

إن هذه الإشارة للمخاطب بتوجيه الخطاب له مباشرا، يتيح للسارد أن يلجأ إلى تفريعات جزئية تشبع نهمه التخييلي، وتضع أجوبة لتساؤلات المسرود له المتوقعة، ثم يقنعه بوجهة نظره، وقد يكون الخطاب موجها بصيغة الأمر إلى المسرود له، مثل صيغة "اعلم" كقوله مـن رسالة "*اعلم* أن الحروف على ثلاثة أنواع فكرية ولفظية وخطية، فالفكرية صورا روحانية في أفكار النفوس مصورا في جواهرها واللفظية أصوات محمولة في الهواء[كذا] مدركة بالقوا السامعية والخطية نقوش خطت بالأقلام في الألواح واعلم..."[4].

والفرق بين الوظيفة التنبيهية والإبلاغية، أننا **هنا نقف** عند المغزى المبلغ للمرسل إليه. أما في هذه الوظيفة فنقف عند الخطاب الموجه إلى المرسل إليه، ويمكن أن ندخل في هذه الوظيفة، تلك الرسائل التي وجهها السارد إلى ذويه وأصدقائه، ومنها:

أنه أرسل قصيدا قال سميتها نفثة المصدور إلى الإخوان والصدور ونصها بعد نثر...

---

(1) – شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ص: 141.

(2) – سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة...، ص: 109.

(3) - أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص: 359.

(4) - نفسه، ج1، ص: 14.

أحبتنا أهل التقى والميـره   بقيتـم دائـما في مسـره

وهي قصيدا طويلة من سبعة وثمانين بيتا[1]

ومـن ذلـك رسـائل أخرى كقوله: " السلام عليكم أيها الأحبة ورحمـة الله وبركـاته ورضوانه... أما بعد فنحن –والحمد لله- في أودية نعم الله نتقلب، وللمزيد منه مع الأنفاس نتطلب، قد صيرنا الهموم كلها هما واحدا، وأعرضنا عما كان على مقصودنا زائدا، نقطع المجاهل، ونرد المناهل، وننعطف مع منعرج اللوى حيث التوى، ونسلك بين كثبان الرمل في مثل خط النمل، ونتبع آثار الرواحل، ولا نعد المراحل [إلى أن قال]: "هذا ولم نزل في طـريقنا نتذكـر رجوعكم من الطريق وعدولكم مع ذلك الفريق، فنتأسف على ذلك غاية، ونـراه على تمكنكم في الرياسة أعظم آية... ولو لحقت بنا لقد نالك نسرا... وسقناك إلى الجـنة بالسلاسـل، ولخضنا بك مضايق يذهب فيها الشهم الباسل، ولم نزل إذا رأينا شيئا يستلمح... نقول: ليت فلان كان معنا..."[2].

فهذه الرسالة يتواجد فيها المتلقي بشكل واضح، وينتشر فيها ضمير المخاطب، مما يؤكد التواصل بين السارد والمسرود له على مستوى الخطاب.

ثـم إن المخاطـب أو المسرود له قد تتضمنه مراسلاته ويصبح قارئا نموذجيا. ومن ذلك الرسالة الموجهة إلى أهله ومنها: "... إلى من خلفنا بخير في أهلينا من إخواننا وعشيرتنا خصوصـا عمنا الأكبر، وخليفة والدنا إذا غاب، وإذا حضر، من يحق له علينا الإجلال، والإكـبار سـيدي عبد الجبار...[إلى أن قال] وأسلم سلاما تاما على ابني أختنا محمد بن محمـد بـن عـبد الجبار ومحمد بن يوسف وأترابهما من أبناء إخواننا وأعمامنا، وأؤكد عليـهما فـي عمارة المسجد وخدمة العلم...وإياكما والتسويف والاغترار، والركون إلى الأغيار، فإن ذلك مما يذهب بهجة العلم، ونوره، ويكسف بدوره، فإن العلم هو نور القلب والمسجد هو روح البلد..."[3]،هذه المراسلات بين السارد، والقارئ النموذجي من معارفه، تشتمل على كثير من المداعبات الأدبية، والمجاملات القولية، والاعترافات الذاتية، وهي

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 69-76.

(2) – نفسه، ج1، ص: 76- 77.

(3) - نفسه، ج1، ص: 86-87.

كثيرا في الرحلة العياشية والتجانية. ووجود المخاطب في السرد، مما يطرح قضية السرد بضمير الغائب والمتكلم والمخاطب وخصوصية كل نوع.[1]

وقد تتجلى هذه الوظيفة بشكل غير مباشر كما يفعل الغزال في رحلته، إذ أنه لا يتوجه إلى القارئ مباشرة، وإنما يشير إلى المكان والزمان الماضيين اللذين كانا عامرين بالمسلمين مما يثير القارئ وينبهه إلى هذا الامتداد بين الماضي والحاضر، فقد أخرج المسلمون من تلك البلاد، وهم الآن في شغف لمعرفة ما حل بالأندلس بعد رحيل أجدادهم.

ولذا يسرد للقارئ المجرد هذه الحقيقة في أكثر من موضع: "... وأما ديار المدينة فمنها ما هو على عهد الإسلام من ضيق الشوارع، والتشييد بالآجر، وتقبيبه، ومنها ما غيره الكفار، وشيدوه بالحجر المنجور على عادتهم..."[2].

وقد يتوجه بالخطاب إلى القارئ المغربي من خلال تشبيهه أماكن الأندلس بأماكن مغربية كقوله متحدثا عن غرناطة "فهي أقرب شبها بفاس، في بنيانها وجريان الأودية بجداراتها..."[3]

وفي الرحلة التجانية يوجد موقع للقارئ بصورة مباشرة في تلك المراسلات بينه وبين ذويه كقوله: "وهل -أعزكم الله- للقلب ارتياح إلا إذا كان لشمس القرب التياح، فحينئذ تتجلى ظلمه، ويشهر بناره علمه، فنور القرب لا يبقى ظلاما..."[4]، وقد يخاطب المرسل إليه شعرا كقوله:[5]

يا نفحة الزهر الجني إذا سرت   غب انسكاب السحب بالأمواه

ففي هذه المراسلات نجد السارد هو المسرود له، بل القارئ النموذجي الذي يخاطبه مرسله، وقد يتواجد المسرود له في الجمل الاعتراضية التي تفيد الدعاء، وذلك في كثير من المراسلات كقوله: "هذه- أعزكم الله - أبيات در عن قلب منقسم، وفكر بتولد

---

(1) – ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ص: 63-64.

(2) – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 93.

(3) - نفسه، ص: 195.

(4) – التجاني، الرحلة، ص 222.

(5) - نفسه، ص: 234.

التبلاد متسم..."[1]، والوظيفة التنبيهية في الرحلة التجانية تتوجه إلى مرسل له معروف من قبل المرسل، محدد الصفات، كاتب أو شاعر، أو صاحب أو أمير، جرت بينهما مراسلات شعرية أو نثرية أو ممزوجة، أما المسرود له المتوقع، فلا نجده إلا بطرق غير مباشرة باعتبار أن هذه الضمائر يقرؤها كل متلق مهما كانت صفته وفئته.

تجد الوظيفة الانتباهية في الرحلة الورتيلانية مساحة واسعة في المتن السردي، وتتخذ أشكالا مختلفة، فمن ذلك أن السارد يتخيل القارئ الضمني، وينشئ معه حوارا مباشرا في كثير من القضايا، فحينما طرح موضوع الآبق وشارب الخمر، قال: " فإن قلت، والأبق ليس سببا مباشرا للموت، لأن الموت إنما حصل بقتال الكفار مباشرا، والآبق سبب السبب الذي هو حصول القتل من الكفار...قلت: لا فرق بينهما عند التأمل، لأن سفر الآبق معصية وحصول الموت له نشأ عن معصية..."[2].

فالمحاورة مع القارئ المتوقع بهذه الكيفية كثيرا في الرحلة، وهي طريقة فنية لمناقشة جملة من الاحتمالات التي يمكن أن تشتمل عليها قضية ما، وفي الوقت نفسه طريقة لإثارة المتلقي وتنشيط ذهنه الذي يمكن أن يكون قد طرح مثل هذا السؤال أو ذاك، أو يكون في حالة استرخاء فيستيقظ .

وهناك صيغ أخرى، أعتقد أنها تقوم مقام النداء والتنبيه في النص المتخيل، من ذلك ما يشير إليه السارد خلال رحلته بقوله: "تنبيه" فمن ينبه إن لم يكن القارئ المتوقع، وتقرب منها صيغ أخرى " غريبة ، نادرا، حكاية، نعم " إذ كلها صيغ تدل على نوع من الخطاب الذي يرد بعدها، والقارئ حين يقرؤها تستفزه لتلقي هذا النوع من الخطاب.

وأقرب من الصيغ المتقدمة صيغة لطيفة، كقوله: " لطيفة: فائدة استقرار الشيخ في هذه البلاد، وهي بلاد مسراتة، إذ هي ليست من الأمصار، ومع ذلك، إن الأكابر يختارون سكنى الأمصار للتذكر والاعتبار..."[3].

فكأن السارد يريد أن يناقش مع قارئه المتوقع السكن في المدن، وفوائد ذلك فقال أيها

---

[1] – المصدر السابق، ص: 287.

[2] - الورتيلاني، الرحلة، ص: 257.

[3] - نفسه، ص: 209.

القارئ ألا أخبرك بسر لطيف هو (كذا) فاللطيفة بمثابة استكشاف لسر خفي.

وهذه الحكاية " تنبيه نادر لطيفة " يسميها سعيد يقطين "مناصات" وتدل على نوع من النص ـ و ص تأتي دائما في قالب سردي أو تقريري وتمهد لكلام خاص وقد تسمى بـ الأداء[1]. ومن ذلك أيضا "نادرا" قال السارد: " نادرا كان سيدي عبد السلام الأسمر الشيخ الأكبر يستعمل السماع بالدف إلا أنه كان رضي الله عنه ذا حال صادقة لا يقتدى به في ذلك وأراد خلفه والمنتسبون إليه اقتداء أثره في ذلك فحقه اتباع السنة واجتناب مواقع الفتنة وليست الأحوال مما يورث ولا مما يصح فيه التقليد لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالا جبريا فليس لغيره اتباعه..."[2].

لاشك أن هذا النص السردي الخاص باستعمال أحد الشيوخ للدف والغناء مما يثير في القارئ فضولا، فنبهه السارد على أنه من الأحوال ولا ينبغي تقليده، بل الأفضل الاقتداء بالسنة.

هذه الإشارات التنبيهية مبثوثة في الرحلة بشكل واسع، عند كل أمر ذي بال، كقوله: "تنبيه" من جملة الدواهي المعضلات أننا دخلنا المدينة للجمعة فجلسنا ننتظر الإمام فإذا برجال من أهل الدولتلي أرسلهم بالنداء، لا تصلى الجمعة، فقام لهم صاحبنا الفقيه...فقال لهم إن هذا والله حرام، لا يجوز كيف تترك الجمعة من غير عذر بين، فقام فقيه منهم فقال هذا جائز عندنا، فخرجنا من مسجدهم، فأتينا مسجدا آخر تصلى به الجمعة للمالكية، فإذا برسول الدولتلي ينادي بما نادى به أولا، فأبى الإمام المالكي، فصلاها رضي الله عنه قائلا والله حتى أصليها ...، فصلينا معه جزاه الله خيرا..."[3].

فهذه الإشارات تنبه القارئ إلى ما يجري من مظالم وتجاوزات تؤدي إلى تشاجر بين الناس بسبب التعصب المذهبي، أو الجهل من الحكام. وقد تدمج هذه الوظيفة مع الوظيفة الإبلاغية والتواصلية كما يرى جنيت[4].

---

(1) – سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 157-163.

(2) - الورتيلاني، الرحلة، ص: 187.

(3) - نفسه، ص: 153-154.

(4) – جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص: 265.

وقد يوجە الخطاب للقارƏ مباشرا بضمائر الخطاب كقولە حين أورد أقوالا في السماƳ لـدƯ الƬوفية قال: " فقƩ هذا علƑ أهل زماناا تر العجب العجاب وا يلهمنا الƬوابƖ ويعƬمنا من الزلاƖ ويوفقنا لƬالƠ القول والعمل." (1).

وقـد يحر ƭ السارد علƑ ملƮوƩ ماƖ يود أن يتƋكد من أن القارƏ يوافقە عليەƖ كقولە: "إذ الƑقهـƅا إن أحبوا ا مدحوا ا بما ليƩ فيا اƖ وإن بغضوا ا ذموا ا بما لم تتƬف بە وقبلە العامـة مـنهمƖ وبالجملة فƎن وجدƘ من فيە رائحة الذوƼƖ وƮهرƘ عƄمة المعرفةƖ فشد يدا ا عليەƖ ولا تƬبا ا ƹƑلة...لأنە إكسير زمانا اƖ فƄ تهمل أمرا ا من هذاƖ والƼ السمƳ لما نبهـنا ا علـيەƖإذ هم الكعبة للزوارƖولا تغمضهم بعين الازدراƅƖ وسوƅ الاعتقادƖ فتƬير محـروما...خƬوƬـا إن أƬابتا ا الواقعة فيهمƖفيُخاف عليا ا سوƅ الخاتمة ..."(2)Ɩ فهذا إلحاƟ يحذر من التƑريط في حƼ هذه الƑئة من الناƩ التي سماها أهل الذوƼ "الƬوفية".

ومـن هذا النوƳ ما وجهە مباشرا إلƑ القارƏ محذرا من بعƯ المƬريين: "نعمƖ فƄ تغتر أيها الحاج بحƄوا اللسان من الشياطينƖ ولا بƎƮهار الموداƖ ولا بكƛرا الأيمانƖ فƎنهم ذئاب في ƛيابƖ وكذا إن أتوا لا ا بهدية لا تقبلها منهمƖ فƎنهم يريدون التحيُّل بالوƬول إلƑ مالا ا فتقƳ في شبكة لا مخرج لا ا منها..."(3).

لا يغƑل سارد الورتيƄنيةƖ عن قارئەƖ فهو بين الحين والآخر يوجە إليە الخطاب مباشرا أو ضـمنياƖ وƹالبا ما يكون قارئە معينا بالاƩƮ كالحجاج أو المغاربة أو قارئا ƹير محدد الƬƑاƘƖ يتوقعە أن يطƆƳ علƑ رحلتەƖ فينبهە.

:ǆǩǼȀǤǳǟ ǦȈǨȈǛȂǳǟ

تتƬـل الوƮـيƑة الاستشهاديةƖ بتوƛيƼ العمل الأدبي سواƅ تعلƼ الأمر بالمƬادر أو المشاهداƘ أو الذاكرا. إنها وƮيƑة " البينة أو الشهادا "(4)

.وهـي قائمـة علـƑ عƄقة الراوƒ بالقƬة من حيƭ المنابƳ التي يستقي منها و الخبرا المتراكمة لديە Ɩكما تبين الأحاسيƩ التي تƛيرها في نƑسە حادƛة مـاƖ من هنـا كانـƘ

---

(1) – الورتيƄنيƖ الرحلةƖ ƭ :191.

(2) – نƑسەƖ ƭ :160.

(3) - نƑسەƖ ƭ :283.

(4) – جيرار جنيƘƖ خطاب الحكايةƖ ƭ :265.

ذات"علاقة عاطفية بالطبع لكنها نفسية وعقلية أيضا.[1]

وفي البداية نؤكد أننا في الرحلات أمام عمل توثيقي أكثر منه تخييلي، لذا تبلغ هذه الوصفية في بعض الرحلات درجة عالية. إذ يقطع السارد على نفسه عهدا في أن يوثق معلوماته وبخاصة فيما يتعلق بالحديث الشريف أو القصائد الشعرية أو بعض الأحداث التاريخية، بل إن مكانة الرحلة في هذه الفترة متعلقة بمدى صدق ما يرد فيها؛ لذا يحيلنا السارد على مصادره الشفوية والمكتوبة ويحيلنا على تجاربه أو تجارب من يوثق به.

ويمكن استخلاص أنواع من وسائل التوثيق والبينة. أهمها: الكتب، المشافهات، الذاكرات، المشاهدات البصرية.

ففي الرحلة العبدرية: يصر العبدري على إثبات مشاهداته قائلا: " فلابد من تقييد بعض ما أدركه العيان من صفتها، وما علق بالذكر من نعتها..."[2]، فهو يؤكد على العيان أي المشاهدات، وما علق بالذكر، أي بالذاكرات من صفات هذه المدينة، وسارد العبدرية فنان في الوصف بمختلف تقنياته، بل هو مغرم بوصف الآثار والتحقق من الأخبار إلى درجة تجعل القارئ يثق في كل سروده، من ذلك قوله: " وفي وسط القبة الصخرة التي جاء ذكرها في الآثار، وأنه عليه السلام عرج عنها إلى السماء، وهي صخرة صماء، علوها أقل من القامة، وتحتها شبه مغارة على مقدار بيت صغير، يعلو قدر القامة، وينزل إليه في درج وقد هيئ له محراب وسوي وأتقن، وعلى الصخرة شباكان محكمان، يغلقان عليها، أحدهما وهو الخارج من الخشب، والآخر من حديد أصغر محكم العمل، بديع الصنعة، وفي القبة صورا درقية كبيرا من حديد، معلقة هناك، وأصفه كانت مرآة ولكنها قد صدئت وزال صقالها، والعوام تقول إنها درقية حمزة. واشتهر عندهم هذا الزور حتى صار في حد المقطوع به."[3]

فالسارد يعتمد على ما يره ويشاهده، وإن كانت مقاييسه ليست دقيقة دقة مقاييس المهندس، ويستغل السرد ليدرج فيه تعليقا بسيطا "واشتهر عندهم هذا الزور"، وهذا ما

---

(1) – السيد إبراهيم، نظرية الرواية، ...، ص: 166.

(2) – العبدري، الرحلة، ص: 203.

(3) - نفسه، ص: 230.

يعتني سارد الرحلة العبدرية، في كل ما يقدمه من وصف للآثار، إذ لا يكتفي بالسماع أو المشاهدة العابرة، بل قد يزور الأثر أكثر من مرة للتحقق كما فعل في مدينة الخليل حينما ذكر مزاعم اليهود في مقابر الخليل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، فبعد أن عاين المكان تحدث عن الغار قائلا: "وقد نزلنا إليه (الغار) وتأملته مرارا ودعونا الله فيه سرا وجهارا..."[1] ثم علق بالترجيح والرفض والتفنيد.

أما سارد الورتيلانية حين أشار إلى أهل حامة قابس بضعف الوازع الديني، أورد البينة التالية دليلا على ما يزعم إذ رأى الناس يستحمون عراة رجالا ونساء فقال: "...لما رأيتهم اقشعر جلدي، وتحركت فرائصي، فمشيت حجرا بالأحجار، وصرت أضرب كل من هنالك...وكانوا أنس خرجت من عقلي ففر الكل ولم يبق أحد...ثم مر علي شخص فقال لي: رحمك الله، لو كنت معنا دائما لزالت هذه الأمور العظيمة...، وأما أهل القرية فلم يعجبهم صنيعي بل ظهر التغير على وجوههم غير أنهم سكتوا إذ العاصي ذليل..."[2] فالبينة على رقة دين هؤلاء هو استحمام الرجال والنساء في محل واحد عراة.

و يعتمد سارد الرحلة العياشية على مشاهداته المباشرة كحديثه عن جبل ثور:

"...وهو جبل منقطع عن الجبال التي حوله ذاهب في الهواء، مشرف على كل ما حوله من الجبال، مكسو جلالة ومهابة، صعب المرتقى جداية. ما رأيت مثله فيما سلكته من الجبال على كثرتها، وفيه أماكن ما كنا نمر بها إلا حبوا على اليدين والرجلين معا، وارتفاعه في السماء نحو من ثلاثة أميال...والغار في أعلاه من الناحية الموالية لمكة، فما بلغنا أعلاه إلا بعد جهد جهيد، واستراحة مرارا. وكان ذلك في وقت الحر، وقد حملنا معنا ماء، وتركنا بعضه تحت شجرة بأصل الجبل اتقاء لمعرة العطش..."[3]

فهذه الأوصاف تتخذ شكل الوثيقة، وتتجلى في كل مباشرات السارد الشاملة لمراحل الطريق، ومشاهدات المدن، ومصادر المياه، والمزارات المتعددة التي لا يغفلها حيثما حل ففي الرحلة التجانية: يهتم السارد بما يشاهده عيانا ويسجله فهو يقول عن صفاقس :

---

(1) – المصدر السابق، ص: 222.

(2) – الورتيلاني، الرحلة، ص: 127.

(3) – أبو سالم العياشي، الرحلة، ج2، ص: 102-103.

...وكانت بها قبل خرابة زيتون متصلة لسورها، فأفسدتها العرب فليس بخارجها الآن شجرا قائمة، وفواكهها مجلوبة إليها من قابس..."[1]. فالسارد في الرحلتين المدروسة يهتم بتقديم البيئة البحرية، وبذلك أصبحت هذه الرحلات هي المصدر لكثير من آثار الماضي.

أما المشافهة فتتجلى حينما يلتقي الرحالون بأشخاص ذوي شأن من العلماء، والرؤساء، والعباد، فيسجلون عنهم مروياتهم. فمن ذلك أن العبدري لما التقى بالدباغ في القيروان، تجاذبا الحديث عن كتاب معالم الإيمان. فقال:" وسألته هل لم يذكر فيه أبا الحسن اللخمي، فقال لي لم يثبت عندي أنه دخل القيروان. وسألته عن تاريخ وفاته، فقال لي: توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وذكر لي أنه قرأ ذلك في حجر عند رأسه بمدينة سفاقس"[2] فالتوثيق للخبر، أو للحديث أو للشعر، قد يأتي مشافهة أو إملاء أو مكاتبة.

ومن ذلك قوله: "وأنشدني شيخنا أبو الفتح المذكور إملاء من كتابه قال، أنشدني الفقيه المفتي...هارون بن عبد الله ...قال أنشدني الفقيه الإمام...علي بن المفضل بن علي المقدسي لنفسه:

خسر الذي ترك الصلاة وخابا   وأبى معادا صالحا ومآبا
إن كان يجحدها فحسبك أنه   أمسى بربك كافرا مرتابا[3]

والنقل المباشر عن الشيوخ باعتبارهم مصدرا موثوقا للمعارف كثير عند العياشي أيضا ومن ذلك حديثه عن بركان وقع "...أخبرني شيخنا سيدي محمد مساهل سنة أربع وستين في الرحلة التي قبل هذه أنهم سمعوا في سنة اثنتين وستين وألف صوتا هائلا في ناحية البحر كأصوات المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل قال: وظنناه سفنا للمسلمين تقاتل مع بعض سفن النصارى، وكما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذا الساحل إلى مسراته، وسمعه حتى أهل فزارا والإسكندرية، وسمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة وتونس، وكل يظن أنه قريب منه وبعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من بر الترك، وأخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل، وذلك أن جزيرا من جزر بر الترك، خرجت في

---

(1) – التجاني، الرحلة، ص 68.

(2) – العبدري، الرحلة، ص: 67.

(3) – نفسه، الرحلة، ص: 143.

بعـد نواحـيها حجـارة تطير من البحر حتى إذا ارتفعت على الماء وعلت في الهواء تصـدعت، فيخرج منها نار ويسمع لها ذلك الصوت، فإذا خرجت النار وقعت الحجارة علـى المـاء خفـيفة...فـدام ذلك إلى الليل، وارتفع من ذلك الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت..."[1] فالسارد أسند الخبر إلى شيخه، ثم ألح على تواتر السماع في أكثر من مكان، ثم سرد لنا وصف بركان في بر الترك. كما أخبر بذلك أهل البلاد والمسافرين أن الخبر لم يسـمعه السارد الأول مباشرا من المصدر الطبيعي، وإنما رواه عن شيخه " ابن مساهل" الـذي سمع الصوت بنفسه وروى له عن رواة من بر الترك. وهذه الدقة هي التي تضفي على أخبار هؤلاء مصداقية.

فهذا سارد الورتيلانية يروي لنا خبر رجلين عابدين تحكى عنهم أخبار، قال: " ...وهما شـيخان عظـيمان مسـنان في الإسلام، فوجدنا عندهما عصيا باللحم فأكل منها جميع الحجـيج تبـركا بهم، فلما وصلت إليهما نظرا في وجهي، ونحن في الطلعة فقال أحدهما للآخـر، هـذا يقعـد في مصر ويتعلم، وذلك الذي في قلبي، وقال الآخر يرجع وينتفع به المسلمون، فتنه قد ورد سيدي عبد الرحمن أقطال، أعني المجذوب، فوجدت سر الله فيهما، ونحن لم يصلنا خبر موتهما، غير أنه مات تلك السنة في مصر بعد رجوعه من الحج ودفن فيها، وأما القبر الذي في تونس فقبر ثان، فسموه بذي القبرين..." [2]

وأمـا سارد الرحلة الغزالية، فلم يعتمد على النقل الشفهي مباشرا إلا قليلا لكونه سافر إلـى أسبانيا فلم يعتمد المصادر البشرية، وقد عوضها بالرؤية المباشرة للآثار الباقية من عمـران الأنـدلس كالعتـبات الرخامية أو المنابر أو الألواح الخاصة بالمباني والمساجد وغيـرها، كقـوله حـين زار قرطبة وتنقل بين آثارها "وقد استدار بها على الرخامات خط كوفـي فـي غاية الحسن والإتقان مضمنه: بسم الله الرحمن الرحيم حافظوا على الصلوات والصـلاة الوسـطى، وقومـوا لله قانتـين" ثم بعده أمر الإمام المنتصر بالله الحكم أمير المؤمنـين، أصـلحه الله بعـون الله تعالى، بتشييد هذا المحراب، رغبة في جزيل الثواب وكريم المآب، فتم ذلك في شهر ذي الحجة الحرام سنة أربع وخمسين وثلثمائة...ثم يتلوه

---

[1] – أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص: 65.

[2] - الورتيلاني، الرحلة، ص : 622.

مـا كان تتميما لدائرا المحراب قوله تعالى:" ومن يسلم وجهه   وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى ا   عاقبة الأمور"..." [1] فالعين ومرئياتها هي المصدر الأساسي في هـذه الـرحلة، حتى طغى وظيفة الربط بالسياق "المرجعي" على كل الوظائف وقضى – تقـريبا- علـى دور التخـيل في هذه المسرودا. كما يكثر ساردها من نقل هذه الوثائق على طـولها وبخاصـة حين زار غرناطة، كنقله للكتابة التي بقوس مدخل قصبة غرناطة "...مكتوب في قوس الباب بخط مشرقي في غاية الحسن والإتقان (ثم ينقل المكتوب) [2]، وقـد ينقل الشعارات التي كانت تكتب على أبهاء القصور، وينقل الأشعار على طولها مثل هذه الأبيات المكتوبة في صحن قصر مما زاره: [3]

أنا الروض قد أصبحت بالحسن كاسيا   تأمل جمالي تستـفد حـاليـ ـا
فلله مـبنـاه الـجميـ ـل فـإنه   يفوق على حكم السعود المبانـيا
بـه القبـ ـة الغـ ـراء عز نظيرها   ترى الحسن فيها مكتسيا وعاريا
تمد لها الجوزاء كـف مـصافـح   ويدنو لها بدر السمـاء مناجيـا

فهـذه الـنقول تدعم المصادر التوثيقية للرحلة الغزالية، كما تنقل انطباعا حسنا للقارئ عما كان عليه المسلمون وإلى ما آل إليه أمرهم وأمر قصورهم من بعدهم.

ولذلك يختف السارد عن نفسه وعن القراء بذكر " فلله الأمر من قبل ومن بعد ".

وسـارد العياشية يكثر النقل أحيانا عن الكتب كمصادر توثيقية، يذكر لنا إحدى غرائبه كالتالـي قال:" أخبرني شيخنا ابن مساهل أيضا أن سيدي علي الخضري ذكر في شرحه على المختصر أن الزباد(*) المسمى في عرف مغربنا بـ "الغالية " نجس، وإن كان عرقا حـيا لمروره بمحل البول، قال، وكان بعض الصالحين لا يتطيب به لذلك، وأنكره شيخنا اللقاني، قال شيخنا وكنت أتوهم ذلك إلى أن بعثت بحضرة الشيخ عبد الحفيظ إلى قط من القطـوط التـي يستخرج منها الزباد، وكان عند بعض الأتراك، فلما أحضر أمرنا متولي استخراج الزباد منه باستخراجه بحضرتنا، ففعل فشاهدنا محل اجتماع ذلك خارجا عن محل

---

[1] – أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 98.

[2] – نفسه، ص: 201 – 210.

[3] – نفسه، ص: 204-208.

*- الزباد: حيوان ثدي له كيس قريب من الشرج يفرز مادة دهنية تستعمل في العطر.

البول، لا يمر به أحد وإنما هو جلدا رقيقة عن يمين المحل أو يساره، وأيقنا بطهارته."[1]

إن السارد يذكر المصادر المكتوبة " شرح المختصر" والشفوية رواية الشيخ ابن مساهل، ثم يردف ذلك بالتجربة العملية كما شوهد بشاهد عدل "الشيخ ابن مساهل" والشيخ عبد الحفيظ..وهذا ما يضفي على نقوله الثقة سواء كان المنقول خبرا أو حكاية أو حكما فقهيا.

وفي الرحلة الورتيلانية يكثر النقل عن المصادر المكتوبة، لكون الرحلة تتسم بالطابع التاريخي في العنوان على الأقل، ومن ذلك أنه حين أراد أن يذكر أخبار بلاد الأندلس وفتح المغرب عموما نقل عن كتاب " الأدلة السنية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية"[2]، وقال: ومن أراد أن يذكر أخبار مصر بالتفصيل، فلينظر حسن المحاضرا وفيها من العجائب والغرائب وحسن الأخبار، ونزهة الأنظار، ورعاية الاعتبار، وشوارد الأفكار، ما يغني عن اعتبار غيرها. وقد ذكر السيوطي في هذا الكتاب حدها [مصر] وقال..."[3]، ويكفي أن نعود إلى فهرس مراجع أي رحلة لنعلم الكم الضخم من المصادر الموظفة في كل رحلة، رغم أن بعضها مستفاد منه ومعتمد عليه، وبعضها مذكور فقط.

وفي هذا الجانب تختلف الرحلة عن العمل المتخيل كل الاختلاف، إذ الرحلة تصرح بالمصادر لإضفاء الموضوعية على ما يرد فيها من أخبار في حين تغيب المصادر من الأعمال المتخيلة أو لا يصرح بها على الأقل ولا نجد إلا آثارها مصاغة فيما يخدم غاية المبدع الفنية.

[illegible]:

تعليقات السارد تعبر عن موقف اختياري، إذ السارد حر في التعليق أو عدمه، ولكنه حين يفعل، فإنه يصرح عن مشاعره وأحاسيسه، ويكشف عن رأيه، سواء تعلق الأمر بالمظاهر الاجتماعية، أو الوقائع التاريخية، أو القضايا العلمية المختلفة أو الطبيعة

(1) – أبو سالم العياشي، ج1، ص: 65.

(2) – نفسه، ص: 669،677،689.

(3) – نفسه، ص: 572.

والـنص، ومـن هنا يمكن أن تتسرب هذه العلاقة إلى ما يعرف بالعلاقة الإيديولوجية (1)، وذلـك حين يتدخل السارد للتفسير والإرشاد في إطار ما يسميه النص، كما يمكن أن يـدرج ضمن هذه الوظيفة الموقف التأملي والوجداني. إنها وظيفة تقويمية يجريها السارد على الأشخاص والأماكن والمفاهيم، وغالبا ما يأتي تقويمه حدسيا.[2]

فالسـارد فـي الرحلة يتخذ موضع المشارك في سرده، ويتماهى مع الشخصية الأساسية، لهذا تتاح له الفرصة بأن يتحدث من الداخل أو الخارج حسب ما يدرك.

فـفي الرحلة العبدرية: تشتمل التعليقات على تفسير النصوص، والتعليق عليها، بالقبول أو الـرفض، فشخصـية السارد تتميز بمقدرة دقيقة التمييز، تخضع كل المقروء للاختبار ومن ذلك: أنه بعد أن أنشده ابن خميس قصيدته التي مطلعها:

أتيت ولكن بعد طـول عـتـاب وطول لجاج ضاع فيه شبابي

وذكر ثمانية وثلاثين بيتا قال في مقطعها (آخرها)

على أحمد المختار أزكى تحيـتي فتلك التي اعتدت يوم حسابي

علق السارد قائلا: "...هذه القصيدة مهذبة الألفاظ والمعاني ألذ من نغمات المثالث والمثاني، إلا أن مقطعها قلق ناب لا يلين ولو مضغ بضرس وناب، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج، ولا يزال السمع به يقلق وينزعج." [3]

و لما سرد القصيدة الشقراطسية [4] التي مطلعها:

الحمد لله منا باعث الرسل هدى بأحمد منا أحمد السبل

(وهي قصيدة طويلة من مائة واثنين وثلاثين بيتا) قال معلقا "...قد أبدع هذا الناظم رحمه الله فـيما نظـم وشـرف هذه القصيدة بقصده الجميل فيها وعظم فراقه معنى ومنظرا، وشاقه حسنا ومخبرا... على أنه رحمه الله قد أكثر فيها لأجل الصناعة والتصنع، وتكلف منها ما هو بعيد المرام، شديد التمنع، واعترض في كل معنى عرض، وربما أغرق النزع

(1) – جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص: 265.

(2) – بوريس أوسبنسكي، شعرية التأليف، تر: سعيد الغانمي وناصر حلاوي، ص: 19.

(3) – العبدري، الرحلة، ص: 14-15.

(4) – نفسه، ص 44–49، تنسب القصيدة إلى الشيخ الصالح أبي زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي التوزري (توفي 8 ربيع الأول 466هـ)، وشقراطس: اسم قصر قديم من قصور قفصة.

فخلاف الغرض كقوله:

فويل مكة من آثار وطئته   وويل أم قريش من جوى الهبل. [1]

ففي مثل هذه المواقف يشرك القارئ ويثيره ليمارس بدوره العملية النقدية فيستحسن ويستهجن، وربما يتخذ موقفا خاصا به في النصوص الشعرية والنثرية.

وتعليقاته تتعدى النصوص الأدبية إلى التعليق على الأهالي والطبيعة، وغالبا ما تأتي على شكل ملاحظات عابرة، ولكنها نافذة إلى عمق القضية وجوهرها وقد تستغرق فقرات، فحينما وصل إلى القيروان كان يتوقع أن يجدها على ما يرام، ولكنه بعد البحث قال: "والأحياء من أهلها جفاة الطباع، ما لهم في رقة الحضارة باع، ولا في معنى من المعاني الإنسانية انطباع..." [2]

ونستشف من هذا النص القصير دقة التعبير إذ قال: "والأحياء من أهلها" وبذلك لا ينسحب الحكم على المدينة وأهليها في الماضي، وبخاصة وأنه قال أيضا: "وفيها من الأفاضل وأخيار الأمة ما يقصر عنه الوصف، وبها قبر أبي زمعة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم." [3]

فإذا نظرنا في قوله: "ولا في معنى من المعاني الإنسانية انطباع..." نجد أن المعاني الإنسانية هي الأنس والاستئناس والألفة، والترحيب أو التراحم، والسمو والعلم... وهذه المعاني وإن وجدت فيهم فهي متكلفة لم تنطبع في سجاياهم.

ومن تعليقاته المطنبة ما كتبه عن أهل مصر، نكتفي منها بما يلي: "وقد رأيت فيهم من قلة الحياء وعدم التنزه عن الخناء والفحش، ومن قلة التستر عند قضاء الحاجة والأكل ما تقضيت منه العجب، وأما بغضهم للغريب، وتمالؤهم على ذلك فأمر لا يحيط به علما إلا من عاينه." [4]، وأما تعليقاته الخاصة بالطبيعة فمنها ما قاله في قابس "ثم وصلنا إلى مدينة قابس ذات المنظر الخبيث، والمحيا العابس، هواء وخيم، ولوم طبع وخيم..." [5]

---

(1) - المصدر السابق، ص: 49 – 50.

(2) - نفسه، ص: 64.

(3) - نفسه، ص: 65.

(4) - نفسه، ص: 126.

(5) - نفسه، ص: 75.

بهـذه الإيقاعـات السـريعة عـرف السارد قبائل من حيث المنظر العام والهواء الوخيم وانتشار العفن فيها...

ومـن مـثل هـذه المشاهدات النافذة ما قاله في وصف زديك بليبيا: " ثم جئنا البرية الـردية، زديـك معدن كل أذية، سباخ تدهش النواظر، وتذهل بشرط ما تهول الخواطر، ومياه تحل قوة الأجسام، وتثيرها من الأسقام، وتنفذ كما تنفذ السهام..."[1].

ففي هذا النص يمتزج التعليق مع الوصف حتى صار الوصف تعبيريا يسقط فيه السارد مشاعره وذاتيته التي تنم عن ازدراء من قبائل وأهلها، وتأفف من عفن زديك ومشاقها.

ولعـل تعليقات السارد تبلغ أقصاها من حيث الموضوعية في تتبعه لكتب المؤلفين، من ذلـك كـتاب المسالك والممالك للبكري[2]، والمشارق للقاضي عياض[3]، ومتابعاته تتعدى الجوانب التاريخية إلى مختلف الأنشطة التأليفية، فحينما أراد أن يكتب شيئا عن الكعبة الشريفة، قال: " واختلف في بدئها على أقوال كثيرا لا تقر الطمأنينة بكثيرها."[4]

ثم أخذ يسرد ما قيل عن الكعبة حتى قال: "...وأشبه الأقوال - والله أعلم - قول من قال إن آدم علـيه السـلام بـناه إذ لم يقم دليل على صحة شيء مما قيل في ذلك ودل ظاهر الحـديث الصحيح على أن البيت كان قبل إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه دعا عند وضعه هاجـر وابنها إسماعيل بمكة قبل بناء البيت بزمان "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم"[5] فهذه التعليقات تجعله محل ثقة فيما يرويه، وما يشاهده، فتتوطد العلاقة بينه وبين قرائه.

ومـن التعلـيقات ذات الخلفية المذهبية قوله: "ومنها إلى قريتي زواره، وزواغة ذوي الأنفـس الخبيثة والقلوب الرواغة، معتقدات شنيعة، وأعمال كسراب بقيعة، وضمائر سوء ردية... إن استنام إليهم حاج لم يوقظه إلا برد ماء التقديس، ودوي أصوات النواقيس، أو استأمن إليهم داج لم يرعه إلا تلقي المعاذير عن إساءة رعي الخنازير، لأنهم يبيعونها

---

(1) - المصدر السابق، ص: 85.

(2) - نفسه، ص: 127- 146- 147.

(3) - نفسه، ص: 158 – 180.

(4) – نفسه، ص: 180.

(5) - نفسه، ص: 181.

من النƮارة ﺑﺒﺨﻬﺎ Ʃ الأمن ويعتقدون ذلﻚ حقًا لازماً تنتهي عنه الفتن."[1]

أسـاƩ هذه التعليق الاختلاف المذهبي ، إذ سكان هذه المناطق من الخوارج، ولهم مفاهيم وآراء فـي بـيƳ الخنازيـر، وذمـم الآخرين من غيرهم، وقد راجƘ هذه الأخبار عنهم، والسارد في هذا التعليق يلبƘ الشائعاƘ.

فالعـبدرﻱ فـي تعليقاته يوضƠ الوقائƳ ويلخƗ أخبارها، ويؤكد علƑ دلالة النƮوƗ ويـنقدها، ويؤثر في اعتقاداƘ القارƏ بناء علƑ اعتقاده هو، ويـنفي أو يدعم معايير معينة يـراها ƮالحƑ أو أنسب من غيرها. " إن الأمر يتعلق في جميƳ الحالاƘ بمحاولة النƮر إلـƑ كـل السلوكاƘ والمواƮفاƘ والأحداƭ عبر وجهة نƮر واحدا ترمي إلƑ خلق كون ثقافي نقي وƮاف يتطابق مƳ الكل الثقافي المعبر عنه من خلال ƮوƘ السارد وهذا الكل الثقافي هو المرادف الحدثي (السردﻱ) للجهاز القيمي الذﻱ يتولد عنه الكون السردﻱ."[2]

وهذه التعليقاƘ تسير علƑ نوعين من العلاقاƘ:

علاقـاƘ تضـامن واتحـاد، حينما يعبر السارد عن سروره بلقاء الأشخاƗ وحلوله بالأمـاكن التـي تسعده، وتوفر له إشباƳ بعƯ حاجاته المادية و الروحية ، من ذلﻚ هذا التقريƮ لابن المنير قال: " وما رأيƘ أحدا اجتمƳ له من حسن الخƮ وجودا اللفƮ، وذكاء الفهـم، ما اجتمƳ له، ولا رئيسا جعل العلم قيد همته، كما جعله، وقد استƮهر دواوين من العلـم في Ʈغره، ولم يتغير حفƮه لها في زمان كبره، وقد منƠ من حسن الخلق وجميل العشرا، وكمال الإنƮاف ما يعيا ببعƯ أوƮافه اللسن الوƮاف...ماحƮي به من طلاقة الوجه، واليد واللسان، وله علƑ التأليف حسن اقتدار، وفي إجادا التƮنيف مكنة..."[3]

لقـد وجد السارد في ابن المنير الرجل المثالي للعالم. خلقا وخُلقا، لذا مدحه بهذه الƮفاƘ وقلما يجد من يمتدحه فيفيƯ في التقريƮ وذكر المحاسن والمحامد. وفي مثل هذه المقاطƳ يكون السارد في علاقة تآلف مƳ الشخƗ أو المكان أو غيرهما.

وقد يكون في علاقة نفور، كأن يكره بعƯ الأشخاƗ لأسباب ما، ويسمهم بسماƘ

(1) – المƮدر السابق، Ɨ :76.

(2) – سعيد بنكراد، النƗ السردﻱ، Ɨ 63.

(3) –العبدرﻱ، الرحلة ، Ɨ :100.

تعبـر عـن موقفه الذاتي من سلوكهم وتفكيرهم كما فعل مع أهل زواره وزواجه و أهل مصر هذه الأحكام لا تدل عن موقف السارد المؤلف وحده بل تشارك في تكوين تصور القـارئ وأحكامـه وبخاصة إن لم تكن له معرفة سابقة بموضوع السرد وهكذا تكشف وظيفة التعليق عن اهتمامات الرحالة وآرائه في الحياة والناس.

وبـين علاقتـي التآلف والنفور هناك علاقة المواساة التي تنشأ من تأمل السارد في المـآل السيء الذي آل إليه أمر مكان ما بعد عمرانه فها هو يقول عن عسقلان: "ثم زرنا ثغر عسقلان- جبره الله - وهو خراب يباب لا أنيس به إلا أطلال ماثلة وآثارا طامسة تثير في القلب تباريح الأسى وتعيد المشرق من أنسه حندسا وتحث المبصر على أعمال العبـرة وإسـبال الدموع بوابل العبرة وتذكر بمن مضى وانقضى وتضرم في الجوانح جمر الغضا..."(1).

يبـين التعليق رأي السارد وتعاطفه مع المدن التي كانت عامرة ثم خربت بفعل الفتن أو الغزو الخارجي أو بتغير الأزمان وقد يعبر عن ذلك نثرا أو شعرا كقوله في مليانة:

زمان لدى عهد الشبيبة قد عسى   أعلل فيه النفس عل أو عسى
لعل ربوعا من حلاها عوا ريا   تعود لها تلك المفاخر ملبسـا
لعل انتظام الشمل يرجع ثانيـا   ويعطف بالإحسان دهر بنا أسى
زماني زماني بالنوى مـن أحبة   لبعدهم عـاد الأنيس مـعبسا(2)

وهي قصيدة من خمسة عشر بيتا تبين خراب المدينة بعد عمرانه ووحشها بعد أنس.

فالوظيفة الأيديولوجي في الرحلة العبدرية بارزا وتنمي عن قدره أصيلة وتمكن عميق في التزام السارد بالموضوعية والحياد في جل ما يعلق به ولقد أثار كثيرا من قرائه الذين تتحكم فيهم العواطف ولكنه بالمقابل قد أثلج صدور كثير من عشاق الحقيقة .

نقد الخرافة الشعبية

أورد السارد معتقدا الأعراب "في كون سهيل كان يعشر الناس بضم الشين أي يأخذ عشر أموالهم وكذلك الضب وأنهما كانا مكاسين على تجار البر والبحر إتاوات فمسخهما

(1) - المصدر السابق ص: 231.
(2) - نفسه ص: 25.

ا عقوبة لهما. فجعل أحدهما نجما في السماء، والآخر حيوانا في الأرض..."[1]، على السارد على ذلك قائلا: "وذلك من خرافات الأعراب وباطلهم، وإنما الغريب من أمر سهيل، وهو صحيح مشاهد، أن الإبل ساعة طلوعه تستدبره، فلا تزال مولية بوجوهها عنه ما دام طالعا، وإن كانت حين طلوعه مستقبلة لجهته استدارت في الحين فولته أدبارها، وهذا أمر شائع مستفيض لم أر من أهل الإبل إلا مقرا به مصدقا له..."[2].
فالسارد يرفض اعتقادا ويسمه بالخرافة، ثم يقيم مكانه اعتقادا آخر ويسمه بالصحة، ولكن بلا تعليل للظاهرة.

ولما أراد أن يورد قصيدا:

سلم عن ذي سلم مغنى الهوى المستغنم

وقف بها مسائلا عن ساكني والخيم

مهد لها برأيه تشويقا وتعليلا قائلا: "...هذه القصيدة التي أولع أعراب زماننا بإنشادها، وكثيرا ترددها، ولأجل ذلك ذكرناها بكاملها، وإن كان فيها بعض طول، فإن الحسن غير مملول."[3]، وقد يعلق على بعض الأهالي وسلوكيات تهم كقوله: " ووصلنا إلى قصور المباركة، وهي كلها عامرة، وأهلها موصوفون بالبخل، وقد شاهدت من منعهم للماء ما يصدق ما اشتهروا به..."[4]، فصفة البخل التي اشتهر بها السكان دعمها السارد بمشاهدته الخاصة.

وقد يعلق على المكان وما يروى عنه تعليقا عابرا يبين عن رأيه مثلما علق على هذه الحكاية "ومما يذكر أهل قابس - وهو من جنس الخرافات - ما حكاه البكري عنهم: أن مدينتهم كانت سالمة من الوباء، إلى أن احتفروا فيها موضعا توهموا أن فيه مالا، فاستخرجوا منه تربة غبراء، فحدث الوباء عندهم، بسببها من ذلك الزمان..."[5]، وكان قد أورد قولا آخر لسبب الوباء الذي اشتهرت به قابس، قال: "فيما يذكر أهلها كثيرا شجرا

---

[1] - التجاني، الرحلة، ص 62.

[2] – نفسه، ص: 62.

[3] – نفسه، ص: 44.

[4] – نفسه، ص: 85.

[5] – نفسه، ص: 90.

الدفلى بها فيكتسب الماء منها لدى جريه سلمية ومرارا تضر بأبدان ساكنيها كثيرا، ولذلك لا تجـد وجوه كثير من أهلها إلا مصفرا..."[1]. فهو لم يوازن بين القولين مباشرا، ولكنا مـن خلال السياق ندرك قبوله لتعليل "كثرا الدفلى " ورفضه لـ "تربة صبراء" وهو من الناحـية العقلـية تعليل مقبول، ولكن القصة الأولى يمكن أن تكون حاملة لمعتقدات قديمة سائدا في قابس "وإن كانت خرافية". فالسارد يمارس التوجيه، وفق ما يرتضيه من قناعة.

ومن توجيهاته ما علق به على شعر أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد (ص:628) قال:

"...وحيثما ورد شيء من هذه الأسماء في شعره فإنما يعني مباني القلعة، فإنه كان معنيا يندب تلك المعاهد كقوله من أبيات:

أين العرسان لا رسم ولا طلل | وأين ما شاد منه القادة الأول
ومجلس النوم قد هب الزمان له | بحادث قلق فيه الحادث الجلل
وما رسوم المنار الآن مـاثلـة | لكنها خبر يجري به المثـل [2]

وسبب تعليقه هذا هو أن أسماء "العروسين" والمنار، و"عين سلامة" موجودة بقابس أيضا فقام بتوجيه القارئ لئلا يقع الالتباس في ذكر الأماكن، كما أن سارد الرحلة التجانية يفعل مـا يفعلـه سـارد العبدرية من كون الآراء تصدر عن خلفية مذهبية إذ مذهب الخوارج المنتشـر من جنوب تونس إلى طرابلس يثير كثيرا من الكراهية لدى السارد كقوله: "وهذا المـذهب هـو الغالب على جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس وخصوصا أهل الساحل مـنهم، فهـم بهـذا المذهب المذموم يتقربون بسبي من يمر بهم من المسلمين للروم، فتجد الـناس لأجل ذلك يتحامون الانفراد في قراهم، ويتجنبون إيواءهم وقراهم، وهم من بقايا الشرذمة الضالة التي قام بها أبو زيد مخلد بن كيداد في إفريقية..."[3]

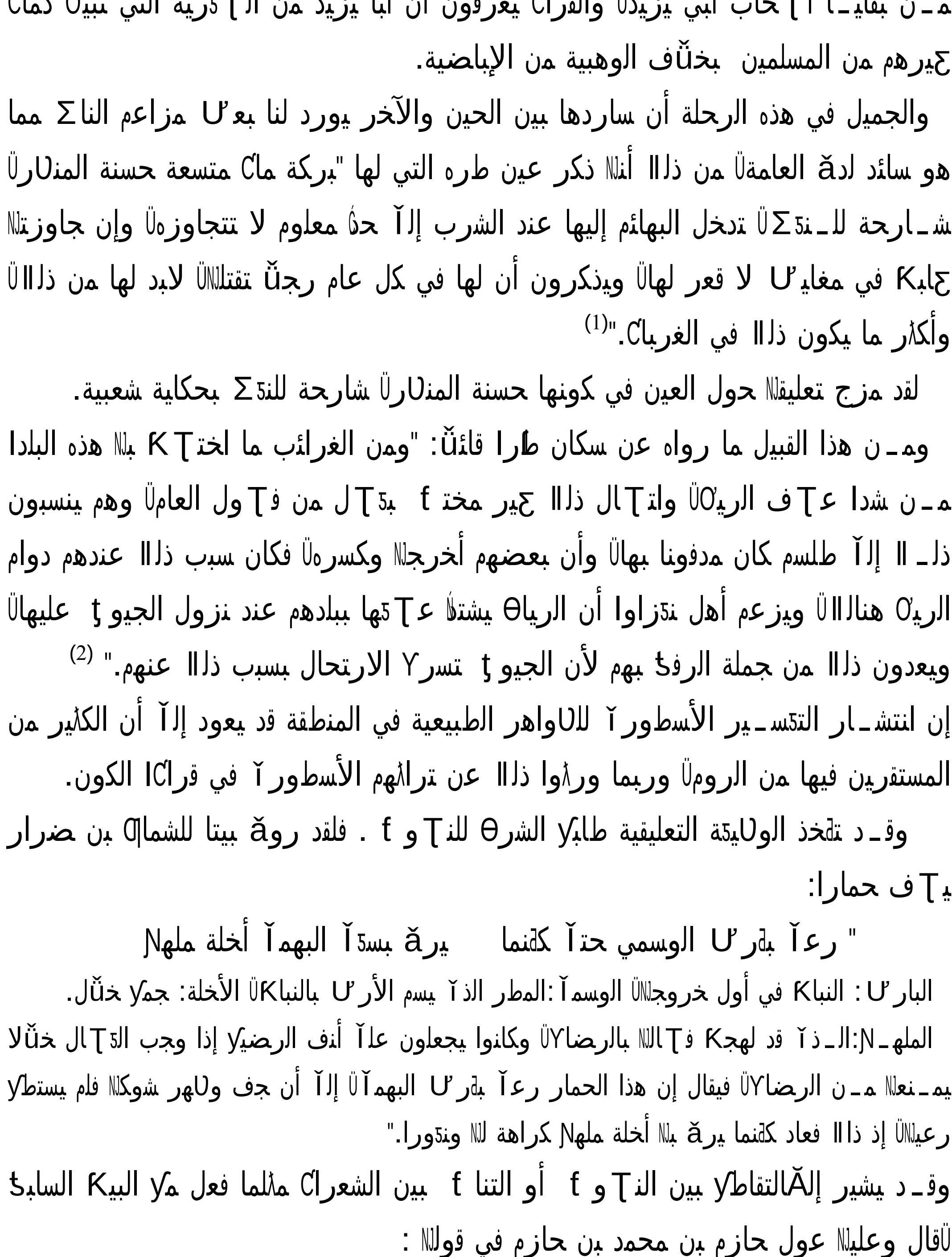
فهـذا الخبـر يشـرح ما أورده سارد العبدرية قبل، والكراهية التي عبر عنها السارد مذهبية توارثت عبر الأجيال، فاستحكم العداء بين الناس حتى وصل الأمر بينهم أن يباع المسـلمون للنصارى باعتبارهم أعداء في الدين، ولقد أشار السارد إلى مذهب هؤلاء فهم

---

[1] – المصدر السابق، ص: 89.

[2] – نفسه، ص: 116.

[3] – نفسه، ص: 119.



مـن بقايـا أصحاب أبي يزيد، والقراء يعرفون أن أبا يزيد من الصفرية التي تبيح دماء غيرهم من المسلمين بخلاف الوهبية من الإباضية.

والجميل في هذه الرحلة أن ساردها بين الحين والآخر يورد لنا بعض مزاعم الناس مما هو سائد لدى العامة، من ذلك أنه ذكر عين طره التي لها "بركة ماء متسعة حسنة المنظر، شـارحة للـنفس، تدخل البهائم إليها عند الشرب إلى حدّ معلوم لا تتجاوزه، وإن جاوزته غابت في مغايض لا قعر لها، ويذكرون أن لها في كل عام رجلاً تقتله، لابد لها من ذلك، وأكثر ما يكون ذلك في الغرباء."[1]

لقد مزج تعليقه حول العين في كونها حسنة المنظر، شارحة للنفس بحكاية شعبية.

ومـن هذا القبيل ما رواه عن سكان طرابلس قائلا: "ومن الغرائب ما اختصت به هذه البلاد مـن شدة عصف الريح، واتصال ذلك غير مختص بفصل من فصول العام، وهم ينسبون ذلـك إلى طلسم كان مدفونا بها، وأن بعضهم أخرجه وكسره، فكان سبب ذلك عندهم دوام الريح هنالك، ويزعم أهل نفزاوة أن الرياح يشتد عصفها ببلادهم عند نزول الجيوش عليها، ويعدون ذلك من جملة الرفق بهم لأن الجيوش تسرع الارتحال بسبب ذلك عنهم." [2]

إن انتشـار التفسـير الأسطوري للظواهر الطبيعية في المنطقة قد يعود إلى أن الكثير من المستقرين فيها من الروم، وربما ورثوا ذلك عن تراثهم الأسطوري في قراءة الكون.

وقـد تتخذ الوظيفة التعليقية طابع الشرح للنصوص. فلقد روى بيتا للشماخ بن ضرار يصف حمارا:

" رعى بارض الوسمي حتى كأنما يرى بسفى البهمى أخلة ملهج

البارض: النبات في أول خروجه، الوسمي: المطر الذي يسم الأرض بالنبات، الأخلة: جمع خلال.

الملهـج: الـذي قد لهجت فصاله بالرضاع، وكانوا يجعلون على أنف الرضيع إذا وجب الفصال خلالا يمـنعه مـن الرضاع، فيقال إن هذا الحمار رعى بارض البهمى، إلى أن جف وظهر شوكه فلم يستطع رعيه، إذ ذاك فعاد كأنما يرى به أخلة ملهج كراهة له ونفورا."

وقـد يشير إلى التقاطع بين النصوص أو التناص بين الشعراء مثلما فعل مع البيت السابق، وعليه عول حازم بن محمد بن حازم في قوله :

---

(1) – المصدر السابق، ص: 142.

(2) – نفسه، ص: 142-143.

وتصدّ عن رعي الجميم كأنما تلقى من البهمى أخلة مُلهِل.

ثم علق قائلا ومعنى الشعرين واحد [1]

وهكذا نخلص إلى أن السارد قد يبدي قناعته في السرد الذي تولى القيام به بطرق مختلفة منها التعليق المباشر على الشخصيات أو الأماكن وساكنيها أو على المعتقدات الدينية والشعبية، أو يبدي رأيه في مقروء، أو يشرحه، أو يربط بين النص والنص من حيث التأثير والتأثر، وقد يبدي برأيه في مشاهداته من حيث الجمال والغرابة، وقد يمارس توجيهه على القراء في كثير مما يصدره من آراء وتعليقات، وهذا كله يصدر عن قدرات الساردين/المثقفين التقويمية المتراكمة من خلال الثقافة الموسوعية والممارسات التأليفية، بالإضافة إلى النباهة الذاتية، "ولعل هذا مايجعل من النصوص الموزعة للمادة القصصية الفاعل الأيديولوجي بدون منازع"[2]

هـ- الوظيفة التأويلية:

فالوظيفة الإيديولوجية تتخذ شكل الآراء في المقروءات والمسموعات والمناقشات أو شكل رأي تفسيري أو تعليلي لبعض الظواهر تعليقا ينمي عن ذاتية السارد بما يتناسب والواقع، وقد يسبب له ذلك بعض الاستطرادات ليسترسل في تقديم قناعات خاصة، فمن ذلك أنه حين تحدث عن المصريين أورد خبرا مفاده " أن مصر لابد أن تشتمل على طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار، والأخرى في غاية الذل والاستحقار..."[3]، ثم علق معلقا: "...لأجل هذه الدقيقة يكثر فيهم الصالحون لأن نفوسهم ميتة قد تربوا على الذل والاحتقار، وزالت الرياسة وحبها من قلوبهم، بل لم تسكنها قط، فإذا وفق أحدهم لعمل الطاعة، والتفت أدنى التفاتة لإصلاح حاله، لم يبق مانع بينه وبين ذلك، لأن أكبر الموانع وأعظم الآفات حب الرئاسة..."[4].

فالسارد أمام ظاهرة لفتت انتباهه، وهي كثرة الصالحين في مصر، فربط ذلك بما سجله المؤرخون، وقدم تفسيرا اجتماعيا نفسيا لظاهرة مفاده أن العائق الأكبر أمام التجرد

---

(1) – المصدر السابق، ص: 184.

(2) – سعيد بنكراد، النص السردي، ص: 83.

(3) – أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص: 121.

(4) – نفسه، ج1، ص: 122.



للعـبادات هـو حب الرئاسة، ولكون فئة كبيرا من أهل مصر لا تطمئن إليها ، فإنها تسلك مسلك التجرد والتصوف.

وعند اقتراب الحجاج إلى البقاع المقدسة شاع على ألسنتهم أنهم يرون الأنوار الساطعة ابـتداء من الينبوع قال: "فكلما قالوا إنهم رأوا الأنوار، نظرنا، فإذا هي بروق... في بلاد بعيدة، وتحققنا ذلك بظهوره مرارا كثيرا في غير ناحية المدينة... ثم سألت الشيخ أبا بكر السجستاني فقال ...، إنه تحقق فلم ير إلا البرق، ثم قال الذي لا يمترى فيه " أنه نور النبي صلى الله عليه وسلم حقـيقة وإن كانت جميع الأنوار من نوره ، ثم علق السارد قائلا: "...ولعـل هـذا الـذي ذكر شيخنا رضي الله عنه خاص أيضا به وبأمثاله ممن تنورت بصائرهم، فاستنارت بها أبصارهم، فيشاهدون الأنوار المعنوية المحسوسة، وإلا فكثير من الناس لا يشاهدون ذلك."[1]

فالسـارد أحسـن التعليق على ما قاله شيخه وبلطف وأدب رفيع أشار إلى أن كثيرا من الناس لا يشاهدون ذلك، أي أن قناعته كسارد مثل هؤلاء الناس.

ومـن تعلـيقاته مـا أورده في قضية "المهدي المنتظر" إذ قال معلقا: " والعجب كل العجـب من متابعة بعض أهل التصوف في ذلك... بل في كلام بعضهم ما يشير إلى أن الشـيخ محـي الدين يقول ذلك... فإن صح عن هؤلاء الأئمة أنهم قالوا ذلك، فنحن ممن يعتقدهم، ويجزم بصدقهم... إلا أنا نكل العلم إلى الله تعالى في فهم ما ورد عنهم...إذ ليس في الشريعة قاطع يدل على كذب الروافض في هذه المسألة بخصوصها، وإن كانوا كاذبين فـي غيـرها... فـإن موافقة المحق للمبطل في جزئية لا دليل على بطلانها لا يدل على صدق المبطل فيما سوى ذلك، ولا على كذب الصادق فيما سوى ذلك."[2]

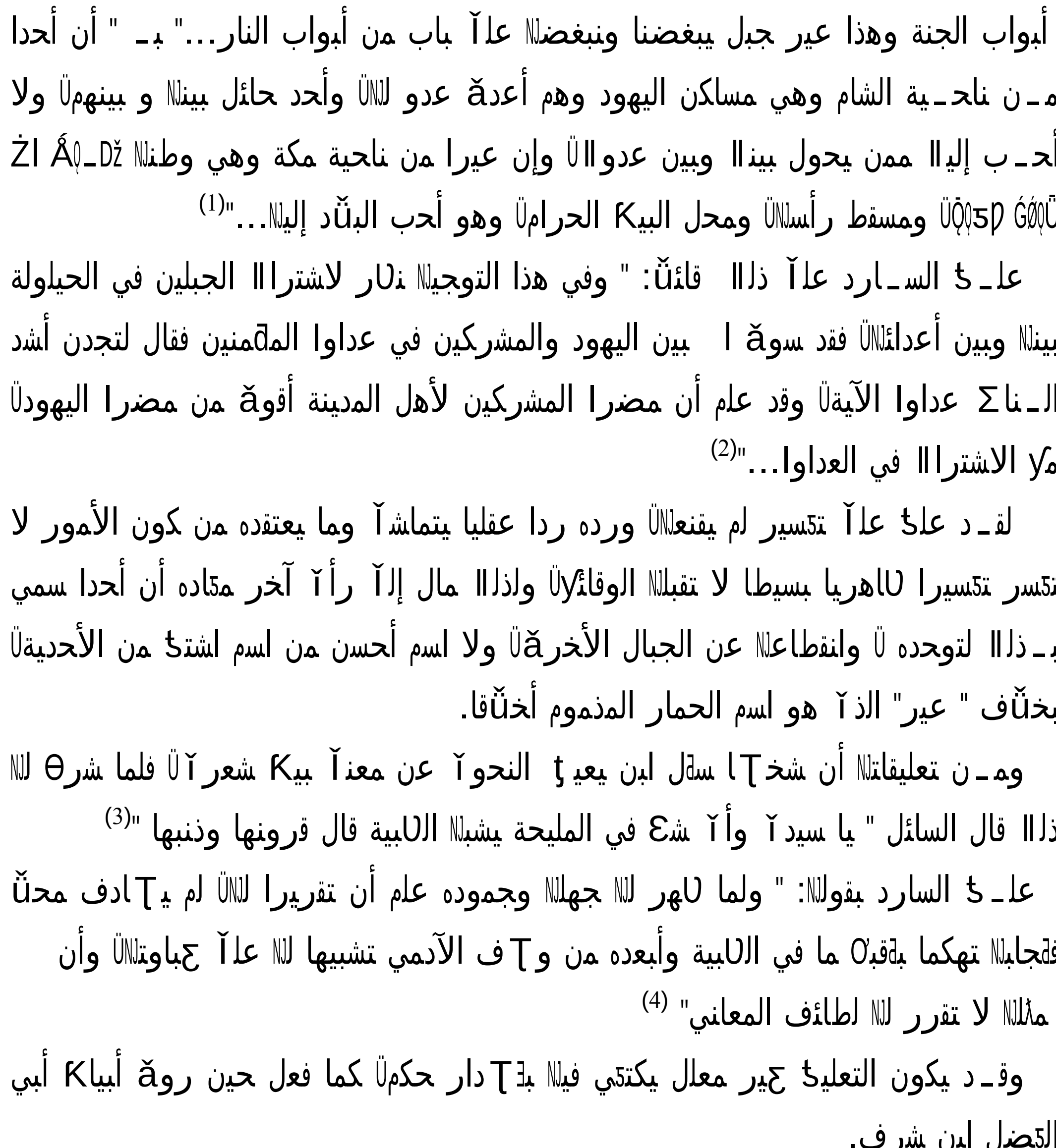
وهـذا التعلـيق مبنـي على تحليل عميق لقواعد الأصول، حتى أنه يمكن اعتبار هذا الاسـتنتاج بمـثابة قاعدة عامة تطبق على أمور منطقية أخرى، مما يدل على قدر المعلق المحقق في قضية " المهدي المنتظر" إذ نجد بعض الناس إلى عهدنا يلوكونها بلا إدراك.

ولما فسر أحد المشائخ الحديث الشريف: "... لأحد هذا جبل يحبنا ونحبه على باب من

---

(2) - المصدر السابق، ج1، ص: 183.

(1) – نفسه، ج1، ص: 242.



أبواب الجنة وهذا عير جبل يبغضنا ونبغضه علی باب من أبواب النار..." بـ " أن أحدا مـن ناحـية الشام وهي مساكن اليهود وهم أعدة عدو له وأحد حائل بينه و بينهم ولا أحـب إليه ممن يحول بينه وبين عدوه وإن عيرا من ناحية مكة وهي وطنه ŻI ÅǬ_Dž ǗǬƽƿ ǴǾǬǕ ومسقط رأسه ومحل البيت الحرام وهو أحب البلاد إليه..."[1]

علـق السـارد علی ذلك قائلا: " وفي هذا التوجيه نظر لاشتراك الجبلين في الحيلولة بينه وبين أعدائه فقد سوة ا بين اليهود والمشركين في عداوة المؤمنين فقال لتجدن أشد الـناس عداوة الآية وقد علم أن مضرة المشركين لأهل المدينة أقوة من مضرة اليهود مع الاشتراك في العداوة..."[2]

لقـد علق علی تفسير لم يقنعه ورده ردا عقليا يتماشی وما يعتقده من كون الأمور لا تفسر تفسيرا ظاهريا بسيطا لا تقبله الوقائع ولذلك مال إلی رأي آخر مفاده أن أحدا سمي بـ ذلك لتوحده و وانقطاعه عن الجبال الأخرة ولا اسم أحسن من اسم اشتق من الأحدية بخلاف " عير" الذي هو اسم الحمار المذموم أخلاقا.

ومـن تعليقاته أن شخصا سأل ابن يعيش النحوي عن معنی بيت شعري فلما شرح له ذلك قال السائل " يا سيدي وأي شيء في المليحة يشبه الظبية قال قرونها وذنبها "[3]

علـق السارد بقوله: " ولما ظهر له جهله وجموده علم أن تقريرا له لم يصادف محلا فأجابه تهكما بأقبح ما في الظبية وأبعده من وصف الآدمي تشبيها له علی غباوته وأن مثله لا تقرر له لطائف المعاني" [4]

وقـد يكون التعليق غير معلل يكتفي فيه بإصدار حكم كما فعل حين روة أبيات أبي الفضل ابن شرف.

ولم أجزع لهول الموت لكن	بكيت لقلة الباكي عليـا
وأن الدهر لم يعرف مكاني	ولا عرفت بنوه ما لديـا
زمان سوف أنشر فيه نشرا	إذ أنا بالحمام طويت طيا

---

[1] – المصدر السابق ج1 ص: 258.

[2] – نفسه ج1 ص: 259.

[3] – نفسه ج2 ص: 255.

[4] - نفسه ص: 255.

أسر بقني سعي ميتا ويسوق ني إن مر حيا

فلقد علق على ذلك بقوله: ولم أسمع بأحد رثى نفسه في حياته بأبلغ من هذا.[1]

إن السارد في الرحلة العياشية لا يترك مشاهداته ومقروءاته تمر بدون تعليق وإبداء الرأي "إن التعليق علامة على كل المعارف المنتشرة في النص يمر عبر صوت واحد هو صوت السارد الكلي المعرفة "[2] وهذا ينسحب على الجوانب الفقهية والتاريخية والطرق الصوفية والتأملات الفلسفية والإبداعات الأدبية والسلوكات البشرية إنه يغربل كل ما يسرده غربلة تفتح القارئ وتنير له ما غمض وتجعل الأفق المعرفي أوسع وأرحب.

وفي الرحلة الورتيلانية: تتجلى هذه الوظيفة في النشاط التفسيري للآيات والأحاديث والتعليقات على الأخبار التاريخية والأحداث الغريبة والشائعات الدائرة بين الناس بالإضافة إلى ما يتعلق بالعقائد.

فمن النشاط التفسيري قال: " وسألني أيضا عن قوله تعالى في مريم " واسجدي واركعي مع الراكعين" "قلت" والله أعلم إن الله خاطبها أولا بسجودها نظرا لمقامها الخاص بها وخاطبها ثانيا بالركوع مع الراكعين نظرا إلى حالها مع قومها لأن العارفين بالله تعالى قلوبهم مع الحق وأجسامهم مع الخلق فكانت مريم من هؤلاء المتمكنين الراسخين في العلم...".[3] فهو يؤول بعض الآية من آل عمران[4] تأويلا يتناسب وروحه الصوفية لمقامات الترقي.

وعلق على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغه بعمله" بقوله: وقد علمت أن حكمة الجزاء بالخلود للمؤمنين في الجنة وبخلود الكافرين في العذاب في النار هو أنه على حسب نية كل من المؤمن والكافر فإن المؤمن والكافر لو بقي على الدوام في الدنيا ما أحب أن يسلب إيمانه وكذا الكافر ما أحب أن يسلب كفره

(1) – المصدر السابق، ج2، ص: 246.

(2) – سعيد بنكراد، النص السردي، ص 84.

(3) - الورتيلاني، الرحلة، ص: 291.

(4) - آل عمران، الآية: 43.



كـل منهما ينوء التقييد، فيما حصل عنده، فلا ينبغي الانتقال عنه أصلا، فجزاهم بالخلود في المحلين..."(1)

وهـذا التوجـيه يـدل علـى الفهم العميق للمقاصد والغايات والتأويل الراسخ لأقوال الشريعة من قرآن وحديث.

ومن تعليقاته على أقوال الشيعة التي اتبع فيها العياشي، ونسب القول لنفسه ما مر حول المهـدي المنتظـر(2)، وهذا ما يجعلنا نظن بعض الظن في تعليقات الورثيلاني، أهي من مقروئاته أم صادرا عنه أصالة.

ولعـل آراءه الـبالغة الأهمية هي المتعلقة بالظواهر الاجتماعية التي عايشها كقوله في نسـاء بلدة زمورة، وانتقاده معلقا: " فنجد النساء المتبرجات كأنهن في ليلة الزفاف بهن فـي الأزقـة، والعـيون، مكشوفات العورات باديات المستحسن منهن كالصدر، والأيدي، وتحـت الإبط والساق والفخذ، ومع ذلك إنهن أجمل خلق الله، من رآهن من العباد فضلا عن أهل اللهو واللعب افتتن بهن، إذ يفزع ويرهب عند رؤيتهن، ومشاهدة محاسنهن، غير محجوبات، بل كلهم أوجلهم يفتخرون بذلك، فقد ضلوا وأضلوا..."(3). إنه تعبير عن جانب نفسـي خفـي حين رأى هذه المشاهد، فأسند الافتتان للعباد. ولعله يقصد نفسه، إذ هو من العباد، وهكذا تبلغ الوظيفة الإيديولوجية ذروتها حينما تتحدث عن الكوامن النفسية.

أمـا رحلـة نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد فهي رحلة خارجية، تجوب في ديار الآخـر، ورغـم أن ساردها يحاول أن يلزم نفسه بنوع من الحياد في تقديم الموضوعات، لكـنا ندرك أن السرد الحيادي المحض لا وجود له في الأدب، ولعلنا لا نوده إن وجدناه، لـذا نستشف تعليقات السارد من بعض التعبيرات والألفاظ، كنعوت الألقاب أو الصفات، أو من خلال المستوى الإدراكي لما يسرده، ذلك أن " كل تأويل هو استحضار لسياق، وكل سياق هو ذاكرة خاصة "للواقعة" و"للملفوظ" و"للوحدات المعجمية "(4).

وفي الرحلة الغزالية كغيرها يتموضع السارد في موقع المشارك، ويتماهى مع الشخصية

---

(1) - الورثيلاني، الرحلة، ص: 614.

(2) - نفسه، ص: 464. والرحلة العياشية، ج1، ص: 242.

(3) – الورثيلاني، الرحلة، ص: 700-701.

(4) - سعيد بنكراد، النص السردي، ص: 110.

بضمير المتكلم المفرد أو الجمع، لهذا تتاح له الفرصة بأن يتحدث من الداخل، ومن الخارج حسب ما يدركه.

فمن التعليقات اللغوية التي تدل على نوع من التطور لقب " الطاغية " فمنذ البدء يطلقه السارد على حاكم سبتة " وهي دار طاغيتهم ومحل ديوانهم."[1] ثم تخف اللغة المشحونة فيستعمل أحيانا "حاكم البلد..."، وهو لقب يطلقه على حكام الولايات، ثم يستعمل بعد ذلك نائب الحاكم، أو ابن الحاكم... ولكن الإشارات إلى ملك أسبانيا يبقي فيها لقب الطاغية، ويخفف اللغة أيضا حين يستعمل "أصحاب الطاغية " بمعنى كبار المسؤولين المبعوثين من الملك، كقوله: " وقد أشار علينا بعض أصحاب الطاغية بالحركة، وأن نقصد بالعبور بستانا عظيما..." [2].

وكما يضيف رجال الدولة للطاغية، يضيف أيضا أهله كقوله: " فيهم بنت الطاغية، وغيرها من بنات أعيانهم"[3]، وتضاف الأشياء أيضا، كقوله: " ودار الطاغية متصلة بهذا البستان."[4]، والقارئ وهو يستقبل هذه الألفاظ يستثقلها أول الأمر لما تحمله من عدائية، لكن يخف وقعها مع ألفة قراءتها، حتى تكاد تكون عادية. وحين يسرد السارد خطاب السلطان المغربي أمام السفير الأسباني، يعود ذلك الاستثقال، كقوله: " فكان جواب سيدنا أعزه الله للبشادور: إن طاغيتك مميز ومقدم على الطغاة من الأجناس المصالحين لامتثال أمرنا في شأن الأسارى المسلمين..."[5].

فالسلطان استعمل الطاغية والطغاة، كما استعمل "عظيمك" ولا شك أن الكلمات الأولى تنمي عن موقف السلطان من الملوك غير المسلمين، وكلمة "عظيمك" تعبر عن تقدير السفير الأسباني لملكه، وكأن السلطان اتخذ على لسان السارد موقعين، موقعا مناسبا له، وموقعا مناسبا لمخاطبه الأسباني " الباشا دور".

ولم يشر السارد إلى اسم الملك الأسباني إلا في رسالة تقول :"وكتب أيده الله للوالي

---

(1) - أحمد بن المهدي الغزال، الرحلة، ص: 48

(2) – نفسه، ص: 122.

(3) – نفسه، ص: 131.

(4) – نفسه، ص: 134.

(5) – نفسه، ص: 231.

(المـ اا) كار لوΣ يحضᥦ علᤐ سراθ الطاعنين في السن الذᤐ لم تبᏭ فيᥦ(كذا) مᨵلحة لما في ذلاا من الأجر..."[1].

ومـ ن الألᤉـ اU المشيرا لإيديولوجية السارد "الكـ ᤉ ـ ر" ومشتقاتهاᥩ كقولᥦ "... فᢄذا هي "زمـ امـ اK" اشتملK علᾸمن افتدᤐ من أسراهم من يد المسلمين من أول الزمانᥩ وأسماC المـ واا مـ ن المـ سـ لمـ ين المᤉتدᾰ من أيديهم الكᤉراᥩ وأسماC الᤉرايلة المتوسطين في ذلاا." [2] فالكᤉرا هنا ᨵ ᤉة عامة لᥩسرᾰ Ᏸيرالمسلمين من الأسبان.

وبهذا التعميم نجدها في معᏬام النᨵ و f كقولᥦ: "... ونحن نستعيذ با مما عليᥦ هᏪلاC الكᤉرا من عدم الغيراᥩ وتوᏰلهم في الكᤉر."[3]

فهـ ذا التعليᏭ جاC بعد سهرا ليلية اختلاط فيها الذكور بالإناɫ وسمᏳ ᏰناC عجيبا ورأᾰ رقᨵا Ᏸريبا. والواضΌ أن الكᤉر هناعام يشمل سكان أسبانياᥩ وقد يقᨵد بᥦ بقايا المسلمين الـ ذين أعجـ بوا بـ ᏪخᥩᏭ الكᤉـ ر كما يقول: "... إنهم من بقايا الأندلΣᥩ وقد طال عليهم العهدᥩوربوا في بحبوحة الكᤉر والعياذ با ." [4].

وبعـ د حوالي الثلɫ من بدC سرد الرحلة يخف استعمال اللᤉUة ولا تعود إلا في آخر الرحلةᥩوالسـ ارد يستعمل كلمتين مᏳ السᤉير الأسبانيᥩ(باشدور والكافر) فكᏪن كلمة الكافر تسـ تعمل فـ ي موقف التمييز والمᤉاضلة وبشيC من التشᤉي أحيانا في حين تستعمل كلمة "باشدور" استعمالا رسميا مجردا من الدلالاK الإضافة.

وبـ ذلاا تعـ ود كلمـ ة الكᤉر لا لتدل علᤐ اسم معنᤐ وإنما لتدل علᤐ اسم " الذاK المتᨵ ᤉة بالكᤉـ ر: "وقـ د شاهد هذا الكافر ما لم يشاهده Ᏸيره من الباشدوراK من المباشرا التي في طـ يها قمـ Ᏻ للكᤉرا والغلUة عليهم وإUهار قوا الإسᥩم..."[5]ᥩ وإن كان هذا التعلᏭ قد لا يكون مقبولا لدᾰ القراC لما فيᥦ من التعاUم اللᤉUي الذᤐ لا يقابلᥦ شƐ مادᤐ محسوΣᥩ

وقد تضاف الأرƲ للᤉUة كقولᥦ في أكɫر من موضᏳ "بᥩد الكᤉر" أو "بᥩد الكᤉار".

---

(1) المᨵدر السابᏭᥩ f :181.

(2) – نᤉسᥦᥩ f :49

(3) - نᤉسᥦᥩ f :71.

(4) – نᤉسᥦᥩ f :73.

(5) - نᤉسᥦᥩ f :228

وقد يشير السارد إشارة ذكية إلى موقفه من الآخر كقوله: "فلما بعثه له بالمال رده وأقسم بدينه المعوج لا يعدو واجب الكرامة إلا من ماله فكثر خيره ودعونا له بالهداية."[1]

فهو يستعمل صفة "المعوج" لتكون منافية "لسلوكه المستقيم" وهو أداء الكرامة من ماله ثم لتتناسب مع دعائه له "بالهداية".

وقد يأتي بمثال أول إثارة وأكثر وقعا كتعليقه على مشهد بقوله: "... فإذا بالنصارى هم طلبة البلد والنصارى –فيما يزعمون- عن السيدة مريم عليها السلام وحملهم إياها ليلا ومرورهم بأزقة المدينة فيها كفارة للذنوب الصادرة عن أهل المدينة في يومهم، ولهم على ذلك خراج"[2] فلفظ "يزعمون" لا يخص " النصارى " فقط وإنما يمكن تعديته إلى المشهد والاعتقاد كله.إذ تقديم الرحلة نوعا من المقارنة الدينية غير الصريحة على لسان السارد.كقوله: "...ونحن والحمد لله على نظافة ديننا وطهارته."[3].

فالمنطوق به هو نظافة الإسلام وطهارته والمسكوت عنه هو نجاسة دين الآخر.

وقد يستدل بالسلوك على الانتماء الظاهر والخفي كقوله:

"وأخبرنا أن الكثير من بقية الأندلس، ولا يستبعد ذلك؛ لأن أخلاقهم ليست كأخلاق الروم، وفي ميلهم للإسلام، ومحبتهم ما فيه أكبر علامة لذلك." [4]أو كقوله:

" وقد التقينا برجل من طلبة المدينتين اسمه بالشكو، وهو من أعيان العدول... وقد أظهر من الميل إلينا ما غاب الظن أنه مسلم، وصار يشير بإشارة خفية ويكثر من الالتفات حال مخاطبته إيانا، ولم يستطع التصريح بما في باطن الأمر، وجال بينه عليها أثر العريان بعيدا عن الشبه بالروم خلقا وخلقا." [5]

وقد يستعمل السارد من الألفاظ "نصراني" وما في معناها على قلة في الرحلة حتى أنها ترتبط بنوع من الإعجاب والتقدير كقوله: "والمباشر لذلك ولد حاكم البلد نائبا عن أبيه

---

(1) - المصدر السابق، ص: 187.

(2) – نفسه، ص: 50.

(3) – نفسه، ص: 157.

(4) – نفسه، ص: 104.

(5) – نفسه، ص: 72-73.

لمرضاه فهذا هو نصراني صاحب عقل ومروءة في أبناء جنسه وقد أحسن المباشرة والأدب..."[1] ومن هذا الذكر الحسن ما ورد في الاتفاق بين السفير والملك حول الأسرى المسلمين وفي البند الخامس" ...ألا يولى عليهم أحد من المتنصرين حال الخدمة لأنه أضر عليهم من مطلق النصارى."[2]

ويبدو أن استعمال كلمة النصارى" ينم عن عقيدة المسلم نحو الدين المسيحي في أصوله أما حين يتشكل بمعتنقيه عموما فإن الأمر يختلف .

وقد بلغ من بعض النصارى أن تبرعوا بفك الأسرى بلا مقابل: " فلما بلغ النصراني ما حدث به في نازلة الأسير وتأخره عن الكلام فيه...جاء بالأسير وقال: "هو مني هدية" وأقسم بدينه أنه لا يقبض فيه درهما واحدا فقبلت ذلك وقلت له لا أقبله إلا إذا أرضيته بالثمن الذي تطلبه فقال " إني أريد الوصول لبلادي وهناك تحصل المكافأة بالوقوف معنا في المسائل التي تعرض لنا بالبرية "فهناك قبلت هديته ووعدته خيرا.واسم هذا النصراني "ضن أسروقي" ص " ومن الغد جاء أحد الفتيان بقسير تونسي وهو مسن جدا وقال هو أيضا هدية واسم هذا النصراني "بشكليط" فجازيته بما يناسب من القول الحسن وانصرف مجبور الخاطر."[3]

فهذه الاستعمالات الإيجابية لكلمة "النصراني" لا تنفي غيرها ولكنها في العموم لا تحمل عدوانية بخلاف كلمة الكفر أو "الطغاة"

ومما يحمل شيئا من إيديولوجية السارد الدعاء- الذي يتخلل السرد كقوله: "...وأثر هذا السور أبقوه على حاله شاهدا (على) أن البلاد كانت للمسلمين وهذا أثرهم. أعادها الله للإسلام."[4] أو كقوله:"...إلا ما كان من بعض بقية الإسلام. فمنهم من لحق ومنهم من أشار نسله الله أن يهدي جميعهم للإسلام."[5].

ومن تعليقات السارد التي تنم عن عقل راجح وإدراك عميق موقفه من هزيمة المسلمين

---

[1] – المصدر السابق ص: 76.

[2] – نفسه ص: 141.

[3] – نفسه ص: 188.

[4] – نفسه ص: 67.

[5] - نفسه ص: 79.

فـي الأنـداد إذ قـال بعد أن أورد أدلة : "..وبالشريعة " قل لو كان فيها آلهة إلا الله لفسـدتا" " فـإن تعـدد الأمراء وانتصار بعضهم على بعض واتباع الأهواء يفضي إلى الخـراب والدمار والعياذ بالله . وأما العدو الكافر فقد وعد الله تعالى عباده بالنصر عليه والظهـور فإنه يلتفت للكثرة منه ولا للقلة وهذا أمر مسلم."[1] فهذا موقفه من النصارى في الأندلس .

ولا نتـرك هذه الوثيقة قبل أن نشير إلى الإعجاب الذي عبر عنه السارد في أكثر من موضـع كقوله في نظام سير الجنود أمام التسراد بكيفية منتظمة "...وتقدمهم لتسراد على حاله هي من العجب بحيث يأتي الشاوش في إثر يصاحب الطبول على ثلاثة صفوف كل صـف فيه ستة رجال ثم ثلاثة صفوف أخرى مثل الأول ثم مثل الثاني وهكذا إلى تمام الخمسـمائة وقدر ما بين الصفين من الوسع والصفوف التابعة لها قدر ما أخذوا نصيبهم مـن الأرض فلـو فتش ضابط وقيس بما أخذه أشباح الصفوف وما تركه من الوسع الفاصـل بـين الصـفوف من الوسع والصفوف التابعة لها لوجدتها واحدا لا يزيد القدر المعمور على الفارغ قدر إصبع وذلك مما يتعجب منه..."[2]

ويـتعجب السـارد من إتقان البنيان تعجبا بالغا كقوله: "ولما انتهينا إلى الدار المعينة لنـزولنا رأيـنا مـنها ما يتعجب منه من إتقان البنيان وارتفاعه وتعدد الغرف والمقاعد وتزيينها بأنواع الديباج والستور المرقومة بالذهب والفرش المنتخبة بمقاعد للنوم هي غير المقاعـد المعـدة للجـلوس والمتفـرقة بالقـوم إلى غير ذلك مما يدل على رفاهية أهلها وحضـارتهم."[3] كمـا تعجب من جلوس الناس في طبقات على مسطبات كقوله: "وفي تـرتيب جلوس هذا الخلق الكثير على التدريج من بسيط الأرض إلى منتهى علو الدار ما يـتعجب مـنه لغـرابة صـنعه كيف وقد سترت أشباحهم أسوار الديار القائمة المحيطة بالبقـعة مع طرف من بسيط من جدرانها."[4] إنه يتعجب من مدرجات الساحات العامة ومدرجات الملاعب التي يجلس عليها المتفرجون المشاهدون لمباراة الثيران.

---

(1) - المصدر السابق، ص: 112.

(2) – نفسه، ص: 50.

(3) - نفسه، ص: 61.

(4) - نفسه، ص: 65.

الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية:

وفيها يقوم السارد بعلاقة عاطفية[1] مع الخطاب المسرود، فيعبر عما يحمله أو يسره، ويتوقف السارد الرحالي ليخلو مدا للتعبير عن الوجدان، وقد تندمج هذه الوظيفة مع الوظيفة التعليقية، فتأتي التعليقات انطباعية متداخلة مع السرد، وقد تكون مستقلة واضحة.

فالسارد في الوظيفة التعبيرية يحتل نقطة التمركز، فيعبر عن أفكاره ومشاعره، بحيث يغيب الخطاب ذاتيا، بل إن الذات تذوب في الموضوع "فتشيع في الشيء الذي تتأمله حياتها، وروحها، ونوازعها، ورغباتها ومشاعرها، وشتى مظاهر إحساسها."[2]، فالرحالون يعبرون عن مشاعرهم في كثير من المواقف التي تتفاعل فيها الذات مع موضوع التأمل.

فهذا العبدري بعد أن وصف الروضة الشريفة بالمدينة المنورة قال: " ولاحت بادية للعيان يثير مرآها، من ذي الوجد كامن الأشجان، ويهيج من القلب ساكن الأحزان، كأنها ترقب أو تندب حبيبا بان، وتذكر من يفكر بزمان كان، وتترجم عما يستعجم من مغان بمعان، تشرح ... عما تلوح إليه ببيان، يا لها واعظة كل عن شأوها قس وسحبان..."[3]

إن سارد العبدرية يلجم مشاعره وأحاسيسه، ولا يعبر عنها إلا قليلا، ونجده في هذا الموقف يكتفي بهذه العبارات العامة التي يمكن أن تقال في غير هذا الموقف، لهذا قلت عنده المواقف الذاتية الانطباعية.

أما العياشي فقد سجل موقفا ذاتيا إثر تغيير أحد أقاربه لموقفه من السير إلى الحج، وقد كان قرر ذلك، قال: "...وشق على النفس رجوعه، وسالت على ذلك الجفن دموعه، وكان ممن يعتمد به في الطريق... وتألمنا لفراقه غاية، ولكن في الله كفاية..."[4]

إن التعبير عن الذات في جانبها الانفعالي واضح، وقد تأسف عن عدم خروج أخيه محمد الذي كان معتمدا عليه كأحسن رفيق في التغلب على مشاق الطريق، وقد تمتزج مشاعر الفرح والحزن، كقوله في موقف الوداع: "...وتتابعت الزفرات، وأثارتها

---

(1) - جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص :265.

(2) - عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، ص :84.

(3) - العبدري، الرحلة، ص : 206.

(4) - أبو سالم العياشي، الرحلة، ج1، ص : 14.



الحسـرات، وغبط المقيم الذاهب، وشكر الظاعن الواهب، ومزجنا بحنين المتوقى مرارة الواقـع، وقد يستشفى من بعض الأدواء باحتساء السم الناقع، وحين فارقت الولد والغرام فيه أخذتم ألد سكبت من الدموع سجام... وأنشدت..."(1)

فموقف وداعه لأهل أورثه ألما وحسرات ممزوجين بالأمل والفرحة. فهو موقف عسير جعـل السارد يحاور نفسه – بل يخاصمها- فحدة عينيه موجهة إلى الطريق، والأخرى إلى توديع العشيق بعاطفة الزوج الشفيق، وبوجدان أبوي رقيق.

ولمـا ودع المودعـون مكـة المكـرمة بعد أداء المناسك، لم يجد من الوجد ما يجده المودعـون لكونه نوى المجاور فأخذ يناجي نفسه ويحاورها "...فقلت في نفسي، لعل ما يجـده المودع الراجع إلى بلده بسرعة من ألم الفراق، والتعطش إلى المشاعر العظيمة، واجـتهاده فـي الـدعاء، مع الإقبال على التضرع بكليته يوازي عند الله أعمال المجاور والمقـيم بمكة طول سنة... وقليل عمل مقرون بتلك الأحوال السنية التي تحصل للمودع يعدل عند الله كثير عمل من ذلك..."(2)

ففي هذا النص امتزجت المشاعر مع التعليق التفسيري المتأمل لموقف المودعين، وهو تعليق من الناحية النفسية وجيه وفي غاية الحسن، لكون المودع يلتمس مزيدا من الإشباع الروحـي قـبل الـرحيل، في حين يعلل المجاور نفسه بأن الموقف لن يفوته ما دام مقيما وسيشـبع حاجته بعد الموسم، فالعياشي يبوح بمشاعره، ولا يلجمها كغيره، لذا نجده حين اقترب من المدينة المنورة يقول: "...وأي مسرة أعظم من الدنو من دار الرسول، وأي لذة أهـنأ وأمرأ من تنشق نسيمها الذي هو غاية المنى والسول، فلعمري لقد انتعشت بعد ما ذبلـت، وطلعـت شموس الأفراح بعد ما أفلت، وانبسطت أنوارها من القلوب إلى الوجوه فأشـرقت...وظهر آثار النشاط والمرح في الركائب، فأسرعت، وخبت من دون حاد ولا سـائق، وأوضعت وكأن ما يلفحها من سموم الرمضاء نسيم السحر، وكأن عرقها السائل مـن الأعـناق بليل المطر..."(3)، فالفرحة قد عمت الإنسان والحيوان، و نشط لها الظاهر

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 14.

(2) – نفسه، ج1، ص: 227.

(3) - نفسه، ج1، ص: 232.

والـباطن، وانبسـط المقيم والظاعن، وعادت المشقة يسرا والعناء بشرى، حتى أن لفيح الهجيـر، وريـاح السموم لا تأثير لها على الراكب والمركوب، وما ذلك إلا بشم نسمات الروضـة العطـرة، ونفحات المقيم بالمدينة المنورة. روضة تشرق منها الأنوار وتصب الرحمات فيها كالأسحار، وقد يمزج السارد التأمل والدعاء كما قال وهو بمنى: "...كما عم وفده بالضيافة المحسوسة التي تصير الفقير كالغني، في أيام الضيافة كذلك أوأعم منه ضيافته المعنوية بالمغفرة، وقبول الدعاء، وإجزال التوبة لعباده فوق ما يخطر بالبال، وما ينال بقياس ومثال، فما أسعدنا به من رب كريم منعم، متفضل وهاب جواد محسن مـتطاول لا إلـه إلا هـو ملك الملوك، ورب الأرباب... نسأله سبحانه أن يعمنا بفضله وكرمه، ويتحفنا برضوانه، ويعاملنا بإحسانه، آمـيـن." (1)

لقد قرأ السارد وضع الحجيج بمنى، حيث يتساوى الغني بالفقير، في المظهر والمخبر، وفـي الإطعام البدني والإنعام الرباني، ثم تطور التعبير إلى تمجيد وتقديس مع الخضوع الـتام لرب الأرباب، ثم ختم الموقف بالمناجاة الصامتة والمجهورة، وقد تم ذلك في تدرج مـن الأسفل إلى الأعلى، تأمل في المحسوس، ثم تطلع إلى الحضرة في تقديس وتمجيد وتنزيه، حتى إذا شعر بالقرب رفع يديه و دعا في أدب وأمن .

وقـد يرتقـي هذا النوع من الخطاب إلى شعر في أكثر من موضع(2)، وقد يتطـور الموقـف نتـيجة للاستغراق في مثل هذه الأحوال إلى رؤيا في المنام فيقصها أو يفسرها، كقـوله: " كنت رأيت في النوم عند ابتدائنا لقراءة الشمائل، أن صاحبنا الشيخ المسن عبد الكـريم التمـتام، أتانـي بسـبحة من جواهر ويواقيت ثمينة، فجعل يظهر لي محاسنها، واغتبطت بها كثيرا (انتهت الرؤيا)، فلما كان الغد بعد فراغنا من الدرس ابتدأ الشيخ عبد الكريم المذكور الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي جرت العادة بختم المشائخ بها الـدروس... وهي: اللهم صل أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصـحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكـرك وذكره الغافلون (انتهت الصيغة) فتأولتها الرؤيا التي رأيت، ولعمري إنها رؤية

---

(1) – المصدر السابق، ج1، ص: 198-199.

(2) - نفسه، ج1، ص: 113.

Ţ ـادقةĈ فإذا لم تكن الŢ ĺŢ علĬ النبي Ţĺ ĺ علية وسلم في العبادĸ بمنزلة الجواهر واليواقيĸ في الأموالĈ فŐ شيĆ في العبادĸ أحŖ بهذا الوŢف."[1]

إن السـارد يربط رĉياه بواقعĈ ويورد حجة تقنعĈ قبل غيرهĈ وكĈ يبوح بما في عقل البـاطنĈ ويـربطĈ بممارساتĈ اليوميةĈ ويقوم بنشاط تفسيرĬ مما يجعل القارĒ يميل إلĬ القبولĈ ف"حينما يحين الدليل يكون سياقĈ في الواقŴ محددا لمĉولاتĈ."[2] .

وهكـذا تـتعدد المواقف التعبيرية لدĎ العياشي وتتنوŸ.إذ الرحلة ذاĸ عŐقة بالسيرا الذاتـية للرحال " إنها مشهد سيرĬ وذاتي يخ f لحĈاة زمنية مĉطرا بسĵر "ذاĸ" تحمل أحŐمهـا وتطلعاتها ومعارفها وقيمها."[3]Ĉ ورغم تمĈاهر الرحلة بالموضوعية إلا أن مبدأ الانـتقاĆ التعبيرĬ هو الذĬ يŢبغهاĈ فالسارد لا يسرد إلا ما تهتم بĈ الذاĸĈ سلبا وإيجاباĈ وبهـذا المـنĈور تŢبŔ الرحلة كلها تعبيرية تŢور وجهة نĈار ذاĸ الراحلĈ وتعبر عن مشاعرها وقناعتها. وتتجلĬ الوĈيĵة التعبيرية علĬ مستوĎ خطاب الرحلة التجانية في:

- وŢـف الأشـياĆ كقولĈ: "... وبها سĵرجل قل في جميŴ البقاŸ ما ينابĈره أو يقرب منĈĈ طيب المطعمĈ وضخامة جرمĈ وكŕرا ماĆ وخلو f ŢĵĆĈ وليŚ يشبهĈ إلا السĵرجل الموجود بتا جوره من قرĎ طرابلŚ..."[4].

يـبدو الوŢـف موضوعياĈ حياديا إلا أنĈ ذاتي محŔ يعبر عن وجهة نĈار السارد وتجـربتĈ الخاŢـة في تقييم الĵواكĈ من حيŧ حجمهاĈ وذوقهاĈ وجمالهاĈ وتĵردهاĈ ومĉل هـذه الأوŢـاف تعبر عن مواقف السارد نحو الأشياĆ عموما. ذلĦ أن الذاĸ ترغب بعد التجـربة "...إلـĬ نقـل عدوĎ ما طرأ عليها من تغير إلĬ الغير .ولو لم يكن ما حŢلتĈ الذاĸ في تجربتها الأدبية جديدا وجديرا بالا شراĦ لما جعلتĈ متداولا بين الناŚ ."[5]

- وŢف الزمـانĈ كقولĈ: " وحضرنا هنالĦ عيد الأضحĬĈ ونحن بحالة قد غاب عنها

---

[1] - المŢدر السابقĈ ج1Ĉ f : 277.

[2]–حميد الحمدانيĈ القراĆĴ وتوليد الدلالةĈ المركز الثقافي العربيĈ الدار البيضاĆĈ المغرب/ بيروĸĈ ط1Ĉ 2003Ś. f 171

[3] - شعيب حليĵيĈ الرحلة في الأدب المغربيĈ f : 192.

[4] - التجانيĈ الرحلةĈ f 154

[5] – حميد الحمدانيĈالقراĆĴ وتوليد الدلالة Ĉ f : 185.

السرور بتونس، فقطعناه ولا أعياد ابن عباد أيام أسره..." [1]

لم يعبر السارد عن حالته النفسية في هذه الغيبة الطويلة إلا في فلتات نادرة، منها هذه التي يتوقف فيها من فقدان السرور يوم عيد النحر، بل قد اعتبر نفسه أسيرا مثل ابن عباد صاحب إشبيلية الذي أسر من قبل المرابطين ونقل إلى أغمات بالمغرب، والآسر للتجاني هـو الأمير الموحدي أبو زكريا ابن اللحياني الذي عزم على السير إلى الحج، ولما تأكد من أنه لا يمكنه ذلك، قصد طرابلس وأقام بها رغم أن أتباعه طلبوا منه العودة إلى تونس حتـى يتيسـر الحج " فأبى إلا سلوكا لمنهجه، وقصد ألا يرجع إلى تونس إلا بعد تحصيل حجـه "[2] فهذا النص رغم ظاهره الإخباري المحض، إلا أننا نعتقد أنه مبطن من الداخل بالجانب النفسي للسارد الذي يود العودة إلى تونس.

وصـف الأشخاص: قد يورد السارد أخبارا تدل على الإعجاب بشخصية ما نموذجية، مـن ذلك ما أورده عن الفقيه أبي الحسن علي بن محمد بن المنمر الطرابلسي (تـ 432هـ)، قال:" وهو أول من أظهر السنة بطرابلس وأول من قطع من الآذان "حي على خير العمل" وأذن فـي ذلـك اليوم آذان أهل السنة بنفسه، وقد قتل بنو عبيد بشرا كثيرا أسقطوا هذه اللفظة من آذانهم تعمدا أو نسيانا، وأول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام"[3]

إن إعجاب السارد بهذا الفقيه جعله يستطرد فيما أنجزه من أعمال أعادت أهل طرابلس إلى شعائر أهل السنة بعد الاجتياح العبيدي، وقد صادف ذلك هوى وقبولا لدى السارد.

وقـد يأتي التعبير دالا على موقف عدائي من الناس أو المكان كقوله: "... وصلنا إلى موضـع إقامتـنا، منزل غمراسن، فوجدنا منزلا قد غضب الله على أربابه فابتلاهم من سـكناه والإقامـة بمغناه بأليم عذابه..."[4]، يتضح من هذا الكلام الكره الشديد للموضع، وفسر ذلك تفسيرا خاصا به، قد لا يشاركه فيه غيره، وقلما يستهل السارد خطابه في وصف المكان بهذا الموقف، إنه يجهر بما يكن رغم إعجابه بقواعد غمراسن وثماره.

ولعلنا نستطيع إدراج زيارة القـبور من قبل السارد، والتأسي بها ضمن الوظيفـة

---

(1) - التجاني، الرحلة، ص 197.

(2) – نفسه، ص: 194.

(3) – نفسه، ص: 265- 266.

(4) - نفسه، ص: 184.

التعبيرية، حين بدأ التوسل بالموتى يأخذ طابعا عقائديا حتى لدى كبار موظفي الدولة، كالتجاني الذي قال: " وزرنا بخارج الغابة من هذه القرية قبر الشيخ أبي محمد بن عبد الجليل الحكيمي (ت685هـ)..."[1]، وإن كان السارد يوهمنا أن زيارته ذاتها بعد علمي إذ أثبتنا وفاته من خلال ما رآه مكتوبا على قبره، قال: " وكانت وفاته يوم الأحد الثالث لشهر ربيع الأول المبارك من عام خمسة وثمانين وستمائة، رأيتها هذا مكتوبا على قبره."[2]

ويصرح بأنه زار القبر ودعا عنده مما يضفي على سلوكه شيئا من طابع الاستثناء، ذلك أن الوظيفة التعبيرية قد لا تدرك بالتصريح وإنما تدرك ضمنيا، كما نجد ذلك في توديعه لابن اللحياني الذي استمر في طريق الحج في حين عاد السارد من حيث أتى، قال:"...فودعته في هذا اليوم، وهو يوم عاشوراء، وانقلبنا راجعا..."[3]

إنه يكتفي بالخبر المباشر، ولم يشر إلى عدم تمكنه من مواصلة طريق الحج، مما يحيل على الموقف النفسي المتراكم من خلال إصرار ابن اللحياني على الحج مهما كانت الظروف، ويبدو أن السارد لا يشاركه هذا الموقف، ولكنه لا يستطيع التصريح أمام ولي نعمته.

وقد يعبر السارد عن اضطرابه كما في قوله: "...وصادفتنا أبياته مني ضجرا، وضيق نفس بسبب عارض عرض لي، فقلتها أجيبه وخرجت إليه عما في نفسي مستريحا بذلك:

أتتني منك أبيات حسان   شمائلها أرق من الشمول

إلى أن يقول:

وها أنا أشتكي لعل شكوى   تبث بعض ما بي من غليل

أرى الأيام تمنعني مرادي   وتلقي بي لقصد مستحيل

أطالب للعلى فيها وصولا   فيصعب للعلى فيها وصولي

ويمضي الأمر غيري وهو دوني   وأمري لا [illegible] ثوب الخمول [4]

وهي قصيدة من واحد وعشرين بيتا، يبث فيها شكواه، ويبوح بطموحه، وأنه مضطر لما تقضي به المقادير، وعبر عن آلام الفراق في شعر آخر، قائلا:

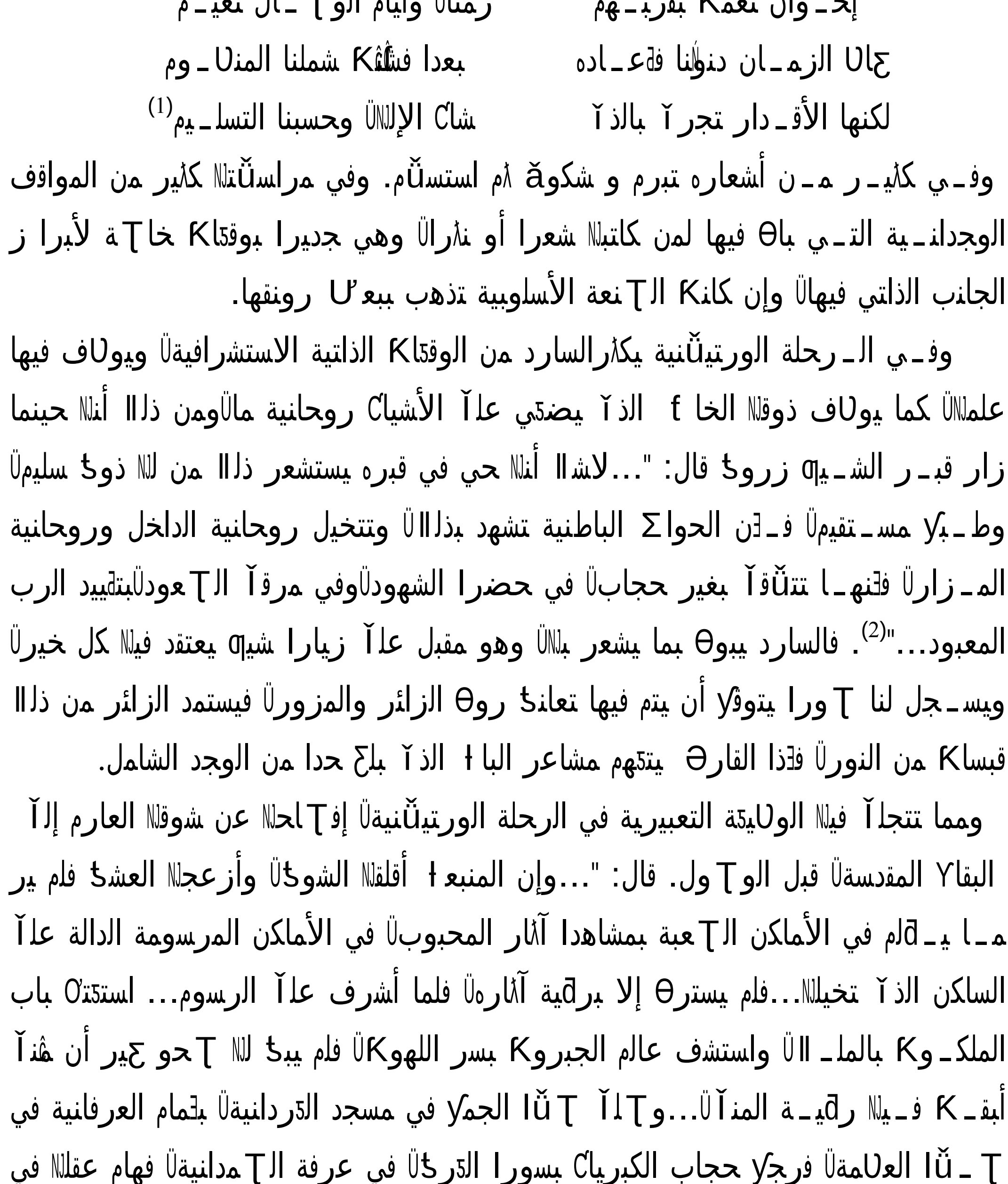
---

(1) - المصدر السابق، ص 219.

(2) – نفسه، ص 219.

(3) - نفسه، ص 317.

(4) – نفسه، ص: 175 – 176.



ألم تراك على النوى عليم	من ذا يعبر الصبر فيه يقـوم
سلني بما أحببت من أبـنائه	فلدي قلب بالشجون عليـم
إخـوان نعمت بقربـهم	زمنا وأيام الوصـال نعيـم
كان الزمـان دنولنا فأعـاده	بعدا فشتت شملنا المذمـوم
لكنها الأقـدار تجري بالذي	شاء الإله وحسبنا التسلـيم[1]

وفـي كثيـر مـن أشعاره تبرم و شكوى أم استسلام. وفي مراسلاته كثير من المواقف الوجدانـية التـي باح فيها لمن كاتبه شعرا أو نثرا وهي جديرا بوقفة خاصة لأبرا ز الجانب الذاتي فيها وإن كانت الصنعة الأسلوبية تذهب ببعض رونقها.

وفـي الـرحلة الورتيلانية يكثرالسارد من الوقفات الذاتية الاستشرافية ويقف فيها علما كما يقف ذوقه الخاص الذي يضفي على الأشياء روحانية ما ومن ذلك أنه حينما زار قبـر الشـيخ زروق قال: "...لاشك أنه حي في قبره يستشعر ذلك من له ذوق سليم وطـبع مسـتقيم فـإن الحواس الباطنية تشهد بذلك وتتخيل روحانية الداخل وروحانية المـزار فتنهـا تتلاقى بغير حجاب في حضرا الشهود وفي مرقى الصعود بتأييد الرب المعبود..."[2]. فالسارد يبوح بما يشعر به وهو مقبل على زيارا شيخ يعتقد فيه كل خير ويسـجل لنا صورا يتوقع أن يتم فيها تعانق روح الزائر والمزور فيستمد الزائر من ذلك قبسا من النور فإذا القارئ يتقهم مشاعر البا[?] الذي بلغ حدا من الوجد الشامل.

ومما تتجلى فيه الوقفة التعبيرية في الرحلة الورتيلانية إفصاحه عن شوقه العارم إلى البقاع المقدسة قبل الوصول. قال: "...وإن المنبع [?] أقلقه الشوق وأزعجه العشق فلم ير مـا يـسلم في الأماكن الصعبة بمشاهدا آثار المحبوب في الأماكن المرسومة الدالة على الساكن الذي تخيله...فلم يسترح إلا برؤية آثاره فلما أشرف على الرسوم... استفتح باب الملكـوت بالملـك واستشف عالم الجبروت بسر اللهوت فلم يبق له صحو غير أن هنا أبقـت فـيه رؤيـة المنى...وصل [?] الجمع في مسجد الفردانية بتمام العرفانية في صـ[?] العظمة فرجع حجاب الكبرياء بسورا الفرق في عرفة الصمدانية فهام عقله في

---

[1] – المصدر السابق، ص: 304.

[2]- الورتيلاني، الرحلة، ص: 198.

مزدلفة...وهذا كله تخيله المحب... في بيت البشر والأطوار ودار الشهوات واللذات من غيـر استبصار فصار يصيح صيحة انطوت فيها الليل والنهار وأظلم الكون طرا فلم يتعب في الأستار...إذ رأى أن قلبه ركب مطية الأنوار واستعد إلى مشاهدة العزيز الجبار..."(1).

إن السـارد وهو يتأمل في رحلة الحج أدرك أنها رحلة رمزية في عمق الذات تعانق فيها الروح الأكوان و تهدف إلى استشعار الحضرة القدسية المتجلية في كل الكائنات وإذا بنا نسمو قليلا مع سمو السارد إلى عالم آخر كل شيء فيه رمز يحمل دلالة ما...وتتوالى الـرموز وتتوالى الحركة الذهنية حتى العروج فقد حج بالتنقل في عالم الأرواح قبل تنقل الأشـباح إنها رحلة المعراج في الملك والملكوت و هي جامعة مع الكائنات وراء إمام العلم العرفاني في هذه العلامة حيث يكون المتجلي في كامل الخضوع.

يتـناول السـارد الموقـف برؤية غير مألوفة يتحدث فيها عن عمق نفسه وإن كان مسـتعملا لضـمير الغائب "...أقلقه...أزعجه..." إذ يمكن تبئيرها كالتالي: أقلقني الشوق وأزعجنـي العشق..." . فالرؤية الداخلية ترصد حركة الذهن المتخيلة وتوقاف المعارف الصـوفية فـي تجسـيد رحلة ينسى فيها الزمان ويتجاوز فيها المكان المألوف فيتماهى المحسـوس مـع الروحـي ويتعانق المرئي مع اللامرئي.إنها البنية الرامزة تعتمد على التكثيف وتحيل إلى طبيعة ثنائية "...إحالة إلى مثال مجرد ذي طبيعة مطلقة وإحالة على الواقـع وإحالة إلى تصور أو وجهة النظر...والدليل باعتبار طبيعته الترميزية هو مكيف أصلا لتقبل احتمال التأويلات المتباينة."(2).

ومـن خطابه الذاتي قوله:"... ألا إن رحمة الله واسعة ونعمته بالحجيج شاملة خصوصا أهل المعرفة بالله تعالى فلا تراهم فيه وفي غيره مما هو نظيره في الصعبة إلا كالعرائس تتلألأ وجوههم نورا وتـنبسط آثار محبة الله في طلعة خدمهم علما منهم أن غاية أمرهم غيـبهم عن أليم ما هم فيه وهو بيت الله وحرمه وكذا حضرة الله وحضرة رسوله صلى الله عليه وسلم وحرمه أيضا فلما شهدوا مطلوبهم غيبهم ذلك عما لاقوه من العذاب."(3).

---

(1) – المصدر السابق، ص: 238-239.

(2) – حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، ص: 174.

(3) – الورتيلاني، الرحلة، ص: 231.

فالسارد يتحدث عن المشاهد التي يجدها الزائر في مكة والمدينة، وقد اتخذ موقعا خارجيا من خلاله يطل إلى الأعماق، ويقف حالة شعورية، ذاتية إدراكية... يشعر السارد نفسه بها، ويتخذ الآخرين عوامل للتحدث عنها ويستدعي في التجليات الظاهرة أمامه حسب الرؤية، وكأنه يراقب الوجوه المتلألئة، والخدود النيرا. إن نفس السارد والآخرين في موقع واحد[1]، ويرمي إلى إعادة التقييم من الداخل ومن ذلك قوله: "هذه المنزلة شذاها طيب وأنوارها بينة، فالعارف تجده فيها منشرح الصدر، طيب الوقت، منبسط الظاهر والباطن، لأن آثار المحبوب حاصلة فيه إلا من أصابه زكام محبة الدنيا، فهو لا يشم شيئا، من هذه العواطر الإلهية، والروائح النبوية، وذلك معلوم في الشاهد."[2]

فإذا ما وقفنا عند قوله "تجده" نجد أن السارد يقول: تجدني أيها القارئ- منشرح الصدر، فضمير الغائب "هو" الذي يشير إلى العارف، في حقيقة الأمر هو ضمير المتكلم "أنا" عن طريق تغيير الإسناد، وهذا ما أشار إليه الدارسون في قضية التبئير الداخلي[3].

وقد يشير الدارس إلى ضمير جمع للمتكلمين "نا" والمقصود "أنا" كقوله: " لم يبق لنا نصب ولا تعب لما ذاقته الأرواح من لطائف الوصل بالمحبوب، وقرب مشاهدة جوار عالم الغيوب، لا خير في أوقات الحياة سوى أوقات رؤية آثار المحبوب، فتزاحمت الواردات الإلهية على القلوب، فزال السدد عن أقفالها، من غطاء الحجب، فلم يسمع المحب حسيس اعتراض النفس، وفي ذلك الوادي ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين لا سيما فتوحات الجبار، ترد هنالك على الإنسان من غير اختيار، فليس على مثله للإنسان اصطبار، إن رحمة الله قريب من المحسنين بلا افتخار..." [4]

فالسارد يقدم الخطاب في البدء بضمير المتكلمين "لنا"، ولكنه سرعان ما يتخلى عن هذا المقام لكونه مقام التعظيم، وينزل إلى مقام المفرد الغائب "فلم يسمع المحب" وهو يقصد المتكلم إذ يقول: " فليس على مثله للإنسان اصطبار" وهذه إشارة إلى أن السارد، ذاق هذه الحال، ووجد حلاوتها، ولكن تكليف الخطاب منعه من الاسترسال فقال " إن رحمة الله

---

(1)- انظر بوريس أوسبنسكي، شعرية التأليف، ص: 99.

(2)- الورتيلاني، الرحلة، ص: 370.

(3)- جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص: 204.

(4)- نفسه، ص: 383.

قريب من المحسنين بلا افتخار ". فالضمائر واستعمالاتها تكشف لنا عن الذاتي والغيري بل تعيننا بشكل واسع على فك الخطاب وتمييز مستوياته إدراكه: " إن التلاعب بالضمائر لا يسمح لنا بتمييز الأشخاص بعضهم عن بعض فحسب، بل هو كذلك الوسيلة الوحيدة التي لدينا للتمييز بين مستويات الوعي واللاوعي المختلفة عند هؤلاء الأشخاص ."[1]

ويمكن للسارد أن يقدم لنا الخطاب الطلبي مسردا كما في هذا القول: " فسألنا الله تعالى قبول حجنا وإخلاص سعينا وربح تجارتنا وزوال الحجاب عن سرائرنا والدخول لحضرة الله و التمتع بالنظر لوجهه الله تعالى، والموت على حسن الخاتمة بمنه وكرمه..."[2]

فالسارد يحكي عن ذاته بضمير الجمع "فسألنا" ويجسد أمله أو رغبته المستقبلية التي يود أن تحصل، لكنه يدرك أن الأمر ليس بيده، فهو عاجز إن لم يستمد التوفيق من إرادة أعلى، وهي إرادة المخاطب بالدعاء، ولكنه قدم لنا الخطاب على أنه وقع وانتهى، أما من حيث الوقائع فينتظر وقوعها حسب مراحلها، ذلك أن "الدعاء نوع من الممارسة الوجدانية مجسدة لتجربة داخلية تتواصل مع الله مباشرة..."[3].

فضمير التهذيب "نا" مستعمل بكثرة في مواقف الوجد بل هو وسيلته ليتمكن من البوح بما يشعر به، ولكونه يستنكف أن يسند ذلك إلى ذاته، فإنه يتستر بضمير "نا" كقوله: "فلما استقر بنا القرار في مدينة الرسول وشاهدنا تلك المشاهد... ظهرت لنا معالم الأنوار ونتائج النبي المختار، وأمرة الود وكشف الأستار، وحضرة القهار. فانعكست في قلوبنا روحانيته عليه الصلاة والسلام، فامتزجت بقوالبنا، وظهر نوره صلى الله عليه وسلم على الأجسام فناط متمكنا منا بعلم الأرواح، فغاب منا عالم الطبيعة في محو صفاته صلى الله عليه وسلم، فاستعقب ذلك سريان آثار اللاهوت فتمكن في المحل الذي هو الناسوت..."[4].

ففي مثل هذا النص شعر السارد برجة روحية أفسحت له المجال لتوظيف المصطلح الصوفي: كشف، حضرة، قوالب، عالم الطبيعة، اللاهوت، الناسوت. إنه خطاب صوفي رفيع المستوى، دال على المعرفة الواسعة للسارد، إلى جانب الحالة الوجدانية التي يمكن

---

(1)- ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ط2، ص: 105.

(2)- الورتيلاني، الرحلة، ص: 414-415.

(3)- محمود البستاني، الإسلام والفن، ص: 170.

(4)- الورتيلاني، الرحلة، ص: 498-499.

أن يشـعر بهـا مـن أعد نفسه مدا طويلة لمثل هذه المواقف عن طريق التربية الروحية والشـوق للـبقاع المقدسـة، حيث يستحضر السارد ماضي المكان والناس بكل مشاعره، فالسـارد يعـرب عن نفسه هو بالذات، ولم يغير الضمائر، إنه مقام السرد الثابت الذي لا تتغيـر فـيه الأفعال والصفات ولا تتغير الذوات، ولعل التوتر الشديد يبلغ مداه في النص الآتـي المسرود بضمير التهذيب "نا": "فلما لاح لنا لائح الافتراق، وانقدح زناد الاشتياق، تحركت الأحشاء، وذابت الأكباد وانهمرت العيون بالبكاء، وأصابت النفس العبرات، فكادت أن تزهق الروح من شدة ما أصابها من ألم الفراق، واضطرم القلب وانحرق، من قوة ما وجد من عذاب البين ومفارقة الصديق الأمين صلى الله عليه وسلم، فلم يوجد زمان أطول من زمان الوصول إليه...ولأصعب من يوم فراق دائرته، وقد انعدم القلب حزنا، بل اعتل بعلة لا يعلمها إلا من وردت منه...فحرارة الجسم كادت لا تبرد، وقلق القلب قد..." (1)

فالسـارد ابتدأ السرد بالإسناد إلى ضمير الجمع، ولما انكب على عمقه تجرد واستبدله بضـمير الفاعـل الحقيقـي المعاني للوقائع ولكنه لم يصرح، إذ أدخله في دائرة ضمائر الغـياب، ثـم قال معلقا على مثل هذه الحالات "لا يعلمها إلا من وردت منه" فانفلتت منه التصريحات، لقد ابتدأ بالجمع: (ضمير"نا"، الأحشاء، الأكباد، العيون) لينتقل إلـى المفرد(هو، النفس، الروح، القلب) وكرر القلب ثلاث مرات مع اختلاف الفعل.

فالوظيفة الانطباعية تتجلى في مستويات كثيرة أعلاها حالة الوجد الصوفي.

وفـي الـرحلة الغزالية: تتجلى الوظيفة التعبيرية من خلال التعليقات الذاتية في معظم الأحـيان، إذ تـذوب الذات فتمتزج بالموضوع، وقد لا نقبل تعليقاته، ولكنه يقدمها، فها هو يعلـل سـبب تعظيم النصارى للوفد المغربي قائلا: " ولما اختلطنا بالقوم ترجل جميعهم، وأدوا الـواجب كما يجب، وبالغوا في التعظيم والتبجيل والمباشرة اللائقة بالمقام الإسلامي الذي جعل الله لعباده المؤمنين من غير اعتبارهم لذلك، وإنما خضوعهم وإذعانهم وامتثالهم وانقـيادهم بالخاصـية لتوحيده، ولو كان ذلك خاصا بقمر طاغيتهم لظهرت المباشرة من بعض دون بعض، ولما كانت نورانية الإسلام هي الفاعلة استغرقت الكل منهم في الخدمة

(1)– المصدر السابق، ص: 528.

والامتـثال."[1] فهـو يفسر حسن الاستقبال من الأسبان للوفد المغربي بكونه تدبيرا إلهيا خـص به أهل العقيدة الإسلامية، ورغم أنه تنازل عن ربط الظاهرة بذاتها كشخص يرأس الـوفد، ولكنه ربط التفسير بذاته من جهة معتقده وتتجلى معالم أقواله في مظهر حيادي موضـوعي ولكـنه يبدي بين الحين والآخر ما يخفي من آماله وأحلامه الخاصة بعقيدته كقوله: " ومما يغلب على الظن من ظهور انقيادهم وامتثالهم، وإذعانهم ومحبتهم وفرحهم بالمسلمين أنهم إذا عرض عليهم الإسلام لأجاب جميعهم لو لم تكن بين ظهورهم ..."[2]

إن رغـبة السـارد الذاتـية في أن يسلم هؤلاء الأسبان جميعا، إذ رآهم على استعداد لاعتناق الإسلام لولا القساوسة الذين يحولون بين الناس والدين الحق. فالسارد يكرر هذه الحقائـق والتعليقات في رحلته، بعد كل استقبال يخص به الوفد السفاري، كقوله: "...ولم نخلص منهم إلا بعد الكد، والتعب لما لهم من الغبطة والرغبة في ملاقاتنا، والسلام علينا، والتـرحيب بـنا،وقد ظهـرت عـزة الإسـلام وعظمة مولانا المنصور بالله في نفوسهم بالخاصية، والحمد لله."[3]

لقد أضاف عزة الإسلام، ومنزلة السلطان وأنهى هذا النص "الخاصية" التي وردت في أكثر من موضع، ومعناها "التأثير الخفي" غير المرئي.لقد انتابه إحساس العزة بالإسلام والفخـر بعقـيدته كغطـاء لإحساس بالألم الذي ينتابه كلما رأى الآثار الباقية من عهود الإسـلام الزاهـرة حين كان الإسلام عزيزا بالفعل، ولما أحس بثقل الهزيمة في الواقع، أرجع العزة إلى شيء خفي سماه "الخاصية ".

وقـد يعبـر السارد عما يشعر به من أسف وحسرة، وهو يتجول بين الآثار الباقية من ديار الإسلام، كقوله:"...وجدنا في نفوسنا من الأسف عليها، ما ضاقت أرواحنا من أجله، وكـيف، وقـد تذكـرنا من كان بها من المسلمين- رحمهم الله - فالأمر لله من قبل ومن بعـد..."[4]. لقـد انهزم المسلمون في الأندلس عقيدة ونظاما ودولة، وهو يدرك ذلك ولا يسـتطيع أن يفعـل شـيئا إلا الاستسلام،أو أن يعتمد على ما يخرق الزمان والمكان وهو

(1) - أحمد المهدي الغزال، الرحلة، ص: 74.
(2) – نفسه، ص: 79.
(3) - نفسه، ص: 86.
(4) - نفسه، ص: 95.

"الخاصية" وبذلك يشعر ببعض الراحة. وقد يشتد تأثره وانفعاله وبخاصة حين تبلغه أخبار الأسرى المسلمين عند الأسبان. فيتحسر كثيرا كقوله: "...وهذه الطريق أحدثها الطاغية وأنفق عليه [كذا] مالا لا حصر له لأنه شق الجبال وهد الشواهق وكم ضاع فيها من المسلمين رحمهم الله - وكم أصيب منهم بالحجر عند إخراج المينا بالجبال." (1)

إن معظم آراء السارد الذاتية تكون صائبة أو هي على الأقل مقبولة بالنسبة لزمانه ولكنا نعجب منه حين قال: "...ثم أطلعنا على ما هم عليه من الاعتناء بما يتعلق بالحرب وإظهار القوة فقال: "إن حرب الإسلام لا يلتفتون للمدافع ولا للنبل حال القتال وإنما الشأن عندهم السيف والرمح والنبل واستعمال البارود إنما هو عند الصدمة الأولى فقط فإذا اختلط القوم بالقوم فما عندنا إلا السيف..." (2). فلم يكن من المتوقع أن يغفل السارد عن دور هذه الأسلحة المتطورة في الحروب إنه غالط نفسه إذ راح يناقض محاوره عن عدم جدوى القذائف النفطية والقنابل... مما اضطر المحاور أن يستسلم للسفير وينزل عند رغبته إن التعليل الذي قدمه السارد فيه نوع من المكابرا لا يريد صاحبه أن يقر بالتفوق العسكري لأعدائه وهذا جانب سيء للذاتية حين تتعرى وقد تظهر الانطباعية في مشهد درامي حزين كما فعل حين تحدث عن أولئك الأسرى المسلمين الذين تعلقت بذممهم إتاوات فرضها النصارى عليهم فلم يتمكنوا من تسديدها لأن ما يكسبونه من أشغالهم اليومية لا يكاد يكفي معاشهم قال: "...وهؤلاء لا معين لهم ولا نصير إلا الله سبحانه ومن جملة ما قطع أكبادهم الخوف على صبيانهم بعدهم وتركهم في بلاد الكفار وقد طال وقوفنا معهم وهم يبكون ويتضرعون ونحن أكثر منهم بكاء وحسرا عليهم..."(3)

ولعل خطابه حين زار مسجد قرطبة ينم عن مشاعره قال:" ومنذ عبرنا هذا المسجد لم تفتر لنا عبرا مما شاهدناه من عظمته وتذكرنا ما كان عليه في عهد الإسلام وما قرئ فيه من علوم وتليت فيه من الآيات وأقيمت فيه من صلوات وما عبد به الله وقد تخيل في الفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلم علينا وتهش إلينا من شدا ما وجدناه من

---

(1)- المصدر السابق ص: 124.

(2)- نفسه ص: 146.

(3)- نفسه ص: 178.

الأسفل حتى صرنا نخاطب الجماد ونعانق كل سارية ونقبل سور المسجد وجدرانه."[1]

فالسارد شديد التعلق بآثار المسلمين رقيق الانفعال ولكنه يتستر في كثير من المواقف وقد تفضحه الدموع في مواقف أخرى. وفي كل الحالات هو سفير مكلف بأداء مهمة رسمية ويكتب ما يشبه التقرير الرسمي عن هذه المهمة لذا يكبت جماح ذاتيته وقلما يعبر عما يجيش في نفسه بطلاقة.

وقد يعجب السارد بالحفلات الساهرة التي تقام على شرفه في الدور العامة أو الخاصة وقد يسجل اندهاشه [2] للأصوات الرخيمة العذبة والصور الجميلة ولكن في تحفظ شديد.

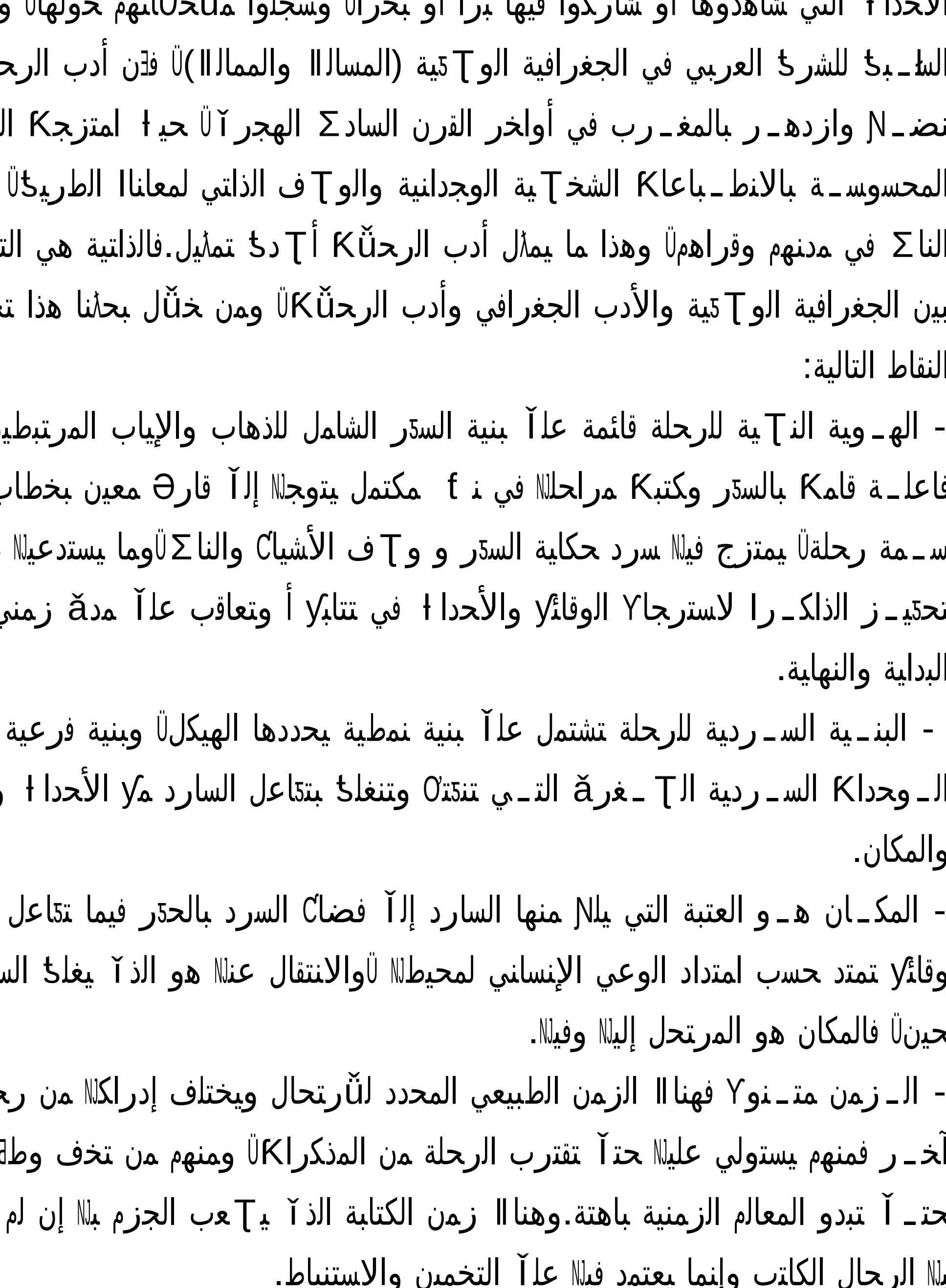
وهكذا تتجلى الوظيفة التعبيرية الكاشفة عن ذوات الساردين في مرئياتهم ومسموعاتهم في انفعالاتهم الخاصة أو العامة وفي التعبير عن وجدانهم العقائدية أو القومية أو الأسرية أو في مراكز الاهتمام الثقافي والمعرفي أو التعلق بالأشخاص والأماكن والأشياء وفي كل المشاعر الخاصة بالموتى والأحياء ونحو الآخر من غير بني جنسهم ودينهم فالكشف عن الوظيفة التعبيرية والانطباعية وتتبعها بمثابة مسبر في عمق الذات وأحلامها وآمالها ومحابها ومكارهها إنه رحلة في الوعي واللاوعي في المصرح به والمسكوت عنه وفي المتماهي مع غيره وبحث في مقاصد الخطاب.

إن السارد باعتباره أداة فنية يقدم لنا سردا لمادة حكائية وصفية من خلال وجهة نظره ونحن إذ ندرس الرحلات نتخذ زاوية النظر هذه منفذا إلى عالم المادة المسرودة وذات السارد نفسه وقد تجلت لنا كثير من الخصائص الذاتية والموضوعية فيما سبق من فقرات الفصل وهي خصائص عامة تحدد الآليات التي يبنى عبرها النص لتكون خطابا منسجما وعالما دلاليا.

الخاتمة

(1) – المرجع السابق ص: 96-97.

(2) – نفسه ص: 70.



تدخل هذه الدراسة ضمن أدب الرحلة الذي ألف الدارسون إطلاقه على كثير من كتابات الرحالين العرب والمسلمين والتي يدونون فيها البلدان والسكان ويضمنونها كثيرا من الأحداث التي شاهدوها أو شاركوا فيها برا أو بحرا، وسجلوا ملاحظاتهم حولها، وإذا كان السبق للشرق العربي في الجغرافية الوصفية (المسالك والممالك)، فإن أدب الرحلة قد نضج وازدهر بالمغرب في أواخر القرن السادس الهجري، حيث امتزجت المرئيات المحسوسة بالانطباعات الشخصية الوجدانية والوصف الذاتي لمعاناة الطريق، بأحوال الناس في مدنهم وقراهم، وهذا ما يمثل أدب الرحلة أصدق تمثيل. فالذاتية هي التي تميز بين الجغرافية الوصفية والأدب الجغرافي وأدب الرحلة، ومن خلال بحثنا هذا تجلت لنا النقاط التالية:

- الهوية النصية للرحلة قائمة على بنية السفر الشامل للذهاب والإياب المرتبطين بذات فاعلة قامت بالسفر وكتبت مراحله في نص مكتمل يتوجه إلى قارئ معين بخطاب يحمل سمة رحلة، يمتزج فيه سرد حكاية السفر ووصف الأشياء والناس، وما يستدعيه ذلك من تحفيز الذاكرة لاسترجاع الوقائع والأحداث في تتابع أو تعاقب على مدة زمنية تحدده البداية والنهاية.

- البنية السردية للرحلة تشتمل على بنية نمطية يحددها الهيكل، وبنية فرعية تحددها الوحدات السردية الصغرى التي تنتظم وتنعقد بتفاعل السارد مع الأحداث والزمان والمكان.

- المكان هو العتبة التي يلج منها السارد إلى فضاء السرد بالحفر فيما تفاعل فيه من وقائع تمتد حسب امتداد الوعي الإنساني لمحيطه، والانتقال عنه هو الذي يعلق السرد إلى حين، فالمكان هو المرتحل إليه وفيه.

- الزمن متنوع فهناك الزمن الطبيعي المحدد للارتحال ويختلف إدراكه من رحال إلى آخر فمنهم يستولي عليه حتى تقترب الرحلة من المذكرات، ومنهم من تخف وطأته عليه حتى تبدو المعالم الزمنية باهتة. وهناك زمن الكتابة الذي يصعب الجزم به إن لم يصرح به الرحال الكاتب وإنما يعتمد فيه على التخمين والاستنباط.



وهنا التشكيل الزمني في النص الرحلي الذي يتجلى بمظهرين أحدهما أفقي و تجسده حركة الرحال من نقطة البدء إلى الانتهاء، وثانيهما زمن النص التي تمثله الوحدات وهو قائم على التقديم والتأخير وقد يخضع للتتابع والتعاقب والتناوب وقد يتحرر منها.

أما الحركة الإيقاعية فتتراوح بين الاعتدال في الوصف وسرد الأحداث والأقوال بواسطة التلخيص، وكما الشديد عن طريق الاستطراد الكثير، ونقل الكتب والرسائل إلى السرعة العالية حين الحذف والسكوت عن الأفعال والأقوال.

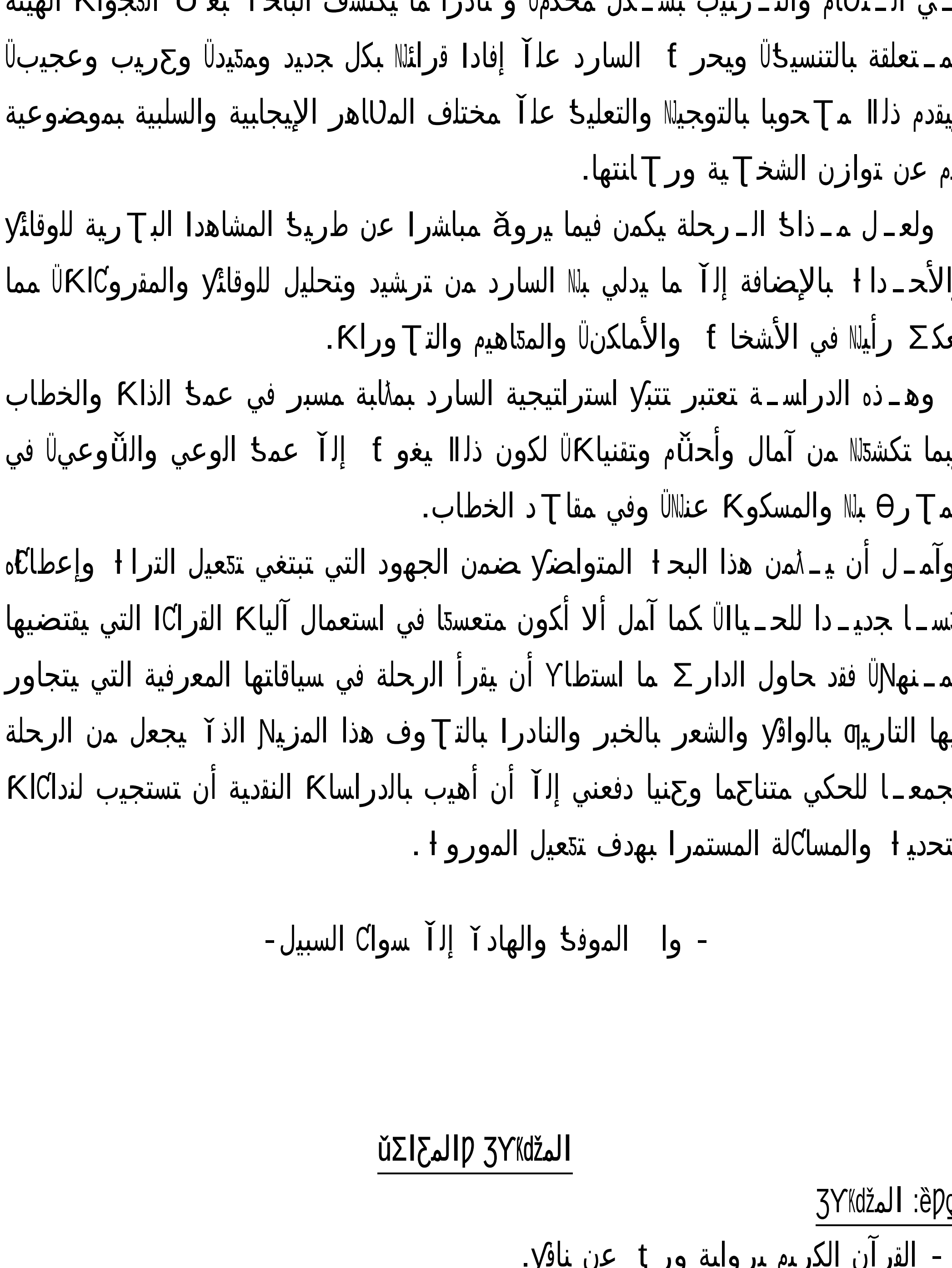
- كتب الرحلات باعتبارها مذكرات شخصيات الرحالين تمثل وعي عصرها والشاهد على ما فيه من أحداث، كما تكشف عن ميول الشخصيات. و تحليل الرحلات يكشف عن طبيعة النصوص التي تحمل دلالات أدبية ودينية وعلمية واجتماعية وثقافية وتاريخية، وكل نص من هذه النصوص يحمل علامة مميزة له.

- بعض الرحلات اكتملت فيها العناصر التخييلية والإبداعية وصارت نموذجا للمحاكاة، في حين يحاكي بعضها الآخر غيره في القص والخطاب.

- على مستوى الخطاب تبين لنا امتزاج السرد والوصف وكونهما يتبادلان الأدوارفي مواطن كثيرة، أما الأسلوب المباشر فقليل إلا فيما ينقل من أقوال مروية أو مكتوبة لكون الحوار بين الشخصيات نادر.

الرحلة حركية في هويتها حركية في علاقتها مع غيرها، لها علاقة بالسيرة الذاتية والتراجم ومختلف أشكال التعبير اللغوي. وتستقطب كثيرا من أنواع الخطاب المكتوب والشفوي بأبعادها النوعية والدلالية، ومن هنا يمكن مساءلتها من مواقع متعددة، ولها قدر رحب في تقبل المزيد من الأسئلة حول البنية الفكرية والاجتماعية والحضارية، وغيرها، مما يجعلنا نهيب بالدارسين أن يقبلوا على الرحلة بمزيد من الدرس وبرؤى أكثر تنوعا وأكثر جرأة، إذ كلما تعدد السؤال تعددت الأجوبة.

- سارد الرحلات راو داخلي يشارك من داخل العمل السردي وكل ما يقدم يمر على قناته ومن خلال رؤاه وتندغم فيه الشخصية والمؤلف ويسيطر على النص سيطرة تامة، وحتى حين يتحول إلى مسرود له لا يتخلى عن الوظيفة السردية ومجمل استراتيجيته تعمل على إيصال المعرفة والمتعة الفنية للقارئ بشكل منسق يثير الانتباه ويستعمل من التقنيات ما



يمتن به الثقة بينه وبين قارئه المتوقع وهو على دراية بما سيقدمه سابق ولاحقا ويتصرف في النظام والترتيب بشكل محكم و نادرا ما يكتشف الباحث التجوال الهينة المتعلقة بالتنسيق ويحرص السارد على إفادة قرائه بكل جديد ومفيد وغريب وعجيب ويقدم ذلك مصحوبا بالتوجيه والتعليق على مختلف المظاهر الإيجابية والسلبية بموضوعية تنم عن توازن الشخصية ورصانتها.

ولعل ميزة الرحلة يكمن فيما يرويه مباشرا عن طريق المشاهدة البصرية للوقائع والأحداث بالإضافة إلى ما يدلي به السارد من ترشيد وتحليل للوقائع والمقروءات مما يعكس رأيه في الأشخاص والأماكن والمفاهيم والتصورات.

وهذه الدراسة تعتبر تتبع استراتيجية السارد بمثابة مسبر في عمق الذات والخطاب وبما تكشفه من آمال وأحلام وتقنيات لكون ذلك يغوص إلى عمق الوعي واللاوعي في المضمر به والمسكوت عنه وفي مقاصد الخطاب.

وآمل أن يكون هذا البحث المتواضع ضمن الجهود التي تبتغي تفعيل التراث وإعطاءه نفسا جديدا للحياة كما آمل ألا أكون متعسفا في استعمال آليات القراءة التي يقتضيها المنهج فقد حاول الدارس ما استطاع أن يقرأ الرحلة في سياقاتها المعرفية التي يتجاور فيها التاريخ بالواقع والشعر بالخبر والنادر بالتصوف هذا المزيج الذي يجعل من الرحلة مجمعا للحكي متناغما وغنيا دفعني إلى أن أهيب بالدراسات النقدية أن تستجيب لنداءات التحديث والمساءلة المستمرة بهدف تفعيل الموروث.

- والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل-

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1. أحمد بن عمار. نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. مطبعة فونتانا. الجزائر. سنة 1320هـ/1902م.
2. أحمد بن هطال. رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري. تحقيق: محمد عبد الكريم. عالم الكتب. القاهرة. ط1، سنة1969م.
3. ابن بطوطة أبو عبد الله محمد. رحلة ابن بطوطة. تقديم كرم البستاني. دار بيروت للطباعة. سنة 1960م.
4. ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد. رحلة ابن جبير. تقديم: محمد مصطفى زيادة. دار الكتاب اللبناني. بيروت/ دار الكتاب المصري، ط[illegible]، سنة [illegible].
5. ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري. رحلة ابن حمادوش. تحقيق: أبو القاسم سعد الله. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الرغاية، الجزائر، ط[illegible]، سنة 1983م.
6. ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا. دار الكتاب اللبناني/ دار الكتاب المصري، ط[illegible]، سنة1979م.
7. ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. المقدمة. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
8. ابن رشيد السبتي. ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين: مكة وطيبة. ج2. تحقيق د. محمد الحبيب ابن الخوجة. الدار التونسية للنشر. سنة 1402هـ/1982م.
9. ابن زاكور أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي. نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان. مطبعة فونتانة. الجزائر. سنة 1319هـ/1902م.
10. ابن فضلان. رسالة ابن فضلان. تحقيق: حيدر محمد غيبة. الشركة العالمية/مكتبة المدرسة. ط1، سنة1414هـ/1994م.
11. ابن قنفذ أبو العباس أحمد الخطيب. أنس الفقير وعز الحقير. تصحيح محمد الفاسي وأدولف. منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط جامعة محمد الخامس. ط[illegible]، سنة 1965م.
12. التجاني أبو محمد عبد الله. رحلة التجاني. تقديم حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية. تونس، سنة 1377هـ/ 1958م.

13. التجيبي أبو القاسم بن يوسف السبتي. مستفاد الرحلة والاغتراب. تحقيق: عبد الحفيظ منصور. الشركة التونسية لفنون الرسم. ط. سنة 1975م.

14. خالد بن عيسى البلوي. تاج المفرق في تحلية علماء المشرق. تحقيق: الحسن السائح. ندوة إحياء التراث الإسلامي. المغرب/ الإمارات (جزآن). ط. سنة

15. الدرعي أحمد بن ناصر. الرحلة الناصرية. نسخة خزانة كلية الآداب. الرباط. رقم: م.ج 91305613 / درع.

16. الزياني أبو القاسم. الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. تحقيق وتعليق: عبد الكريم الفلالي. مطبعة فضالة المحمدية. المغرب، ط. أوت 1967م.

17. السنوسي محمد. الرحلة الحجازية. تحقيق علي الشنوفي. الشركة التونسية للتوزيع. ط. سنة 1996م.

18. العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد الحيحي. الرحلة المغربية. تحقيق: محمد الفاسي. جامعة محمد الخامس. الرباط، ط. سنة 1968م.

19. العياشي أبو سالم سيدي عبد الله. الرحلة العياشية ماء الموائد. جزآن. تصحيح: خليل بن عمر الحسني الخالدي. ط1، فاس، سنة 1316هـ.

20. العياشي أبو سالم سيدي عبد الله. الرحلة العياشية ماء الموائد. مصورة بالأوفسيط. ط2، الرباط، سنة 1997م

21. الغزال أحمد بن المهدي. نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد. تحقيق: إسماعيل العربي. الجزائر، ط. سنة

22. الغزالي أبو حامد. إحياء علوم الدين. دار القلم. بيروت.

23. الغساني محمد ابن عبد الوهاب، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تحقيق وتعليق ألفريد البستاني. منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو. مدريد، سنة 1940م

24. القلصادي أبو الحسن علي. تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب. تحقيق: محمد أبو الأجفان. الدار التونسية للتوزيع، ط. سنة1985م.

25. المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية دار المعارف. مصر (جزآن)، ط2، سنة 1393 هـ/1973م.

26. المكناسي محمد بن عثمان. الإكسير في فكاك الأسير. تحقيق: محمد الفاسي. المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط، ط، سنة1956م.
27. النميـر ابـن الحـاج. فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسـنطينة والزاب. تحقيق: محمـد بن شقرون. دار الغرب الإسلامي. بيروت، ط1، سنة 1990م.
28. الورثيلانـي الحسـين بـن محمـد. نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. تصحيح: محمد بن أبي شنب. دار الكتاب اللبناني. مصورا عن طباعة فونتانة. الجزائر، ط، سنة 1326هـ/ 1908م.
29. الوردانـي أبـو سالم علي. الرحلة الأندلسية. تحقيق: عبد الجبار الشريف. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، ط، سنة ،

ثانيا: المراجع:

30. د. إبراهيم أحمد العدوي. ابن بطوطة في العالم الإسلامي. دار المعارف بمصر. ط3. سنة 1983م.
31. إحسـان عـباس. فـن السيرة. دار صادر. بيروت./دار الشروق. عمان. ط1. سنة 1996م.
32. أحمد العاقد. تحليل الخطاب الصحفي. من اللغة إلى السلطة. دار الثقافة للنشر. الدار البيضاء، ط1، سنة2002م.
33. أمبـرتو إيكـو. القارئ في الحكاية. التعاضد التأويلي. في النصوص الحكائية. تر: أنطوان أبو زيد. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط1، سنة 1996م.
34. أيمن بكر. السرد في مقامات الهمذاني. الهيئة المصرية العامة للكتاب (دراسات أدبية) ط ، سنة 1998م.
35. باختـين ميخائـيل. الخطاب الروائي. تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. القاهرة/ باريس، ط1، سنة1987م.
36. بـدر بدر عثمان. بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ. دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان، ط1، سنة 1986م.

37. بـراون. ج.ب. ج يـول. تحليـل الخطاب. تر: محمد لطفي الزليطي. محمد منير التريكي. جامعة الملك سعود. الرياض، سنة 1418هـ/1997م.

38. بـرنار فاليط. النص الروائي. تقنيات ومناهج. تر: رشيد بن حدو. المجلس الأعلى للثقافة. الهيئة العامة للمطابع الأميرية. ط، þ سنة 1999م.

39. تزفيتان تودوروف. الأدب والدلالة. تر: محمد نديم خشفة. مركز الإنماء الحضاري. حلب. ط1، سنة1996م.

40. تـزفيتان تـودوروف. الشـعرية. تر: شكري المبخوت. ورجاء بن سلامة. سلسلة المعرفة الأدبية. مطبعة فضالة. - المحمدية- المغرب، ط1، سنة 1972م

41. جـان ريكـاردو. قضايا الرواية الحديثة. تر: صياح الجهيم، منشورات دار الثقافة. بيروت. لبنان، طþ، سنة 1406هـ/ 1986م.

42. جورج بيريك. فصائل الفضاءات. تر: عبد الكبير الشرقاوي. دار توبقال للنشر. ط1 سنة2000م.

43. جيـرار جينـيت. خطاب الحكاية(بحث في المنهج) تر: محمد معتصم. عبد الجليل الأزدي.عمر حلي. المجلس الأعلى للثقافة.الهيئة العامة للمطابع الأميرية.ط2،سنة1997م.

44. حسـن بحـراوي. بنية الشكل الروائي. الفضاء. الزمن. الشخصية. المركز الثقافي العربي. بيروت/ الدار البيضاء، ط1، سنة 1990م.

45. الحسـن الشـاهدي. أدب الـرحلة بالمغرب في العصر المريني.(جزآن) منشورات عكاظ. المغرب، ط، þ سنة þ.

46. حسـن محمود حسن. أدب الرحلات عند أمين الريحاني. رسالة ماجستير. بإشراف شكري عياد. كلية الآداب، جامعة القاهرة، مايو 1969م.

47. حسـن نجمي. شعرية الفضاء المتخيل. والهوية في الرواية العربية. المركز الثقافي العربي. بيروت/ الدار البيضاء، ط1، سنة 2000م.

48. حسين فوزي. حديث السندباد القديم. دار الكتاب اللبناني. دار الكتاب المصري. ط، þ سنة1977م.

49. د. حسـين محمد فهيم. أدب الرحŬŔ(عالم المعرفة) المجلΣ الأعلٓ للثقافة والفنون. الكويŔ. طÞÜ سنة 1409هـ/ 1989م.

50. حسـين نـŢ ـار. أدب الرحلـة. مكتبة لبنان/ الشركة المŢ رية العالمية لونجمان. ط1. سنة1991م.

51.حميد لحمداني. بنية النƒ السردٓ. من منƲور النقد الأدبي. المركز الثقافي العربي. ط1. سنة1991م.

52. حميد لحمداني. القراƠ وتوليد الدلالة.(تغيير عاداتنا في قراƠ النƒ الأدبي). المركز الثقافي. الدار البيضاƠ/ المغربÜ ط1Ü سنة2003م.

53. رشـيد الإدريسـي. سـيـمياƠ التƋويل(الحريرٓ بين العبارا والإشـارا) شركـة النشر والتوزيƴ- المدارΣÜ الدار البيضاƠÜ ط1Ü سنة 1421هـ/2000م.

54. روجـز هيـنكل. قراƠ الرواية.(مدخل إلٓ تقنياŔ التفسير) تر: ŢŬθ رزق. دار الآدابÜ ط1Ü سنة 1995م.

55. د.زكـٓ محمد حسن. الرحالة المسلمون في العŢور الوسطٓ. دار الرائد العربي. بيروŔ ط1Ü سنة 1995مÜ سنة 1401هـ/ 1981م.

56. ستانلي هايمن. النقد الأدبي ومدارسƌ الحديثة. تر:إحسان عباΣ. دار الثقافة. بيروŔÜ طÞ سنة Þ (جزآن في مجلد واحد).

57.سـامـي سويدان. فـن دلالية القŢƒ وشعرية السـرد. دار الآداب. بيروŔÜ ط1Ü سنة 1991م.

58. سعد ا أبو القاسم . تجارب في الأدب والرحلة. الم�araسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ط Þ سنة 1983م.

59. السعيـد بنكراد. النƒ السردٓ نحو سيميائياŔ للƋيديولوجيا. دار الأمان الرباط. ط 1Ü سنة1996م.

60. السـعيد بوطاجـين. الاشتغال العاملي. دراسة سيميائية. منشوراŔ الاختƜفÜ ط1Ü أكتوبر2000م.

61. سعيد الوكيل. تحليل النص السردي معارج ابن عربي نموذجا. سلسلة دراسات أدبية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط، سنة 1998م.

62. سعيد يقطين. الكلام والخبر. مقدمة للسرد العربي. المركز الثقافي العربي. ط1، سنة 1997م.

63. سعيد يقطين. تحليل الخطاب الروائي (الزمن- السرد- التبئير) المركز الثقافي العربي. بيروت/ الدار البيضاء، ط3، سنة 1997م.

64. سعيد يقطين. الرواية والتراث السردي. المركز الثقافي العربي. بيروت/ الدار البيضاء. ط1، سنة1992م.

65. سمير المرزوقي. جميل شاكر. مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا. الدار التونسية للنشر/ ديوان المطبوعات الجزائرية، ط، سنة

66. السيد إبراهيم. نظرية الرواية. دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط، سنة 1998م.

67. سيد حامد النساج. مشوار كتب الرحلة(قديما وحديثا)مكتبة غريب، القاهرة، ط، سنة

68. سيزا قاسم. بناء الرواية. دراسة مقارنة. ثلاثية نجيب محفوظ، سلسلة دراسات أدبية. الهيئة العامة للكتاب، ط، سنة 1984م.

69. شعيب (بو) حليفي. الرحلة في الأدب العربي(أطروحة دكتوراه دولة) بإشراف: د.عبد الله علوي مدغري. و د.إدريس بلمليح، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. الدار البيضاء. جامعة الحسن الثاني. المغرب(سنة1419هـ/1420هـ)(1998م/1999م)

70. شعيب حليفي. الرحلة في الأدب العربي. دار القرويين. الدار البيضاء. المغرب، ط2 سنة 2003م.

71. شعيب حليفي. شعرية الرواية الفانتاستيكية. المجلس الأعلى للثقافة. ط، سنة1997م.

72. شاكر خصباك. ابن بطوطة ورحلته. دار الآداب. بيروت، ط، سنة

73. شلوميث ريمون كنعان. الشعرية المعاصرة التخييل القصصي. تر: لحسن أحمامة. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء، المغرب، ط، سنة .

74. شوقي ضيف. الرحلات. دار المعارف (سلسلة فنون الأدب العربي، الفن القصصي) ط1 سنة 1956م.

75. صدوق نور الدين. سير المفكرين الذاتية. المركز الثقافي العربي. ط1، سنة 2000م.

76. صلاح الدين الشامي. الرحلة عين الجغرافية المبصرة. منشأة المعارف بالإسكندرية. ط[illegible] سنة[illegible]

77. صلاح صالح. قضايا المكان في الأدب المعاصر (من دراسات ثقافية عربية). دار شرقيات للنشر والتوزيع. ط[illegible] سنة 1997م.

78. صلاح فضل. بلاغة الخطاب وعلم النص. الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان. ط1، سنة 1996م.

79. الطائع الحداوي. في معنى القراءة. قراءات في تلقي النص. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء، ط1، سنة 1999م.

80. عبد الرحيم مودن. مستويات السرد في الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر (أطروحة دكتوراه دولة) بإشراف: أحمد الطريسي أعراب. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط، جامعة محمد الخامس. سنة 1994- 1995م.

81. عبد الرحيم مودن. أدبية الرحلة. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء، ط1، سنة 1417هـ/1996م.

82. عبد العزيز شرف. أدب السيرة الذاتية. مكتبة لبنان. الشركة المصرية العالمية لونجمان، ط1، سنة 1992م.

83. عبد الفتاح كيليطو. المقامات. السرد والأنساق الثقافية. تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، سنة 1993م.

84. عبد الفتاح كيليطو. الأدب والغرابة. دراسة بنيوية في الأدب العربي. دار الطليعة، بيروت، ط3، نوفمبر 1997م.

85. عبد القادر الشاوي. الكتابة والوجود. السيرة الذاتية في المغرب. إفريقيا الشرق. المغرب، لبنان، ط[illegible] ديسمبر 1999م.

86. عـبد الله إبراهيم. السردية العربية. المؤسسة العربية للـدراسات والنشر. بـيروت، ط2، سنة 2000م.

87. عـبد الله إبـراهيم. المتخـيل السردي. مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة. المركز الثقافي، ط1، حزيران 1990م.

88. عـبد المالـك مـرتاض. في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط2، شعبان1419هـ، ديسمبر1998م.

89. عـبد الـوهاب الرقيق. وهند بن صالح. أدبية الرحلة في رسالة الغفران، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، جانفي1999م.

90. عـثمان موافـي. لـون من أدب الرحلات (دراسة نقدية)، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط2، سنة 1973م.

91. علي يحيى معمر. الإباضية. في موكب التاريخ. الإباضية في الجزائر. مكتبة وهبة. القاهرة، ط1، سنة 1399هـ/ 1979م.

92. عواطـف محمـد يوسف نواب. الرحلات المغربية والأندلسية. مصدر من مصادر تـاريخ الحجـاز في القرنين السابع والثامن الهجريين (دراسة تحليلية)، رسالة ماجستير. علي إشراف: فواز علي بن جنيدب الدهاس. كلية الشريعة. 480هـ/ 1960م.

93. عمـر بـن قيـنة. اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة (رسالة دكتوراه)، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، ط2، سنة 1995م.

94. غاسـتون باشلار. جدلية الزمن. تر: خليل أحمد خليل. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، ط 1982م.

95. غاستون باشلار. جماليات المكان. تر: غالب هلسا، الدار، ط2، [illegible]

96. فرد. ب. ميليت، فن المسرحية. تر: صدقي حطاب. دار الثقافة. بيروت، لبنان، ط2، سنة 1406هـ/1986م.

97. فلاديميـر بـروب. مـرفولوجية القصة. عبد الكـريم حسن. د. سمـيرا بن عمر. شراع للدراسات والنشر والتوزيع. دمشق. ط1، سنة 1416هـ/ 1996م.

98. فيليب لوجون. السيرة الذاتية. الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي. المركز الثقافي العربي. بيروت/ الدار البيضاء، ط1، سنة 1994م.

99. فيليب هامون. سيميولوجية الشخصيات الروائية. تر:سعيد بنكراد. دار الكلام الرباط، لبنان ط1، سنة 1990م.

100. كراتشكوفسكي. أغناطيوس يوليانوفيتش. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. تر: صلاح الدين عثمان. لجنة التأليف والترجمة والنشر. جامعة الدول العربية. ط3، سنة1963م، (قسمان)

101. مجموعة من المؤلفين. الفضاء الروائي. تر: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق. بيروت. لبنان، ط1، سنة 2002م.

102. مجموعة من المؤلفين. طرائق تحليل السرد الأدبي. منشورات اتحاد كتاب المغرب (سلسلة ملفات 1/1992) ط1. الرباط. سنة 1992م.

103. مجموعة من المؤلفين. مفهومات في بنية النص. تر: وائل بركات. دار معد للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق، ط1، سنة 1996م.

104. مجموعة من المؤلفين. في أصول الخطاب النقدي الجديد. تر: أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد، ط1، سنة1987م.

105. مجموعة من المؤلفين. نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. تر: ناجي مصطفى، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط1، سنة1989م.

106. مجموعة من المؤلفين. نظرية التلقي، إشكالات وتطبيقات. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.جامعة محمد الخامس.الشركة المغربية للطباعة والنشر. الرباط. ط1، سنة

107. محسن جاسم الموسوي. سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، سنة 1997م.

108. مراد عبد الرحمن. بناء الزمن. في الرواية المعاصرة (دراسة أدبية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط1، سنة 1998م.

109. محمد رداوي. الرحلات المغربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم المعاصر (دراسة نصوص)، مكتبة الملك فهد. مطابع الترزدك التجارية. الرباط، ط1، سنة1995م.

110. محمد عز الدين التازي. السرد في روايات محمد زفزاف، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد/ دار النشر المغربية، طبعة خاصة بالعراق ليست للتصدير، ط1، 1س.

111. محمد الناصر العجيمي. في الخطاب السردي، نظرية قريماس. الدار العربية للكتاب، ط1 سنة 1993م.

112. محمود البستاني. الإسلام والفن. مجمع البحوث الإسلامية. إيران. ط1، سنة1409 هـ.

113. مندولا (أ.أ.). الزمن في الرواية. تر: بكر عباس. دار صادر. بيروت، ط1، سنة 1997م.

114. ميشال بوتور. بحوث في الرواية الجديدة. تر: فريد أنطوني. منشورات عويدات. بيروت/ باريس. ط2، سنة 1982م.

115. ناصر عبد الرزاق الموافي. السرد القصصي في نثر القرن الرابع الهجري. رسالة دكتوراه بإشراف: أ. د. محمود علي مكي، و أ. د. طه وادي، جامعة القاهرة. قسم اللغة العربية وآدابها، ط1، سنة 1415هـ/1994م.

116.ناصر عبد الرزاق الموافي. القصة العربية...عصر الإبداع (دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري)، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الوفاء للطباعة والنشر. ط2، سنة 1416هـ/1996م.

117. ناصر عبد الرزاق الموافي. الرحلة في الأدب العربي. حتى نهاية القرن الرابع الهجري. دار النشر للجامعات المصرية. مكتبة الوفاء. ط1، سنة 1415هـ/1995م.

118. نيقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب. دار الكتاب اللبناني/ دار الكتاب المصري، ط1، سنة1977م.

119. هانزميرهوف. الزمن في الأدب. تر: أسعد رزوق، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. القاهرة/ نيويورك، طبعة سنة 1972م.

120. والاس مارتن. نظريات السرد الحديثة. تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة 36، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، طبعة سنة 1998م.

121. يوريسي أوسبانسكي. شعرية التأليف. بنية النص الفني وأنماط الشكل التأليفي. تر: سعيد الغانمي. ناصر حلاوي. المجلس الأعلى للثقافة، طبعة سنة [illegible].

[illegible]: الدوريات

122. عالم الفكر. وزارة الإعلام. الكويت. - م17، ع4، سنة1987.

- م13، ع4، مارس1983.

123. مجلة ديوجين "مضبات الفكر" المجلس الأعلى الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية منظمة اليونيسكو، ع96-152 (دت).

124. مجلة الهلال. دار الهلال. مصر. عدد يوليو1975، (عدد خاص بالرحلات).

125. مجلة فكر ونقد. الرباط. السنة الأولى. ع2، 1979م.

126. مجلة المورد. وزارة الإعلام والثقافة.العراق، المجلد18.ع4. سنة1410هـ/1989م

127.مجلة تراث الإنسانية. المجلد الأول ع9. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. مارس1963م.

128. مجلة الأدب الإسلامي (رابطة الأدب الإسلامي العالمية)، مطابع مؤسسة الرسالة بيروت، المجلد الأول،ع3، سنة[illegible]

129. المجلة. القاهرة. السنة 4،العدد 44، أوت1960.

130. مجلة المنعطف. وجدة/المغرب، العدد 6،7، سنة1414هـ/1993م.

131. مجلة الفيصل. الرياض/السعودية/ نسخة الأولى م3، ع9، سنة 1398/1978م.

132. مجلة العرب والفكر العالمي. مركز الإنماء القوميين العدد9، شتاء1990م.

- العدد5، شتاء1989م. - العدد10، ربيع1990م.

133. مجلة فصول. م11، ع4، شتاء1993م.

[illegible]
